سورة الحج

سبعون وست آيات وهي مكية إلا ثلاث آيات ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ - إلى قوله - ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقي كل محرَّم ويتقي ترك كل واجب، وإنما دخل فيه الأمران؛ لأن المتقي إنما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى؛ فيدع لأجله المحرَّم ويفعل لأجله الواجب، ولا يكاد يدخل فيه النوافل لأن المكلف لا يخاف بتركها العذاب، وإنما يرجو بفعلها الثواب فإذا قال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ فالمراد اتقوا عذاب ربكم.

أما قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الزلزلة شدة حركة الشيء، قال صاحب الكشاف: ولا تخلو الساعة من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي؛ فتكون الزلزلة مصدرًا مضافًا إلى فاعله، أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣] وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

المسألة الثانية: اختلفوا في وقتها فعن علقمة، والشعبي أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا، وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها. وقيل: هي التي تكون معها الساعة. وروي عن رسول الله ﷺ في حديث الصور «**إِنَّهُ قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ: نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وَنَفْخَةُ الصَّعْقَةِ، وَنَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّ عِنْدَ نَفْخَةِ الْفَزَعِ يُسَيِّرُ اللَّهُ الْجِبَالَ وَتَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ، أَوْ كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلَّقِ تُرَجْرِجُهُ الرِّيَاحُ**»(١) وقال مقاتل وابن زيد: هذا في أول يوم من أيام الآخرة. واعلم أنه ليس في اللفظ دلالة على شيء من هذه الأقسام؛ لأن هذه الإضافة تصح وإن كانت الزلزلة قبلها، وتكون

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن راهويه في (مسنده) (١/ ٨٤/ ١٠) من طريق محمد بن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب العرفي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة... به، أبو الشيخ في (العظمة) (٣/ ٨٢١)، حديث رقم (٣٨٦) من طريق عبدة بن سليمان الرواسي حدثنا إسماعيل بن رافع، عن محمد بن يزيد، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة... به، وابن أبي الدنيا في (الأهوال) (١/ ٥٧)، حديث رقم (٥٤) من طريق محمد بن يزيد بن أبي زياد... به، الطبري في (تفسيره) (١٨/ ١٢٢) من طريق إسماعيل بن رافع العرفي، =

من أماراتها وأشراطها، وتصح إذا كانت فيها ومعها، كقولنا: آيات الساعة، وأمارات الساعة.

المسألة الثالثة: روى أن هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون، فنادى رسول الله ﷺ فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم، فلم ير باكيًا أكثر من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور، والناس بين باك وجالس حزين متفكر. فقال عليه السلام: «أَتَدْرُونَ أَيَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذَلِكَ يَوْمٌ يَقُولُ اللَّهُ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ: قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ وَلَدِكَ، فَيَقُولُ آدَمُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ يَعْنِي مِنْ كَمْ كَمْ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى؛ فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَبَكَوْا، وَقَالُوا: فَمَنْ يَنْجُو يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: أَبْشِرُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَا فِي قَوْمٍ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، ثم قال: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرُوا، ثم قال: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرُوا وَحَمِدُوا اللَّهَ، ثم قال: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَيْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وعشرون صفا ثمانون منها أُمَّتِي، وَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، ثم قال: وَيَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا إِلَى الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَالَ عُمَرُ: سَبْعُونَ أَلْفًا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: مِثْلَ قَوْلِهِ، فَقَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» فخاض الناس في السبعين ألفًا فقال بعضهم: هم الذين ولدوا على الإسلام، وقال بعضهم: هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله ﷺ فأخبروا رسول الله ﷺ بما قالوا فقال: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَكْوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(١).

المسألة الرابعة: أنه سبحانه أمر الناس بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها

=عن يزيد بن فلان، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة... به، وابن أبي حاتم في (التفسير) (١١/ ٢١٠) من طريق محمد بن شعيب بن شابور أنبأنا أبو رافع المديني إسماعيل بن رافع، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة... به، وابن المقرئ في (معجمه) (٣/ ١٥٢)، حديث رقم (١٠٩٠) من طريق إسماعيل بن رافع، عن محمد بن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة... به، والحديث مداره على محمد بن يزيد بن أبي زياد وهو مجهول وفيه أيضًا من لم يسم.

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٤٢٠)، حديث رقم (٣٩٨٧) من طريق هشام، عن قتادة، عن الحسن... به، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٢١)، حديث رقم (٨٧٢١) من طريق سعيد، عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد عن عمران بن حصين عن عبد الله بن مسعود... به، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأبو يعلى في (مسنده) (٩/ ٢٣١)، حديث رقم (٥٣٣٩) من طريق شيبان، عن قتادة، عن الحسن... به، وجاء أيضًا من طريق هشام، عن الحسن، عن عمران بن حصين... فذكره وليس فيه ابن مسعود، أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٤٣٦)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٥)، حديث رقم (٣٥٦٥)، والروياني في (مسنده) (١/ ١٠٠)، حديث رقم (٧٤)، والطبراني في (الكبير) (١٨/ ١٦٩)، حديث رقم (٣٨٠)، جميعًا من طريق هشام عن الحسن... به.

بأهول صفة، والمعنى أن التقوى تقتضي دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس، ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب، فيلزم أن تكون التقوى واجبة.

المسألة الخامسة: احتجت المعتزلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ وصفها بأنها شيء مع أنها معدومة، واحتجوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] فالشيء الذي قدر الله عليه إما أن يكون موجودًا أو معدومًا، والأول محال وإلا لزم كون القادر قادرًا على إيجاد الموجود، وإذا بطل هذا ثبت أن الشيء الذي قدر الله عليه معدوم، فالمعدوم شيء. واحتجوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣] أطلق اسم الشيء في الحال على ما يصير مفعولاً غدًا، والذي يصير مفعولاً غدًا يكون معدومًا في الحال، فالمعدوم شيء والله أعلم، والجواب: عن الأول أن الزلزلة عبارة عن الأجسام المتحركة وهي جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك في المعدوم محال، فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئًا حال عدمها، فلا بد من التأويل بالاتفاق. ويكون المعنى أنها إذا وجدت صارت شيئًا، وهذا هو الجواب عن البواقي.

المسألة السادسة: وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم مما عظمه الله تعالى. أما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ فهو منصوب بتذهل أي: تذهل في ذلك اليوم والضمير في ترونها يحتمل أن يرجع إلى الزلزلة، وأن يرجع إلى الساعة؛ لتقدم ذكرهما، والأقرب رجوعه إلى الزلزلة؛ لأن مشاهدتها هي التي توجب الخوف الشديد. واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورًا ثلاثة أحدها: قوله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة، فإن قيل: لم قال: مرضعة دون مرضع؟ قلت: المرضعة هي التي في حال الإرضاع وهي ملقمة ثديها الصبي والمرضع شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها؛ نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة، وقوله: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل فتكون (ما) بمعنى (من) على هذا التأويل. وثانيها: قوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ والمعنى: أنها تسقط ولدها لتمام، أو لغير تمام من هول ذلك اليوم، وهذا يدل على أن هذه الزلزلة إنما تكون قبل البعث، قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وألقت الحوامل ما في بطونها لغير تمام، وقال القفال: يحتمل أن يقال: من ماتت حاملاً أو مرضعة تبعث حاملاً أو مرضعة تضع حملها من الفزع، ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وثالثها: قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (وتُري) بالضم تقول: أريتك قائمًا، أو رأيتك قائمًا، والناس بالنصب

والرفع، أما النصب فظاهر، وأما الرفع؛ فلأنه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله، وأنثه على تأويل الجماعة، وقرىء: (سكرى) و(سكارى)، وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان، سَكارى وسُكارى نحو كسالى وعجالى، وعن الأعمش: سَكرى وسُكرى بالضم وهو غريب.

المسألة الثانية: المعنى وتراهم سكارى على التشبيه ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ على التحقيق، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطيّر تمييزهم، وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب، فإن قلت: لم قيل أولا: (تَرَوْنَ) ثم قيل: (تَرَى) على الإفراد؟ قلنا: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعًا رائين لها، وهي معلقة آخرًا بكون الناس على حال من السكر، فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم.

المسألة الثالثة: إن قيل: أتقولون إن شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد، أو لأهل النار خاصة؟ قلنا: قال قوم: إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار، وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون. وقيل: بل يحصل للكل؛ لأنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، وليس لأحد عليه حق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجهان: الأول: أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها، ودعا الناس إلى تقوى الله، ثم بيَّن في هذه الآية قومًا من الناس الذين ذكروا في الأول، وأخبر عن مجادلتهم. الثاني: أنه تعالى بيَّن أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها، فإن من الناس من يجادل في الله بغير علم، ثم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وجهان: الأول: أنهم الذين ينكرون البعث، ويدل عليه قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] إلى آخر الآية. وأيضًا فإن ما قبل هذه الآية وصف البعث وما بعدها في الدلالة على البعث؛ فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة في البعث، والثاني: أنها نزلت في النضر بن الحرث، كان يكذِّب بالقرآن ويزعم أنه أساطير الأولين، ويقول: ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

المسألة الثانية: هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة؛ لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزخرف: ٥٨] والمجادلة الحقة هي المراد من قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ قولان: أحدهما: يجوز أن يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر. والثاني: أن يكون المراد بذلك إبليس وجنوده، قال الزجاج: المريد والمارد المرتفع الأملس، يقال: صخرة مرداء أي ملساء، ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز حد مثله.

أما قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أن الكتبة عليه مثل، أي: كأنما كتب إضلال من عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله.

والثاني: كتب عليه في أم الكتاب، واعلم أن هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان، يحتمل أن يكون راجعًا إلى كل واحد منهما، فإن رجع إلى من يجادل فإنه يرجع إلى لفظه الذي هو موحد، فكأنه قال كتب: على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار. وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال: كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلاً لهذا الوعيد، فإن رجع إلى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال. وعلى هذا الوجه أيضًا يكون زجرًا عن اتباعه **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال القاضي عبد الجبار: إذا قيل: المراد بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضى عليه فلا جائز أن يرد إلا إلى من يتبع الشيطان؛ لأنه تعالى لا يجوز أن يقضي على الشيطان أنه يضل، ويجوز أن يقضي على من يقبله بقوله: قد أضله عن الجنة وهداه إلى النار. قال أصحابنا رحمهم الله: لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبًا، وذلك محال ومستلزم المحال محال، فكان لا وقوعه محالاً.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن المجادل في الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب، فيدل على أن المعارف ليست ضرورية.

المسألة الثالثة: قال القاضي: فيه دلالة على أن المجادلة في الله ليست من خلق الله تعالى وبإرادته، وإلا لما كانت مضافة إلى اتباع الشيطان، وكان لا يصح القول بأن الشيطان يضله، بل كان الله تعالى قد أضله، والجواب: المعارضة بمسألة العلم وبمسألة الداعي.

المسألة الرابعة: قرىء (أَنَّهُ) بالفتح والكسر، فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب والثاني عطف عليه، ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام، كما يقول: كتبت أن الله هو الغني الحميد، أو على تقدير قيل، أو على أن كتب فيه معنى القول.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟

أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾

القراءة: قرأ الحسن (مِنَ الْبَعَثِ) بالتحريك ونظيره الحَلَب والطَرَد في الحَلْب وفي الطَرْد، و(مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) بجر التاء والراء، وقرأ ابن أبي عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون في قوله: (لِنُبَيِّنَ) وفي قوله: (وَنُقِرُّ) وفي قوله: (نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) ابن أبي عبلة بالياء في هذه الثلاثة، أما القراءة بالنون ففيها وجوه: أحدها: القراءة المشهورة، وثانيها: روى السيرافي، عن داود، عن يعقوب (ونَقُرُّ) بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء إذا صبه، وفي رواية أخرى عنه كذلك إلا أنه بنصب الراء وثالثها: (ونقر)، و(نخرجكم) بنصب الراء والجيم، أما القراءة بالياء ففيها وجوه: أحدها: يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم، وثانيها: يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم، وثالثها: بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء أبو حاتم (وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى) بفتح الياء أي: يتوفاه الله تعالى ابن عمرة والأعمش (العمر) بإسكان الميم القراءة المعروفة (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) وفي حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخًا بغير القراءة المعروفة، وربت أبو جعفر، وربأت أي: ارتفعت، وروى العمري عنه بتليين الهمزة، وقرىء وأنه باعث.

المعاني: اعلم أنه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم في إثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه، أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين: أحدهما: الاستدلال بخلقة الحيوان أولاً، وهو موافق لما أجمله في قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث، فتذكروا في خلقتكم الأولى؛ لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانيًا، ثم إنه سبحانه ذكر من مراتب الخلقة الأولى أمورًا سبعة: المرتبة الأولى: قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب؛ لقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، والثاني: أن خلقة الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية، والأغذية إما حيوان أو نبات، وغذاء الحيوان ينتهي قطعًا للتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء، فصح قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾. المرتبة الثانية:

قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة اسم للماء القليل أي ماء كان، وهو هاهنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول: أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفًا، مع أنه لا مناسبة بينهما ألبتة. المرتبة الثالثة: قوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ العلقة: قطعة الدم الجامدة، ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة. المرتبة الرابعة: قوله: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ فالمضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة: المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء إذا كانت ملساء. ثم للمفسرين فيه أقوال:

أحدها: أن يكون المراد مَنْ تمت فيه أحوال الخلق ومَنْ لم تتم، كأنه سبحانه قسم المضغة إلى قسمين: أحدهما: تامة الصور والحواس والتخاطيط. وثانيهما: الناقصة في هذه الأمور، فبين أن بعد أن صيره مضغة منها ما خلقه إنسانًا تامًا بلا نقص، ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة، والضحاك، فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك؛ فتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم؛ وصورهم؛ وطولهم؛ وقصرهم؛ وتمامهم؛ ونقصانهم.

وثانيها: المخلقة: الولد الذي يخرج حيًّا، وغير المخلقة: السقط، وهو قول مجاهد.

وثالثها: المخلقة: المصورة، وغير المخلقة أي: غير المصورة، وهو الذي يبقى لحمًا من غير تخطيط وتشكيل، واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال: «**إِذَا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ بَعَثَ اللَّه مَلَكًا وَقَالَ: يَا رَبِّ، مُخَلَّقَةٌ أَوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ، فَإِنْ قَالَ: غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ مَجَّتْهَا الْأَرْحَامُ دَمًا، وَإِنْ قَالَ: مُخَلَّقَةٌ، قَالَ: يَا رَبِّ، فَمَا صِفَتُهَا، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، مَا رِزْقُهَا، مَا أَجَلُهَا، أَشَقِيٌّ، أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقُولُ اللَّه سُبْحَانَهُ: انْطَلِقْ إِلَى أُمِّ الْكِتَابِ فَاسْتَنْسِخْ مِنْهُ صِفَةَ هَذِهِ النُّطْفَةِ، فَيَنْطَلِقُ الْمَلَكُ فَيَنْسَخُهَا، فَلَا يَزَالُ مَعَهُ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى آخِرِ صِفَتِهَا**»(١).

ورابعها: قال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلق؛ لتتابع الخلق عليه، قالوا: فما تم فهو المخلق وما لم يتم فهو غير المخلق؛ لأنه لم يتوارد عليه التخليقات. والقول الأول أقرب؛ لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنسانًا

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٥٦٧) من طريق معاوية، عن داود بن أبي هند، عن عامر، عن علقمة، عن عبد الله... فذكره (قلت) والحديث أصله في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا، أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١١٧٤)، حديث رقم (٣٠٢٦)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، كلاهما من طريق زيد بن وهب عن عبد الله... فذكره، ولفظه: عن زيد بن وهب قال عبد الله: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: ثم إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح... الحديث. واللفظ للبخاري.

وذلك يبعد في السقط ؛ لأنه قد يكون سقطًا ولم يتكامل فيه الخلقة ، فإن قيل : هلا حملتم ذلك على السقط لأجل قوله : ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ وذلك كالدلالة على أن فيه مالا يقره في الرحم وهو السقط ، قلنا : إن ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة ؛ لأنه بعد أن تمم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله في الرحم ، وفيه مالا يقره وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط .

أما قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ **ففيه وجهان:**

أحدهما: لنبين لكم أن تغيير المضغة إلى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ، ولولاه لما صار بعضه مخلقًا وبعضه غير مخلق .

وثانيهما: التقدير إن كنتم في ريب من البعث فإنا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا ؛ لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم ، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزًا عن الإعادة؟!

أما قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فالمراد منه من يبلغه الله تعالى حد الولادة ، والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر ، أو تسعة ، أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فإن كتب ذلك صار أجلاً مسمى . المرتبة الخامسة : قوله : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وإنما وحد الطفل ؛ لأن الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلاً كقوله : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. المرتبة السادسة : قوله : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ والأشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع ، والمراد والله أعلم ثم سهل في تربيتكم وأغذيتكم أمورًا لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الأحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد ويكون بين الحالتين وسائط ، وذكر بعضهم أنه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الأشد واسطة حتى جوز أن يبلغ في السن ويكون طفلاً كما يكون غلامًا ثم يدخل في الأشد . المرتبة السابعة : قوله : ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ والمعنى : أن منكم من يتوفى على قوته وكماله ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم والخرف ؛ فيصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم . فإن قيل كيف قال : ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ مع أنه يعلم بعض الأشياء كالطفل؟ قلنا : المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئًا ؛ لأن مثل ذلك قد يذكر في النفي لأجل المبالغة ، ومن الناس من قال : هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥، ٦] وهو ضعيف ؛ لأن معنى قوله : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال :

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث الوجه الثاني: الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال: اهتز فلان لكيت وكيت إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع فقوله: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات وانتفخت.

أما قوله: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فهو مجاز؛ لأن الأرض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك، لكنه يضاف إليها توسعًا، ومعنى ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس، والبهجة: حسن الشيء ونضارته، والبهيج: بمعنى المبهج قال المبرد: وهو الشيء المشرق الجميل، ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورًا خمسة: أحدها: قوله ذلك: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأمراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات. وثالثها: قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لا بد وأن يكون واجب الإنصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرًا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لا بد وأن يكون قادرًا على الإعادة. ورابعها: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرًا على الإعادة في نفسها، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه، واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال: الإعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها، أما بيان الإمكان فالدليل عليه أن هذه الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التي كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة، والباريء سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضي القطع بإمكان الإعادة لما قلنا إن تلك الإجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات؛ لأنها لو لم تكن قابلة لها في وقت لما كانت قابلة لها في شيء من الأوقات لأن الأمور الذاتية لا تزول، ولو لم تكن قابلة لها في شيء من الأوقات لما كانت حية عاقلة في شيء من الأوقات، لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبدًا لهذه الصفات.

وأما أن الباريء سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالمًا بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادرًا على كل الممكنات، فيكون قادرًا على إيجاد تلك الصفات في تلك الذوات. فثبت أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن. فثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها. فإذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد

من القطع بوقوعها، فهذا هو الكلام في تقرير هذا الأصل. فإن قيل: فأي منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات في هذه الدلالة؟ قلنا: إنها تدل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات، ومتى صح ذلك فقد صح كون الإعادة ممكنة فإن الخصم لا ينكر المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين، ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادرًا عالمًا كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]فقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ [يس: ٧٩]بيان للقدرة وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]بيان للعلم والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾

القراءة:(ثانِيَ عِطْفِهِ) بكسر العين، الحسن وحده بفتح العين (لِيُضِلَّ) قرىء بضم الياء، وفتحها القراءة المعروفة (وَنُذِيقُهُ) بالنون وقرأ زيد بن علي أذيقه.

المعاني في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن المراد بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]من هم؟ على وجوه: **أحدها:**قال أبو مسلم: الآية الأولى وهي قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ واردة في الأتباع المقلدين، وهذه الآية واردة في المتبوعين المقلدين، فإن كلا المجادلين جادل بغير علم وإن كان أحدهما تبعًا والآخر متبوعًا وبيَّن ذلك قوله: ﴿ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فإن مثل ذلك لا يقال في المقلد، وإنما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة. فإن قيل: كيف يصح ما قلتم والمقلد لا يكون مجادلاً؟ قلنا: قد يجادل تصويبًا لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمكن منها وإن كان معتمده الأصلي هو التقليد. **وثانيها:**أن الآية الأولى نزلت في النضر بن الحرث، وهذه الآية في أبي جهل. **وثالثها:**أن هذه الآية نزلت أيضًا في النضر وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وفائدة التكرير المبالغة في الذم وأيضًا ذكر في الآية الأولى اتباعه للشيطان تقليدًا بغير حجة، وفي الثانية مجادلته في الدين وإضلاله غيره بغير حجة والوجه الأول أقرب لما تقدم.

المسألة الثانية: الآية دالة على أن الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره.

المسألة الثالثة: المراد بالعلم: العلم الضروري، وبالهدى: الاستدلال والنظر؛ لأنه يهدي إلى المعرفة وبالكتاب المنير الوحي، والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا

سمعية وهو كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١] وقوله: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ [الأحقاف: ٤] أما قوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أن ثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولي الجيد وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكي يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر وإضلال الغير. وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح حاله في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فيوم بدر روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما نزلت في النضر بن الحرث وأنه قتل يوم بدر، وأما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قالوا: المراد بالخزي في الدنيا ما أمر المؤمنون بذمه ولعنه ومجاهدته وأما في الآخرة فقوله: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ثم بيّن تعالى أن هذا الخزي المعجل وذلك العقاب المؤجل لأجل ما قدمت يداه، قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على مطالب: **الأول:** دلت الآية على أنه إنما وقع في ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقًا لله تعالى لكان حينما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن ينفك عنه، وحينما لا يخلقه الله تعالى استحال منه أن يتصف به، فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فإذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص. **الثاني:** أن قوله بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ دليل على أنه سبحانه إنما لم يكن ظالمًا بفعل ذلك العذاب لأجل أن المكلف فعل فعلاً استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على أنه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته لكان ظالمًا، وهذا يدل على أنه لا يجوز تعذيب الأطفال بكفر آبائهم. **الثالث:** أنه سبحانه تمدح بأنه لا يفعل الظلم فوجب أن يكون قادرًا عليه خلاف ما يقوله النظام، وأن يصح ذلك منه خلاف ما يقوله أهل السنة. **الرابع:** وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم؛ لأن عندهم صحة نبوة النبي ﷺ موقوفة على نفي الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعي لزم الدور والجواب: عن الكل المعارضة بالعلم والداعي.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

القراءة: قرىء (خَاسِرُ الدُّنْيَا وَالأَخِرَةَ) بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وفي حرف عبد الله (مَنْ ضَرُّهُ) بغير لام، واعلم أنه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ما ذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ

﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ وفي تفسير الحرف وجهان: الأول: ما قاله الحسن: وهو أن المرء في باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين، فإذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل في الدين، وإذا أظهر بلسانه الدين لبعض الأغراض وفي قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم: يعبد الله على حرف. الثاني: قوله: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون طمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه. وهذا هو المراد ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ لأن الثبات في الدين إنما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه، فأما إذا كان غرضه الخير المعجل فإنه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون إلا منافقًا مذمومًا وهو مثل قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣] وكقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

المسألة الثانية: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في أعراب كانوا يقدمون على النبي ﷺ بالمدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن إليه، وإن أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه[1] وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له: ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهدة وقتادة. وثانيها: وهو قول الضحاك نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض: ندخل في دين محمد فإن أصبنا خيرًا عرفنا أنه حق، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل. وثالثها: قال أبو سعيد الخدري: (أَسْلَمَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَذَهَبَ بَصَرُهُ وَمَالُهُ وَوَلَدُهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه: أَقِلْنِي فَإِنِّي لَمْ أُصِبْ مِنْ دِينِي هَذَا خَيْرًا، ذَهَبَ بَصَرِي وَوَلَدِي وَمَالِي. فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الإِسْلَامَ لاَ يُقَالُ، إِنَّ الإِسْلَامَ لَيَسْبِكُ كَمَا تَسْبِكُ النَّارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»[2] فنزلت هذه الآية.

وأما قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ ففيه سؤالات: الأول: كيف قال: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ والخير أيضًا فتنة؟ لأنه امتحان وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. والجواب: مثل هذا كثير في اللغة؛ لأن النعمة بلاء وابتلاء لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] ولكن إنما يطلق اسم البلاء على ما يثقل على الطبع، والمنافق ليس عنده الخير إلا الخير الدنيوي، وليس عنده الشر إلا الشر الدنيوي؛ لأنه لا دين له. فلذلك

---

(١) الرمالك جمع رمكة وهي الفرس أنثى الحصان، أو البرذونة أنثى الحمار، تتخذ للنسل والنتاج، وتجمع على أرماك أيضًا.

(٢) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ١٢٢) من طريق محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس . . . به، (قلت): وهذا إسناد مسلسل بالعوفيين الضعفاء كلهم.

وردت الآية على ما يعتقدونه، وإن كان الخير كله فتنة، لكن أكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل.

السؤال الثاني: إذا كانت الآية في المنافق فما معنى قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ وهو في الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد؟ والجواب: المراد أنه أظهر بلسانه خلاف ما كان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب في الحقيقة.

السؤال الثالث: قال مقاتل: الخير هو ضد الشر فلما قال: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ كان يجب أن يقول: وإن أصابه شر انقلب على وجهه؟ الجواب: لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وإن أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد فيه القبح.

أما قوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فذلك لأنه يخسر في الدنيا العزة والكرامة وإصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والإمامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصونًا، وأما في الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أما قوله: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ فالأقرب أنه المشرك الذي يعبد الأوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد في اليهودي؛ لأنه ليس ممن يدعو من دون الله الأصنام، والأقرب أنها واردة في المشركين الذين انقطعوا إلى رسول الله ﷺ على وجه النفاق وبيَّن تعالى أن: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾، وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم، ويحتمل أن يعني بذلك بعد ضلالهم عن الصواب؛ لأن جميعه وإن كان يشترك في أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض، واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالاً وطالت وبعدت مسافة ضلاله.

أما قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: اختلفوا في تفسيره على وجهين: أحدهما: أن المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون إليهم؛ لأنه يصح منهم أن يضروا، وحجة هذا القول أن الله تعالى بيَّن في الآية الأولى أن الأوثان لا تضرهم ولا تنفعهم، وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضارًا نافعًا، فلو كان المذكور في هذه الآية هو الأوثان لزم التناقض. القول الثاني: أن المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور: أحدها: أنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في إضافة الضرر إليها، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] فأضاف الإضلال إليهم من حيث كانوا سببًا للضلال، فكذا هاهنا نفي الضرر عنهم في الآية الأولى بمعنى كونها فاعلة وأضاف الضرر إليهم في هذه الآية بمعنى أن عبادتها سبب الضرر. وثانيها: كأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الأولى أنها في الحقيقة لا تضر ولا تنفع، ثم قال في الآية الثانية: لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها. وثالثها: كان الكفار إذا أنصفوا علموا أنه لا يحصل منها نفع ولا ضرر في الدنيا، ثم إنهم في الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها، فكأنهم يقولون لها في الآخرة: إن ضرركم أعظم من نفعكم.

المسألة الثانية: اختلف النحويون في إعراب قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾.

أما قوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ فالمولى: هو الولي والناصر، والعشير الصاحب والمعاشر، واعلم أن هذا الوصف بالرؤساء أليق؛ لأن ذلك لا يكاد يستعمل في الأوثان، فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذي يجمع خير الدنيا والآخرة إلى عبادة الأصنام وإلى طاعة الرؤساء، ثم ذم الرؤساء بقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ إليهم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم، بيَّن في هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم، أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذي لا يمكن صوابه، وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع. وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة، ثم بيَّن كمال الجنة التي تجمع بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الأنهار وبيَّن تعالى أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣] واحتج أصحابنا في خلق الأفعال بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ قالوا: أجمعنا على أنه سبحانه يريد الإيمان ولفظة (ما) للعموم فوجب أن يكون فاعلاً للإيمان لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؟ أجاب الكعبي عنه بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره. والجواب: أن قوله ﴿مَا يُرِيدُ﴾ أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص.

أما قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فالهاء إلى ماذا يرجع؟ فيه وجهان: الأول: وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي، واختيار الفراء والزجاج أنه يرجع إلى محمد ﷺ يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول ﷺ وإن لم يجر له ذكر في الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله فيجب البحث هاهنا عن أمرين: أحدهما: أنه من الذي كان يظن أن الله تعالى لا ينصر محمدًا ﷺ؟ والثاني: أنه ما معنى قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾؟

أما البحث الأول: فذكروا فيه وجوهًا: أحدها: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية. وثانيها: قال مقاتل: نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا: نخاف أن الله لا ينصر محمدًا فينقطع الذي بيننا وبين

حلفائنا من اليهود فلا يميروننا. وثالثها: أن حساده وأعداءه كانوا يتوقعون أن لا ينصره الله وأن لا يعليه على أعدائه، فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك.

وأما البحث الثاني: فاعلم أن في لفظ السبب قولين: أحدهما: أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا في السماء فمنهم من قال: هو سماء البيت، ومنهم من قال: هو السماء في الحقيقة، فقالوا المعنى: من كان يظن أن لن ينصره الله، ثم يغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلاً إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه. وعلى هذا القول اختلفوا في القطع فقال بعضهم: سمى الاختناق قطعًا؛ لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، وسمى فعله كيدًا؛ لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء إلا أنه لم يكد به محسوده وإنما كاد به نفسه، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ. وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال ابن عباس رضي الله عنه: يشد الحبل في عنقه وفي سقف البيت، ثم ليقطع الحبل حتى يختنق ويهلك، هذا كله إذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين. وقال آخرون: المراد منه نفس السماء فإنه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت؛ لأن ذلك لا يفهم منه إلا مقيدًا؛ ولأن الغرض ليس الأمر بأن يفعل ذلك، بل الغرض أن يكون ذلك صارفًا له عن الغيظ إلى طاعة الله تعالى، وإذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الإمكان كان أولى بأن يكون هو المراد، ومعلوم أن مد الحبل إلى سماء الدنيا والاختناق به أبعد في الإمكان من مده إلى سقف البيت لأن ذلك ممكن. أما الذين قالوا: السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين:

الأول: كأنه قال: فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع بذلك السبب المسافة، ثم لينظر فإنه يعلم أن مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كأن لم يفعل شيئًا وهو قول أبي مسلم.

والثاني: كأنه قال: فليطلب سببًا يصل به إلى السماء فليقطع نصر الله لنبيه، ولينظر هل يتهيأ له الوصول إلى السماء بحيلة، وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله؟! فإذا كان ذلك ممتنعًا كان غيظه عديم الفائدة، واعلم أن المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فإنه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه، وهو في معنى قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] مبينًا بذلك أنه لا حيلة له في الآيات التي اقترحوها القول الثاني: أن الهاء في قوله: ﴿لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ راجع إلى من في أول الآية؛ لأنه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع إلى مذكور إذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق. وقال أبو عبيدة: وقف علينا سائل من بني بكر فقال: من ينصرني نصره الله. أي من يعطيني أعطاه الله، فكأنه قال: من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد ﷺ كما وصفه تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] فيبلغ غاية الجزع وهو

الاختناق فإن ذلك لا يغلب التسمية ويجعله مرزوقًا.

أما قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فمعناه ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آيات بينات.

أما قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ فقد احتج أصحابنا به فقالوا: المراد من الهداية، إما وضع الأدلة، أو خلق المعرفة والأول غير جائز؛ لأنه تعالى فعل ذلك في حق كل المكلفين، ولأن قوله: ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ دليل على أن الهداية غير واجبة عليه بل هي معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الأدلة عند الخصم واجب فبقي أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضي عبد الجبار في (الاعتذار): هذا يحتمل وجوهًا: أحدها: يكلف من يريد لأن من كلف أحدًا شيئًا فقد وصفه له وبينه له. وثانيها: أن يكون المراد يهدي إلى الجنة والإثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحًا. وثالثها: أن يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم أنه إذا زاده هدى ثبت على إيمانه كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وهذا الوجه هو الذي أشار الحسن إليه بقوله: إن الله يهدي من قبل لا من لم يقبل، والوجهان الأولان ذكرهما أبو علي والجواب: عن الأول أن الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الأدلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف، وأما الوجهان الأخيران فمدفوعان لأنهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ يقتضي عدم الوجوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

القراءة: قرى (حُقَّ) بالضم وقرىء (حقًّا) أي حق عليه العذاب حقًا وقرئ (مُكْرَم) بفتح الراء بمعنى الإكرام، واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦] أتبعه في هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه، واعلم أن المسلم لا يخالفه في المسائل الأصولية إلا طبقات ثلاثة: أحدها: الطبقة المشاركة له في نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية في خلق الأفعال البشرية والخلاف بين مثبتي الصفات والرؤية ونفاتها. وثانيها: الذين يخالفونه في النبوة ولكن يشاركونه في الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى في نبوة محمد ﷺ وعيسى وموسى عليهما السلام. وثالثها: الذين يخالفونه في الإله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون في الحقائق، والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر في العالم،

والفلاسفة الذين يثبتون مؤثرًا موجبًا لا مختارًا. فإذا كانت الاختلافات الواقعة في أصول الأديان محصورة في هذه الأقسام الثلاثة، ثم لا يشك أن أعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الأخير منها. وهذا القسم الأخير بأقسامه الثلاثة لا يوجدون في العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين، أما القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الأنبياء عليهم السلام، فتقسيمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار، إما أن يكونوا معترفين بوجود الأنبياء، أو لا يكونوا معترفين بذلك، فإما أن يكونوا أتباعًا لمن كان نبيًا في الحقيقة أو لمن كان متنبئًا، أما أتباع الأنبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى، وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون، وأما أتباع المتنبيء فهم المجوس، وأما المنكرون للأنبياء على الإطلاق فهم عبدة الأصنام والأوثان، وهم المسمون بالمشركين، ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم. فثبت أن الأديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الأنبياء عليهم السلام هي هذه الستة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، قال قتادة ومقاتل: الأديان ستة واحدة لله تعالى وهو الإسلام وخمسة للشيطان، وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في سورة البقرة.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الزجاج: هذا خبر لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كما تقول إن أخاك، إن الدين عليه لكثير. قال جرير:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ[(١)]

المسألة الثانية: الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعًا فلا يجازيهم جزاءً واحدًا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل: يفصل بينهم: يقضي بينهم.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ ففيه أسئلة:

السؤال الأول: ما الرؤية هاهنا الجواب: أنها العلم أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض، وإنما عرف ذلك بخبر الله لا أنه رآه.

السؤال الثاني: ما السجود هاهنا قلنا: فيه وجوه: أحدها: قال الزجاج: أجود الوجوه في سجود هذه الأمور أنها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] والمعنى أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي

(١) هذا البيت من البحر البسيط ضمن قصيدة لجرير وقد تقدم ترجمته وأول البيت قوله:
يكفي الخليفة أن الله سربله. . . البيت.

يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع ألبتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فإن قيل: هذا التأويل يبطله قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فإسناده إلى كثير منهم يكون تخصيصًا من غير فائدة والجواب من وجوه: أحدها: أن السجود بالمعنى الذي ذكرناه وإن كان عامًا في حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر، فهذا الشخص وإن كان ساجدًا بذاته لكنه متمرد بظاهره، أما المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر. وثانيها: أن نقطع قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن نقول تقدير الآية: ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض ويسجد له كثير من الناس؛ فيكون السجود الأول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة، وإنما فعلنا ذلك؛ لأنه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معانيه جميعًا. الثاني: أن يكون قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، والثالث: أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل: وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب. وثالثها: أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعًا يقول: المراد بالسجود في حق الأحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد، ومن ينكر ذلك يقول إن الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين، فعنى بها في حق العقلاء، الطاعة وفي حق الجمادات الانقياد.

السؤال الثالث: قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الجواب: لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبيَّن أن كثيرًا منهم يسجدون طوعًا دون كثير منهم فإنه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب. القول الثاني: في تفسير السجود أن كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته كما قال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وكما أن الإمكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره إلى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه، وهذا الافتقار الذاتي اللازم للماهية أدل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الأرض فإن ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي، وقد يتطرق إليها الصدق والكذب، أما نفس الافتقار الذاتي فإنه ممتنع التغير والتبدل، فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى أي خاضعة متذللة معترفة بالفاقة إليه والحاجة إلى تخليقه وتكوينه، وعلى هذا تأولوا قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا قول القفال رحمه الله. القول الثالث: أن سجود هذه الأشياء سجود ظلها كقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] وهو قول مجاهد.

وأما قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فقال ابن عباس في رواية عطاء

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يوحده ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ ممن لا يوحده، وروى عنه أيضًا أنه قال (وكثير من الناس) في الجنة. وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره محذوف، وقال آخرون: الوقف على قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم استأنف فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي وجب بإبائه وامتناعه من السجود.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فالمعنى أن الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على إزالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرمًا لهم، ثم بيَّن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أنه الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

القراءة: روي عن الكسائي (خِصْمَانِ) بكسر الخاء، وقرىء (قُطِعَتْ) بالتخفيف كأن الله يقدر لهم نيرانًا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، قرأ الأعمش: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ رُدُّوا فِيهَا) الحسن (يُصَهَّرُ) بتشديد الهاء للمبالغة، وقرىء (وَلُؤْلُؤًا) بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤًا كقوله وحورًا عينًا، ولؤلوًا بقلب الهمزة الثانية واوًا، واعلم أنه سبحانه لما بين أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر هاهنا كيفية اختصامهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج من قال: أقل الجمع اثنان بقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾، **والجواب:** الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان يختصمان، فقوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ للفظ واختصموا للمعنى كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟﴾ [محمد: ١٦].

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير الخصمين وجوهًا: **أحدها:** المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم، وطائفة الكفار وجماعتهم وأن كل الكفار يدخلون في ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما يرجع إلى أهل الأديان الستة ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ أي في ذاته وصفاته. **وثانيها:** روي أن أهل الكتاب قالوا

نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابًا ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدًا، فهذه خصومتهم في ربهم. **وثالثها:** روى قيس ابن عبادة عن أبي ذر الغفاري رحمه الله أنه كان يحلف بالله أن هذه الآية نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وقال علي عليه السلام أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة. **ورابعها:** قال عكرمة: هما الجنة والنار قالت النار: خلقني الله لعقوبته. وقالت الجنة: خلقني الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد ﷺ ذلك، والأقرب هو الأول؛ لأن السبب وإن كان خاصًا فالواجب حمل الكلام على ظاهره قوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ كالإشارة إلى من تقدم ذكره وهم أهل الأديان الستة، وأيضًا ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب، فوجب أن يكون رجوع ذلك إليهما، فمن خص به مشركي العرب أو اليهود من حيث قالوا في كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ، وهذا هو الذي يدل عليه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ١٧] أراد به الحكم؛ لأن ذكر التخاصم يقتضي الواقع بعده يكون حكمًا فبيَّن الله تعالى حكمه في الكفار، وذكر من أحوالهم أمورًا ثلاثة:

أحدها: قوله: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ والمراد بالثياب إحاطة النار بهم كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] عن أنس، وقال سعيد بن جبير: من نحاس أذيب بالنار أخذًا من قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] وأخرج الكلام بلفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] لأن ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع.

وثانيها: قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود، الحميم الماء الحار، قال ابن عباس رضي الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها، (يصهر): أي: يذاب أي: إذا صب الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. **وثالثها:** قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ المقامع: السياط وفي الحديث «**لَوْ وُضِعَتْ مِقْمَعَةٌ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ فَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ مَا أَقَلُّوهَا**» وأما قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فاعلم أن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقاطع فهووا فيها سبعين خريفًا وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، والحريق الغليظ من النار العظيم الإهلاك، ثم إنه سبحانه ذكر حكمه في المؤمنين من أربعة أوجه:

أحدها: المسكن، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. **وثانيها:** الحلية، وهو قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

حَرِيرٌ﴾ فبيّن تعالى أنه موصلهم في الآخرة إلى ما حرمه عليهم في الدنيا من هذه الأمور وإن كان من أحله لهم أيضًا شاركهم فيه؛ لأن المحلل للنساء في الدنيا يسير بالإضافة إلى ما سيحصل لهم في الآخرة. وثالثها: الملبوس وهو قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. ورابعها: قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وفيه وجوه: أحدها: أن شهادة لا إله إلا الله هو الطيب من القول لقوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وهو صراط الحميد لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وثانيها: قال السدي: (وهدوا إلى الطيب من القول) هو القرآن. وثالثها: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء. هو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده. ورابعها: أنهم إذا ساروا إلى الدار الآخرة هدوا إلى البشارات التي تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام، وهو معنى قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وعندي فيه وجه خامس: وهو أن العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للأرواح البشرية في الاتصال بعالم القدس فإذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الأنوار الإلهية، وظهور تلك الأنوار هو المراد من قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ والتعبير عنها هو المراد من قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾

اعلم أنه تعالى بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمه البيت وعظم كفر هؤلاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد؛ لأنهم كانوا يأبون ذلك. وفيه إشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الماضي وهو قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾. والجواب: عنه من وجهين: الأول: أنه يقال: فلان يحسن إلى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته، فكأنه قيل: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله، ونظيره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. وثانيهما: قال أبو علي الفارسي: التقدير إن الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه أنهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل، أما قوله: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني: ويصدوهم أيضًا عن المسجد الحرام، قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدي، فكره رسول الله ﷺ قتالهم وكان محرمًا بعمرة ثم صالحوه على أن يعود في العام القابل.

أما قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو علي الفارسي: أي جعلناه للناس منسكًا ومتعبدًا وقوله: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ رفع على أنه خبر مبتدأ مقدم أي: العاكف والباد فيه سواء، وتقدير الآية المسجد الحرام الذي جعلناه للناس منسكًا فالعاكف والبادي فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب (سَوَاءً) بالنصب بإيقاع الجعل عليه؛ لأن الجعل يتعدى إلى مفعولين، والله أعلم.

المسألة الثانية: العاكف: المقيم به الحاضر. والبادي: الطارىء من البدو وهو النازع إليه من غربته، وقال بعضهم: يدخل في العاكف القريب إذا جاور ولزمه للتعبد، وإن لم يكن من أهله.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أنهما في أي شيء يستويان قال ابن عباس رضي الله عنهما: في بعض الروايات إنهما يستويان في سكنى مكة والنزول بها، فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من الآخر إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل وهو قول قتادة، وسعيد بن جبير، ومن مذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر، أما الآية فهي هذه قالوا: إن أرض مكة لا تملك، فإنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي، فلما استويا ثبت أن سبيله سبيل المساجد، وأما الخبر فقوله عليه السلام: «**مكة مباح لمن سبق إليها**» وهذا مذهب ابن عمر، وعمر بن عبد العزيز، ومذهب أبي حنيفة، وإسحق الحنظلي رضي الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله؛ لأن إطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وهاهنا قد دل الدليل وهو قوله: ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ لأن المراد منه المقيم إقامة، وإقامته لا تكون في المسجد بل في المنازل فيجب أن يقال: ذكر المسجد وأراد مكة. القول الثاني: المراد جعل الله الناس في العبادة في المسجد سواء، ليس للمقيم أن يمنع البادي وبالعكس قال عليه السلام: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا فَلَا يَمْنَعَنَّ أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أَوْ صَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ**» وهذا قول الحسن، ومجاهد، وقول من أجاز بيع دور مكة. وقد جرت مناظرة بين الشافعي وإسحق الحنظلي بمكة وكان إسحق لا يرخص في كراء بيوت مكة، واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠] فأضيفت الدار إلى مالكها وإلى غير مالكها، وقال عليه السلام يوم فتح مكة: «**من أغلق بابه فهو آمن**»(١) وقال ﷺ: «**هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رَبْعٍ**»(٢) وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دار السجن، أترى أنه

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٣/ ١٤٠٥/ ١٧٨٠)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٣٨)، حديث رقم (١٠٩٦١)، كلاهما من طريق سليمان بن المغيرة. . . به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (المغازي)، باب: (أين ركز النبي الراية يوم الفتح) (٧/ ٦٠٦)، حديث رقم (٤٢٨٢) من طريق الزهري. . . به، ومسلم في (الحج)، باب: (النزول بمكة للحاج) (٢/ ٩٨٤/ ٤٤٠) من طريق عبد الرزاق. . . به.

اشتراها من مالكها أو من غير مالكها؟ قال إسحق: فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي. أما الذي قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله: (العاكف)، فضعيف؛ لأن العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام، أو في الأكثر فلا يلزم ما ذكروه، ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات.

أما قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (يَرِدْ) بفتح الياء من الورود، ومعناه: من أتى فيه بإلحاد، وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم، والمعنى: ومن يرد إيقاع إلحاد فيه، فالإضافة صحيحة على الاتساع في الظرف كمكر الليل والنهار، ومعناه: ومن يرد أن يلحد فيه ظالمًا.

المسألة الثانية: الإلحاد: العدول عن القصد وأصله إلحاد الحافر، وذكر المفسرون في تفسير الإلحاد وجوهًا: أحدها: أنه الشرك، يعني: من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى، وهو إحدى الروايات عن ابن عباس، وقول عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل. وثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبي ﷺ فارتد مشركًا، وفي قيس بن ضبابة. وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الأنصاري وهرب إلى مكة كافرًا، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم الفتح كافرًا. وثالثها: قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد. ورابعها: دخول مكة بغير إحرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم. وخامسها: أنه الاحتكار عن مجاهد، وسعيد بن جبير. وسادسها: المنع من عمارته. وسابعها: عن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله. وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فقيل له فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: لا والله وبلى والله. وثامنها: وهو قول المحققين: أن الإلحاد بظلم عام في كل المعاصي؛ لأن كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن رجلاً بعدن هَمَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذابًا أليمًا. وقال مجاهد: تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات، فإن قيل: كيف يقال ذلك مع أن قوله: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ غير لائق بكل المعاصي؟ قلنا: لا نسلم، فإن كل عذاب يكون أليمًا، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية.

المسألة الثالثة: الباء في قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهو الأولى وهو اختيار صاحب (الكشاف) أن قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان، ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مرادًا ما عادلاً عن القصد ظالمًا نذقه من عذاب أليم، يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده. الثاني: قال أبو عبيدة: مجازه ومن يرد فيه إلحادًا والباء من حروف الزوائد.

المسألة الرابعة: لما كان الإلحاد بمعنى الميل من أمر إلى أمر بيَّن الله تعالى أن المراد بهذا الإلحاد ما يكون ميلاً إلى الظلم، فلهذا قرن الظلم بالإلحاد لأنه؛ لا معصية كبرت أم صغرت إلا وهو ظلم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

أما قوله تعالى: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فهو بيان الوعيد وفيه مسائل:

المسألة الأولى: من قال: الآية نزلت في ابن خطل قال: المراد بالعذاب أن رسول الله ﷺ قتله يوم الفتح[1]، ولا وجه للتخصيص إذا أمكن التعميم، بل يجب أن يكون المراد العذاب في الآخرة؛ لأنه من أعظم ما يتوعد به.

المسألة الثانية: أن هذه الآية تدل على أن المرء يستحق العذاب بإرادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه.

المسألة الثالثة: ذكروا قولين في خبر (إن) المذكور في أول الآية: الأول: التقدير إن الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بإلحاد نذقه من عذاب فهو عائد إلى كلتا الجملتين. الثاني: أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره: إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم. وكل من ارتكب فيه ذنبًا فهو كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة، أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة. وكان قد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ما حوله فبناه على وضعه الأول، وقيل: أُمِرَ إبراهيم بأن يأتي موضع البيت فيبني، فانطلق فخفي عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام في العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال: يا إبراهيم، ابن على قدري وحيالي فأخذ في البناء وذهبت السحابة. وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لا شك أن (أَنْ) هي المفسرة فكيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرًا للتبوئة؟ الجواب: أنه سبحانه لما قال: جعلنا البيت مرجعًا لإبراهيم، فكأنه قيل: ما

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

معنى كون البيت مرجعًا له؟ فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقلبه موحدًا لرب البيت عن الشريك والنظير، وبقالبه مشتغلاً بتنظيف البيت عن الأوثان والأصنام.

السؤال الثاني: أن إبراهيم لما لم يشرك بالله فكيف قال: أن لا تشرك بي؟ الجواب: المعنى لا تجعل في العبادة لي شريكًا، ولا تشرك بي غرضًا آخر في بناء البيت.

السؤال الثالث: البيت ما كان معمورًا قبل ذلك فكيف قال: وطهِّر بيتي؟ الجواب: لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون إليها الأقذار، فأُمِرَ إبراهيم ببناء البيت في ذلك المكان وتطهيره من الأقذار، وكانت معمورة فكانوا قد وضعوا فيها أصنامًا فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الأوثان، أو يقال: المراد أنك بعد أن تبنيه فطهره عما لا ينبغي من الشرك وقول الزور.

وأما قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: للطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: المقيمين بها ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: من المصلين من الكل، وقال آخرون: القائمون وهم المصلون؛ لأن المصلي لا بد وأن يكون في صلاته جامعًا بين القيام والركوع والسجود، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن محيصن (وَآذِنْ) بمعنى أعلم.

المسألة الثانية: في المأمور قولان: أحدهما: وعليه أكثر المفسرين أنه هو إبراهيم عليه السلام قالوا: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ قال: يارب، وما يبلغ صوتي؟ قال: عليك الأذان وعلى البلاغ. فصعد إبراهيم عليه السلام الصفا، وفي رواية أخرى أبا قبيس، وفي رواية أخرى على المقام قال إبراهيم: كيف أقول؟ قال جبريل عليه السلام: قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى، وفي رواية أخرى أنه صعد الصفا فقال: يأيها الناس، إن الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض، فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل يلبي يقول: لبيك اللهم لبيك، وفي رواية أخرى إن الله يدعوكم إلى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار، فأجابه يومئذ من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وكل من وصل إليه صوته من حجر أو شجر ومدر وأكمة أو تراب، قال مجاهد: فما حج إنسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة إلا وقد أسمعه ذلك النداء، فمن أجاب مرة حج مرة، ومن أجاب مرتين أو أكثر. فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أُمِرَ إبراهيم عليه السلام بالأذان تواضعت له الجبال وخفضت، وارتفعت له القرى، قال القاضي عبد الجبار: يبعد قولهم إنه أجابه الصخر والمدر؛ لأن الإعلام لا يكون إلا لمن يؤمر بالحج دون الجماد، فأما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع إذا قواه الله تعالى ورفع الموانع، ومثل ذلك قد يجوز في زمان الأنبياء عليهم السلام.

القول الثاني: أن المأمور بقوله: ﴿وَأَذِّن﴾ هو محمد ﷺ وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أن محمدًا ﷺ هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ لا يوجب أن يكون قوله: ﴿وَأَذِّن﴾ يرجع إليه إذ قد بيَّنا أن معنى قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي واذكر يا محمد ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ فهو في حكم المذكور، فإذا قال تعالى: ﴿وَأَذِّن﴾ فإليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن﴾ وجوهًا: أحدها: أن الله تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يعلم الناس بالحج. وثانيها: قال الجبائي: أمره الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه. قال: وفي قوله: ﴿يَأْتُوكَ﴾ دلالة على أن المراد أن يحج فيقتدي به. وثالثها: أنه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول ﷺ.

اما قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الرجال المشاة واحدهم راجل كنيام ونائم، وقرىء رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجال كعجال عن ابن عباس رضي الله عنهما وقوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركبانًا والضمور: الهزال ضمر يضمر ضمورًا، والمعنى أن الناقة صارت ضامرة لطول سفرها. وإنما قال: ﴿يَأْتِينَ﴾ أي جماعة الإبل وهي الضوامر لأن قوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ معناه: على إبل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتي على اللفظ صح وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان، والفج: الطريق بين الجبلين، ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعًا، والعميق: البعيد قرأ ابن مسعود معيق يقال: بئر بعيدة العمق والمعق.

المسألة الثانية: المعنى: وأذن؛ ليأتوك رجالاً وعلى كل ضامر، أي: وأذن؛ ليأتوك على هاتين الصفتين، أو يكون المراد: وأذن فإنهم يأتوك على هاتين الصفتين.

المسألة الثالثة: بدأ الله بذكر المشاة تشريفًا لهم، وروى سعيد بن جبير بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْحَاجَّ الرَّاكِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا رَاحِلَتُهُ سَبْعُونَ حَسَنَةً وَلِلْمَاشِي سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الْحَرَمِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَا حَسَنَاتُ الْحَرَمِ قَالَ: الْحَسَنَةُ بِمِائَةِ أَلْفِ حَسَنَةٍ»(١).

المسألة الرابعة: إنما قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ لأنه هو المنادي فمن أتى بمكة حاجًا فكأنه أتى إبراهيم عليه السلام؛ لأنه يجيب نداءه.

اما قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما أمر بالحج في قوله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ ذكر حكمة ذلك

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (١/ ٦٣١)، حديث رقم (١٦٩٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ٢٤٤)، حديث رقم (٢٧٩١)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٤/ ٣٣١)، والطبراني في (الأوسط) (٣/ ١٢٢)، حديث رقم/ ٢٦٧٥، وفي (الكبير) (١٢/ ١٠٥)، حديث رقم (١٢٦٠٦)، جميعًا من طريق عيسى بن سوادة عن إسماعيل بن أبي خالد عن زاذان عن ابن عباس. . . به، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٩٦)، وقال: ضعيف.

الأمر في قوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا. وهي أن يتجرو في أيام الحج، وبعضهم حملها على منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام، وبعضهم حملها على الأمرين جميعًا، وهو الأولى.

المسألة الثانية: إنما نكَّر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات.

المسألة الثالثة: كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى، وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان قال مقاتل: إذا ذبحت فقل باسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك وتستقبل القبلة، وزاد الكلبي فقال: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، قال القفال: وكان المتقرب بها وبإراقة دمائها متصور بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها، فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلبًا لمرضاة الله تعالى، واعترافًا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته.

المسألة الرابعة: أكثر العلماء صاروا إلى أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات أيام التشريق، وهذا قول مجاهد، وعطاء، وقتادة، والحسن، ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة رحمهم الله، واحتجوا بأنها معلومة عند الناس؛ لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها. ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة، والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر، وقال ابن عباس في رواية عطاء: إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وهو اختيار أبي مسلم قال: لأنها كانت معروفة عند العرب بعدها وهي أيام النحر وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله.

أما قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ فقال صاحب (الكشاف): البهمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فبيِّنت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز.

أما قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ فمن الناس من قال: إنه أمر وجوب؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعًا على الفقراء، فأمِر المسلمين بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع، وقال الأكثرون: إنه ليس على الوجوب. ثم قال العلماء: من أهدى أو ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ ومنهم من قال: يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الأكل مستحب والإطعام واجب فإن أطعم جميعها أجزأه وإن أكل جميعها لم يجزه، هذا فيما كان تطوعًا، فأما الواجبات كالنذور، والكفارات، والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودماء القلم والحلق فلا يؤكل منها.

أما قوله: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ فلا شبهة في أنه أمر إيجاب، والبائس الذي أصابه بؤس

أي: شدة والفقير الذي أضعفه الإعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر. قال ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني.

أما قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير، وقال المبرد: أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها. والمراد هاهنا قص الشارب والأظفار ونتف الإبط وحلق العانة، والمراد من القضاء إزالة التفث، وقال القفال: قال نفطويه: سألت أعرابيًا فصيحًا ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾؟ فقال: ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك، ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لأن القول قول المثبت لا قول النافي.

أما قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ فقرىء بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول في الحج من أنواع المناسك، ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذي هو القول، وهذا القول هو الأقرب فإن الرجل إذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدي وغيره ما لولا إيجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك.

أما قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة، أما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمي الجمار والحلق، ثم هو في يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل، وسمي البيت العتيق لوجوه: أحدها: العتيق: القديم لأنه أول بيت وضع للناس، عن الحسن. وثانيها: لأنه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير، ورووه عن رسول الله ﷺ ولما قصد أبرهة فُعِلَ به ما فُعِل، فإن قيل: فقد تسلط الحجاج عليه فالجواب: قلنا: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه. وثالثها: لم يُمْلَكْ قط، عن ابن عيينة. ورابعها: أعتق من الغرق، عن مجاهد. وخامسها: بيت كريم من قولهم: عتاق الطير والخيل، واعلم أن اللام في ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الأمر، وفي قراءة ابن كثير ونافع والأكثرين تخفيف هذه اللامات، وفي قراءة أبي عمرو تحريكها بالكسر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): (ذٰلِكَ) خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن ذلك كما يقدم

الكاتب جملة من كلامه في بعض المعاني فإذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا، والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عامًا في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصًا فيما يتعلق بالحج، وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس: الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمشعر الحرام، وقال المتكلمون: ولا تدخل النوافل في حرمات الله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فالتعظيم خير له للعلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظها، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يدل على الثواب المدخر؛ لأنه لا يقال: عند ربه فيما قد حصل من الخيرات، قال الأصم: فهو خير له من التهاون بذلك، ثم إنه تعالى عاد إلى بيان حكم الحج فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ فقد كان يجوز أن يظن أن الإحرام إذا حرم الصيد وغيره فالأنعام أيضًا تحرم فبيَّن الله تعالى أن الإحرام لا يؤثر فيها فهي محللة، واستثنى منه ما يتلى في كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور في سورة المائدة وهو قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[المائدة: ١] وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾[المائدة: ٣] وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام: ١٢١]، ثم إنه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور؛ لأن توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات، وإنما جمع الشرك وقول الزور في سلك واحد؛ لأن الشرك من باب الزور؛ لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله، ولا تقربوا منه شيئًا لتماديه في القبح والسماجة، وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان وسمى الأوثان رجسًا لا للنجاسة، لكن لأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات. ثم قال الأصم: إنما وصفها بذلك لأن عادتهم في المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل: إنه إنما وصفها بذلك استحقارًا واستخفافًا وهذا أقرب، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ بيان للرجس وتمييز له كقوله عندي عشرون من الدراهم؛ لأن الرجس لما فيه من الإيهام يتناول كل شيء، فكأنه قال: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وليس المراد أن بعضها ليس كذلك، والزور من الزور والإزورار وهو الانحراف، كما أن الإفك من أفكه إذا صرفه، والمفسرون ذكروا في قول الزور وجوهًا: أحدها: أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم. وثانيها: شهادة الزور عن النبي ﷺ: أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائمًا واستقبل الناس بوجهه وقال: «عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ باللَّه»(١)

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الأقضية)، باب: (في شهادة الزور) (٣/ ١٥٥٧)، حديث رقم (٣٥٩٩)، والترمذي في (الشهادات)، باب: (في شهادة الزور) (٤/ ٤٧٥)، حديث رقم (٢٣٠٠)، وقال أبو عيسى: هذا عندي أصح، وابن ماجه في (الأحكام)، باب: (شهادة الزور) (٢/ ٧٩٤)، حديث رقم (٢٣٧٢)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٢١)، جميعًا من طريق محمد بن عبيد... به، في إسناده سفيان العصفري وشيخه مقبولان.

وتلا هذه الآية . وثالثها : الكذب والبهتان . ورابعها : قول أهل الجاهلية في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .

أما قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ فقد تقدم ذكر تفسير ذلك وأنه الاستقامة على قول بعضهم والميل إلى الحق على قول البعض، والمراد في هذا الموضع ما قيل من أنه الإخلاص فكأنه قال : تمسكوا بهذه الأمور التي أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه إشراك غير الله به . ولذلك قال : ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوي بما يأتيه من العبادة الإخلاص فبيَّن تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما في بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها . وهو قوله : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ قال صاحب (الكشاف) : إن كان هذا تشبيهًا مركبًا فكأنه قيل : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس وراءه هلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة . وإن كان تشبيهًا مفرقًا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة . وقرىء بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهي قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرىء الرياح، ثم إنه سبحانه أكد ما تقدم فقال : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ واختلفوا فقال بعضهم : يدخل فيه كل عبادة، وقال بعضهم : بل المناسك في الحج وقال بعضهم : بل المراد الهدي خاصة والأصل في الشعائر الأعلام التي بها يعرف الشيء فإذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين : أحدهما : أن يختارها عظام الأجسام حسانًا جسامًا سمانًا غالية الأثمان ويترك المكاس في شرائها، فقد كانوا يتغالون في ثلاثة ويكرهون المكاس فيهن : الهدي والأضحية والرقبة . روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبيه (أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنًا فنهاه عن ذلك، وقال : «بَلْ أَهْدِهَا» (وَأَهْدَى رَسُولُ اللَّه ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبي في أَنْفِهِ بُرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ)[1] والوجه الثاني : في تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي : إن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها؛ لأنه لا بد من راجع من

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (المناسك)، باب : (في الهدي) (٢/ ٧٥٦)، حديث رقم/ ١٧٤٩، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٦١)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ٢٨٦)، حديث رقم (٢٨٩٧)، وأيضًا في (٤/ ٢٨٧) حديث رقم (٢٨٩٨)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٦٧)، وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال أحمد شاكر في (تعليقه على المسند) (٢٣٦٢) : إسناده صحيح .

الجزاء إلى من ارتبط به وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه. ولكن لما كان قلبه خاليًا عنها لا جرم لا يكون مجدًا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص، فإن قال قائل: ما الحكمة في أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة؟ فالجواب:

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا يليق إلا بأن تحمل الشعائر على الهدي الذي فيه منافع إلى وقت النحر، ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول: لكم فيها أي: في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده، والأول هو قول جمهور المفسرين، ولا شك أنه أقرب. وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها، فأما قوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ففيه قولان: أحدهما: أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهديًا فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والضحاك. وقال آخرون: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في البدن ﴿مَنَافِعُ﴾ مع تسميتها هديًا بأن تركبوها إن احتجتم إليها وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني: إلى أن تنحروها هذه هي الرواية الثانية عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو اختيار الشافعي، وهذا القول أولى لأنه تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: في الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديًا وروى أبو هريرة أنه عليه السلام مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد، فقال عليه السلام: «ارْكَبْهَا» فقال: يا رسول الله، إنها هدى فقال: «ارْكَبْهَا وَيْلَكَ»(١) وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ارْكَبُوا الْهَدْيَ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى تَجِدُوا ظَهْرًا»(٢) واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب، فلو كان مالكًا لمنافعها

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الحج)، باب: (ركوب البدن) (٣/ ٦٢٦)، حديث رقم (١٦٨٩)، ومسلم في كتاب (الحج)، باب: (جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها) (٣/ ٣٧١/ ٩٦٠) جميعًا من طريق مالك... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها) (٢/ ٣٧٥/ ٩٦١)، وأبو داود في كتاب (المناسك)، باب: (في ركوب البدن) (٢/ ٧٦١)، حديث رقم (١٧٦١)، والنسائي في كتاب (المناسك)، باب: (ركوب البدنة بالمعروف) (٥/ ١٩٤)، حديث رقم (٢٨٠١)، جميعًا من طريق يحيى... به.

اركبها بالمعروف: أي: بوجه لا يلحقها ضرر إذا ألجئت: أي: إذا اضطررت. قال النووي: هذا دليل على ركوب البدنة المهداة وفيه مذاهب انتهى.

لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات، وهذا ضعيف لأن أم الولد لا يمكنه بيعها، ويمكنه الانتفاع بها فكذا هاهنا.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ فالمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها إلى البيت العتيق أي: وجوب نحرها، أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت، كقوله: ﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] وبالجملة فقوله: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ يعني حيث يحل نحرها، وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله، ودليله قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨] أي: الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة، ولكنها تنزهت عن الدماء إلى منى، ومنى من مكة، قال عليه السلام: «كُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ وَكُلُّ فِجَاجِ مِنًى مَنْحَرٌ» قال القفال: هذا إنما يختص بالهدايا التي بلغت منى فأما الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فإن محله موضعه.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ فالمعنى: شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم عليه السلام إلى من بعده ضربًا من القربان، وجعل العلة في ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك، وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا منسكًا بكسر السين، وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ففي كيفية النظم وجهان:

أحدهما: أن الإله واحد، وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح.

الثاني: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه إشراك ألبتة، والمراد الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه، ومن انقاد له كان مخبتًا فلذلك قال بعده: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ والمخبت: المتواضع الخاشع. قال أبو مسلم: حقيقة المخبت من صار في خبت من الأرض، يقال: أخبت الرجل إذا صار في الخبت كما يقال: أنجد وأشأم وأتهم، والخبت: هو المطمئن من الأرض. وللمفسرين فيه عبارات أحدها: المخبتين المتواضعين، عن ابن عباس، وقتادة. وثانيها: المجتهدين في العبادة، عن الكلبي. وثالثها: المخلصين، عن مقاتل. ورابعها: المطمئنين إلى ذكر الله تعالى والصالحين، عن مجاهد وخامسها: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، عن عمرو بن أوس.

ثم وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله، ثم لذلك الوجل أثران أحدهما: الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ وعلى ما يكون من قبل الله تعالى؛ لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب، فأما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير

واجب بل إن أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة والثاني: الاشتغال بالخدمة وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله. أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة، وهو المراد بقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قرأ الحسن ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالنصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾.

فيه مسائل:

المسألة الأولى: البدن جمع بدنة كخشب وخشبة، سميت بذلك إذا أهديت للحرم لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولكن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: «الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ وَالْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةٍ»[(١)] ولأنه قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ وهذا يختص بالإبل فإنها تنحر قائمة دون البقر، وقال قوم: البدن: الإبل والبقر التي يُتقرب بها إلى الله تعالى في الحج والعمرة؛ لأنه إنما سمي بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه، أما الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك؛ لأنها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة.

المسألة الثانية: قرأ الحسن والبُدُن بضمتين كثُمُر في جمع ثمرة، وابن أبي إسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرىء بالنصب والرفع كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] والله أعلم.

المسألة الثالثة: إذا قال: لله عليَّ بدنة، هل يجوز له نحرها في غير مكة؟ قال أبو حنيفة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (الاشتراك في الهدي) (٢/ ٣٥٠/ ٩٥٥)، وأبو داود في كتاب (الضحايا)، باب: (في البقر والجزور عن كم تجزيء) (٣/ ١٢٢٥/ ١٢٢٦)، حديث رقم (٢٨٠٩)، والترمذي في كتاب (الحج)، باب: (الاشتراك في البدنة والبقرة) (٣/ ٢٤٨)، حديث رقم (٩٠٤)، والنسائي في (السنن)، كتاب: (الحج)، باب: (الاشتراك في الهدي) (٢/ ٤٥١)، حديث رقم (٤١٢٢)، وابن ماجه في (الأضاحي)، باب: (ما تجزئ البدنة والبقرة) (٢/ ١٠٤٧)، حديث رقم (٣١٣٢)، والدارمي في (الضحايا)، حديث رقم (١٩٥٦)، ومالك في (الموطأ) (١/ ٤٨٦)، حديث رقم (٩)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٩٣)، جميعًا من طريق مالك. . . به.

ومحمد رحمهما الله: يجوز، وقال أبو يوسف رحمه الله: لا يجوز إلا بمكة، واتفقوا فيمن نذر هديًا أن عليه ذبحه بمكة، ولو قال: لله عليَّ جزور، أنه يذبحه حيث شاء، وقال أبو حنيفة رحمه الله: البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدي فإنه تعالى قال: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي، واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدي، أجاب أبو حنيفة رحمه الله بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فإن الأضحية قربة وهي جائزة في سائر الأماكن.

أما قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن تهدى في الحج جاز أن يقول: ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أما قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ فالكلام فيه ما تقدم في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ [الحج: ٣٣] وإذا كان قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كالترغيب فالأولى أن يراد به الثواب في الآخرة وما أخلق العاقل بالحرص على شيء شهد الله تعالى بأن فيه خيرًا وبأن فيه منافع، أما قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ ففيه حذف أي: اذكروا اسم الله على نحرها، قال المفسرون: هو أن يقال عند النحر أو الذبح: باسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك، أما قوله: ﴿صَوَافَّ﴾، فالمعنى: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقرىء صوافن من صفون الفرس، وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرىء صوافي أي: خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحدًا كما كان يفعله المشركون، وعن عمرو ابن عبيد صوافيًا بالتنوين عوضًا عن حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم صوافي نحو قول العرب: اعط القوس باريها، ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرًا وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم الله وشعائر دينه، وأما قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فاعلم أن وجوب الجُنُوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة إذا غربت، والمعنى: إذا سقطت على الأرض وذلك عند خروج الروح منها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ القانع: السائل يقال: قنع يقنع قنوعًا إذا سأل قال أبو عبيد: هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه، قال الفراء: والمعنى الثاني: القانع هو الذي لا يسأل من القناعة يقال: قنع يقنع قناعة إذا رضي بما قسم له وترك السؤال، أما المعتر فقيل: إنه المتعرض بغير سؤال، وقيل: إنه المتعرض بالسؤال قال الأزهري: قال ابن الأعرابي: يقال: عروت فلانًا وأعررته وعروته واعتريته إذا أتيته تطلب معروفه ونحوه، قال أبو عبيد: والأقرب أن القانع: هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر: هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبدًا وقرأ الحسن والمعتري، وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال: قنع فهو قنع وقانع.

أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ فالمعنى: أنها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه، فالله تعالى جعل الإبل والبقر بالصفة التي يمكننا تصريفها على ما نريد، وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى في الدين والدنيا، ثم لما بيَّن تعالى هذه النعمة قال بعده: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والمراد: لكي تشكروا. قالت المعتزلة: هذا يدل على أنه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا فدل هذا على أنه يريد كل ما أمر به ممن أطاع وعصى، لا كما يقوله أهل السنة: من أنه تعالى لم يرد ذلك إلا من المعلوم أن يطيع، والكلام عليه قد تقدم غير مرة.

أما قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: لما كانت عادة الجاهلية على ما روي في القربان أنهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بيَّن تعالى ما هو القصد من النحر فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ فبيَّن أن الذي يصل إليه تعالى ويرتفع إليه من صنع المهدي من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم، ومعلوم أن شيئًا من الأشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك إلى حيث يكتب يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠].

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على أمور: **أحدها:** أن الذي ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذي ينتفع بنحره. **وثانيها:** أنه سبحانه غني عن كل ذلك، وإنما المراد أن يجتهد العبد في امتثال أوامره. **وثالثها:** أنه لما لم ينتفع بالأجسام التي هي اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلاً وإلا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم. ورابعها: أنه لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب أن لا يكون عمله مقبولاً وأنه لا ثواب له. **والجواب:** أما الأولان فحقان، وأما الثالث فمعارض بالداعي والعلم، وأما الرابع فصاحب الكبيرة وإن لم يكن متقيًا مطلقًا ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الإخلاص فوجب أن تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم.

المسألة الثالثة: كلهم قرأوا ﴿يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ ويناله بالياء إلا يعقوب فإنه قرأ بالتاء في الحرفين فمن أنث فقد رده إلى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ والمراد أنه إنما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم، بما نفعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا، ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال من قبل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[الحج: ٣٤] والمحسن: هو الذي يفعل الحسن من الأعمال ويتمسك به فيصير محسنًا إلى نفسه بتوفير الثواب عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ

مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم، أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ بالألف ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ﴾ بغير ألف، فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم، وقال الخليل: يقال: دفع الله المكروه عنك دفعًا ودافع عنك دفاعًا والدفاع أحسنهما.

المسألة الثانية: ذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين. فلذلك قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته.

المسألة الثالثة: قال مقاتل: إن الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة، هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي ﷺ في قتلهم سرًا فنهاهم.

المسألة الرابعة: هذه الآية بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهي كقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: ١١١] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف: ١٣].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ فالمعنى أنه سبحانه جعل العلة في أنه يدافع عن الذين آمنوا أن الله لا يحب صدهم، وهو الخوان الكفور أي: خوان في أمانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٧] قال مقاتل: أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأي خيانة أعظم من هذه؟

أما قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم في رواية حفص ﴿أُذِنَ﴾ بضم الألف والباقون بفتحها أي: أذن الله لهم في القتال، وقرأ أهل المدينة وعاصم (يقَاتَلُونَ) بنصب التاء،

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (أَذن) بنصب الألف (ويقاتِلون) بكسر التاء. قال الفراء والزجاج: يعني أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين في المستقبل، ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال.

المسألة الثانية: في الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه.

أما قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾ فالمراد أنهم أذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديدًا وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية، وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركوا مكة فأذن في مقاتلتهم.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره: إن أطعتني فأنا قادر على مجازاتك، لا يعني بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بيَّن أنهم إنما أذنوا في القتال لأجل أنهم ظلموا فبين ذلك الظلم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ فبيَّن تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين: أحدهما: أنهم أخرجوهم من ديارهم. والثاني: أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم، فإن قيل: كيف استثنى من غير حق قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ وهو من الحق؟ قلنا: تقدير الكلام أنهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير، ومثله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] ثم بيَّن سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾ أن عادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الأمر قرأ نافع (لَهُدِمت) بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه إلى نفسه؟

الجواب: هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى: ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين، من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها، ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وإن كانت لغير أهل الإسلام، وذكر المفسرون وجوهًا أخر: أحدها: قال الكلبي: يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين، وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد. وثانيها: روى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يدفع الله بالمحسن عن المسيء، وبالذي يصلي عن الذي لا يصلي، وبالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق، وبالذي يحج عن الذي لا يحج، وعن ابن عمر عن

النبي ﷺ: «أَنَّ اللّه يَدفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَمِنْ جِيرَانِهِ»(١) ثم تلا هذه الآية وثالثها: قال الضحاك: عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذمة ورابعها: قال مجاهد: يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص.

السؤال الثاني: لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين؟ الجواب: لأجل ما سألت عنه اختلفوا على وجوه: **أحدها:** قال الحسن: المراد بهذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين، وإن اختلفت العبارات عنها. **وثانيها:** قول الزجاج: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلي فيه، فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه، وفي زمن عيسى الصوامع، وفي زمن نبينا محمد ﷺ المساجد فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ. **وثالثها:** بل المراد لهدمت هذه الصوامع في أيام الرسول ﷺ لأنها على كل حال يجري فيها ذكر الله تعالى فليست بمنزلة عبادة الأوثان.

السؤال الثالث: ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد؟ الجواب: ذكروا فيها وجوهًا: أحدها: الصوامع للنصارى، والبيع لليهود، والصلوات للصابئين، والمساجد للمسلمين عن أبي العالية رضي الله عنه وثانيها: الصوامع للنصارى وهي التي بنوها في الصحارى، والبيع لهم أيضًا وهي التي يبنونها في البلد، والصلوات لليهود، قال الزجاج: وهي بالعبرانية صلوتًا وثالثها: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، عن قتادة ورابعها: أنها بأسرها أسماء المساجد، عن الحسن، أما الصوامع فلأن المسلمين قد يتخذون الصوامع، وأما البيع فأطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه، وأما الصلوات فالمعنى أنه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد.

السؤال الرابع: الصلوات كيف تهدم خصوصًا على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين؟ الجواب: من وجوه: **أحدها:** المراد بهدم الصلاة إبطالها وإهلاك من يفعلها كقولهم: هدم فلان إحسان فلان إذا قابله بالكفر دون الشكر. **وثانيها:** بل المراد مكان الصلوات؛ لأنه الذي يصح هدمه كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها. **وثالثها:** لما كان الأغلب فيما ذكر ما يصح أن يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم إليه، كقولهم: متقلدًا سيفًا ورمحًا، وإن كان الرمح لا يتقلد.

السؤال الخامس: قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ مختص بالمساجد أو عائد إلى الكل؟ الجواب: قال الكلبي ومقاتل: عائد إلى الكل؛ لأن الله تعالى يذكر في هذه المواضع كثيرًا، والأقرب أنه مختص بالمساجد تشريفًا لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيرًا.

السؤال السادس: لم قدم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد؟ **الجواب:** لأنها أقدم في

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بغير إسناد.

الوجود، وقيل: أخرها في الذكر كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] ولأن أول الفكر آخر العمل، فلما كان رسول الله ﷺ خير الرسل وأمته خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام: «نَحْنُ الأَخِرُونَ السَّابِقُونَ»(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ فقال بعضهم: من ينصره بتلقى الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى، وقال آخرون: بل المراد من يقوم بسائر دينه، وإنما قالوا ذلك لأن نصرة الله على الحقيقة لا تصح، وإنما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفي قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ وعد بالنصر لمن هذه حاله، ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائمًا بإيضاح الأدلة والبينات، ويكون بالإعانة على المعارف والطاعات، وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر، ثم بيَّن تعالى أنه قوي على هذه النصرة التي وعدها المؤمنين، وأنه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ لأن العزيز هو الذي لا يضام ولا يمنع مما يريده. ثم إنه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم في القتال في الآية الأولى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد من هذا التمكن السلطنة ونفاذ القول على الخلق؛ لأن المتبادر إلى الفهم من قوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليس إلا هذا، ولأنا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الأمور الأربعة المذكورة عليه في معرض الجزاء؛ لأنه ليس كل من كان قادرًا على الفعل أتى بهذه الأشياء. إذا ثبت هذا فنقول: المراد بذلك هم المهاجرون؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ صفة لمن تقدم وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ والأنصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية أن الله تعالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطنة، فإنهم أتوا بالأمور الأربعة، وهي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لكن قد ثبت أن الله تعالى مكن الأئمة الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة. وإذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق، فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة. ولا يجوز حمل الآية على علي عليه السلام وحده؛ لأن الآية دالة على الجمع، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة. ثم إن الأمور ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبدًا وهو أيضًا يؤكد ما قلناه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الجمعة)، باب: (هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم) (٢/ ٤٤٤)، حديث رقم (٨٩٦) من طريق وهيب... به، ومسلم في كتاب (الجمعة)، باب: (هداية هذه الأمة ليوم الجمعة والطيب والسواك) (٢/ ١٩/ ٥٨٥) من طريق سفيان... به، كلاهما (وهيب، سفيان) عن ابن طاوس... به.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول ﷺ في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره، فقال: وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم، وذكر الله سبعة منهم. فإن قيل: ولم قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ولم يقل قوم موسى؟ فالجواب: من وجهين: الأول: أن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهم القبط. الثاني: كأنه قيل: بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسوله، وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام تقرير (ي)، أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب، أليس كان واقعًا قطعًا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتًا وبالعمارة خرابًا؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض؟ فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم، فإنه تعالى إنما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم، وإن شق ذلك على القلب. واعلم أن بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام، فكيف بذلك مع منزلته، لكنه في كل وقت يصل إليه من جهتهم ما يزيده غمًا، فأجرى الله عادته بأن يصبره حالاً بعد حال، وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا.

وهاهنا بحث، وهو أن هذه الآية تدل على أنه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم إلا عذاب الاستئصال فإنه لا يفعله بقوم محمد ﷺ وإن كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم. قال الحسن: السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين: أحدهما: أن عند الله حدًا من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه. والثاني: أن الله لا يعذب قومًا حتى يعلم أن أحدًا منهم لا يؤمن، فأما إذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله أن أحدًا منهم لا يؤمن، فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم

فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠] أي: من إجابة القوم، وقوله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وإذا عذبهم الله تعالى فإنه ينجي المؤمنين لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود: ٦٦] أي: بالعذاب نجينا هودًا، واعلم أن الكلام في هذه المسألة قد تقدم فلا فائدة في الإعادة، فإن قيل: كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بأنه نكير؟ قلنا: إذا كان رادعًا لغيره وصادعًا له عن مثل ما أوجب ذلك صار نكيرًا.

أما قوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال بعضهم: المراد من قوله: ﴿فَكَأَيِّن﴾ فكم على وجه التكثير، وقيل أيضًا معناه: ورُبَّ قرية. والأول أولى؛ لأنه أوكد في الزجر، فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وأنه عجل إهلاكهم أتبعه بما دل على أن لذلك أمثالاً وإن لم يذكر مفصلاً.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بالنون، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (أهلكتها) وهو اختيار أبي عبيد لقوله في الآية الأولى ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أي أهلها ودل بقوله: وهي ظالمة على ما ذكرنا، ويحتمل أن يكون المراد إهلاك نفس القرية، فيدخل تحت إهلاكها إهلاك من فيها؛ لأن العذاب النازل إذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل بهلاكها هلاك من فيها وإن كان الأول أقرب.

أما قوله وهي: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: ما معنى هذه اللفظة؟ فقال صاحب الكشاف: كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش، والخاوي: الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله، فإن فسرنا الخاوي بالساقط، كان المعنى أنها ساقطة على سقوفها، أي: خرت سقوفها على الأرض، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، وإن فسرناه بالخالي كان المعنى أنها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها، قال: ويمكن أن يكون خبرًا بعد خبر، كأنه قيل: هي خاوية وهي على عروشها، بمعنى أن السقوف سقطت على الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهي مشرفة على السقوف الساقطة، وبالجملة فالآية دالة على أنها بقيت محلاً للاعتبار.

السؤال الثاني: ما محل هاتين الجملتين من الإعراب. أعني ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؟ **الجواب:** الأولى: في محل النصب على الحال، والثانية: لا محل لها؛ لأنها معطوفة على (أهلكناها) وهذا الفعل ليس له محل. قال أبو مسلم: المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهي كانت ظالمة وهي الآن خاوية.

أما قوله: ﴿وَبِئۡرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ الحسن ﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ من أعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة أنها عامرة

فيها الماء ويمكن الاستقاء منها إلا أنها عطلت أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وفي المشيد قولان: **أحدهما:** أنه المجصص؛ لأن الجص بالمدينة يسمى الشيد. **والثاني:** أنه المرفوع المطول، والمعنى أنه تعالى بين أن القرية مع تكلف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لأجل كفرهم بهذا الوصف، وكذلك البئر التي كلفوها وصارت شربهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد، والقصر الذي أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهرًا خاليًا بلا ساكن، وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر. وفيه دلالة على أن تفسير على بمع أولى؛ لأن التقدير وهي خاوية مع عروشها ومعلوم أنها إذا كانت كذلك كانت أدخل في الاعتبار وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧]، والله أعلم بالصواب.

المسألة الثانية: روى أبو هريرة رضي الله عنه أن هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به، ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت، وإنما سميت بذلك؛ لأن صالحًا حين حضرها مات، وثم بلدة عند البئر اسمها حاضورًا بناها قوم صالح، وأَمَّروا عليها حاسر بن جلاس وجعلوا وزيره سنجاريب وأقاموا بها زمانًا ثم كفروا وعبدوا صنمًا، وأرسل الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه في السوق فأهلكهم الله تعالى، وعطل بئرهم وخرَّب قصورهم، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري: وهذا عجيب لأني زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها: عكة فكيف يقال: إنه بحضرموت.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار؛ لأن الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل، ولكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبر القلب؛ لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع ألبتة ولو تفكر فيها سمع لانتفع، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ كأنه قال: لا عمى في أبصارهم فإنهم يرون بها، لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه. **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل يدل على الأمر بالسفر؟ الجواب: يحتمل أنهم ما سافروا فحثهم على السفر؛ ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا.

السؤال الثاني: ما معنى الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾؟ والجواب: هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثًا ومذكرًا وفي قراءة ابن مسعود (فإنه) ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا يفسره الأبصار.

السؤال الثالث: أي فائدة في ذكر الصدور مع أن كل أحد يعلم أن القلب لا يكون إلا في الصدر؟ الجواب: أن المتعارف أن العمى مكانه الحدقة، فلما أريد إثباته للقلب على خلاف المتعارف

احتيج إلى زيادة بيان كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسان وتثبيت؛ لأن محل المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهوًا، ولكني تعمدته على اليقين. وعندي فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وعند قوم أن محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين أن محل ذلك هو الصدر.

السؤال الرابع: هل تدل الآية على أن العقل هو العلم وعلى أن محل العلم هو القلب؟ الجواب: نعم، لأن المقصود من قوله: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ العلم وقوله: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل، فوجب جعل القلب محلاً للتعقل ويسمى الجهل بالعمى؛ لأن الجاهل لكونه متحيرًا يشبه الأعمى.

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزئون باستعجال العذاب فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ وفي ذلك دلالة على أنه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ولأن قولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٧] يدل على ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لأن الوعد بالعذاب إذا كان في الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بيّن أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ لو بقي وعذب في كثرة الآلام وشدتها فبيّن سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه، وهذا قول أبي مسلم وهو أولى الوجوه. الوجه الثاني: أن المراد طول أيام الآخرة في المحاسبة ويرجع معناه إلى قريب مما تقدم، وذلك أن الأيام القصيرة إذا مرت في الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الأيام المستطيلة إذا مرت في الشدة. ثم إن العذاب الذي يكون طول أيامها إلى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله. والوجه الثالث: أن اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة إليه على السواء؛ لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء، فإذا لم يستبعدوا إمهال يوم فلا يستبعدوا أيضًا إمهال ألف سنة.

اما قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ فالمراد وكم من قرية أخرت إهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم، ومع ذلك فعذابهم مدخر إذا صاروا إليَّ وهو تفسير قوله: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فإن قيل: فلم قال فيما قبل: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] وقال هاهنا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾

الأولى بالفاء وهذه بالواو؟ قلنا: الأولى وقعت بدلاً عن قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤] وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، أعني قوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

أما قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فالمعنى أنه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والإنذار، وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن إدامة التخويف والإنذار، وأن يقول لهم: إنما بعثت للإنذار فاستهزاؤكم بذلك لا يمنعني منه.

قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن للرسول ﷺ أنه يجب أن يقول لهم: أنا نذير مبين، أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم؛ لأن الرجل إنما يكون منذرًا بذكر الوعد للمطيعين والوعيد للعاصين. فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فجمع بين الوصفين وهذا دليل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان وبه يبطل قول المعتزلة، ويدخل في الإيمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، ويدخل في العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور، ثم بيَّن سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم. أما المغفرة فإما أن تكون عبارة عن غفران الصغائر، أو عن غفران الكبائر بعد التوبة، أو عن غفرانها قبل التوبة، والأولان واجبان عند الخصم، وأداء الواجب لا يسمى غفرانًا، فبقي الثالث وهو دلالته على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة. وأما الرزق الكريم فهو إشارة إلى الثواب، وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية، وهو أن الإنسان هناك يستغني عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها، وأن يكون للصفات الثبوتية، وهو أن يكون رزقًا كثيرًا دائمًا خالصًا عن شوائب الضرر، مقرونًا بالتعظيم والتبجيل. والأولى جعل الكريم دالاً على كل هذه الصفات، فهذا شرح حال المؤمنين. وأما حال الكفار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ والمراد: اجتهدوا في ردها والتكذيب بها حيث سموها سحرًا وشعرًا وأساطير الأولين، ويقال لمن بذل جهده في أمر: إنه سعى فيه توسعًا من حيث بلغ في بذل الجهد النهاية، كما إذا بلغ الماشي نهاية طاقته فيقال له سعى، وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازًا. قال صاحب (الكشاف): يقال: سعى في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه، أما المعاجز فيقال: عاجزته، أي: طمعت في إعجازه، واختلفوا في المراد، هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين؟ والأقرب هو الثاني؛ لأنهم إن أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا في إعجازه وإن أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا أنهم يعجزونه ويغلبونه، ويصح منهم أن يظنوا ذلك في الرسول بالحيل والمكايد. أما الذين قالوا: المراد معاجزين لله، فقد ذكروا وجوهًا: أحدها: المراد بمعاجزين

مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث وثانيها: أنهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب وثالثها: يعجزون الله بإدخال الشبه في قلوب الناس. والجواب عن الأول: أن من جحد أصل الشيء لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشيء، ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده أنهم ظنوا مغالبة الرسول ﷺ فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر والجواب عن الثاني والثالث: أن المغالبة في الحقيقة ترجع إلى الرسول والأمة، لا إلى الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فالمراد أنهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب، فإن قيل: إنه عليه السلام في هذه الآية بشر المؤمنين أولاً وأنذر الكافرين ثانيًا، فكان القياس أن يقال: قل: يأيها الناس إنما أنا لكم بشير ونذير، قلنا: الكلام مسوق إلى المشركين، ويأيها الناس نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ٤٦] ووصفوا بالاستعجال وإنما ألقى ذكر المؤمنين وثوابهم في البين زيادة لغيظهم وإيذائهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: من الناس من قال: الرسول هو الذي حدث وأرسل، والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم، ومن الناس من قال: إن كل رسول نبي، وليس كل نبي يكون رسولاً، وهو قول الكلبي والفراء. وقالت المعتزلة: كل رسول نبي، وكل نبي رسول، ولا فرق بينهما، واحتجوا على فساد القول الأول بوجوه: أحدها: هذه الآية فإنها دالة على أن النبي قد يكون مرسلاً، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤]. وثانيها:

أن الله تعالى خاطب محمدًا مرة بالنبي ومرة بالرسول، فدل على أنه لا منافاة بين الأمرين، وعلى القول الأول المنافاة حاصلة. وثالثها: أنه تعالى نص على أنه خاتم النبيين. ورابعها: أن اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ وهو الخبر، أو من قولهم: نبأ إذا ارتفع، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة. أما القول الثاني: فاعلم أن شيئًا من تلك الوجوه لا يبطله، بل هذه الآية دالة عليه؛ لأنه عطف النبي على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص. وقال في موضع آخر: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] وذلك يدل على أنه كان نبيًا، فجعله الله مرسلاً وهو يدل على قولنا: وقِيلَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ كم المرسلون؟ فقال «ثلاثمائة وثلاثة عشرة»، فَقِيلَ وَكَمِ الأَنْبِيَاءُ؟ فَقَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الْجَمُّ الْغَفِيرُ»(١) إذا ثبت هذا فنقول: ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورًا: أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله. والثاني: أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحق، ويعقوب، وأيوب، ويونس، وهارون، وداود، وسليمان، رسلاً؛ لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ. والثالث: أن من جاءه الملك ظاهرًا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولاً، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله، فهو النبي الذي لا يكون رسولاً وهذا هو الأولى.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن الرسول ﷺ لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه «تِلْكَ الْغَرَانِيقُ العلى مِنْهَا الشَّفَاعَةُ تُرْتَجَى» فلما

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه النسائي في كتاب (الاستعاذة)، باب: (الاستعاذة من الشياطين الإنس) (٨/ ٢٧٥)، حديث رقم (٥٥٠٧) من طريق جعفر بن عون، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبي عمر، عن عبيد بن خشخاش... به مختصرًا على الاستعاذة فقط، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٧٩)، حديث رقم (٢١٥٩٢)، قال: حدثنا يزيد أخبرنا المسعودي عن أبي عمر والشامي بن عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر... به، وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٦٥)، حديث رقم (٤٧٨) قال: حدثنا المسعودي عن أبي عمرو الشامي، عن عبيد بن الخشني، عن أبي ذر... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٢٩١)، حديث رقم (٣٥٧٦) من طريق أبي داود حدثنا المسعودي... به، وهناد في (الزهد) (٢/ ٥١٦ - ٥١٧)، حديث رقم (١٠٦٥)، قال: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا المسعودي عن أبي عمرو... به، وفي إسناده: عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، صدوق اختلط قبل موته، وضابطه أن من سمع منه ببغداد فبعد الاختلاط، وأبو عمر، ويقال أبو عمرو الدمشقي قال الحافظ: ضعيف وعبيد بن الخشخاش لين كما قال الحافظ.

سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة، وأبي أحيحة سعيد بن العاصي، فإنهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها؛ لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال: ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك؟! فحزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا وخاف من الله خوفًا عظيمًا حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [(١)] الآية. هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن فوجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. وثانيها: قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [يونس: ١٥]. وثالثها: قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلي لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣] وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل. وخامسها: قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل. وسادسها: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وسابعها: قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]. وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابًا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم، وأيضًا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق [(٢)]. وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق. **وأما المعقول فمن وجوه:**

أحدها: أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن

(١) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٩/ ٣٤)، حديث رقم (٨٣١٦) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٦/ ٣٤)، وقال: رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه ابن لهيعة أيضا.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (١/ ٣٦٤)، حديث رقم (١٠٢١)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٠٩)، حديث رقم (٣٧٤٥)، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه بهذه السياقة، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٢/ ٣١٤)، حديث رقم (٣٥٢٧)، جميعًا من طريق أيوب عن عكرمة عن ابن عباس... به.

أعظم سعيه كان في نفي الأوثان وثانيها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنًا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه، وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم. وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدًا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم. ورابعها: قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنًا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى. وخامسها: وهو أقوى الوجوه أنَّا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعًا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين: أحدهما: تمنى القلب، والثاني: القراءة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي: إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال حسان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّه أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لاَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ[1]

قيل: إنما سميت القراءة أمنية؛ لأن القارىء إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها، وقال أبو مسلم: التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية: وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي: قدر لك. وقال رواة اللغة: الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئًا فشيئًا، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية، إما القراءة، وإما الخاطر، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان: الأول: أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول ﷺ فيه ويشتبه على القارىء دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى. الثاني: المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد

(١) وقاله هذا البيت أيضًا كعب بن مالك الأنصاري وهو كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي الخزرجي. ؟- ٥٠ هـ/ ؟- ٦٧٠م، صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة واشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر الوقائع.

تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه. وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات. وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافًا إلى الشيطان.

الوجه الثاني: قالوا: إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته؛ ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول ﷺ قالوا: والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصًا آخر ظن الحاضرون أنه كلام الرسول، ثم هذا لا يكون قادحًا في النبوة لما لم يكن فعلاً له، وهذا أيضًا ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول ﷺ بما يشتبه على كل السامعين كونه كلامًا للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع، فإن قيل: هذا الاحتمال قائم في الكل ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما في هذه الواقعة إزالة للتلبيس، قلنا: لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما في المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل.

الوجه الثالث: أن يقال: المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فإنه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر: تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته؛ لأنهم كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها، وقيل: إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول ﷺ ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان؛ لأنه بوسوسته يحصل أولاً، ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطانًا وهذا أيضًا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول ﷺ إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت. وثانيهما: لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل، فإن قيل: إنما لم يفعل الرسول ﷺ ذلك؛ لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديًا إلى التلبيس كما يؤدي سهوه في الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس، قلنا: إن القرآن لم يكن

مستقرًا على حالة واحدة في زمان حياته؛ لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببًا لزوال اللبس، وأيضًا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم.

الوجه الرابع: هو أن المتكلم بهذا هو الرسول ﷺ ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فإنه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهوًا، أو قسرًا، أو اختيارًا.

أما الوجه الأول: وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوًا فكما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه، وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه، فلما انتهى إلى الغرانيق قال: لم آتك بهذا، فحزن رسول الله ﷺ إلى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضًا لوجوه: أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع. وثانيها: أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدًا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها. وثالثها: هب أنه تكلم بذلك سهوًا، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر.

أما الوجه الثاني: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسرًا وهو الذي قال قوم: إن الشيطان أجبر النبي ﷺ على أن يتكلم بهذا فهذا أيضًا فاسد لوجوه: أحدها: أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين. وثانيها: أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال. وثالثها: أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيًا عن الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين.

أما الوجه الثالث: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختيارًا فهاهنا وجهان:

أحدهما: أن نقول إن هذه الكلمة باطلة. والثاني: أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه طريقين: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: إن شيطانًا يقال له: الأبيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ إلى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام: أنا ما جئتك بهذه، قال رسول الله ﷺ: إنه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني الطريق. الثاني: قال بعض الجهال: إنه عليه السلام لشدة حرصه

على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها، وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم ألبتة؛ لأن الأول يقتضي أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي أنه كان خائنًا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين.

أما الوجه الثاني: وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فهاهنا أيضًا طرق: **الأول:** أن يقال: الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنًا منزلاً في وصف الملائكة. فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته. **الثاني:** أن يقال: المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، فكأنه قال: أشفاعتهن ترتجى؟ **الثالث:** أن يقال إنه ذكر الإثبات وأراد النفي كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لا تضلوا كما قد يذكر النفي ويريد به الإثبات كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١] والمعنى: أن تشركوا. وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل، ولكن الأصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك؛ لأن الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر، ومثل ذلك في التنفير أعظم من الأمور التي حثه الله تعالى على تركها كنحو الفظاظة، والكتابة، وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة في قوله: تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها، فهذا كله إذا فسرنا التمني بالتلاوة. وأما إذا فسرناها بالخاطر وتمنى القلب فالمعنى أن النبي ﷺ متى تمنى بعض ما يتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته، ثم اختلفوا في كيفية تلك الوسوسة على وجوه:

أحدها: أنه يتمنى ما يتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا: إنه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعندما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا أيضًا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم. وثانيها: ما قال مجاهد: من أنه عليه السلام كان يتمنى إنزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها. وثالثها: يحتمل أنه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله إن كان مجملاً فيلقى الشيطان في جملته ما لم يرده، فبيَّن تعالى أنه ينسخ ذلك بالإبطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته. ورابعها: معنى الآية إذا تمنى إذا أراد فعلاً مقربًا إلى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وكقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ومن الناس من قال: لا يجوز حمل الأمنية على تمني القلب؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله ﷺ فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي

﴿قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ والجواب: لا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسألة.

المسألة الثالثة: يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان، بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم، وقال أبو مسلم: معنى الآية أنه لم يرسل نبيًا إلا إذا تمنى كأنه قيل: وما أرسلنا إلى البشر ملكًا وما أرسلنا إليهم نبيًا إلا منهم، وما أرسلنا نبيًا خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وأن يلقي في خاطره وما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبي على الوحي وعلى حفظه ويعلمه صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان، قال: وفيما تقدم من قوله: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين: أنا نذير لكم لكني من البشر لا من الملائكة، ولم يرسل الله تعالى مثلي ملكًا بل أرسل رجالاً فقد وسوس الشيطان إليهم، فإن قيل هذا إنما يصح لو كان السهو لا يجوز على الملائكة، قلنا: إذا كانت الملائكة أعظم درجة من الأنبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الأنبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة، واعلم أنه سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك ببحثين:

البحث الأول: كيفية إزالتها وذلك هو قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾ فالمراد: إزالته وإزالة تأثيره فهو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الأحكام. أما قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦۗ﴾ فإذا حمل التمني على القراءة فالمراد به آيات القرآن وإلا فيحمل على أحكام الأدلة التي لا يجوز فيها الغلط.

البحث الثاني: أنه تعالى بيَّن أثر تلك الوسوسة، ثم إنه سبحانه شرح أثرها في حق الكفار أولاً ثم في حق المؤمنين ثانيًا، أما في حق الكفار فهو قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَـٰنُ فِتۡنَةً﴾ والمراد به تشديد التبعيد؛ لأن عندما يظهر من الرسول ﷺ الاشتباه في القرآن سهوًا يلزمهم البحث عن ذلك ليميزوا السهو من العمد وليعلموا أن العمد صواب والسهو قد لا يكون صوابًا.

أما قوله: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ولم خصهم بذلك؟ الجواب: لأنهم مع كفرهم يحتاجون إلى ذلك التدبر، وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون إلى التدبر.

السؤال الثاني: ما مرض القلب؟ الجواب: أنه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرًا وباطنًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وإنهم، فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة

والمباعدة سواء، وأما في حق المؤمنين فهو قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وفي الكناية ثلاثة أوجه: أحدها: أنها عائدة إلى نسخ ما ألقاه الشيطان، عن الكلبي. وثانيها: أنه الحق أي: القرآن عن مقاتل. وثالثها: أن تمكن الشيطان من ذلك الإلقاء هو الحق، أما على قولنا فلأنه سبحانه وتعالى أي شيء فعل فقد تصرف في مُلكه ومِلكه بضم الميم وكسرها فكان حقًا، وأما على قول المعتزلة فلأنه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صوابًا فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم أي: تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضي كائن، وكل ميسر لما خلق له، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إلى أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا ما أشكل منه من المجمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرىء (لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا) بالتنوين، ولما بيَّن سبحانه حال الكافرين أولاً ثم حال المؤمنين ثانيًا عاد إلى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن أو من الرسول، وذلك يدل على أن الأعصار إلى قيام الساعة لا تخلو ممن هذا وصفه.

اما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم، وأنهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء. واختلف في المراد باليوم العقيم وفيه قولان: أحدهما: أنه يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة: أحدها: أن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن. وثانيها: أن المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز. وثالثها: هو الذي لا خير فيه يقال: ريح عقيم إذا لم تنشىء مطرًا ولم تلقح شجرًا. ورابعها: أنه لا مثل له في عظم أمره، وذلك لقتال الملائكة فيه. القول الثاني: أنه يوم القيامة، وإنما وصف بالعقيم لوجوه: أحدها: أنهم لا يرون فيه خيرًا. وثانيها: أنه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة. وثالثها: أن كل ذات حمل تضع حملها في ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه، وهذا القول أولى؛ لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ويكون المراد يوم بدر؛ لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر، فإن قيل: لما ذكر الساعة. فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار. قلنا: ليس كذلك؛ لأن الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم، وعلى أن الأمر لو كان كما قاله لم يكن تكرارًا؛ لأن في الأول ذكر الساعة، وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم، ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وبعذاب يوم عقيم القيامة.

اما قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك أنه لا مالك في ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملك الله الأمور غيره، وبيَّن أنه الحاكم بينهم لا حاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بيَّن كيف يحكم بينهم، وأنه يصير المؤمنين إلى جنات النعيم، والكافرين في العذاب المهين، وقد تقدم وصف الجنة والنار فإن

قيل: التنوين في يومئذ عن أي جملة ينوب؟ قلنا: تقديره الملك يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن الملك له يوم القيامة وأنه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين، وأفردهم بالذكر تفخيمًا لشأنهم فقال عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ واختلفوا فيمن أريد بذلك، فقال بعضهم: من هاجر إلى المدينة طالبًا لنصرة الرسول ﷺ وتقربًا إلى الله تعالى، وقال آخرون: بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول ﷺ أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده، ومنهم من حمله على الأمرين. واختلفوا من وجه آخر فقال قوم: المراد قوم مخصوصون، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم، وظاهر الكلام للعموم. ثم إنه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم، أما الرزق فقوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: لا شبهة في أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة، وقال الأصم: إنه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] فهذا في الدنيا وفي الآخرة الجنة، وقال الكلبي: رزقًا حسنًا حلالاً وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان؛ لأنه تعالى جعله جزاء على هجرتهم في سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون إلا نعيم الجنة.

المسألة الثانية: لا بد من شرط اجتناب الكبائر في كل وعد في القرآن؛ لأن هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة لكان حكمه في المشيئة على قولنا، ولخرج عن أن يكون أهلاً للجنة قطعًا على قول المعتزلة. فإن قيل: فما فضله على سائر المؤمنين في الوعد إن كان كما قلتم؟ قلنا: فضلهم يظهر لأن ثوابهم أعظم وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] فمعلوم أن من هاجر مع الرسول ﷺ وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين، وعلى هذا الوجه عظم محل الأنصار حتى صار

ذكرهم والثناء عليهم تاليًا لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه.

المسألة الثالثة: اختلفوا في معنى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه: أحدها: التفاوت إنما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره. وثانيها: أن يكون المراد أنه الأصل في الرزق، وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى. وثالثها: أن غيره ينقل الرزق من يده إلى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق. ورابعها: أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به، إما لأجل أن يخرج عن الواجب، وإما لأجل أن يستحق به حمدًا أو ثناء، وإما لأجل دفع الرقة الجنسية، فكان الواحد منا إذا رَزَق فقد طلب العوض، أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالاً زائدًا فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان. وخامسها: أن غيره إنما يرزق لو حصل في قلبه إرادة ذلك الفعل، وتلك الإرادة من الله، فالرازق في الحقيقة هو الله تعالى. وسادسها: أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملاً من منة الغير، فكان هو خير الرازقين. وسابعها: أن الغير إذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به، ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقًا برزق الله وملحوقًا به حتى يحصل الانتفاع، وأما رزق الله تعالى فإنه لا حاجة به إلى رزق غيره، فثبت أنه سبحانه خير الرازقين.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أمور ثلاثة: أحدها: أن الله تعالى قادر. وثانيها: أن غير الله يصح منه أن يرزق ويملك، ولولا كونه قادرًا فاعلاً لما صح ذلك. وثالثها: أن الرزق لا يكون إلا حلالاً لأن قوله ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ دلالة على كونهم ممدوحين. والجواب: لا نزاع في كون العبد قادرًا، فإن عندنا القدرة مع الداعي مؤثرة في الفعل بمعنى الاستلزام. وأما الثالث فبحث لفظي وقد سبق الكلام فيه.

المسألة الخامسة: لما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ فسوى بينهما في الوعد، ظن قوم أن حال المقتول في الجهاد والميت على فراشه سواء، وهذا إن أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه؛ لأن الجمع بينهما في الوعد لا يدل على تفضيل ولا تسوية، كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك. وإن أخذوه من دليل آخر فهو حق، فإنه روى أنس أن النبي ﷺ قال: «**الْمَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّه تَعَالَى، وَالْمُتَوَفَّى فِي سَبِيلِ اللَّه بِغَيْرِ قَتْلٍ، هُمَا فِي الْخَيْرِ وَالأَجْرِ شَرِيكَانِ**»(١) ولفظ الشركة مشعر بالتسوية، وإلا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة. وروى أيضًا: أن طوائف من أصحاب النبي ﷺ قالوا يا رسول الله، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؛ فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل

---

(١) لم أجده.

على التسوية؛ لأنهم لما طلبوا مقدار الأجر، فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيدًا. أما المسكن فقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ مُدخلاً بضم الميم وهو من الإدخال، ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع.

المسألة الثانية: قيل في المدخل الذي يرضونه: إنه خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع، وقال أبو القاسم القشيري: هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما قال: يرضونه؛ لأنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ [التوبة: ٢٤] وقوله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] وقوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨] وقوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

المسألة الثالثة: إن قيل: ما معنى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وما تعلقه بما تقدم؟ قلنا: يحتمل أنه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم، ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك في الجنة، وأما الحليم فالمراد أنه لحلمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية، بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة.

أما قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد مضى الكلام فيه في هذه الآية في هذه السورة. وقال الزجاج: أي: الأمر ما قصصنا عليك من إنجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ معناه: قاتل من كان يقاتله، ثم كان المقاتل مبغيًا عليه بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدىء بالقتال، قال مقاتل: نزلت في قوم من المشركين لقوا قومًا من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقال بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر، فأبوا وقاتلوهم. فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم. فوقع في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام ما وقع، فأنزل الله تعالى هذه الآية: وعفا عنهم وغفر لهم وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: أي تعلق لهذه الآية بما قبلها؟ الجواب: كأنه سبحانه وتعالى قال: مع إكرامي لهم في الآخرة بهذا الوعد لا أدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم.

السؤال الثاني: هل يرجع ذلك إلى المهاجرين خاصة أو إليهم وإلى المؤمنين؟ الجواب: الأقرب أنه يعود إلى الفريقين فإنه تقدم ذكرهما، وبيَّن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك في الدنيا.

السؤال الثالث: ما المراد بالعقوبة المذكورة؟ الجواب فيه وجهان: أحدهما: المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم، وورد بعضهم إلى غير ذلك، فبيَّن تعالى أن من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم، وهذه النصرة المذكورة تقوي تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص لأن ظاهر النص لا يليق إلا بذلك. والجواب الثاني: أن هذه الآية في القصاص والجراحات، وهي آية مدنية عن الضحاك.

السؤال الرابع: لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة؟ الجواب: أطلق اسم العقوبة على الأول للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

السؤال الخامس: أي تعلق لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ بما تقدم؟ الجواب فيه وجوه: أحدها: أن الله تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجاني بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة، فكأنه سبحانه قال: إني قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها، فإني أنا الذي أذنت لك فيه. وثانيها: أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على الباغي، لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين. وثالثها: أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

السؤال السادس: أي تعلق لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بما قبله؟ والجواب من وجهين: أحدهما: ذلك أي: ذلك النصر بسبب أنه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالقًا لليل والنهار ومتصرفًا فيهما، فوجب أن يكون قادرًا عالمًا بما يجري فيهما، وإذا كان كذلك كان قادرًا على النصر مصيبًا فيه. وثانيها: المراد أنه سبحانه مع ذلك النصر ينعم في الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما في الآخر.

السؤال السابع: ما معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؟

الجواب فيه وجهان: أحدهما: يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها، كما يضيء البيت بالسراج ويظلم بفقده. وثانيهما: أنه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

السؤال الثامن: أي تعلق لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ بما تقدم؟ الجواب: المراد أنه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره، فكذلك يدرك المسموع والمبصر، ولا يجوز المنع عليه، ويكون ذلك كالتحذير من الإقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر.

السؤال التاسع: ما معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وأي تعلق له بما تقدم؟

الجواب فيه وجهان: أحدهما: المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه

الأمور إنما حصل لأجل أن الله هو الحق أي: هو الموجود الواجب لذاته الذي يمتنع عليه التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد. ثانيهما: أن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [غافر: ٤٣].

السؤال العاشر: أي تعلق لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ بما تقدم؟ والجواب: معنى العلي: القاهر المقتدر الذي لا يغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغبًا بذلك في عبادته زاجرًا عن عبادة غيره، فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه، وذلك أيضًا يفيد كمال القدرة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ إخبار عن الغيب فإنه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات.

المسألة الرابعة: قال الشافعي رحمه الله: من حرق حرقناه، ومن غرق غرقناه. وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل يقتل بالسيف. واحتج الشافعي رحمه الله بهذه الآية، فإن الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه.

المسألة الخامسة: قرأ نافع وابن عامر (تدعون) بالتاء هاهنا وفي لقمان، وفي المؤمنين، وفي العنكبوت. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، كلها بالياء على الخبر، والعرب قد تنصرف من الخطاب إلى الإخبار ومن الإخبار إلى الخطاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل في النهار ونبه به على نعمه، أتبعه بأنواع أُخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهي ستة.

أولها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكروا في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وجوهًا ثلاثة: أحدها: أن المراد هو الرؤية الحقيقية، قالوا؛ لأن الماء النازل من السماء يُرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى. وثانيها: أن المراد ألم تخبر على سبيل

الاستفهام. وثالثها: المراد ألم تعلم والقول الأول ضعيف؛ لأن الماء وإن كان مرئيًا إلا أن كون الله منزلاً له من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم؛ لأن المقصود من تلك الرؤية هو العلم؛ لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل.

المسألة الثانية: قرئ (مُخْضَرَة) كمبقلة ومسبعة أي ذات خضرة، **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ﴾ ولم يقل فأصبحت؟ الجواب: لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان، كما تقول: أنعم عليَّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرًا له، ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع.

السؤال الثاني: لم رفع ولم ينصب جوابًا للاستفهام؟ والجواب: لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض؛ لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر. وإن نصبته فأنت نافٍ لشكره شاكٍ لتفريطه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر.

السؤال الثالث: لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الإعادة، كما قال أبو مسلم؟ الجواب: يحتمل ذلك ويحتمل أنه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمه.

السؤال الرابع: ما تعلق قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بما تُقدم؟ الجواب: من وجوه أحدها: أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به؛ لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة والسماء إذا أمطرت كان ذلك سببًا لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع. ومعنى (خَبِيرٌ) أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان وثانيها: قال ابن عباس (لَطِيفٌ) بأرزاق عباده (خَبِيرٌ) بما في قلوبهم من القنوط وثالثها: قال الكلبي: (لَطِيفٌ) في أفعاله (خَبِيرٌ) بأعمال خلقه. ورابعها: قال مقاتل: (لَطِيفٌ) باستخراج النبت (خَبِيرٌ) بكيفية خلقه.

الدلالة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ والمعنى: أن كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غني عن الأشياء كلها وعن حمد الحامدين أيضًا؛ لأنه كامل لذاته، والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعامًا عليهم، لا لحاجة به إلى ذلك. وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليًا عن غرض عائد إليه فكان مستحقًا للحمد.

فكأنه قال: إنه لكونه غنيًا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان، ومن كان كذلك كان مستحقًا للحمد فوجب أن يكون حميدًا. فلهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

الدلالة الثالثة: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضًا حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها، فلولا أن

سخر الله تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمة.

الدلالة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ والأقرب أن المراد وسخر لكم الفلك لتجري في البحر، وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها، فلولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب. فنبه تعالى على نعمه بذلك، وبأن خلق ما تعمل منه السفن، وبأن بيَّن كيف تعمل، وإنما قال: بأمره لأنه؛ سبحانه لما كان المجري لها بالرياح نسب ذلك إلى أمره توسعًا؛ لأن ذلك يفيد تعظيمه بأكثر مما يفيد لو أضافه إلى فعل بناء على عادة الملوك في مثل هذه اللفظة.

الدلالة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ واعلم أن النعم المتقدمة لا تكمل إلا بهذه؛ لأن السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلبًا. ووجب أن يكون ثقيلاً، وما كان كذلك فلا بد من الهوى لولا مانع يمنع منه، وهذه الحجة مبنية على ظاهر الأوهام، وقوله تعالى: ﴿أَن تَقَعَ﴾ قال الكوفيون: كي لا تقع، وقال البصريون: كراهية أن تقع، وهذا بناء على مسألة كلامية وهي أن الإرادات والكراهات هل تتعلق بالعدم؟ فمن منع من ذلك صار إلى التأويل الأول، والمعنى أنه أمسكها لكي لا تقع فتبطل النعم التي أنعم بها.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمعنى أن المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية في الإحسان والإنعام، فهو إذن رؤوف رحيم.

الدلالة السادسة: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ والمعنى: أن من سخر له هذه الأمور، وأنعم عليه بها فهو الذي أحياه فنبه بالإحياء الأول على إنعام الدنيا علينا بكل ما تقدم. ونبه بالإماتة والإحياء الثاني على نعم الدين علينا، فإنه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة وإلا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى. يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها إلى غير ذلك معنى، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقي، وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به في باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده، ثم يقول: إن الولد لكفور لنعم الوالد زجرًا له عن الكفران وبعثًا له على الشكر، فلذلك أورد تعالى ذلك في الكفار، فبيَّن أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإنسان هاهنا هو الكافر، وقال: أيضًا هو الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل والعاص وأبيّ بن خلف، والأولى تعميمه في كل المنكرين.

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين أنه رؤوف رحيم بعباده وإن كان منهم من يكفر ولا يشكر، أتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: إنما حذف الواو في قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ لأنه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف.

المسألة الثانية: في المنسك أقوال: أحدها: قال ابن عباس عيدًا يذبحون فيه. وثانيها: قربانًا ولفظ المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد. وثالثها: مألفًا يألفونه إما مكانًا معينًا أو زمانًا معينًا لأداء الطاعات. ورابعها: المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الأقرب لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨] ولأن المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة، وإذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص. فإن قيل: هلا حملتموه على الذبح؛ لأن المنسك في العرف لا يفهم منه إلا الذبح؟ وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها؟ الجواب: عن الأول لا نسلم أن المنسك في العرف مخصوص بالذبح، والدليل عليه أن سائر ما يفعل في الحج يوصف بأنه مناسك ولأجله قال عليه السلام: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» وعن الثاني: أن قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أليق بالعبادة منه بالوقت والمكان.

المسألة الثالثة: زعم قوم أن المراد من قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ من كان في زمن الرسول ﷺ متمسكًا بشرع كاليهود والنصارى، ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد من الأمم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق؛ لأن قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ كالوصف للأمم وإن لم يعبدوا في الحال.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ فقرىء (فلا ينزعنك) أي: أثبت في دينك ثباتًا لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه. وأما قوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: وهو قول الزجاج: أنه نهى لهم عن منازعتهم، كما تقول: لا يضاربنك فلان أي: لا تضاربه. والثاني: أن المراد أن عليهم اتباعك وترك مخالفتك، وقد استقر الأمر الآن على شرعك وعلى أنه ناسخ لكل ما عداه. فكأنه تعالى نهى كل أمة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة، وألزمها أن تتحول إلى اتباع الرسول ﷺ فلذلك قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: لا تخص بالدعاء أمة دون أمة فكلهم أمتك فادعهم إلى شريعتك فإنك على هدى مستقيم، والهدى يحتمل نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى. كأنه قال: ادعهم إلى هذا الدين فإنك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ والمعنى فإن عدلوا عن النظر في هذه الأدلة إلى طريقة المراء

والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت ما يلزمك ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا الجنس الذي يجري مجرى الوعيد والتحذير من حكم يوم القيامة الذي يتردد بين جنة وثواب لمن قبل، وبين نار وعقاب لمن رد وأنكر. فقال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فتعرفون حينئذ الحق من الباطل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الحج: ٦٩] أتبعه بما به يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول ﷺ والوعد له وإيعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى.

المسألة الثانية: الخطاب مع الرسول ﷺ والمراد سائر العباد ولأن الرسالة لا تثبت إلا بعد العلم بكونه تعالى عالمًا بكل المعلومات إذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق، فحينئذ لا يكون إظهار المعجز دليلاً على الصدق، وإذا كان كذلك استحال أن لا يكون الرسول عالمًا بذلك. فثبت أن المراد أن يكون خطابًا مع الغير.

أما قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ﴾ ففيه قولان: أحدهما: وهو قول أبي مسلم أن معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال: كتبت المزادة أكتبها إذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها، ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس: حفظ ما يتعاملون به، فالمراد من قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ﴾ أنه محفوظ عنده والتالي وهو قول الجمهور أن كل ما يحدثه الله في السموات والأرض فقد كتبه في اللوح المحفوظ قالوا: وهذا أولى؛ لأن القول الأول وإن كان صحيحًا نظرًا إلى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف، ومعلوم أن الكتاب هو ما تكتب فيه الأمور فكان حمله عليه أولى. فإن قيل: فقد يوهم ذلك أن علمه مستفاد من الكتاب وأيضًا فأي فائدة في ذلك الكتاب؟

والجواب عن الأول: أن كتبه تلك الأشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على أنه سبحانه غني في علمه عن ذلك الكتاب. وعن الثاني: أن الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه فصار ذلك دليلاً لهم زائدًا على كونه سبحانه عالمًا بكل المعلومات.

أما قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فمعناه أن كتبه جملة الحوادث مع أنها من الغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير، وإن كان هذا الوصف لا يستعمل إلا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الأمور، وتعالى الله عن ذلك ثم بيّن سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله. فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ فبين أن عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي وهو المراد من قوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ ولا عن دليل عقلي وهو المراد من قوله: ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة، فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلاً، فمن هذا الوجه يدل على أن الكافر قد يكون كافرًا، وإن لم يعلم كونه كافرًا، ويدل أيضًا على فساد التقليد.

أما قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنهم ليس لهم أحد ينتصر لهم من الله كما قد تتفق النصرة في الدنيا. والثاني: ما لهم في كفرهم ناصر بالحجة فإن الحجة ليست إلا للحق، واحتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة والكلام عليه معلوم.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني: من تقدم ذكره وهذه الآيات هي القرآن، ووصفها بأنها بينات؛ لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان الأحكام، فبيَّن أنهم مع جهلهم إذا نبهوا على الأدلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب، قال صاحب (الكشاف): المنكر الفظيع من التهجم والفجور والنشوز والإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله، وللمفسرين في المنكر عبارات: أحدها: قال الكلبي: تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن. ثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: التجبر والترفع. وثالثها: قال مقاتل: أنكروا أن يكون من الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ فقال الخليل والفراء والزجاج: السطو شدة البطش والوثوب، والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيمًا لإنكار ما خوطبوا، به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الأنبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ﴾ قال صاحب (الكشاف): قوله ﴿مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ أي: من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم، فقوله: ﴿مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ فيه وجهان: أحدهما: المراد أن الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم. والثاني: أن يكون المراد بشر من

ذلكم ما تهمون به فيمن يحاجكم فإن أكبر ما يمكنكم فيه الإهلاك ثم بعده مصيرهم إلى الجنة وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها، وأما ﴿ ٱلنَّارُ﴾ فقال صاحب (الكشاف): قرىء (النَّارُ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلاً يقول ما شر من ذلك؟ فقيل: النار أي هو النار. وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر. ثم بيَّن سبحانه أنه وعدها الذين كفروا إذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير، قال صاحب (الكشاف): ﴿ وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ استئناف كلام ويحتمل أن يكون النار مبتدأ ووَعَدَهَا خبرًا.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم، ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم.

أما قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ **ففيه سؤالات:**

السؤال الأول: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً؟ والجواب: لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلاً.

السؤال الثاني: قوله: ﴿ ضُرِبَ﴾ يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء؟ الجواب: إذا كان ما يورد من الوصف معلومًا من قبل جاز ذلك فيه، ويكون ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم.

أما قوله: ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: تدبروه حق تدبره؛ لأن نفس السَّمَاع لا ينفع، وإنما ينفع التدبر. واعلم أن الذباب لما كان في غاية الضعف احتج الله تعالى به على إبطال قولهم من وجهين: الأول: قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ قرىء يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنيًا للمفعول و(لن) أصل في نفي المستقبل إلا أنه ينفيه نفيًا مؤكدًا فكأنه سبحانه قال: إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودًا؟! فقوله: ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ نصب على الحال كأنه قال: يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم؟! والثاني: أن قوله: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كأنه سبحانه قال: أترك أمر الخلق والإيجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه، فإن الذباب إن سلب منها شيئًا، فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب، واعلم أن الدلالة الأولى صالحة لأن يتمسك بها في نفي كون المسيح والملائكة آلهة،

أما الثانية فلا، فإن قيل: هذا الاستدلال إما أن يكون لنفي كون الأوثان خالقة عالمة حية مدبرة، أو لنفي كونها مستحقة للتعظيم. والأول: فاسد لأن نفي كونها كذلك معلوم بالضرورة، فأي فائدة في إقامة الدلالة عليه، وأما الثاني: فهذه الدلالة لا تفيده لأنه لا يلزم من نفي كونها حية أن لا تكون معظمة، فإن جهات التعظيم مختلفة، فالقوم كانوا يعتقدون فيها أنها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب، أو أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين، وكانوا يعظمونها على أن تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة، وأولئك الأنبياء المتقدمين. والجواب: أما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الإضرار والانتفاع، فهو يبطل بهذه الدلالة فإنها لما لم تنفع نفسها في هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلأن لا تنفع غيرها أولى، وأما أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين، فقد تقرر في العقل أن تعظيم غير الله تعالى ينبغي أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى، والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم، وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه في التعظيم، فمن هاهنا صاروا مستوجبين للذم والملام.

أما قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ففيه قولان: أحدهما: المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث إنه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب. الثاني: أن الطالب من عبد الصنم، والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها، وهذا أقرب؛ لأن كون الصنم طالبًا ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير، أما هاهنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لأن الوثن لا يصح أن يكون ضعيفًا؛ لأن الضعف لا يجوز إلا على من يصح أن يقوى، وهاهنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله: ﴿ضَعُفَ﴾ لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب، كما يقال للمرء عند المناظرة: ما أضعف هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه.

أما قوله: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظموه حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبودية، وهذه الكلمة مفسرة في سورة الأنعام، وهو قوي لا يتعذر عليه فعل شيء، و(عزيز) لا يقدر أحد على مغالبته، فأي حاجة إلى القول بالشريك. قال الكلبي في هذه الآية ونظيرها في سورة الأنعام: إنها نزلت في جماعة من اليهود وهم مالك بن الصيف، وكعب بن الأشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله، حيث قالوا: إنه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع إحدى رجليه على الأخرى، فنزلت هذه الآية تكذيبًا لهم ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. واعلم أن منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة، وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية، وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الأفعال، أعني الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم خلاف ما تقوله المعتزلة، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله: فهو سبحانه جبار النعت، عزيز

الوصف، فالأوهام لا تصوره، والأفكار لا تقدره، والعقول لا تمثله، والأزمنة لا تدركه، والجهات لا تحويه ولا تحده، صمدي الذات، سرمدي الصفات.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما قدم ما يتعلق بالإلهيات ذكر هاهنا ما يتعلق بالنبوات، قال مقاتل: قال الوليد بن المغيرة: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: **وهاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: كلمة (من) للتبعيض فقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يقتضي أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم، وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] يقتضي كون كلهم رسلاً فوقع التناقض. والجواب: جاز أن يكون المذكور هاهنا من كان رسلاً إلى بني آدم، وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم، وأما كل الملائكة فبعضهم رسل إلى البعض فزال التناقض.

السؤال الثاني: قال في سورة الزمر: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] فدل على أن ولده يجب أن يكون مصطفى، وهذه الآية دلت على أن بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين، فيلزم بمجموع الآيتين إثبات الولد. والجواب: أن قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: ٤] يدل على أن كل ولد مصطفى، ولا يدل على أن كل مصطفى ولد، فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولدًا، وفي هذه الآية وجه آخر، وهو أن المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة، كأنه سبحانه أبطل في الآية الأولى قول عبدة الأوثان، وفي هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة، فبيَّن أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة، بل لأن الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم، فكأنه تعالى بيَّن أنهم ما قدروا الله حق قدره أن جعلوا الملائكة معبودين مع الله، ثم بيَّن سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أنه يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فقال بعضهم: ما تقدم في الدنيا وما تأخر، وقال بعضهم: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أمر الدنيا، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى العلم التام وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إشارة إلى القدرة التامة والتفرد بالإلهية والحكم، ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الإقدام على المعصية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع وهو من أربع أوجه: أولها: تعيين المأمور. وثانيها: أقسام المأمور به. وثالثها: ذكر ما يوجب قبول تلك الأوامر. ورابعها: تأكيد ذلك التكليف.

أما النوع الأول: وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وفيه قولان: أحدهما: المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنًا أو كافرًا؛ لأن التكليف بهذه الأشياء عام في كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك. والثاني: أن المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولاً: فلأن اللفظ صريح فيه، وأما ثانيًا: فلأن قوله بعد ذلك ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ وقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كل ذلك لا يليق إلا بالمؤمنين. أقصى ما في الباب أن يقال: لما كان ذلك واجبًا على الكل فأي فائدة في تخصيص المؤمنين؟ لكنا نقول: تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفي ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الأشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها. ويمكن أن يقال: فائدة التخصيص أنه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم إنه ما قبله إلا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب؛ ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم في ذلك الإقرار والتخصيص.

أما النوع الثاني: وهو المأمور به فقد ذكر الله أمورًا أربعة: **الأول:** الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ وذلك لأن أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريًا مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس في أول إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية. الثاني: قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** اعبدوه ولا تعبدوا غيره. **وثانيها:** واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات. **وثالثها:** افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة؛ لأنه لا يكفي أن يفعل فإنه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود. الثالث: قوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد به صلة الرحم ومكارم الأخلاق والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير؛ لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر

والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال: كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فقيل: معناه لتفلحوا، والفلاح الظفر بنعيم الآخرة، وقال الإمام أبو القاسم الأنصاري: لعل: كلمة للترجية فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتي به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضًا مستورة «وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». الرابع: قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في ذات الله، ومن أجله. يقال هو حق عالم، وجد عالم، أي: عالم حقًا وجدًا ومنه ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾؟ والجواب: الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الإضافة إليه.

السؤال الثاني: ما هذا الجهاد؟ الجواب فيه وجوه: أحدها: أن المراد قتال الكفار خاصة، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أن لا يفعل إلا عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الإسم أو الغنيمة. والثاني: أن يجاهدوا آخرًا كما جاهدوا أولاً فقد كان جهادهم في الأول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعبد الرحمن بن عوف: أما علمت أنا كنا نقرأ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ في آخر الزمان كما جاهدتموه في أوله، فقال عبد الرحمن ومتى ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء. واعلم أنه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن وإلا لنقل كنقل نظائره، ولعله إن صح ذلك عن الرسول فإنما قاله كالتفسير للآية، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ وجاهدوا في الله حق جهاده كما جاهدتم أول مرة. فقال عمر: من الذي أمرنا بجهاده؟ فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس، فقال: صدقت. والثالث: قال ابن عباس: حق جهاده، لا تخافوا في الله لومة لائم. والرابع: قال الضحاك: واعملوا لله حق عمله. والخامس: استفرغوا وسعكم في إحياء دين الله وإقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل. والوجه السادس: قال عبد الله ابن المبارك: حق جهاده، مجاهدة النفس والهوى. ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك قال: «**رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**»(١) والأولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف، فكل ما أمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد.

---

(١) **إسناده ضعيف**: وأورده العجلوني في (كشف الخفاء) (١/ ٥١١)، وقال: قال الحافظ ابن حجر في (تسديد القوس): هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة انتهى. وأقول: الحديث في الإحياء قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في (تاريخه) عن جابر بلفظ قدم النبي ﷺ من غزاة فقال عليه الصلاة والسلام: «قدمتم من خير مقدم وحمرتها من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قالوا: وما الجهاد الأكبر؟=

السؤال الثالث: هل يصح ما نقل عن مقاتل والكلبي أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] كما أن قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بذلك؟ الجواب: هذا بعيد؛ لأن التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فكيف يقول الله وجاهدوا في الله على وجه لا تقدرون عليه، وكيف وقد كان الجهاد في الأول مضيقًا حتى لا يصح أن يفر الواحد من عشرة، ثم خففه الله بقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦] أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه لا يطاق حتى يقال إنه منسوخ.

النوع الثالث: بيان ما يوجب قبول هذه الأوامر وهو ثلاثة: الأول: قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ ومعناه: أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته، فأي رتبة أعلى من هذا، وأي سعادة فوق هذا، ويحتمل في اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو أن التكليف وإن كان تشريفًا واجبًا كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ روي أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: كيف قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ مع أنه منعنا عن الزنا والسرقة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: بلى ولكن الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم. **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما الحرج في أصل اللغة؟ الجواب: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لبعض هذيل: ما تعدون الحرج فيكم؟ قال: الضيق، وعن عائشة رضي الله عنها: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ ذَلِكَ فَقَالَ: «الضِّيقُ»(١).

السؤال الثاني: ما المراد من الحرج في الآية؟ الجواب: قيل: هو الإتيان بالرخص، فمن لم يستطع أن يصلي قائمًا فليصل جالسًا ومن لم يستطع ذلك فليؤم، وأباح للصائم الفطر في السفر والقصر فيه. وأيضًا فإنه سبحانه لم يبتل عبده بشيء من الذنوب إلا وجعل له مخرجًا منها إما بالتوبة أو بالكفارة، وعن ابن عمر رضي الله عنهما **«إِنَّهُ مَنْ جَاءَتْهُ رُخْصَةٌ فَرَغِبَ عَنْهَا كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَحْمِلَ ثِقَلَ تِنِّينٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ»** وعن النبي ﷺ **«إِذَا اجْتَمَعَ أَمْرَانِ فَأَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَيْسَرُهُمَا»**(٢) وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاثًا لم يعطهم إلا للأنبياء: **«جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَقَالَ: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»**.

=قال: مجاهدة العبد هواه انتهى. والمشهور على الألسنة رجعنا من الجهاد الأصغر دون باقيه ففيه اقتصار انتهى. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٢٤٦٠)، وقال: منكر ثم قال: وقد استنكر ابن تيمية في (مجموع الفتاوي) تسميته بالجهاد الأصغر؛ لأن جهاد الكفار من أعظم الأعمال بل هو أعظم ما تطوع له الإنسان. ا.هـ.

(١) أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (١/ ١١٣٠)، حديث رقم (٢٠٨٢٥) من طريق أحمد بن نجدة حدثنا سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس رضي الله عنه... به.

(٢) أخرجه الحارث في (مسنده) (١/ ٥٤٤) (حديث رقم ٤٨٨) من طريق محمد بن سعيد عن أبان عن أنس... به.

السؤال الثالث: استدلت المعتزلة بهذه الآية في المنع من تكليف مالا يطاق، فقالوا: لما خلق الله الكفر والمعصية في الكافر والعاصي ثم نهاه عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفي بصريح هذا النص. والجواب: لما أمره بترك الكفر، وترك الكفر يقتضي انقلاب علمه جهلاً فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلاً وذلك من أعظم الحرج، ولما استوى القدمان زال السؤال.

الموجب الثاني: لقبول التكليف قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ وفي نصب الملة وجهان: أحدهما: وهو قول الفراء أنها منصوبة بمضمون ما تقدمها كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. والثاني: أن يكون منصوبًا على المدح والتعظيم أي: أعني بالدين ملة أبيكم إبراهيم، واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والعرب كانوا محبين لإبراهيم عليه السلام؛ لأنهم من أولاده، فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ولم يدخل في الخطاب المؤمنون الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ ولم يكن من ولده؟ والجواب: من وجهين: أحدهما: لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك. وثانيهما: وهو قول الحسن أن الله تعالى جعل حرمة إبراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده، ومنه قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فجعل حرمته كحرمة الوالد على الولد، وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

السؤال الثاني: هذا يقتضي أن تكون ملة محمد كملة إبراهيم عليهما السلام سواء، فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، الجواب: هذا الكلام إنما وقع مع عبدة الأوثان، فكأنه تعالى قال: عبادة الله وترك الأوثان هي ملة إبراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع.

السؤال الثالث: ما معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾؟ الجواب: فيه قولان: أحدهما: أن الكناية راجعة إلى إبراهيم عليه السلام، فإن لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد ﷺ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث محمدًا بمثل ملته وأنه ستسمى أمته بالمسلمين. والثاني: أن الكناية راجعة إلى الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إِنَّ اللَّه سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» أي: في كل الكتب، وفي هذا أي: في القرآن. وهذا الوجه أقرب؛ لأنه تعالى قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فبيّن أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق إلا بالله، ويدل عليه أيضًا قراءة أبي بن كعب (الله سماكم)

والمعنى: أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن، وفي القرآن أيضًا بيَّن فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم؛ لأجل الشهادة المذكورة. فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه. وهذا هو العلة الثالثة: الموجبة لقبول التكليف، وأما الكلام في أنه كيف يكون الرسول شهيدًا علينا، وكيف تكون أمته شهداء على الناس؟ فقد تقدم في سورة البقرة، وبيَّنَّا أنه أخذ منه ما يدل على أن الإجماع حجة.

النوع الرابع: شرح ما يجري مجرى المؤكد لما مضى، وهو قوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ويجب صرفها إلى المفروضات؛ لأنها هي المعهودة ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: بدلائله العقلية والسمعية وألطافه وعصمته، قال ابن عباس: «**سَلُوا اللَّه الْعِصْمَةَ عَنْ كُلِّ الْمُحَرَّمَاتِ**» وقال القفال: اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم وسيدكم المتصرف فيكم فنعم المولى ونعم البصير، فكأنه سبحانه قال: أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك، واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه: **أحدها:** أن قوله: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنه سبحانه أراد الإيمان من الكل؛ لأنه تعالى لا يجعل الشهيد على عباده إلا من كان عدلاً مرضيًا، فإذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد أن تكونوا جميعًا صالحين عدولاً، وقد علمنا أن منهم فاسقًا، فدل ذلك على أن الله تعالى أراد من الفسق كونه عدلاً. **وثانيها:** قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وكيف يمكن الاعتصام به مع أن الشر لا يوجد إلا منه؟ **وثالثها:** قوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنه لو كان كما يقوله أهل السنة: من أنه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى، بل كان لا يوجد من شرار الموالي أحد إلا وهو شر منه. فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل على أنه سبحانه ما أراد من جميعهم إلا الصلاح. فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما أنه نعم النصير لهم خاصة؟ قلنا: إنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعًا فيجب أن يقال: إنه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين. فإن ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والإجماع وصرحوا بشتم الله تعالى. ورابعها: أن قوله: ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يدل على إثبات الأسماء الشرعية وأنها من قبل الله تعالى؛ لأنها لو كانت لغة لما أضيفت إلى الله تعالى على وجه الخصوص. والجواب: عن الأول وهو قوله كونه تعالى مريدًا لكونه شاهدًا يستلزم كونه مريدًا لكونه عدلاً، فنقول: إن كانت إرادة الشيء مستلزمة لإرادة لوازمه فإرادة الإيمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لإرادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريدًا لجهل نفسه. وإن لم يكن ذلك واجبًا سقط الكلام.

وأما قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ فيقال: هذا أيضًا وارد عليكم فإنه سبحانه خلق الشهوة في قلب الفاسق وأكدها، وخلق المشتهي وقربه منه، ورفع المانع، ثم سلط عليه الشياطين من الإنس والجن وعلم أنه لا محالة يقع في الفجور والضلال، وفي الشاهد كل من فعل ذلك فإنه يكون بئس المولى، فإن صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وإن بطل سقط كلامكم بالكلية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

وهي مكّيةٌ، سوى ثلاثِ آيات: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية: ١٩] إلى تمام ثلاثِ آيات؛ قاله ابن عباس ومجاهد(١). وعن ابن عباس أيضاً أنهنَّ أربعُ آيات، إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية: ٢٢]. وقال الضحاك وابن عباس أيضاً: هي مدنية(٢). وقال قتادة(٣): [مدنية] إلّا أربعَ آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآيات: ٥٢-٥٥]، فهنَّ مكّيات.

وعَدَّ النقّاش ما نزل بالمدينة عَشْرَ آيات. وقال الجمهور: السورةُ مختلِطَة؛ منها مكّيٌّ ومنها مَدَنيّ. وهذا هو الأصحُّ؛ لأنَّ الآيات تقتضي ذلك(٤)؛ لأنَّ «يا أيها الناس» مكيّ، و«يا أيها الذين آمنوا» مَدَنيّ(٥).

الغَزْنَويُّ: وهي من أعاجيب السُّوَر، نزلت ليلاً ونهاراً، سَفَراً وحَضَراً، مكيًّا ومدنيًّا، سِلْمِيًّا وحَرْبِيًّا، ناسخاً ومنسوخاً، مُحْكَماً ومتشابهاً؛ مختلف العدد.

قلت: وجاء في فضلها ما رواه الترمذيُّ وأبو داود والدارَقُطْنيُّ عن عقبة بن عامر

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، وأخرجه عن ابن عباس مطولاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٢) ذكر الخبرين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، ولم يذكر ابنَ عباس في الخبر الثاني، وقد أخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ .

(٣) في النسخ: قاله قتادة، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، والكلام منه. وأخرجه ابن المنذر عنه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥ عن ابن عباس.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٩ . وذكر المصنف ٦/ ٥ أن القول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: مكي حيث وقع؛ ليس بصحيح. وينظر ١/ ٣٢٩ .

قال: قلت: يا رسول الله، فُضِّلت سورة الحجّ بأنَّ فيها سجدتين؟ قال: «نعم، ومَن لم يَسْجُدْهما فلا يقرأهما». لفظُ الترمذيّ. وقال: هذا حديث[١] ليس إسناده بالقويّ، واختلف أهل العلم في هذا؛ فروي عن عمر بن الخطاب - ﷺ - وابنِ عمر أنهما قالا: فُضِّلت سورةُ الحج بأنَّ فيها سجدتين. وبه يقول ابن المبارك والشافعيُّ وأحمد وإسحاق. ورأى بعضهم أنَّ فيها سجدةً واحدة، وهو قولُ سفيان الثَّوْري[٢]. وروى الدارَقُطْنيّ عن عبد الله بن ثعلبةَ قال: رأيت عمر بن الخطاب سَجَدَ في الحج سجدتين، قلت: في الصبح؟ قال: في الصبح[٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾

روى الترمذِيّ[٤] عن عِمْران بنِ حُصين أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: أنزلت عليه هذه الآيةُ وهو في سفر، فقال: «أتَدرون أيُّ يومٍ ذلك»؟ فقالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدمَ: ابْعَثْ بَعْثَ النار، قال: يا ربِّ، وما بَعْثُ النار؟ قال: تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فأنشأ

---

(١) بعدها في النسخ: حسن، والمثبت من سنن الترمذي، والتحفة ٧/ ٣٢٢.

(٢) سنن الترمذي (٥٧٨)، والحديث عند أبي داود (١٤٠٢)، والدارقطني (١٥٢١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٣٦٤).

وأخرجه دون قوله: «فمن لم يسجدهما...» أبو داود في المراسيل (٧٨) من طريق خالد بن معدان عن النبي ﷺ. وابنُ أبي شيبة ٢/ ١١ عن عمر ﷺ موقوفاً.

(٣) سنن الدارقطني (١٥٢٣)، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٠، ووقع في (د) و(ز) و(ظ): الصحيح، بدل: الصبح، في الموضعين، والمثبت من باقي النسخ والمصادر. والسائل لعبد الله بن ثعلبة هو سعد ابن إبراهيم الراوي عنه.

(٤) في سننه (٣١٦٨).

المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قارِبُوا وسَدِّدوا، فإنه لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلّا كان بين يديها جاهليةٌ». قال: «فيؤخذ العددُ من الجاهلية، فإن تَمَّت، وإلّا كَمُلت من المنافقين، وما مَثَلُكم والأُمَم إلّا كَمَثَل الرَّقْمة[١] في ذراع الدابة، أو كالشامَة في جَنْب البعير». ثم قال: «إنّي لأَرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنّي لأرجو أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنّي لأرجو أن تكونوا نصفَ أهل الجنة». فكبَّروا. قال: لا أدري قال: الثلثين أم لا. قال: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غيرِ وجهٍ عن الحسن عن عِمران بن حُصين. وفيه: فيئِس القوم حتى ما أبْدَوْا بضاحكةٍ، فلما رأى رسول الله ﷺ [الذي بأصحابه] قال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسي بيده إنَّكم لمَعَ خلِيقتين ما كانتا مع شيء إلّا كَثَرَتاه[٢]: يأجوج ومأجوج، ومَن مات من بني آدم وبني إبليس» قال: فَسُرِّيَ عن القوم بعضُ الذي يجدون، فقال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم في الناس إلّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الدابة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٣].

وفي «صحيح» مسلم[٤]، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لَبَّيْكَ وسَعْدَيك، والخيرُ في يديك» قال: «يقول: أخرِج بَعْثَ النار، قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: من كلِّ ألفٍ تِسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعين»[٥] قال: «فذاك حين يَشيبُ الصغيرُ، وتَضَع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكنَّ عذابَ الله شديد» قال: فاشتدَّ ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله،

---

(١) الرقمة: هي الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها. النهاية (رقم).

(٢) قال السندي ـ كما في حاشية المسند (١٩٩٠١) ـ: كَثَرَتاه، بالتخفيف، أي: غلبتاه بالكثرة. وقوله: بضاحكة، هي واحدة الضواحك، وهي أربعة، وسميت ضواحك؛ لأنها تظهر عند الضحك.

(٣) سنن الترمذي (٣١٦٩) وما سلف بين حاصرتين منه، وهو بهذه الرواية عند أحمد (١٩٩٠١).

(٤) برقم (٢٢٢)، وهو عند أحمد (١١٢٨٤)، والبخاري (٣٣٤٨).

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): وتسعون.

أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال: «أبشِروا، فإنَّ من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم رجل». وذَكَر الحديث بنَحْوِ ما تقدَّم في حديث عِمران بن حصين.

وذكر أبو جعفر النحاس قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال: حدَّثنا سلمة، قال: حدَّثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ وهو في مَسِيرٍ له، فرفع بها صوته حتى ثابَ إليه أصحابه، فقال: «أتدرون أيُّ يوم هذا؟ هذا يومَ يقول الله عزَّ وجلَّ لآدم: يا آدمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ أهل النار: من كلِّ ألفٍ تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فكَبُر ذلك على المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: «سَدِّدُوا وقارِبوا وأبْشِروا، فوالَّذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الحمار، وإنَّ معكم خليقتين ما كانتا مع شيءٍ إلَّا كَثَرتاه: يأجوج ومأجوج، ومَن هَلَكَ من كَفَرةِ الجنِّ والإنس»[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ المرادُ بهذا النداء المكلَّفون، أي: اخشَوْه في أوامره أن تتركوها، ونَواهِيه أن تُقدِموا عليها. والاتِّقاء: الاحتراسُ من المكروه، وقد تقدَّم في أوّل البقرة القولُ فيه مستوفًى[(٢)]، فلا معنى لإعادته. والمعنى: احترِسوا بطاعته عن[(٣)] عقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلةُ: شدَّة الحركة، ومنه: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وأصلُ الكلمة من زَلَّ عن الموضع، أي: زال عنه وتحرَّك. وزلزل الله قَدَمه، أي: حرَّكها. وهذه اللفظةُ تُستعمل في تهويل الشيء.

---

(١) هو عند عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣١، وأخرجه من طريقه أبو يعلى (٣١٢٢)، وابن حبان (٧٣٥٤)، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٢ - ٤٥٣ من طريق معمر به.

(٢) ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) في (ظ): من.

وقيل: هي الزلزلةُ المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور. وقد قيل: إن هذه الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان، ومِن بعدها طلوعُ الشمس من مغربها؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الهاءُ في «تَرَوْنَهَا» عائدةٌ عند الجمهور على الزلزلة، ويقوِّي هذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾. والرضاعُ والحملُ إنَّما هو في الدنيا[1].

وقالت فرقة: الزلزلةُ في يوم القيامة، واحتجُّوا بحديث عِمران بن حُصين الذي ذكرناه، وفيه: «أتدرون أيُّ يومٍ ذلك...» الحديث. وهو الذي يقتضيه سياقُ مُسْلم في حديث أبي سعيد الخُدْريّ.

قوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تشتغل؛ قاله قُطْرُب، وأنشد:

ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ[2]

وقيل: تنسَى. وقيل: تلهو. وقيل: تَسْلو[3]، والمعنى متقارب.

﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ قال المبرِّد: «ما» بمعنى المصدر، أي: تَذْهَل عن الإرضاع. قال: وهذا يدلُّ على أنَّ هذه الزلزلةَ في الدنيا؛ إذ ليس بعد البعث حَمْلٌ وإرضاع، إلَّا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٦ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٦ ، والرجز نسبه ابن إسحاق لعبد الله بن رواحة، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧١ ، إلا أن ابن هشام نسبه لعمار بن ياسر. ونسبه لعبد الله أيضاً ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٤ . وقد اقتبس هذا الرجز الحجاج في خطبته بعد دير الجماجم، وهي في البيان والتبيين ٢/ ١٣٩ ، والعقد الفريد ٤/ ١١٦ . وفيهما: بضرب، بدل: ضرباً، وكذلك وقع في (خ) و(د): بضرب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦ ، الأول عن اليزيدي، والثاني عن الكلبي، والثالث عن الأخفش.

أن يقال: مَنْ ماتت حاملاً تُبعث حاملاً فتضع حَمْلَها للهَوْل، ومَن ماتت مُرضعةً بُعثت كذلك.

ويقال: هذا كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وقيل: تكون مع النفخة الأولى. وقيل: تكون مع قيام الساعة، حين[١] يتحرَّك الناس من قبورهم في النفخة الثانية.

ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١]، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اهزمهم وزلزلهم»[٢].

وفائدةُ ذِكْرِ هَوْل ذلك اليومِ التحريضُ على التأهُّب له والاستعدادِ بالعمل الصالح. وتسميةُ الزلزلة بـ«شيء» إمَّا لأنَّها حاصلةٌ متيقَّنٌ وقوعُها، فيُسْتَسْهل لذلك أن تسمَّى شيئاً وهي معدومة؛ إذ اليقينُ يشبِه الموجودات. وإمَّا على المآل، أي: هي إذا وقعت شيءٌ عظيم. وكأنه لم يطلق الاسمَ الآن، بل المعنى: أنها إذا كانت فهي إذاً شيء عظيم[٣]، ولذلك تَذْهَلُ المراضعُ ويَسْكَرُ الناسُ، كما قال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أي: من هَوْلها ومما يُدركهم من الخوف والفزع. ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ من الخمر.

وقال أهل المعاني: وترى الناس كأنَّهم سُكارى. يدلُّ عليه قراءةُ أبي زُرْعة هَرِم ابن عمرو بن جرير بن عبد الله[٤]: «وتُرَى الناسَ» بضمِّ التاء؛ أي: تظنُّ ويخيَّل إليك.

---

(١) في (د) و(م): حتى.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩١٠٧)، والبخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله ابن أبي أوفى ﷺ في دعائه ﷺ على الأحزاب.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ .

(٤) البجلي الكوفي، وقيل اسمه عبد الله، وقيل: عمرو، وقيل: جرير، وذكر ابن حبان في الثقات أبا زرعة بن عمرو بن جرير فيمن اسمه هرم، ثم قال: ويقال: اسمه كنيته. روى عن جده وأبي هريرة ومعاوية وغيرهم. التهذيب ٤/ ٥٢٤ . وقراءته في القراءات الشاذة ص٩٤ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٥٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٦ .

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سَكْرَى» بغير ألف[1]. الباقون: «سُكارى»، وهما لغتان لجمع سكران، مثلُ: كَسْلى وكُسَالى.

والزلزلة: التحريك العنيف. والذُّهول: الغَفْلَة عن الشيء بِطَرَيان[2] ما يشغَل عنه من همٍّ أو وجعٍ أو غيره. قال ابن زيد: المعنى: تَتْركُ ولدها للكَرْبِ الذي نزل بها[3].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ قيل: المراد النضر بنُ الحارث؛ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ غيرُ قادر على إحياءِ مَن قد بَلِيَ وعاد تراباً[4]. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: في قوله ذلك ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾: متمرِّد ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ قال قتادة ومجاهد: أي: مَن تَوَلَّى الشيطان[5] ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّسَمّٗى﴾

---

(١) وكذلك: «وما هم بسَكْرى». السبعة ص٤٣٤ ، والتيسير ص١٥٦ .

(٢) كذا في النسخ، والمحرر الوجيز ٤/١٠٦ ، والكلام منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/٤٥٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٤ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٩ عن ابن جريج. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦ عن ابن عباس.

(٥) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٥٩ - ٤٦٠ ، وخبر قتادة أيضاً أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢ .

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ هذا احتجاجٌ على العالَم بالبداءة الأولى. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ فِي ريبٍ» [شرطٌ] متضمَّنُه التوقيف. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «البَعَث» بفتح العين، وهي لغةٌ في «البَعْث» عند البصريين. وهي عند الكوفيين تخفيفُ «بَعَث»(١).

والمعنى: يا أيها الناس، إن كنتم في شكٍّ من الإعادة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أي: خلقنا أباكم الذي هو أصلُ البشر، يعني آدمَ عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ خلقنا ذرِّيته ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: وهو المنيُّ؛ سُمِّيَ نطفةً لقلَّته، وهو القليلُ من الماء، وقد يقع على الكثير منه، ومنه الحديث: «حتى يسير الراكبُ بين النُّطفتين لا يخشى جَوْراً». أراد بحر المشرق وبحر المغرب(٢). والنَّطْف: القَطْر. نَطَف يَنْطِفُ وينطُف. وليلةٌ نَطوفة: دائمة القَطْر(٣).

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: وهو الدَّم الجامد. والعَلَق: الدَّم العَبِيط، أي: الطَّرِيّ. وقيل: الشديدُ الحُمْرة.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾: وهي لَحمةٌ قليلةٌ قَدْرُ ما يُمضغ، ومنه الحديث: «أَلَا وإنَّ في الجسد مُضْغةً»(٤). وهذه الأطوارُ أربعةُ أشهر. قال ابن عباس: وفي العشر بعدَ الأشهرِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وذكر القراءة عن الحسن أيضاً الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥ . قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٤١١ : ذكر جميع الكوفيين أن كلَّ ما كان ثانيه حرفاً من حروف الحلق، وكان مسكَّناً مفتوحَ الأول، جاز فيه فتح المسكَّن، نحو: شَعْر وشَعَر، ونَهْر ونَهَر.

(٢) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦ ، وفيه: لا يخشى إلا جوراً، وهي رواية، ومعناها: لا يخاف في طريقه غير الضلال والجورِ عن الطريق، وعلى الرواية الأخرى ـ يعني بحذف «إلا» ـ يكون الجور بمعنى الظلم. النهاية (جور) و(نطف)، وذكره أيضاً الزمخشري في الفائق ٣/ ٤٤٢ ، ولفظه: «لا يزال الإسلام يزيد وأهله، وينقص الشرك وأهله، حتى يسير الراكب...».

(٣) أي: تمطر حتى الصباح. تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٥ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير ﷺ.

الأربعة يُنفخ فيه الروح[(١)]. فذلك عِدَّةُ المتوفَّى عنها زوجُها، أربعةُ أشهرٍ وعشر.

الثانية: روى يحيى بن زكريَّا بن أبي زائدة: حدَّثنا داودُ، عن عامر، عن علقمةَ، عن ابن مسعود ـ وعن ابن عمر ـ أنَّ النطفة إذا استقرَّت في الرَّحم؛ أخذها مَلَكٌ بكفِّه فقال: يا ربِّ، ذكرٌ أم أنثى، شقيٌّ أم سعيد، ما الأجلُ والأثَر، بأيِّ أرضٍ تموت؟ فيقال له: انطلِقْ إلى أمِّ الكتاب، فإنَّك تجدُ فيها قصةَ هذه النطفة، فينطلقُ فيجدُ قصَّتها في أمِّ الكتاب، فتُخلَقُ، فتأكل رزقَها وتطأُ أثرها، فإذا جاء أجلها؛ قُبضت فدُفنت في المكان الذي قُدِّر لها، ثم قرأ عامر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[(٢)].

وفي الصحيح عن أنس بن مالك[(٣)] ـ ورفع الحديث ـ قال: «إنَّ الله قد وَكَّل بالرَّحِمِ مَلَكاً، فيقول: أيْ ربِّ نطفةٌ. أيْ رَبِّ عَلَقة. أيْ رَبِّ مُضْغَة. فإذا أراد الله أن يقضيَ خَلْقاً قال، قال المَلَك: أيْ رَبِّ! ذَكَرٌ أو أنثى؟ شقيٌّ أو سعيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمِّه».

وفي الصحيح أيضاً عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفاريِّ[(٤)] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا مَرَّ بالنطفة ثِنْتانِ وأربعون ليلةً بعث الله إليها مَلَكاً، فصوَّرها، وخَلَق سمعها وبصرها، وجِلْدَها ولحمها وعظامها، ثم يقول: أيْ ربِّ أذَكَر أم أنثى...». وذكر الحديث.

---

(١) قطعة من خبر ابن عباس، أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٦٠)، وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ١٦٢: في إسناده نظر.

(٢) الكلام في المفهم ٦/ ٦٥١، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٠، وأخرج الحديث عن ابن مسعود بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٦١، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية من طريق داود بن أبي هند به. وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٧١. وعلقمة هو ابن قيس، وعامر هو الشعبي. أما خبر ابن عمر فأخرجه البزار (٢١٤٩ - كشف)، وأبو يعلى (٥٧٧٥) مرفوعاً إلى النبي ﷺ بنحو خبر ابن مسعود.

(٣) صحيح البخاري (٣١٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٦) واللفظ له، وهو عند أحمد (١٢١٥٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٤٥)، وهو عند أحمد (١٦١٤٢).

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود[١] قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطن أمّه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك عَلَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون [في ذلك] مُضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَل المَلَك فينفخُ فيه الروحَ، ويُؤمر بأربع كلماتٍ: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد...» الحديث. فهذا الحديثُ مفسِّرٌ للأحاديث الأُوَل؛ فإنَّ فيه: «يُجمع خَلْقُ أحدِكم في بطن أمّه أربعين يوماً نطفةً، ثم أربعين يوماً علقةً، ثم أربعين يوماً مضغةً، ثم يُبعث الملك، فينفخ فيه الروح» فهذه أربعةُ أشهرٍ، وفي العشر يَنْفُخُ الملك الروح، وهذه عِدَّة المتوفَّى [عنها زوجها] كما قال ابن عباس[٢].

وقولُه: «إنَّ أحدَكم يُجمع خلقه في بطن أمِّه» قد فسَّره ابن مسعود؛ سئل الأعمش: ما يُجمع في بطن أمِّه؟ فقال: حدَّثنا خَيْثمة، قال: قال عبد الله: إذا وقعت النطفةُ في الرَّحِم فأراد الله أن يخلق منها بشراً، طارت في بشرة المرأة تحت كلّ ظفرٍ وشعرٍ، ثم تمكث أربعين يوماً، ثم تصير دماً في الرَّحِم، فذلك جَمْعُها، وهذا وقتُ كونها علقةً[٣].

الثالثة: نسبةُ الخَلْقِ والتَّصوير للمَلَك نسبةٌ مَجازيَّةٌ لا حقيقية، وإنَّما صَدَر عنه فِعْل ما في المضغة ـ كأنَّ عنه[٤] التصوير والتشكيل ـ بقدرة الله وخَلْقِه واختراعه؛ ألَا تراه سبحانه قد أضاف إليه الخَلقةَ الحقيقية، وقَطَع عنها نسبَ جميع الخليقة فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٣)، واللفظ له وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٣٦٢٤).

(٢) سلف في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٦٨٢، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية (١٤) من سورة المؤمنون، وذكره القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ١٢٦، وأبو العباس في المفهم ٦/ ٦٥٠.

(٤) في (ظ) و(م): كان عند، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٦، والكلام منه.

طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات، [هذا] مع ما دلَّت عليه قاطعاتُ البراهين أنْ لا خالقَ لشيءٍ من المخلوقات إلا ربُّ العالمين(١).

وهكذا القولُ في قوله: «ثم يُرسَل الملك فينفخُ فيه الروحَ» أي أنَّ النفخ سببُ خَلْقِ الله فيها الروحَ والحياة. وكذلك القولُ في سائر الأسباب المعتادة، فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره. فتأمَّلْ هذا الأصلَ وتمسَّكْ به، فبِهِ النجاةُ من مذاهب أهل الضلال [من أهل] الطبائع وغيرهم(٢).

الرابعة: لم يختلف العلماء أنَّ نفخ الروح فيه يكون بعد مئة وعشرين يوماً، وذلك تمامُ أربعةِ أشهرٍ ودخوله في الخامس؛ كما بيَّنَّاه بالأحاديث. وعليه يعوَّل فيما يُحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حَمْلِ المطلَّقات؛ وذلك لتيقُّنِه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنه الحكمةُ في عِدَّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهرٍ وعَشْرٍ، وهذا الدخول في الخامس يحقِّق براءةَ الرَّحِم ببلوغ هذه المدَّة إذا لم يَظْهَرْ حَمْل(٣).

الخامسة: النطفةُ ليست بشيء يقيناً، ولا يتعلَّق بها حكم إذا ألقتها المرأة؛ إذ لم تجتمع في الرحم، فهي كما لو كانت في صُلْبِ الرجل، فإذا طَرَحَتْه علقةً تحقَّقنا أنَّ النطفة قد استقرَّت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقَّق به أنه ولد. وعلى هذا فيكون وضعُ العلقة فما فوقَها من المضغة وَضْعَ حملٍ تَبْرَأ به الرَّحم،

(١) المفهم ٦/ ٦٥٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ٦/ ٦٥١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) إكمال المعلم ٨/ ١٢٣ - ١٢٤، والمفهم ٦/ ٦٥١.

وتنقضي به العِدَّة، ويَثْبُت به لها حكمُ أمِّ الولد. وهذا مذهبُ مالك ﷺ وأصحابِه. وقال الشافعيُّ ﷺ: لا اعتبارَ بإسقاط العَلَقة، وإنما الاعتبارُ بظهور الصورة والتخطيط، فإن خَفِيَ التخطيطُ وكان لحماً، فقولان بالنقل والتخريج(١)، والمنصوصُ أنه تنقضي به العدَّة، ولا تكونُ أمَّ ولد. قالوا: لأنَّ العدَّة تنقضي بالدَّمِ الجاري، فبغيرِه أَوْلى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال الفرَّاء(٢): «مخلَّقة»: تامَّةُ الخَلْق، «وغيرِ مخلَّقة»: السَّقْط. وقال ابن الأعرابيِّ: «مخلَّقة»: قد بدا خَلْقُها، «وغير مخلَّقة»: لم تصوَّر بعد(٣).

ابن زيد: المخلَّقة التي خَلَقَ الله فيها الرأسَ واليدين والرجلين، وغير مخلَّقة: التي لم يُخلق فيها شيء. قال ابن العربيّ(٤): إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإنَّ النطفة والعلقة والمضغة مخلَّقةٌ؛ لأنَّ الكلَّ خَلْقُ الله تعالى، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقةِ كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فذلك ما قال ابن زيد.

قلت: التخليقُ من الخَلْق، وفيه معنى الكَثْرة، فما تتابع عليه الأطوارُ فقد خُلق خلقاً بعد خَلْقٍ، وإذا كان نطفةً فهو مخلوق؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ والله أعلم.

وقد قيل: إنَّ قوله: «مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ» يرجع إلى الولد بعينه(٥) لا إلى السَّقْط،

---

(١) المفهم ٦/ ٦٥٢ . والتخريج: هو نقلُ حكمِ مسألة إلى ما يشبهها، والتسويةُ بينهما فيه. الإنصاف للمرداوي ١/ ٩ . وقال ابن بدران في المدخل ص٦٠ : اعلم أن بين التخريج والنقل فرقاً من حيث إن الأول أعم من الثاني؛ لأن التخريج يكون من القواعد الكلية للإمام أو الشرع أو العقل؛ لأن حاصل معناه بناءُ فرع على أصلٍ بجامعٍ مشترك... وأمَّا النقل فهو أن ينقل النصَّ عن الإمام، ثم يخرِّج عليه فروعاً، فيجعلَ كلام الإمام أصلاً وما يخرجه فرعاً، وذلك الأصل مختصٌّ بنصوص الإمام.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢١٥ .

(٣) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ ، وما قبله منه.

(٥) في (خ) و(ظ): نفسه.

أي: منهم مَن يُتِمُّ الربُّ سبحانه مضغته، فيخلق له الأعضاء أَجْمعَ، ومنهم مَن يكون خَدِيجاً ناقصاً غير تام[١].

وقيل: المخلَّقةُ أنْ تلدَ المرأة لتمام الوقت. ابن عباس: المخلَّقةُ ما كان حيًّا، وغيرُ المخلقة السَّقْط[٢]؛ قال:

أفي غير المخلَّقة البكاءُ فأين الحزمُ ويحك والحياءُ[٣]

السابعة: أجمع العلماء على أنَّ الأَمَة تكون أمَّ ولدٍ بما تُسْقِطُه من ولدٍ تامِّ الخَلْق. وعند مالكٍ والأوزاعيِّ وغيرِهما: بالمضغة، كانت مخلَّقةً أو غيرَ مخلقة. قال مالك: إذا عُلم أنها مضغةُ [الولد][٤]. وقال الشافعيُّ وأبو حنيفة: إن كان قد تبيَّن له شيءٌ من خَلْقِ بني آدم؛ أصبعٌ أو عينٌ أو غيرُ ذلك؛ فهي أمُّ ولد[٥].

وأجمعوا على أنَّ المولود إذا استهلَّ صارخاً يُصلَّى عليه[٦]؛ فإن لم يَستَهِلَّ صارخاً لم يُصَلَّ عليه عند مالكٍ وأبي حنيفة والشافعيِّ وغيرهم. وروي عن ابن عمر: أنه يصلَّى عليه، وقاله ابن المسيِّب وابنُ سِيرين وغيرهما[٧].

وروي عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السَّقْط، ويقول: سمُّوهم واغسلوهم وكفِّنوهم وحنِّطوهم؛ فإنَّ الله أكرمَ بالإسلام كبيرَكم وصغيركم، ويتلو هذه الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ قال ابن العربيّ[٨]:

---

(١) في (م): تمام.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨ ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) الإشراف لابن المنذر ٤/ ٣٠٩ ، ووقع في (خ) و(م): فهي له أم ولد.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص٣٠ .

(٧) الاستذكار ٨/ ٢٥٩ - ٢٦٠ ، وقول ابن عمر وابن سيرين وابن المسيب أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣١٧ - ٣١٨ .

(٨) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ ، وما قبله منه. وخبر المغيرة أخرجه عبد الرزاق (٦٦٠٢) وأبو داود =

لعلَّ المغيرة بن شعبة أراد بالسَّقْطِ ما تبيَّن خَلْقُه، فهو الذي يسمَّى، وما لم يَتَبيَّن خَلْقه فلا وجودَ له.

وقال بعض السَّلَف: يصلَّى عليه متى نُفخ فيه الروحُ وتمتْ له أربعةُ أشهر. وروى أبو داود[1] عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا استهَلَّ المولود وَرِث». الاستهلال: رفعُ الصوت، فكلُّ مولودٍ كان ذلك منه، أو حركةٌ أو عطاسٌ أو تنفُّسٌ، فإنه يورَّث لوجود ما فيه من دلالة الحياة. وإلى هذا ذهب سفيان الثوريُّ والأوزاعيُّ والشافعيُّ. قال الخطابيُّ[2]: وأحسبُه قولَ أصحاب الرأي. وقال مالك: لا ميراثَ له وإن تحرَّك أو عَطَس ما لم يستهِلَّ. وروي عن محمد بن سيرين والشَّعْبيِّ والزهريِّ وقتادة.

الثامنة: قال مالك ﷺ: ما طرحته المرأة - من مضغةٍ أو علقةٍ أو ما يُعلم أنه ولدٌ - إذا ضُرب بطنُها ففيه الغُرّة. وقال الشافعيُّ: لا شيء فيه حتى يتبيَّن من خَلْقِه شيءٌ. قال مالك: إذا سقط الجنين فلم يستهِلَّ صارخاً ففيه الغُرَّة، وسواءٌ تحرَّك أو عطس؛ فيه الغُرَّةُ أبداً، حتى يستهِلَّ، فإذا استهلَّ[3] صارخاً ففيه الديةُ كاملةً. وقال الشافعيُّ ﷺ وسائرُ فقهاءِ الأمصار: إذا عُلمت حياتُه بحركةٍ أو بعطاسٍ أو باستهلالٍ، أو بغير ذلك مما تُسْتَيقَنُ به حياتُه، ففيه الديةُ [كاملةً][4].

التاسعة: ذكر القاضي إسماعيلُ أنَّ عِدَّة المرأة تنقضي بالسَّقْطِ الموضوع، واحتجَّ عليه بأنه حَمْلٌ، وقال: قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾

= (٣١٨٠) مختصراً بلفظ: السقط يصلَّى عليه، ويدعى لأبويه بالعافية والرحمة. وأخرجه مرفوعاً بنحوه أحمد (١٨١٦٢)، والترمذي (١٠٣١) وصححه. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٢/ ١١٤ : ورجح الدارقطني في العلل الموقوفَ. وينظر علل الدارقطني ٧/ ١٣٤ .

(١) في سننه (٢٩٢٠).

(٢) في معالم السنن ٤/ ١٠٥ ، وما قبله منه.

(٣) قوله: فإذا استهل من (ظ).

(٤) التمهيد ٦/ ٤٨٣ ، وما بين حاصرتين منه، وسلف الكلام في هذه المسألة ٧/ ٢١ - ٢٣ .

[الطلاق: ٤]. قال القاضي إسماعيل: والدليلُ على ذلك أنه يرث أباه، فدلَّ على وجوده خَلْقاً وكونه ولداً وحملاً. قال ابن العربي[(١)]: [وكذلك قال: لا تكون به أمَّ ولد]، ولا يرتبط به شيءٌ من هذه الأحكام إلَّا أن يكون مخلَّقاً.

قلت: ما ذكرناه من الاشتقاق، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطنِ أمِّه»، يدلُّ على صحة ما قلناه، وبأنَّ[(٢)] مُسْقطةَ العلقةِ والمضغة يَصْدُقُ على المرأة إذا ألقته أنها[(٣)] كانت حاملاً وضعتْ ما استقرَّ في رَحِمها، فيشملُها قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ولأنَّها وضعت مَبْدأ الولد عن نطفةٍ متجسِّداً كالمخطَّط، وهذا بيِّن.

العاشرة: روى ابن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا خالد بن مَخْلَد، حدَّثنا يزيد بن عبد الملك النَّوفليُّ، عن يزيد بن رُومان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَسَقْطٌ أقدِّمه بين يديَّ أَحَبُّ إليَّ من فارسٍ أُخلِّفه خلفي»[(٤)]. وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث له، عن سهيل بن أبي صالحٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة فقال: «أحبُّ إلي من ألفِ فارسٍ أخلِّفه ورائي»[(٥)].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ - ١٢٦٢، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (م): ولأن.

(٣) في (ظ): إذا ألقتها يصدق عليها أنها، بدل: يصدق على المرأة إذا ألقته أنها، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٢ - ٦٥٣، والكلام منه.

(٤) سنن ابن ماجه (١٦٠٧) وفيه: أخلِّفُه خلفي. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٠٣، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٨٥، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٧١٥ - ٢٧١٦، وابن الجوزي في العلل ٢/ ٩٠٦ من طريق يزيد من عبد الملك، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، والحَمْل فيه على يزيد النوفلي؛ قال أحمد: عنده مناكير، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال العقيلي: لا يتابع على هذا الحديث إلا من جهة لا تصح.

(٥) معرفة علوم الحديث ص١٨٦ من طريق خالد بن يزيد العمري، عن أبي مودود عبد العزيز بن أبي سليمان، عن سهيل بن أبي صالح به. قال البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٨٤: خالد بن يزيد العمري مكي ذاهب الحديث. وقال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٥: لا يُشتغل بذكره لأنه يروي الموضوعات عن الأثبات.

الحادية عشرة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ﴾ يريد: كمالَ قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خَلْقِكم ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ قرئ بنصب «نُقِرّ» و«نخرج»، رواه أبو حاتم، عن أبي زيد، عن المفضَّل، عن عاصم. قال أبو حاتم: النصبُ على العطف. وقال الزجّاج: «نقرّ» بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى: فعلنا ذلك لنقرَّ في الأرحام ما نشاء، وإنَّما خَلَقهم عزَّ وجلَّ ليدلَّهم على الرُّشْدِ والصَّلاح[1].

وقيل: المعنى: لنبيِّن[2] أمرَ البعث، فهو اعتراضٌ بين الكلامين. وقرأت هذه الفرقة بالرفع: «ونقرُّ»، المعنى: ونحن نقرُّ. وهي قراءة الجمهور.

وقرئ: «ويقر» و«يخرجكم» بالياء، والرفعُ على هذا سائغ. وقرأ ابن وَثّاب: «ما نِشاء» بكسر النون. والأجلُ المسمَّى يختلف بحسَبِ جَنِينٍ جنين، فثَمَّ مَن يسقط، وثَمَّ مَن يَكْمُلُ أمرُه ويخرج حيًّا[3].

وقال: «ما نشاء»، ولم يقل: مَن نشاء؛ لأنه يرجع إلى الحمل؛ أي: نقرُّ في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة، وهي جماد، فكنَى عنها بلفظِ «ما».

الثانية عشرة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، فهو اسمُ جنسٍ. وأيضاً فإنَّ العرب قد تسمِّي الجمع باسم الواحد؛ قال الشاعر:

يَلْحَيْنَني في حبِّها ويَلُمْنَني إنَّ العواذلَ ليس لي بأميرِ[4]

ولم يقل: أمراء. وقال المبرِّد: هو اسمٌ يُستعمل مصدراً؛ كالرضا والعَدْل، فيقع

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٧، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤١٢، وقراءة المفضل عن عاصم ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨ ثم قال: وحكى أبو عمرو الداني أن رواية المفضل هذه هي بالياء في «يقرّ» وفي «يخرجكم». وسيذكر المصنف القراءة بالياء دون نسبة، وينظر القراءات الشاذة ص٩٤، وجامع البيان للداني ٢/ ٢٩٥.

(٢) بعدها في (م): لهم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٨، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٤٤ - ٤٥، وهو في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٤، واللسان (ظهر) برواية:

يا عاذلاتي لا تزدن مودَّتي إن العواذل لَسْنَ لي بأميرِ

على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١]. وقاله الطبري[١]. وهو نصبٌ على التمييز، كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤][٢].

وقيل: المعنى: ثم نخرج كلَّ واحدٍ منكم طفلاً[٣].

والطفلُ يطلَق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ. وولَدُ كُلِّ وَحْشِيَّةٍ أيضاً طفلٌ. ويقال: جارِيةٌ طِفْلٌ، وجاريتان طِفْل، وجَوارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طِفْلٌ، وغلمانٌ طِفْل. ويقال أيضاً: طِفْلٌ وطِفْلة، وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال، ولا يقال: طِفْلات[٤]. وأَطْفَلت المرأة: صارت ذاتَ طِفْلٍ. والمُطْفِل[٥]: الظبيةُ معها طِفْلُها، وهي قريبةُ عهدٍ بالنِّتاج. وكذلك الناقة، [والجمع] مَطَافِلُ ومَطَافيل. والطَّفْلُ؛ بالفتح في الطاء: الناعم؛ يقال: جاريةٌ طَفْلة، أي: ناعمة، وبَنانٌ طَفْل. وقد طَفَّل الليل: إذا أقبل ظلامُه. والطَّفَل بالتحريك: بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب. والطَّفَل أيضاً: مطر؛ قال:

لِـوَهْـدٍ جـادهُ طَـفَـلُ الـثُّـرَيّـا[٦]

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ قيل: إنَّ «ثم» زائدةٌ، كالواو في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأنَّ «ثم» من حروف النَّسَق، كالواو. و«أَشُدَّكم»: كمال

---

(١) في (د) و(ز) و(م): وقال الطبري، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو في تفسيره ١٦/ ٤٦٥ .

(٢) المقتضب للمبرد ٢/ ١٧٣-١٧٤ ، وقال فيه: هو كقولك: زيد أحسن الناس ثوباً. . . وإنه ليحسن ثوباً، ويكثُر أمةً وعبداً.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٢ .

(٤) كذا قال المصنف رحمه الله، وفي تهذيب اللغة ١٣/ ٣٤٨ واللسان (طفل): وطفلات في القياس.

(٥) في النسخ: والمطفلة، والمثبت من الصحاح (طفل)، وما بعده وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في مجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، واللسان (طفل)، والقاموس (طفل).

(٦) الصحاح (طفل)، ومجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، وأساس البلاغة (طفل)، واللسان (طفل)، ولم يذكروا الشطرْ الآخر، وقوله: وَهْد، جمع وَهْدَة، وهو المكان المطمئن، أي: المنخفض من الأرض.

عقولكم ونهاية قُواكم. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه[١].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أخسِّه وأدْوَنِه، وهو الهَرَمُ والخَرَف حتى لا يعقِل؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، كما قال في سورة يس: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [الآية:٦٨]. وكان النبيُّ ﷺ يدعو فيقول: «اللهمّ إنِّي أعوذُ بك من البُخْل، وأعوذُ بك من الجُبْن، وأعوذُ بك من أنْ أُرَدَّ إلى أرْذَلِ العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر»[٢]. أخرجه النَّسائيُّ عن سعد، وقال: كان يعلِّمهنَّ بَنِيهِ كما يعلِّم المُكْتِبُ الغلمان[٣]. وقد مضى في «النحل» هذا المعنى[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ذَكَر دلالةً أخرى[٥] على البعث، فقال في الأوّل: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فخاطب جَمْعاً. وقال في الثاني: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ فخاطب واحداً، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكنَّ المعنى متَّصلٌ من حيث الاحتجاجُ على مُنْكِري البعث.

﴿هَامِدَةً﴾: يابسةً لا تُنبت شيئاً؛ قاله ابن جُريج[٦]. وقيل: دراسةً. والهُمودُ: الدروس، قال الأعشى:

قالت قُتيلَةُ ما لجسمك شاحِباً وأرى ثيابَك بالياتٍ هُمَّدَا[٧]

(١) ٩/١١١ - ١١٢ .

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٥)، والبخاري (٢٨٢٢) و(٦٣٦٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ. وسلف ١٢/٣٧٥ .

(٣) المجتبى ٨/٢٦٦ ، وقائل هذا الكلام مصعب بن سعد وعمرو بن ميمون الأودي، ومن طريقهما أخرجه النسائي عن سعد. وذكر هذا الكلام أيضاً عن عمرو بن ميمون البخاري في الرواية (٢٨٢٢) وفيه: المعلِّم، بدل: المكتب.

(٤) ١٢/٣٧٤ .

(٥) في (م): أقوى.

(٦) النكت والعيون ٤/٨ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/٤٦٦ .

(٧) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٢٧٧ ، وفيه سايئاً، بدل: شاحباً، وهو براوية المصنف في النكت والعيون ٤/٨ .

الهَرَوِيُّ: «هامدة»، أي: جافَّةٌ ذاتَ تراب. وقال شَمِر[١]: يقال: هَمَد شجر الأرض: إذا بَلِيَ وذهب. وهَمَدَتْ أصواتهم: إذا سَكَنَتْ. وهُمودُ الأرض ألَّا يكون فيها حياةٌ ولا نَبْتٌ ولا عودٌ، ولم يُصِبْها مطر. وفي الحديث: «حتى كاد يَهْمُد من الجوع»[٢] أي: يهلك. يقال: هَمَد الثوبُ يَهْمُد: إذا بَلِيَ. وهَمَدت النار تَهْمُد.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكت. والاهتزاز: شدَّة الحركة؛ يقال: هَزَزْتُ الشيءَ فاهتزَّ، أي: حركتُه فتحرَّك. وهَزَّ الحادِي الإبلَ هزيزاً فاهتزَّتْ هي: إذا تحرَّكت في سيرها لحُدائه[٣]. واهتزَّ الكوكب في انقضاضه، وكوكبٌ هازّ.

فالأرضُ تهتزُّ بالنبات؛ لأنَّ النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضَها من بعضٍ إزالةً خفيفة[٤]، فسمَّاه اهتزازاً مَجازاً.

وقيل: اهتزَّ نباتها، فحذف المضاف؛ قاله المبرِّد[٥]. واهتزازُه: شدَّة حركته، كما قال الشاعر:

تَثَنَّى إذا قامت وتهتزُّ إن مَشَتْ ... كما اهتزَّ غصنُ البان في ورقٍ خُضْرِ[٦]

والاهتزازُ في النبات أظْهَرُ منه في الأرض.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت. وقيل: انتفخت، والمعنى واحد، وأصلُه الزيادة.

---

(١) هو ابن حمدويه، وكلامه في تهذيب اللغة ٦/ ٢٢٨.

(٢) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٢٩١، والزمخشري في الفائق ٢/ ٢٠ و ٣٧٩، وابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٥٠٠، وابن الأثير في النهاية (همد)، وهو من حديث عامر بن ربيعة ﷺ في وصف مصعب بن عمير ﷺ.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بحدائه، والمثبت من (ظ) والصحاح (هزز) والكلام منه.

(٤) في (خ) و(م): خفية، وفي (د): حقيقة.

(٥) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٠.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٩.

رَبَا الشيء يَرْبُو رُبُوًّا، أي: زاد، ومنه الرِّبا والرَّبوة.

وقرأ يزيد بن القَعْقاع وخالد بن إلياس: «وَرَبَأَتْ»، أي: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة، وهو الذي يحفظ القوم على شيءٍ مُشْرِف، فهو رابئٌ، ورَبِيئة على المبالغة[١]، قال امرؤ القيس:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قبل ذلك مُخْمَلاً[٢] كذئب الغَضَا يمشي الضَّرَاءَ ويتَّقي[٣]

﴿وَأَنْبَتَتْ﴾ أي: أخرجت ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: لون ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حسن؛ عن قتادة[٤]. أي: يُبهج مَن يراه. والبَهجة: الحُسْن؛ يقال: رجلٌ ذو بَهجة. وقد بَهُج ـ بالضمِّ ـ بَهاجةً وبَهْجة، فهو بَهيج[٥]. وأبْهجني: أعجبني بحسنه. ولمَّا وصف الأرض بالإنبات دلَّ على أنَّ قوله: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ يرجع إلى الأرض لا إلى النبات. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا ذكر افتقارَ الموجوداتِ إليه وتسخيرَها على وَفْقِ اقتداره واختياره في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إلى قوله: ﴿بَهِيجٍ﴾، قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨١، وقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٥. وخالد بن إلياس ـ ويقال: إياس ـ هو أبو الهيثم العدوي المدني، من رجال التهذيب.

(٢) في النسخ الخطية: قبل ذلك مخمصاً، وفي (م): قبل ذاك مخملاً. والمثبت من الديوان على ما يأتي.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٧٢، وقال شارحه: الربيء والربيئة: الذي يربأ للقوم، أي: ينظر الصيد من مكان مرتفع. ومُخمَلاً يعني: يُخمل نفسه، أي: يسترها ويخفيها. والغضا: شجر، وأخبثُ الذئاب ما كان منشؤه ومأواه الغضا. اهـ. ويمشي الضَّرَاء، أي: مستخفياً فيما يواري من الشجر. الصحاح (ضرا).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢، والطبري ١٦/ ٤٦٧.

(٥) الصحاح (بهج).

قَدِيرٌ . وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فنبَّه سبحانه وتعالى بهذا على أنَّ كلَّ ما سواه، وإنْ كان موجوداً حقًّا، فإنَّه لا حقيقةَ له من نفسه؛ لأنه مسخَّرٌ مصرَّف، والحقُّ الحقيقيُّ: هو الموجودُ المطلَقُ الغنيُّ المطلَق. وأنَّ وجودَ كلِّ ذي وجودٍ عن وجوبِ وجوده؛ ولهذا قال في آخر السورة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الآية: ٦٢][1] والحقُّ: الموجودُ الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يزول، وهو الله تعالى.

وقيل: ذو الحقِّ على عباده. وقيل: «الحقّ» بمعنى: في أفعاله.

وقال الزجَّاج: «ذلك» في موضعِ رفعٍ، [المعنى: الأمر ذلك] أي: الأمرُ ما وُصف لكم وبُيِّن. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لأنَّ الله هو الحقّ. قال: ويجوز أن يكون «ذلك» نصباً؛ أي: فَعَلَ الله ذلك بأنه هو الحق[2].

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بأنه ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وبأنه قادرٌ على ما أراد. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من حيث اللفظ، وليس عطفاً في المعنى؛ إذ لا يقال: فَعَل الله ما ذُكر بأنَّ الساعةَ آتيةٌ، بل لابدَّ من إضمارِ فعلٍ يتضمَّنه، أي: وليعلموا أنَّ الساعة آتيةٌ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: لا شكَّ. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يريد للثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نَيِّرٍ بيِّنِ الحُجَّة. نزلت في النَّضر بن الحارث[3]. وقيل: في أبي جهل بن هشام؛ قاله

---

(١) ذكر المصنف هذا الكلام أيضاً في كتاب الأسنى ص١٤٨ نقلاً عن ابن الحصار.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٩ عن الكلبي.

ابن عباس[١]. والمُعْظَم على أنَّها نزلت في النضر بن الحارث كالآية الأولى[٢]، فهما في فريقٍ واحد، والتكرير للمبالغة في الذمّ، كما تقول للرجل تذمُّه وتوبِّخه: أنت فعلت هذا! أنت فعلت هذا! ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفَه في كلِّ آيةٍ بزيادة، فكأنه قال: إنَّ النضر بن الحارث يجادل في الله بغير علمٍ، ويتَّبع كلَّ شيطانٍ مَريد، والنضر بن الحارث يجادل في الله من غير علمٍ ومن غير هُدًى وكتابٍ منير؛ ليُضِلَّ عن سبيل الله، وهو كقولك: زيدٌ يشتمني وزيدٌ يضربني، وهو تكرارٌ مفيدٌ؛ قاله القشيريّ.

وقد قيل: نزلت فيه بضعَ عَشْرَةَ آيةً. فالمرادُ بالآية الأولى: إنكارُه البعثَ، وبالثانية: إنكارُه النبوّةَ وأنَّ القرآن منزلٌ من جهة الله. وقد قيل: كان من قول النضر ابن الحارث: إنَّ الملائكة بناتُ الله[٣]، وهذا جِدالٌ في الله تعالى.

«مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ في قوله: «ومِنَ الناسِ». ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ نصب على الحال، ويتأوَّل على معنيين: أحدهما: روي عن ابن عباس أنه قال: هو النضر بن الحارث، لَوَى عنقه مَرَحاً وتعظُّماً. والمعنى الآخر ـ وهو قولُ الفرَّاء ـ أنَّ التقدير: ومِن الناس مَن يجادلُ في الله بغير علمٍ ثانيَ عِطْفِه، أي: مُعْرِضاً عن الذِّكر؛ ذكره النحاس[٤].

وقال مجاهد وقتادة: لاوِياً عنقَه كفراً. ابن عباس: مُعْرِضاً عمَّا يُدْعَى إليه كفراً[٥]. والمعنى واحد.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٦ .

(٢) يعني الآية (٣) من هذه السورة، وينظر ما سلف ص٣١٢ من هذا الجزء .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٠٥ عن مقاتل.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٨٨ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٦ ، وفيه: ثانياً عطفَه، بدل: ثاني عطفه.

(٥) أخرج هذه الأخبار بنحوها الطبري ١٦/ ٤٦٩ - ٤٧٠ .

وروى الأوزاعيُّ، عن مَخْلد بن حسين، عن هشام بن حسان، عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ قال: هو صاحبُ البدعة. المبرِّد: العِطْفُ: ما انثنى من العنق[١].

وقال المفضَّل: والعِطْفُ: الجانب، ومنه قولُهم: فلانٌ ينظر في أعطافه، أي: في جوانبه[٢]. وعِطْفَا الرجل: [جانباه] من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَيْه، وكذلك عِطْفَا كلِّ شيءٍ جانباه. ويقال: ثَنَى فلانٌ عنّي عِطْفَه: إذا أعرض عنك[٣].

فالمعنى: أي: هو مُعْرِضٌ عن الحقِّ في جِدَاله، ومُوَلٍّ عن النظر في كلامه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان:٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون:٥]، وقوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٣]، وقوله: ﴿ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة:٣٣].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: عن طاعة الله تعالى. وقرئ: «لِيَضِل» بفتح الياء[٤]؛ واللامُ لامُ العاقبة، أي: يجادلُ فيَضِلُّ، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص:٨] أي: فكان لهم كذلك. ونظيرُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا۟﴾ [النحل:٥٤].

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ﴾ أي: هوانٌ وذُلٌّ بما يجري له من الذِّكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآية [القلم:١٠]، وقولِه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وقيل: الخزيُ هاهنا: القتل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قتل النضر بن الحارث يومَ بدرٍ صَبْراً،

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢، ولم نقف على خبر ابن عباس.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٩.

(٣) الصحاح (عطف)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤.

كما تقدَّم في آخر الأنفال[١].

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: نار جهنم. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له في الآخرة إذا دخل النار: ذلك العذابُ بما قدَّمتْ يداك من المعاصي والكفر. وعبَّر باليد عن الجملة؛ لأنَّ اليد التي تفعلُ وتبطِشُ للجملة. و«ذلك» بمعنى هذا، كما تقدَّم في أوّل «البقرة»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ «مَن» في موضع رفعٍ بالابتداء. والتمامُ: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ على قراءة الجمهور «خَسِر»[٣]. وهذه الآيةُ خبرٌ عن المنافقين. قال ابن عباس: يريد شيبة بنَ ربيعة؛ كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله ﷺ، فلمَّا أُوحي إليه ارتدَّ شيبة بنُ ربيعة[٤].

وقال أبو سعيد الخُدْرِيُّ: أسلم رجلٌ من اليهود، فذهب بصره وماله [وولده] فتشاءم بالإسلام، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: أقِلْني! فقال: «إنَّ الإسلام لا يُقال» فقال: إنِّي لم أُصِبْ في ديني هذا خيراً؛ ذهب بصري ومالي وولدي! فقال: «يا يهوديّ إنَّ الإسلام يَسْبِكُ الرجال كما تَسْبِكُ النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾[٥].

---

(١) ١٠/ ٢٣ و ٨٩ - ٩٠.

(٢) ١/ ٢٤٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٣١٧ وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن مردويه كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١١٢، قال ابن حجر: إسناده ضعيف.

وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٦٨ من حديث جابر ﷺ، ولم يذكر فيه نزول الآية، وفي إسناده عنبسة ابن سعيد، قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: وعنبسة ضعيف جدًّا.

وروى إسرائيل عن أبي حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» قال: كان الرجل يَقْدَم المدينة، فإن وَلَدَتْ امرأته غلاماً ونُتِجت خيلُه قال: هذا دِينٌ صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَج خيلُه قال: هذا دِين سُوء[(١)].

وقال المفسرون: نزلت في أعرابٍ كانوا يَقْدَمون على النبيِّ ﷺ فيُسلِمون، فإن نالوا رخاءً أقاموا، وإن نالتهم شدَّةٌ ارتدُّوا[(٢)].

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث. وقال ابن زيد وغيره: نزلت في المنافقين[(٣)].

ومعنى ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شكٍّ؛ قاله مجاهد وغيره[(٤)]. وحقيقتُه: أنه على ضعفٍ في عبادته، كضعفِ القائم على حرفٍ مضطربٍ فيه. وحرفُ كلِّ شيءٍ: طَرَفُه وشَفِيرُه وحدُّه، ومنه حرفُ الجبل، وهو أعلاه المحدَّد.

وقيل: «على حرف» أي: على وجهٍ واحد، وهو أن يعبدَه على السرَّاء دون الضرَّاء، ولو عبدوا الله على الشكر في السَّراء، والصبرِ على الضراء، لَمَا عبدوا الله على حرف.

وقيل: «على حرف»: على شرط، وذلك أنَّ شيبة بن ربيعةَ قال للنبيِّ ﷺ قبل أن يظهر أمره: ادعُ لي ربَّك أن يرزقني مالاً وإبلاً وخيلاً وولداً حتى أُومِنَ بك وأعدِلَ إلى دينك، فدعا له، فرزقه الله عزَّ وجلَّ ما تمنَّى، ثم أراد الله عزَّ وجلَّ فتنته واختباره وهو أعلم به، فأخذ منه ما كان رَزَقه بعد أن أسلم، فارتدَّ عن الإسلام، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ يريد: على شرط.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٢).

(٢) ينظر هذا القول وما ورد فيه من أخبار في تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٢ - ٤٧٤ .

(٣) أخرجه عن ابن زيد الطبري ١٦/ ٤٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٣ و ٤٧٤ عن مجاهد وقتادة.

وقال الحسن: هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه[١].

وبالجملة؛ فهذا الذي يعبد الله على حَرْفٍ ليس داخلاً بكلِّيَّته، وبيَّن هذا بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾: صحةُ جسمٍ ورَخاءُ معيشةٍ، رضيَ وأقام على دينه. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: خلافُ ذلك مما يُختبر به ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتدَّ، فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر.

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس الأعرج[٢] والزُّهريُّ وابن أبي إسحاق، وروي عن يعقوب: «خاسِرَ الدنيا» ـ بألفٍ[٣] ـ نصباً على الحال، وعليه فلا يوقَف على: «وجهه». وخسْرانُه الدنيا بأنْ لا حظَّ له في غنيمةٍ ولا ثناء، والآخرةَ بأن لا ثوابَ له فيها.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ قال الفرَّاء[٤]: الطويل.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: هذا الذي انقلب على وجهه يعبد[٥] مَن ضرُّه أدنى من نَفْعِه، أي: في الآخرة؛ لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ٢٧٧.

(٢) في النسخ: والأعرج، بالواو، والصواب ما أثبتناه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٧٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٤، والمحتسب ٢/ ٧٥ عن مجاهد وحميد بن قيس، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧٧ عن يعقوب، والقراءة المشهورة عنه ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨.

(٥) في (م): يدعو.

نفعاً أصلاً، ولكنه قال: «ضرُّه أقربُ من نفعه» ترفيعاً للكلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقيل: يعبدونهم تَوَهُّمَ أنهم يشفعون لهم غداً، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقال الفرَّاء والكسائيُّ والزجَّاج: معنى الكلام القسمُ والتأخير، أي: يدعو واللهِ مَن لَضرُّه(١) أقربُ من نفعه. فاللامُ مقدَّمةٌ في غير موضعها. و«مَن» في موضع نصبٍ بـ«يدعو»، واللامُ جوابُ القَسَم. و«ضَرُّه» مبتدأ. و«أقْرَبُ» خبره(٢). وضعَّف النحاس(٣) تأخيرَ اللام وقال: وليس لِلَّامِ من التصرُّف ما يوجب أن يكون فيها تقديمٌ ولا تأخير.

قلت: حقُّ اللام التقديم، وقد تؤخَّر؛ قال الشاعر:

خالي لأنتَ ومَن جَريرٌ خالُه ... ينلِ العَلَاءَ ويُكرِمِ الأخوالا

أي: لخالي أنت، وقد تقدم(٤).

النحاس: وحكى لنا عليّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذفٌ، والمعنى: يدعو لمَن ضرُّه أقرب من نَفْعِه إلهاً؛ قال النحَّاس: وأحسِبُ هذا القولَ غلطاً على محمد بن يزيد؛ لأنه لا معنى له، لأنَّ ما بعد اللام مبتدأٌ، فلا يجوز نصبُ إله، وما أحسِب مذهبَ محمد بن يزيد إلَّا قولَ الأخفش، وهو أحسنُ ما قيل في الآية عندي، والله أعلم؛ قال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأٌ وخبرُه محذوف،

---

(١) في (د) و(م): لمن ضره، وهو خطأ.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧ ، وللزجاج ٣/ ٤١٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٨٧ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٨٩ .

(٤) ص٩٤ من هذا الجزء.

والمعنى: يقول: لَمَن ضرُّه أقرب من نفعه إلهُه[١].

قلت: وذكر هذا القول القُشَيْريُّ ـ رحمه الله ـ عن الزجّاج[٢]، والمهدوِيُّ عن الأخفش، وكمَّل إعرابه فقال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأ، و«ضرُّه» مبتدأٌ ثانٍ، و«أقربُ» خبرُه، والجملةُ صلةُ «مَن»، وخبرُ «مَن» محذوفٌ، والتقدير: يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهُه، ومِثْلُه قول عنترة:

يدعون عَنْتَرَ والرِّماحُ كأنها أشْطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ[٣]

قال القشيريُّ: والكافر الذي يقول: الصنم معبودي، لا يقول: ضَرُّه أقربُ من نفعه، ولكن المعنى: يقول الكافر: لَمَن ضرُّه أقربُ من نَفْعِه ـ في قول المسلمين ـ معبودي وإلهي. وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩]؛ أي: يا أيها الساحرُ عند أولئك الذي يدعونك ساحراً.

وقال الزجّاج: يجوز أن يكون «يدعو» في موضع الحال، وفيه هاءٌ محذوفة، أي: ذلك هو الضلالُ البعيد يدعوه، أي: في حال دعائه إياه، ففي «يدعو» هاءٌ مضمَرةٌ، ويوقف على هذا على «يدعو»، وقولُه: «لَمَن ضَرُّه أقربُ من نفعِه» كلامٌ مستأنَفٌ مرفوع بالابتداء، وخبرُه: «لَبِئسَ الْمَولَى»[٤]، وهذا لأنَّ اللام لليَمين والتوكيدِ، فجعلها أوّلَ الكلام.

قال الزجاج[٥]: ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، ويكون في محلِّ النصب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩ ، وقول الأخفش سعيد بن مسعدة في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٤١٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٦ ، والبيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٩ . قوله: يدعون عنتر، قال النحاس في شرح المعلقات ٢/ ٤٣ : الأجود فيه فتح الراء، والأشطان جمع شَطَن: وهو حبل البئر، واللبان: الصدر.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٥ - ٤١٦ ، وذكر هذا القول أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤١٧ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤١٦ .

بوقوع «يدعو» عليه، أي: الذي هو الضلالُ البعيد يدعو، كما قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] أي: ما الذي[١]، ثم قولُه: «لَمَن ضرُّه» كلامٌ مبتدأ، و«لبئس المولى» خبرُ المبتدأ، وتقديرُ الآية على هذا: يدعو الذي هو الضلال البعيد، قدَّم المفعولَ وهو الذي، كما تقول: زيداً يَضْرِبُ، واستحسنه أبو عليٍّ[٢]. وزعم الزجَّاجُ أنَّ النَّحْويين أغفلوا هذا القول، وأنشد:

عَدَسْ ما لِعبَّادٍ عليك إمارةٌ ... نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلِين طَلِيقُ[٣]

أي: والذي.

وقال الزجَّاج أيضاً والفرَّاء: يجوز أن يكون «يدعو» مكررةً على ما قَبْلَها، على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء، ولا تُعدِّيه إذ قد عدَّيته أوَّلاً، أي: يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضرُّه يدعو، مثل: ضربتُ زيداً ضربت[٤].

[وقيل: معناه: يدعو لَمَن ضرُّه أقرب من نفعه يدعو] ثم حذفت يدعو الآخرة اكتفاءً بالأولى[٥].

قال الفرَّاء: ويجوز: «لِمَنْ ضَرُّه» بكسر اللام، أي: يدعو إلى مَن ضَرُّه أقربُ مِن نَفْعِه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها[٦].

وقال الفرَّاء أيضاً والقفَّال: اللامُ صلة، أي: يدعو مَن ضرُّه أقربُ من نفعه، أي:

(١) كذا في النسخ، وفي معاني القرآن للزجاج: ما التي.

(٢) ذكر كلامه مطولاً الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٣ - ٨٥ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٧ ، والبيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في ديوانه ص١١٥ ، وسلف ٢/ ١٤٩ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨ بنحوه، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٤ عن أبي علي. ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩ . ولا يقرأ بهذا الوجه كما ذكر الفراء.

يعبده. وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود[١].

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: في التناصر[٢] ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي: المُعاشِر والصاحب والخليل. مجاهد: يعني الوثن[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لمَّا ذكر حالَ المشركين وحالَ المنافقين والشياطين؛ ذَكَر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يُثيب مَن يشاء ويعذِّب مَن يشاء، فللمؤمنين الجنةُ بحكم وَعْدِه الصِّدْقِ وبفضله، وللكافرين النارُ بما سبق من عدله، لا أنَّ فِعْلَ الربِّ معلَّلٌ بفعلِ العبيد.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال أبو جعفر النحاس: مِن أحسَن ما قيل فيها: إنَّ المعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله محمداً ﷺ[٤]، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أُوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فليطلُبْ حيلةً يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليقطع النصر إن تهيَّأ له ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ وحيلتُه ما يَغيظُه من نصر النبيِّ ﷺ. والفائدةُ في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيدُ والحيلة بأن يفعل مثلَ هذا لم يَصِلْ إلى قطع النصر[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧ ، والقراءة عند ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ دون نسبة.

(٢) في (ظ): أي الناصر.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٧ .

(٤) بعدها في (ظ): في الدنيا.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠ .

وكذا قال ابن عباس: إنَّ الكناية في «ينصره الله» ترجع إلى محمدٍ ﷺ[١]. وهو وإن لم يَجْرِ ذِكْرُه فجميعُ الكلام دالٌّ عليه؛ لأنَّ الإيمان هو الإيمانُ بالله وبمحمدٍ ﷺ[٢]، والانقلابُ عن الدِّين انقلابٌ عن الدِّين الذي أتى به محمدٌ ﷺ، أي: مَن كان يظنُّ ممن يعادي محمداً ﷺ ومَن يعبد الله على حَرْف أنَّا لا ننصر محمداً، فلْيفعَلْ كذا وكذا.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ الهاء تعود على «مَن»، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنَّ الله لا يرزقه فليختنقْ، فليقتل نفسه[٣]؛ إذ لا خيرَ في حياةٍ تخلو من عَوْن الله. والنصرُ على هذا القول الرزقُ؛ تقول العرب: مَن ينصرني نصره الله، أي: مَن أعطاني أعطاه الله. ومِن ذلك قولُ العرب: أرضٌ منصورة، أي: ممطورة؛ قال الفَقْعسيُّ[٤]:

وإنَّـك لا تـعـطـي امْـرَأً فـوقَ حـقِّـه ... ولا تملك الشِّقَّ[٥] الذي الغيثُ ناصِرُه

وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهدٍ قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لن يرزقه[٦]. وهو قولُ أبي عبيدة[٧].

وقيل: إنَّ الهاء تعود على الدِّين، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله دينه.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل، والسببُ: ما يُتوصَّل به إلى الشيء. ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: إلى سقف البيت. ابن زيد: هي السماء المعروفة[٨].

وقرأ الكوفيون: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ بإسكان اللام[٩]. قال النحاس[١٠]: وهذا بعيدٌ في

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٠ .

(٢) في (ظ): لأن الإيمان بالله إيمان بمحمد ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨١ - ٤٨٢ ، والسماء على هذا القول هي سقف البيت، كما جاء في خبر ابن عباس.

(٤) اضطرب الاسم في النسخ، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٤٨٠ ، والبيت دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ٤٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١١ .

(٥) في النسخ الخطية: الشيء، والمثبت من (م) والمصادر.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٢ .

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٤٦ - ٤٧ .

(٨) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٤٧٩ .

(٩) قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام، والباقون بإسكانها. السبعة ص٤٣٤ ، والتيسير ص١٥٦ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٩٠ .

العربية؛ لأن «ثم» ليست مثلَ الواو والفاء؛ لأنها يُوقف عليها وتنفرد.

وفي قراءة عبد الله: «فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبنَّ كيدُه ما يغيظ»(١).

قيل: «ما» بمعنى الذي، أي: هل يُذهبنَّ كيدُه الذي يغيظُه، فحذف الهاء ليكون أخفَّ. وقيل: بمعنى المصدر، أي: هل يذهبنَّ كيدُه غيظَه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وكذلك أنَّ الله ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، علَّق وجودَ الهداية بإرادته، فهو الهادي لا هادِيَ سواه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله وبمحمدٍ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: اليهود، وهم المنتسبون إلى ملَّةِ موسى عليه السلام. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: هم قومٌ يعبدون النجوم. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم المنتسبون إلى ملَّة عيسى. ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾: هم عَبَدةُ النيران القائلون إنَّ للعالَم أصلين: نوراً وظلمةً. قال قتادة: الأديانُ خمسة، أربعةٌ للشيطان، وواحدٌ للرحمن(٢). وقيل: المجوس في الأصل: النّجوس؛ لتديُّنهم باستعمال النجاسات، والميم والنونُ يتعاقبان، كالغيم والغين، والأيْم والأين. وقد مضى في «البقرة» هذا كلُّه مستوفًى(٣). ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾: هم العربُ عَبَدةُ الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقضي ويَحكم، فللكافرين النار،

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عن ابن مسعود ﷺ، وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١١ أن قراءة ابن مسعود هي: «ثم ليقطعه».

(٢) أخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩، والطبري ١٦/ ٤٨٥، ونسبه السيوطي في الدر المنثور لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، إلا أن لفظه عندهم: والأديان ستة، خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

(٣) ينظر ٢/ ١٥٨ وما بعدها، وينظر أيضاً في الكلام عن المجوس ٨/ ٤٨٠، و ١٠/ ١٦٤.

وللمؤمنين الجنة. وقيل: هذا الفصلُ بأنْ يعرِّفهم المحقَّ من المُبْطِل بمعرفةٍ ضرورية، واليومَ يتميَّز المحقُّ عن المبطل بالنظر والاستدلال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: من أعمال خَلْقِه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يَعْزُب عنه شيءٌ منها؛ سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ خبرُ «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كما تقول: إنَّ زيداً إنَّ الخيرَ عنده. وقال الفرَّاء[١]: ولا يجوز في الكلام: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ، وزعم أنه إنما جاز في الآية؛ لأنَّ في الكلام معنى المجازاة، أي: مَن آمن ومَن تهوَّد أو تنصَّر أو صبأ، يفصلُ[٢] بَيْنهم وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ.

وردَّ أبو إسحاقَ[٣] على الفرَّاء هذا القولَ، واستقبح قولَه: لا يجوز: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ؛ قال: لأنه لا فرقٌ بين زيد وبين الذين، و«إنَّ» تدخل على كلِّ مبتدأ، فتقول: إنَّ زيداً هو منطلقٌ، ثم تأتي بإنَّ فتقول: إنَّ زيداً إنه منطلقٌ؛ وقال الشاعر:

إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ سِربالَ عِزٍّ به تُرْجَى الخواتيمُ[٤]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه رؤيةُ القلب، أي: ألم تَرَ بقلبك وعقلك. وتقدَّم معنى السجودِ في «البقرة»[٥]، وسجود

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٠.

(٢) في معاني القرآن للفراء، وإعراب القرآن للنحاس: ففصل.

(٣) هو الزجاج، والكلام في معاني القرآن له ٣/ ٤١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠، وعنه نقل المصنف.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨، وللزجاج ٣/ ٤١٨، وأمالي الزجاجي ص٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٦٤، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢ برواية:

يكفي الخليفةَ أن الله سربله سربالَ مُلْك به تُرْجى الخواتيم

(٥) ١/ ٤٣٤.

الجماد في «النحل»[١]. ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ معطوفةٌ على «مَن»، وكذا ﴿وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهذا مُشْكِلٌ من الإعراب، كيف لم ينصب ليعطفَ ما عَمِلَ فيه الفعلُ على ما عَمِلَ فيه الفعل، مثل: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان: ٣١]؟ فزعم الكسائيُّ والفرَّاء أنه لو نصب لكان حسناً، ولكن اختِير الرفعُ لأنَّ المعنى: وكثيرٌ أبَى السجود، فيكون ابتداءً وخبراً، وتمَّ الكلام عند قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. ويجوز أن يكون معطوفاً، على أنْ يكون السجود: التذلُّلَ والانقيادَ لتدبير الله عزَّ وجلَّ من ضَعْفٍ وقوّةٍ وصحةٍ وسقمٍ وحسنٍ وقُبْح، وهذا يدخل فيه كلُّ شيء[٢].

ويجوز أن ينتصب على تقدير: وأهان كثيراً حقَّ عليه العذاب، ونحوه.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «والدَّوابُّ»، ثم ابتدأ فقال: «وكثيرٌ من الناس» في الجنةِ «وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب»، وكذا روي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: وكثيرٌ من الناس في الجنة وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب؛ ذكره ابن الأنباري[٣].

وقال أبو العالية: ما في السماوات نجمٌ ولا قمرٌ ولا شمسٌ إلَّا يقع ساجداً لله حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه[٤]. قال القُشَيريُّ: وورد هذا في خبرٍ مسنَد في حقِّ الشمس، فهذا سجودٌ حقيقيٌّ، ومن ضرورته تركيبُ الحياة والعقل في هذا الساجد.

قلت: الحديث المسند الذي أشار إليه خرَّجه مسلم[٥]، وسيأتي في سورة «يس»

---

(١) ١٢/ ٣٣٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٩.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٧.

(٥) في صحيحه (١٥٩) من حديث أبي ذر ﷺ مطولاً، وأخرجه البخاري مختصراً (٤٨٠٢).

عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [الآية:٣٨]. وقد تقدَّم في «البقرة» معنى السجودِ لغةً ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: مَن أهانه بالشَّقاء والكفرِ لا يَقْدِرُ أحدٌ على دفع الهوان عنه. وقال ابن عباس: إنَّ مَن تَهاوَنَ بعبادة الله صار إلى النار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يريد أنَّ مصيرهم إلى النار، فلا اعتراضَ لأحدٍ عليه. وحكى الأخفش والكسائيُّ والفرَّاء: «ومَنْ يُهِن اللهُ فما له من مُكْرَمٍ» أي: إكرام[١].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ خرَّج مسلم[٢] عن قيس بن عُبَادٍ قال: سمعت أبا ذرّ يُقسم قَسماً: إنَّ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إنها نزلت في الذين بَرَزُوا يومَ بدرٍ: حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث ﷺ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ والوليدُ بن عتبة. وبهذا الحديث ختم مسلمٌ رحمه الله كتابه.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآياتُ الثلاثُ على النبيِّ ﷺ بالمدينة في ثلاثةِ نفرٍ من المؤمنين وثلاثةِ نفرٍ كافرين؛ وسمَّاهم كما ذكر أبو ذرّ[٣].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: إني لأوّلُ مَن يجثو للخصومة بين يدي الله يومَ القيامة. يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه؛ ذكره البخاري[٤]. وإلى هذا القول ذهب

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢١٩ ، والقراءة بفتح الراء ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ وقال: ذكره أبو معاذ. وهي في المحرر الوجيز ٤/ ١١٣ عن ابن أبي عبلة.

(٢) في صحيحه (٣٠٣٣)، وهو عند البخاري (٣٩٦٩) و(٤٧٤٣).

(٣) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٤) في صحيحه (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧).

هلال بنُ يِساف وعطاء بن يَسار وغيرهما[١].

وقال عكرمة: المراد بالخصمين: الجنةُ والنار؛ اختصمتا، فقالت النار: خلقني لعقوبته. وقالت الجنة: خلقني لرحمته[٢].

قلت: وقد ورد بتخاصُمِ الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّت الجنةُ والنار، فقالت هذه: يَدْخلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاءُ والمساكين، فقال الله تعالى لهذه: أنتِ عذابي أعذِّبُ بكِ مَن أشاء، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أَرْحَم بكِ مَن أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلؤها». خرَّجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

وقال ابن عباس أيضاً: هم أهلُ الكتاب؛ قالوا للمؤمنين: نحن أَوْلَى بالله منكم، وأقدمُ منكم كتاباً، ونبيُّنا قبل نبيِّكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله[٤]، آمنَّا بمحمدٍ وآمنَّا بنبيِّكم وبما أُنزل إليه من كتاب[٥]، وأنتم تعرفون نبيَّنا وتركتموه وكفرتم به حَسَداً. فكانت هذه خصومتَهم، وأُنزلت فيهم هذه الآية. وهذا قولُ قتادة[٦].

والقول الأوّل أصحُّ، رواه البخاريُّ عن حَجَّاج بن مِنْهالٍ، عن هُشَيْمٍ، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن أبي ذر، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة، عن هُشيم[٧]. ورواه سليمان التيميُّ عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن عليٍّ قال:

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٣ .

(٣) صحيح البخاري (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦)، وسنن الترمذي (٢٥٦١)، وهو في مسند أحمد (٧٧١٨).

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): منكم، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما تفسير الطبري ١٦/ ٤٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٥) في تفسير الطبري وتفسير البغوي: وبما أنزل الله من كتاب.

(٦) ذكره البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٧) صحيح البخاري (٤٧٤٣) وصحيح مسلم (٣٠٣٣)، وسلف في بداية تفسير الآية.

فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يومَ بدرٍ ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[١].

وقرأ ابن كثير: ﴿هذانِّ خصمان﴾ بتشديد النون من «هذان»[٢].

وتَأوَّلَ الفرَّاء[٣] الخصْمَين على أنهما فريقان أهلُ دينَيْن، وزعم أنَّ الخصم الواحدَ المسلمون، والآخَرَ اليهودُ والنصارى، اختصموا في دين ربِّهم؛ قال: فقال: «اختصموا» لأنهم جَمْعٌ، قال: ولو قال: «اختصما» لجاز. قال النحاس[٤]: وهذا تأويلُ مَن لا دُرْبَةَ[٥] له بالحديث ولا بكُتُبِ أهل التفسير؛ لأنَّ الحديث في هذه الآية مشهورٌ، رواه سفيان الثَّوْريُّ وغيره عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد قال: سمعتُ أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً: إنَّ هذه الآية نزلت في حمزةَ وعليٍّ وعبيدة بنِ الحارث بن عبد المطلب، وعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعةَ والوليد بن عتبة. وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس[٦].

وفيه قولٌ رابعٌ: أنهم المؤمنون كلُّهم، والكافرون كلُّهم من أيِّ ملةٍ كانوا؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رَبَاح وعاصم بن أبي النَّجُود والكلبيّ[٧]. وهذا القولُ بالعموم يجمع المنزَلَ فيهم وغيرَهم.

وقيل: نزلت في الخصومة في البعث والجزاء؛ إذ قال به قومٌ وأنكره قوم[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧)، وسلف في بداية تفسير الآية.

(٢) السبعة ص٤٣٥، والتيسير ص٩٥.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩١.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٩١.

(٥) في (د) و(م): دراية.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١، وسلف تخريج خبر ابن عباس في بداية تفسير هذه الآية.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤٩٢.

(٨) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٢ بنحوه عن مجاهد.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني من الفِرق الذين تقدَّم ذكرهم ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: خِيطَتْ وسُوِّيت، وشبِّهت النار بالثياب لأنها لباسٌ لهم كالثياب.

وقوله: ﴿قُطِّعَتۡ﴾ أي: تُقطَّع لهم في الآخرة ثيابٌ من نار؛ وذُكر بلَفْظِ الماضي لأنَّ ما كان من أخبار الآخرة فالموعودُ منه كالواقع المحقَّق؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] أي: يقول الله تعالى. ويحتمل أن يقال: قد أُعِدَّت الآنَ تلك الثيابُ لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار.

وقال سعيد بن جبير: «من نار»: من نحاس، فتلك الثياب من نحاسٍ قد أذيبت، وهي السرابيلُ المذكورة في «قِطْرٍ آنٍ»[١]، وليس في الآنية شيءٌ إذا حَمِيَ يكون أشدَّ حرًّا منه[٢].

وقيل: المعنى: أنَّ النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم، فصارت من هذا الوجه ثياباً لأنها بالإحاطة كالثياب، مثلُ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النبأ:١٠].

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي: الماء الحارُّ المُغلَّى بنار جهنَّم. وروى الترمذيّ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الحميم لَيُصَبُّ على رؤوسهم، فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه، فيَسْلِتُ ما في جوفه حتى يَمْرُق من قدميه، وهو الصَّهْر، ثم يعاد كما كان». قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٣].

﴿يُصۡهَرُ﴾: يذاب ﴿بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ والصَّهر: إذابةُ الشَّحم. والصُّهارة: ما

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ [إبراهيم:٥٠] والقراءة أعلاه في القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٦٤ دون قوله: فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهي السرابيل المذكورة في قطر آن. وأورده دون هذه العبارة أيضاً البغوي ٣/ ٢٨٠.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٨٦٤)، والطبري ١٦/ ٤٩٥، وفيهما: فينفذ الجمجمة، بدل: فينفذ الحميم.

ذاب منه؛ يقال: صَهَرْت الشيء فانصهر، أي: أذبتُه فذاب، فهو صهير. قال ابن أحمر يصف فرخَ قَطاةٍ:

تَرْوي لَقًى أُلقيَ في صَفْصفٍ تَصْهرُه الشمسُ فما يَنْصَهِرْ[١]

أي: تُذيبه الشمس فيصبر على ذلك.

﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: وتُحرَق الجلود، أو تُشوَى الجلود؛ فإنَّ الجلود لا تذاب، ولكن يُضَمُّ[٢] في كلِّ شيء ما يَليقُ به، فهو كما تقول: أتيته فأطعمني ثريداً، إي والله ولبناً قارِصاً[٣]؛ أي: وسقاني لبناً؛ قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً[٤]

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي: يُضربون بها ويُدفعون، الواحدة مِقْمَعة، ومِقْمَع أيضاً كالمِحْجَن، يُضرب به على رأس الفيل. وقد قَمَعتُه: إذا ضربتَه بها. وقَمعته وأَقْمعته بمعنًى، أي: قهرتُه وأذْللتُه فانقمع. قال ابن السِّكِّيت: أقمعتُ الرجلَ عنِّي إقماعاً: إذا طَلَع عليك فردَدْتَه عنك[٥].

وقيل: المَقَامع: المَطارِقُ، وهي المَرازب أيضاً. وفي الحديث: «بِيَدِ كلِّ مَلَكٍ من خَزَنةِ جهنَّم مِرْزَبَةٌ لها شُعبتان، فيضربُ الضربةَ، فيهوي بها سبعين ألفاً»[٦]. وقيل: المقامع: سِياطٌ من نار. وسُمِّيت بذلك لأنها تَقْمَعُ المضروب، أي: تذلِّله.

---

(١) الصحاح (صهر)، والبيت في تهذيب اللغة ١٥/ ٣١٤، وأساس البلاغة (روي)، واللسان (روي) و(صهر) و(لقا) وفيه: اللقى: الشيء الملقى لهوانه، وجمعه ألقاء. وتروي: تسوق إليه الماء، أي: تصير كالراوية. اهـ. والصفصف: الذي لا نبات فيه، تاج العروس (صفف).

(٢) في (خ): يذم.

(٣) هو الحامض من ألبان الإبل خاصة، وقيل: القارص: اللبن الذي يَحْذي اللسان، فأطلق ولم يخصص الإبل. اللسان (قرص).

(٤) وعجزه: حتى شَتَتْ همَّالةً عيناها، وسلف ١/ ٢٩١، و٧/ ٣٤٩.

(٥) الصحاح (قمع).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٤٠ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ٣/ ١٧٣ - ١٧٤ من طريق رجل من بني تميم، عن أبي العوام من قوله مطولاً.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالضرب بالمَقامع؛ قال أبو ظَبيان: ذُكر لنا أنَّهم يحاولون الخروج من النار حين تَجيشُ بهم وتفورُ، فتُلْقي مَن فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروجَ، فتعيدُهم الخُزَّانُ إليها بالمَقامع[١].

وقيل: إذا اشتدَّ غمُّهم فيها فرُّوا، فَمَن خَلَص منهم إلى شَفِيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمَقامع، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: المُحْرِق؛ مثلُ الأليمُ والوَجِيعُ. وقيل: الحريقُ: الاسم من الاحتراق، تحرَّق الشيءُ بالنار واحترق، والاسم: الحُرْقة والحريق[٢]. والذَّوْق: مماسَّةٌ يحصل معها إدراكُ الطعم، وهو هنا توسُّعٌ، والمراد به إدراكُهم الألم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لمَّا ذكر أحد الخصمين، وهو الكافر؛ ذكر حال الخصم الآخر، وهو المؤمن. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ «مِن» صِلة[٣]. والأساور جمع

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٨ .

(٢) الصحاح (حرق).

(٣) وهذا على مذهب مَن أجاز زيادة «من» في الإيجاب، ينظر أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٣٤ ، والدرّ المصون ٨/ ٢٥٢ ، وروح المعاني ١٧/ ١٣٥ . وقيل: هي للتبعيض، أي: بعض أساور. وقيل: لبيان الجنس، ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٢ .

أَسوِرة، وأَسورة واحدها سِوار، وفيه ثلاثُ لغاتٍ: ضمُّ السين، وكَسْرُها، وإسوار[١].

قال المفسِّرون: لمَّا كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور والتِّيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحدٌ من أهل الجنة إلَّا وفي يده ثلاثةُ أسورة: سِوارٌ من ذهب، وسوارٌ من فضة، وسوارٌ من لؤلؤ؛ قال هنا وفي «فاطر»: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]، وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الآية: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ من حديث أبي هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تَبْلغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢].

وقيل: تُحَلَّى النساءُ بالذهب والرجالُ بالفضة. وفيه نظر، والقرآن يردُّه.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشيبةُ وعاصمٌ هنا وفي سورة الملائكة: «لؤلؤاً» بالنصب[٣]، على معنى: ويُحَلَّون لؤلؤاً، واستدلُّوا بأنها مكتوبةٌ في جميع المصاحف هنا بألف[٤]. وكذلك قرأ يعقوبُ والجَحْدَرِيُّ وعيسى بنُ عمر بالنصب هنا، والخفضِ في «فاطر»[٥]؛ اتِّباعاً للمصحف، ولأنها كُتبت هاهنا بألفٍ وهناك بغير ألف[٦]. الباقون بالخفض في الموضعين. وكان أبو بكر لا يهمز «اللؤلؤ» في كلِّ القرآن[٧]. وهو

(١) ينظر الصحاح (سور)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٥١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٥٠)، وسلف ٧/ ٣٣٤ .

(٣) السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ عن عاصم ونافع، وأما ابن القعقاع - وهو يزيد أبو جعفر - فقد قرأ: لُولُؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى واواً ساكنة مدّيّة، وكذلك قرأها أبو بكر شعبة عن عاصم، كما سيذكر المصنف. النشر ٢/ ٣٢٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٤٩٩ ، والمقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار للداني ص٤٠ .

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦ عن يعقوب.

(٦) المقنع للداني ص٤٠ ، وقد وقع في مصاحفنا بألف في الموضعين، فليحرر.

(٧) أي: لُولُؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى فقط واواً ساكنة مدّيّة. وكذلك أبدلها أبو عمرو في رواية السوسي، غير أنه قرأ بالخفض. السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ ، والكشف ٢/ ١١٨ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ عن أبي علي الفارسي قوله: هَمْزُهما وتخفيفُهما، وهَمْزُ إحداهما دون الأخرى جائز كلُّه. وينظر الحجة للفارسي ٥/ ٢٦٧ - ٢٦٨ .

ما يُستخرج من البحر من جَوْفِ الصَّدَف.

قال القُشيرِيُّ: والمرادُ ترصيع السوار باللؤلؤ، ولا يبعدُ أن يكون في الجنة سوارٌ من لؤلؤ مُصْمَتٍ[1].

قلت: وهو ظاهِرُ القرآن، بل نصُّه.

وقال ابن الأنباريِّ[2]: مَن قرأ: «ولؤلؤٍ» بالخفض، وَقَفَ عليه، ولم يقف على الذهب. وقال السِّجِسْتانيُّ: مَن نَصَبَ «اللؤلؤ» فالوقفُ الكافي: «من ذهب»؛ لأن المعنى: ويُحلَّوْن لؤلؤاً. قال ابن الأنباريِّ: وليس كما قال؛ لأنَّا إذا خَفَضْنا «اللؤلؤ» نَسَقْناه على لفظِ الأساور، وإذا نصبناه نَسَقْناه على تأويل الأساور، وكأنَّا قلنا: يحلَّون فيها أساور ولؤلؤاً، فهو في النَّصب بمنزلته في الخفض، فلا معنى لقَطْعِه من الأوّل.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: وجميع ما يلبَسونه من فُرُشهم ولباسهم وسُتورهم حريرٌ، وهو أعلى ممَّا في الدنيا بكثير.

وروى النَّسائيُّ عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن لَبِسَ الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، ومَن شَرِبَ الخمر في الدنيا لم يَشْرَبْه في الآخرة، ومَن شرب في آنيةِ الذَّهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة». ثم قال رسول الله ﷺ: «لباسُ أهلِ الجنةِ، وشرابُ أهلِ الجنة، وآنيةُ أهل الجنة»[3].

فإن قيل: قد سوَّى النبيُّ ﷺ بين هذه الأشياء الثلاثة، وأنه يُحْرَمُها في الآخرة؛ فهل يحرمُها إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يتب منها؛ حُرِمها في الآخرة، وإنْ

---

(١) الحلي المصمت: هو الذي لا يخالطه غيره. اللسان (صمت).

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٣.

(٣) سنن النسائي الكبرى (٦٨٤٠). وقوله منه: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» أخرجه أحمد (٢٥١) (١١٩٨٥) (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٤) (٥٨٣٢) (٥٨٣٣) عن عمر وأنس وعبد الله بن الزبير ﷺ، وأخرجه مسلم (٢٠٦٩): (١١) و(٢٠٧٣) و(٢٠٧٤) عن عمر وأنس وأبي أمامة ﷺ.

دخل الجنة؛ لاستعجاله ما حرَّم الله عليه في الدنيا.

لا يقال: إنما يُحْرَم ذلك في الوقت الذي يعذَّب في النار، أو بطول مُقامِه في الموقف، فأمَّا إذا دخل الجنةَ فلا؛ لأنَّ حِرْمانَ شيءٍ من لذَّات الجنة لمن كان في الجنة نوعُ عقوبةٍ ومؤاخذةٍ، والجنةُ ليست بدارِ عقوبة، ولا مؤاخذةَ فيها بوجه.

فإنَّا نقول: ما ذكرتموه محتملٌ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردُّه من ظاهر الحديث الذي ذكرناه، وما رواه الأئمةُ من حديث ابن عمر عن النبيِّ ﷺ: «مَن شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها، حُرِمها في الآخرة»[(١)]. والأصلُ التمسُّكُ بالظاهر حتى يَرِدَ نصٌّ يدفعه، بل قد ورد نصٌّ على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطَّيَالسيُّ في «مسنده»: حدَّثنا هشام، عن قتادةَ، عن داود السرَّاج، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لبس الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، وإن دَخَلَ الجنة لَبِسَه أهلُ الجنة ولم يَلْبَسْه هو»[(٢)]. وهذا نصٌّ صريح وإسنادٌ صحيح[(٣)]. فإن كان: «وإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو» من قول النبيِّ ﷺ فهو الغايةُ في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذُكِر [أنه موقوف][(٤)] فهو أعلمُ بالمقال وأَقْعَدُ بالحال، ومثلُه لا يقال بالرأي، والله أعلم.

وكذلك: «مَن شرب الخمر ولم يَتُبْ» و«مَن استعمل آنيةَ الذَّهبِ والفضَّة» وكما لا

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

(٢) مسند الطيالسي (٢٢١٧)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٨)، وابن حبان (٥٤٣٧). وهو عند أحمد (١١١٧٩) دون قوله: «وإن دخل الجنة...»، وذكر الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٨٩ أن قوله: «وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» يحتمل أن يكون مُدْرَجاً.

(٣) في (خ) و(م): وإسناده صحيح. والحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف في إسناده داود السراج، وهو لم يرو عنه إلا قتادة، كما ذكر الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢ . وقال ابن المديني: مجهول لا أعرفه، وذكره ابن حبان في الثقات. التهذيب ١/ ٥٧٣ . أما أول الحديث فصحيح كما سلف.

(٤) أخرجه موقوفاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٦) دون قوله: وإن دخل الجنة . . . ، وأخرجه بتمامه موقوفاً الخطيب البغدادي في الفصل للوصل ١/ ٥٧٣ .

يشتهي منزلةَ مَن هو أَرْفَعُ منه، وليس ذلك بعقوبةٍ، كذلك لا يشتهي خمرَ الجنة ولا حريرَها، ولا يكون ذلك عقوبةً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتاب «التذكرة»[١]، والحمد لله، وذكرنا فيها أنَّ شجر الجنة وثمارَها يَتفتَّق عن ثياب الجنة[٢]، وقد ذكرناه في سورة الكهف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: أُرشِدوا إلى ذلك. قال ابن عباس: يريد: لا إله إلا الله والحمد لله[٤]. وقيل: القرآن. ثم قيل: هذا في الدنيا، هُدُوا إلى الشهادة وقراءة القرآن. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى صراط الله. وصراطُ الله: دِينُه، وهو الإسلام.

وقيل: هُدُوا في الآخرة إلى الطيِّب من القول، وهو: الحمدُ لله؛ لأنهم يقولون غداً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فليس في الجنة لَغوٌ ولا كَذِبٌ، فما يقولونه فهو طيِّبُ القول. وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله؛ إذ ليس في الجنة شيءٌ من مخالفة أمر الله.

وقيل: الطيِّبُ من القول: ما يأتيهم من الله من البِشارات الحسنة. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى طريق الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) ص٤٤٨ – ٤٤٩، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) التذكرة ص٤٥٤.

(٣) ١٣/ ٢٦٧، وينظر أيضاً ما ورد ١٢/ ٦٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٤ – ٢٦٥.

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ﴾ أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين صَدُّوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة، وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدٌّ قبل ذلك الجمع، إلَّا أنْ يريدَ صدَّهم لأفرادٍ من الناس، فقد وقع ذلك في صَدْرِ المَبْعَث. والصَّدُّ: المنع. أي: وهم يصدُّون، وبهذا حَسُنَ عَطْفُ المستقبل على الماضي.

وقيل: الواوُ زائدة، و«يصدون» خبرُ «إنَّ». وهذا مُفْسِدٌ للمعنى المقصود، وإنَّما الخبرُ محذوفٌ مقدَّرٌ عند قوله: ﴿وَٱلْبَادِ﴾، تقديره: خسروا، أو[1] هلكوا.

وجاء «ويصدُّون» مستقبَلاً؛ إذ هو فعلٌ يُديمُونه، كما جاء قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨]. فكأنه قال: إنَّ الذين كفروا من شأنهم الصدُّ. ولو قال: إنَّ الذين كفروا وصدُّوا، لجَاز.

قال النحَّاس[2]: وفي كتابي عن أبي إسحاق[3] قال: وجائز أن يكون - وهو الوجهُ - الخبر: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال أبو جعفر: وهذا غلط! ولستُ أعرف ما الوجهُ فيه؛ لأنه جاء بخبرِ «إنَّ» جَزْماً، وأيضاً فإنه جوابُ الشرط، ولو كان خبرَ «إنَّ» لبقي الشرطُ بلا جواب، ولا سيما والفعلُ الذي في الشرط مستقبلٌ، فلابُدَّ له من جواب.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: إنه المسجدُ نفسه، وهو ظاهرُ القرآن؛ لأنه لم يذكر غيره. وقيل: الحرمُ كلُّه؛ لأنَّ المشركين صدُّوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه عنه عامَ الحديبية، فنزل خارجاً عنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح:٢٥]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): إذ، وفي (ظ): إذا، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ ، والكلام من بداية هذه المسألة منه.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٩٣ .

(٣) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٠ .

[الإسراء: ١]. وهذا صحيحٌ، لكنه قَصَدَ هنا بالذِّكر المهمَّ المقصودَ من ذلك[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: للصَّلاة والطَّواف والعبادة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ العاكفُ: المقيم المُلازِمُ. والبادي: أهلُ البادية ومَن يَقْدَم عليهم. يقول: سواءٌ في تعظيم حُرمته وقضاءِ النُّسك فيه الحاضرُ والذي يأتيه من البلاد، فليس أهلُ مكةَ أحقَّ من النازِع[٢] إليه.

وقيل: إنَّ المساواة إنَّما هي في دُوره ومنازله، ليس المقيم فيها أَوْلَى من الطارئ عليها. وهذا على أنَّ المسجدَ الحرامَ الحَرَمُ كلُّه؛ وهذا قولُ مجاهدٍ ومالكٍ؛ رواه عنه ابن القاسم[٣].

ورُوِيَ عن عمر وابن عباس وجماعةٍ: إلى أنَّ القادم له النزولُ حيث وُجِد، وعلى ربِّ المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى. وقال ذلك سفيان الثوريُّ وغيره. وكذلك كان الأمر في الصدر الأوّل، [قال ابن سابط:] كانت دُورُهم بغير أبوابٍ حتى كَثُرت السرقة، فاتَّخذ رجلٌ باباً، فأنكر عليه عمر وقال: أتغلقُ باباً في وجه حاجٍّ بيتِ الله؟ فقال: إنَّما أردتُ حِفْظَ متاعِهم من السرقة. فتركه فاتَّخذ الناس الأبواب[٤].

ورويَ عن عمر بن الخطاب ﷺ أيضاً: أنه كان يأمر في الموسم بقَلْع أبواب دُور مكة، حتى يدخلها الذي يَقْدَم فينزل حيث شاء، وكانت الفساطيطُ تُضرب في الدُّور[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ .

(٢) في (م): النازح.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وأخرجه عن مجاهد ابن أبي شيبة ٤/ ٧٩ ، والطبري ١٦/ ٥٠٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر ابن سابط أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠١ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٢١٠) عن عطاء، وفيه أن أول مَن بوَّب داره هو سهيل بن عمرو.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وأخرج الخبر بنحوه عبد الرزاق (٩٢١١).

ورويَ عن مالك أنَّ الدور ليست كالمسجد، ولأهلها الامتناعُ بها[١] والاستبداد؛ وهذا هو العملُ اليوم. وقال بهذا جمهورٌ من الأمة.

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين: أحدُهما: أنَّ دُورَ مكةَ؛ هل هي مِلكٌ لأربابها أم للناس؟[٢].

وللخلاف سببان: أحدهما: هل فَتْحُ مكة كان عَنْوَةً فتكونَ مغنومةً، لكن النبيّ ﷺ لم يقسمها وأقرَّها لأهلها ولمن جاء بعدهم، كما فعل عمر ﷺ بأرضِ السَّواد، وعفا لهم عن الخَراج كما عفا عن سَبْيِهم واسترقاقهم إحساناً إليهم دون سائر الكفار، فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكرَى، ومَن سَبَقَ إلى موضعٍ كان أولى به. وبهذا قال مالكٌ وأبو حنيفةَ والأوزاعيُّ.

أو كان فتحُها صُلْحاً - وإليه ذهب الشافعيُّ - فتبقى ديارهم بأيديهم، وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاؤوا. ورويَ عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بنِ أميةَ بأربعة آلافٍ وجعلها سجناً[٣]، وهو أوّلُ مَن حَبَس في السجن في الإسلام، على ما تقدَّم بيانُه في آية المحاربين من سورة المائدة[٤]. وقد رويَ أنَّ النبيَّ ﷺ حَبَس في تُهمة[٥]. وكان طاوسٌ يكره السجن بمكةَ ويقول: لا ينبغي لبيتِ عذابٍ أن يكون في بيت رحمة[٦].

قلت: الصحيح ما قاله مالك، وعليه تدلُّ ظواهرُ الأخبار الثابتة: بأنَّها فُتحت

---

(١) في النسخ: منها، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وقال بعده: الثاني ينبني عليه هذا الأصل، وهو أن مكة هل افتتحت عنوة أو صلحاً؟.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٣٠٦ ، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠٧٦). وعلقه البخاري قبل الحديث (٢٤٢٣) دون ذكر الثَّمن.

(٤) ٧/ ٤٣٩ .

(٥) سلف ٨/ ٢٦٥ من حديث معاوية بن حَيْدة ﷺ.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ١١٥ .

عَنوة. قال أبو عبيد[١]: ولا نعلم مكةَ يشبهها شيءٌ من البلاد. وروى الدّارقُطْنِيُّ[٢] عن علقمة بن نَضْلة قال: توفِّيَ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تُدْعَى رِباعُ مكة إلّا السوائب؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن. وزاد في رواية: وعثمان[٣].

ورَوَى أيضاً عن علقمة بن نَضْلة الكنانيِّ قال: كانت تُدعَى بيوتُ مكةَ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوائب، لا تباع؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن[٤].

ورَوَى أيضاً عن عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى حرَّم مكةَ، فحرامٌ بيعُ رِبَاعِها وأكلُ ثمنها». وقال: «مَن أكلَ من أجرِ بيوت مكة شيئاً فإنما يأكلُ ناراً». قال الدارقطنيُّ: كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً ووَهَم فيه، ووهَم أيضاً في قوله: عبيد الله بن أبي يزيد، وإنما هو ابنُ أبي زياد القدَّاح، والصحيحُ أنه موقوف[٥].

وأسند الدارقطنيُّ أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مكةُ مُناخٌ، لا تُباعُ رِباعُها، ولا تؤاجَر بيوتها»[٦].

---

(١) في الأموال ص٨٢، وسلف قوله ١٠/ ٩.

(٢) في سننه (٣٠١٩)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣١٠٧). قال الحافظ في الفتح ٣/ ٤٥٠: في إسناده انقطاع وإرسال.

(٣) سنن الدارقطني (٣٠٢٠).

(٤) سنن الدارقطني (٣٠٢١).

(٥) سنن الدارقطني (٣٠١٥)، والحديث عنده من طريق محمد بن الحسن، عن أبي حنيفة، عن عبيد الله ابن أبي يزيد، عن ابن نجيح، عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ. قال ابن القطان في بيان الوهم ٣/ ٥١٩: وقد رواه القاسم بن الحكم عن أبي حنيفة على الصواب، فقال فيه: ابن أبي زياد، فلعل الوهم من صاحبه محمد بن الحسن. اهـ قلنا: وهو في كتاب الآثار لمحمد بن الحسن (٣٧١) و(٣٧٢)، وفيه: ابن أبي زياد، على الصواب أيضاً. والموقوف أخرجه الدارقطني (٣٠١٦) و(٣٠١٧).

(٦) سنن الدارقطني (٣٠١٩). وفي إسناده إسماعيل بن إبراهيم، قال الدارقطني بإثر الحديث: إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعيف، ولم يروه غيره.

وروى أبو داودَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: أَلَا أَبني لك بمنًى بيتاً أو بناءً يُظِلُّك من الشمس؟ فقال: «لا، إنما هو مُناخُ مَن سَبَقَ إليه»(١).

وتمسَّك الشافعيُّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠]، فأضافها إليهم، وقال عليه الصلاة والسلام يومَ الفتح: «مَن أغلق بابه فهو آمنٌ، ومَن دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن»(٢).

الرابعة: قرأ جمهور الناس: ﴿سواءٌ﴾ بالرفع، وهو على الابتداء، و«العاكفُ» خبرُه. وقيل: الخبر «سواءٌ» وهو مقدَّم؛ أي: العاكفُ فيه والبادي سواءٌ؛ وهو قولُ أبي علي، والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبلةً أو متعبَّداً؛ العاكفُ فيه والبادي سواءٌ(٣).

وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، وهي قراءةُ الأعمش. وذلك يحتمِلُ أيضاً وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانياً لجعل، ويرتفعُ «العاكف» به لأنه مصدر، فأُعمِل عَمَلَ اسمِ الفاعل؛ لأنه في معنى مُسْتوٍ. والوجه الثاني: أن يكون حالاً من الضمير في «جعلناه»(٤).

وقرأت فرقة: «سواءً» بالنصب «العاكفِ» بالخفض عطفاً على الناس(٥)، التقدير:

---

(١) سنن أبي داود (٢٠١٩)، وهو عند أحمد (٢٥٥٤١)، والترمذي (٨٨١)، وابن ماجه (٣٠٠٦). ووقع في مطبوع الترمذي: حسن صحيح، وفي التحفة ١٢/ ٤٣٤، ومختصر سنن أبي داود للمنذري ٢/ ٤٣٨: حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٢٢)، ومسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال ابن سيد الناس في عيون الأثر ٢/ ١٧٠: فكان هذا أماناً منه لكلِّ مَن لم يقاتل من أهل مكة، ولهذا قال جماعة من أهل العلم ـ منهم الإمام الشافعي رحمه الله ـ: إن مكة مؤمنة وليست عنوة، والأمان كالصلح.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وقول أبي علي الفارسي في الحجة ٥/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وقراءة حفص عن عاصم في السبعة ص٤٣٥، والتيسير ص١٥٧.

(٥) وقع في النسخ: العاكف بالخفض والبادي عطفاً على الناس، بزيادة لفظ: «والبادي»، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ (والكلام منه): ويعني بالعطف هنا عطف البيان، كما ذكر السمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٩ وقال: وهذا الذي أراد ابن عطية بقوله: عطفاً على الناس.

الذي جعلناه للناس العاكفِ والبادي.

وقراءةُ ابنِ كَثير في الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء وَوَصَل بالياء. وقرأ نافعٌ بغير ياءٍ في الوصل والوقف.(١) وأجمعَ الناس على الاستواء في نفس المسجد الحرام، واختلفوا في مكةَ، وقد ذكرناه(٢).

الخامسة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ شرطٌ، وجوابه: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. والإلحادُ في اللغة: الميل، إلّا أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّ الميل بالظلم هو المراد. واختُلف في الظلم؛ فروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: الشِّرك. وقال عطاء: الشرك والقتل(٣).

وقيل: معناه: صَيْدُ حمامِه، وقطعُ شجرِه، ودخولُه غيرَ محرِمٍ(٤).

وقال ابن عمر: كنا نتحدَّث أنَّ الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله، وبلى والله، وكلّا والله. ولذلك كان له فسطاطان؛ أحدُهما في الحِلّ، والآخَرُ في الحَرَم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاطَ الحَرَم، وإذا أراد بعضَ شأنه دخل فسطاط الحِلّ، صيانةً للحَرَم عن قولهم: كلّا والله، وبلى والله، حين عظَّم الله الذنبَ فيه(٥).

وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان؛ أحدهما في الحِلّ، والآخَرُ في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهلَه عاتبهم في الحِلّ، وإذا أراد أن يصلّي صلّى في الحرم، فقيل له في ذلك، فقال: إن كنّا لنتحدَّث(٦) أنَّ من الإلحاد في الحرم

---

(١) وذلك في رواية قالون عنه، وكذلك قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. وأما قراءة نافع في رواية ورش عنه فهي بحذف الياء وقفاً وإثباتها وصلاً، كقراءة أبي عمرو. السبعة ص٤٣٦ ، والتيسير ص١٥٨ .

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) ذكر القولين النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٤ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٤) وهذا قول عطاء، كما ذكر البغوي ٣/ ٢٨٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٤ ، وينظر التعليق التالي.

(٦) في (خ) و(ز): لنحدث، وهو موافق لبعض مصادر التخريج.

أن يقول: كلّا والله، وبلى والله[١].

والمعاصي تُضاعَفُ بمكةَ كما تُضاعَفُ الحسنات، فتكون المعصيةُ معصيتين؛ إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بإسقاط حُرمة البلد الحرام، وهكذا الأشهرُ الحُرُم سواء[٢]. وقد تقدَّم.

وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أميةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «احتكارُ الطعام في الحَرم إلحادٌ فيه»[٣]. وهو قولُ عمر بن الخطاب[٤]. والعمومُ يأتي على هذا كلِّه.

السادسة: ذهب قومٌ من أهل التأويل - منهم الضحاكُ وابنُ زيدٍ - إلى أنَّ هذه الآيةَ تَدلُّ على أنَّ الإنسان يعاقَبُ على ما ينوِيه من المعاصي بمكةَ وإنْ لم يعمله. وقد رُوِيَ نحوُ ذلك عن ابن مسعود وابن عمر، قالوا: لو همَّ رجلٌ بقتلِ رجلٍ بهذا البيتِ وهو بِعَدَنِ أَبْيَن؛ لَعَذَّبه الله[٥].

---

(١) كذا ذكر المصنف هذين الخبرين عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، والصواب أنه خبر واحد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، فقد قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١١٢ : ما في نسخ الكشاف: ابن عمر، تصحيف، وإنما هو ابن عمرو. وكذلك أخرجه عن ابن عمرو ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨٥ (نشرة العمروي)، والأزرقي في تاريخ مكة ٢/ ١٣١ ، والطبري ١٧/ ١٤١ (طبعة الحلبي)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، وذكره ابن كثير مختصراً عند تفسير هذه الآية، جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٥ .

(٣) سنن أبي داود (٢٠٢٠). وينظر التعليق التالي.

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥ من طريق يعلى بن مُنْية عن عمر ﷺ، ويعلى بن منية هو يعلى بن أمية، ومنية أمه، كما ذكر الحافظ في التقريب، وقال: صحابي مشهور، مات سنة بضع وأربعين. وأخرجه أيضاً عن عمر بإسناد آخر الفاكهي في أخبار مكة (١٧٧٧). قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ٤٣٨ : يشبه أن يكون البخاري علل المسند بهذا.

(٥) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٥٠٨ ، وروي عنه مرفوعاً كما في مسند أحمد (٤٠٧١). وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: وَقْفُه أشبهُ من رَفْعِه. وقال الدارقطني في العلل ٥/ ٢٦٩ : يرويه السدي، وقد اختلف عنه، فرفعه شعبة عن السدي، ووقفه الثوري، والقول قول شعبة. اهـ وعدن =

قلت: هذا صحيحٌ، وقد جاء هذا المعنى في سورة «ن والقلمِ» مبيَّناً، على ما يأتي بيانُه هناك إن شاء الله تعالى[١].

السابعة: الباءُ في «بإلحادٍ» زائدةٌ كزيادتها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وعليه حَمَلوا قولَ الشاعر:

نحن بنو جَعْدةَ أصحابُ[٢] الفَلَجْ نَضربُ بالسيف ونرجو بالفَرَجْ[٣]

أراد: نرجو الفرج. وقال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزقِ عيالِنا أرْماحُنا[٤]

أي: رِزْقَ. وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمي بما لاقَتْ لَبُونُ بني زيادِ[٥]

أي: ما لاقت، والباء زائدة، وهو كثير. وقال الفراء[٦]: سمعتُ أعرابيًا، وسألتُه عن شيء، فقال: أرجو بذاك، أي: أرجو ذاك. وقال الشاعر:

= أبين: مدينة معروفة باليمن، أضيفت إلى أَبْيَنَ، وهو رجل من حِمير عدن بها، أي: أقام. ولم نقف عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) عند تفسير الآيات (١٧ - ١٩) منها.

(٢) في (ظ): أبناء.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦ ، والرجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ برواية: نضرب بالبِيض. وذكره البغدادي في الخزانة ٩/ ٥٢٠ - ٥٢١ وقال: البيض السيوف، وقال ياقوت: الفَلَج مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة وقشير. وينظر معجم البلدان ٤/ ٢٧١ .

(٤) وعجزه: ملءَ المراجل والصريحَ الأجردا، كما في مجاز القرآن ٢/ ٤٩ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ ، وفيه: بين، بدل: ملء. وذكر صدره ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٢٢ ، وهو في ديوان الأعشى ص٢٨١ براوية:

ضَمِنَتْ لنا أعجازُهنَّ قدورَنا وضروعُهنَّ لنا الصريحَ الأجردا

وينظر الاقتضاب ص٤٥٧ .

(٥) البيت لقيس بن زهير، وسلف ١١/ ٤٤٣ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٣ .

بـوادٍ يَـمـانٍ يُـنْـبِـتُ الـشَّـثَّ صَـدْرُه وأسـفـلُـه بـالـمَـرْخِ والـشَّـبَـهـانِ[1]

أي: المَرخ: وهو قول الأخفش؛ والمعنى عنده: ومَن يُرِدْ فيه إلحاداً بظلم[2].

وقال الكوفيون: دخلت الباء لأنَّ المعنى: بأن يلحد، والباء مع «أن» تدخلُ وتُحذف[3]. ويجوز أن يكون التقدير: ومَن يُرِد الناسَ فيه بإلحاد.

وهذا الإلحادُ والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فَلِعِظَم حُرمةِ المكان توعَّد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومَن نوى سيئةً ولم يعملها لم يحاسَب عليها إلَّا في مكة[4]. هذا قولُ ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرِهم، وقد ذكرناه آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: واذكر إذ بوَّأنا لإبراهيم؛ يقال: بوَّأته منزلاً وبوَّأْتُ له، كما يقال: مكَّنتكَ ومكنتُ لك، فاللامُ في قوله: «لإبراهيم» صلةٌ للتأكيد، كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، وهذا قولُ الفراء[5].

وقيل: «بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت» أي: أَرَيْناه أَصْلَه ليَبْنِيَه، وكان قد دَرَس

(١) مجاز القرآن ٢/ ٤٩، وأدب الكاتب ص٥٢١، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥، وجمهرة اللغة ١/ ٤٥، و٤/ ٤١٤، ونسبه أبو الفرج في الأغاني ٢٢/ ١٤٩، والبغدادي في الخزانة ٥/ ٢٧٦ ليعلى الأحول الأزدي، وهو عندهما برواية: ينبت السِّدْر. ونسبه ابن منظور في اللسان (شبه) لرجل من عبد القيس. والشَّثُّ: ضرب من الشجر، والشَّبَهان: ضرب من النَّبْت. قاله ابن دريد. وقال البغدادي: المَرخ: شجر سريع الوَرْي.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٦.

(٣) الكلام في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٢ بنحوه مطولاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٣.

بالطُّوفان وغيره، فلمَّا جاءت مدَّةُ إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنائه، فجاء إلى موضعه، وجعل يطلب أثراً، فبعث الله ريحاً، فكشفت عن أساس آدمَ عليه السلام، فرتَّب قواعده عليه[١]، حَسْبَما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[٢].

وقيل: «بوَّأنا» نازلةٌ منزلةَ فِعْلٍ يتعدَّى باللام؛ كنحو: جعلنا، أي: جعلنا لإبراهيم مكانَ البيت مُبَوَّأً[٣]. وقال الشاعر:

كـم مـن أخٍ لـي مـاجـدٍ بـوَّأتُـه بـيـديَّ لَـحْـداً[٤]

الثانية: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ هي مخاطَبةٌ لإبراهيمَ عليه السلام في قول الجمهور. وقرأ عكرمة: «أنْ لا يُشْرِكَ» بالياء، على نقلِ معنى القولِ الذي قيل له. قال أبو حاتم: ولابدَّ من نصبِ الكاف على هذه القراءة، بمعنى: لأنْ لا يشركَ[٥].

وقيل: إنَّ «أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة. وقيل: مُفَسِّرة. وقيل: زائدة؛ مثل: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦].

وفي الآية طعنٌ على مَن أشْرَكَ من قُطَّانِ البيت؛ أي: هذا كان الشرطُ على أبيكم فمَن بَعْدَه، وأنتم لم[٦] تَفُوا، بل أشركتم. وقالت فرقة: الخطابُ من قوله: «أن لا تشرك» لمحمدٍ ﷺ؛ وأُمِر بتطهير البيت والأذانِ بالحجّ. والجمهورُ على أنَّ ذلك لإبراهيم، وهو الأصحّ.

وتطهيرُ البيت عامٌّ في الكفر والبِدَع وجميعِ الأنجاس والدماء[٧]. وقيل: عنى به

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٢) ٢/ ٣٨٦ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٤) قائله عمرو بن معدي كَرِب، كما في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٧٧ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٧٩ ، والخزانة ١١/ ٢١٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٩٥ عن عكرمة وأبي نهيك.

(٦) في النسخ: فلم، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ ، والكلام منه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

التطهير عن الأوثان، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ وذلك أنَّ جُرْهُماً والعمالقةَ كانت لهم أصنامٌ في محلِّ البيت وحولَه قبل أن يبنيَه إبراهيم عليه السلام. وقيل: المعنى: نزِّه بيتي عن أن يُعبد فيه صنم، وهذا أمرٌ بإظهار التوحيد فيه. وقد مضى ما للعلماء في تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفايةٌ في «براءة»(١).

والقائمون: هم المصلُّون. وذَكَر تعالى من أركان الصلاة أَعْظَمَها، وهو القيامُ والركوع والسجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذِّن﴾ بتشديد الذال. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابنُ مُحَيْصِن: «وآذِنْ» بتخفيف الذَّال ومدِّ الألف. ابن عطية: وتصحَّف هذا علَى ابنِ جنِّي، فإنه حكى عنهما: «وأَذِنَ» على أنه فعلٌ ماضٍ، وأَغْرَبَ على ذلك بأنْ جعله عطفاً على: «بوَّأنا»(٢). والأذانُ: الإعلام، وقد تقدَّم في «براءة»(٣).

الثانية: لمَّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أَذِّنْ في الناس بالحجِّ، قال: يا ربِّ! وما يبلغ صوتي؟ قال: أَذِّنْ، وعليَّ الإبلاغُ، فصعِد إبراهيم

(١) ١٠/ ١٥٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ وما قبله منه. وتعقبه السمين في الدر المصون ٨/ ٢٦٤ فقال: ولم يتصحف فعله، بل حكى تلك القراءة أبو الفضل الرازي في اللوامح له عنهما، وذكرها أيضاً ابن خالويه، ولكنه لم يطلع عليها، فنسب مَن اطَّلع إلى التصحيف. قلنا: قراءة «أذن» بالقصر وتخفيف الذَّال هي في المحتسب ٢/ ٧٨ ، والقراءات الشاذة ص٩٥ .

(٣) ١٠/ ١٠٤ .

خليلُ الله جبلَ أبي قُبيس وصاح: يا أيها الناس، إنَّ الله قد أمركم بحجِّ هذا البيتِ ليُثِيبَكم به الجنةَ ويُجيركم من عذاب النار، فحُجُّوا، فأجابه مَن كان في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء: لَبَّيْكَ اللَّهُمَ لَبَّيْك. فَمَن أجاب يومئذٍ حجَّ على قَدْرِ الإجابة، إنْ أجاب مرَّةً فمرة، وإن أجاب مرتين فمرتين، وجرت التلبيةُ على ذلك؛ قاله ابن عباس وابن جبير(١).

ورُوي عن أبي الطُّفيل قال: قال لي ابنُ عباس: أتدري ما كان أصلُ التلبية؟ قلت: لا! قال: لمَّا أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحجّ، خَفَضَت الجبال رؤوسها ورُفعت له القرى، فنادى في الناس بالحجّ، فأجابه كلُّ شيء: لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيك(٢).

وقيل: إنَّ الخطاب لإبراهيمَ عليه السلام تمَّ عند قوله: «السجود»، ثم خاطب الله عزَّ وجلَّ محمداً عليه الصلاة والسلام فقال: «وأذِّن في الناس بالحجّ»، أي: أَعْلِمْهم أنَّ عليهم الحجّ.

وقول ثالث: إنَّ الخطاب من قوله: «أن لا تشرك» مخاطبةٌ للنبيِّ. وهذا قولُ أهل النظر؛ لأنَّ القرآن أُنزل على النبيِّ ﷺ، فكلُّ ما فيه من المخاطبة فهي له، إلَّا أنْ يَدلَّ دليلٌ قاطعٌ على غير ذلك، وهاهنا دليلٌ آخَرُ يدلُّ على أنَّ المخاطبة للنبيِّ ﷺ، وهو: «أنْ لا تُشْرِكْ» بالتاء، وهذا مخاطَبةٌ لمشاهِدٍ، وإبراهيم عليه السلام غائبٌ، فالمعنى على هذا: وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيت، فجعلنا لك الدلائلَ على توحيد الله تعالى، وعلى أنَّ إبراهيم كان يعبد الله وحدَه(٣).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، دون قوله: فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة ـ إلى قوله ـ فمرتين. وهذه العبارة أخرجها الديلمي بسند واهٍ عن علي رَفَعه، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٤، وأخرجها الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٦٦ ضمن خبر مطوَّل عن ابن إسحاق. وينظر خبر ابن عباس ومجاهد وغيرهما في تفسير الطبري ١٦/ ٥١٤ - ٥١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥، وهذه قطعة من خبر مطول أخرجه أحمد (٢٧٠٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥.

وقرأ جمهور الناس: «بالحجّ» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاقَ في كلِّ القرآن بكسرها[١].

وقيل: إنَّ نداء إبراهيم من جملة ما أُمِر به من شرائع الدين. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وَعَدَه إجابةَ الناس إلى حجّ البيت ما بين راجلٍ وراكب، وإنَّما قال: «يأتوك» وإنْ كانوا يأتون الكعبة؛ لأنَّ المناديَ إبراهيم، فَمَن أَتَى الكعبة حاجًّا فكأنه أَتَى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريفُ إبراهيم. ابن عطية: «رجالاً» جمعُ راجلٍ، مثل: تاجِرٍ وتِجَار[٢]، وصاحِبٍ وصِحاب. وقيل: الرجال جمع رَجْل، والرَّجْل جمع راجل؛ مثل: تِجَارٍ وتَجْرٍ وتاجِر، وصِحَابٍ وصَحْبٍ وصاحِب. وقد يقال في الجمع: رُجَّال، بالتشديد، مثل: كافِر وكفَّار[٣]. وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة: «رُجَالاً» بضمِّ الراء وتخفيف الجيم، وهو قليلٌ في أبنية الجمع، ورويت عن مجاهد. وقرأ مجاهد: «رُجَالَى» على وزن: فُعَالَى، فهو مثلُ: كسالى[٤].

قال النحاس[٥]: في جَمْعِ راجِلٍ خمسةُ أَوْجُهٍ: رُجَّال مثل رُكَّاب، وهو الذي روي عن عكرمة، ورِجَال مثل قِيَام، ورَجْلة، ورَجْل، ورَجَّالة. والذي روي عن مجاهد رُجَالاً غير معروف، والأشبهُ به أن يكون غيرَ منوَّنٍ، مثل كُسالى وسُكارى، ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل. وقدَّم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادةِ تعبهم في المشي.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٣) ينظر ما سلف ٤/ ١٩٨ - ١٩٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ - ١١٨، والقراءتان في المحتسب ٢/ ٧٩. والثانية في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن عباس وعطاء وابن جبير.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ لأنَّ معنى «ضامر» معنى ضوامر، قال الفرَّاء: ويجوز: «يأتي» على اللفظ(١). والضامر: البعير المهزولُ الذي أتعبه السفر؛ يقال: ضَمُرَ يَضْمُر ضُموراً، فوصفها الله تعالى بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة. وذَكَر سبب الضُّمور فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: أثَّر فيها طولُ السفر. ورَدَّ الضمير إلى الإبل تكرمةً لها لقصدها الحجّ مع أربابها، كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خيلِ الجهاد تكرمةً لها حين سَعَتْ في سبيل الله(٢).

الرابعة: قال بعضهم: إنَّما قال: «رجالاً»؛ لأنَّ الغالب خروج الرجال إلى الحجّ دون الإناث، فقوله: «رجالاً» من قولك: هذا رجلٌ. وهذا فيه بعدٌ؛ لقوله: «وعلى كلِّ ضامر» يعني الرُّكْبانَ، فدخل فيه الرجالُ والنساء.

ولمَّا قال تعالى: «رجالاً» وبدأ بهم دلَّ ذلك على أنَّ حجَّ الراجل أفضلُ من حجِّ الراكب. قال ابن عباس: ما آسَى على شيءٍ فاتني إلَّا أنْ لا أكون حججتُ ماشياً، فإنِّي سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾. وقال ابن أبي نَجِيح: حجَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيَيْن. وقرأ أصحاب ابن مسعود: «يأتون»، وهي قراءة ابن أبي عَبْلَةَ والضحَّاك، والضميرُ للناس(٣).

الخامسة: لا خلافَ في جواز الركوب والمشي، واختلفوا في الأفضل منهما؛ فذهب مالك والشافعيُّ في آخرين إلى أنَّ الركوب أفضل، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ولكثرة النفقة، ولتعظيم شعائر الحج بأُبَّهة(٤) الركوب. وذهب غيرهم إلى أنَّ المشيَ أفضلُ؛ لِما فيه من المشقَّة على النفس(٥)، ولحديث أبي سعيد قال: حجَّ النبيُّ ﷺ وأصحابُه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص٩٥ . وأخرج قولي ابن عباس وابن أبي نجيح الطبري ١٦/ ٥١٨ .

(٤) في (م): بأهبة.

(٥) المفهم ٣/ ٣٢٣ .

مشاةً من المدينة إلى مكة، وقال: «ارْبطوا أوساطكم بأُزُرِكم» ومشَى خِلْطَ الهَرْولة. خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[١]. ولا خلافَ في أنَّ الركوبَ في الوقوف بعرفة أفضلُ، واختُلف في الطواف والسعي، والركوبُ[٢] عند مالكٍ في المناسك كلِّها أفضل؛ للاقتداء بالنبيِّ ﷺ.

السادسة: استدلَّ بعضُ العلماء بسقوط ذِكر البحر من هذه الآية على أنَّ فرض الحجّ بالبحر ساقط. قال مالك في «المَوَّازِيَّة»: لا أسمع للبحر ذكراً. وهذا تَأَنُّسٌ، لا أنه يلزم من سقوط ذِكْرِه سقوطُ الفَرْضِ فيه؛ وذلك أنَّ مكة ليست في ضِفَّةِ بحرٍ فيأتيَها الناس في السفن، ولابدَّ لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة[٣] إمَّا راجلاً وإمَّا على ضامر، فإنما ذُكرت حالتا الوصول. وإسقاطُ فرضِ الحج بمجرَّدِ البحر[٤] ليس بالكثير ولا بالقويّ، فأمَّا إذا اقترن به عدوٌّ وخوفٌ، أو هَوْل شديد، أو مرضٌ يَلْحَق شخصاً، فمالكٌ والشافعيُّ وجمهورُ الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار، وأنه ليس بسبيلٍ يستطاع. قال ابن عطية: وذَكَر صاحب «الاستظهار» في هذا المعنى كلاماً، ظاهرُهُ أنَّ الوجوبَ لا يسقط بشيءٍ من هذه الأعذار، وهذا ضعيف.

قلت: وأضعفُ من ضعيفٍ، وقد مضى في «البقرة» بيانه[٥].

والفَجُّ: الطريق الواسعة، والجمع فِجاج. وقد مضى في «الأنبياء»[٦]. والعميقُ معناه: البعيد. وقراءة الجماعة: «يأتِين». وقرأ أصحاب عبد الله: «يأتون»، وهذا

---

(١) برقم (٣١١٩)، وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٨٤٣ . قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ١٥٣ : هذا إسناد ضعيف. وفي شرح السندي لابن ماجه ٢/ ٢٧٠ : وقال الدميري: وهو ضعيف منكر مردود بالأحاديث الصحيحة التي تقدمت أن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا مشاة من المدينة إلى مكة. وقوله: خِلْط الهرولة (بالكسر) قال السندي: أي شيئاً مخلوطاً بالهرولة، بأن يمشي حيناً ويهرول حيناً أو معتدلاً.

(٢) من قوله: في الوقوف بعرفة، إلى هذا الموضع، سقط من (د) و(م)، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٣/ ٣٢٣ ، والكلام منه.

(٣) في (ظ): أن يصير إلى مكة، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، والكلام منه.

(٤) في (ظ): بمجرد إسقاط ذكر البحر، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز.

(٥) لم نقف عليه في سورة البقرة، وينظر ٥/ ٢٢١ وما بعدها.

(٦) ص١٩٨ من هذا الجزء .

للركبان، و«يأتين» للجمال؛ كأنه قال: وعلى إبلٍ ضامرةٍ يأتين ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد؛ ومنه: بئرٌ عميقة، أي: بعيدةُ القعر؛ ومنه:

وقاتِمِ الأعْماقِ خاوِي المُخْتَرقْ[١]

السابعة: واختلفوا في الواصل إلى البيت؛ هل يرفعُ يديه عند رؤيته أم لا؟ فروى أبو داود قال: سُئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال: ما كنتُ أرى أحداً يفعل هذا إلَّا اليهود، وقد حَجَجْنا مع رسول الله ﷺ، فلم نكن نفعله[٢].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تُرفع الأيدي في سبعِ مَوَاطِنَ: افتتاح الصلاة، واستقبال البيت، والصَّفَا والْمَرْوة، والموقفين، والجمرتين»[٣]. وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوريُّ وابن المبارك وأحمدُ وإسحاقُ، وضعَّفوا حديث جابر؛ لأنَّ مهاجراً المكيَّ راويه مجهولٌ. وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت. وعن ابن عباس مثلُه[٤].

قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٢، والرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٠٤، وبعده: مُشْتَبِهِ الأعلام لَمَّاعِ الخَفَقْ.

(٢) سنن أبي داود (١٨٧٠)، وأخرجه أيضاً النسائي في المجتبى ٥/ ٢١٢ وهو من طريق المهاجر المكي، عن جابر به. والمهاجر المكي هو ابن عكرمة المخزومي، كما ذكر ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٢٨٦، وقال: ولا يعرف حاله، وهناك رجل آخر يقال له مهاجر المكي، وهو ابن القبطية، وهو ثقة.

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٠٧٢). وأخرجه أيضاً البزار (٥١٩) عن ابن عباس وابن عمر. وأخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٩٦ عن ابن عباس موقوفاً. قال ابن القيم في المنار المنيف ص١٣٨: لا يصح رَفْعُه، والصحيح وَقْفُه على ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما. وينظر السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٧٢ - ٧٣، ونصب الراية ١/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٤) معالم السنن ٢/ ١٩١.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُواْ﴾ أي: أذِّن بالحجّ يأتوك رجالاً وركباناً ليشهدوا، أي: ليَحْضُروا. والشُّهود: الحُضور. ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: المناسك، كعرفات والمَشْعَر الحرام. وقيل: المغفرة. وقيل: التجارة. وقيل: هو عموم، أي: ليحضروا منافعَ لهم، أي: ما يُرضي اللهَ تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ قاله مجاهد وعطاء، واختاره ابن العربي(١)؛ فإنه يجمع ذلك كلَّه من نسكٍ وتجارةٍ ومغفرةٍ ومنفعةِ دنيا وأخرى(٢). ولا خلافَ في أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] التجارة.

الثانية: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ قد مضى في «البقرة» الكلامُ في الأيام المعلومات والمعدودات(٣). والمرادُ بذكر اسم الله ذِكْرُ التسمية عند الذبح والنحر، مثل قولك: باسم الله والله أكبر، اللهمَّ منك ولك(٤). ومثل قولك عند الذبح: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢]. وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيَّن الربُّ أنَّ الواجب الذبحُ على اسم الله، وقد مضى في «الأنعام»(٥).

الثالثة: واختلف العلماء في وقت الذبح يومَ النحر؛ فقال مالك ﵀: بعد صلاة الإمام وذَبْحِه، إلَّا أن يؤخِّر تأخيراً يتعدَّى فيه، فيسقط الاقتداء به. وراعَى أبو حنيفةَ الفراغَ من الصلاة دون مراعاةِ ذبحِ الإمام(٦). والشافعيُّ دخولَ وقتِ الصلاة ومقدارَ ما تُوقَع فيه مع الخطبتين، فاعتَبر الوقتَ دون الصلاة. هذه روايةُ المُزَنيِّ عنه، وهو قول

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦٨ وما سيأتي منه، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٦، والطبري ١٦/ ٥٢١.

(٢) في أحكام القرآن: وآخرة.

(٣) ٣/ ٣٢٠ و ٣٦٢.

(٤) في (ظ): وإليك.

(٥) ٩/ ١٢ وما بعدها.

(٦) وقع في النسخ: دون ذبح، بدل قوله: دون مراعاة ذبح الإمام، والمثبت من المفهم ٥/ ٣٥٣، والكلام منه.

الطبريّ. وذكر الربيع عن البُوَيْطيِّ قال: قال الشافعيُّ: ولا يَذبح أحدٌ حتى يذبح الإمامُ إلَّا أن يكون ممن لا يذبح، فإذا صلَّى وفرغ من الخطبة حلَّ الذَّبْح. وهذا كقول مالك. وقال أحمد: إذا انصرف الإمام فاذبح. وهو قولُ إبراهيم(١).

وأصحُّ هذه الأقوال قولُ مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ يومَ النحر بالمدينة، فتقدَّم رجالٌ فنحروا، وظنُّوا أنَّ النبيَّ ﷺ قد نحر، فأمر النبيُّ ﷺ مَن كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخَر، ولا ينحروا حتى ينحر النبيُّ ﷺ. خرَّجه مسلم(٢)، والترمذيُّ وقال: وفي الباب عن جابرٍ وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمر بن أشقر وابن عمر وأبي زيد الأنصاريِّ، وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح، والعمل على هذا عند [أكثر] أهل العلم: ألَّا يضحَّى بالمصر حتى يصلِّيَ الإمام(٣).

وقد احتجَّ أبو حنيفة بحديث البَرَاء، وفيه: «ومَن ذبح بعد الصلاة فقد تَمَّ نُسُكه وأصاب سنَّةَ المسلمين». خرجه مسلم أيضاً. فعلَّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح [للإمام](٤)، وحديثُ جابر يقيِّده. وكذلك حديثُ البراء أيضاً؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلِّيَ، ثم نرجع فننحر، فَمَن فَعَلَ ذلك فقد أصاب سُنَّتنا» الحديث(٥).

---

(١) التمهيد ٢٣/١٨٧ - ١٨٨.

(٢) في صحيحه (١٩٦٤)، وهو عند أحمد (١٤١٣٠).

(٣) الحديث الذي أشار إليه المصنف عند الترمذي هو برقم (١٥٠٨)، وهو من حديث البراء، وقال بإثره: وفي الباب عن جابر. . . الخ ولفظ حديث البراء عنده: خطبنا رسول الله ﷺ في يوم نحر فقال: «لا يذبحنَّ أحدكم حتى نصلي» قال: فقام خالي فقال: يا رسول الله، هذا يومٌ اللحمُ فيه مكروه، وإنِّي عجَّلت نسكي لأطعم أهلي وأهل داري أو جيراني، قال: «فأعِدْ ذبحاً آخر»...، ولفظ الحديث، وكلام الترمذي بعده لا يفيد مراد المصنف: في إيراده شاهداً على إيقاف الأمر على ذبح الإمام، وينظر عارضة الأحوذي ٦/٣٠٧. وحديث البراء هذا في الصحيحين، وسترد بعض رواياته.

(٤) المفهم ٥/٣٥٣، وما بين حاصرتين منه، وحديث البراء عند مسلم (١٩٦١): (٤)، وأخرجه أيضاً البخاري (٥٥٤٦).

(٥) أخرجه أحمد (١٨٤٨١)، والبخاري (٩٥١)، ومسلم (١٩٦١): (٧).

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ: لا أعلم خلافاً بين العلماء أنَّ مَن ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن ذَبَح قبل الصلاةِ فتلك شاةُ لحمٍ»(١).

الرابعة: وأمَّا أهلُ البوادي ومَن لا إمامَ له، فمشهورُ مذهبِ مالكٍ: يتحرَّى وقتَ ذبحِ الإمام، أو أقربِ الأئمة إليه. وقال ربيعةُ وعطاءٌ فيمَن لا إمامَ له: إنْ ذَبَح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إنْ ذَبَح بعده. وقال أهلُ الرأي: يجزيهم من بعد الفجر. وهو قولُ ابن المبارك؛ ذكره عنه الترمذيُّ. وتمسَّكوا بقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، فأضاف النَّحر إلى اليوم. وهل اليومُ من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس؟(٢) قولان. ولا خلافَ أنه لا يجزي ذبحُ الأضحيَّة قبل طلوع الفجر من يوم النحر.

الخامسة: واختلفوا كم أيامُ النحر؟ فقال مالك: ثلاثة، يومُ النَّحْر ويومان بعده. وبه قال أبو حنيفة والثوريُّ وأحمد بن حنبل، ورويَ ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلافٍ عنهما. وقال الشافعيُّ: أربعة، يومُ النحر وثلاثةٌ بعده. وبه قال الأوزاعيُّ، ورُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ، وابنِ عباس وابنِ عمر ﷺ، ورُويَ عنهم أيضاً مثلُ قولِ مالكٍ وأحمد. وقيل: هو يومُ النحر خاصةً، وهو العاشرُ من ذي الحجة، ورُوي عن ابن سِيرين. وعن سعيد بن جبير وجابر بن زيد أنَّهما قالا: النحرُ في الأمصار يومٌ واحدٌ، وفي مِنًى ثلاثةُ أيام. وعن الحسن البصريِّ في ذلك ثلاثُ رواياتٍ: إحداها كما قال مالك، والثانية كما قال الشافعيُّ. والثالثة: إلى آخِرِ يوم من ذي الحجة، فإذا أهلَّ هلالُ المحرَّم فلا أَضْحَى(٣).

---

(١) التمهيد ٢٣/ ١٨٢ ، وهذه قطعة من حديث البراء المتقدم، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١): (٤).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٣ ، وقول ابن المبارك في سنن الترمذي إثر الحديث (١٥٠٨).

(٣) الاستذكار ١٥/ ٢٠٠ - ٢٠٢ .

قلت: وهو قولُ سليمانَ بنِ يسار وأبي سلمةَ بنِ عبد الرحمن، ورويا حديثاً مرسَلاً مرفوعاً خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ: الضحايا إلى هلالِ المحرَّم. ولم يصح[١]، ودليلُنا قولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ الآية، وهذا جمعُ قِلَّة، لكن المتيقَّن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثةِ غيرُ متيقَّنٍ، فلا يُعمل به[٢].

قال أبو عمر بن عبد البرّ[٣]: أجمع العلماء على أنَّ يومَ النحر يومُ الأضْحَى، وأجمعوا أنْ لا أضحى بعد انسلاخ ذي الحجة، ولا يصح عندي في هذه إلَّا قولان: أحدهما: قولُ مالكٍ والكوفيين، والآخَر: قولُ الشافعيِّ والشاميين؛ وهذان القولان مَرْوِيَّان عن الصحابة، فلا معنى للاشتغال بما خالفهما؛ لأنَّ ما خالفهما لا أصلَ له في السنَّة ولا في قول الصحابة، وما خَرَج عن هذين فمتروكٌ لهما.

وقد رُوي عن قتادةَ قولٌ سادس، وهو أنَّ الأضحى يومُ النحر وستةُ أيامٍ بعده[٤]، وهذا أيضاً خارجٌ عن قول الصحابة، فلا معنى له.

السادسة: واختلفوا في ليالي النَّحْرِ؛ هل تدخلُ مع الأيام فيجوز فيها الذبح، أوْ لا؟ فرويَ عن مالكٍ في المشهور: أنَّها لا تدخل، فلا يجوز الذبح بالليل. وعليه جمهورُ أصحابه[٥] وأصحابِ الرأي[٦]؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ﴾

(١) سنن الدارقطني (٤٧٤٢) وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٣٧٧) كلاهما عن أبي سلمة وسليمان بن يسار أنه بلغهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الضحايا إلى آخر الشهر لمن أراد أن يستأني ذلك» لفظ الدارقطني. ووقع في النسخ عدا (ظ): ذي الحجة، بدل: المحرم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لرواية الحديث في مراسيل أبي داود (٣٧٧).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٣) في الاستذكار ١٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٩٦ ، والاستذكار ١٥/ ٢٠٣ .

(٥) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢ ، والمفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٦) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، والذي في تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي ٣/ ٨٣ ، وبدائع الصنائع ٦/ ٣١٢ ، وحاشية ابن عابدين ٦/ ٣١٦ عن الأحناف جواز الذبح بالليل مع الكراهة. وهذه الكراهة تنزيهية كما في حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٢٠ . وسيذكر المصنف القول بالجواز عن أبي حنيفة فيما يأتي نقلاً عن إكمال المعلم والمفهم.

فذَكرَ الأيامَ، وذِكرُ الأيامِ دليلٌ على أنَّ الذبح في الليل لا يجوز.

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ وأبو ثور: الليالي داخلةٌ في الأيام ويجزي الذبحُ فيها. وروي عن مالكٍ وأشهبَ نحوُه، ولأشهبَ تفريقٌ بين الهَدْي والضحِيَّة، فأجاز الهَدْيَ ليلاً، ولم يُجز الضحيَّةَ ليلاً[١].

السابعة: قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ أي: على ذَبْحِ ما رزَقَهم. ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ والأنعامُ هنا: الإبلُ والبقر والغنم. وبهيمةُ الأنعام هي الأنعام، فهو كقولك: صلاةُ الأولى، ومسجدُ الجامع.

الثامنة: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور. ويستحبُّ للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضحِيَّته وأن يتصدَّق بالأكثر، مع تجويزهم الصدقةَ بالكلِّ وأكلَ الكلِّ[٢]. وشذَّتْ طائفةٌ فأوجبت الأكلَ والإطعام بظاهر الأمر[٣]، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «فكلوا وادَّخروا وتصدَّقوا»[٤]. قال الكِيَا[٥]: قولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾ يدلُّ على أنه لا يجوز بيعُ جميعِه، ولا التَّصَدُّقُ بجميعه.

التاسعة: دماءُ الكفارات لا يأكل منها أصحابها. ومشهورُ مذهب مالك ﷺ أنه لا يأكل من ثلاث: جزاء الصيد، ونذر المساكين، وفِدْية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلَّه، واجباً كان أو تطوّعاً. ووافقه على ذلك جماعةٌ من السلف وفقهاءِ الأمصار[٦].

العاشرة: فإنْ أكَل مما مُنع منه؛ فهل يَغْرَمُ قَدْرَ ما أكَلَ، أو يغرمُ هَدْياً كاملاً؟

---

(١) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢ ، والمفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ .

(٣) في (د) و(م): بظاهر الآية، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٥/ ٣٨٠ ، والكلام منه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ٢٨١ .

(٦) المفهم ٣/ ٤٢٦ .

قولان في مذهبنا[١]. وبالأول قال ابن الماجِشون[٢]؛ قال ابن العربيِّ: وهو الحقُّ، لا شيءَ عليه غيره. وكذلك لو نَذَر هَدْياً للمساكين فيأكل منه بعد أن بلغ مَحِلَّه، لا يَغْرَم إلَّا ما أكل ـ خلافاً للمدوَّنة ـ لأنَّ النحر قد وقع، والتعدِّي إنما هو على اللحم، فيغرم قَدْرَ ما تعدَّى فيه[٣]. وقوله[٤] تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ يدلُّ على وجوب إخراج النذر وإن كان دَماً أو هَدْياً أو غيره، ويدلُّ ذلك على أنَّ النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاءً بالنذر[٥]، وكذلك جزاءُ الصيد وفِديةُ الأذى؛ لأنَّ المطلوب أن يأتيَ به كاملاً من غير نقصِ لحمٍ ولا غيرِه، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْيٌ كامل. والله أعلم.

الحادية عشرة: هل يَغْرَم قيمةَ اللحم، أو يغرمُ طعاماً؟ ففي كتاب محمد عن عبد الملك: أنه يغرم طعاماً. والأولُ أصح؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهَدْي كلِّه عند تعذُّره عبادة، وليس حكم التعدِّي حكمَ العبادة[٦].

الثانية عشرة: فإن عَطِب من هذا الهَدْي المضمونِ الذي هو جزاءُ الصيدِ وفِديةُ الأذَى ونذرُ المساكين شيءٌ قبلَ مَحِلِّه، أكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومَن أَحبّ، ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من قلائده شيئاً. قال إسماعيل بن إسحاق: لأن الهديَ المضمونَ إذا عَطِب قبل أن يبلغ مَحِلَّه كان عليه بدلُه، ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويُطعم. فإذا عطِب الهدي التطوُّعُ قبل أن يبلغ مَحِلَّه لم يَجُزْ أن يأكل منه ولا يُطعِم؛ لأنه لمَّا لم يكن عليه بدلُه خِيفَ أن يفعل ذلك بالهَدْي وينحر من غير أن يعطَب، فاحتيط على الناس، وبذلك مضى العمل [في هدي التطوُّع إذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٤٥٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٠ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): قوله، والمثبت من (ظ).

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨١ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ١٢٨٠ .

عطب في الطريق نَحره صاحبُه وخلَّى بينه وبين الناس][(١)].

وروى أبو داود عن ناجيةَ الأسلميِّ: أن رسول الله ﷺ بعث معه بهَدْيٍ وقال: «إنْ عَطِبَ منها شيءٌ فانْحره، ثم اصبغ نعلَه في دمه، ثم خلِّ بينه وبين الناس»[(٢)]. وبهذا الحديث قال مالك والشافعيُّ في أحد قوليه، وأحمد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأي ومن اتَّبعهم في الهدي التطوع: لا يأكل منها سائقُها شيئاً، ويخلِّي بينها وبين الناس يأكلونها[(٣)].

وفي صحيح مسلم: «ولا تأكل منها أنت ولا أحدٌ من أهل رفقتك»[(٤)]. وبظاهِرِ هذا النهي قال ابن عباس والشافعيُّ في قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا: لا يأكل منها [سائقها] ولا أحد من أهل رفقته[(٥)].

وقال أبو عمر[(٦)]: قولُه عليه الصلاة والسلام: «ولا[(٧)] أحدٌ من أهل رفقتك» لا يوجد إلَّا في حديثِ ابنِ عباس. وليس ذلك في حديث هشام بنِ عروة، عن أبيه، عن

(١) التمهيد ٢٢/ ٢٦٦ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سنن أبي داود (١٧٦٢)، وهو عند أحمد (١٨٩٤٣)، والترمذي (٩١٠)، وابن ماجه (٣١٠٦). قال الترمذي: حديث ناجية حديث حسن صحيح. وقوله: «ثم اصبغ نعله في دمه» يعني به النعل الذي قلَّدها به، والتقليد أن يعلَّق في عنق البُدْن نعلٌ ليُعرف أنه هدي. التمهيد ٢٢/ ٢٦٤ .

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٦ ، دون قوله عن الشافعي: في أحد قوليه.

(٤) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند مسلم (١٣٢٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨٦٩).

(٥) المفهم ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦ ، وما بين حاصرتين منه، وليس فيه: والشافعي في قوله الآخر. قال النووي في المجموع ٨/ ٢٨٣ : وهل يجوز للفقراء من رفقة صاحب الهدي الأكل منه؟ فيه وجهان مشهوران أصحهما: لا يجوز، وهو المنصوص للشافعي، وصححه الأصحاب للحديث. ثم ذكر في الرفقة وجهين؛ أحدهما: أنهم الذين يخالطونه في الأكل وغيره دون القافلة. والثاني: جميع القافلة؛ قال: وهو أصحهما، وهو الذي يقتضيه ظاهر الأحاديث.

(٦) في التمهيد ٢٢/ ٢٧٦ ، وبنحوه في الاستذكار ١٢/ ٢٨٠ .

(٧) قبلها في (ز) و(م): ولا تأكل منها، وفي (خ): ولا يأكل منها أحد، وسقط هذا الموضع من (د) و(ظ)، والمثبت من التمهيد والاستذكار.

ناجيةَ. وهو عندنا أصحُّ من حديث ابن عباس، وعليه العملُ عند الفقهاء. ويدخل في قوله عليه الصلاة والسلام: «خلِّ بينها وبين الناس» أهلُ رفقته وغيرُهم.

وقال الشافعيُّ وأبو ثور: ما كان من الهَدْي أصلُه واجباً فلا يأكل منه، وما كان تطوُّعاً ونسكاً أَكَلَ منه وأهدى وادَّخر وتصدَّق. والمتعةُ والقِران عنده نسكٌ. ونحوُه مذهبُ الأوزاعيّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يأكل من هَدْي المتعة والتطوُّع، ولا يأكل ممَّا سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام. وحُكي عن مالك: لا يأكل من دم الفساد. وعلى قياسِ هذا: لا يأكل من دم الجبر، كقول الشافعيِّ والأوزاعيِّ[1].

تمسَّك مالك بأنَّ جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال في فِدْية الأذى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقال ﷺ لكعب بن عُجْرة: «أَطْعِمْ ستةَ مساكين مُدَّيْن لكلِّ مسكينٍ، أو صُمْ ثلاثةَ أيامٍ، أو انْسُكْ شاة»[2]. ونَذْرُ المساكين مصرَّحٌ به، وأمَّا غيرُ ذلك من الهدايا فهو باقٍ على أصلِ قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ [الحج: ٣٦]. وقد أكل النبيُّ ﷺ وعليٌّ ﷺ من الهدي الذي جاء به، وشَرِبا من مَرَقِه، وكان عليه الصلاة والسلام قارِناً في أصح الأقوال والروايات، فكان هَدْيُه على هذا واجباً، فما تعلَّق به أبو حنيفةَ غيرُ صحيح[3]. والله أعلم.

وإنَّما أَذِنَ الله سبحانه في الأكل من الهدايا لأجْلِ أنَّ العرب كانت لا ترى أنْ تأكلَ من نُسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ بمخالفتهم؛ فلا جَرَم كذلك شَرَع وبلَّغ، وكذلك فَعَلَ حين أَهدى وأَحْرَمَ ﷺ[4].

---

(١) المفهم ٣/ ٤٢٦، وقوله: دم الجَبْر (أو الجُبْران، كما وقع في ظ): هو ما يَجْبُرُ الخلل الواقع في الحج.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩، وسلف حديث كعب بن عجرة ٣/ ٢٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (١٤٤٤٠)، ومسلم (١٢١٨) من حديث جابر ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩.

الثالثة عشرة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ناسخٌ لفِعْلِهم؛ لأنهم كانوا يحرِّمون لحومَ الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها ـ كما قلناه في الهدايا ـ فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾، وبقول النبيِّ ﷺ: «مَن ضحَّى فلْيأكل من أضحيَّته» ولأنه عليه الصلاة والسلام أكل من أضحيَّته وهَدْيِه. وقال الزُّهريُّ: من السُّنة أن تأكل أوّلاً من الكبِد[1].

الرابعة عشرة: ذهب أكثر العلماء إلى أنه يُستحبُّ أن يتصدَّق بالثلث، ويُطعِم الثلث، ويأكل هو وأهلُه الثلث[2]. وقال ابن القاسم عن مالك: ليس عندنا في الضحايا قَسْمٌ معلومٌ موصوف. قال مالك في حديثه: وبلغني عن ابن مسعود [شيءٌ]، وليس عليه العمل [عندنا]. رَوى الصحيح وأبو داود قال: ضحَّى رسول الله ﷺ بشاةٍ ثم قال: «يا ثَوْبانُ، أَصْلِحْ لحمَ هذه الشاة» قال: فما زلت أُطعمه منها حتى قَدِمَ المدينة. وهذا نصٌّ في الغَرَض[3]. واختلف قول الشافعيِّ؛ فمرةً قال: يأكل النصفَ ويتصدَّق بالنصف؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فذكر شخصين. وقال مرةً: يأكل ثلثاً، ويُهدي ثلثاً، ويُطعم ثُلُثاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فذكَر ثلاثة[4].

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١١ - ٥١٢ ، وقوله ﷺ: «من ضحى فليأكل من أضحيته» أخرجه أحمد (٩٠٧٨) من طريق عطاء عن أبي هريرة ـ ﷺ ـ مرفوعاً، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال الحافظ في التقريب: صدوق سيئ الحفظ جدًا. وذكره ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٤٢ من طريق عطاء عن النبي ﷺ مرسلاً، وقال: قال أبي: هذا الصحيح.

وأخرجه الطبراني (١٢٧١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥ : وفيه عبد الله بن خراش، وثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ، وضعَّفه الجمهور.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، ووقع فيه: في المسألة، بدل: في الغرض. وحديث ثوبان عند مسلم (١٩٧٥)، وأبي داود (٢٨١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٢٣٩١).

(٤) التنبيه للشيرازي ص٨١ ، والمجموع للنووي ٨/ ٣٢٩ ، والأول هو قول الشافعي في القديم، والثاني قوله في الجديد.

الخامسة عشرة: المسافرُ مُخاطَبٌ بالأضحيَّة كما يخاطب بها الحاضر؛ إذ الأصلُ عمومُ الخطاب بها، وهو قولُ كافَّةِ العلماء. وخالف في ذلك أبو حنيفة والنَّخَعيُّ، وروي عن عليٍّ؛ والحديث حجة عليهم. واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاجَّ بمنًى، فلم ير عليه أضحيةً، وبه قال النَّخَعيُّ. وروي ذلك عن الخليفتين أبي بكر وعمر وجماعةٍ من السَّلَف ﷺ؛ لأنَّ الحاجَّ إنما هو مخاطبٌ في الأصل بالهَدْي، فإذا أراد أن يضحِّي جعله هدياً، والناسُ غيرُ الحاجِّ إنما أُمروا بالأضحية ليتشبَّهوا بأهل منًى، فيحصل لهم حظٌّ من أجرهم[1].

السادسة عشرة: اختلف العلماء في الإدِّخار على أربعة أقوال. رُوي عن عليٍّ وابنِ عمر رضي الله عنهما من وجهٍ صحيح أنه لا يُدَّخر من الضحايا بعد ثلاثٍ. ورُوياه عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي[2].

وقالت جماعة: ما رُوي من النهي عن الادِّخار منسوخٌ، فيدَّخر إلى أيِّ وقتٍ أَحبَّ. وبه قال أبو سعيد الخُدْريُّ و بُريدةُ الأَسْلميُّ[3].

وقالت فرقةٌ: يجوز الأكلُ منها مطلقاً.

وقالت طائفة: إن كانت بالناس حاجةٌ إليها فلا يدَّخر؛ لأنَّ النهي إنَّما كان لعلةٍ، وهي قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّما نهيتُكم من أجل الدَّافَّة التي دفَّت». ولمَّا ارتفعَتْ ارتفع المنعُ المتقدِّمُ لارتفاع مُوجِبه، لا لأنه منسوخ[4]. وتنشأ هنا مسألةٌ أصوليةٌ، وهي:

---

(١) المفهم ٥/ ٣٨١.

(٢) في المسألة الثامنة عشرة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٤ - ٥١٥.

(٤) المفهم ٥/ ٣٧٨، والحديث أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الثامنة. وقوله «الدافَّة»: هم قوم قدموا المدينة في ذلك الوقت مساكينُ أراد رسول الله ﷺ أن يحسن إليهم أهل المدينة ويتصدقوا عليهم. الاستذكار ١٥/ ١٧٠.

السابعة عشرة: وهي الفرقُ بين رَفْعِ الحُكْمِ بالنَّسْخِ، ورَفْعِه لارتفاع علَّتِه. اعلم أنَّ المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً، والمرفوع لارتفاع علَّته يعود الحكم لعَوْدِ العلة؛ فلو قَدِمَ على أهل بلدةٍ ناسٌ محتاجون في زمانِ الأَضْحى؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سَعةٌ يسدُّون بها فاقتهم إلَّا الضحايا، لَتعيَّن عليهم ألَّا يدَّخروها فوق ثلاثٍ، كما فعل النبيُّ ﷺ[1].

الثامنة عشرة: الأحاديثُ الواردةُ في هذا الباب بالمنع والإباحة صِحاحٌ ثابتة. وقد جاء المنعُ والإباحةُ معاً، كما هو منصوصٌ في حديث عائشةَ وسَلَمةَ بنِ الأكْوَع وأبي سعيد الخُدْريِّ، رواها الصحيح[2].

ورَوَى الصحيح عن أبي عبيدٍ مَوْلَى ابنِ أَزْهَرَ أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب، قال: ثم صلَّيتُ العيد مع عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: فصلَّى لنا قبل الخطبة، ثم خطب الناس فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد نهاكم أن تأكلوا لحومَ نُسُككم فوق ثلاثِ ليالٍ فلا تأكلوها[3].

ورَوَى عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ نَهى أن تؤكل لحومُ الأضاحي بعد[4] ثلاث. قال سالم: فكان ابن عمر لا يأكل لحومَ الأضاحي فوق ثلاث[5].

وروى أبو داود عن نُبيشةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاثٍ لكي تَسَعَكم، جاء الله بالسَّعة، فكُلوا وادَّخروا واتَّجروا، ألا إنَّ هذه

---

(١) المفهم ٥/ ٣٧٩.

(٢) حديث عائشة في صحيح البخاري (٥٤٢٣)، وصحيح مسلم (١٩٧١)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤٩) و(٢٤٩٦٢)، وسلف في المسألة الثامنة، والمسألة السادسة عشرة. وحديث سلمة في صحيح البخاري (٥٥٦٩)، وصحيح مسلم (١٩٧٤). وحديث أبي سعيد الخدري في صحيح البخاري (٣٩٩٧)، وصحيح مسلم (١٩٧٣)، وهو عند أحمد (١١١٧٦) و(١١٨١١).

(٣) صحيح البخاري (٥٥٧٣)، وصحيح مسلم (١٩٦٩): (٢٥)، وهو عند أحمد (٥٨٧).

(٤) في (ظ) و(م): فوق.

(٥) صحيح مسلم (١٩٧٠): (٢٧).

الأيامَ أيامُ أكلٍ وشرب وذكرٍ لِله عزَّ وجلَّ»[(١)].

قال أبو جعفر النحاس: وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في هذا، حتى تتَّفق الأحاديثُ ولا تتضادَّ، ويكون قولُ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ وعثمانُ محصورٌ ـ لأنَّ الناس كانوا في شدَّةٍ محتاجين، ففعل كما فعل رسول الله ﷺ حين قدمت الدافَّة. والدليلُ على هذا ما حدَّثنا إبراهيم بن شريك قال: حدَّثنا أحمد قال: حدَّثنا ليث قال: حدَّثني الحارث بن يعقوب، عن يزيد بن أبي يزيد، عن امرأته؛ أنها سألت عائشةَ رضي الله عنها عن لحوم الأضاحي فقالت: قَدِمَ علينا عليّ بنُ أبي طالب من سفرٍ فقدَّمنا إليه منه، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: «كُلْ من ذي الحجة إلى ذي الحجة»[(٢)].

وقال الشافعيُّ: مَن قال بالنهي عن الادِّخار بعد ثلاثٍ لم يسمع الرخصةَ. ومَن قال بالرخصةِ مطلقاً لم يسمع النهيَ عن الادِّخار. ومَن قال بالنهي والرخصة سمعهما جميعاً، فعمِل بمقتضاهما. والله أعلم. وسيأتي في سورة الكوثر الاختلافُ في وجوب الأضحيَّة وندبيَّتها، وأنها ناسخةٌ لكلِّ ذبحٍ تقدَّم[(٣)]، إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ «الفقِير» من صفة البائس، وهو الذي ناله البؤسُ وشدَّةُ الفقر؛ يقال: بَئِس يَبْأَس بأساً: إذا افْتقَر، فهو بائس. وقد يُستعمل فيمَن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم تكن فَقْراً[(٤)]؛ ومنه قوله عليه

---

(١) سنن أبي داود (٢٨١٣)، وهو عند أحمد (٢٠٧٢٣). قوله: وائتجروا ـ بهمزة قطع ـ قال ابن الأثير في النهاية (أجر): أي: تصدَّقوا طالبين الأجر بذلك، ولا يجوز فيه «اتَّجروا» بالإدغام؛ لأن الهمزة لا تدغم في التاء، وإنما هو من الأجر لا من التجارة.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٦ ، وهو عند أحمد (٢٥٢١٨) و(٢٦٤١٥).

(٣) لم يذكر المصنف في سورة الكوثر شيئاً عن الأضحية، وإنما أعاد الكلام فيها إلى سورة الحج، وسورة الصافات، وقد تكلم عنها بشكل مفصل في الآية (١٠٧) من «الصافات». وسلف ذكر نسخ الأضحية لكل ذبح تقدم ٦/ ٢١٥ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): وإن لم يكن فقيراً، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١١٩ ، والكلام منه.

الصلاة والسلام: «لكنِ البائسُ سعد بنُ خَوْلة»[١]. ويقال: رجل بَئِيسٌ، أي: شديد. وقد بَؤُسَ يبْؤُس بأساً: إذا اشتدَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥] أي: شديد.

وكلَّما كان التصدُّقُ بلحم الأضحيَّة أكثرَ؛ كان الأجر أوْفرَ. وفي القَدْر الذي يجوز أكلُه خلافٌ قد ذكرناه[٢]؛ فقيل: النصف؛ لقوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾ ﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾. وقيل: الثلثان؛ لقوله: «فكُلُوا وادَّخِروا وائتجروا»[٣] أي: اطلبوا الأجر بالإطعام.

واختلف في الأكل والإطعام؛ فقيل: واجبان. وقيل: مُسْتحبَّان. وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام؛ فالأكلُ مستحبٌّ والإطعامُ واجبٌ، وهو قولُ الشافعيِّ[٤].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج، كالحَلْق ورَمْي الجمار وإزالةِ شَعَثٍ ونحوِه. قال ابن عرفة: أي: ليزيلوا عنهم أدرانهم. وقال الأزهريّ[٥]: التَّفَثُ: الأخذُ من الشارب، وقصُّ الأظفار، ونَتْفُ الإبطِ، وحَلْقُ العانة، وهذا عند الخروج من الإحرام.

وقال النَّضْر بن شُميل: التَّفَثُ في كلام العرب: إذهابُ الشَّعَث[٦].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٤)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، وقد رثى رسول الله ﷺ لسعد بن خولة أن مات بمكة كما جاء في تتمة الحديث، وينظر ما سلف ٤/ ١٢٨.

(٢) في المسألة الرابعة عشرة.

(٣) سلف في المسألة السابقة من حديث نبيشة ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩.

(٥) في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦، وقد ذكره الأزهري عن الزجاج، وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤.

(٦) الشعث: أن يغبرَّ الشعر وينتتف لبعد عهده بالتعهُّد من المشط والدهن. الفائق ٣/ ٢٨. وقال الأزهري: لم يفسر أحد من اللغويين التفث كما فسره ابن شميل؛ جعل التفث التشعُّثَ وجعل قضاءه إذهاب الشعث بالحلق والتقليم وما أشبهه.

وسمعتُ الأزهريَّ يقول: التفثُ في كلام العرب لا يُعرف إلَّا من قولِ ابن عباسٍ وأهلِ التفسير(١).

وقال الحسن: هو إزالةُ قَشَفِ الإحرام. وقيل: التَّفَثُ مناسكُ الحجِّ كلُّها؛ رواه ابن عمر وابن عباس. قال ابن العربيِّ(٢): لو صحَّ عنهما لكان حجةً؛ لشرف الصُّحبة والإحاطةِ باللغة، قال: وهذه اللفظةُ غريبةٌ [عَرَبيةٌ] لم يجد أهل العربية(٣) فيها شعراً ولا أحاطوا بها خبراً، لكنِّي تَتبَّعْتُ التَّفَثَ لغةً فرأيتُ أبا عبيدةَ مَعْمر بنَ المُثَنَّى قال: إنه قصُّ الأظفار، وأخذُ الشارب، وكلُّ ما يَحْرُم على المحرِمِ إلَّا النكاح. قال(٤): ولم يَجِئ فيه بشعرٍ(٥) يُحتجُّ به. وقال صاحب العين: التفثُ: هو الرميُ، والحَلْقُ، والتقصيرُ، والذبحُ، وقصُّ الأظفار والشارب، ونتفُ الإبط. وذكر الزجَّاج والفرَّاء(٦) نحوه، ولا أراه أخذوه إلَّا من قول العلماء. وقال قُطْرُب: تفثَ الرجلُ: إذا كَثُر وَسَخُه. قال أميّة بن أبي الصَّلْت:

حَفُّوا رؤوسَهمُ لم يحلِقوا تَفَثاً ... ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئبانا

وما أشار إليه قُطْرب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك(٧)، وهو الصحيحُ في

---

(١) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦ ، وقد نقله الأزهري عن الزجاج. ولعل القائل: سمعت الأزهري، هو أبو عبيد الهروي صاحب الغريبين.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٠ - ١٢٧١ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه، وقول ابن عباس وابن عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٨٤ - ٨٥ ، والطبري ١٦/ ٥٢٦ وقوله: القشف، أي: قذر الجلد، ورثاثة الهيئة. القاموس (قشف).

(٣) في أحكام القرآن: أهل المعرفة.

(٤) هو ابن العربي، وكلام أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٥٠ .

(٥) في النسخ عدا (خ): شعر، والمثبت من (خ) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤ ، وللفراء ٢/ ٢٢٤ .

(٧) وقول ابن وهب عن مالك كما ذكره ابن العربي: التفث: حلق الشعر، ولبس الثياب، وما أتبع ذلك مما يحل به المحرم.

التَّفَث. وهذه صورةُ قضاء[١] التفثِ لغةً، وأمَّا حقيقتُه الشرعيةُ، فإذا نحر الحاجُّ أو المُعْتَمِر هَدْيَه، وحلق رأسه، وأزال وسخه، وتطهَّر وتنقَّى ولبس، فقد أزال تَفَثه ووفَّى نَذْرَه، والنذرُ ما لزم الإنسان والتزمه.

قلت: ما حكاه عن قُطْرب وذكر من الشعر قد ذكره في تفسيره الماورديُّ، وذكر بيتاً آخر فقال:

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً ثم ساروا إلى نَجْدٍ وما انتظروا عليّا[٢]

وقال الثعلبيُّ: وأصلُ التَّفَث في اللغة: الوسخ؛ تقول العرب للرجل تستقذرُه: ما أتفثك! أي: ما أَوْسخك وأقذرك! قال أميةُ بن أبي الصلت:

شاحين[٣] آباطهم لم يقذفوا تَفَثاً وينزعوا عنهم قَمْلاً وصِئبانا[٤]

الماورديّ[٥]: قيل لبعض الصلحاء: ما المعْنيُّ في شَعَث المُحْرِم؟ قال: ليشهدَ الله تعالى منك الإعراضَ عن العناية بنفسك، فيعلم صِدْقَك في بَذْلها لطاعته.

الحادية والعشرون: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ أمرٌ[٦] بوفاء النذر مطلقاً، إلَّا ما كان معصيةً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا وفاءَ لنذرٍ في معصية الله»[٧]، وقولِه: «مَن نذر أن يطيع الله فليُطِعْه، ومَن نذر أن يَعْصِيَه فلا يَعْصِه»[٨].

---

(١) في (خ): إلغاء، وفي (م): إلقاء، ولم تجود في (د)، وليست في (ز) و(ظ)، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): ساحين، وفي (ظ) و(م): ساخين، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) ذكره الجاحظ في الحيوان ٥/ ٣٧٦ برواية:

شاحين آباطهم لم ينزعوا تفثاً ولم يسلُّوا لهم قملاً وصئبانا

وكذا ذكره الزمخشري في الفائق ٣/ ٢٨ ، إلا أنه قال: لم يقربوا تفثاً، وهما روايتان كما ذكر الجاحظ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٠ .

(٦) في (د) و(م): أُمروا.

(٧) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٨٦٣)، ومسلم (١٦٤١) عن عمران بن حصين ﷺ.

(٨) أخرجه أحمد (٢٤٠٧٥)، والبخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ الطَّوافُ المذكور في هذه الآية هو طوافُ الإفاضة الذي هو من واجبات الحج. قال الطبريُّ[1]: لا خلافَ بين المتأوِّلين في ذلك.

الثانية والعشرون: للحجِّ ثلاثةُ أطوافٍ: طوافُ القُدوم، وطوافُ الإفاضة، وطوافُ الوَداع. قال إسماعيل بن إسحاق: طوافُ القدوم سُنَّةٌ، وهو ساقطٌ عن المراهق وعن المكيِّ وعن كلِّ مَن يُحرِم بالحجِّ من مكة. قال: والطوافُ الواجبُ الذي لا يسقط بوجهٍ من الوجوه، هو طوافُ الإفاضة الذي يكون بعد عَرَفة؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾. قال: فهذا هو الطوافُ المفترض في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي يَحِلُّ به الحاجُّ من إحرامه كلِّه.

قال الحافظ أبو عمر[2]: ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قولُ مالكٍ عند أهل المدينة، وهي روايةُ ابن وهبٍ وابنِ نافع وأشهبَ عنه. وهو قولُ جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الحجاز والعراق. وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك: أنَّ طوافَ القدوم واجبٌ [وطوافَ الإفاضة واجبٌ]. وقال ابن القاسم في غير موضعٍ من «المدوَّنة» ورواه أيضاً عن مالك: الطوافُ الواجبُ طوافُ القادم مكة. وقال: مَن نَسِيَ الطَّوافَ في حين دخوله مكةَ، أو نَسِيَ شوطاً منه، أو نَسِيَ السَّعْي أو شوطاً منه، حتى رجع إلى بلده ثم ذكره، فإنْ لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوفَ بالبيت ويركعَ ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يُهْدِي. وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى، ثم اعتمر وأهدى. وهذا كقوله فيمَن نَسِيَ طواف الإفاضة سواء. فعلى هذه الرواية الطوافان جميعاً واجبان، والسَّعْيُ أيضاً.

وأمّا طواف الصَّدَر؛ وهو المسمَّى بطواف الوداع: فروى ابن القاسم وغيره عن

---

(١) في التفسير ١٦/ ٥٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٩، وما قبله منه.

(٢) في الكافي ١/ ٣٦٠، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

مالك فيمَن طاف طوافَ الإفاضةِ على غير وضوء: أنه يرجع من بلده فيُفيضُ، إلَّا أن يكون تطوَّعَ بعد ذلك. وهذا مما أجمعَ عليه مالكٌ وأصحابه، وأنه يَجزيه تطوُّعُه عن الواجب المفترَضِ عليه من طوافه[١]. وكذلك أجمعوا أنَّ مَن فَعَل في حجه شيئاً تطوَّع به من عمل الحجّ، وذلك الشي واجبٌ في الحج قد جاز وقته، فإنَّ تطوُّعَه ذلك يصير للواجب لا للتطوُّع، بخلاف الصلاة. فإذا كان التطوُّع ينوب عن الفرض في الحجّ، كان الطوافُ لدخول مكة أحْرَى أن ينوب عن طواف الإفاضة، إلا أنَّ إسماعيل وغيره ـ وهو مذهبُ ابن القاسم ـ لا ينوبُ عندهم عن طواف الإفاضة[٢] إلَّا ما كان من الطواف بعد رَمْي جمرة العَقَبة يومَ النحر أو بعده للوداع. وروايةُ ابن عبد الحكم عن مالكٍ بخلاف ذلك؛ لأن فيها أنَّ طواف الدخول مع السَّعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهَدْي، كما ينوب طوافُ الإفاضة مع السَّعي لمن لم يَطُف ولم يَسْعَ حين دخوله مكة ـ مع الهدي أيضاً ـ عن طواف القدوم. ومَن قال هذا قال: إنما قيل لطواف الدخول: واجبٌ، ولطواف الإفاضة: واجب؛ لأنَّ بعضهما ينوب عن بعض، ولأنه قد رُويَ عن مالك أنه يرجع مَن نَسِيَ أحدهما من بلده على ما ذكرنا، ولأن الله عزَّ وجلَّ لم يفترض على الحاجِّ إلا طوافاً واحداً بقوله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾، وقال في سياق الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ والواوُ عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبةً إلَّا بتوقيف.

وأسند الطبريُّ عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طوافُ الوداع[٣]. وهذا يدلُّ على أنه واجب، وهو أحدُ قولي الشافعيِّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام رخَّص للحائض أن تَنْفِر دون أن

(١) يعني أن من نَسِيَ طواف الإفاضة، أو طافَه على غير وضوء، ثم تطوعَ بعده بطواف طافَه قبل خروجه من مكة، فإنه ـ عند مالك وأصحابه ـ يجزيه تطوعُه عن الواجب المفترض عليه من طوافه. الكافي ٢/ ٣٦٢.

(٢) من قوله: إلا أن إسماعيل وغيره، إلى هذا الموضع سقط من (م).

(٣) في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٢، وزهير هو ابن محمد التميمي.

تطوفه، ولا يرخَّص إلَّا في الواجب.

الثالثة والعشرون: اختلف المتأوِّلون في وجه صفة البيت بالعتيق، فقال مجاهد والحسن: العتيق: القديم. يقال: سيفٌ عتيق، وقد عَتُق، أي: قَدُم؛ وهذا قولٌ يَعْضُده النظر[١]؛ وفي الصحيح: «أنه أوّلُ مسجدٍ وُضع في الأرض»[٢].

وقيل: سمي عتيقاً لأنَّ الله أعتقه من أن يتسلَّط عليه جبَّارٌ بالهوان إلى انقضاء الزمان؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد[٣]. وفي الترمذيِّ عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما سُمِّيَ البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبَّار». قال: هذا حديثٌ حسن غريب، وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ مرسلاً[٤].

فإن ذكر ذاكرٌ الحجَّاجَ بن يوسف ونَصْبَه المَنْجَنِيق على الكعبة حتى كسرها. قيل له: إنَّما أعتقها عن كفارِ الجبابرة؛ لأنهم إذا أتَوْا بأنفسهم[٥] متمردين، ولحرمة البيت غيرَ معتقدين، وقصدوا الكعبة بالسوء، فعُصِمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالةً على أنَّ الله عزَّ وجلَّ صرفهم عنها قسراً. فأمَّا المسلمون الذين اعتقدوا حُرمتها فإنهم إن كُفُّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كفِّ الأعداء، فقَصَر الله تعالى هذه الطائفة على[٦] الكفِّ بالنَّهي والوعيد، ولم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ .

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٦)، وصحيح مسلم (٥٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٣٣٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٢٩ - ٥٣٠ ، وقول ابن الزبير أخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٧ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧٠) وأخرجه أيضاً البزار في مسنده (٢٢١٥)، وقد أخرج الترمذي المرسل من طريق الزهري عن النبي ﷺ ولم يذكر لفظه.

ووقع في (م) ومطبوع الترمذي: حسن صحيح، والمثبت من النسخ الخطية، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، وتحفة الأحوذي، وذكر المزي في تحفة الأشراف ٤/ ٣٢٩ المرفوع والمرسل عن الترمذي، ولم يذكر شيئاً من كلام الترمذي. وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا عن ابن الزبير عنه، ولا نعلم له طريقاً عن ابن الزبير إلا هذا الطريق. وقال المناوي في فيض القدير ٢/ ٥٧٥ : فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ضعفه الأئمة، وبقية رجاله ثقات.

(٥) في (ظ): إذا أتوا الكعبة.

(٦) في (ز) و(م): عن.

يتجاوزه إلى الصَّرْفِ بالإلجاء والاضطرار، وجعل الساعةَ موعدَهم، والساعةُ أدْهَى وأَمَرّ.

وقالت طائفة: سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُمْلَك موضعُه قطُّ. وقالت فرقة: سمِّي عتيقاً لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعتقُ فيه رقابَ المذنبين من العذاب[١].

وقيل: سمي عتيقاً لأنه أُعتِق من غرق الطوفان؛ قاله ابن جُبير[٢].

وقيل: العتيق: الكريم. والعِتْق: الكرم. قال طَرفَة يصف أذن الفرس:

مُؤَلَّلَتانِ تَعْرِفُ العِتْقَ فيهما كسامِعَتَيْ مذعورةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ[٣]

وعِتْقُ الرقيقِ: الخروج من ذُلِّ الرِّقِّ إلى كرم الحرية.

ويحتمل أن يكون العتيق صفةَ مدحٍ تقتضي جودةَ الشيء، كما قال عمر: حملتُ على فرسٍ عتيق، الحديث[٤].

والقولُ الأول أصحّ؛ للنظرِ والحديثِ الصحيح. قال مجاهد: خلَق الله البيتَ قبل الأرض بألفي عام[٥]، وسمي عتيقاً لهذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩، وقال ابن عطية: وهذا قول يردُّه التصريف.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩.

(٣) ديوان طرفة ص٢٨، ورواية العجز فيه: كسامعتي شاة بحومَل مُفْرَد، وقد سلف بهذه الرواية ١٠/ ١١٩، أما الرواية التي ذكرها المصنف هنا فهي في ديوان امرئ القيس ص٤٨ وفيه: له أذنان، بدل: مؤللتان. وهي أيضاً في ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ص٨٩ برواية: له حُرَّتان، ويعني بذلك أذنيه، قال الأعلم: والرَّبْرَب: جماعةُ بقرِ الوحش.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ - ١٢٠، والحديث بهذه الرواية أخرجه مسلم (١٦٢٠)، وقد سلف تخريجه ١٠/ ٦٠.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٠٩٧) والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٢، والطبري ٢/ ٥٥٥.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفعٍ بتقدير: فَرْضُكم ذلك، أو: الواجبُ ذلك. ويحتمل أن يكون في موضع نصبٍ بتقدير: امتثلوا ذلك، ونحوُ هذه الإشارةِ البليغةِ قولُ زهير:

هـذا ولـيـس كـمـن يَـعْـيَـا بـخُـطَّـتِـهِ   وَسْطَ الـنَّـدِيِّ إذا مـا قـائـلٌ نـطـقـا[1]

والحرماتُ المقصودةُ هنا: هي أفعالُ الحج المشارُ إليها في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، ويدخل في ذلك تعظيمُ المواضع؛ قاله ابن زيد وغيره[2]. ويجمع ذلك أن تقول: الحرماتُ امتثالُ الأمر من فرائضه وسننه. وقولُه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: التعظيم خيرٌ له عند ربِّه من التهاوُن بشيء منها. وقيل: ذلك التعظيم خيرٌ من خيراته يُنتفع به، وليست للتفضيل، وإنما هي عِدَةٌ بخير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: بهيمة الأنعام، أن تأكلوها، وهي الإبلُ والبقر والغنم. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الكتاب من المحرَّمات، وهي المَيْتةُ والمَوْقُوذة وأخواتها. ولهذا اتصالٌ بأمر الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبح، فبيَّن ما يَحِلُّ ذبحه وأكلُ لحمه. وقيل: «إلا ما يتلى عليكم» غيرَ مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ الرِّجس: الشيء القَذِر. والوَثَن: التمثالُ من خشبٍ أو حديدٍ أو ذهبٍ أو فضةٍ ونحوها، وكانت العربُ تنصِبها وتعبدها. والنصارى تنصِب الصليب وتعبده وتعظِّمه، فهو كالتمثال أيضاً؛ قال عَدِيّ ابن حاتم: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال: «ألْقِ هذا الوثَنَ عنك»[3] أي: الصليب؛ وأصلُه من وَثَن الشيء، أي: أقام في مقامه. وسمِّي الصنم وَثَناً لأنه يُنصَب ويُركَز في مكانٍ فلا يبرح عنه. يريد: اجتنبوا عبادة الأوثان؛ روي عن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠، والبيت في ديوان زهير ص٥٥ برواية: وسط الرجال. وذكره قدامة بن جعفر في نقد الشعر ص٧٢، وابن رشيق في العمدة ٢/ ١٣٤ برواية: بخطبته، بدل: بخطته.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠، وخبر ابن زيد أخرجه الطبري ١٦/ ٥٣٤ بلفظ: الحرمات: المشعر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، هؤلاء الحرمات.

(٣) سلف ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨.

ابن عباس وابن جُريج(١). وسمَّاها رجساً لأنها سببُ الرِّجز، وهو العذاب.

وقيل: وَصَفَها بالرجس، والرجسُ النَّجَس، فهي نجسةٌ حكماً. وليست النجاسةُ وصفاً ذاتيًّا للأعيان، وإنما هي وصفٌ شرعيٌّ من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلَّا بالإيمان؛ كما لا تجوز الطهارة إلَّا بالماء(٢).

الرابعة: ﴿مِنَ﴾ في قوله: «مِن الأوثانِ» قيل: إنَّها لبيان الجنس، فيقع نَهْيُه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نَهْيُها في غير هذا الموضع. ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً، ثم عيَّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادةُ الوثن جامعةٌ لكلِّ فسادٍ ورجس. ومَن قال: إنَّ «مِن» للتبعيض، قَلَبَ معنى الآيةِ وأَفْسَده(٣).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ الزُّور: الباطلُ والكذب. وسمِّيَ زوراً لأنه أميل(٤) عن الحقّ، ومنه: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، ومدينةٌ زَوْراء، أي: مائلة. وكلُّ ما عدا الحقِّ فهو كذبٌ وباطلٌ وزُور. وفي الخبر: أنه عليه الصلاة والسلام قام خطيباً فقال: «عُدلتْ شهادةُ الزور بالشِّرك(٥) بالله». قالها مرتين أو ثلاثاً(٦). يعني أنها قد جُمعت مع عبادة الوثن في النهي عنها.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٣٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ .

(٤) في (ظ): ميل.

(٥) في (م): الشرك.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٠٣)، والترمذي (٢٢٩٩) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم عن النبي ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد، واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ. قلنا: وفاتك بن فضالة مجهول الحال، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه أحمد (١٨٨٩٨)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن أبيه، عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك مرفوعاً. قال الترمذي: هذا عندي أصحّ، وخريم بن فاتك له صحبة. اهـ وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/٥٤٨ : وهو لا يصح، وحبيب لا يعرف بغير هذا، ولا تعرف حاله، وزياد العصفري مجهول.

السادسة: هذه الآيةُ تضمَّنت الوعيدَ على الشهادة بالزُّور، وينبغي للحاكم إذا عَثَر على الشاهد بالزور أن يعزِّره وينادِيَ عليه ليُعرف؛ لئلَّا يَغتَرَّ بشهادته أحدٌ. ويختلف الحكم في شهادته إذا تاب، فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرِّز فيها لم تُقبل؛ لأنه لا سبيلَ إلى علم حاله في التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القُرُبات أكثرَ ممَّا هو عليه. وإن كان دون ذلك فشمَّر في العبادة وزادت حالُه في التُّقَى قُبلت شهادتُه.

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ من أكبر الكبائر الإشراكَ بالله، وعقوقَ الوالدين، وشهادةَ الزور ـ أو: قولَ الزور». وكان رسول الله ﷺ متَّكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: لَيْتَه سكت[1].

السابعة: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه: مستقيمين، أو مسلمين مائلين إلى الحقّ. ولفظةُ «حنفاء» من الأضداد؛ تقع على الاستقامة وتقع على الميل. و«حنفاء» نصبٌ على الحال. وقيل: «حنفاء»: حُجَّاجاً، وهذا تخصيصٌ لا حجةَ معه[2].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: هو يومَ القيامة بمنزلةِ مَن لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضرًّا ولا عذاباً، فهو بمنزلة مَن خَرَّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه. ومعنى ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه بمخالبها.

وقيل: هذا عند خروج روحِه وصعودِ الملائكة بها إلى سماء الدنيا، فلا يُفتح لها، فيرمى بها إلى الأرض، كما في حديث البَرَاء، وقد ذكرناه في «التذكرة»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٥٤)، وصحيح مسلم (٨٧)، وهو عند أحمد (٢٠٣٨٥)، وهو من حديث أبي بكرة ﷺ، ولفظُه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله. . . . ووقع بلفظ: «إن من أكبر الكبائر. . .» عند أحمد (١٦٠٤٣)، والترمذي (٣٠٢٠)، وابن حبان (٥٥٦٣) من حديث عبد الله بن أنيس ﷺ، وفيه اليمين الغموس، بدل: شهادة الزور، ودون قوله: وكان متكئاً فجلس. . . وفي الباب عن أنس ﷺ عند أحمد (١٢٣٣٦)، والبخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠.

(٣) ص١١٩، وأخرجه مطولاً أحمد (١٨٥٣٤).

والسحيق: البعيد، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١١]، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «سُحْقاً سحقاً»[١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ؛ قيل: يكون في موضع رفعٍ بالابتداء، أي: ذلك أمر الله. ويجوز أن يكون في موضع رفعٍ على خبرِ ابتداءٍ محذوف. ويجوز أن يكون في موضع نصب، أي: اتَّبعوا ذلك[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الشعائرُ جمعُ شَعيرة، وهو كلُّ شيء لله تعالى فيه أمرٌ أشعَرَ به وأعْلَم[٣]؛ ومنه شِعارُ القوم في الحرب، أي: علامتهم التي يتعارفون بها. ومنه إشعارُ البَدَنة، وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيلَ الدمُ فيكون علامة، فهي تسمَّى شَعِيرة بمعنى المشعورة. فشعائر الله: أعلامُ دينه لا سيما ما يتعلَّق بالمناسك.

وقال قوم: المرادُ هنا: تسمينُ البُدْن، والاهتبالُ[٤] بأمرها، والمغالاة بها؛ قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة[٥]. وفيه إشارةٌ لطيفةٌ، وذلك أنَّ أصل شراء البُدْن ربَّما يُحمل على فعلِ ما لابدَّ منه، فلا يدلُّ على الإخلاص، فإذا عظَّمها مع حصول

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٧٩٩٣)، ومسلم (٢٤٩).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٧ ، وسلف نحوه في الآية (٣٠).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١ .

(٤) في (ز) و(م): والاهتمام بأمرها والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢١ ، والكلام منه، يعني الإسراع بأمرها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١ ، وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد ابنُ أبي شيبة ٤/ ٢٩٤ و ٢٩٥ (نشرة العمروي)، و الطبري ١٦/ ٥٤٠ .

الإجزاء بما دونه فلا يظهر له مَحْمَلٌ[١] إلَّا تعظيمُ الشرع، وهو من تقوى القلوب. والله أعلم.

الثالثة: الضمير في «إنها» عائدٌ على الفَعلة التي يتضمَّنها الكلام، ولو قال: فإنه؛ لجاز. وقيل: إنها راجعةٌ إلى الشعائر، أي: فإنَّ تعظيم الشعائر، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه، فرجعت الكنايةُ إلى الشعائر.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ قرئ: «القلوبُ» بالرفع على أنها فاعلةٌ بالمصدر الذي هو «تَقْوَى»[٢]. وأضاف إلى القلب لأنَّ حقيقةَ التقوى في القلب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يعني البُدْنَ، من الركوب والدَّرِّ والنَّسل والصوف وغير ذلك، إذا لم يبعثها ربُّها هَدْياً، فإذا بعثها فهو الأجل المسمَّى؛ قاله ابن عباس[٤]. فإذا صارت بُدْناً هَدْياً، فالمنافعُ فيها أيضاً: ركوبُها عند الحاجة، وشربُ لبنها بعد رِيِّ فَصِيلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بَدَنَةً فقال: «ارْكَبْها» فقال: إنها بدنةٌ! فقال: «ارْكَبْها» قال: إنها بدنة! قال: «اركبها وَيْلَكَ» في الثانية أو في الثالثة[٥].

ورويَ عن جابر بن عبد الله وسُئل عن ركوب الهَدْي فقال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا أُلْجِئْتَ إليها حتى تَجِدَ ظَهْراً»[٦]. والأجلُ المسمَّى على

---

(١) في (خ) و(م): عمل، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨٢ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١ .

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، ومسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٢ .

(٥) صحيح البخاري (١٦٨٩)، وصحيح مسلم (١٣٢٢)، وهو عند أحمد (٧٣٥٠).

(٦) أخرجه أحمد (١٤٤١٣)، ومسلم (١٣٢٤).

هذا القولِ نحرُها؛ قاله عطاء بن أبي رَباح[١].

السادسة: ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «اركبها». ومِمَّن أَخَذ بظاهِرِه أحمد وإسحاقُ وأهلُ الظاهر[٢]. وروى ابن نافع عن مالك: لا بأس بركوب البَدَنة ركوباً غيرَ فادحٍ. والمشهورُ أنه لا يركبها إلّا إن اضطُرَّ إليها؛ لحديث جابرٍ؛ فإنه مقيَّد، والمقيَّد يقضي على المطلَق. وبنحو ذلك قال الشافعيُّ وأبو حنيفة. ثم إذا ركبها عند الحاجة [فاستراح] نزل، قال[٣] إسماعيل القاضي: وهو الذي يدلُّ عليه مذهبُ مالك، وهو خلافُ ما ذكره ابن القاسم: أنه لا يلزمه النزول، وحجته إباحةُ النبيِّ ﷺ له الركوب، فجاز له استصحابه.

وقوله: «إذا أُلجئتَ إليها حتى تجد ظَهْراً» يدلُّ على صحة ما قاله الإمام الشافعيُّ وأبو حنيفة رضي الله عنهما، وما حكاه إسماعيلُ عن مذهب مالك. وقد جاء صريحاً أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يسوق بدَنَةً وقد جُهد، فقال: «اركبها». وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: إن نَقَصها الركوبُ المباحُ فعليه قيمةُ ذلك ويتصدَّق به[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف. فقوله: «مَحِلُّها» مأخوذٌ من إحلال المحرِم. والمعنى: أنَّ شعائر الحجِّ كلَّها من الوقوف بعرفة ورمي الجِمار والسَّعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيتُ على هذا التأويلِ مرادٌ بنفسه؛ قاله مالك في «الموطأ»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٥ .

(٢) المفهم ٣/ ٤٢٢ ، وقوله: وممن أخذ بظاهره، يعني بجواز الركوب، كما جاء مصرحاً به في إكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) في النسخ عدا (ظ): قاله، والمثبت من (ظ) والمفهم ٣/ ٤٢٢ ، وإكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٤) المفهم ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤ ، والحديث الأخير أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ١٦١ عن أنس ﷺ.

(٥) ١/ ٣٧٠ .

وقال عطاء: ينتهي إلى مكة(١). وقال الشافعيُّ: إلى الحرم. وهذا بناءً على أنَّ الشعائر هي البُدْن، ولا وجهَ لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاءِ خصوصيةِ ذكرِ البيت(٢). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ الآية، لمَّا ذكر تعالى الذبائح بيَّن أنه لم يُخلِ منها أمَّةً، والأمةُ: القومُ المجتمعون على مذهبٍ واحد، أي: ولكلٍّ جماعةٍ مؤمنةٍ جعلنا مَنْسَكاً.

والمنسك: الذَّبْح وإراقة الدم؛ قاله مجاهد(٣). يقال: نَسَك: إذا ذَبَح، يَنْسُك نَسْكاً. والذبيحةُ نسيكة، وجمعُها نُسُك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]. والنُّسُك أيضاً: الطاعة.

وقال الأزهريُّ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسِكاً﴾: إنه يدلُّ على موضع النحر في هذا الموضع، أراد: مكانَ نَسْك(٤). ويقال: مَنْسَك ومَنْسِك، لغتان. وقرئ بهما؛ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً بكَسْرِ السين، الباقون بفتحها(٥).

وقال الفراء(٦): المَنْسَك في كلام العرب: الموضعُ المعتادُ في خير أو شر، وقيل: مناسك الحج؛ لتَرْداد الناس إليها، من الوقوف بعرفةَ ورمي الجمار والسعي.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٧.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٥٠.

(٤) تهذيب اللغة ١٠/ ٧٤ نقلاً عن الزجاج، وهو في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٧، إلا أنه ذكره في معنى منسِكاً بكسر السين، وقال: هو مثل مجلِس: مكان جلوس، ومن قال منسَك، فهو بمعنى المصدر.

(٥) السبعة ص٤٣٦، والتيسير ص١٥٧.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٨.

وقال ابن عرفة في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مذهباً من طاعة الله تعالى؛ يقال: نَسَك نَسْكَ قومه: إذا سلك مذهبهم.

وقيل: منسكاً: عيداً؛ قاله الفرّاء. وقيل: حجًّا؛ قاله قتادة(١).

والقولُ الأول أظهرُ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبح ما رزقهم. فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازقُ ذلك.

ثم رجع اللفظُ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحدٌ لجميعكم، فكذلك الأمرُ في الذبيحة إنَّما ينبغي أن تخلصَ له.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ معناه: لحقِّه ولوجهه وإنعامه آمِنوا وأسلِموا. ويحتمل أن يريد الاستسلام، أي: له أطيعوا وانقادوا.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المخبِت: المتواضِعُ الخاشع من المؤمنين. والخَبْت: ما انخفض من الأرض، أي: بشِّرْهم بالثواب الجزيل. قال عمرو بن أوس: المخبِتون: الذين لا يَظْلِمون، وإذا ظُلموا لم يَنْتصِروا. وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح: المخبتون: المطمئنُّون بأمر الله عزَّ وجلَّ(٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وَحذِرت مخالفتَه. فَوَصَفَهم بالخوف والوَجَل عند ذكره، وذلك لقوَّة يقينهم ومراعاتهم لربِّهم وكأنهم بين يديه،

---

(١) ذكر قول قتادة والفراء ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وقول مجاهد وقول عمرو بن أوس أخرجهما الطبري ١٦/ ٥٥١ ، وأخرج قول مجاهد أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨ ، وقول عمرو بن أوس أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٨ .

ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها. وروي أنَّ هذه الآيةَ قولَه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ نزلت في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ رضوانُ الله عليهم[1].

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالخفض على الإضافة، وقرأ أبو عمرو: «الصلاةَ» بالنصب على توهُّم النون، وأنَّ حَذْفَها للتخفيف لطول الاسم[2]، وأنشد سيبويه:

الحافِظُو عَوْرةَ العَشِيرة[3] . . .

الثانية: هذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. هذه حالةُ العارفين بالله، الخائفين من سَطْوته وعقوبته، لا كما يفعله جُهَّال العوامِّ والمبتدِعةُ الطَّغامُ، من الزَّعيق والزئير، ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير، فيقال لمن تَعاطَى ذلك وزعم أنَّ ذلك وَجْدٌ وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساويَ حالَ رسول الله ﷺ ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظ الفهمَ عن الله، والبكاءَ خوفاً من الله. وكذلك وَصَفَ الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوةِ كتابه، ومَن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ .

(٢) المحتسب ٢/ ٨٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وهي في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن أبي إسحاق، والقراءةُ المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٣) الكتاب ١/ ١٨٦ و ٢٠٢ ، وعزاه لرجل من الأنصار، وتمامه:

الحافظو عورةَ العشيرة لا يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

وهو في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٧٥ ضمن قصيدة لعمرو بن امرئ القيس، وهذا ما رجحه البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٨٣ ، ونسبه البَطَلْيَوْسي في الحلل ص١٢٢ لقيس بن الخطيم، وهو في الجمهرة والحلل برواية وَكَفُ، بدل: نطف. قال البطليوسي: الوَكَف هنا: العيب، ويروى: نَطَف، وهو نحو الوكف. اهـ وروي: عورةِ، بالجر كما ذكر صاحب الخزانة ٤/ ٢٧٣ .

طريقتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصفُ حالهم وحكايةُ مَقَالِهم، فَمَن كان مُستَنًّا فَلْيَسْتَنّ، ومَن تَعاطَى أحوالَ المجانين والجنونِ فهو مِن أخسِّهم حالاً، والجنونُ فنون[١].

روى الصحيح عن أنس بن مالك: أنَّ الناس سألوا النبيَّ ﷺ حتى أحْفَوْه في المسألة، فخرج ذاتَ يومٍ فصَعِد المِنبر فقال: «سَلُوني، لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنتُه لكم ما دمتُ في مَقَامي هذا». فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا، ورَهِبُوا أن يكون بين [يدي] أمرٍ قد حَضَر. قال أنس: فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشِمالاً فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث[٢]. وقد مضى القول في هذه المسألة بأشبعَ من هذا في سورة الأنفال[٣] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

فيها عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق: «والبُدُن»[٤]؛ لغتان، واحدتُها بَدَنة. كما يقال: ثمرة وثُمُر وثُمْر، وخشبة وخُشُب وخُشْب، وفي التنزيل:

---

(١) المفهم ٦/ ١٦٠ . وكان من الأَولى الاكتفاءُ في الردّ بما ورد من الكتاب والسنة. فالتقريع لا يزيد المسلمين إلا فُرقة وضغناً.

(٢) صحيح مسلم (٢٣٥٩): (١٣٧)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٨٢٠)، والبخاري (٦٣٦٢). وقد سلف ٩/ ٤٥٠ . وقوله: أحفوه، أي: ألحُّوا عليه. وأرمُّوا: سكتوا. وقوله: ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر، أي: خافوا أن تقع بهم عقوبة عند غضبه. المفهم ٦/ ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) ٩/ ٤٥٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٨ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ عن الحسن وعيسى، وذكر عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «والبُدُنَّ» بضمتين وتشديد النون.

﴿وكان له ثُمُر﴾ [الكهف: ٣٤]، وقرئ: ﴿ثُمْر﴾[١] لغتان. وسمِّيت بَدَنة لأنها تَبْدُن، والبَدانةُ: السِّمَن. وقيل: إن هذا الاسم خاصٌّ بالإبل. وقيل: البُدْن جمعُ «بَدَن» بفتح الباء والدال. ويقال: بَدُن الرجل؛ بضم الدَّال: إذا سَمِن. وبدَّن؛ بتشديدها: إذا كَبِرَ وأَسَنَّ؛ وفي الحديث «إنِّي قد بدَّنْتُ»[٢] أي: كَبِرتُ وأَسْنَنْتُ. وروي «بَدُنْت» وليس له معنى؛ لأنه خلافُ صفته ﷺ، ومعناه: كثرةُ اللحم[٣]. يقال: بَدُنَ الرجل يبدُن بَدْناً وبَدانة فهو بادِنٌ، أي: ضخم.

الثانية: اختلف العلماء في البُدْن؛ هل تُطلَقُ على غير الإبل من البقر أم لا؟ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيُّ: لا. وقال مالك وأبو حنيفة: نعم. وفائدةُ الخلاف فيمَن نذر بَدَنةً فلم يجد البَدَنةَ، أو لم يَقْدِرْ عليها وقَدَر على البقرة؛ فهل تَجزيه أم لا؟ فعلى مذهبِ الشافعيِّ وعطاء لا تَجزيه. وعلى مذهب مالك تَجزيه[٤].

والصحيح ما ذهب إليه الشافعيُّ وعطاء؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة: «مَن راحَ في الساعةِ الأولى فكأنَّما قَرَّبَ بَدَنةً، ومَن راحَ في الساعةِ الثانيةِ فكأنَّما قرَّبَ بقرة» الحديث[٥]. فتفريقُه عليه الصلاة والسلام بين البقرة والبَدَنة يدلُّ على أنَّ البقر لا يقال عليها بُدن، والله أعلم. وأيضاً قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يدلُّ على ذلك، فإن الوصف خاصٌّ بالإبل. والبقرُ يُضْجَع ويذبح كالغنم؛ على ما يأتي[٦].

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «ثُمُر» بضم الثاء والميم، وقرأ أبو عمرو: «ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وقرأ عاصم: «ثَمَر» بفتح الثاء والميم. السبعة ص٣٩٠، والتيسير ص١٤٣.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٨٣٨)، وأبو داود (٦١٩)، وابن ماجه (٩٦٣)، وابن حبان (٢٢٢٩) عن معاوية ﷺ، وأخرجه ابن حبان أيضاً (٢٢٣١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٥٢ - ١٥٣، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٤٤، وما بعده منه.

(٤) المفهم ٢/ ٤٨٨.

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٩٩٢٦)، والبخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) في المسألة السادسة.

ودليلُنا أنَّ البَدَنة مأخوذةٌ من البَدانة، وهو الضخامة، والضخامةُ توجد فيهما جميعاً. وأيضاً فإنَّ البقرة في التقرُّب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل، حتى تجوزُ البقرة في الضحايا عن سبعةٍ كالإبل. وهذا حجةٌ لأبي حنيفةَ حيث وافقه الشافعيُّ على ذلك، وليس ذلك في مذهبنا.

وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم: بدنة، وهو قولٌ شاذّ. والبُدْنُ هي الإبل التي تُهْدَى إلى الكعبة. والهَدْيُ عامٌّ في الإبل والبقر والغنم[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ في أنَّها بعضُ الشعائر. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يريد به المنافعَ التي تقدَّم ذكرها. والصوابُ عمومُه في خير الدنيا والآخرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ أي: انحروها على اسم الله، و«صوافَّ» أي: قد صَفَّتْ قوائمها[٢]. والإبل تُنحر قياماً معقولة. وأصلُ هذا الوصف في الخيل؛ يقال: صَفَنَ الفرس فهو صافنٌ: إذا قام على ثلاثِ قوائمَ وثَنَى سُنْبُك الرابعة؛ والسُّنبكُ: طَرَفُ الحافر. والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم.

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهدٌ وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريُّ: «صَوافِيَ»[٣] أي: خَوَالصَ لله عزَّ وجلَّ لا يشركون به في التسمية على نحرها أحداً.

وعن الحسن أيضاً: «صَوَافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخفَّفةً، وهي بمعنى التي قبلها لكنْ حُذفت الياء تخفيفاً على غير قياس[٤].

و«صوافَّ» قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدِّها؛ من صفَّ يَصُفُّ. وواحدُ صوافّ:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٨، وقال الزجاج: أي: فاذكروا اسم الله عليها في حال نحرها، والبعير ينحر قائماً، وهذه الآية تدلُّ على ذلك.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والمحتسب ٢/ ٨١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ دون نسبة.

صافَّة، وواحدُ صَوَافي: صافية.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن علي: «صَوَافِنَ» بالنون[(١)] جمع صافنة. ولا يكون واحدُها صافناً[(٢)]؛ لأنَّ فاعلاً لا يجمع على فَوَاعِلَ إلَّا في حروفٍ مختصَّةٍ لا يقاسُ عليها؛ وهي: فارسٌ وفوارس، وهالكٌ وهوالك، وخالفٌ وخوالف[(٣)]. والصافنة: هي التي قد رُفعت إحدى يديها بالعَقْل لئلَّا تضطرب. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، وقال عمرو بن كُلْثوم:

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه مقلَّدةً أعنَّتها صُفُونا[(٤)]

ويروى:

تظلُّ جيادُه نَوْحاً عليه مقلَّدةً أعنَّتها صفونا[(٥)]

وقال آخر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزال كأنه ممَّا يقوم على الثلاثِ كَسِيرا[(٦)]

وقال أبو عُمر الجَرْمِيُّ: الصافنُ: عِرْقٌ في مقدَّم الرجل، فإذا ضُرب على الفرس رفع رجله[(٧)]. وقال الأعشى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٥ ، والمحتسب ٢/ ٨١ .

(٢) لكن الأزهري نقل في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٠٦ عن أبي زيد قوله: العرب تقول لجميع الصافن: صَوافن، وصافنات، وصُفون.

(٣) وكذا ناكس ونواكس، وغائب وغوائب، وغافل وغوافل، وباسل وبواسل... وهو ما شذَّ من وصف المذكر العاقل في جمع فاعل على فواعل. والأصل في هذا الجمع أن يكون وصفاً لمؤنث عاقل كحائض وحوائض، وطالق وطوالق، وقاعد وقواعد، أو وصفاً لمذكر غير عاقل، كصاهل وصواهل. وقد نقل المصنف ١٠/ ٣٢٧ عن النحاس قوله: قد يقال للرجل: خالفه وخالف أيضاً.

(٤) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٩٩ ، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٦٣ . قال النحاس: والصُّفُون جمع صافن، وهو القائم، وقيل: هو الذي رفع إحدى قوائمه من التعب.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧ ، وأساس البلاغة واللسان (صفن).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٩ .

وكلَّ كُميْتٍ كجِذْعِ السَّحوق يَزينُ الفِناءَ إذا ما صَفَنْ[١]

الخامسة: قال ابن وَهْب: أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوافّ فقال: يقيِّدها ثم يصفُّها. وقال لي مالك بن أنس مثلَه[٢]. وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك، إلَّا أبا حنيفة والثَّوريَّ؛ فإنهما أجازا أن تُنحر باركةً وقياماً. وشذَّ عطاء فخالف واستَحَبَّ نَحْرَها باركة[٣]. والصحيحُ ما عليه الجمهورُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ معناه: سقطت بعد نَحْرِها، ومنه: وَجَبت الشمس. وفي «صحيح» مسلم[٤] عن زياد بن جُبير: أنَّ ابن عمر أتى على رجلٍ وهو ينحر بَدَنتَه باركةً فقال: ابعثْها قائمةً مقيَّدةً سنَّة نبيِّكم ﷺ.

وروى أبو داود[٥] عن أبي الزبير عن جابر: وأخبرني عبد الرحمن بنُ سابطٍ أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنةَ معقولةَ اليسرى قائمةً على ما بقي من قوائمها.

السادسة: قال مالك: فإن ضَعُف إنسانٌ أو تخوَّف أن تَنْفلتَ بَدَنتُه فلا أرى بأساً أن ينحرها معقولةً. والاختيارُ أن تُنحر الإبلُ قائمةً غيرَ معقولةٍ، إلَّا أن يتعذَّر ذلك فتُعقَل، ولا تُعَرْقَب إلَّا أن يخاف أن يضعفَ عنها ولا يَقْوَى عليها. ونحرُها باركةً أفضلُ من أن تُعرقَبَ. وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنفوانِ أَيْدِه[٦]، فينحرها في صدرها ويُخْرِجها على سنامها، فلما أسنَّ كان ينحرها باركةً لضعفه، ويُمسك معه الحربةَ رجلٌ آخرُ، وآخَرُ بخِطامها[٧].

---

(١) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٧١ برواية: الخصاب، بدل: السحوق. وقال شارحه: المعنى: والفرس الأسود كأنه الجذع في طول متنه، يزين فناء البيت إذا ما صفن.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ .

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٠ .

(٤) برقم (١٣٢٠)، وهو في صحيح البخاري (١٧١٣).

(٥) في سننه (١٧٦٧).

(٦) الأَيْد: القوة، ووقع في (ظ): شبابه.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ - ١٢٧٨ .

السابعة: وتُضْجَع البقر والغنم[١]. ولا يجوز النحرُ قبل الفجر من يوم النحر بإجماع، وكذلك الأضحيَّةُ لا تجوز قبل الفجر، فإذا طلع الفجر حلَّ النحر بمِنًى، وليس عليهم انتظارُ نحرِ إمامهم، بخلاف الأضحيَّة في سائر البلاد. والمَنْحَرُ مِنًى لكلِّ حاجٍّ، ومكةُ لكلِّ معتمِر. ولو نحر الحاجُّ بمكةَ والمعتمرُ بمنًى؛ لم يَحْرَج واحدٌ منهما إن شاء الله تعالى[٢].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يقال: وَجَبت الشمس: إذا سقطت، ووَجَبَ الحائط: إذا سقط؛ قال قيس بن الخَطِيم:

أطاعت بنو عوفٍ أميراً نهاهُمُ عن السِّلْم حتى كان أوّلَ واجِبِ[٣]

وقال أوْس بن حَجَر:

ألم تُكْسَفِ الشمسُ والبدرُ والـ ـكواكبُ للجبل الواجبِ[٤]

فقوله تعالى: «فإذا وجَبَتْ جُنُوبُها» يريد: إذا سقطت على جنوبها ميتةً. كنَى عن الموت بالسقوط على الجنب، كما كنَى عن النحر والذبح بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. والكناياتُ في أكثر المواضع أبلغُ من التصريح[٥]؛ قال الشاعر:

---

(١) قوله: وتضجع البقر والغنم، وقع في (خ) و(م) قبل قوله: السابعة.

(٢) الكافي ١/ ٤٠٥، وقد سلف الاختلاف في وقت الذبح للأضحية، وهل هو قبل ذبح الإمام أو بعده ص٣٦٦ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٩٦٩، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٥٢، ومنتهى الطلب في أشعار العرب ٦/ ٣٥١. قال ابن قتيبة: واجب: ميت.

(٤) ديوان أوس بن حجر ص١٠، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٦٠، ووقع في النسخ عدا (ظ) والنكت والعيون ٤/ ٢٧:

ألم تكسف الشمس ضوء النهار والبدر للجبل الواجب

وذكره ياقوت في معجم الأدباء ١٨/ ١٦٩ برواية:

ألم تُكسَفِ الشمسُ شمسُ النها رِ والبدرُ للقمر الواجب

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٨.

فتركتُه جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَهُ ما بين قُلَّةِ رأسِه والمِعْصَمِ[١]

وقال عنترة:

وضربتُ قَرْنَيْ كَبْشِها فتَجدَّلا[٢]

أي: سقط مقتولاً إلى الجَدالة، وهي الأرض؛ ومثلُه كثير.

والوُجوبُ للجَنْب بعد النحر علامةُ نزفِ الدَّمِ وخروجِ الروح منها، وهو وقتُ الأكل، أي: وقتُ قُرْبِ الأكل؛ لأنه أول ما[٣] يبتدأ بالسلخ وقطعِ شيءٍ من الذبيحة ثم يُطبخ. ولا تُسلخ حتى تَبْرُد؛ لأنَّ ذلك من باب التعذيب؛ ولهذا قال عمر ﷺ: لا تَعْجَلوا الأنفس أنْ تَزْهَق[٤].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه النَّدْبُ. وكلُّ العلماء يستحبُّ أن يأكل الإنسان من هَدْيه، وفيه أجرٌ وامتثال؛ إذْ كان أهلُ الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدَّم[٥].

وقال أبو العباس بن سُريج: الأكلُ والإطعامُ مستحبَّان، وله الاقتصارُ على أيِّهما شاء. وقال الشافعيُّ: الأكلُ مستَحَبٌّ والإطعامُ واجب[٦]، فإن أَطْعَمَ جميعَها أجزاه، وإن أكل جميعَها لم يُجزه، وهذا فيما كان تطوُّعاً، فأمَّا واجباتُ الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئاً حَسْبَما تقدَّم بيانه[٧].

---

(١) البيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٦ ، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٣٣ ، وللتبريزي ص٢٣٩ قال التبريزي: الجَزَر جمع جزرة، والجزرة: الشاة والناقة تذبح وتنحر، وينُشْنَه: يتناوَلْنَه بالأكل، وقُلَّةُ كلِّ شيء أعلاه. اهـ. وقال الجوهري: في الصحاح (جزر): جَزَر السِّباع: اللحم الذي تأكله، يقال: تركوهم جَزَراً، بالتحريك: إذا قتلوهم.

(٢) وعجزه: وحملتُ مُهْري وَسْطَها فمَضاها، وهو في ديوانه ص٧٥ .

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: إنما، بدل: أول ما.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٨٦١٤)، وابن أبي شيبة ٥/ ٣٩٢ - ٣٩٣ ، والبيهقي ٩/ ٢٧٨ واللفظ له.

(٥) ص٣٧٤ من هذا الجزء، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ ، وينظر تفصيل هذين القولين في المجموع ٨/ ٣٢٩ وما بعدها.

(٧) ص٣٧٣ من هذا الجزء.

العاشرة: قولُه تعالى: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ قال مجاهدٌ وإبراهيم والطبريُّ: قوله: «وأطعِموا» أمرُ إباحةٍ[١]. و«القانِع»: السائل. يقال: قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً: إذا سأل، بفتح النون في الماضي[٢]، وقَنِع يقنَع قناعةً فهو قَنِعٌ: إذا تعفَّف واستغنى ببُلْغته ولم يسأل، مثل: حمِد يحمَد، قَناعةً وقَنَعاً وقَنَعاناً؛ قاله الخليل[٣]. ومن الأوّل قول الشمَّاخ:

لَمَالُ المرءِ يُصلِحُه فيُغْني مَفاقِرَه أعفُّ من القُنُوعِ[٤]

وقال ابن السِّكِّيت[٥]: مِن العرب مَن ذَكَر القُنوعَ بمعنى القناعة، وهي الرِّضا والتعفُّفُ وتركُ المسألة. ورويَ عن أبي رجاءٍ أنه قرأ: «وأطعِموا القَنِعَ». ومعنى هذا مخالفٌ للأوّل؛ يقال: قَنِعَ الرجل فهو قَنِعٌ: إذا رضي[٦].

وأمّا المعترُّ فهو الذي يُطيف بك يطلب ما عندك، سائلاً كان أو ساكتاً. وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ ومجاهدٌ وإبراهيم والكلبيُّ والحسن بن أبي الحسن: المعترُّ: المتعرض من غير سؤال[٧]، قال زهير:

على مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَن يعتريهمُ وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ[٨]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٢٣ ، وفيه تخريج خبر مجاهد وإبراهيم.

(٢) بعدها في النسخ: وكسرها في المستقبل، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ والكلام منه. وليس في كتب اللغة «يقنِع» بكسر النون. ينظر العين ١/ ١٧٠ ، وتهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ ، ومقاييس اللغة ٥/ ٣٣ ، والصحاح ومفردات الراغب واللسان (قنع).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، دون قوله: قناعة وقنعاً وقنعاناً، ولم ترد أيضاً هذه المصادر في كتاب العين ١/ ١٧٠ ، وذكرها الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٦٩ .

(٤) ديوان الشمَّاخ ص٢٢١ . وقوله: مفاقر، أي: وجوه الفقر، يقال: سدَّ الله مفاقره، أي: أغناه، وسدَّ وجوه فقره. الصحاح (فقر).

(٥) قوله في تهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٣ ، والقراءة ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وأخرج هذا القول عن مجاهد ومحمد بن كعب والحسن الطبريُّ ١٦/ ٥٦٣ و ٥٦٥ - ٥٦٦ . ووقع في النسخ: المعترض، بدل المتعرض، والمثبت من المصادر.

(٨) ديوان زهير ص١١٤ (بشرح ثعلب).

وقال مالك: أحسنُ ما سمعت: أنَّ القانع: الفقيرُ، والمعترّ: الزائر. وروي عن الحسن أنه قرأ: «والمعترِيَ»، ومعناه كمعنى المعترّ. يقال: اعترَّه واعتراه، وعرَّه وعرَاه: إذا تعرَّض لمَا عنده أو طلبه؛ ذكره النحاس[(١)].

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يضرِّجون البيت بدماء البُدْن، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فنزلت الآية[(٢)].

والنَّيْلُ لا يتعلَّق بالبارئ تعالى، ولكنه عبَّر به[(٣)] تعبيراً مجازيًّا عن القبول، المعنى: لن يَصِلَ إليه. وقال ابن عباس: لن يصعد إليه. ابن عيسى: لن يَقْبَلَ لحومَها ولا دماءها، ولكنْ يصلُ إليه التقوى منكم[(٤)]، أي: ما أريد به وجهُه؛ فذلك الذي يقبله ويُرفع إليه ويسمعه ويُثِيب عليه؛ ومنه الحديث: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات».

والقراءة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ و﴿يَنَالُهُ﴾ بالياء فيهما. وعن يعقوب بالتاء فيهما[(٥)]، نظراً إلى اللحوم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ مَنَّ سبحانه علينا بتَذْليلها وتمكيننا من

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤١٣ - ٤١٤، والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ عن أبي رجاء وعمرو بن عبيد.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٣. ونسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٢ للكلبي.

(٣) في النسخ: عنه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣، والكلام منه.

(٤) ذكر القولين عن ابن عباس وابن عيسى الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٢٨، وخبر ابن عباس فيه مطول.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦.

تصريفها، وهي أعظمُ مِنّا أبداناً وأقوى منّا أعضاءً، ذلك ليَعْلَمَ العبدُ أنَّ الأمور ليست على ما تَظْهرُ إلى العبد من التدبير، وإنما هي بحسَب ما يريدها العزيز القدير، فيغلِبُ الصغيرُ الكبيرَ؛ ليعلم الخلقُ أنَّ الغالب هو الله الواحدُ القهار[1] فوقَ عباده.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ذكر سبحانه ذِكْرَ اسمِه عليها في الآية قَبْلَها، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، وذكرَ هنا التكبير. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نَحر هَدْيَه فيقول: باسم الله والله أكبر؛ وهذا من فِقْهِه ﷺ[2].

وفي الصحيح عن أنس قال: ضَحَّى رسول الله ﷺ بكَبْشَيْنِ أمْلَحَيْن أقْرَنَيْن. قال: ورأيتُه يذبحهما بيده، ورأيتُه واضعاً قدمَه على صِفاحهما، وسَمَّى وكبَّر[3].

وقد اختلف العلماء في هذا؛ فقال أبو ثور: التسميةُ متعيِّنةٌ؛ كالتكبير في الصلاة، وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك. فلو قال ذِكْراً آخَرَ فيه اسمٌ من أسماء الله تعالى وأراد به التسميةَ جاز. وكذلك لو قال: الله أكبر، فقط، أو: لا إله إلا الله؛ قاله ابن حبيب. فلو لم يُرد التسميةَ لم يُجزِ عن التسمية ولا تؤكل؛ قاله الشافعيُّ ومحمد ابن الحسن. وكره كافةُ العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند التسمية في الذبح أو ذِكرَه، وقالوا: لا يُذكر هنا إلَّا اللهُ وحدَه. وأجاز الشافعيُّ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند الذبح[4].

الرابعة: ذهب الجمهور إلى أنَّ قول المضحِّي: اللَّهُمَّ تقبَّلْ منِّي، جائز. وكره ذلك أبو حنيفةَ، والحجةُ عليه ما رواه الصحيح عن عائشةَ رضي الله عنها، وفيه: ثم

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ (والكلام منه): القاهر.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ .

(٣) صحيح البخاري (٥٥٦٥)، وصحيح مسلم (١٩٦٦): (١٨)، وهو عند أحمد (١١٩٦٠). قوله: أملحين، قيل: الأملح هو الأبيض، وقيل: الملحة من الألوان: بياض يخالطه سواد. ينظر المفهم ٥/ ٣٦١ .

(٤) المفهم ٥/ ٣٦٣ .

قال: «باسم الله، اللَّهُمَّ تقبَّل من محمدٍ وآلِ محمد ومن أمَّة محمد». ثم ضحَّى به. واستحبَّ بعضُهم أن يقول ذلك بنصِّ الآية: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧][١].

وكره مالكٌ قولَهم: اللهمَّ منك وإليك، وقال: هذه بدعةٌ. وأجاز ذلك ابنُ حبيب من أصحابنا والحسن، والحجةُ لهما ما رواه أبو داود[٢] عن جابر بن عبد الله قال: ذبح النبيُّ ﷺ يومَ الذَّبح كَبْشَين أقْرنين مَوْجُوءين[٣] أمْلَحين، فلمَّا وجَّههما قال: «﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ وقرأ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ اللَّهُمَّ منك وإليك[٤]، عن محمدٍ وأمتِه، باسم الله والله أكبر». ثم ذبح. فلعلَّ مالكاً لم يبلغه هذا الخبر، أوْ لم يصحَّ عنده، أو رأى العملَ يخالفُه. وعلى هذا يدلُّ قولُه: إنه بدعة[٥]. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ رُوي أنَّها نزلت في الخلفاء الأربعة؛ حَسْبَما تقدَّم في الآية التي قبلها. فأمَّا ظاهِرُ اللفظ فيقتضي العمومَ في كلِّ مُحْسِن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

رُوي أنَّها نزلت بسبب المؤمنين؛ لمَّا كثروا بمكةَ وآذاهم الكفارُ وهاجر مَن هاجر

---

(١) المفهم ٥/ ٣٦٣، والحديث في صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو عند أحمد (٢٤٤٩١).

(٢) في سننه (٢٧٩٥)، وهو في سنن ابن ماجه (٣١٢١) بنحوه.

(٣) أي: خَصِيَّيْن. النهاية (وجأ). ووقع في (خ): موجيين، وفي مطبوع سنن أبي داود: مُوْجَئَين، وفي بعض نسخه: مَوْجِيَّيْن، ينظر سنن أبي داود بتحقيق محمد عوامة (٢٧٨٨). قال ابن الأثير: منهم مَن يرويه: مُوْجَأين، على وزن: مُكْرَمين، وهو خطأ، ومنهم مَن يرويه: مَوْجِيَّيْن بغير همز على التخفيف، ويكون من وَجَيْتُه وَجْياً فهو مَوْجِيّ.

(٤) في (م): ولك، وهو موافق لما في سنن أبي داود وسنن ابن ماجه، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٥/ ٣٦٣، والكلام منه.

(٥) المفهم ٥/ ٣٦٤.

إلى أرض الحبشة؛ أراد بعضُ مؤمني مكةَ أن يقتل مَن أَمْكَنَه من الكفار، ويغتالَ ويَغْدِر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿كَفُورٍ﴾. فوعد فيها سبحانه بالمدافعة، ونَهَى أفصحَ نهيٍ عن الخيانة والغدر[١]. وقد مضى في «الأنفال» التشديدُ في الغدر؛ وأنه: «يُنصب للغادر لواءٌ عند استِه[٢] بقَدْرِ غَدْرته يقال: هذه غَدْرةُ فلان»[٣].

وقيل: المعنى: يَدْفَع عن المؤمنين بأن يُديم توفيقَهم حتى يتمكَّن الإيمان من[٤] قلوبهم، فلا يقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم، وإن جرى إكراهٌ فيعصمهم حتى لا يرتدُّوا بقلوبهم.

وقيل: يدفعُ عن المؤمنين بإعلائهم بالحُجَّة. وإن قتلَ كافرٌ مؤمناً؛ فقد دفعَ اللهُ[٥] عن ذلك المؤمنِ بأنْ قَبَضَه إلى رحمته.

وقرأ نافع: «يُدافِعُ»، «ولولا دِفاعُ». وقرأ أبو عمرو وابن كَثير: «يَدْفَعُ»، «ولولا دَفْعُ». وقرأ [ابن عامر و] عاصم وحمزة والكسائيُّ: «يُدافِعُ»، «ولولا دَفْعُ الله»[٦]. ويُدافع بمعنى يَدْفعُ، مثل: عاقَبْتُ اللصَّ، وعافاه الله، والمصدرُ دفعاً. وحكى الزَّهراويُّ: أنَّ «دِفاعاً» مصدرُ دَفَع، كحسَب حِساباً[٧].

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾

فيه مسألتان:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٢) في (ظ): عند بعثه.

(٣) ينظر ١٠/ ٥٢ - ٥٣ .

(٤) في (ظ): في.

(٥) في (م): ثم قتل كافر مؤمناً نادر وإن فيدفع الله.

(٦) السبعة ص٤٣٧ ، والتيسير ص٨٢ و ١٥٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ قيل: هذا بيانُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: يدفع عنهم غوائلَ الكفار بأن يُبيحَ لهم القتالَ وينصرَهم، وفيه إضمارٌ، أي: أُذن للَّذين يَصْلُحون للقتال في القتال، فحذف لدلالة الكلام على المحذوف. وقال الضحَّاك: استأذن أصحابُ رسول الله ﷺ في قتال الكفَّار إذ آذَوْهم بمكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ فلمَّا هاجر نزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾. وهذا ناسخٌ لكلِّ ما في القرآن من إعراضٍ وتركِ صَفْحٍ(١). وهي أوَّلُ آيةٍ نزلت في القتال(٢).

قال ابن عباس وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة(٣)؛ وروى النَّسائيُّ والترمذيُّ عن ابن عباس قال: لمَّا أُخرج النبيُّ ﷺ من مكةَ قال أبو بكر: أَخرَجوا نبيَّهم، لَيَهْلِكُنّ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾. فقال أبو بكر: لقد علمتُ أنه سيكون قتال. قال: هذا حديثٌ حسن. وقد روى غيرُ واحدٍ عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد ابن جُبير مرسلاً، ليس فيه: عن ابن عباس(٤).

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الإباحة من الشَّرْع، خلافاً للمعتزلة؛ لأنَّ قوله: «أُذِن»، معناه: أُبيح؛ وهو لفظٌ موضوعٌ في اللغة لإباحة كلِّ ممنوع(٥). وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»(٦) وغيرِ موضع.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، وذكر خبر الضحاك بنحوه الطبري ٦/ ٥٧٦ وقال: وهذا قول ذُكر عن الضحاك بن مزاحم من وجه غير ثبت.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٢٥ ، وقد أخرج النحاس هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧١)، وسنن النسائي ٦/ ٢ ، وهو عند أحمد (١٨٦٥)، وزاد أحمد والنسائي عن ابن عباس قوله: وهي أول آية نزلت في القتال. وأخرج المرسل عن سعيد بن جبير الترمذي إثر الحديث (٣١٧١)، و(٣١٧٢).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، دون قوله: خلافاً للمعتزلة.

(٦) ينظر ١/ ٣٧٧ .

وقرئ: «أذن» بفتح الهمزة، أي: أَذِنَ الله، «يقاتِلون» بكسر التاء، أي: يقاتلون عدوَّهم. وقرئ: «يقاتَلون» بفتح التاء[1]، أي: يقاتلهم المشركون، وهم المؤمنون. ولهذا قال: «بأنهم ظُلِموا» أي: أُخرجوا من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم﴾ هذا أحدُ[2] ما ظُلِموا به، وإنَّما أُخرجوا لقولهم: ربُّنا اللهُ وحدَه. فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكنْ لقولهم: ربُّنا الله؛ قاله سيبويه. وقال الفرَّاء: يجوز أن يكون [أن] في موضع خَفْضٍ؛ يقدِّرها مردودةً على الباء، وهو قولُ أبي إسحاقَ الزجَّاجِ، والمعنى عنده: الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلَّا بأن يقولوا: ربُّنا الله، أي: أُخرجوا بتوحيدهم، أخرجهم أهلُ الأوثان. و«الذِين أُخرِجوا» في موضع خفضٍ بدلاً من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾[3].

الثانية: قال ابن العربيّ[4]: قال علماؤنا: كان رسول الله ﷺ قبل بَيْعة العَقَبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تَحِلَّ له الدماء، إنَّما أمر[5] بالدعاء إلى الله والصبرِ على

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم: «أُذن» بضم الهمزة، والباقون بفتحها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «يقاتَلون» بفتح التاء، والباقون بكسرها. السبعة ص٤٣٧ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٢) في (د): آخر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٧ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣٠ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٨٤ - ١٢٨٦ .

(٥) في (د) و(م) وأحكام القرآن: يؤمر.

الأذى والصفحِ عن الجاهل مدَّةَ عشرة أعوام؛ لإقامة حجةِ الله تعالى عليهم، ووفاءً بوعده الذي امتنَّ به بفضله في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فاستمرَّ الناس في الطغيان، وما استدلُّوا بواضح البرهان، وكانت قريشٌ قد اضطهدت مَن اتَّبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنُوهم عن دينهم، ونفَوْهم عن بلادهم؛ فمنهم مَن فرَّ إلى أرض الحبشة، ومنهم مَن خرج إلى المدينة، ومنهم مَن صَبَر على الأذى. فلمَّا عَتَتْ قريش على الله تعالى، وردُّوا أمره وكذَّبوا نبيَّه عليه الصلاة والسلام، وعذَّبوا مَن آمن به ووحَّده وعبده، وصدَّق نبيَّه عليه الصلاة والسلام، واعتصم بدينه، أَذِنَ الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾.

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ[١] الفعلَ الموجودَ من المُلْجَأ المُكْرَهِ منسوبٌ إلى الذي أَلْجأَه وأَكْرهَه؛ لأنَّ الله تعالى نَسَبَ الإخراج إلى الكفار؛ لأنَّ الكلام في معنى تقديرِ الذَّنب وإلزامه. وهذه الآيةُ مِثْلُ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٤٠] والكلامُ فيهما واحدٌ، وقد تقدّم في «براءة»[٢] والحمد لله.

الرابعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا ما شَرَعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء؛ لاستَوْلَى أهل الشِّرك وعطَّلوا ما بَنَتْه[٣] أربابُ الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دَفَع بأنْ أَوْجَبَ القتال ليتفرَّغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدِّم في الأمم، وبه صَلَحت الشرائع واجتمعت المتعبَّدات، فكأنه قال: أُذِنَ في القتال، فلْيقاتِلِ المؤمنون. ثم قوَّى هذا الأمر في القتال بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، أي: لولا القتالُ والجهاد لتُغُلِّب على الحقِّ في كلِّ

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): نسبة، والمثبت من (ظ).

(٢) ١٠/٢١١ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٨٦ .

(٣) في (د) و(ظ): بينه.

أمة[١]. فَمَن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقضٌ لمذهبه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقي الدِّين الذي يذبُّ عنه.

وأيضاً هذه المواضع التي اتُّخِذت قبل تحريفهم وتبديلهم، وقبل نَسْخِ تلك الملل بالإسلام، إنما ذُكرت لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدفعُ لهُدِمَ في زمن موسى الكنائسُ، وفي زمن عيسى الصوامعُ والبِيَعُ، وفي زمن محمدٍ عليه الصلاة والسلام المساجد[٢]. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ من هدمتُ البناء، أي: نقضته فانهدم.

قال ابن عطية[٣]: هذا أصوبُ ما قيل في تأويل الآية. وروي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال: ولولا دفعُ الله بأصحاب محمدٍ ﷺ الكفارَ عن التابعين فَمَن بعدهم. وهذا وإن كان فيه دفعُ قومٍ بقومٍ إلَّا أنَّ معنى القتال أليَقُ، كما تقدّم[٤].

وقال مجاهد: لولا دَفْعُ اللهِ ظلمَ قومٍ بشهادةِ العدول. وقالت فرقة: ولولا دفعُ الله ظلمَ الظَّلَمة بعَدْلِ الولاة[٥].

وقال أبو الدَّرْداء: لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يدفع بمن في المساجد عمَّن ليس في المساجد، وبمن يغزو عمَّن لا يغزو، لأتاهم العذاب[٦].

وقالت فرقةٌ: ولولا دفعُ الله العذابَ بدعاء الفُضَلاء والأخيار. إلى غير ذلك من التفصيل المُفْسِد[٧] لمعنى الآية؛ وذلك أنَّ الآية ولابدَّ تقتضي مدفوعاً من الناس

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣١.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤، وقد قاله ابن عطية إثر ما تقدم من قوله: أي لولا القتال والجهاد لتُغلب على الحق في كل أمة.

(٤) يعني بما تقدم من الآية، كما في المحرر الوجيز. وخبر علي ﷺ أخرجه الطبري ١٦/ ٥٧٨ - ٥٧٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٥٧٩.

(٦) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠١.

(٧) في (م): المفسر، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٥، والكلام منه.

ومدفوعاً عنه، فتأمَّلْه.

الخامسة: قال ابن خُوَيْزمَنْداد: تضمَّنت هذه الآيةُ المَنْعَ من هَدْم كنائس أهل الذِّمَّة وبِيَعِهم وبيوت نيرانهم، ولا يُتركون أن يُحْدِثوا ما لم يكن، ولا يزيدون في البنيان لا سَعةً ولا ارتفاعاً، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلُّوا فيها، ومتى أَحْدَثوا زيادةً وَجَبَ نَقْضُها. ويُنقض ما وُجد في بلاد الحرب من البِيَع والكنائس. وإنما لم يُنْقَضْ ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة؛ لأنها جرت مَجْرَى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة. ولا يجوز أن يُمَكَّنوا من الزيادة؛ لأنَّ في ذلك إظهارَ أسباب الكفر. وجائزٌ أن يُنقض المسجد ليعاد بنيانه؛ وقد فعل ذلك عثمانُ ﷺ بمسجد النبيِّ ﷺ[١].

السادسة: قرئ: «لهدمت» بتخفيف الدَّال وتشديدها[٢]. ﴿صَوَامِعُ﴾ جمعُ صوْمعة، وزنها فَوْعلة، وهي بناءٌ مرتفعٌ حديدُ الأعلى؛ يقال: صمَّع الثريدة، أي: رفَّع رَأْسَها وحَدَّدَه. ورجلٌ أَصْمعُ القلب، أي: حادُّ الفِطْنة. والأصمعُ من الرجال: الحديدُ القول. وقيل: هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم. وكانت قبل الإسلام مختصَّةً برهبان النصارى، وبعُبَّاد الصابئين؛ قاله قتادة. ثم استُعمل في مئذنة المسلمين[٣].

والبِيَعُ جمع بِيعة، وهي كنيسةُ النصارى. وقال الطبريُّ: وقيل: هي كنائس اليهود. ثم أَدْخَل عن مجاهدٍ ما لا يقتضي ذلك[٤].

---

(١) ينظر ما ورد في توسيع عثمان لمسجد النبي ﷺ تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٧ .

(٢) قرأ ابن كثير ونافع: «لهُدِمَت» بتخفيف الدال، والباقون بتشديدها. السبعة ص٤٣٨ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩ ، والطبري ١٦/ ٥٨١ بلفظ: هي للصابئين.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٨٣ ، وخبر مجاهد الذي أخرجه الطبري في هذا الموضع هو قوله: ﴿وَبِيَعٌ﴾ قال: وكنائس. ولم يذكر اليهود فيه.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قال الزجَّاج والحسن: هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية: صَلُوتا[١]. وقال أبو عبيدة: الصلوات بيوتٌ تُبنى للنصارى في البراري يصلُّون فيها في أسفارهم، تسمَّى صلوتا، فعرِّبت فقيل: صلوات.

وفي «صلوات» تسعُ قراءات ذكرها ابن عطية[٢]: صَلْوات، صِلْوات، صُلْوات[٣]، صُلُوت على وزن فُعول[٤]، صُلُوب بالباء بواحدةٍ جمع صليب[٥]، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول، صُلُوات بضمِّ الصاد واللام وألفٍ بعد الواو، صُلُوثا بضمِّ الصاد واللام وقَصْر الألف بعد الثاء المثلَّثة، صِلْوِيثَا بكسر الصاد والثَّاء المثلَّثة[٦].

وذكر النحاس[٧]: وروي عن عاصم الجَحْدَرِيِّ أنه قرأ: «وصُلُوت» [بضم الصاد والتاء المُعْجَمة بنقطتين]. وروي عن الضحاك: «وصلُوث» بالثاء معجَمة بثلاث، ولا أدري أفتَحَ الصَّادَ أم ضمَّها؟

قلت: فعلَى هذا تجيءُ هنا عَشْرُ قراءات.

وقال ابن عباس: الصلواتُ الكنائس. أبو العالية: الصلواتُ مساجدُ الصابئين. ابن زيد: هي صلوات المسلمين، تنقطع إذا دخل عليهم العدوُّ وتُهدَم المساجد[٨]؛ فعلى هذا استُعير الهدْمُ للصلوات من حيث تُعَطَّل، أو أراد: موضعَ صلوات، فحذف

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ١٦/ ٥٨٤ عن الضحاك، وخبر الحسن ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وفيه: صلوثا، بالثاء.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٦ عن جعفر بن محمد.

(٤) في (د) و(م): صلولى على وزن فعولى، وهو تصحيف.

(٥) قال أبو حيان في البحر ٦/ ٣٧٥: وهو جمع شاذ، أعني جمع فَعيل على فُعُول.

(٦) في المحرر الوجيز: صِلْويثا بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٨) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٦/ ٥٨٣ - ٥٨٥.

المضاف. وعلى قول ابن عباس والزجَّاج وغيرِهم يكون الهدم حقيقةً. وقال الحسن: هَدْمُ الصلواتِ تَرْكُها[١]. قُطْرُب: هي الصوامع الصغار، ولم يُسمع لها واحد.

وذهب خَصِيف إلى أنَّ القَصْدَ بهذه الأسماء تقسيمُ مُتَعبَّدات الأمم. فالصوامعُ للرُّهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجدُ للمسلمين. قال ابن عطية[٢]: والأَظْهَرُ أنها قُصِد بها المبالغةُ في ذكر المتعبَّدات. وهذه الأسماءُ تشترك الأمم في مسمَّياتها؛ إلَّا البِيعةَ، فإنها مختصَّةٌ بالنصارى في لغة العرب. ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأمم التي لها كتابٌ على قديم الدهر. ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته، ولا يوجد ذكرُ الله إلَّا عند أهل الشرائع.

وقال النحاس[٣]: «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله»: الذي يجبُ في كلامِ العرب على حقيقةِ النظر أن يكون «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله» عائداً على المساجد لا على غيرها؛ لأنَّ الضمير يليها. ويجوز أن يعود على «صوامع» وما بعدها، ويكون المعنى: وقتَ شرائعهم وإقامَتِهم الحقَّ.

السابعة: فإن قيل: لِمَ قدِّمت مساجدُ أهل الذمّة ومصلَّياتُهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدمُ بناءً. وقيل: لقُرْبها من الهَدْم وقُرْبِ المساجد من الذِّكر، كما أخَّر السابقَ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قوله[٤] تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: مَن ينصُرُ دينَه ونبيَّه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ أي: قادر. قال الخطابيُّ: القَوِيُّ يكون بمعنى القادر، ومَن قَوِيَ على شيء

(١) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/٤١٨ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/١٢٥ ، وما قبله منه، وقول خصيف أخرجه النحاس في معاني القرآن ٤/٤١٧-٤١٨ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/١٠١ .

(٤) قبلها في النسخ عدا (ظ): الثامنة.

فقد قَدر عليه. ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: جليل شريف؛ قاله الزجاج[١]. وقيل: الممتنع الذي لا يُرام. وقد بيَّنَّاهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قال الزجَّاج: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ نصبٍ رَدًّا على «مَن»، يعني في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقال غيره: «الذين» في موضع خفضٍ ردًّا على قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، ويكون «الذين إن مكَّناهم في الأرض» أربعةً من أصحاب رسول الله ﷺ لم يمكَّن في الأرض غيرهم[٣].

وقال ابن عباس: المرادُ المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان. وقال قتادة: هم أصحاب محمدٍ ﷺ. وقال عِكرمةُ: هم أهلُ الصلوات الخمس[٤]. وقال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة، إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة. وقال ابن أبي نِجيح: يعني الولاة[٥].

وقال الضحَّاك: هو شَرْطٌ شَرَطَه الله عزَّ وجلَّ على مَن آتاه المُلْك[٦]، وهذا حسن.

قال سهل بن عبد الله: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر واجبٌ على السلطان

---

(١) كذا في النسخ، ولعله: الزجَّاجي، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، والكلام في كتابه اشتقاق أسماء الله ص٢٣٧ . وقول الزجاج الذي في معاني القرآن له ١/ ٢٨٠ : معنى «عزيز»: لا يعجزونه، ولا يعجزه شيء.

(٢) ص ٢٠١ و ٢٦٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣١ .

(٤) ذكر قولي قتادة وعكرمة الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٤ .

(٥) ذكر قولي الحسن وابن أبي نجيح النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ عن قتادة بلفظ: هذا شرط الله على هذه الأمة، وعزاه لابن أبي حاتم ولم نقف عليه عن الضحاك.

وعلى العلماء الذين يأتونه. وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأنَّ ذلك لازمٌ له واجبٌ عليه، ولا يأمروا العلماء فإنَّ الحجة قد وجبت عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ، أي: كان قبلك أنبياءُ كُذِّبوا فصَبَروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين، فاقتدِ بهم واصْبِرْ. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: كذَّبه فرعونُ وقومُه. فأمَّا بنو إسرائيل فما كذَّبوه، فلهذا لم يَعْطِفه على ما قَبْلَه فيكون: وقوم موسى. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أخَّرتُ عنهم العقوبة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فعاقبتهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامٌ بمعنى التغيير، أي: فانظُرْ كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النِّعم بالعذاب والهلاك، فكذلك أفعلُ بالمكذبين من قريش. قال الجوهريّ[(١)]: النكيرُ والإنكار: تغييرُ المنكر، والمُنْكَر واحدُ المناكير.

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: أهلكنا أهلَها. وقد مضى في «آل عمران»[(٢)] الكلامُ في كأين. ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: بالكفر ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تقدَّم في «الكهف»[(٣)].

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال الزجَّاج: «وبئرٍ معطلةٍ» معطوفٌ على «مِن قريةٍ»، أي: ومِن أهلِ قريةٍ ومِن أهلِ بئر. والفرَّاء[(٤)] يذهب إلى أنَّ «وبئرٍ» معطوفٌ

---

(١) في الصحاح (نكر).

(٢) ٥/٣٤٩.

(٣) ١٣/٢٨٥ - ٢٨٦.

(٤) في معاني القرآن ٢/٢٢٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/١٠٢ وما قبله منه، ولم نقف على قول الزجاج في معانيه.

على «عروشِها».

وقال الأصمعيُّ: سألتُ نافع بنَ أبي نعيم: أيُهمز[1] البئر والذئب؟ فقال: إن كانت العربُ تهمزُهما فاهمِزْهما. وأكثر الرواة[2] عن نافعٍ بهَمْزِهما إلّا وَرْشاً، فإنَّ روايته عنه بغيرِ همزٍ فيهما، والأصلُ الهمز.

ومعنى «معطَّلةٍ»: متروكة؛ قاله الضحاك[3]. وقيل: خالية من أهلها؛ لهلاكهم. وقيل: غائرة الماء. وقيل: معطَّلة من دِلائها وأَرْشِيَتها[4]. والمعنى متقارب.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحَّاك ومقاتل: رفيع طويل[5]. قال عديّ بن زيد:

شاده مَرْمَراً وجَلَّله كِلْـ ـساً فللطير في ذُراه وُكورُ[6]

أي: رَفَعه. وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمةُ ومجاهد: مجصَّص[7]، من الشِّيد، وهو الجصّ. قال الرَّاجِز[8]:

لا تَحْسَبَنّي وإن كنتُ امرأً غَمِراً كحيَّة الماء بين الطِّينِ والشِّيدِ[9]

---

(١) في (ظ): أتهمز.

(٢) في (ظ): الرواية، وفي إعراب القرآن: الروايات.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٢٨ وقراءة ورش عن نافع في السبعة ص٣٤٦ و ٤٣٨، وينظر ما سلف ١١/ ٢٧٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣]. وخبر الضحاك أخرجه الطبري ١٦/ ٥٩٢: بلفظ لا أهل لها.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١، والأرشية جمع رِشاء، وهو الحبل. اللسان (رشا).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٩١، وأخرجه عن الضحاك الطبري ١٦/ ٥٩٤.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٧١، والكامل ١/ ١٣٢، والشعر والشعراء ١/ ٢٢٦، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٥، والنكت والعيون ٤/ ٣١. وقوله: وُكور، هو جمع وَكْر، وهو عُشُّ الطائر حيث كان في جبل أو شجر.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٥٩٢ - ٥٩٣، وأخرجه عن عكرمة وعطاء أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩.

(٨) كذا قال المصنف والطبري ١٦/ ٥٩٤، والصواب أن البيت من البسيط، وقائله الشماخ بن ضرار.

(٩) ديوان الشماخ ص١٢١، والكامل ١/ ٣١، واللسان غمر، وذكر الطبري ١٦/ ٥٩٤ عجزه، ووقع فيه =

وقال امرؤ القيس:

ولا أُطُـمـاً إلَّا مَـشِـيـداً بـجَـنْـدَلِ[(١)]

وقال ابن عباس: «مَشِيدٍ» أي: حَصِين. وقاله الكلبيّ[(٢)]. وهو مَفْعِلٌ بمعنى مفعول، كمبيع بمعنى مبيوع. وقال الجوهريّ[(٣)]: والمشِيد: المعمول بالشِّيد. والشِّيد ـ بالكسر ـ: كلُّ شيءٍ طلَيتَ به الحائطَ من جِصٍّ أو بَلاط[(٤)]، وبالفتح المصدر. تقول: شاده يَشِيدُه شَيْداً: جَصَّصه. والمُشَيَّد؛ بالتشديد: المطوَّل. وقال الكسائيُّ: «المَشِيد» للواحد، من قوله تعالى: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾. والمُشَيَّد للجمع[(٥)]، من قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الكلام مضمَرٌ محذوفٌ تقديره: وقصرٍ مَشِيدٍ مثلها معطَّل.

ويقال: إنَّ هذه البئرَ والقصرَ بحضرموت معروفان، فالقصرُ مُشْرِفٌ على قُلَّةِ جبل[(٦)] لا يُرتَقى إليه بحال، والبئر في سَفْحه لا تُقِرُّ الريح شيئاً سقط فيه إلَّا أخرجته. وأصحابُ القصورِ ملوكُ الحضر، وأصحابُ الآبار ملوكُ البوادي، أي: فأهلكنا

= وفي الديوان: الطِّيِّ، بدل: الطين، وفي اللسان بدلاً منها: الصخر، وقال صاحبه: رجل غُمر: لا تجربة له بحرب ولا أمر، ولم تحنّكه التجارب.

(١) وصدره: وتيماء لم يترك بها جذع نخلة، وهو في ديوانه ص٢٥، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٤. قال شارح الديوان: تيماء: اسم موضع، والأُطُم: البيت المسطَّح، يقول: لم يدع هذا السَّيل بيتاً إلا هدَّمه، إلا هذا المشيد بجندل.

(٢) ذكره عن الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في الصحاح (شيد).

(٤) كذا في النسخ، ومختار الصحاح (شيد)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٩٤، واللسان (شيد) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): بلاط بالباء غلط، والصواب: ملاط بالميم؛ لأن البلاط حجارة لا يُطلى بها، وإنما يُطلى بالملاط، وهو الطين. اهـ. وقد وقع في مطبوع الصحاح: ملاط بالميم. وينظر مجاز القرآن ٢/ ٥٣.

(٥) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): المشيَّد للجمع غلط، وإنما المشيَّدة جمع المشيَّد. وينظر اللسان (شيد).

(٦) أي: قمَّته وأعلاه. ووقع في (ظ): تلة جبل.

هؤلاء وهؤلاء[(١)].

وذكر الضحَّاك وغيره ـ فيما ذكر الثعلبيُّ وأبو بكر محمد بن الحسن المُقْرِئ[(٢)] وغيرهما ـ أنَّ البئر الرَّسُّ، وكانت بعدن باليمن بحضرَمَوْتَ، في بلدٍ يقال له: حَضُور، نزل بها أربعةُ آلافٍ ممن آمَنَ بصالح، ونَجَوْا من العذاب ومعهم صالح، فمات صالح فسُمِّيَ المكان: حضرموت؛ لأنَّ صالحاً لمَّا حَضَره مات. فبنَوْا حَضُورَ وقعدوا على هذه البئر، وأمَّروا عليهم رجلاً يقال له: العلس بن جلاس بن سويد، فيما ذكر الغزنويُّ. الثعلبيُّ: جلهس بن جلاس. وكان حسنَ السيرة فيهم عاملاً عليهم، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، وكانت البئر تسقي المدينة كلَّها وباديتَها، وجميعَ ما فيها من الدوابِّ والغنم والبقر وغير ذلك؛ لأنها كانت لها بكراتٌ كثيرةٌ منصوبةٌ عليها، ورجالٌ كثيرون موكَّلون بها، وأبازنُ ـ بالنون ـ من رخامٍ ـ وهي شِبْهُ الحياضِ ـ كثيرةٌ تُملأ للناس، وأُخَرُ للدَّوابِّ، وأُخَر للبقر، وأُخرَ للغنم. والقُوَّام يسقون عليها بالليل والنهار يتداولون، ولم يكن لهم ماءٌ غيرها. وطال عمر الملك الذي أمَّروه، فلمَّا جاءه الموت؛ طُليَ بدهنٍ لتبقى صورتُه لا تتغيَّر، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت، وكان ممن يكرمُ عليهم، فلمَّا مات شقَّ ذلك عليهم ورأَوْا أنَّ أمرهم قد فَسَد، وضجُّوا جميعاً بالبكاء، واغتنمها الشيطان منهم، فدخل في جثة الملك بعد موته بأيامٍ كثيرة، فكلَّمهم وقال: إنِّي لم أَمُتْ، ولكنْ تغيَّبتُ عنكم حتى أرى صنيعَكم. ففرِحوا أشدَّ الفرح، وأمر خاصَّته أن يضربوا له حجاباً بينه وبينهم ويكلِّمهم من ورائه؛ لئلَّا يُعرف الموت في صورته. فنصبوا صنماً من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب. وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، وأنه إلهٌ لهم، وذلك كلُّه يتكلَّم به الشيطان على لسانه، فصدَّق كثيرٌ منهم

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١ - ٣٢.

(٢) وهو النقاش، والخبر في تفسيره كما ذكر السهيلي في التعريف والإعلام ص١١٨ ونقل هذا الخبر عنه، وذكره مختصراً عن الضحاك البغوي ٣/ ٢٩١.

وارتاب بعضهم، وكان المؤمن المكذِّب منهم أقلَّ من المصدِّق له، وكلَّما تكلَّم ناصحٌ لهم زُجِر وقُهِر. فأَصْفَقوا[١] على عبادته، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحيُ ينزل عليه في النوم دون اليقظة ـ كان اسمه حنظلة بنَ صفوان ـ فأَعْلَمهم أنَّ الصورة صنمٌ لا روحَ له، وأنَّ الشيطان قد أضلَّهم، وأنَّ الله لا يتمثَّل بالخَلْق، وأنَّ الملِك لا يجوز أن يكون شريكاً لله، ووعَظَهم ونصحهم وحذَّرهم سطوةَ ربِّهم ونقمتَه، فآذَوْه وعادَوْه، وهو يتعهَّدهم بالموعظة ولا يُغِبُّهم بالنصيحة، حتى قتلوه[٢] في السوق وطرحوه في بئر، فعند ذلك أصابتهم النقمةُ، فباتوا شِباعاً رِوَاءً من الماء؛ وأصبحوا والبئرُ قد غار ماؤها وتعطَّل رِشاؤها، فصاحوا بأجمعهم وضجَّ النساء والولدان، وضجَّت البهائم عطشاً، حتى عمَّهم الموتُ وشَمِلهم الهلاك، وخَلَفتهم في أرضهم السباعُ، وفي منازلهم الثعالبُ والضِّباع، وتبدَّلت جنَّاتُهم وأموالُهم بالسِّدْر وشَوْك العِضَاهِ والقَتاد[٣]، فلا يُسمع فيها إلَّا عزيفُ الجنِّ وزئيرُ الأسد، نعوذ بالله من سَطَواته، ومن الإصرار على ما يوجب نَقِماته.

قال السُّهيليُّ[٤]: وأما القصرُ المَشِيدُ؛ فقصرٌ بناه شدَّاد بن عاد بن إرم، لم يُبْنَ في الأرض مثلُه؛ فيما ذكروا وزعموا، وحالُه أيضاً كحال هذه البئرِ المذكورة في إيحاشه بعد الأُنس، وإقفارِه بعد العمران، وإنَّ أحداً لا يستطيع أن يدنوَ منه على أميال؛ لمَا يُسمع فيه من عزيف الجنِّ والأصواتِ المنكَرة، بعد النعيم والعيش الرَّغَد وبَهاءِ المُلْك، وانتظامِ الأهل كالسِّلك، فبادُوا وما عادُوا؛ فذكَرهم الله تعالى في هذه الآية

---

(١) أي: أطبقوا. اللسان (صفق)، وفي التعريف والإعلام: فأجمعوا.

(٢) قوله: لا يُغِبُّهم بالنصيحة، أي: يقدم لهم: النصيحة كل يوم. قال صاحب القاموس (غبب): فلان لا يُغِبُّناعطاؤه، أي: يأتينا كلَّ يوم. ووقع في (ظ): ويحذرهم سطوة ربه ونقمته فقتلوه، بدل قوله: ولا يُغبهم بالنصيحة حتى قتلوه.

(٣) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. والعِضَاه: كل شجر له شوك، وقيل: العضاه اسم يقع على ما عظُم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه. والسدر من العضاه. اللسان (قتد) و(عضه) و(سدر).

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٨ .

موعظةً وعبرةً وتَذْكِرةً، وذِكْراً وتحذيراً من مَغَبَّة المعصية، وسوءِ عاقبةِ المخالفة، نعوذ بالله من ذلك ونستجيرُ به من سوء المآل.

وقيل: إنَّ الذي أهلكهم بختنصَّر، على ما تقدَّم في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الآية:١١]، فتعطَّلت بئرُهم وخرِبت قصورهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفارَ مكة، فيشاهدوا هذه القرى فيتَّعظوا، ويحذَروا عقابَ الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أضاف العقلَ إلى القلب؛ لأنه مَحَلُّه؛ كما أنَّ السمع محلُّه الأذن. وقد قيل: إنَّ العقلَ محلُّه الدماغ، وروي عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة[(١)].

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفرَّاء: الهاء عماد، ويجوز أن يقال: فإنه، وهي قراءةُ عبد الله بن مسعود[(٢)]. والمعنى واحدٌ؛ التذكير على الخبر، والتأنيثُ على الأبصار أو القصة[(٣)]، أي: فإنَّ الأبصار لا تَعْمَى، أو: فإنَّ القصة.

﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارُ العيون ثابتةٌ لهم. ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: عن دَرَك الحقِّ والاعتبار. وقال قتادة: البصرُ الناظِرُ جُعِلَ بُلْغة ومنفعةً، والبصرُ النافعُ في القلب[(٤)].

وقال مجاهد: لكلِّ عينٍ أربعُ أَعْيُن، يعني لكلِّ إنسانٍ أربعُ أعين: عينانِ في رأسه

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١١/ ٢٩ : وفيه خلاف مشهور؛ مذهب أصحابنا وجماهيرِ المتكلمين أنه في القلب، وقال أبو حنيفة: هو في الدماغ. اهـ. وذكره عن أبي حنيفة أيضاً أبو العباس في المفهم ٤/ ٤٩٥ وقال: وما أظنها عنه صحيحة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٨ ، وذكرها عن ابن مسعود أيضاً الطبري ١٦/ ٥٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٢ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٢٢ . وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ .

لدُنْياه، وعينانِ في قلبه لآخِرته، فإنْ عَمِيتْ عينا رأسِه وأبصرَتْ عينا قلبِه لم يضرَّه عماهُ شيئاً، وإن أَبْصَرتْ عينا رأسِه وعَمِيَتْ عينا قلبِه لم يَنْفَعه نظرهُ شيئاً[١].

وقال قتادة وابن جُبير: نزلت هذه الآية في ابن أُمِّ مَكْتُومِ الأعمى[٢]. قال ابن عباس ومقاتل: لمَّا نزل: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أمِّ مكتوم: يا رسول الله، فأنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾. أي: مَن كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام، فهو في الآخرة في النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وهو قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠][٤]. وقيل: نزلت في أبي جهل ابن هشام، وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢][٥].

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: في إنزال العذاب. قال الزجَّاج: استعجَلوا العذابَ فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء، وقد نزل بهم في الدنيا يومَ بَدْر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني من الأيام التي خَلَق الله فيها السماوات والأرض[٦]. عكرمة: يعني

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٢ عن قتادة، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٢٩١، وفيه أن قول النضر هو: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء.

(٥) الصواب أن قول أبي جهل: إن كان هذا هو الحق. . .، نزل فيه الآيتان (٣٣ و ٣٤) من سورة الأنفال، كما في صحيح البخاري (٤٦٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٩٦) عن أنس ﷺ، وسلف ٩/ ٤٩٥.

(٦) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٩٦ - ٥٩٧.

من أيام الآخرة[١]؛ أَعْلَمهم الله إذ استعجلوه[٢] بالعذاب في أيامٍ قصيرة أنه يأتيهم به في أيامٍ طويلة.

قال الفرَّاء: هذا وعيدٌ لهم بامتداد عذابِهم في الآخرة، أي: يومٌ من أيام عذابهم في الآخرة ألفُ سنة[٣].

وقيل: المعنى: وإنَّ يوماً في الخوف والشدَّة في الآخرة كألفِ سنةٍ من سِنِي الدنيا فيها خوفٌ وشدة، وكذلك يومُ النعيم قياساً.

وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿مِما يَعُدُّون﴾ بالياء المثنَّاة تحت، واختاره أبو عبيد لقوله: «ويستعجِلونك». والباقون بالتاء على الخطاب[٤]، واختاره أبو حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أَمْهلتُها مع عُتُوِّها ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني أهلَ مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذرٌ مُخوِّف. وقد تقدَّم في «البقرة» الإنذارُ في أوّلها[٥]. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أُبيِّن لكم ما

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٩٨ .

(٢) في (ظ): أعلمهم الله أنهم إذا استعجلوا.

(٣) في معاني القرآن للفراء ٢/٢٢٨ : يوم من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة مما تعدون في الدنيا.

(٤) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص١٥٨ .

(٥) ١/٢٨١ .

تحتاجون إليه من أمرِ دينكم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالِ آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مُغالِبين مُشاقِّين؛ قاله ابن عباس[(١)]. الفَرَّاء[(٢)]: مُعانِدين. وقال عبد الله بن الزبير: إنما هي: «معجِّزين»، أي: مثبِّطين عن الإسلام[(٣)]. وقال الأخفش: «معاجزين»[(٤)]: مسابِقين. الزجَّاج[(٥)]: أي: ظانِّين أنَّهم يُعْجِزوننا؛ لأنهم ظنُّوا أنْ لا بَعْثَ، وظنُّوا أنَّ الله لا يقدر عليهم. وقاله قتادة[(٦)]. وكذلك معنى قراءةِ ابنِ كثير وأبي عمرو: ﴿مُعَجِّزين﴾ بلا ألفٍ مشدَّداً[(٧)]. ويجوز أن يكون معناه: أنهم يعجِّزون المؤمنين في الإيمان بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام وبالآيات؛ قاله السُّدِّيّ[(٨)]. وقيل: أي: يَنْسُبون مَن اتَّبع محمداً ﷺ إلى العجز، كقولهم: جهَّلْتُه وفسَّقْتُه[(٩)]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٠ - ٦٠١ دون قوله: مغالبين.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩. وسقط من (م) قوله: إنما هي معجزين أي.

(٤) في (م): معاندين، وليست في (خ)، والمثبت من باقي النسخ، وذكر هذا القول مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٣ دون نسبة.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٦) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٤٠ و ١٢٦، والطبري ١٦/ ٦٠١.

(٧) السبعة ص٤٣٩، والتيسير ص١٥٨.

(٨) ذكره عن السدي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٣ بلفظ: مثبطين لمن أراد اتِّباع النبيِّ ﷺ.

(٩) الحجة للفارسي ٥/ ٢٨٤.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ وتَلا. و﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: قراءتِهِ وتلاوته. وقد تقدَّم في البقرة[١].

قال ابن عطيةَ: وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ» ذكره مَسْلمةُ بن القاسم بن عبد الله[٢]، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس[٣]. قال مسلمةُ: فوجَدْنا المُحَدَّثين معتصِمين بالنبوَّة - على قراءةِ ابن عباس - لأنَّهم تكلَّموا بأمورٍ عاليةٍ من أنباء الغيب خَطَرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة، فأصابوا فيما تكلَّموا وعُصموا فيما نَطَقوا، كعمر بن الخطاب في قصة سارية[٤]، وما تكلَّم به من البراهين العالية.

قلت: وقد ذكر هذا الخبرَ أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردِّ» له: وقد حدَّثني أبي رحمه الله، حدّثنا عليّ بنُ حرب، حدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن عمرو، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «وما أرسلنا مِن قَبْلك مِن رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ»، قال أبو بكر: فهذا حديثٌ لا يؤخذ به على أنَّ ذلك قرآن. والمحدَّث هو الذي يوحَى إليه في نومه؛ لأنَّ رُؤْيا الأنبياءِ وَحْيٌ.

الثانية: قال العلماء: إنَّ هذه الآيَةَ مشكلةٌ من جهتين: إحداهما: أنَّ قوماً يَرَوْن أنَّ الأنبياء صلواتُ الله عليهم فيهم مُرْسَلون وفيهم غيرُ مُرْسَلين. وغيرهم يذهب إلى

---

(١) ٢/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) أبو القاسم الأندلسي القرطبي، المحدِّث الرحَّال، قال ابن الفَرَضي: سمعت مَن ينسبه إلى الكذب، وقال لي محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج: لم يكن كذاباً، بل كان ضعيف العقل، قال: وحُفظ عليه سوء كلام في التشبيه. توفي سنة (٣٥٣هـ). تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٢/ ١٣٠، والسير ١٦/ ١١٠.

(٣) أخرجه بهذا الإسناد إسحاق بن راهويه (١٠٥٩)، وعلقه البخاري عنه بإثر الحديث (٣٦٨٩).

(٤) أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٢٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢٥٣٧)، والبيهقي في الاعتقاد ص٢٠٣، وابن عساكر في تاريخه ٢٠/ ٢٤ - ٢٦. وحسن إسناده ابن كثير وابن حجر رحمهما الله، وينظر تفصيل الكلام فيه في البداية والنهاية ١٠/ ١٧٣ - ١٧٦، والإصابة ٤/ ٩٧ - ٩٨.

أنه لا يجوز أن يقال نبيٌّ حتى يكون مرسَلاً. والدليلُ على صحة هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فأوجب للنبيِّ الرسالةَ. وأنَّ معنى «نَبيّ»: أنبأ عن الله عزَّ وجلَّ، ومعنى أنبأ[1] عن الله عزَّ وجلَّ الإرسالُ بعينه.

وقال الفرَّاء: الرسولُ الذي أُرسل إلى الخلق بإرسال جبريلَ عليه السلام إليه عِيَاناً، والنبيُّ الذي تكون نبوَّته إلهاماً أو مناماً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً[2]. قال المهدوِيُّ: وهذا هو الصحيحُ، أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

وكذا ذكر القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[3] قال: والصحيحُ والذي عليه الجمَّاءُ الغفيرُ[4] أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، واحتجَّ بحديث أبي ذرٍّ، وأنَّ الرسلَ من الأنبياء ثلاث مئة وثلاثةَ عَشَر، أوَّلُهم آدمُ، وآخِرُهم محمدٌ ﷺ[5].

والجهةُ الأخرى التي فيها الإشكالُ وهي:

الثالثة: الأحاديثُ المروِيَّة في نزول هذه الآية، وليس منها شيءٌ يصحُّ. وكان مما تموَّه[6] به الكفار على عوامِّهم قولُهم: حقُّ الأنبياء ألَّا يَعجِزوا عن شيءٍ، فلِم لا يأتينا محمدٌ بالعذاب وقد بالَغنا في عداوته؟ وكانوا يقولون أيضاً: ينبغي ألَّا يجريَ عليهم سَهْوٌ وغلط، فبيَّن الربُّ سبحانه أنهم بَشَر، والآتي بالعذاب هو الله تعالى على

---

(١) في (ظ): وأن معنى النبي المنبأ عن الله عزَّ وجلَّ ومعنى الإنباء. . . ، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٢ - ١٠٣ ، والكلام منه.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩ ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام دقيق في هذه المسألة ملخصه: أن النبي هو الذي ينبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأ اللهُ به، فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسَل هو إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول. ينظر كتاب النبوات ص٢٥٥ .

(٣) ١/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): الجم الغفير. ويقال: جاؤوا جمًّا غفيراً، وجمَّ الغفير، وجمَّاءَ الغفير، والجمَّاءَ الغفير، وجمَّاءً غفيراً، أي: جميعاً. القاموس (غفر).

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨) مطولاً، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٦) في (ظ): موه.

ما يريد، ويجوز على البشر السَّهوُ والنِّسْيانُ والغلطُ؛ إلى أن يُحكم الله آياته. ويَنْسَخ حِيَل الشيطان.

روى اللَّيث عن يونس، عن الزُّهريِّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلمَّا بلغ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ سها فقال: إنَّ شفاعتهم تُرْتَجَى. فلقيَه المشركون والذين في قلوبهم مرضٌ، فسلَّموا عليه وفرحوا، فقال: «إنَّ ذلك من الشيطان». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[١]. قال النحاس[٢]: وهذا حديثٌ منقطِعٌ، وفيه هذا الأمرُ العظيم، وكذا حديثُ قتادةَ وزاد فيه: «وإنهنَّ لهنَّ الغَرَانِيق العُلا»[٣]. وأَقْطَعُ من هذا ما ذكره الواقديُّ عن كثير بن زيد، عن المطَّلب بن عبد الله قال: سجد المشركون كلُّهم إلَّا الوليد بنَ المغيرة؛ فإنه أخذ تراباً من الأرض، فرفعه إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً، ويقال: إنه أبو أُحَيْحَةَ سعيد بن العاص، حتى نزل جبريل عليه السلام، فقرأ عليه النبيُّ ﷺ [هذا]، فقال: «ما جئتك به»! وأنزل الله: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. قال النحاس[٤]: وهذا حديثٌ منكَر منقطِعٌ، ولا سيما من حديث الواقديّ. وفي البخاريِّ أنَّ الذي أخذ قبضةً من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بنُ خلف[٥]. وسيأتي تمامُ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦ ، والناسخ والمنسوخ له ١/ ٤٤٨ و ٢/ ٥٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٨ - ٦٠٩ من طريق يونس بهذا الإسناد.

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٨ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٦١٢ .

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٩ ، وخبر الواقدي أخرجه مطولاً ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٠٥ ، والواقدي متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٥) صحيح البخاري (٤٨٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَن خَلْفَه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وأخرجه بنحوه أحمد (٣٦٨٢)، ومسلم (٥٧٦) بنحوه، وليس فيه اسم الذي لم يسجد.

كلام النحاس على الحديث ـ إن شاء الله ـ آخِرَ الباب.

قال ابن عطية[١]: وهذا الحديثُ ـ الذي فيه: هي الغرانقة[٢] العلا ـ وقع في كتب التفسير ونحوِها، ولم يُدْخِله البخاريُّ ولا مسلمٌ، ولا ذَكَره في علمِي مصنَّفٌ مشهورٌ، بل يقتضي مذهبُ أهلِ الحديث أنَّ الشيطان ألقَى، ولا يعيِّنون هذا السببَ ولا غيره. ولا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة.

ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء، فالذي في التفاسير ـ وهو مشهورُ القول ـ أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّم بتلك الألفاظ على لسانه. وحدَّثني أبي ﷺ أنه لَقِيَ بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلِّمين مَن قال: هذا لا يجوز على النبيِّ ﷺ وهو المعصومُ في التبليغ، وإنَّما الأمرُ أنَّ الشيطان نَطَقَ بلفظٍ أسمعه الكفارَ عند قول النبيِّ ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، وقرَّب صوته من صوت النبيِّ ﷺ حتى الْتَبس الأمرُ على المشركين وقالوا: محمدٌ قرأها. وقد روي نحوُ هذا التأويل عن الإمام أبي المَعَالي.

وقيل: الذي ألقى شيطانُ الإنس؛ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. قتادة: هو ما تلاه ناعساً[٣].

وقال القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[٤]؛ بعد أن ذكر الدليل على صِدْق النبيِّ ﷺ، وأنَّ الأمة أجمعت فيما طريقُه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيءٍ بخلافِ ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً[٥]: اعلم ـ أكْرمكَ الله ـ أنَّ لنا في الكلام على مُشْكِلِ هذا الحديث مأخَذين: أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩.

(٢) في (د) و(م): الغرانيق، وهما روايتان كما ذكر ابن عطية بعد ذلك.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٨. قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٩٨: وهذا لا يصح؛ إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة.

(٤) ٢/ ٢٨٩.

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): أو غلطاً، وفي (د) و(م): وغلطاً، والمثبت من الشفا ٢/ ٢٨٥.

أمَّا المأخذُ الأوّل؛ فيكفيك أنَّ هذا حديثٌ لم يخرِّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسندٍ سليمٍ متَّصِلٍ ثقةٌ؛ وإنَّما أُولِع به وبمثله المفسِّرون والمؤرخون المولَعون بكلِّ غريب، المتلقِّفون من الصحف كلَّ صحيحٍ وسقيم. قال أبو بكر البزَّار: وهذا الحديثُ لا نعلمه يُروى عن النبيِّ ﷺ بإسنادٍ متَّصِلٍ يجوزُ ذكره، إلَّا ما رواه شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب ـ الشكُّ في الحديث ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان بمكة... وذكر القصة. ولم يُسنده عن شعبةَ إلَّا أمية بنُ خالد، وغيرُه يُرسلُه عن سعيد بن جبير. وإنَّما يُعرفُ عن الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس[1]. فقد بيَّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يُعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه مع وقوع الشكِّ فيه الذي[2] ذكرناه، الذي لا يُوثَق به ولا حقيقةَ معه. وأمَّا حديثُ الكلبيِّ فمما لا تجوز الروايةُ عنه ولا ذِكْره؛ لقوّة ضَعْفِه وكذبه، كما أشار إليه البزَّار رحمه الله. والذي منه في الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «والنجم» بمكةَ، فسجد، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس[3]؛ هذا توهينُه من طريق النقل.

---

(١) كشف الأستار (٢٢٦٣)، دون قوله: ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، فهو من الشفا. والحديث أخرجه أيضاً بالإسناد المذكور الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠).

(٢) في الشفا: كما.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سلف نحوه من حديث ابن مسعود ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح. اهـ. وقال الرازي ٢٣/ ٥٠ : أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول... وروي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضعٌ من الزنادقة، وصنف فيه كتاباً. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. اهـ
وأما رد الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٣٩ على القاضي عياض وابن العربي في توهينهما لهذه القصة، وقوله: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً. فقد قال الآلوسي رحمه الله في تفسيره ١٧/ ١٨٢ : لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد؛ فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلَّاء عارفون بالغث والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحقِّ فيه فلم يرووه إلا مردوداً... ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين، وفات ذلك القائلَ بالقبول.

وأما المأخذُ الثاني فهو مَبْنيٌّ على تسليم الحديث لو صحّ. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كلِّ حالٍ فقد أجاب أئمةُ المسلمين عنه بأجوبة؛ منها الغَثّ والسَّمين. والذي يظهر ويترجَّح في تأويله ـ على تسليمه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان كما أمره ربُّه يرتِّلُ القرآن ترتيلاً، ويفصِّل الآيَ تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصُّد الشيطان لتلك السَّكتات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحاكياً نغمةَ النبيِّ ﷺ بحيث يسمعه مَن دنا إليه من الكفار، فظنُّوها من قول النبيِّ ﷺ وأشاعوها. ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين؛ لحِفْظِ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتَحقُّقِهم من حالِ النبيِّ ﷺ في ذمِّ الأوثان وعَيْبِها ما عُرف منه، فيكون ما رُويَ من حزن النبيِّ ﷺ لهذه الإشاعةِ والشُّبهة وسببِ هذه الفتنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[1].

قلت: وهذا التأويلُ أَحْسَنُ ما قيل في هذا، وقد قال سليمان بن حرب: إنَّ «في» بمعنى عند، أي: ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوةِ النبيِّ ﷺ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا﴾ [الشعراء:١٨] أي: عندنا. وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق، وإليه أشار القاضي أبو بكر بنُ العربي، وقال قبله: إنَّ هذه الآيةَ نصٌّ في غرضنا، دليلٌ على صحة مذهبنا، أصلٌ في براءة النبيِّ ﷺ مما يُنْسَب إليه أنه قاله، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته. فأخبر الله تعالى أنَّ مِن سنَّته في رسله وسيرته في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه مِن قِبَلِ نَفْسِه كما يَفْعَل سائرَ المعاصي، تقول: ألقيتُ في الدار كذا، وألقيتُ في الكيس كذا. فهذا نصٌّ في الشَّيطان أنه زاد في الذي قاله النبيُّ ﷺ، لا أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّمَ به. ثم ذَكَر معنى كلامِ عياض إلى أن قال: وما هُدِي لهذا إلَّا الطبريُّ لجلالة قَدْرِه وصفاءِ فِكْرِه، وسَعَةِ باعِه

(١) الشفا ٢/٢٩٨ - ٣٠١.

في العلم، وشِدَّة ساعده في النَّظَر، وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصوَّب على هذا المرمى، وقَرْطَسَ بعد ما ذَكَر في ذلك رواياتٍ كثيرةً كلُّها باطلٌ لا أصلَ لها، ولو شاء ربُّك لَمَا رواها أحدٌ ولا سَطرها، ولكنه فعَّالٌ لِمَا يريد(١).

وأمَّا غيرُه من التأويلات مِمَّا(٢) حكاه قومٌ: أنَّ الشيطان أكرهه حتى قال كذا، فهو مُحال؛ إذ ليس للشيطان قدرةٌ على سَلْبِ الإنسان الاختيارَ، قال الله تعالى مُخبِراً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم:٢٢]، ولو كان للشَّيطان هذه القدرةُ لَمَا بقي لأحدٍ من بني آدم قوّةٌ في طاعة(٣)، ومَن توهَّم أنَّ للشيطان هذه القوّةَ(٤) فهو قولُ الثَّنَوِيَّة والمجوس في أنَّ الخير من الله والشرَّ من الشيطان.

ومَن قال: جرى ذلك على لسانه سهواً؛ قال: لا يَبْعُدُ أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حِفْظِه، فجرى عند قراءة السورةِ ما كان في حِفْظِه سهواً، وعلى هذا يجوز السَّهْوُ عليهم ولا يُقَرُّون عليه، وأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ تمهيداً لعُذْرِه وتسليةً له؛ لئلَّا يقال: إنه رجع عن بعض قراءته. وبَيَّن أنَّ مثلَ هذا جرى على الأنبياء سهواً، والسَّهوُ إنَّما ينتفي عن الله تعالى(٥).

وقد قال ابن عباس: إنَّ شيطاناً يقال له: الأبيض، كان قد أتى رسولَ الله ﷺ في صورة جبريلَ عليه السلام، وألقى في قراءة النبيِّ ﷺ: تلك الغرانيقُ العُلا، وإن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٠ - ١٢٩١، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٦١٠ - ٦١١، وليس في كلامه ما يشير إلى ما نسبه إليه ابن العربي.

(٢) في (د) و(م): فما.

(٣) وينظر أيضاً هذا القول والردود عليه في تفسير الرازي ٢٣/ ٥٣.

(٤) في (ظ): القدرة.

(٥) قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢ ردًّا على هذا القول: وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه تغييرَ المعاني، وتبديلَ الألفاظ، وزيادةَ ما ليس في القرآن، بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة، ولكنه لا يقرُّ على هذا السهو، بل ينبَّه عليه، ويذكَّر به للحين.

شَفَاعتهنَّ لتُرْتَجى. وهذا التأويلُ وإن كان أَشْبهَ ممَّا قَبْلَه[١]، فالتأويلُ الأوّلُ عليه المعوَّل، فلا يُعدَل عنه إلى غيره لاختيارِ العلماء المحقِّقين إياه.

وضَعْفُ الحديثِ مُغْنٍ عن كلِّ تأويل، والحمد لله. وممَّا يدلُّ على ضَعْفِه أيضاً وتَوْهينِه من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] الآيتين؛ فإنهما تَردَّان الخبر الذي روَوْه؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتريَ، وأنه لولا أنْ ثبَّته لكان[٢] يركَنُ إليهم. فمضمونُ هذا ومفهومُه أنَّ الله تعالى عَصَمَه من أن يفتريَ، وثبَّته حتى لم يركنْ إليهم قليلاً، فكيف كثيراً. وهم يروُون في أخبارهم الواهيةِ أنه زاد على الركون والافتراءِ بمدحِ آلهتهم، وأنه قال عليه الصلاة والسلام: افتريتُ على الله وقلتُ ما لم يَقُل. وهذا ضدُّ مفهومِ الآية، وهي تُضعِّفُ الحديثَ لو صحّ، فكيف ولا صحةَ له. وهذا مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ [النساء: ١١٣] قال القُشَيْريُّ: ولقد طالبتْه قريشٌ وثَقِيفٌ إذ مرَّ بآلهتهم أن يُقبِلَ بوجهه إليها، ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك، فما فَعَلَ، ولا كان لِيَفْعَلَ! قال ابن الأنباريِّ: ما قارَبَ الرسول ولا رَكَن[٣]. وقال الزجاج[٤]: أي: كادوا، ودخلت «إنْ» واللام للتأكيد.

وقد قيل: إنَّ معنى «تمنَّى»: حدَّث، لا «تلا»؛ روي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال: إلَّا إذا حدَّث ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قال: في حديثه ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال: فيُبْطِلُ الله ما يلقي

---

(١) وقد ردَّ هذا القول الإمامُ الرازي في تفسيره ٢٣/ ٥٣ بعد أن ذكر خبر ابن عباس بقوله: هذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث!!

(٢) في الشفا ٢/ ٢٩٦ (والكلام منه): لكاد.

(٣) الشفا ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٣ .

الشيطان. قال النحاس[١]: وهذا من أَحْسَنِ ما قيل في الآية وأعلاه وأجلّه. وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل: بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً، ما كان كثيراً.

والمعنى عليه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا حدّثَ نفسَه ألقَى الشيطان في حديثه على جهة الحيْطة، فيقول: لو سألتَ الله عزَّ وجلَّ أن يغنِّمك ليتَّسعَ المسلمون. ويَعْلَمُ الله عزَّ وجلَّ أنَّ الصلاح في غير ذلك، فيُبْطِلُ ما يلقي الشيطانُ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. وحَكَى الكسائيُّ والفرَّاء جميعاً: «تمنَّى»: إذا حدَّث نفسه، وهذا هو المعروفُ في اللغة. وحَكَيَا أيضاً: «تمنَّى»: إذا تلا[٢]. وروي عن ابن عباس أيضاً، وقاله مجاهدٌ والضحَّاك وغيرهما[٣].

وقال أبو الحسن بنُ مَهْدي[٤]: ليس هذا التمنِّي من القرآن والوحيِ في شيء، وإنما كان النبيُّ ﷺ إذا صَفِرَتْ يداه من المال، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال، تمنَّى الدنيا بقلبه ووسوسةِ الشيطان.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أنَّ المعنى: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه؛ وهو اختيارُ الطبريّ[٥].

قلت: قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ الآية، يردُّ حديثَ النَّفْس، وقد قال ابن عطيةَ: لا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنَّما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة[٦]، فالله أعلم.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ ، وما قبله منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٤ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٣) أخرجه عن مجاهد والضحاك الطبري ١٦/ ٦١٠ ، وذكره عن ابن عباس الواحدي ٣/ ٢٧٦ .

(٤) هو علي بن محمد بن مهدي، وقد سلفت ترجمته ٩/ ٣٢٦ .

(٥) في تفسيره ١٦/ ٦١٠ ، وسلف قريباً خبر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩ ، وسلف ص٤٢٦ من هذا الجزء .

قال النحاس[١]: ولو صحَّ الحديثُ واتَّصل إسنادُه؛ لكان المعنى فيه صحيحاً، ويكون معنى سها: أَسْقَطَ[٢]. ويكون تقديره: أفرأيتم اللَّاتَ والعُزَّى، وتمَّ الكلام. ثم أَسْقَط: والغرانيقَ العلا؛ يعني الملائكةَ. فإنَّ شفاعتهم، يعود الضمير على الملائكة. وأمَّا مَن رَوَى: فإنَّهن الغرانيقُ العلا، ففي روايته أجوبةٌ؛ منها: أنْ يكون القولُ محذوفاً كما تَستعمل العرب في أشياءَ كثيرة. ويجوز أن يكون بغير حذفٍ، ويكون توبيخاً؛ لأنَّ قبله: «أفرأيتم»، ويكون هذا احتجاجاً عليهم، فإنْ كان في الصلاة فقد كان الكلام مباحاً في الصلاة.

وقد رُوِيَ في هذه القصةِ أنه كان ممَّا يُقرأ: أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى، ومناةَ الثالثةَ الأُخرى، والغَرانِقَةَ العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجَى. رُوي معناه عن مجاهد[٣]. وقال الحسن: أراد بالغرانيق العُلا الملائكةَ[٤]، وبهذا فسَّر الكلبيُّ الغرانقةَ أنَّها الملائكة. وذلك أنَّ الكفار كانوا يعتقدون [أنَّ] الأوثان والملائكةَ بناتُ الله، كما حَكى الله تعالى عنهم، وردَّ عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]. فأنكر الله كلَّ هذا من قولهم. ورجاءُ الشفاعة من الملائكة صحيحٌ، فلمَّا تأوَّله المشركون على أنَّ المراد بهذا الذِّكر آلهتُهم، ولبَّس عليهم الشيطان بذلك؛ نَسَخَ الله ما أَلقَى الشيطان، وأَحْكَم الله آياتِه، ورَفَع تلاوة تلك اللفظتين اللَّتين وَجد الشيطان بهما سبيلاً للتلبيس، كما نُسخ كثيرٌ من القرآن؛ ورُفعت تلاوته[٥].

قال القُشَيريُّ: وهذا غيرُ سديد؛ لقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يُبْطله، وشفاعةُ الملائكةِ غيرُ باطلة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٣.

(٢) يشير إلى خبر الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن، والذي فيه: سها، وقد سلف ص٤٢٥ من هذا الجزء.

(٣) ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢، وذكره الرازي ٢٣/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) ذكره عن الحسن الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٥.

(٥) الشفا ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عليم» بما أوحى إلى نبيِّه ﷺ. «حكيم» في خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً﴾ أي: ضلالة ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شرك ونفاق، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تَلِينُ لأمر الله تعالى. قال الثعلبيُّ: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الأنبياء يجوز عليهم السَّهوُ والنسيانُ والغلطُ بوسواسِ الشيطان، أو عند شَغْل القلب حتى يغلَط، ثم يُنبَّه ويرجع إلى الصحيح، وهو معنى قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾. ولكن إنَّما يكون الغلطُ على حَسَبِ ما يغلَط أحدُنا، فأمَّا ما يضافُ إليه من قولهم: تلك الغرانيق العلا، فكذِبٌ على النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ فيه تعظيمَ الأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنبياء، كما لا يجوز أن يَقْرأ بعضَ القرآن ثم يُنشد شعراً، ويقول: غلِطتُ وظننتُه[١] قرآناً.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: الكافرين لفي خلافٍ وعصيانٍ ومُشاقَّةٍ لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ. وقد تقدَّم في «البقرة»[٢] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: من المؤمنين. وقيل: أهل الكتاب. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: إنَّ الذي أُحكم من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشعَ وتَسْكُنَ. وقيل: تخلُص. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قرأ أبو حَيْوَة: «وإنَّ اللهَ لَهادٍ الذين آمنوا» بالتنوين[٣]. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) في (ظ): أو ظننته.

(٢) ٢/ ٤١٩ .

(٣) القراءات الشاذة ص٩٦ .

أي: يثبِّتهم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يعني في شكٍّ من القرآن؛ قاله ابن جُريج. وغيرُه: من الدِّين، وهو الصراط المستقيم[1].

وقيل: ممَّا ألقى الشيطان على لسانِ محمدٍ ﷺ، ويقولون: ما بالُه ذَكَرَ الأصنامَ بخيرٍ ثم ارتدَّ عنها؟

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ: «في مُرْيةٍ» بضمِّ الميم، والكسرُ أعرفُ؛ ذكره النحاس[2].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال الضحَّاك: عذابُ يومٍ لا ليلةَ له، وهو يومُ القيامة[3]. النحاس[4]: سمِّي يومُ القيامة عقيماً لأنه ليس يُعْقِبُ بعدَه يوماً مثلَه؛ وهو معنى قولِ الضحَّاك.

والعقيمُ في اللغة عبارةٌ عمَّن لا يكون له ولد، ولمَّا كان الولد يكون بين الأبوين، وكانت الأيامُ تتوالى قبلُ وبعدُ؛ جُعل الإتْباع فيها بالبَعْدية كهيئة الولادة، ولمَّا لم يكن بعد ذلك اليومِ يومٌ؛ وُصف بالعقيم.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادةُ: المراد عذابُ يومِ بدر[5]، ومعنى «عقيم»: لا مِثْلَ له في عِظَمِه؛ لأنَّ الملائكة قاتلتْ فيه. ابن جُريج: لأنهم لم يُنظَروا فيه إلى

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٥ ، وقول ابن جريج أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ .

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٧ ، وأخرجه عن مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٦١٦ - ٦١٧ .

الليل، بل قُتلوا قبل المساء، فصار يوماً لا ليلةَ له[1]. وكذلك يكون معنى قولِ الضحَّاك أنه يومُ القيامة؛ لأنه لا ليلةَ له. وقيل: لأنه لم يكن فيه رأفةٌ ولا رحمةٌ، وكان عقيماً من كلِّ خير، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] أي: التي لا خيرَ فيها، ولا تأتي بمطرٍ ولا رحمة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة هو لله وحدَه لا مُنازِعَ له فيه ولا مُدافِع. والمُلْكُ هو اتساعُ المقدور لمن له تدبير الأمور. ثم بيَّن حُكْمه فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قلت: وقد يَحتمِلُ أن تكون الإشارة بـ «يومئذ» ليوم بَدْر، وقد حكَم فيه بإهلاك الكافر وسعادةِ المؤمن، وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمرَ: «وما يدريكَ لعلَّ الله اطَّلعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم»[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

أفردَ ذِكْرَ المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى.

وسببُ نزولِ هذه الآيةِ أنه لمَّا مات بالمدينة عثمان بنُ مَظْعُون وأبو سلمة بنُ عبد الأسد قال بعض الناس: مَن قُتل في سبيل الله أفضلُ ممن مات حَتْفَ أنفِه، فنزلت

(١) أخرجه الطبري ١٦/٦١٦، وذكره البغوي ٣/ ٢٩٥.

(٢) أخرجه أحمد (٦٠٠)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وسلف ١٠/ ٧٨.

هذه الآية مُسَوِّيةً بينهم، وأنَّ الله يرزق جميعَهم رزقاً حسناً. وظاهِرُ الشريعةِ يدلُّ على أنَّ المقتول أفضلُ. وقد قال بعضُ أهل العلم: إنَّ المقتول في سبيل الله والميتَ في سبيل الله شهيد؛ ولكنْ للمقتول مَزِيَّةُ ما أصابه في ذات الله(١).

وقال بعضهم: هما سواءٌ، واحتجَّ بالآية، وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وبحديث أمِّ حَرام؛ فإنها صُرعت عن دابَّتها، فماتت ولم تُقتل، وقال لها النبيُّ ﷺ: «أنتِ من الأوَّلين»(٢)، وبقول النبيِّ ﷺ في حديث عبد الله بن عَتيك: «مَن خَرَج من بيته مجاهداً(٣) في سبيل الله، فخرَّ عن دابَّته فمات، أو لدغته حيةٌ فمات، أو مات حَتْفَ أنْفِه، فقد وقع أجرُه على الله، ومَن مات قَعْصاً فقد استَوْجَبَ المآب»(٤).

وذكر ابن المبارك عن فَضالةَ بن عبيد في حديثٍ ذَكَر فيه رجلين؛ أحدُهما أصيبَ في غَزاةٍ بِمَنْجَنيقٍ فمات، والآخَرُ مات هناك، فجلس فَضالةُ عند الميت، فقيل له: تركتَ الشهيد ولم تجلس عنده؟! فقال: ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثتُ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ الآيةَ كلَّها(٥).

وقال سليمان بن عامر: كان فَضالةُ برُودِس أميراً على الأرباع، فخُرِج بجنازتي رجلين، أحدُهما قتيلٌ والآخر متوفًّى؛ فرأى مَيْلَ الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٠ .

(٢) التمهيد ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والحديث أخرجه أحمد (٢٧٠٣٢)، والبخاري (٢٧٨٨ ، ٢٧٨٩)، ومسلم (١٩١٢) مطولاً من حديث أم حرام رضي الله عنها.

(٣) في (د) و(م): مهاجراً.

(٤) التمهيد ١/ ٢٣٦ ، وأخرجه أحمد (١٦٤١٤) مطولاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٦ - ٢٧٧ : فيه محمد بن إسحاق مدلس، وبقية رجاله ثقات. قلنا: وفيه محمد بن عبد الله بن عتيك، وهو مجهول الحال. ينظر الميزان ٣/ ٥٩٥ . قوله: قَعْصاً، القَعْص: أن يُضرب الإنسان فيموت مكانه، وأراد بوجوب المآب: حُسْنَ المَرْجِع بعد الموت. النهاية (قعص).

(٥) الجهاد لابن المبارك (٦٦)، والكلام من التمهيد ١/ ٢٣٦ .

فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذي نفسي بيده، ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثت، اقرؤوا قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾[١]. كذا ذكره الثعلبيُّ في تفسيره، وهو معنًى ما ذكره ابن المبارك.

واحتجَّ مَن قال: إنَّ للمقتول زيادةَ فضلٍ بما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَن أُهْرِيق دمُه وعُقر جوادُه». وإذا كان مَن أهريق دمُه وعُقر جوادُه أفضلَ الشهداءِ؛ عُلم أنه مَن لم يكن بتلك الصفة مَفْضُول[٢].

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد على التكثير. الباقون بالتخفيف[٣].

﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥ﴾ أي: الجِنان. قراءةُ أهل المدينة: ﴿مَدخلًا﴾ بفتح الميم، أي: دخولاً. وضمَّها الباقون[٤]، وقد مضى في «سبحان»[٥]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ قال ابن عباس: عليمٌ بنيَّاتهم، حليمٌ عن عقابهم[٦].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ﴾ «ذلك» في موضعِ رَفْعٍ، أي: ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنا عليك. قال مقاتل: نزلت في قوم من مشركي مكةَ؛ لَقُوا قوماً من المسلمين

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٩ . ورُودِس؛ بضم أوله وكسر الدال: جزيرة مقابل الإسكندرية، وقد غزاها معاوية هي وقبرس. معجم البلدان ٣/ ٧٨ .

(٢) التمهيد ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، والحديث أخرجه أحمد (١٥٤٠١)، وأبو داود (١٤٤٩)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٥٨ من حديث عبد الله بن حُبْشي الخثعمي. وأخرجه أحمد (١٤٢١١) من حديث جابر ﷺ.

(٣) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩١ .

(٤) قرأ نافع: «مَدْخلاً» بفتح الميم، والباقون بضمِّها. السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩٥ .

(٥) ١٣/ ١٥٢ - ١٥٣ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٨ دون نسبة.

لِلَيْلتين بقيتا من المحرَّم فقالوا: إنَّ أصحاب محمدٍ يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم؛ فناشدهم المسلمون ألّا يقاتلوهم في الشهر الحرام؛ فأبى المشركون إلّا القتال، فحملوا عليهم، فثبت المسلمون ونَصَرهم الله على المشركين، وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيءٌ؛ فنزلت هذه الآية[١].

وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين، مثَّلوا بقومٍ من المسلمين قتلوهم يومُ أُحُدٍ، فعاقبهم رسول الله ﷺ بمِثْله[٢].

فمعنى «مَن عاقب بمثل ما عوقب به» أي: مَن جازَى الظالمَ بمثل ما ظَلَمه، فسمَّى جزاءَ العقوبة عقوبةً لاستواء الفعلين في الصورة، فهو مثلُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، ومثل: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقد تقدَّم[٣].

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالكلام والإزعاج من وطنه؛ وذلك أنَّ المشركين كذَّبوا نبيَّهم وآذَوْا مَن آمَن به، وأخرجوه وأخرجوهم من مكة، وظاهَروا على إخراجهم.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: لينصرَنَّ الله محمداً ﷺ وأصحابه، فإنَّ الكفار بَغَوْا عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ أي: عفا عن المؤمنين ذنوبَهم وقتالَهم في الشهر الحرام وسَتَر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ذلك الذي

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/ ٤٠٢، وابن الجوزي ٥/ ٤٤٦، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٩.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٧.

(٣) ٣/ ٢٥٠ - ٢٥١.

قصصتُ عليك من نَصْرِ المظلوم هو بأنِّي أنا الذي أُوْلج الليل في النهار، فلا يقدرُ أحدٌ على ما أَقْدِرُ عليه، أي: مَن قَدَرَ على هذا قَدَرَ على أن ينصر عبدَه. وقد مضى في «آل عمران» معنى يولج الليلَ في النهار[١]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يسمع الأقوال ويُبصر الأفعال، فلا يَعْزُب عنه مثقالُ ذرَّةٍ ولا دبيبُ نملةٍ إلّا يعلمها ويسمعها ويُبصرها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق؛ فَدِينُه الحقُّ، وعبادته حقٌّ[٢]. والمؤمنون يستحِقُّون منه النصر بحكم وعدِه الحقِّ. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الأصنام التي لا استحقاقَ لها في العبادات.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «وأنَّ ما تدعون» بالتاء على الخطاب[٣]، واختاره أبو حاتم. الباقون بالياء على الخبر هنا وفي لقمان[٤]، واختاره أبو عبيد.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ أي: العالي على كلِّ شيءٍ بقدرته، والعالي عن الأشباه والأنداد[٥]، المُتقدِّس[٦] عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الموصوف بالعظمة والجلال وكِبرِ الشأن. وقيل: الكبير: ذو الكبرياء. والكبرياء: عبارةٌ عن كمال الذات، أي: له الوجودُ المُطلَقُ أبداً وأزلاً، فهو الأول القديم[٧]، والآخِر الباقي بعد فناء خلقه.

---

(١) ٥/٨٦.

(٢) الوسيط ٣/٢٧٨.

(٣) السبعة ص٤٤٠، والتيسير ص١٥٨.

(٤) عند الآية (٣٠).

(٥) سبق التأكيد على أن الله عز وجل يثبت له أنواع العلوّ الثلاثة: علو المكان، وعلو القدر والمنزلة، وعلو القهر.

(٦) في (م): المقدس.

(٧) لفظ (القديم) من الألفاظ التي أحدثها المتكلمون في أسماء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ دليلٌ على كمال قدرته، أي: مَنْ قَدَر على هذا قَدَر على إعادة الحياة بعد الموت، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]. ومثلُه كثير.

«فتُصبِحُ» ليس بجوابٍ فيكون منصوباً، وإنما هو خبرٌ عند الخليل وسيبويه؛ قال الخليل: المعنى: انْتَبِه! أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا، كما قال:

ألم تسألِ الرَّبْعَ القَوَاء فيَنْطِقُ ... وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ[1]

معناه: قد سألتَه فنطق. وقيل: استفهام تحقيق، أي: قد رأيتَ، فتأمل كيف تصبح. أو عطف، لأن المعنى: ألم تر أن الله يُنزل[2]. وقال الفراء[3]: «ألم تر» خبر، كما تقول في الكلام: إعلم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينزل من السماء ماءً. «فتصبِحُ الأرضُ مَخْضَرَةً» أي: ذاتَ خُضرة؛ كما تقول: مَبْقَلة ومَسْبَعة؛ أي: ذاتَ بقلٍ وسباع[4]. وهو عبارةٌ عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات، واستمرارِها كذلك عادةً. قال ابن عطية[5]: ورُوي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بمكة وتِهامة. ومعنى هذا: أنه أخذ قوله: «فتُصبِحُ» مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار يتأخَّر في سائر البلاد، وقد شاهدتُ هذا في السوس الأقصى؛ نزل المطر ليلاً بعد قحطٍ أصبحت تلك الأرضُ الرملةُ التي نسفتها الرياح قد اخضرَّت بنباتٍ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ . والبيت لجميل بُثينة، وهو في ديوانه ص١٤٤ . الرَّبع: المنزل والدار. والقَواء، بالمد والقصر: القفر، ومنزل قَواء: لا أنيسَ به. والسملَّق: القاع المستوي الأجرد الذي لا شجر فيه. اللسان (ربع) و(قوا) و(سملق).

(٢) من قوله: وقيل استفهام تحقيق. . . إلى هذا الموضع، من (م).

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٠ ، وهذه القراءة شاذة، وينظر الدر المصون ٨/ ٣٠٢ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ١٣١ ، وما قبله منه.

ضعيفٍ رقيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس: «خبيرٌ» بما ينطوي عليه العبدُ من القنوط عند تأخير المطر. «لطيفٌ» بأرزاق عباده. وقيل: لطيفٌ باستخراج النبات من الأرض(١)، «خبيرٌ» بحاجتهم وفاقتهم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وكلٌّ محتاجٌ إلى تدبيره وإتقانه. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فلا يحتاج إلى شيء، وهو المحمود في كلِّ حال(٢).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر نعمةً أخرى، فأخبر أنه سخَّر لعباده ما يحتاجون إليه من الدوابِّ والشجر والأنهار.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: وسخَّر لكم الفلك في حال جَرْيِها(٣). وقرأ عبد الرحمن الأعرج: «والفُلكُ» رفعاً على الابتداء وما بعده خبره. الباقون: بالنصب نسقاً على قوله: «ما في الأرض»(٤). ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كراهية أن تقع.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٨ بنحوه.

(٢) في (ظ): زمان.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٣ . ونسب ابن خالويه القراءة في القراءات الشاذة ص٩٦ ، للأعرج والسلمي، وهو أبو عبد الرحمن، ووقع في (م): أبو عبد الرحمن الأعرج، وصواب العبارة عندئذ: أبو عبد الرحمن، والأعرج.

وقال الكوفيون: لئلَّا تقع(١). وإمساكه لها خلق السكون فيها حالاً بعد حال. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: إلا بإذن الله لها بالوقوع، فتقع بإذنه، أي: بإرادته وتخليته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: في هذه الأشياء التي سخَّرها لهم(٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: بعد أن كنتم نُطَفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحساب والثواب والعقاب. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحودٌ لما ظهر من الآيات الدالَّة على قدرته ووحدانيته(٣). قال ابن عباس: يريد الأسودَ بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين. وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنَّ الغالبَ على الإنسان كفر النعم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾(٤) [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: شرعاً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُۖ﴾ أي: عاملون به(٥). ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِۚ﴾ أي: لا يُنازعَنَّكَ أحدٌ منهم فيما يُشرَعُ لأمتك؛ فقد كانتِ الشرائعُ في كلِّ عصر.

وروت فرقةٌ أنَّ هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣ .

(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٩ ، وزاد المسير ٥/ ٤٤٨ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٧٩ .

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣ بمعناه.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٩ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٦ عن ابن عباس ﷺ.

للمؤمنين: تأكلون ما ذبحتم، ولا تأكلون ما ذبحَ اللهُ من الميتة، فكان ما قتلَ اللهُ أحقَّ أن تأكلوه مما قتلتُم أنتم بسكاكينكم، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة[١]. وقد مضى هذا في «الأنعام»[٢] والحمد لله. وقد تقدم في هذه السورة ما للعلماء في قوله تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾[٣]. وقوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي: أنَّ المَنْسكَ المصدرُ، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه[٤]. وقال الزجَّاج: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: فلا يُجادِلُنَّك. ودلَّ على هذا: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾. ويُقال: قد نازعوه، فكيف قال: «فلا يُنازِعُنَّك؟!» فالجواب أنَّ المعنى: فلا تُنازِعْهم أنتَ. نزلت الآية قبل الأمر بالقتال، تقول: لا يُضارِبَنَّك فلانٌ فلا تُضارِبْه أنتَ؛ فيجري هذا في باب المفاعلة. ولا يُقال: لا يَضْرِبَنَّكَ زيدٌ، وأنت تُريد: لا تضرِبْ زيداً. وقرأ أبو مِجْلَز «فلا يَنْزِعنَّكَ في الأمر» أي: لا يَسْتَخِفَّنَّكَ ولا يغلِبَنَّكَ عن دينك[٥]. وقراءة الجماعة من المنازعة. ولفظ النهي في القراءتين للكفار، والمراد النبيّ ﷺ.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى توحيده ودينه والإيمان به[٦]. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: دين[٧]. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: قويمٍ لا اعوِجاجَ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أي: خاصموك يا محمد؛ يريد مشركي مكة. ﴿فَقُلِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.
(٢) ٩/ ٨.
(٣) عند تفسير الآية (٣٤).
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.
(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧ بمعناه. وقراءة أبي مجلز في الشاذة ص٩٦.
(٦) زاد المسير ٥/ ٤٤٩.
(٧) الوسيط ٣/ ٢٧٩.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يريد مِن تكذيبهم محمداً ﷺ؛ عن ابن عباس. وقال مُقاتل: هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ ليلةَ الإسراء وهو في السماء السابعة لمَّا رأى من آيات ربِّه الكبرى، فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بالباطل فادفعهم بقولك: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، فأمره الله تعالى بالإعراض عن مُماراتهم؛ صيانةً له عن الاشتغال بتعنُّتهم، ولا جواب لصاحب العِناد. ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يريد: بين النبيِّ ﷺ وقومِه. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يريد: في خلافكم آياتي، فتعرفون حينئذٍ الحقَّ من الباطل[(١)].

مسألة: في هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علَّمه الله عبادَه في الردِّ على مَنْ جادل تعنُّتاً ومِراءً ألَّا يُجابَ ولا يُناظَر ويُدفَعَ بهذا القول الذي علَّمه الله لنبيِّه ﷺ. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخةٌ بالسيف[(٢)]؛ يعني السكوت عن مخالِفه، والاكتفاء بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وإذ قد علمتَ يا محمدُ هذا وأيقنتَ؛ فاعلم أنه يعلم أيضاً ما أنتم مختلفون فيه، فهو يحكم بينكم. وقد قيل: إنه استفهام تقرير للغير[(٣)].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: كلُّ ما يجري في العالَم فهو مكتوبٌ عند الله في أمِّ الكتاب[(٤)].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إنَّ الفصل بين المختلفين على الله يسير. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩٧، وتفسير الرازي ٢٣/ ٦٥.

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٥٠.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٩، ووقع في (ظ): استفهام تقريري.

(٤) بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩.

المعنى: إنَّ كتابَ القلم الذي أمره أن يكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة على الله يسير[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ۝٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ يريد كفارَ قريش. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً[٢]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٣]. ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني القرآن. ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي: الغضب والعُبوس. ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ أي: يبطشون[٤]. والسَّطوةُ: شِدَّةُ البطش[٥]؛ يقال: سطا به يسطو: إذا بطش به، كان ذلك بضربٍ أو بشتمٍ، وسطا عليه[٦]. ﴿بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾. وقال ابن عباس: يسطون: يبسطون إليهم أيديهم[٧]. محمد بن كعب: أي: يقعون بهم. الضحَّاك: أي:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٣.

(٣) ٥/ ٣٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨، وتفسير «يسطون» بـ «يبطشون» أخرجه الطبري ١٦/ ٦٣٣ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٢٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣١ دون لفظة: «وسطا عليه» وهي في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٨٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٨٠ من غير نسبة.

يأخذونهم أخذاً باليد[١]، والمعنى واحد. وأصل السَّطْو: القهر. والله ذو سَطَوات؛ أي: أخذاتٍ شديدة. ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: أكره من هذا القرآن الذي تسمعونه هو النار[٢]. فكأنهم قالوا: ما الذي هو شرٌّ؟ فقيل: هو النار[٣]. وقيل: أي هل أنبئكم بشرّ مما يلحق تالي القرآن منكم؟ هو النار[٤]. فيكون هذا وعيداً لهم على سَطَواتهم بالذين يتلون القرآن.

ويجوز في «النار» الرفع والنصب والخفض؛ فالرفع: على هو النار، أو: هي النار. والنصب بمعنى أعني، أو على إضمارِ فعلٍ مثلِ الثاني، أو يكون محمولاً على المعنى، أي: أُعرِّفكم بشرٍّ من ذلكم النارَ. والخفض على البدل[٥].

﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في القيامة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الموضع الذي يصيرون إليه، وهو النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾. وإنما قال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ لأن حُجَجَ الله تعالى عليهم بضرب الأمثال لهم أقربُ إلى أفهامهم[٦]. فإن قيل: فأين المَثَلُ المضروب؟ ففيه وجهان:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢١ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨ .
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٨ .
(٤) من قوله: وقيل: أي هل أنبئكم. . . إلى هذا الموضع، من (م).
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ .
(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٩ .

الأوّل: قال الأخفش: ليس ثَمَّ مَثَلٌ، وإنما المعنى: ضربوا لي مثلاً فاستمعوا قولهم، يعني أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكأنَّه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستَمَعوا خبر هذا الشبه[١].

الثاني: قول القُتَبيِّ: وأن المعنى: يا أيها الناس، مَثَلُ مَنْ عبدَ آلهةً لم تستطِعْ أن تخلُقَ ذباباً وإن سلبها الذبابُ شيئاً لم تستطِعْ أن تستنقِذَه منه[٢].

وقال النحاس: المعنى: ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ مما يُعبَدُ من دونه مثلاً. قال: وهذا مِنْ أحسن ما قيل فيه[٣]، أي: بيَّنَ اللهُ لكم شبَهاً ولمعبودكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة: «تدعون» بالتاء. وقرأ السُّلَمِيُّ وأبو العالِية ويعقوب: «يدعون» بالياء على الخبر[٤]. والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله، وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وقيل: السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عزَّ وجلَّ. وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى[٥]. والأوّل أصْوَبُ.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا﴾ الذباب: اسمُ واحدٍ للذكر والأنثى، والجمع القليل: أذِبَّة، والكثير ذِبَّان؛ على مثل: غُراب وأغْرِبة وغِرْبان؛ وسُمِّيَ به لكثرة حركته. الجوهري: والذُّباب معروفٌ، الواحدة ذُبابة، ولا تقل: ذِبَّانة. والمِذَبَّة ما يُذَبُّ به الذُّباب. وذُباب أسنان الإبل: حَدُّها. وذُباب السيف: طَرَفُه الذي يضرب به. وذُبابُ العين: إنسانها. والذُّبَابة: البقية من الدَّين. وذَبَّبَ النهارُ: إذا لم يبق منه إلا بقية. والتَّذبذُبُ: التحرُّكُ.

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٧.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٦٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥.

(٤) قراءة يعقوب من العشرة، وهي في النشر ٢/ ٣٢٧.

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٤٠ دون قوله: وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وهو في الوسيط ٣/ ٢٨٠، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٩.

والذَّبْذَبةُ: نَوْسُ الشيء المُعلَّقِ في الهواء. والذَّبْذَبُ: الذَّكر؛ لتردُّده. وفي الحديث: «مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِه»[١]. وهذا مما لم يذكُرْه، أعني قوله: وفي الحديث[٢].

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ: التخليص. قال ابن عباس: كانوا يَطْلُون أصنامَهم بالزَّعفران فتجِفُّ، فيأتي فيختلِسُه. وقال السُّدِّي: كانوا يجعلون للأصنام طعاماً، فيقعُ عليه الذبابُ فيأكله[٣].

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: الآلهةُ، والمطلوب: الذبابُ. وقيل بالعكس[٤]. وقيل: الطالب: عابدُ الصنم، والمطلوبُ: الصنم؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرُّب إليه، والصنم المطلوب إليه[٥]. وقد قيل: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ راجعٌ إلى ألمه في قَرْصِ أبدانهم حتى يسلبهم الصبرَ لها والوقارَ معها.

وخَصَّ الذبابَ لأربعة أمورٍ تخُصُّه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته[٦]، فإذا كان هذا الذي هو أضعفُ الحيوان وأحقرُه لا يقدِرُ مَنْ عبدوه من دون الله عزَّ وجلَّ على خَلْقِ مثلِه ودَفْعِ أذِيَّته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهةً معبودين، وأرباباً مطاعين؟! وهذا من أقوى حجةٍ وأوضحِ برهان.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظَّموه حقَّ عظمته؛ حيث

---

(١) الصحاح (ذبب) وقوله: «من وُقيَ شرَّ ذبذبه» ليس بحديث، وقد أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ١٧٠ من كلام أبي الأشهب العطاردي.

(٢) بل هو في الصحاح، ولعله ليس في نسخة المصنف.

(٣) ذكرهما الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٨٠، والبغوي في تفسيره ٣/ ٢٩٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٥٢.

(٤) الوسيط ٣/ ٢٨٠ ونسب الأول إلى ابن عباس والكلبي، والثاني إلى الكلبي.

(٥) زاد المسير ٥/ ٤٥٢، ونسبه إلى الضحاك والسُّدِّي.

(٦) زاد المسير ٥/ ٤٥٢، وفيه ذكر أمور، لم يذكر: وضعفه.

جعلوا هذه الأصنام شركاء له[١]. وقد مضى في «الأنعام»[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ختم السورة بأنَّ الله اصطفى محمداً ﷺ لتبليغ الرسالة، أي: ليس بَعْثُه محمداً أمراً بِدْعِيًّا.

وقيل: إن الوليد بن المغيرة قال: أَوَ أُنزِلَ عليه الذِّكْرُ من بيننا؟ فنزلت الآية. وأخبر أنَّ الاختيار إليه سبحانه وتعالى[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته[٥]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد ما قدَّموا. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يريد ما خلَّفوا[٦]، مثل قوله في يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ [الآية: ١٢] يريد ما بين أيديهم، ﴿وآثارَهم﴾: يريد ما خلَّفوا. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا﴾ تقدَّم في أوَّلِ السورة أنها فُضِّلتْ بسجدتين، وهذه السجدة الثانية لم يرَها مالكٌ وأبو حنيفة من العزائم؛ لأنه

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٨٠، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥، وزاد المسير ٥/ ٤٥٣.

(٢) ٨/ ٤٥٤.

(٣) عند تفسير الآية (٤٠) من هذه السورة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٨١.

قرنَ الركوعَ بالسجود، وأنَّ المراد بها الصلاةُ المفروضة، وخصَّ الركوع والسجود تشريفاً للصلاة[١]. وقد مضى القول في الركوع والسجود مبيَّناً في «البقرة»[٢] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: امتثِلوا أمْرَه. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ نَدْبٌ فيما عدا الواجبات التي صحَّ وجوبُها من غير هذا الموضع[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ قيل: عنى به جهادَ الكفار. وقيل: هو إشارةٌ إلى امتثالِ جميعِ ما أمرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كلِّ ما نهى عنه، أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة الله، وردِّها[٤] عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردِّ وسوسَتِه، والظَّلَمةَ في رَدِّ ظُلمِهم، والكافرينَ في رَدِّ كفرهم.

قال ابنُ عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وكذا قال هبة الله: إنَّ قولَه: ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وقولَه في الآية الأخرى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢] منسوخٌ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر[٥].

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٢٥، والاستذكار ٢/ ٥٠٦.

(٢) ٢/ ٢٥ - ٢٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤.

(٤) في (د): وردُّوها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥ بمعناه دون ذكر قول مقاتل، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٠.

ولا حاجةَ إلى تقدير النسخ؛ فإنَّ هذا هو المراد من أوّل الحكم؛ لأنَّ «حقَّ جهاده» ما ارتفع عنه الحرج. وقد روى سعيد بن المسيِّب قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ دينِكُم أيْسَرُه»[١]. وقال أبو جعفر النحاس[٢]: وهذا ممَّا لا يجوز أن يقع فيه نسخٌ؛ لأنَّه واجبٌ على الإنسان، كما روى حَيْوَةُ بنُ شُريحٍ يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «المجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نفسَه للهِ عزَّ وجلَّ»[٣]. وكما روى أبو غالب، عن أبي أُمامةَ، أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ ـ عند الجمرة الأولى ـ فلم يُجِبْه، ثم سأله عند الجمرة الثانية فلم يُجِبْه، ثم سأله عند جمرة العقبة، فقال النبيُّ ﷺ: «أينَ السائِلُ؟» فقال: أنا ذا. فقال عليه الصلاة والسلام: «كلمةُ عَدْلٍ عند سلطانٍ جائر»[٤].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم للذَّبِّ عن دينِه والتزامِ أمره؛ وهذا تأكيدٌ للأمر بالمجاهدة، أي: وجَبَ عليكم أن تجاهدوا؛ لأنَّ اللهَ اختاركم له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضِيق[٥]. وقد تقدَّم في «الأنعام»[٦].

وهذه الآية تدخل في كثيرٍ من الأحكام؛ وهي ممَّا خصَّ اللهُ بها هذه الأمة؛ روى معمر عن قَتادة قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةُ ثلاثاً لم يُعْطَها إلا نبيٌّ: كان يُقال للنبيِّ: اذهَبْ فلا حرَجَ عليك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، والنبيُّ شهيدٌ على أمته، وقيل لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ويُقال

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٢ . والحديث أخرجه أحمد (١٥٩٣٦) من حديث أعرابيٍّ سمع النبي ﷺ، و(١٨٩٧٦) من حديث محجن بن الأدرع ﷺ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٥١) من طريق حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني، عن عمرو بن مالك الجنبي، عن فضالة بن عبيد ﷺ، مرفوعاً.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٢).

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ -٦٤٢ ، والحاكم ٢/ ٣٩١ عن عائشة مرفوعاً. وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ - ٦٤٤ عن ابن عباس وأبي العالية والحسن والقاسم بن محمد وقتادة والضحاك.

(٦) ٩/ ٢٣ - ٢٥ .

للنبيِّ: سَلْ تُعْطَه، وقيل لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١] [غافر: ٦٠].

الثانية: واختلفَ العلماء في هذا الحَرَج الذي رفَعه الله تعالى، فقال عكرمة: هو ما أُحِلَّ من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع، وما ملكَتْ يَمينك[٢].

وقيل: المراد قَصرُ الصلاة، والإفطارُ للمسافِر، وصلاةُ الإيماء لمن لا يقدِرُ على غيره، وحَطُّ الجهادِ عن الأعمى والأعرجِ والمريضِ والعَدِيم الذي لا يجِدُ ما يُنفِقُ في غَزْوه، والغَرِيمُ، ومن له والدان، وحَطَّ الإصْرَ الذي كان على بني إسرائيل. وقد مضى تفصيلُ أكثر هذه الأشياء[٣].

ورُويَ عن ابن عباس والحسن البصري أنَّ هذا في تقديم الأهِلَّة وتأخيرها في الفطر والأضحى والصوم[٤]؛ فإذا أخطأتِ الجماعةُ هلالَ ذي الحِجَّة، فوقفوا قبل عرفة بيومٍ، أو وقفوا يوم النحر، أجزأهم، على خلافٍ فيه بيَّنَّاه في كتاب «المُقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ﷺ». وما ذكرناه هو الصحيح في الباب. وكذلك الفطر والأضحى؛ لِما رواه حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فِطْرُكم يوم تُفْطِرونَ، وأضحاكُم يومَ تُضَحُّون». خرَّجه أبو داود والدَّارَقُطْنيّ[٥]، ولفظه ما ذكرناه. والمعنى: باجتهادكم من غير حرجٍ يلحقكم.

وقد روى الأئمةُ أنَّه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ يومَ النَّحرِ عن أشياء، فما سُئِلَ عن أمرٍ مما ينسى المرءُ أو يجهلُ من تقديم الأمور بعضِها قبلَ بعضٍ وأشباهِها إلَّا قال

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤١ - ٤٢، والطبري ١٦/ ٦٤٧ -٦٤٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣.

(٣) ٤/ ٥٠٠ و ٩/ ٣٥٦.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣ عن ابن عباس وحده.

(٥) سنن أبي داود (٢٣٢٤)، وسنن الدارقطني (٢٤٤٥).

فيها: «افعَلْ ولا حَرَج»(١).

الثالثة: قال العلماء: رَفْعُ الحَرَج إنَّما هو لمن استقامَ على منهاج الشرع، وأما السَّلَّابةُ والسُّرَّاقُ وأصحابُ الحدودِ فعليهمُ الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدِّين، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجلٍ لاثنين في سبيل الله تعالى، ومع صِحَّة اليقينِ وجُودَةِ العزمِ ليس بحرج(٢).

قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ قال الزَّجَّاج(٣): المعنى: اتَّبِعوا مِلَّةَ أبيكم. الفرَّاء(٤): انتصب على تقديرِ حذفِ الكاف، كأنه قال: كمِلَّةِ. وقيل: المعنى: وافعلوا الخيرَ فِعْلَ أبيكم(٥)، فأقام الفِعْلَ مقامَ المِلَّة. وإبراهيم هو أبو العرب قاطبةً. وقيل: الخطاب لجميع المسلمين، وإنْ لم يكُنِ الكلُّ من ولده؛ لأنَّ حُرْمَةَ إبراهيمَ على المسلمين كَحُرمةِ الوالدِ على الولد(٦).

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قال ابن زيد والحسن: «هو» راجعٌ إلى إبراهيم، والمعنى: هو سمَّاكم المسلمين من قبل النبيِّ ﷺ(٧). ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي: وفي حُكمِه أنَّ منِ اتَّبعَ محمداً ﷺ فهو مسلم(٨). قال ابن زيد: وهو معنى قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(٩) [البقرة:١٢٨]. قال النحَّاس(١٠): وهذا القولُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤)، ومسلم (١٣٠٦)، وأحمد (٦٤٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥ .

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٤٤٠ ، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣١ ، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٦ .

(٦) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٥١ ، وزاد المسير ٥/ ٤٥٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ عن ابن زيد، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢ عن الحسن.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٤٠ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ - ١٠٧ .

مخالفٌ لقول عُلماءِ[(١)] الأمة؛ روى عليُّ بنَ أبي طلحة عن ابن عباس قال: سمَّاكم اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ من قبلُ، أي: في الكتب المتقدِّمة وفي هذا القرآن. وقاله مجاهد وغيره.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: بتبليغه إياكم. ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنَّ رسلَهم قد بلَّغَتْهم[(٢)]، كما تقدَّم في «البقرة»[(٣)]. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تقدَّم مستوفًى[(٤)] والحمد لله.

تم الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الخامس عشر ويبدأ بسورة «المؤمنون»

(١) في (م): عظماء.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠١.

(٣) ٢/ ٤٣٥.

(٤) ١/ ٢٥٣ و ٢/ ٢٢ و ٥/ ٢٣٦.

تفسير سـورة الحج

[وهى مكية][1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة: هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عَرَصَات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ [الواقعة: ٤-٦].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة فى قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة.

ورواه ابن أبى حاتم من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروى عن الشعبى، وإبراهيم، وعُبَيْد بن عُمَيْر، نحو ذلك.

وقال أبو كُدَيْنَةَ، عن عطاء، عن عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية، قال: هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قال ذلك فى حديث الصُّور، من رواية إسماعيل ابن رافع قاضى أهل المدينة، عن يزيد بن أبى زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظى، عن رجل، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فِيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قال أبو هريرة: يارسول الله، وما الصور؟

قال: «قرن» قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع،

---

(١) زيادة من ت.

والثانية نفخة الصَّعْق، والثالثة نفخة [1] القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزعُ أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ**﴾ [ص: ١٥] فَيُسير الله الجبال، فتكون سرابا وتُرج الأرض بأهلها رجا، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ**﴾ [النازعات: ٦ـ ٨]، فتكون الأرض، كالسفينة الموبقة [2] فى البحر، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح. فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل. ويشيب [3] الولدان، وتطير الشياطين هاربة، حتى تأتى الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولى [4] الناس مدبرين، ينادى بعضهم بعضا، وهو الذى يقول الله تعالى: ﴿**يَوْمَ التَّنَادِ** [5]**. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فرأوا أمرا عظيما، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل، ثم خسف شمسها وخُسفَ قمرها، وانتثرت نجومها، ثم كُشطت عنهم» قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشىء من ذلك» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿**فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن** [6] **شَاءَ اللَّهُ**﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذى يقول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ [7].

وهذا الحديث قد رواه الطبرانى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وغير واحد [8]، مطولا جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة [9] كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا [10] قتادة، عن الحسن، عن عمران [ابن] [11] حُصَين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ**

---

(١) فى ت: «والنفخة الثالثة». (٢) فى ت: «المرسية». (٣) فى ت، أ: «وتشيب».
(٤) فى ت: «وتولى». (٥) فى ت: «التنادى». (٦) فى ت: «ما».
(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٥).
(٨) حديث الصور سبق عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٩) فى ت: «الزلزلة له». (١٠) فى ت: «عن». (١١) زيادة من ت، أ، والمسند.

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حَثْوا المُطى، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشهوا حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع [١]خَليقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسُرِّى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما، عن محمد بن بَشَّار، عن يحيى ـ وهو القَطَّان ـ عن هشام ـ وهو الدستوائى ـ عن قتادة، به [٢] بنحوه. وقال الترمذى: حسن صحيح.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال[٣] الترمذى: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حُصَيْن؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: **﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ[٤] اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾** إلى قوله: **﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾**، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمِّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقْمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة [٥] فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدرى أقال الثلثين أم لا؟

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عُيَيْنَة[٦]، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

وقد روى عن سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوى، عن عمران بن الحصين[٧]، فذكره.

---

(١) فى ت: «مع».

(٢) المسند (٤/ ٤٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٠).

(٣) فى ت: «وقال». (٤) فى ت: «يأيها الذين آمنوا» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وكالشامة».

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٦٨) والمسند (٤/ ٤٣٢).

(٧) فى ت: «ابن حصين».

وهكذا روى ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدرَ، عن عوف، عن الحسن قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العُسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث [١]، فذكر نحو سياق ابن جُدْعَان، فالله أعلم.

الحديث الثانى: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو سفيان ـ [يعنى] [٢] المعمرى ـ عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر ـ يعنى: نحو سياق الحسن عن عمران ـ غير أنه قال: «ومن هلك من كفرة الجن والإنس».

رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر [٣].

الحديث الثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد ـ يعنى: ابن العوام ـ حدثنا هلال بن خباب [٤]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا [٥] رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء» [٦].

الحديث الرابع: قال البخارى عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين [٧]. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبى ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين [٨]، ومنكم واحد، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا [٩].

وقد رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائى فى تفسيره، من طرق، عن الأعمش، به [١٠].

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٦).

(٢) زيادة من أ.

(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٧).

(٤) فى ت: «ابن حبان». (٥) فى ت: «قال».

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٢٣٥) «كشف الأستار» حدثنا أبو بكر بن إسحاق عن سعد بن سليمان به، وقال: «لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد».

وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٦٩): «قلت فى الصحيح بعضه، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة».

(٧، ٨) فى ت: «وتسعون».

(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٤١).

(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٣٤٨، ٧٤٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٩).

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار [(١)] بن محمد ـ ابن أخت سفيان الثورى ـ وعبيدة المعنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة مناديا [ينادى][(٢)]: يا آدم، إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يارب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين». فقال رجل من القوم: من هذا الناجى منا بعد هذا يارسول الله؟ قال[(٣)]: «هل تدرون ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى صدر البعير»[(٤)].

انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبى صغيرة، حدثنا ابن أبى مُلَيْكَةَ؛ أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاة عراة غرلا». قالت عائشة: يارسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». أخرجاه فى الصحيحين[(٥)].

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعة، عن خالد بن أبى عِمْران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى بيمينه أو يعطى بشماله، فلا. وحين يخرج عُنُق من النار فينطوى عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد» قال: «فينطوى [(٦)] عليهم، ويرميهم فى غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخُذْنَ من شاء الله، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سَلِّم، سَلِّم. فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكَوّر [(٧)] فى النار على وجهه[(٨)] »[(٩)].

والأحاديث فى أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ أى: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

والزلزال[(١٠)]: هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾[الأحزاب: ١١].

---

(١) فى ت: «عمارة». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «فقال».
(٤) المسند (١/ ٣٨٨).
(٥) المسند (٦/ ٥٣) وصحيح البخارى برقم (٦٥٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥).
(٦) فى ت: «وينطوى». (٧) فى أ: « ومكبوب». (٨) فى ت: «وجوههم».
(٩) المسند (٦/ ١١٠).
(١٠) فى ت: «والزلازل».

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتى هى أشفق الناس عليه، تدهش عنه فى حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أى: قبل تمامه لشدة الهول، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ وقرئ: «سَكْرَى» أى: من شدة الأمر الذى [قد] [1] صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال [2] والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أى: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ. كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعنى الشيطان، يعنى: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أى: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أى: يضله فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدى، عن أبى مالك: نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث. وكذلك [3] قال ابن جريج.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن سلم [4] البصرى، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر[5]، حدثنا أبو كعب المكى قال: قال خبيث من خُبثاء قريش: أخبرنا [6] عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقعت السماء قعقعة ـ والقعقعة فى كلام العرب: الرعد ـ فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: جاء يهودى فقال: يامحمد، أخبرنى عن ربك: من أى شىء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «الضلالة». (٣) فى ف: «وكذا».
(٤) فى ت، ف: «ابن مسلم». (٥) فى ت: «المعتمر». (٦) فى ت: «حدثنا».

عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾.

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق[(١)]، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أى: فى شك ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أى: أصل بَرْئه[(٢)] لكم من تراب، وهو الذى خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة ـ قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ـ ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أى: كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهى مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ[(٣)] فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل[(٤)]، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقى أو سعيد، كما ثبت فى الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ: « إن خلق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»[(٥)].

وروى ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن علقمة، عن عبدالله قال: النطفة إذا استقرت فى الرحم، أخذها[(٦)] ملك بكفه قال[(٧)]: يارب، مخلقة أو غير

---

(١) فى ت: «بما شاهد من بين يديه للخلق»، وفى ف: «بما يشاهده من بين يديه للخلق».
(٢) فى ت، ف: «تربه». (٣) فى أ: «فينفخ». (٤) فى ف، أ: «الله تعالى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٦) فى هـ، ت، ف: «جاءها»، والمثبت من الدر المنثور ٣/ ٣٤٥. (٧) فى ت، ف: «فقال».

مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دما. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أى رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأى أرض يموت(١)؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت فى ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أى رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص(٢)».

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق أخر، عن أبى الطُّفَيل، بنحو معناه(٣).

وقوله: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أى: ضعيفا فى بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف(٤) به، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾أى: يتكامل(٥) القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾، أى: فى حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف(٦) وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلا(٧) يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد قال الحافظ أبو يعلى [أحمد](٨) بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا منصور بن أبى مزاحم(٩)، حدثنا خالد الزيات، حدثنى داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ابن حزم الأنصارى، عن أنس بن مالك ـ رفع الحديث ـ قال: «المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته(١٠)، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة فى

---

(١) فى ف: «تموت». (٢) فى ف: «ولاينقص».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).
(٤) فى أ: «ويتلطف». (٥) فى ت: «تتكامل». (٦) فى ت، ف، أ: «من الحزن».
(٧) فى ت: «لا». (٨) زيادة من ت، ف،أ. (٩) فى أ:«ابن أبى عاصم».
(١٠) فى ت، ف: «لوالديه».

الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه فى أهل بيته، وكان أسير الله فى أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه»(١).

هذا حديث غريب جدا، وفيه نكارة شديدة. ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده مرفوعا وموقوفا فقال:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامرى(٢)، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بلغ الرجلِ المسلم أربعين سنة، أمنه الله من أنواع البلايا، من الجنون والجذام والبرص(٣)، فإذا بلغ الخمسين لَيَّن الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله فى الأرض، وشفع فى أهله (٤).

ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثنى محمد بن عبد الله العامرى، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبى ﷺ، مثله(٥).

ورواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا أنس بن عياض، حدثنى يوسف بن أبى ذرة (٦) الأنصارى، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص(٧)....» وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء(٨).

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبى شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك(٩)، عن أبى قتادة العُذْرى، عن ابن أخى الزهرى، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر فى الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله، وأحبه أهل السماء(١٠)، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غَفَر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسُمى أسير الله فى أرضه، وشفع فى أهل بيته»(١١).

---

(١) مسند أبى يعلى (٦/ ٣٥٢).
(٢) فى ت، ف: «العاملى».
(٣) فى ف: «البرص والجذام».
(٤) المسند (٢/ ٨٩).
(٥) المسند (٢/ ٨٩).
(٦) فى هـ، ت، ف: «أبى بردة»، والتصويب من كتب الرجال.
(٧) فى ت: «أو الجذام أو البرص».
(٨) المسند (٣/ ٢١٧) وفى إسناده يوسف بن أبى ذرة وهو ضعيف.
(٩) فى ت: «عبد الله بن مالك».
(١٠) فى أ: «السماوات».
(١١) مسند البزار برقم (٣٥٨٨) «كشف الأستار».

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلَة التى لا نبت فيها ولا شىء[١].

وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدى: ميتة.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحيَيت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾][٢]، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهز[٤]، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع ابن حُدُس[٥]، عن عمه أبى رَزين العقيلى ـ واسمه لَقيط بن عامر[٦] ـ أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْليا به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بوادى أهلك محلا[٧]» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضرا؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه».

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به[٨].

ثم رواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبى رَزين العُقَيْلى قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أمررت بأرض من أرضك مُجْدبةً، ثم مررت بها

---

(١) فى ت: «التى لا ينبت فيها شيئا». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت:«لكثيرة».
(٤) فى ت: «يزيد».
(٥) فى ت: «عدس»، وفى ف، أ: «عدى».
(٦) فى ت: «ليث بن أبى عامر». (٧) فى أ: «ممحلا».
(٨) المسند (٤/١١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣١) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٠).

مخضبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور»[(١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عُبَيس[(٢)] بن مرحوم، حدثنا بُكَير بن أبى السُّمَيْط، عن قتادة، عن أبى الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور ـ دخل الجنة. [والله أعلم][(٣)].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾.

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلّدين فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾، ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾، أى: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأى والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾: قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه.

وقال مجاهد، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أى: لاوى عنقه، وهى رقبته، يعنى: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقَبَته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥]: وقال لقمان لابنه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أى: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين[(٤)]، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلة فى الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ

(١) المسند (٤/ ١١).

(٢) فى ف، أ: «عيسى». (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت، ف: «المعاندون».

الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخا، **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾**، كقوله تعالى: **﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ .ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾** [الدخان: ٤٧ ـ ٥٠].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن الصبّاح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغنى أن أحدهم يُحرق فى اليوم سبعين ألف مرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾ .

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: **﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾**: على شك[1].

وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أى: طرفه، أى: دخل فى الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر[2]، حدثنا إسرائيل، عن أبى حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾** قال: كان الرجل يَقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما، ونُتجَت خيلُه، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتَج[3] خيله قال: هذا دين سوء[4].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القُمِّى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيُسْلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غَيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسَّكُوا به». وإن وجدوا عام جُدوبة وعام ولاد سَوء وعام قحط، قالوا: «ما فى ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾**.

وقال العوفى، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قَدم المدينة، وهى أرض وبيئة[5]، فإن صح بها جسمه، ونُتجت فرسه مهراً حسنا، وولدت امرأته غلاماً، رضى به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنتُ على ديني هذا إلا خيرا». وإن أصابته فتنة ـ والفتنة: البلاء ـ أى: وإن أصابه وجع المدينة،

(١) فى ت: «على شدة». (٢) فى ف: «ابن أبى بكر». (٣) فى ت، ف: «ينتج».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٢).
(٥) فى هـ، ت: «وهم أرض دونه» والمثبت من ف، أ.

وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينكَ هذا إلا شراً. وذلك الفتنة.

وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جُريج، وغير واحد من السلف، فى تفسير هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لِمَا صلح من دنياه، فإن[1] أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ أى: فلا هو حَصَّل من الدنيا على شىء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها فى غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: هذه هى الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهى لا تنفعه ولا تضره، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أى: ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾: قال مجاهد: يعنى الوثن، يعنى: بئس هذا الذى دعا به من دون الله مولى، يعنى: ولياً وناصراً، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر.

واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد [الله][2] على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) ﴾.

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، [وتركوا المنكرات][3]، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، فى روضات الجنات.

ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ

---

(١) فى ت، ف، أ: «فإذا». (٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) زيادة من ف، أ.

فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) ﴾.

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة، ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ**﴾ أى: بحبل ﴿**إِلَى السَّمَاءِ**﴾ أى: سماء بيته، ﴿**ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**فَلْيَمْدُدْ**[١] **بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من السماء، ﴿**ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى، وأبلغ فى التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿**فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾.

قال السدى: يعنى: مِنْ شأن محمد[٢] ﷺ.

وقال عطاء الخراسانى: فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ**﴾ أى: القرآن ﴿**آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ أى: واضحات فى لفظها ومعناها، حجةً من الله على الناس ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ**﴾ أى: يضل من يشاء، ويهدى من يشاء، وله الحكمة التامة و الحجة[٣] القاطعة فى ذلك، ﴿**لا**[٤] **يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)** ﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين ـ وقد قدمنا فى سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم ـ والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى ﴿**يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾، ويحكم بينهم بالعدل[٥]، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به[٦] النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم.

---

(١) فى ت: «وليمدد».
(٢) فى ت: «محمداً».
(٣) فى ت: «وله الحجة».
(٤) فى ت: «ولا».
(٥) فى ت: «بالعذاب».
(٦) فى ت، أ: «إلى».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾.

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد[(١)] لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود [كل شيء مما][(٢)] يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا[(٣)] إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال ها هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة فى أقطار السموات، والحيوانات فى جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبِدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وفى الصحيحين عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت»[(٤)].

وفى المسند وسنن أبى داود، والنسائى، وابن ماجه، فى حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تَجَلى لشىء من خلقه خشع[(٥)] له»[(٦)].

وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفَىء ظلالهما[(٧)] عن اليمين والشمائل: وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدتُ فسجَدَت الشجرة لسجودى، فسمعتُها وهى تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبَّلها منى كما تقبلتَها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ

---

(١) فى ت: «سجد». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «يرى».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩).
(٥) فى ف، أ: «خضع».
(٦) المسند (٤/٢٦٧) وسنن أبى داود برقم (١١٧٧) وسنن النسائى (١٤١١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٢٦٢).
(٧) فى ت: «فسجودها على ظلالها».

النبى[(١)] ﷺ سجدة ثم سَجَد، فسمعته وهو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.

رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبّان فى صحيحه[(٢)].

وقوله: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أى: الحيوانات كلها.

وقد جاء فى الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب[(٣)] منابر[(٤)]. فرب مركوبة خير[(٥)] وأكثر ذكراً لله من راكبها.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملى، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على قال: قيل لعلى: إن ها هنا رجلا يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت[(٦)]؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربتُ الذى فيه عيناك بالسيف.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة اعتزل[(٧)] الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلى النار» رواه مسلم[(٨)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا مَشْرَح بن هاعان[(٩)] أبو مُصعب المعافرى قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث عبد الله بن لهيعة، به[(١٠)]. وقال الترمذى: «ليس بقوى[(١١)]» وفى هذا نظر؛ فإن ابن لَهِيعة قد صَرح فيه بالسماع، وأكثر ما نَقَموا عليه تدليسه.

---

(١) فى ت: «رسول الله».

(٢) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٣) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) فى ف، أ: «الحيوانات».

(٤) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٥٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى ف: «خيراً».   (٦) فى ت، ف: «لما يشاء أو لما شئت».   (٧) فى ف: «فاعتزل».

(٨) صحيح مسلم برقم (٨١).

(٩) فى أ: «عاهان».

(١٠) المسند (٤/ ١٥١) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٢) وسنن الترمذى برقم (٥٧٨).

(١١) فى ف: «ليس هو بقوى».

وقد قال أبو داود فى المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرنى معاوية بن صالح، عن عامر بن جَشِب[١]، عن خالد بن مَعْدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين».

ثم قال أبو داود: وقد أسندَ هذا، يعنى: من غير هذا الوجه، ولا يصح[٢].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى: حدثنا ابن أبى داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثنى نافع، حدثنى أبو الجهم: أن عمر سجد سجدتين فى الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين[٣].

وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقىّ، عن عبد الله بن مُنَين، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن، منها ثلاث فى المُفَصّل، وفى سورة الحج سجدتان[٤]. فهذه [٥]شواهد يَشُدّ بعضها بعضا.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾.

ثبت فى الصحيحين، من[٦] حديث أبى مجلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبى ذر؛ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت فى حمزة وصاحِبَيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا فى بدر[٧].

لفظ البخارى عند تفسيرها، ثم قال البخارى:

حدثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبى، حدثنا أبو مِجْلز عن قيس بن عُبَاد، عن على بن أبى طالب أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علىّ وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخارى[٨].

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم. فنحن أولى بالله

(١) فى ف، أ: «جيب».
(٢) المراسيل برقم (٧٨).
(٣) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/٣١٧) من طريق نافع عن رجل من أهل مصر أنه صلى مع عمر بن الخطاب فذكر مثله.
(٤) سنن أبى داود برقم (١٤٠١) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٧).
(٥) فى ف: «فهو». (٦) فى ت: «عن».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٣).
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٤).

منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضى على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلج الله الإسلامَ على من ناوأه، وأنزل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. وكذا روى العَوفى، عن ابن عباس.

وقال شعبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: مُصدق ومكذب.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال ـ فى رواية: هو وعطاء فى هذه الآية ـ: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هى الجنة والنار، قالت النار: اجعلنى للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلنى للرحمة.

وقولُ مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حَسَن؛ ولهذا قال: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار.

قال سعيد بن جبير: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ .يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة.

وقال سعيد [ابن جبير][١]: هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تذوب[٢] جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالَقانى، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن زيد[٣]، عن أبى السَّمْح، عن ابن[٤] حُجَيرة، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم ليُصَب على رؤوسهم، فينفُذ الجمجمةَ حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت[٥] ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان».

ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك[٦]، وقال: حسن صحيح. وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى نعيم، عن ابن المبارك، به ثم قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارِىّ، سمعت عبد الله بن السُّرِّىّ قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بِكَلْبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مِقْمَعَة معه فيضرب

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «يذوب». (٣) فى ت، ف: «يزيد».
(٤) فى ت: «أبى». (٥) فى أ: «فيسلب».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٢).

بها رأسه، فيُفرغ[١] دماغه، ثم يُفرغ[٢] الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مِقمَعا من حديد وُضِع فى[٣] الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقلُّوه من الأرض»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا بن لَهِيعة، حدثنا[٥] درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ضُرب الجبلُ بمِقْمَع من حديد، لتفتت ثم عاد كما كان، ولو أن دلوا من غَسَّاق يُهرَاق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[٦].

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون[٧] بالثبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾: قال الأعمش، عن أبى ظَبْيان، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضىء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

وقال زيد بن أسلم فى هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال: بلغنى أن أهل النار فى النار لا يتنفسون.

وقال الفُضيل[٨] بن عياض: والله ما طمعوا فى الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدى لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم[٩] مقامعها.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذاً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنَّكال

(١) فى ت، ف: «فيقرع». (٢) فى ت: «يقرع». (٣) فى ت: «على».
(٤) المسند (٣/٢٩).
(٥) فى ت، ف: «عن».
(٦) المسند (٣/٨٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٧) فى ت، ف: «فيدعو». (٨) فى ت: «الفضل». (٩) فى ف: «ويردهم».

والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة ـ نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة ـ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تتخرّق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء»(١).

وقال كعب الأحبار: إن فى الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميتُه، يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قُلْب منها ـ أى: سوار منها ـ لرد شعاع الشمس، كما ترد(٢) الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفى الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج فى الدنيا، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»(٣).

قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا. إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يُرَوَّعون به(٤) ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء فى الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَسَ».

وقد قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أى: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: الطريق المستقيم فى الدنيا. وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ف: «يرد».

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (٥٤٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٤) فى ت: «يوبخون فيه»، وفى ف، أ: «يوبخون به».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾.

يقول تعالى منكراً على الكفار فى صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿**وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٤].

وفى هذه الآية دليل [على][1] أنها مَدنية، كما قال فى سورة «البقرة»: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ أى: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أى: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر، وهذا التركيب فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨] أى: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿**الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾ [أى: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائى عنه البعيد الدار منه، ﴿**سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾][2] ومن ذلك استواء الناس فى رباع مكة وسكناها، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام.

وقال مجاهد [فى قوله][3]: ﴿**سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][4].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعى وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخَيف، وأحمد بن حنبل حاضر[5] أيضاً، فذهب الشافعى، رحمه الله[6]، إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهرى، عن على بن الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غداً فى دارك[7] بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عَقيل من رباع». ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مُخَرّج فى الصحيحين[8] [وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ف. (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «حاضراً». (٦) فى ف: «رضى الله عنه»، وفى أ: «رضى الله تعالى عنه».
(٧) فى ف: «بدارك»
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهَويه بما رواه ابن ماجه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عيسى ابن يونس ، عن عُمَر بن سعيد بن أبى حُسَين[١]، عن عثمان بن أبى سليمان، عن علقمة بن نَضْلة قال: تُوفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا[٢] السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن[٣].

وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها.

وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم، وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبوّب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج فىَ عَرَصاتها، فكان أول من بَوّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك، فقال: أنظرنى يا أمير المؤمنين، إنى كنت امرأ تاجرا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لى ظهرى قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء[٤].

قال: وأخبرنا مَعْمر، عمن سمع عطاء يقول [فى قوله][٥]: ﴿**سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ**﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا.

وروى الدارقطنى من حديث ابن أبى نَجِيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفا[٦]: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً[٧].

وتوسط الإمام أحمد [فيما نقله صالح ابنه][٨] فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾: قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿**تَنبُتُ بِالدُّهْنِ**﴾ [المؤمنون: ٢٠] أى: تُنبِتُ الدهن، وكذا قوله: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ**[٩]﴾ تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرْماحُنا ... بين المَرَاجِلِ، والصَّرِيحَ الأجرد[١٠]

وقال الآخر[١١]:

بوَادٍ يمَانٍ يُنبتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ ... وَأَسْفَلُه بالمَرْخِ والشَّبَهَان

(١) فى ت: «جبير»، وفى ف، أ: «حيوة».
(٢) زيادة من ت، ف، أ .
(٣) سنن ابن ماجه برقم (٣١٠٧) وهو مرسل.
(٤) فى ت، ف: «شاء».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف، أ: «مرفوعاً».
(٧) سنن الدارقطنى (٢/ ٣٠٠).
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف، أ: «بإلحاد بظلم».
(١٠) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣).
(١١) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣) غير منسوب.

والأجود أنه ضمن الفعل ها هنا معنى «يَهُمّ»، ولهذا[١] عداه بالباء، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أى: يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار.

وقوله: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج[٢]، عن ابن عباس: هو [التعمد][٣].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾: بشرك.

وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾: هو أن تَستحلَ من الحرام ما حَرّم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَل ذلك فقد وَجَب [له][٤] العذاب الأليم.

وقال مجاهد: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾: يعمل فيه عملا سيئا.

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادى فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره:

حدثنا أحمد بن سنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّى: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله ـ يعنى: ابن مسعود ـ فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بـظلم، وهو بعَدَن أبينَ، أذاقه[٥] الله من العذاب الأليم.

قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رفعه، ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به[٦].

[قلت: هذا الإسناد][٧] صحيح على شرط البخارى، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صَمم شعبة على وَقْفه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثورى، عن السدى، عن مُرة، عن ابن مسعود موقوفا، والله أعلم.

وقال الثورى، عن السدى، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلا بَعَدن أبينَ هَمّ أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم. وكذا قال الضحاك بن مُزاحم.

وقال سفيان [الثورى][٨]، عن منصور، عن مجاهد «إلحاد فيه»، لا والله، وبلى والله. وروى عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله.

---

(١) فى ف: «ولذا». (٢) فى ت: «جرير».
(٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، ف، أ: «لأذاقه».
(٦) المسند (١/٤٢٨).
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) زيادة من ف.

وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما فوقَه.

وقال سفيان الثورى، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: تجارة الأمير فيه.

وعن ابن عمر: بيع الطعام [بمكة][(١)] إلحاد.

وقال حبيب[(٢)] بن أبى ثابت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهرى، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثنى موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد»[(٣)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر[(٤)]، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس فى قول الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت فى عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا فى الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصارىّ، ثم ارتد عن الإسلام، وهرَب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ يعنى: من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعنى بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أى: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم» الحديث[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُنَاسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد فى حَرَم الله، فإنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنه سيلحدُ فيه رجل من قريش، لو تُوزَن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو[(٦)].

وقال أيضا [فى مسند عبد الله بن عمرو بن العاص][(٧)]: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد،

---

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ت: «جندب».

(٣) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٠٢٠)، والفاكهى فى تاريخ مكة برقم (١٧٧١) من طريق أبى عاصم به.

(٤) فى ت، ف: «بكر».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢١١٨) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) المسند (٢/١٣٦).

(٧) زيادة من ف، أ.

حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس فى الحِجْر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحادَ فى الحرم، فإنى أشهد لسَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وُزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن[(١)] هو[(٢)].

ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فى البقعة التى أسسّتْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوأ إبراهيم مكانَ البيت، أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم ين قبله»، كما ثبت فى الصحيح[(٣)] عن أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[(٤)].

وقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾** الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: **﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [البقرة: ١٢٥].

وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا[(٥)].

وقال تعالى هاهنا: **﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي﴾** أى: ابنْه على اسمى وحدى، **﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾** قال مجاهد وقتادة: من الشرك، **﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، **﴿وَالْقَائِمِينَ﴾** أى: فى الصلاة؛ ولهذا قال: **﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب، وفى النافلة فى السفر، والله أعلم.

---

(١) فى ت: «لا يكون» وفى ف: «لا تكون».
(٢) المسند (٢١٩١٢).
(٣) فى ف: «الصحيحين».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).
(٥) انظر تفسير الآية: ١٢٥ من سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فَذُكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قُبَيس، وقال: يأيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمعَ مَن فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حَجَر ومَدَر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لبيك اللهم لبيك».

هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جَرير، وابن أبى حاتم مُطَوّلة[(١)(٢)].

وقوله: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضلُ من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام.

وقوله: ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعنى: طريق، كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثورى، وغير واحد.

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٢٩) ﴾.

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح[(٣)] والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨].

---

(١) فى ف: «بطوله».

(٢) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٦).

(٣) فى ت، ف،أ: «والذبائح».

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ [فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ][١] عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، قال شعبة [وهُشَيْم][٢] عن [أبى بشر عن سعيد][٣] عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم به[٤]. ويروى مثله عن أبى موسى الأشعرى، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى، وإبراهيم النَّخعى. وهو مذهب الشافعى، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه» قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء».

ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه[٥]. وقال الترمذى: حديث حسن غريب صحيح. وفى الباب عن ابن عمر، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر.

قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته[٦]، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد:

حدثنا عَفَّان، أنبأنا أبو عَوَانة، عن يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهم من التهليل والتكبير والتحميد»[٧] وروى من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه[٨].

وقال البخارى: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[٩].

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا: أن هذا هو العشر الذى أقسم الله به فى قوله: ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢][١٠].

وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[الأعراف: ١٤٢].

وفى سنن أبى داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر[١١].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذى ثبت فى صحيح مسلم عن أبى قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية»[١٢].

(١، ٢، ٣) زيادة من ف، أ.
(٤) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(٥) صحيح البخارى برقم (٩٦٩) وسنن أبى داود برقم (٢٤٣٨) وسنن الترمذى برقم (٧٥٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٢٧).
(٦) سماه: «الأحاديث الواردة فى فضل الأيام العشرة من ذى الحجة».
(٧) المسند (٢/ ٧٥).
(٨) رواه أبو عوانة ـ كما فى إرواء الغليل (٣٩٨١٣) عن الحافظ ابن حجر ـ من طريق موسى بن أبى عائشة عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما.
(٩) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(١٠) المسند (٣/ ٣٢٧).
(١١) سنن أبى داود برقم (٢٤٣٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٢) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه.

ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله[١].

وبالجملة، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه.

وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر.

وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالى ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان فى الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النَّخَعى، وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عَجْلان، حدثنى نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر.

هذا إسناد صحيح إليه، وقاله [٢]السدى: وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ**﴾ يعنى به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبى حنيفة.

وقال ابن وهب: حدثنى [٣] ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ**﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى فى سورة الأنعام وأنها ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وقوله﴿ **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذى عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها[٤].

وقال عبد الله بن وهب: [قال لى مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا**﴾: قال ابن وهب][٥]: وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك.

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٣٥٠) وأبو داود فى السنن برقم (١٧٦٥) من حديث عبد الله بن قرط رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «وقال». (٣) فى ت، ف: «وقال ابن وهب وحدثنى».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ف، أ.

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروى عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك.

قال هُشَيْم، عن حُصَين، عن مجاهد فى قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: هى كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ[1] الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾[الجمعة: ١٠].

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء.

والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله فى الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦] وسيأتى الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذى عليه البؤس، [والفقير][2]: المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذى لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزَّمِن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو وضع [الإحرام][3]، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظى.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث: المناسك.

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: نحر ما نذر من أمر البُدن.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج.

وقال إبراهيم بن مَيْسَرَة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: [حجهم.

وكذا روى الإمام ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان فى قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال:][4] نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت

(١) فى ت: «قضيتم». (٢، ٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من ت، ف، أ.

وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمى الجمار، على ما أمروا به. وروى عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبى حمزة قال: قال لى ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول [١] الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض[٢].

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل [٣] البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر العَدَنى، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجْر، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من ورائه[٤].

وقال قتادة، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [قال][٥]: لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

وقال ابن أبى نَجِيح وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرِده أحد بسوء إلا هلك.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن ابن الزبير قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة[٦].

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرنى

---

(١) فى ت: «فيقول».

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٣) فى أ: «داخل».

(٤) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦/ ٤١).

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٢).

الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار».

وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل النجارى[(١)]، عن عبد الله بن صالح، به[(٢)]. وقال: إن كان صحيحاً وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى، مرسلا[(٣)].

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾.

يقول تعالى: هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه، **﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾** أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات و[اجتناب] [(٤)] المحظورات.

قال ابن جريج: قال مجاهد فى قوله: **﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾** قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: **﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾** أى: أحللنا [(٥)] لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام.

وقوله: **﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾** أى: من تحريم **﴿ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ [إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ][(٦)]﴾** الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾**: «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. وقرن الشرك بالله [(٧)]بقول الزور، كقوله: **﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفى الصحيحين عن أبى بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس، فقال: ـ ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت[(٨)].

---

(١) فى ف: «المحاربى».
(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٧٠) وفيه «هذا حديث حسن صحيح» وأظنه خطأ.
(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «أحلت». (٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) فى أ: «به».
(٨) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكا بالله» ثلاثا، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

وهكذا رواه الترمذى، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، به[1]. ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبى ﷺ».

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفُرِىّ، عن أبيه، عن حبيب ابن النعمان الأسدى، عن خريم بن فاتك [2] الأسدى قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائما فقال: «عدلت شهادة الزور الإشرك بالله، عز وجل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[3].

وقال سفيان الثورى، عن عاصم بن أبى النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية[4].

وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ أى: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلا فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾، أى: تقطعه الطيور فى الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أى: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء فى حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث فى سورة «إبراهيم» [5] بحروفه وألفاظه وطرقه.

وقد ضرب[الله][6]تعالى للمشرك مثلا آخر فى سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ [وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ][7]﴾[الأنعام: ٧١].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) ﴾.

---

(١) المسند (٤/ ١٧٨) وسنن الترمذى برقم (٢٢٩٩).

(٢) فى ت: «مقاتل».

(٣) المسند(٤/ ٣٢١).

(٤) تفسير الطبرى(١٧/ ١١٢).

(٥) انظر تفسير الآية: ٢٧.

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ف، أ، وفى الأصل: «الآية».

يقول تعالى: هذا﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم، عن مقْسَم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبى ليلى، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام.

وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون. رواه البخارى[١].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراءَ أحبّ إلى الله من دم سَوداوين». رواه أحمد، وابن ماجه[٢].

قالوا: والعفراء هى البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضا؛ لما ثبت فى صحيح البخارى، عن أنس: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين[٣].

وعن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فَحيل[٤] يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد.

رواه أهل السنن، وصححه الترمذى[٥]، أى: بكبش أسود[٦] فى هذه الأماكن.

وفى سنن ابن ماجه، عن أبى رافع: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين[٧]. قيل: هما الخَصِيَان. وقيل: اللذان رُضَّ خُصْياهما، ولم يقطعهما[٨]، والله أعلم.

وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين [والموجوءين قيل: هما الخصيين][٩] [١٠].

وعن على رضى الله عنه، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابَلَة، ولا مدابَرَة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء.

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[١١].

ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نُضحى[١٢] بأعضب القرن والأذن[١٣].

---

(١) صحيح البخارى (١٠/٩) «فتح» معلقاً.
(٢) المسند (٢/٤١٧) ولم يقع لى فى سنن ابن ماجه.
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨).
(٤) فى ف: «فحل».
(٥) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٦) وسنن النسائى (٧/٢٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٨).
(٦) فى أ: «فيه نكتة سوداء».
(٧) لم يقع فى سنن ابن ماجه من حديث أبى رافع وإنما من حديث عائشة وأبى هريرة برقم (٣١٢٢) وحديث أبى رافع رواه أحمد فى المسند (٦/٨).
(٨) فى ت: «ولم يقطعها». (٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٥).
(١١) المسند (١/٨٠)، وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٨) وسنن النسائى (٧/٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٢).
(١٢) فى ت: «يضحى».
(١٣) المسند (١/٨٣) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٥) وسنن الترمذى برقم (١٥٠٤) وسنن النسائى (٧/٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٥).

وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصْف فأكثر.

وقال بعض أهل اللغة: إن كُسر قرنها الأعلى فهى قصماء، فأما العَضْب فهو كسر الأسفل، وعضب الأذن قطع بعضها.

وعند الشافعى أن التضحية بذلك مجزئة، لكن تكره.

وقال [الإمام](1) أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن؛ لهذا الحديث.

وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة: فهى التى قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هى التى قطعت أذنها طولا، قاله الشافعى. والخرقاء: هى التى خرَقت السّمَةُ أذنها خرقا مُدوّراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز فى الأضاحى: العوراء البيّن عوَرها، والمريضة البين مرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها(2)، والكسيرة التى لا تُنقِى».

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى(3).

وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية(4) بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضاً يسيراً، على قولين.

وروى أبو داود، عن عُتبة بن عبد السّلَمى؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن المُصْفَرَة، والمستأصَلَة، والبَخْقاء، والمشيَّعة، والكسراء(5)(6).

فالمصفرة قيل: الهزيلة. وقيل: المستأصلة الأذُن. والمستأصلة: المكسورة القرن. والبخقاء: هى العوراء. والمشيعة: هى التى لا تزال تُشَيَّع خَلفَ الغنم، ولا تَتْبَع لضعفها. والكسراء: العرجاء.

فهذه العيوب كلها مانعة [من الإجزاء، فإن طرأ العيب](7) بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعى خلافا لأبى حنيفة.

وقد روى الإمامُ أحمد، عن أبى سعيد قال: اشتريت كبشا أضحى به، فعدا الذئب فأخذ الألية. فسألت النبى ﷺ، فقال: «ضَحِّ به»(8).

ولهذا [جاء](9) فى الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. أى: أن تكون

---

(1) زيادة من ت.

(2) فى ت، أ: «عرجها».

(3) المسند (٤/ ٢٨٤) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٧) وسنن النسائى (٧/ ٢١٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٤).

(4) فى أ: «الأضحية».

(5) فى أ: «الكسيرة».

(6) سنن أبى داود برقم (٢٨٠٣).

(7) زيادة من ف، أ.

(8) المسند (٣/ ٣٢).

(9) زيادة من أ.

الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدَى عمر نَجيباً، فأعطى بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أهديت نجيباً، فأعطِيتُ بها ثلاثمائة دينار، أفأبيعها وأشترى بثمنها بدْناً؟ قال: «لا، انحرها إياها»(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله.

وقال محمد بن أبى موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والبدن والحلق: من شعائر الله.

وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قال مِقْسَم، عن ابن عباس [فى قوله](٢): ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم يُسَمّ بُدناً.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمّيت بَدَنَةً أو هَدياً، ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، [ومقاتل](٣) وعطاء الخراسانى، وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدَنَةً، قال: «اركبها». قال: إنها بَدَنَة. قال: «اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة(٤).

وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئتَ إليها»(٥).

وقال شعبة، عن زهير بن أبى ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حَذْف، عن على؛ أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدَها.

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: مَحِل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريبا، ولله الحمد(٦).

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

---

(١) المسند (٢/ ١٤٥) وسنن أبى داود برقم (١٧٥٦).
(٢) زيادة من ت، ف، أ.
(٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (١٦٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٦) فى ت: «والله أعلم».

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾.

يخبر تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيداً.

وقال عكرمة: ذبحا. وقال زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها.

[وقوله][1]: ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحهما[2].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سَلاّم بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعى، عن أبى داود ـ وهو نُفَيْع بن الحارث ـ عن زيد بن أرقم قال: قلت ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، ما هذه الأضاحى؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة».

وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه، من حديث سلام بن مسكين، به[3].

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي[4] إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[5][الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدى: الوجلين. وقال عمرو بن أوس[6]: المخبتون[7]: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثورى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له.

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨) وصحيح مسلم برقم (١٩٦٦).

(٣) المسند (٤/ ٣٦٨).

(٤) فى ت، أ: «يوحى». (٥) فى ت: «فاعبدونى». (٦) فى ت، ف، أ: «إدريس».

(٧) فى ت: «المخبتين».

وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبُهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصائب.

قال الحسن البصرى: والله لتصبرنّ أو لتهلكنّ.

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾: قرأ الجمهور بالإضافة. السبعةَ، وبقيةَ العشرة أيضا. وقرأ ابن(١) السَّمَيْقَع: «والمقيمينَ الصلاة» بالنصب.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾، وإنما حذفت النون هاهنا تخفيفا، ولو حذفت للإضافة لوجب خفضَ الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت.

أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أى: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره فى سورة «براءة» [فلله الحمد والمنة](٢) (٣).

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هى أفضل ما يهدى [إلى بيته الحرام](٤)، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ [وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا](٥)﴾ الآية: [المائدة: ٢].

قال ابن جُرَيج: قال عطاء فى قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، قال: البقرة، والبعير. وكذا رُوى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى.

وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

قلت: أما إطلاق البَدَنَة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح فى الحديث.

ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله [وغيره](٦)، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشتركَ فى الأضاحى،

---

(١) فى ت: «أبو»

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) انظر تفسير الآية: ٦٧.

(٤ ـ ٦) زيادة من أ.

البدنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة(١).

[وقال إسحاق بنُ رَاهَويه وغيره: بل تُجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة](٢). وقد ورد به حديث فى مسند الإمام أحمد، وسنن النسائى، وغيرهما(٣)، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أى: ثواب فى الدار الآخرة.

وعن سليمان بن يزيد الكعبى، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله من هِرَاقة دم، وإنه ليأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطِيبُوا بها نفسا». رواه ابن ماجه، والترمذى وحَسنه(٤).

وقال سفيان الثورى: كان أبو حاتم(٥) يستدين ويسوق البُدْن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إنى سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الوَرَقَ فى شىء أفضلَ من نحيرة فى يوم عيد». رواه الدارقطنى فى سننه(٦).

وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع.

وقال إبراهيم النَّخَعِىّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾: وعن [المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن](٧) جابر ابن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيدَ الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعمن لم يُضَحِّ من أمتى».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى(٨).

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبى حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته». ثم سمى الله وكبر

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣١٨).

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) المسند (١/ ٢٧٥) وسنن النسائى (٧/ ٢٢٢) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فحضر النحر فاشتركنا فى البعير عن عشرة والبقرة عن سبعة».

(٤) سنن الترمذى برقم (١٤٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٦).

(٥) فى أ: «أبو حازم».

(٦) سنن الدارقطنى (٤/ ٢٨٢) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس.

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) المسند (٣/ ٣٥٦) وسنن أبى داود برقم (٢٨١٠) وسنن الترمذى برقم (١٥٢١) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

وذبح[١].

وعن على بن الحسين، عن أبى رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى[٢] بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية[٣]، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمتى جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ». ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيُطعمهما جميعاً المساكين، [ويأكل][٤] هو وأهله منهما.

رواه أحمد، وابن ماجه[٥].

وقال الأعمش، عن أبى ظَبْيَان، عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَ﴾، قال: قياما على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر[٦]، اللهم منك ولك». وكذلك روى مجاهد، وعلى بن أبى طلحة، والعَوْفى، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. ورَوَى ابن أبى نَجِيح، عنه، نحوه[٧].

وقال الضحاك: تُعقل رجل[٨] واحدة فتكون على ثلاث.

وفى الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنَته وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبى القاسم ﷺ[٩].

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْن معقولةَ اليسرى، قائمة على ما بقى من قوائمها. رواه أبو داود[١٠].

وقال ابن لَهِيعة: حدثنى عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قفْ من شقها الأيمن، وانحرْ من شقها الأيسر.

وفى صحيح مسلم، عن جابر، فى صفة حجة الوَدَاع، قال فيه: فنحر رسولُ الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بَدَنة، جعل[١١] يَطعَنُها بحَربة فى يده[١٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: فى حرف ابن مسعود: «صوافن»، أى: مُعقَّلة[١٣] قياما[١٤].

---

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٦٢ من سورة «الأنعام».
(٢) فى ت: «أمر». (٣) فى ت، أ: «بالمدينة». (٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند (٦/٨) وتقدم الحديث فى هذه السورة.
(٦) فى ف، أ: «والله أكبر، لا إله إلا الله». (٧) فى أ: «نحو هذا». (٨) فى ت، ف: «يعقل يداً».
(٩) صحيح البخارى برقم (١٧١٣) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٠).
(١٠) سنن أبى داود برقم (١٧٦٧).
(١١) فى ت: «وجعل».
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).
(١٣) فى ت، أ: «معلقة».
(١٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٣).

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد: مَن قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَافَّ﴾، قال: تصف بين يديها.

وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: «فاذكروا اسم الله عليها صوافى» يعنى: خالصة لله عز وجل. وكذا رواه مالك، عن الزهرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد: «صوافىَ»: ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال: ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: يعنى: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: نحرت.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَة[(١)] إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرد حركتها. وقد جاء فى حديث مرفوع: «ولا تُعجلُوا النفوسَ أن تَزْهَق»[(٢)]. وقد رواه الثورى فى جامعه، عن أيوب، عن يحيى ابن أبى كثير، عن فَرافصَة الحنفى، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال ذلك[(٣)]. ويؤيده حديث شَدّاد بن أوس فى صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح[(٤)]، ولْيُحدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته»[(٥)].

وعن أبى واقد الليثى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطع من البهيمة وهى حية، فهو ميتة».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وصححه[(٦)].

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف[(٧)]: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة.

وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعية. واختلف فى المراد بالقانع والمعتر، فقال العوفى، عن ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو فى بيته. والمعترّ: الذى يتعرض لك، ويُلمّ بك أن تعطيَه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ.

---

(١) فى ت: «البدن».

(٢) رواه الدارقطنى فى السنن (٤/٢٨٣) من طريق سعيد بن سلام العطار عن عبد الله بن بديل عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً وسعيد بن سلام العطار كذبه أحمد وابن نمير، وضعف البيهقى هذا الحديث فى السنن الكبرى (٩/ ٢٧٨).

(٣) ومن طريقه رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ٢٧٨).

(٤) فى ت: «الذبحة».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٥٥).

(٦) المسند (٥/ ٢١٨) وسنن أبى داود برقم (٢٨٥٨) وسنن الترمذى برقم (١٤٨٠).

(٧) فى أ: «الناس».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتر: السائل. وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخَعى، ومجاهد فى رواية عنه.

وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكْرِمَة[١]، والحسن البصرى، وابن الكلبى، ومُقَاتل بن حَيَّان، ومالك بن أنس: القانع: هو الذى يَقْنَع إليك ويسألك. والمعتر: الذى يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن.

وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَّاخ.

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فَيُغْنى مَفَاقِرَه[٢]، أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ[٣]

قال: يعنى من السؤال، وبه قال ابن زيد.

وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف[٤] الذى يزور. وهو رواية عن عبد الله[٥] بن زيد أيضاً.

وعن مجاهد أيضا: القانع: جارك الغنى [الذى يبصر ما يدخل بيتك][٦]. والمعتر: الذى يعتريك[٧] من الناس.

وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذى يَعْتَر بالبُدْن من غنى أو فقير.

وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة.

واختار ابنُ جرير أنّ القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعترار، وهو: الذى يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأً ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله [منها][٨] ،وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. وفى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إنى كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»[٩]. وفى رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفى رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»[١٠].

والقول الثانى: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله فى الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله فى الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

فإن أكل الكل فقيل[١١]: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سُرَيج من الشافعية.

---

(١) فى ف، أ: «وعكرمة وزيد بن أسلم». (٢) فى ت: «مفارقه».
(٣) البيت فى ديوانه (ص٢٢١) أ.هـ مستفاداً من حاشية الشعب.
(٤) فى ت: «والضيف». (٥) فى أ: «عن أبيه عبد الرحمن». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «يعتزل». (٨) زيادة من ت، ف، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه.
(١٠) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٤٨٤) من حديث جابر رضى الله عنه.
(١١) فى ت، ف، أ: «فقد قيل».

وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعى.

وأما الجلود، ففى مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضاحى: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»(١) .

ومن العلماء من رخص [فى ذلك](٢) ، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم .

[مسألة](٣) :

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ(٤) به فى يومنا هذا أن نصلى، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم [عجله](٥) لأهله، ليس هو من النسك فى شىء» أخرجاه(٦) .

فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء فى صحيح مسلم: «وألا تذبحوا حتى يذبح الإمام»(٧) .

وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم(٨)، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد(٩) عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر(١٠) الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «وأيام التشريق كلها ذبح». رواه أحمد وابن حبان(١١) .

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذى الحجة، وبه قال إبراهيم النَّخَعِىّ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وهو قول غريب .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: يقول تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أى: ذللناها لكم، أى: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ

---

(١) المسند (٤/ ١٥) .

(٢، ٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت: «يبدأ» . (٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى، وفى هـ: «يبديه».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٥٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٩٦١) .

(٧) لم يقع لى فى مسلم هذا اللفظ وينظر صحيح مسلم (٣/ ١٥٥١) .

(٨) فى ف: «وغيرها» . (٩) فى أ: «عيد تشرع». (١٠) فى ف: «لتيسير» .

(١١) المسند (٤/ ٨٢) .

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: **﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** .

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ .

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق(١) لا أنه يناله شىء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه .

وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابتنهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: **﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾** .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله : **﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾** أى: يتقبل ذلك ويجزى عليه .

كما جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم(٢)، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٣) وما جاء فى الحديث: «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث. رواه(٤) ابن ماجه، والترمذى وحَسّنه عن عائشة مرفوعا. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم .

وقال وكيع، عن [يحيى](٥) بن مسلم أبى الضحاك: سألت عامرًا الشعبى عن جلود الأضاحى، فقال: **﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾**، إن شئت فبع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق .

وقوله: **﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾** أى: من أجل ذلك سخر(٦) لكم البُدن، **﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾** أى: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، ، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه .

وقوله: **﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾** أى: وبشر يا محمد المحسنين، أى: فى عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ماشرَعَ لهم، المصدقين الرسولَ فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

[مسألة](٧):

وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثورى إلى القول(٨) بوجوب الأضحية على من ملك نصابا، وزاد

---

(١) فى ت، ف: «الرزاق» .
(٢) فى ت، ف: «ألوانكم» .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) .
(٤) فى ت: «ورواه».
(٥) زيادة من ت.
(٦) فى ت، ف: «سخرناها» .
(٧) زيادة من ف .
(٨) فى ت: «بالقول» .

أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضًا. واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبى هريرة مرفوعا: «من وجد سَعَة فلم يُضَحِّ، فلا يقربن مُصَلانا»(١) على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل(٢) .

وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحى. رواه الترمذى(٣) .

وقال الشافعى، وأحمد: لاتجب الأضحية، بل هى مستحبة؛ لما جاء فى الحديث: «ليس فى المال حق سوى الزكاة»(٤). وقد تقدم أنه، عليه السلام(٥)، ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم .

وقال أبو سَرِيحةَ: كنت جارًا لأبى بكر وعمر، فكانا لايضحيان خشية أن يقتدى الناس بهما.

وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة، سقطت عن الباقين؛ لأن المقصود إظهار الشعار .

وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن ـ وحسنه الترمذى ـ عن مِخْنَف بن سليم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت فى كل عام أضحاة وعَتِيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هى(٦) التى تدعونها الرَّجبية». وقد تكلم فى إسناده(٧) .

وقال أبو أيوب: كان الرجل فى عهد رسول الله ﷺ يضحى بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، يأكلون ويطعمون [حتى تباهى](٨) الناس فصار كما ترى .

رواه الترمذى وصححه، وابن ماجه(٩) .

وكان عبد الله بن هشام يضحى بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخارى .

وأما مقدار سِنّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسِنَّة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن»(١٠) .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٣) .

(٢) فى إسناده عبد الله بن عياش، قال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٥٠): «وإن روى له مسلم فإنما روى له فى المتابعات والشواهد فقد ضعفه أبو داود والنسائى، وقال أبو حاتم ،وابن يونس: منكر الحديث وذكره ابن حبان فى الثقات» .
ثم نقل عن البيهقى أنه بلغه عن الترمذى: أن الصحيح عن أبى هريرة موقوف ا. هـ .
ويمكن أن يجاب بأن هذا الحديث لا يدل على الوجوب، كما فى حديث: «من أكل الثوم فلا يقربن مصلانا» ذكر ذلك ابن الجوزى وهناك لايلزم استنكاره .

(٣) سنن الترمذى برقم (١٥٠٧) وحسنه .

(٤) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (١٧٨٩) من حديث فاطمة بنت قيس رضى الله عنها .

(٥) فى أ: «ﷺ». (٦) فى ف، أ: «قال: هى».

(٧) المسند (٤/ ١٢٥) وسنن أبى داود برقم (٢٧٨٨) وسنن الترمذى برقم (١٥١٨) وسنن النسائى (٧/ ١٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٥) .

(٨) زيادة من ت، ف .

(٩) سنن الترمذى برقم (١٥٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٧) .

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٩٦٣) .

ومن هاهنا ذهب الزهرى إلى أن الجذَعَ لايجزئ. وقابله الأوزاعى فذهب إلى أن الجذَعَ يجزئ من كل جنس، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزئ الثَّنى من الإبل والبقر والمعز، والجذع من الضأن، فأما الثنى من الإبل: فهو الذى له خمس سنين، ودخل فى السادسة. ومن البقر: ما له [سنتان][1] ودخل فى [الثالثة][2]، وقيل: [ما له][3] ثلاث [ودخل فى][4] الرابعة. ومن المعز: ما له سنتان. وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سنِّه، وما دونه فهو حَمَل، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذَع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدْعين، والله أعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾.

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أى: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال. والكفر[5]: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾.

قال العَوفى، عن ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة.

وقال غير واحد من السلف[6]: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن داود الواسطى: حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم ـ هو البَطين ـ عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: لما أخرج[7] النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكُن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال.

(١ـ ٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت: «والكفور».
(٦) فى ف، أ: «وقال مجاهد والضحاك وقتادة».
(٧) فى ت، ف: «خرج».

ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به[١] وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال.

ورواه الترمذى، والنسائى فى التفسير من سننيهما، وابن أبى حاتم[٢] من حديث إسحاق بن يوسف ـ زاد الترمذى: ووكيع، كلاهما عن سفيان الثورى، به. وقال الترمذى: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثورى، وليس فيه ابن عباس[٣].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوا[٤] جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ[٥] وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ [اللَّهُ][٦] الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فعَل.

وإنما شرع [الله][٧] تعالى الجهادَ فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمرَ المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين[٨] لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادى ـ يعنون أهل مِنَى ـ ليالى مِنى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أومر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبى ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَر مَذَر، فذهب[٩] منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلا يلجؤون إليه ـ شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٣) والمسند (١/ ٢١٦).
(٢) فى ت: «ماجه».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٧١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٥).
(٤) فى ت، أ: «يبذلوا».
(٥) فى ت: «بأيديهم».
(٦) زيادة من ت، ف، أ.
(٧) زيادة من ف.
(٨) فى ت: «المنافقين».
(٩) فى ف: «فذهبت».

لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.

﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله[١] وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق، ويقولون:

لاَهُمّ[٢] لَولاَ أنتَ ما اهتَدَينا ... ولاَ تَصَــــدّقْنَا ولاَ صَلّينَا

فَأنْزِلَــــنْ سَــكِينَةً عَلَينَــا ... وثَبّت الأقْـــدَامَ إنْ لاَقَينَا

إنّ الألَـــى قد بَغَوا عَلَينَا ... إذَا أرَادوا فِتْنَـةً أبَيْنَـــا[٣]

فيوافقهم رسول الله ﷺ، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنة أبينا»، يقول: «أبينا»، يمد بها صوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شرّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾: وهى المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعِكْرِمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حَيَّان: هى البيوت التى على الطرق.

﴿وَبِيَعٌ﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهى للنصارى أيضاً. قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن[٤] صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.

وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السدى، عمن حدّثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هى الكنائس، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صَلُوتا.

وحكى السدى، عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى.

---

(١) فى ف، أ: «وحد الله». (٢) فى أ: «والله».

(٣) الأبيات لعامر بن الأكوع كما فى صحيح مسلم برقم (١٨٠٣).

(٤) فى أ: «أبو».

وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهى للمسلمين.

وقوله: ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾: فقد قيل: الضمير فى قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا.

وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان وبيعُ النصارى وصلوات اليهود، وهى كنائسهم، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب.

وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهى إلى المساجد، وهى أكثر عُمَّارا وأكثر عبادا، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، كقوله[(١)] تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شىء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شىء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوىّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ .وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣] وقال [الله][(٢)] تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الربيع الزَّهْرَانى، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مُكنّا فى الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهى لى ولأصحابى.

---

(١) فى ت: «لقوله».

(٢) زيادة من ت.

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقال الصباح بن سوادة الكِنْدىّ: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: إلا أنها ليست على الوالى وحده، ولكنها على الوالى والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم، وبما للوالى عليكم منه؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفى: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ [كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ](١)﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ(٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾.

يقول تعالى مسليا نبيَّه محمدا ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال(٢): ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، أى: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف كان إنكارى عليهم، ومعاقبتى لهم؟!

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

وفى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢]»(٣).

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ف، أ: «وعاد وثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن [(١)] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾] [(٢)] أى: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها.

﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: قال عكرمة: يعنى المُبَيّض بالجص.

وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المَلِيح، والضحاك، نحو ذلك.

وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع.

وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف، كما قال ابن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر والاعتبار»:

حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سَيَّار، حدثنا [(٣)] جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سِحْ فى الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان [(٤)] وتكسر العصا.

وقال ابن أبى الدنيا: قال بعض الحكماء: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت [(٥)]، وقرِّره بالفناء [(٦)]، وبَصِّره فجائع [(٧)] الدنيا، وحَذِّره صولة [(٨)] الدهر وفحشُ تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب [(٩)] من كان قبله، وسِرْ فى ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا.

أى: فانظروا [(١٠)] ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿ فَتَكُونَ [(١١)] لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخبر. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى - وهو أبو محمد عبد الله ابن محمد بن سارة [(١٢)] الأندلسى الشَّنْتَرينى، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

(١) فى ت، ف: «وكأين». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت، ف: «ابن».
(٤) فى ت، ف: «تتخرق النعال». (٥) فى ت، ف: «بالقرب». (٦) فى ت، ف: «وتدبره بالثناء».
(٧) فى ت، ف، أ: «بمجامع». (٨) فى ف: «بصولة». (٩) فى ت، أ: «وذكره بأم كتاب».
(١٠) فى ت، ف: «فينظروا». (١١) فى ت: «فيكون». (١٢) فى ت، ف، أ: «ابن حبان».

يا مَن يُصيخَ إلى دَاعى الشقَاء، وقَد نَادَى به الناعيَان: الشيبُ والكبَرُ
إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَى، ففيم تُرَى فى رَأسك الوَاعيان: السمعُ والبَصَرُ؟
ليسَ الأصمّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل لم يَهْده الهَاديان: العَينُ والأثَرُ
لاَ الدّهرُ يَبْقَى ولاَ الدنيا، ولاَ الفَلَك الـ ـأعلى ولا النَّيّران: الشَّمْسُ والقَمَرُ
لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وإن كَرِها[١] فراقها، الثاويان: البَدْو والحَضَرُ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه[٢]. ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ**﴾ أى: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون[٣] بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال [الله][٤] تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿**وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ أى: الذى قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

قال الأصمعى: كنت عند أبى عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن[٥] العجم أنت؟ إن العرب تَعدُ الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أو مَا سمعتَ قول الشاعر[٦]:

لا يُرْهِبُ ابنَ العم منى[٧] سَطْوَتى ولا أختَتِى[٨] من سَطْوة المُتَهَدّد
فإنّى وإن أوْعَدْتُه أوْ وَعَدْتُه لَمُخْلفُ إيعَادى ومُنْجزُ مَوْعدى

وقوله: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ أى: هو تعالى لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شىء، وإن أجَّلَ وأنظَر وأملى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفَة، حدثنى عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن

---

(١) فى ت، ف، أ: «كرهن». (٢) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٣) فى ت، ف: «الملحدين المكذبين».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت، ف، أ: «من». (٦) هو عامر بن الطفيل والبيت فى اللسان مادة (ختأ)، (وعد).
(٧) فى ت، ف، أ: «والجار». (٨) فى ت، ف، أ: «ينثنى».

أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث الثورى، عن محمد بن عمرو، به[١]. وقال الترمذى: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن أبى هريرة موقوفا[٢]، فقال:

حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا سعيد الجُرَيرى، عن أبى نَضْرَة، عن سُمَيْر بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أوَ ما تقرأ القرآن؟. قلت: بلى. قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣].

وقال أبو داود فى آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن شُرَيح بن[٤] عُبَيد، عن سعد بن أبى وَقاص، عن النبى ﷺ أنه قال: «إنى لأرجو ألا تَعْجِزَ أمتى عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنَان[٦]، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدىّ، عن إسرائيل، عن سمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض.

رواه ابن جرير، عن ابن بَشّار[٧]، عن ابن مهدى[٨]. وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل فى كتاب «الردّ على الجهمية».

وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عارم ـ محمد بن الفضل ـ حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عَتيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلمَ قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة فى اليوم السابع، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم فى اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، فى أية لحظة ولدت كان تماما.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٣٥٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٨) أى أن النصف يوم خمسمائة عام.

(٢) فى ت: «مرفوعاً».

(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٩).

(٤) فى ت: «عن».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٣٥٠).

(٦) فى ف، أ: «شيبان».

(٧) فى ت: «يسار».

(٨) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٩).

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وُقُوعَ العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شىء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، [و](1) ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حَسَنَةٌ على القليل من حسناتهم.

[و](2) قال محمد بن كعب القُرَظِىّ: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: قال مجاهد: يُثَبِّطون الناس عن متابعة النبى ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين.

وقال ابن عباس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين.

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: وهى النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغَرَانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظَنّا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

---

(١) زيادة من ف.

(٢) زيادة من ت.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾** قال: فألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغَرَانيق العلى. وإن شفاعتهن[(١)] ترتجى». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجَدَ وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ [فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ][(٢)]﴾**.

رواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه[(٣)]، وهو مرسل، وقد رواه البزار فى مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ فيما أحسب، الشك فى الحديث ـ أن النبى ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتى انتهى إلى: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾**، وذكر بقيته. ثم قال البزار: لا[(٤)] يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يُروى هذا من طريق الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس[(٥)].

ثم رواه ابن أبى حاتم، عن أبى العالية، وعن السدى، مرسلا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد ابن كعب القرظى، ومحمد بن قيس، مرسلا أيضا[(٦)].

وقال قتادة: كان النبى ﷺ [يصلى][(٧)] عند المقام إذ نَعَس، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتها لترتجى. وإنها لمع الغرانيق العلى»، فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبى الله قد قرأها، فزلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ [وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ][(٨)]﴾** الآية، فَدَحَر الله الشيطان.

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا موسى بن أبى موسى الكوفى، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبى، حدثنا محمد بن فُلَيْح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان[(٩)] يتمنى هُداهم، فلما أنزل الله سورة

---

(١) فى ت، ف: «شفاعتهم». (٢) زيادة من ف، أ وفى ت: «الآية».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٣).
(٤) فى ف، أ: «لانعلمه».
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٦٣) «كشف الأستار».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣١).
(٧) زيادة من أ. (٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف: «وكان».

«النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى[(١)]». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدا، قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ [آخر النجم][(٢)]، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا، فرفع على [(٣)] كفه ترابا، فسجد عليه. فعجب الفريقان كلاهما [(٤)] من جماعتهم فى السجود، لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ـ ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التى [(٥)] ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ـ فأطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطانُ فى أمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم. ففشت تلك الكلمة فى الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحُدِّثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة فأقبلوا سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه[(٦)] من الفرية، وقال [تعالى][(٧)]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، فلما بين الله قضاءه، وبرأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم [(٨)] وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم. وهذا أيضاً مرسل.

وفى تفسير ابن جرير عن الزهرى، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه[(٩)]. وقد رواه الإمام [(١٠)] أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجُزْ به موسى بن عقبة، ساقه فى مغازيه بنحوه، قال: وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة.

قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك فى نفس الأمر، بل إنما

---

(١) فى أ: «ترجى».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت، أ: «ملء».
(٤) فى ت: «الفريقان منهما كلاهما».
(٥) فى أ: «الذى».
(٦) فى ت، أ: «وحفظه الله».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف: «بضلالتهم».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/١٣٣).
(١٠) فى أ: «الحافظ».

كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم[١].

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضى عياض، رحمه الله، فى كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله[٢].

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٥/ ٣٩٤).

(٢) كذا فى جميع النسخ وكلام القاضى عياض فى الشفاء (٢/ ١٠٧) أذكره مختصراً له، قال رحمه الله:

«فاعلم، أكرمك الله أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: فى توهين أصله. والثانى: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل.. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكى حيث قال: لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه فى الصلاة، وآخر يقول: قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه وإن النبى ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ماهكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبى ﷺ قرأها فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال: «والله ما هكذا أنزلت».

إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة وأهية.

والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشرٍ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: فيما أحسب ـ الشك فى الحديث أن النبى ﷺ كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

فقد بين لك أبو بكر، رحمه الله، أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه.

أما حديث الكلبى فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار، رحمه الله.

والذى منه فى الصحيح: أن النبى ﷺ قرأ «والنجم» وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس هذا توهينه من طريق النقل.

أما من جهة المعنى، فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبى ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل، عليه السلام، وذلك كله ممتنع فى حقه ﷺ.

أو يقول ذلك النبى ﷺ من قبل نفسه عمدا وذلك كفر، أو سهواً وهو معصوم من هذا كله.

ووجه ثان: هو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبى ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه!!

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبى ﷺ لأقل فتنة، وتعيرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة...

ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت **﴿وإن كادوا ليفتنونك..﴾** الآيتين.

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً فكيف كثيرا وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له، وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى: **﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت=**

وقوله: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه[١]، أى: لا يَهيدنّك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخارى: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدّث ألقى الشيطان فى حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ [أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يقول: إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه.

وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّى]﴾[٢]، يعنى: إذا قال.

ويقال: ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾: قراءته، ﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، يقولون ولا يكتبون.

قال البغوى: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰ﴾ أى: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: فى تلاوته، قال الشاعر فى عثمان حين قتل:

تَمَنّى كتَابَ الله أوّلَ لَيْلَة وآخرَها لاقَى حمَامَ المَقَادرِ[٣]

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾: إذا تلا.

قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فيبطل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ألقى الشيطان.

وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ[٤]﴾، [أى: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية][٥]، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فى تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

= **طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾.**

وأما المأخذ الثانى: فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين.

ثم ذكر الأجوبة على ذلك (٢/١١١ـ١١٤) وممن أنكرها الإمام ابن خزيمة وقال: «هذا من وضع الزنادقة» وهذا هو الصواب.

للاستزادة: انظر: الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ـ ٣١٤ لمحمد أبى شهبة، ونصب المجانيق لأبطال قصة الغرانيق لمحد ناصر الدين الألبانى.

(١) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البيت فى اللسان، مادة (منى) غير منسوب.

(٤) فى ف،أ: «عليم حكيم». (٥) زيادة من ت.

قال ابن جريج: ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون.

وقال مقاتل بن حيان: هم [الكافرون] (١) اليهود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم [إلى] (٢) الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿مِّنْهُ﴾ أى: مما ألقى الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بغت [القوم] (٣) أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله(٤) إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال مجاهد: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال عكرمة، ومجاهد [فى رواية عنهما](٥):هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى.

وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من حملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «اليوم» والمثبت من ف، أ.
(٤) فى أ: «فلا يغتر به». (٥) زيادة من ت، ف، أ.

قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم[1].

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به[2] وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم[3] عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾.

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلاَّن، وفارق بلاده فى الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أى: حتف أنفهم[4]، أى: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى: ليُجرِيَن عليهم[5] من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ أى: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حى عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، كما تقدم[6] وأما من تُوفى

---

(١) فى أ: «وأفعالهم». (٢) فى أ: «وجحدته». (٣) فى أ: «وإبائهم».
(٤) فى أ: «أنفسهم». (٥) فى أ: «ليجزيهم عليه». (٦) فى أ: «مرَّ».

فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيَّب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن ابن شُرَيْح، عن ابن (١) الحارث ـ يعنى: عبد الكريم ـ عن ابن عقبة ـ يعنى: أبا عبيدة بن عقبة ـ قال: حدثنا(٢) شُرَحْبيل بن السِّمْط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بى سلمان ـ يعنى: الفارسى ـ رضى الله عنه، فقال: إنى سمعت رسول الله يقول: «من مات مرابطاً، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن (٣) من الفتَّانين» واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

وقال أيضا: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرنى همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافرى يقولان: كنا برودس، ومعنا فَضَالة بن عبيد الأنصارى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: ما لى (٤) أرى الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتيل فى سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أبالى من أى حُفرتيهما بُعثت، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ](٥)﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لَهِيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشعبانى، أن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولانى حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد فى البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفى، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالى من أى حفرتيهما بعثتُ، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً](٦) يَرْضَوْنَهُ﴾، فما تبتغى (٧) أيها العبد إذا أدخلت مدخلا ترضاه ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت.

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرنى عبد الرحمن بن شُرَيْح، عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأرباع، فخرج بجنازتى رجلين، أحدهما قتيل (٨) والآخر متوفى. . . فذكر نحو ما تقدم(٩).

---

(١) فى أ: «أبى». (٢) فى أ: «قال».
(٣) فى أ: «وأومن». (٤) فى أ: «ما». (٥) زيادة من ف، أ وفى هـ، ت: «حتى آخر الآية».
(٦) زيادة من ف، وفى ت: «إلى قوله». (٧) فى أ: «ينبغى». (٨) فى أ: «قتل».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/١٣٦).

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ذكر [١] مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت فى سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، [و] [٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾.

يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ [وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] [٣]﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل: إدخاله من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما فى الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما فى الصيف.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف فى الوجود، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شىء فقير إليه، ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ [٤] الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذى لا أعظم منه، العلى الذى لا أعلى منه، الكبير الذى لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون [المعتدون] [٥] علوا كبيرا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ

---

(١) فى أ: «قال». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ف، أ: وفى ت: «الآية».
(٤) فى ت، ف: «وهو الكبير». (٥) زيادة من أ.

اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾.

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل[1] الرياح، فتثير سحابا، فيمطر على الأرض الجُرُز التى [2] لا نبات فيها، وهى هامدة يابسة سوداء قحلة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شىء بحسبه، كما قال: ﴿خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت فى الصحيحين: «أن بين كل شيئين أربعين يوماً» ومع هذا هو معقب [3] بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أى: خضراء بعد يبسها ومُحُولها[4].

وقد ذكر عن بعض أهل [5] الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أمية بن [أبى] [6] الصلت ـ أو: زيد بن عمرو بن نُفيل ـ فى قصيدته:

وَقُولا لَه: مَن يُنبِتُ الحبَّ فى الثَّرَى ... فَيُصبِحَ منْهُ البَقْلُ يَهتَزُّ رَابيًا؟
ويُخرِجُ مِنْهُ حَبَّه فى رُؤُوسِه ... فَفِى ذَاكَ آيات لِمَنْ كَانَ وَاعِيا[7]

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: ملكه جميع الأشياء، وهو غنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ أى: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أى: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أى: بتسخيره وتسييره، أى: فى البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجرى الفلك بأهلها[8] بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع

(١) فى أ: «وأنه مرسل». (٢) فى أ: «الذى». (٣) فى أ: «تعقيب».
(٤) فى أ: «وقحوطا». (٥) فى هـ ت: «أرض» والمثبت من ف، أ. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٨) فى أ: «بأمرها».

ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾أى: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: مع ظلمهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون [مع] (١) الله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أى: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾أى: جحود.

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم (٢) منسكا.

قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبى منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها (٣).

فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا ـ كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أى: فاعلوه ـ فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.

وهذه كقوله: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧].

---

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى ت: «أمة».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٨).

وقوله: ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿ اللَّهُ(١) يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما فى السموات وما فى الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء »(٢).

وفى السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٣).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَيْر، حدثنى ابن لَهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جُبَيْر قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مَسيرَة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق ـ وهو على العرش تبارك وتعالى ـ : اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبى ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذى يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شىء علما، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

---

(١) فى ت: «والله» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) بلفظ «كتب الله مقادير الخلائق».

(٣) جاء من حديث عبادة بن الصامت: أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٠٠) والترمذى فى السنن برقم (٣٣١٩) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

وجاء من حديث ابن عباس: رواه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص٣٧٨).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعنى: حجة وبرهانا، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] . ولهذا قال هاهنا: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أى: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولاحجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء: ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا(١) ﴾ أى: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله : ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾.

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أى: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أى: أنصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أى: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا

---

(١) فى ت، ف، أ: «كفروا وبئس المصير».

على خلق ذباب واحد ماقدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد.

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعة، عن أبى هريرة ـ رفع الحديث ـ قال: «ومن أظلم ممن خلق [خلقا] (١) كخلقى؟ فليخلقوا مثل خلقى ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبّة(٢).

وأخرجه صاحبا الصحيح، من طريق عُمَارة، عن أبى زُرْعَةَ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: قال الله عز وجل: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فيلخلقوا شعيرة»(٣).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا[قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾](٤).

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق.

وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى: ماعرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه(٥) التى لاتقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شىء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أى: قد عز(٦) كل شىء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقَدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى: يعلم ما يفعل برسله فيما

---

(١) زيادة من ت، ف، والمسند.
(٢) المسند (٢/ ٣٩١).
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١).
(٤) زيادة، ت، ف. (٥) فى أ: «هذا الذى». (٦) فى ف: «قدر».

أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ [فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا . لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ][(١)] وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾.

اختلف الأئمة، رحمهم الله، فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هى مشروع السجودُ فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أى: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أى: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فَشَقَّ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة ـ التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تجب فى الحَضَر أربعاً وفى السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفى الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصلى رجالا وركبانا، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها. وكذا فى النافلة فى السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام[(٢)]: «بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمحة»[(٣)]، وقال لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا

(١) زيادة من ف، أ. وفى ت: «إلى قوله».

(٢) فى ت: «عليه الصلاة والسلام»، وفى ف، أ: «ﷺ».

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٥/٢٦٦) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرَا»[١]. والأحاديث فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** يعنى: من ضيق.

وقوله: **﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾** : قال ابن جرير: نصب على تقدير: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** أى: من ضيق، بل وَسَّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم.[قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم[٢]].

قلت: وهذا المعنى فى هذه الآية كقوله: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾** الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾**: قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾** قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾** يعنى: إبراهيم، وذلك لقوله: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾**[البقرة: ١٢٨].

قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمّ هذه الأمة فى القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾** قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى الذكر، **﴿وَفِي هَذَا ﴾** يعنى: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: **﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نَوّه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان، فى كتب الأنبياء، يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾** أى: من قبل هذا القرآن **﴿وَفِي هَذَا ﴾**، وقد قال النسائى عند تفسير هذه الآية:

أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شُعَيب، أنبأنا معاوية بن سلاّم[٣]، أن أخاه زيد بن سَلاّم أخبره، عن أبى سلاّم أنه أخبره قال: أخبرنى الحارث الأشعرى، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثىّ جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»[٤].

وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** من سورة البقرة [الآية: ٢١]؛ ولهذا قال: **﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا**

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٣٨) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٣٢).

(٢) زيادة من ت، ف.

(٣) فى ت: «سالم».

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٩).

﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عُدولا[١] خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة **﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها[٢] على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته.

وقوله: **﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾** أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج جزء نزر من ماله فى السَّنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة «التوبة»[٣].

وقوله: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾** أى: اعتضدوا بالله[٤]، واستعينوا به، وتوكلوا[٥] عليه، وتَأَيَّدوا به، **﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾** أى: حافظكم وناصركم ومُظفركُم على أعدائكم، **﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** يعنى: [نعم][٦] الولى ونعم الناصر من الأعداء.

قال وُهَيْب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرنى إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمتَ فاصبر، وارض بنصرتى، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبى حاتم.

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، فى سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم، ورضى الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين[٧]

---

(١) فى أ: «عدلاً». (٢) فى أ: «بسيادتهم وفضلهم».
(٣) انظر تفسير الآية: ٦٠ من سورة التوبة.
(٤) فى أ: «به». (٥) فى أ: «اتكلوا». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

سورة الحجّ

مكّيّة غير ستّ آيات وهي ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج، ١٩/٢٢]
إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج، ٢٤/٢٢]، وهي ثمان وسبعون آيةً.[١]

/ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [١٠٤و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ خطاب يعمّ حكمُه المكلّفين عند النزول ومَن سينتظم في سِلْكهم بعدُ مِن الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، وإن كان خطاب المشافهة مختصًّا بالفريق الأوّل على الوجه الذي مرّ تقريره في مطلع سورة النساء.

ولفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ ينتظِم الذكورَ والإناثَ حقيقةً، وأمّا صيغة جمع المذكّر فواردة على نهج التغليب؛ لعدم تناولها للإناث حقيقةً إلّا عند الحنابلة.[٢]

والمأمور به مطلَق التقوى الذي هو التجنّب عن كلّ ما يؤثَم مِن فعلٍ وتركٍ، ويندرج فيه الإيمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجًا أوّليًّا.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيبًا وترغيبًا. أي: احذروا عقوبةَ مالِكِ أموركم ومربّيكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ تعليل لموجَب الأمر بذكر بعض عقوباته الهائلة، فإنّ ملاحظة عِظَمها وهَولها وفظاعةِ ما هي مِن مباديه

---

[١] م – سورة الحجّ مكّيّة غير ستّ آيات وهي ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج، ١٩/٢٢] إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج، ٢٤/٢٢]، وهي ثمان وسبعون آية.

[٢] انظر: **الإحكام** للآمدي، ٢/٢٦٥.

ومقدّماته مِن الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرّع بلباس التقوى ممّا يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالةَ.

و"الزلزلة" التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء مِن مَقارّها، ويخرجها عن مراكزها. وإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ إمّا إضافةُ المصدر إلى فاعله على المجاز الحكمي، كأنّها هي التي تزلزل الأشياء، أو إضافتُه إلى الظرف، إمّا بإجرائه / مُجرى المفعول به [١٠٤ظ] اتّساعًا، أو بتقدير "في"، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ، ٣٣/٣٤]، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة، ١/٩٩].

عن الحسن: «أنّها تكون[١] يوم القيامة».[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾: قيامها».[٣] وعن علقمة والشعبيّ: «أنّها قبل طلوع الشمس مِن مَغربها»،[٤] فإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ حينئذ لكونها مِن أشراطها.

وفي التعبير عنها بـ"الشيء" إيذان بأنّ العقول قاصرة عن إدراك كُنهها، والعبارة ضيّقة لا تحيط بها إلّا على وجه الإبهام.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ منتصِب بما بعده، قُدّم عليه اهتمامًا به. والضمير لـ"الزلزلة"،[٥] أي: وقتَ رؤيتكم إيّاها، ومشاهدتِكم لهَول مَطلعها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ أي: مباشِرةٍ للإرضاع ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تغفل وتذهب مع دهشةٍ عمّا هي بصدَد إرضاعه مِن طفلها الذي أَلْقَمَتْه ثديَها. والتعبير عنه بـ﴿مَا﴾ دون "مَن" لتأكيد الذهول، وكونِه بحيث لا يخطُر ببالها أنّه ماذا، لا أنّها تعرف شيئيّته،

---

١ س: يكون.
٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤١/٣.
٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤/١٤.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤/١٤.
٥ في الآية السابقة.

لكن لا تدري مَن هو بخصوصه. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: تَذهل عن إرضاعها. والأوّل أدلّ على شدّة الهَول وكمال الانزعاج.

وقرئ: "تُذْهِلُ" مِن "الإذهال" مبنيًا للمفعول[١] ومبنيًا للفاعل[٢] مع نصب ﴿كُلُّ﴾، أي: تُذهِلها الزلزلة.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تُلقي جنينها لغير تمام، كما أنّ المرضعة تَذهل عن ولدها لغير فِطام. وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبي، وأمّا على ما رُوي عن ابنِ عبّاس رضي الله تعالى[٣] عنهما فقد قيل: إنّه تمثيل لتهويل الأمر، وفيه أنّ الأمر حينئذ أشدّ مِن ذلك، وأعظَم وأهوَل ممّا وُصف / وأطَمّ. [١٠٥و]

وقيل: إنّ ذلك تكون عند النفخة الثانية، فإنّهم يقومون على ما صَعِقوا في النفخة الأولى، فتقوم المرضعة على إرضاعها، والحامل على حَملها. ولا ريب في أنّ قيام الناس عن قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلَها حتّى يُتصوَّر ما ذُكر.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ بفتح التاء والراء على خطاب كلِّ أحد مِن المخاطَبين برؤية الزلزلة. والاختلاف بالجمعيّة والإفراد لِما أنّ المرئيّ في الأوّل هي الزلزلة التي يشاهدها الجميع، وفي الثاني حَالُ مَن عدا المخاطَب منهم، فلا بدّ مِن إفراد المخاطَب على وجه يعمّ كلَّ واحد منهم، لكن مِن غير اعتبار اتّصافه بتلك الحالة، فإنّ المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئيّ -لا في الرائي- باختلال مشاعره؛ لأنّ مداره حيثيّة رؤيته للزلزلة، لا لغيرها، كأنّه قيل: ويصير الناس سُكارى... إلخ، وإنّما أوثرَ عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم، وبلوغِها مِن الجلاء إلى حدّ لا يكاد يخفى على أحد، أي: يراهم كلّ أحد ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ أي: كأنّهم سُكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ حقيقةً ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيُرهِقهم هولُه، ويُطيِّر عقولَهم، ويسلُب تمييزَهم، فهو الذي جعلهم كما وُصِفوا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[٣] س - تعالى.

وقُرئ: "تُرَى" بضمّ التاء وفتح الراء مسندًا إلى المخاطَب، مِن "أُريتُك قائمًا"، أو "رُؤِيتُك[١] قائمًا"، و﴿ٱلنَّاسَ﴾ منصوب،[٢] أي: تظنّهم سكارى. وقُرئ برفع ﴿ٱلنَّاسَ﴾[٣] على إسناد الفعل المجهول إليه، والتأنيث[٤] على تأويل الجماعة. وقُرئ: "تُرِي" بضمّ التاء وكسر الراء،[٥] أي: تُرِي الزلزلةُ الخلقَ جميعَ الناس سُكارى. / وقُرئ: "سَكْرَى"، و"بِسَكْرَى"،[٦] كـ"عَطْشَى" و"جَوْعَى" إجراءً للسُّكر مُجرى العِلل. [١٠٥ظ]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كلام مبتدَأ جيء به إثرَ بيان عِظَم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانًا لحال بعض المنكرين لها. ومحلّ الجارّ الرفع على الابتداء، إمّا بحَمله على المعنى، أو بتقدير ما يتعلّق به كما مرّ مرارًا، أي: وبعضُ الناس، أو وبعضٌ كائنٌ مِن الناس ﴿مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خيرَ فيه مِن الأباطيل.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال مِن ضمير ﴿يُجَـٰدِلُ﴾، موضحةٌ لِمَا يُشعر بها المجادلة مِن الجهل، أي: ملابسًا بغير علم. رُوي أنّها نزلت في النضر بن الحارث وكان جَدِلًا يقول: «الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأوّلين، ولا بعثَ بعد الموت».[٧] وهي عامّة له ولأضرابه مِن العُتاة المتمرّدين.

﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: فيما يتعاطاه مِن المجادَلة، أو في كلّ ما يأتي وما يَذَر مِن الأمور الباطلة التي مِن جملتها ذلك. ﴿كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ عاتٍ متمرِّد متجرّد

---

١ وفي هامش م: قال الأزهري: «رُؤِيتُ، مقلوب، والأصلُ أُرِيتُ، فأخِّرت الهمزة فقيل: رُؤِيتُ، وهو بمعنى الظنّ».' «منه». | تهذيب اللغة للأزهري، «رأى».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة ويزيد بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

٤ أي: في ﴿وَتَرَى﴾.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٢/٧.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/٣.

للفساد. وأصله العُرْيُ المُنبئ عن التمحّض له، كالتشمّر، ولعلّه مأخوذ مِن تَجرُّد المصارعين عند المصارعة. قال الزجّاج: «المَرِيد والمارِد: المرتفع الأملَس».[1] والمراد إمّا رؤساء الكفرة الذين يدعون مَن دونهم إلى الكفر، وإمّا إبليس وجنوده.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الشيطان، صفة أخرى له. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ﴾ فاعل ﴿كُتِبَ﴾، والضمير للشأن، أي: رُقِم به لظهور ذلك مِن حاله أنّ الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتّخذه وليًا وتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ بالفتح على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأٌ خبره محذوف، والجملة جواب الشرط إن جُعلت ﴿مَن﴾ شرطيّةً، وخبرٌ لها إن جُعلت موصولةً متضمّنةً لمعنى الشرط، أي: مَن تولّاه فشأنه أنّه يضلُّه مِن طريق الجنّة،[2] أو طريق الحقّ، أو فحقٌّ أنّه يُضلُّه قطعًا.

وقيل: ﴿فَأَنَّهُ﴾ معطوف على ﴿أَنَّهُ﴾،[3] / وفيه مِن التعسّف ما لا يخفى. وقيل [١٠٦و]
وقيل ممّا لا يخلو عن التمحّل والتأويل.

وقُرئ: "فَإِنَّهُ" بالكسر[4] علىَ أنّه خبر لـ﴿مَن﴾، أو جواب لها. وقُرئ بالكسر فيهما[5] على حكاية المكتوب كما هو، مثل ما في قولك: "كتبت: إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان"، أو على إضمار القول، أو تضمين الكَتْب معناه على رأي مَن يراه.[6]

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بحمله على مباشرة ما يؤدّي إليه مِن السيّئات.

---

١ مفاتيح الغيب للرازي، ٢٣/٢٠٢؛ اللباب لابن عادل، ١٤/١٣.

٢ وفي هامش م: وهذا الأنسب لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. «منه».

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/١٤٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسين وهارون عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

٦ وفي هامش م: كان البصريّين لا يجوّزون الكسر إلّا بعد القول الصريح. «منه».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إثرَ ما حُكِي أحوال المجادلين بغير علم وأشيرَ إلى ما يئول إليه أمرهم أقيمت الحجّة الدالّة على تحقّق ما جادلوا فيه مِن البعث ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ مِن إمكانه، وكونِه مقدورًا له تعالى، أو مِن وقوعه. وقُرئ: "مِنَ البَعَثِ" بالتحريك،[١] كـ"الجَلَب" في "الجَلْب". والتعبير عن اعتقادهم في حقّه بـ"الرَّيب" مع التنكير المنبئ عن القِلّة مع أنّهم جازمون باستحالته، وإيرادُ كلمة الشكّ مع تقرّر حالهم في ذلك، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: "إن ارتبتم في البَعث"؛ قد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة، ٢/٢٣].

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾ أي: فانظروا إلى مَبدأ خلقكم ليَزول رَيبكم، فإنّا خلقناكم، أي: خلقنا كلّ فرد منكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق آدم منه خَلقًا إجماليًا، فإنّ خلق كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظّ مِن خَلقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه؛ بل كانت أنموذَجًا مُنطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لجريانِ آثارها على الكلّ، فكان خَلقه عليه السلام مِن التراب خَلقًا للكلّ منه، كما مرَّ تحقيقه مرارًا.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ / خلقناكم خلقًا تفصيليًا مِن نطفة، أي: منيّ، مِن "النَّطْف" الذي هو الصَّبّ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: قطعةٍ مِن الدم جامدةٍ متكوِّنةٍ مِن المنيّ. [١٠٦ظ]

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: قطعةٍ مِن اللحم متكوِّنة مِن العلَقة، وهي في الأصل مقدارُ ما يُمضَغ، ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ بالجرّ، صفةُ ﴿مُضْغَةٍ﴾،[٢] أي: مستبينةِ الخَلق مصوّرةٍ،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

[٢] س: لمضغة.

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: لم يستبِنْ خَلقها وصورتُها بعدُ. والمراد تفصيل حال المضغة وكونِها أوّلًا قطعةً لم يظهر فيها شيء مِن الأعضاء، ثمّ ظهرت بعد ذلك شيئًا فشيئًا. وكان مقتضى الترتيب السابق المبنيّ على التدرّج مِن المبادي البعيدة إلى القريبة أن يُقدَّمَ "غيرُ المُخلّقة" على "المُخلّقة"، وإنّما أُخِرت عنها لأنّها عدمُ المَلَكة.[١] هذا وقد فُسِّرتا بالمسوّاة وغير المسوّاة، وبالتامّة والساقطة، وليس بذاك.[٢]

وفي جعل كلّ واحدة مِن هذه المراتب مبدأً لِخَلْقِهم لا لِخَلقِ ما بعدها مِن المراتب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآية [المؤمنون، ١٤/٢٣] مزيدُ دلالة على عظيم قدرته تعالى، وكسرٌ لِسَوْرَةِ[٣] استبعادِهم.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلّق بـ﴿خَلَقْنَا﴾. وترك المفعول لتفخيمه كمًّا وكيفًا، أي: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبيّن لكم بذلك ما لا تحصره العبارة مِن الحقائق والدقائق التي مِن جملتها سرّ البعث، فإنّ مَن تأمّل فيما ذُكر مِن الخَلق التدريجي تأمّلًا حقيقيًّا جزَم جزمًا ضروريًّا بأنّ مَن قدَر على خلق البشر أوّلًا مِن ترابٍ لم يشمّ رائحة الحياة قَطّ، وإنشائِه على وجه مصحِّحٍ لتوليد مثله مرّة بعد أخرى بتصريفه في أطوار الخِلقة، وتحويلِه مِن حال إلى حالٍ مع ما بين تلك الأطوار والأحوال مِن المخالفة والتباين؛ فهو قادر على إعادته؛ بل هو أهون في القياس نظرًا إلى الفاعل والقابل.

/ وقُرئ: "لِيُبَيِّنَ"[٤] بطريق الالتفات. [١٠٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خَلقهم. وعدم نظم هذا وما عُطف عليه في سِلك الخَلق المعلَّل بالتبيين مع كونهما مِن متمّماته ومِن مبادي التبيين أيضًا لِمَا أنّ دلالة الأوّل على كمال قدرته تعالى على جميعِ المقدورات التي مِن جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر، أي: ونحنُ نُقرّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقرّه فيها.

---

١ وفي هامش م: والأعدام مسبوقة بمَلَكاتها. «منه».

٢ وفي هامش م: فإنّ التعرّض للسِّقط وناقص الخلق بصدَد تفصيل دلائل البعث وشواهده ممّا لا وجه له قطعًا. «منه».

٣ سَورة الخَمر وغيرها: حِدّتها، وسَورة السلطان: سَطوته وغضبه. القاموس المحيط للفيروزابادي، «سور».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستّة أشهر، وأقصاه سنتان، وقيل: أربع سنين. وفيه إشارة إلى أنّ بعض ما في الأرحام لا يشاء الله تعالى إقرارَه فيها بعد تكامُلِ خلقه فتُسقطه. والتعرّض للإزلاق لا يُناسب المقام؛ لأنّ الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلقِ، وهذا صريح في أنّ المراد بـ"غير المخلّقة" ليس مَن وُلد ناقصًا أو مَعيبًا،[١] وأنّ ما فصِّل إلى هنا هي الأطوار المتواردة على المولود قبل الولادة.

وقُرئ: "يُقِرُّ" بالياء،[٢] و"نَقُرُّ"[٣] و"يَقُرَّ" بضمّ القاف،[٤] مِن "قَرَرت الماء" إذا صبَبْتَه.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: مِن بطون أمّهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمّى ﴿طِفْلًا﴾ أي: حال كونكم أطفالًا. والإفراد باعتبار كلّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس المنتظِم للواحد والمتعدِّد. وقُرئ: "يُخرِجُكُمْ" بالياء.[٥] وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ علّة لـ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾، معطوفة على علّة أُخرى له مناسبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمّ نخرجكم لتَكبُروا شيئًا فشيئًا، ثمّ لتَبلغوا كمالَكم في القوّة والعقل والتمييز. وقيل: التقدير: ثمّ نمهلكم لتبلغوا... إلخ. وما قيل: إنّه معطوف على ﴿نُبَيِّنَ﴾[٦] مخلّ بجزالة النظم الكريم.

هذا، وقد / قُرئ ما قبله مِن الفعلين بالنصب[٧] حكايةً وغيبةً. فهو حينئذ عطف على ﴿نُبَيِّنَ﴾ مثلَهما. والمعنى: خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين [١٠٧ظ]

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٤٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٦٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

[٣] كذا ضبطها أبو حيّان بفتح النون وضمّ القاف والراء. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

[٤] لم أجد مَن ذكَر ضمّ القاف مع الياء. والذي ذكره القرّاء والمفسّرون: "وَيَقِرَّ" بفتح الياء والراء وكسر القاف. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي زيد النحوي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

[٥] بالياء مع الرفع قراءة شاذّة مرويّة عن عمر بن شبّة. وبالياء مع النصب قراءة شاذّة كذلك مرويّة عن أبي حاتم. انظر: الكامل للهذلي، ص ٦٠٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

[٦] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٦٥.

[٧] أي: "وَنُقِرَّ" و"نُخرِجَكُم". قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل عن عاصم ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

مترتّبتين عليه؛ إحداهما أن نبيّن شئونَنا، والثانية أنْ نُقرّكم في الأرحام، ثمّ نخرجَكم صغارًا، ثمّ لتَبلغوا أشدَّكم.

وتقديم التبيين على ما بعده مع أنّ حصوله بالفعل بعد الكلّ للإيذان بأنّه غاية الغايات ومقصود بالذات. وإعادة "اللام" ههنا مع تجريد الأوّلين عنها للإشعار بأصالته في الغرضيّة بالنسبة إليهما، إذ عليه يدور التكليف المؤدّي إلى السعادة والشقاوة.

وإيثارُ البلوغ مُسنَدًا إلى المخاطبين على التبليغ مُسنَدًا إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنّه المناسب لبيان حال اتّصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئيّة الآثارِ والأفعال.

و"الأشدّ" مِن ألفاظ الجموع التي لم يُستعمل لها واحد، كـ"الأسِدّة"[١] و"القَتُودِ"،[٢] وكأنّها حيث كانت شدّة في غير شيء بُنِيت على لفظ الجمع.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: بعد بلوغ الأشدّ أو قبلَه. وقُرئ: "يَتَوَفَّى"[٣] مبنيًا للفاعل، أي: يتوفّاه الله تعالى.[٤]

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرَم والخرَف. وقُرئ بسكون الميم.[٥] وإيراد الردّ والتوفّي على صيغة المبنيّ للمفعول للجري على سَنن الكبرياء لتعيّن الفاعل.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أي: علمٍ كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، أو شيئًا مِن العلم مبالغةً في انتقاص علمه وانتكاس حاله، أي: ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفوليّة مِن ضَعف البنية وسخافة العقل وقلّة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرَفه، ويعجَز عمّا قدر عليه. وفيه مِن التنبيه على صحّة البعث ما لا يخفى.

---

١ وفي هامش م: أسِدّة: عُيوب. | الصحاح للجوهري، «سدد».

٢ وفي هامش م: قتود: خشب الرّحْل. | الصحاح للجوهري، «قتد».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذَكر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٦.

٤ وقال أبو حيّان: «أي: يَستوفي أجلَه». انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٨٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن نافع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجّة أخرى على صحّة البعث. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار. وهي بصَريّة. و﴿هَامِدَةً﴾ حال مِن ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، أي: ميّتةً يابسة، مِن "هَمَدَت النارُ" إذا صارت رمادًا.

[١٠٨و] ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: المطر / ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وازدادت، وقُرِئ: "رَبَأَتْ"،[١] أي: ارتفعت. ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي: صِنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حَسَن رائق يَسرّ ناظره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كلام مستأنَف، جيء به إثرَ تحقيق حقّيّة البعث وإقامة البرهان عليه مِن العالَمين الإنسانيّ والنباتيّ؛ لبيان أنّ ذلك مِن آثار ألوهيّته تعالى، وأحكام شئونه الذاتيّة والوصفيّة والفعليّة، وأنّ ما ينكرون وجودَه -بل إمكانَه- مِن إتيان الساعة والبعث مِن أسباب[٢] تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها في الأنفُس والآفاق، ومبادي صدورها عنه تعالى.

وفيه مِن الإيذان بقوّة الدليل وأصالة المدلول في التحقّق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى، فإنّ إنكار تحقّق السبب مع الجزم بتحقّق المسبَّب ممّا يقضي ببطلانه بديهةُ العقول. والمراد بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو الثابت الذي يحقّ ثبوته لا محالةَ لكونه لذاته، لا الثابتُ مطلقًا.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن خَلق الإنسان على أطوارٍ مختلفة، وتصريفِه في أحوال متباينة، وإحياءِ الأرض بعد موتها، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته في الكمال، وهو مبتدأٌ خبرُه الجارّ والمجرور، أي: ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنّه تعالى هو الحقّ وحدَه في ذاته وصفاته وأفعاله المحقِّقُ لِما سواه مِن الأشياء.

---

١ قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

٢ وفي هامش م: خبر "أنّ".

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: شأنه وعادته إحياؤها. وحاصله أنّه تعالى قادر على إحيائها بَدءًا وإعادةً، وإلّا لَما أحيَى النطفة والأرض الميّتة مِرارًا بعد مِرارٍ. وما يفيده صيغة المضارع مِن التجدّد إنّما هو باعتبار تعلّق القدرة ومتعلّقها، لا باعتبار نفسها.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: مبالِغ في القدرة، وإلّا لَما أَوجد هذه الموجودات الفائتةَ للحَصر / التي مِن جملتها ما ذُكر. وأمّا الاستدلال على [١٠٨ظ] ذلك بأنّ قدرته تعالى لذاته الذي نسبته إلى الكلّ سواء فلمّا دلّت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزِم اقتداره على إحياء كلّها[١] فمنشؤه الغُفول عمّا سيق له النظم الكريم مِن بيان كون الآثار الخاصّة المذكورة مِن فروع القدرة العامّة التامّة ومسبَّباتها. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه مِن جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع، والدفعِ في نُحور المنكرين. وتقديمُه لإبراز الاعتناء به.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ﴾ أي: فيما سيأتي. وإيثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقّق إتيانها وتقرّرِه البتّة؛ لاقتضاء الحكمة إيّاه لا محالةَ. وتعليله بأنّ التغيّر مِن مقدّمات الانصرام وطلائعِه[٢] مبنيّ على ما ذكر مِن الغفول.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿أَنَّ﴾، أو حال مِن ضمير ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في الخبر. ومعنى نفي الريب عنها أنّها في ظهور أمرها وضوح دلائلها التكوينيّة والتنزيليّة بحيث ليس فيها مظِنّة أن يُرتابَ في إتيانها حسبما مرّ في مطلع سورة البقرة. والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها مِن الجملتين، داخلةٌ مثلَهما في حيّز السببيّة، وكذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ لكن لا مِن حيث إنّ إتيان الساعة وبعثَ الموتى مؤثّران فيما ذُكر مِن أفاعيله تعالى تأثيرَ القدرة فيها؛ بل مِن حيث إنّ كلًّا منهما سبب داعٍ له عزّ وعلا

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٥/٤.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٦/٤.

بموجَب رأفته بالعباد المبنيّة على الحِكم البالغة إلى ما ذُكر مِن خَلقهم ومِن إحياء الأرض الميتة على نمط بديعٍ صالح للاستشهاد به على مكانهما؛ ليتأمّلوا في ذلك، ويستدلُّوا به على وقوعهما لا محالةَ، / ويصدّقوا بما ينطق بهما مِن [١٠٩و]
الوحي المبين، وينالوا به السعادة الأبديّة، ولولا ذلك لَما فعل تعالى ما فعل؛ بل لَما خلق العالم رأسًا. وهذا كما ترى مِن أحكام حقّيّته تعالى في أفعاله، وابتنائِها على الحِكم الباهرة، كما أنّ ما قبله مِن أحكام حقّيّته تعالى في صفاته وكونِها في غاية الكمال.

وقد جُعل إتيان الساعة وبعثُ مَن في القبور لكونهما مِن روادِف الحكمة كنايةً عن كونه تعالى حكيمًا، كأنّه قيل ذلك بسبب أنّه تعالى قادر على إحياء الموتى وعلى كلّ مقدور، وأنّه حكيم لا يُخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث، فلا بدّ أن يَفي بما وَعد، وأنت خبير بأنّ مَآله الاستدلال بحكمته تعالى على إتيان الساعة والبعث، وليس الكلام في ذلك؛ بل إنّما هو في سببيّتهما لِما مرّ مِن خَلق الإنسان وإحياء الأرض، فتأمّل وكن على الحقّ المبين.

وقيل: قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ ليس معطوفًا على المجرور بـ"الباء"، ولا داخلًا في حيّز السببيّة؛ بل هو خبر، والمبتدأ محذوف لفهم المعنى، والتقدير: والأمرُ أنّ الساعة آتيةٌ. و﴿أَنَّ﴾ الثانية معطوفة على الأولى. وقيل: المعنى: ذلك لتعلموا بأنّ الله هو الحقّ... الآيتين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ هو أبو جهل بن هشام حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما.[٢] وقيل: هو مَن يتصدّى لإضلال الناس وإغوائهم كائنًا مَن كان، كما أنّ الأوّل مَن يقلّدهم على أنّ "الشيطان" عبارة عن المضلّ المُغوي على الإطلاق.

---

[١] س - تعالى.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٤٦/٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٠٧/٤.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير ﴿يُجَادِلُ﴾، أي: كائنًا بغير علم، والمراد بـ"العِلم" العِلمُ الضروري، كما أنّ المراد بـ"الهدى" / في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى﴾ هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة. ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وحيٍ مُظهرٍ للحقّ، أي: يجادل في شأنه تعالى مِن غير تمسّك بمقدّمة ضروريّة، ولا بحجّة نظريّة، ولا ببرهان سمعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج، ٢٢/٧١]. [١٠٩ظ]

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد به المجادل الأوّل، والتكريرُ للتأكيد والتمهيدِ لِما بعده مِن بيان أنّه لا سندَ له مِن استدلالٍ أو وحيٍ[1] فلا يساعده النظم الكريم، كيف لا وإنّ وصفه باتّباع كلِّ شيطان موصوفٍ بما ذُكر يغني عن وصفه بالعَراء عن الدليل العقلي والسمعي.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ⑨﴾

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال أخرى مِن فاعل ﴿يُجَادِلُ﴾،[2] أي: عاطفًا لجانبه وطاويًا كَشْحَه[3] معرِضًا متكبّرًا، فإنّ ثَنْيَ العِطفِ كنايةٌ عن التكبّر. وقُرئ بفتح العين،[4] أي: مانعًا لتَعطّفه.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿يُجَادِلُ﴾،[5] فإنّ غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنّه إضلال. والمراد به إمّا الإخراج مِن الهدى إلى الضلال، فالمفعول مَن يجادله مِن المؤمنين أو الناسُ جميعًا بتغليب المؤمنين على غيرهم، وإمّا التثبيت على الضلال أو الزيادةُ عليه مجازًا، فالمفعول هم الكفرةُ خاصّةً.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٦/٤.
٢ في الآية السابقة.
٣ الكَشْحُ: ما بين الخاصرة إلى الضِلَعِ الخَلْف. و"طوى فلان عَنّي كَشْحَهُ" إذا قَطَعَك. و"طويتُ كَشحي على الأمر" إذا أضمَرْتَه وسَتَرْتَه. الصحاح للجوهري، «كشح».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.
٥ في الآية السابقة.

وقُرئ بفتح الياء.[١] وجعلُ ضلاله غايةً لجدالِه مِن حيث إنّ المراد به الضلال المبين الذي لا هدايةَ له بعده مع تمكّنه منها قبل ذلك.

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان نتيجة ما سلكه مِن الطريقة، أي: يَثبت له في الدنيا بسبب ما فعله خزيٌ، وهو ما أصابه يوم بدر مِن القتل والصَّغار. / ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: النارِ المحرِقة. [١١٠و]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن العذابِ الدنيوي والأخروي. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بكونه في الغاية القاصية مِن الهول والفظاعة. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: بسبب ما اقترفتَه مِن الكفر والمعاصي. وإسناده إلى "يديه" لِما أنّ الاكتساب عادةً يكون بالأيدي. والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد.

ومحلّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله عزّ وعلا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: والأمر أنّه تعالى ليس بمعذِّب لعبيده بغير ذنب مِن قِبَلهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعًا على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا قد مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٢] والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبلها. وأمّا ما قيل مِن أنّ محلّ ﴿أَنَّ﴾ هو الجرّ بالعطف على ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾[٣] فقد عرفتَ حاله في سورة الأنفال.[٤]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ شروع في بيان حال المذبذبين إثرَ بيان حال المجاهرين، أي: ومنهم مَن يعبده تعالى على طرَف مِن الدين لا ثباتَ له فيه، كالذي ينحرف إلى طرَف الجيش، فإن أحسّ بظفر قرّ، وإلّا فرّ.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.

٢ آل عمران، ٣/١٨٢.

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ١٤/٢٨.

٤ الأنفال، ٨/٥١.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ أي: دنيوي مِن الصحّة والسَّعة ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: ثبَت على ما كان عليه ظاهرًا، لا أنّه اطمأنّ به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: شيءٌ / يُفْتَنُ به مِن مكروهٍ [١١٠ظ] يَعتريه في نفسه أو أهله أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾.

رُوي أنّها نزلت في أعاريبَ قدموا المدينةَ، وكان أحدهم إذا صحّ بدنه، ونُتِجت فرسه مُهرًا سَرِيًّا، وولدت امرأته ولدًا سويًّا، وكثُر مالُه وماشيته، قال: «ما أصبتُ منذ دخلت في ديني هذا إلّا خيرًا»، واطمأنّ، وإن كان الأمر بخلافه قال: «ما أصبتُ إلّا شرًّا وانقلب».[١] وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أنّ يهوديًّا أسلمَ، فأصابته مصائب، فتشاءَم بالإسلام، فأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أقِلْني»، قال عليه السلام: «إنّ الإسلام لا يُقال»، فنزلت.[٢] وقيل: نزلت في "المؤلّفة قلوبُهم".[٣]

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ فَقَدَهما وضيَّعهما بذهاب عصمته وحُبوط عمله بالارتداد. وقُرئ: "خَاسِرَ" بالنصب[٤] على الحال، وبالرفع[٥] على الفاعليّة ووضعِ الظاهر موضعَ الضمير تنصيصًا على خُسرانه، أو على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الخُسران. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بكونه في غاية ما يكون. ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الواضح كونه خُسرانًا، إذ لا خُسران مثله.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مبيّن لعِظم الخُسران، أي: يعبد متجاوزًا عبادةَ الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إذا لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عَبَده، أي: جمادًا ليس مِن شأنه الضرّ والنفع، كما يلوّح به تكرير كلمة ﴿مَا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٤٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٦/٤.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٤٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٦/٤. وقال السيوطي: «أخرجه ابن مَردويه». الدرّ المنثور للسيوطي، ١٤/٦.

٣ عن الضحّاك في اللباب لابن عادل، ٣٠/١٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس ومجاهد وابن محيصن وزيد عن يعقوب. انظر: المحتسب لابن جنّي، ٧٥/٢؛ والنشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٥ ط س: والرفع. | قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٩/٧.

﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن الحقّ والهدى، مستعار مِن ضلال مَن أبعدَ في التّيه ضالًا عن الطريق.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ استئناف مَسوق لبيان مآل دعائه المذكور، وتقريرِ كونه ضلالًا بعيدًا، مع إزاحة ما عسى يُتوهَم مِن نفي الضرر عن معبوده / بطريق المباشرة نفيُه عنه بطريق التسبيب أيضًا، فـ"الدعاء" بمعنى [١١١و]
القول، و"اللام" داخلة على الجملة الواقعة مَقولًا له، و﴿مَن﴾ مبتدأ، و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأ ثان، خبره ﴿أَقۡرَبُ﴾، والجملة صلة للمبتدأ الأوّل. وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ جواب لقسم مقدّر هو وجوابه خبر للمبتدأ الأوّل. وإيثار ﴿مَن﴾ على "ما" مع كون معبوده جمادًا وإيرادُ صيغة التفضيل مع خلوّه عن النفع بالمرّة للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعانِ في ذمّه.

أي: يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرّره بمعبوده ودخولَه النار بسببه، ولا يرى منه أثر النفع أصلًا: لَمَن ضرُّه أقربُ مِن نفعه واللهِ لبئس الناصر هو، ولبئس الصاحب هو، فكيف بما هو ضرر محضٌ عارٍ عن النفع بالكلّيّة؟

ويجوز أن يكون ﴿يَدۡعُواْ﴾ الثاني إعادةً للأوّل، لا تأكيدًا له فقط؛ بل وتمهيدًا لِمَا بَعده مِن بيان سُوءِ حال معبوده إثرَ بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾،[١] كأنّه قيل مِن جهته تعالى بعدَ ذكر عبادته لِما لا يضرّه ولا ينفعه: يدعو ذلك، ثمّ قيل: لَمَن ضرّه أقرب مِن نفعه واللهِ لبئس المولى ولبئس العشير، فكلمةُ ﴿مَن﴾ وصيغة التفضيل للتهكّم به.

وقيل: "اللام" زائدة، و﴿مَن﴾ مفعول ﴿يَدۡعُواْ﴾، ويؤيّده القراءة بغير "لام"،[٢] أي: يعبد مَن ضرّه أقرب مِن نفعه، وإيرادُ كلمة ﴿مَن﴾ وصيغة التفضيل تهكّم به أيضًا، والجملة القسميّة مستأنَفة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ أي: "يَدْعُو مَنْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٧/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩١/٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ استئناف جيء به لبيان كمال حسنِ حالِ المؤمنين العابدين له تعالى وأنّ الله عزّ وجلّ يتفضّل عليهم بما لا غاية وراءه مِن أجلّ المنافع وأعظم الخيرات إثرَ بيان غاية سوءِ حالِ الكفرة ومآلهم مِن فريقَي المجاهرين والمذَبذَبين، وأنّ معبودهم لا يُجديهم شيئًا مِن النفع؛ بل يضرّهم مضرّة عظيمة، وأنّهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته، ويذمّونه مَذمّةً تامّةً.

وقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾، فإن أريدَ بها الأشجار / المتكاثفة الساترة لِما تحتَها فجريانُ الأنهار مِن تحتها ظاهر، وإن [١١١ظ] أريدَ بها الأرض فلا بدّ مِن تقدير مضاف، أي: مِن تحت أشجارها، وإن جُعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحِّح لإطلاق اسم الجنّة على الكلّ كما مرّ تفصيله في أوائل سورة البقرة.[١]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لِما قبله، وتقرير له بطريق التحقيق، أي: يفعل البتّة كلَّ ما يريده مِن الأفعال المتقنة اللائقة المبنيّة على الحِكَم الرائقة التي مِن جملتها إثابة مَن آمَن به وصدّق رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وعقابُ مَن أشرك به وكذّب برسوله عليه السلام. ولمّا كان هذا مِن آثار نصرته تعالى له عليه السلام عُقِّب بقوله عزّ وعلا:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تحقيقًا لها وتقريرًا لِثبوتها على أبلغ وجه وآكَده. وفيه إيجاز بارع واختصار رائع، والمعنى: أنّه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالةَ مِن غير صارف يلويه، ولا عاطِف يثنيه،

---

[١] البقرة، ٢/٢٥.

فمَن كان يُغيظه ذلك مِن أعاديه وحسّاده، ويظنّ أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور، ومباشرة ما يردّه مِن المكائد؛ فلْيبالغ في استفراغ المجهود، ولْيُجاوز في الجِدّ كلَّ حدٍّ معهود، فقُصارى أمره وعاقبةُ مَكره أن يختنق حَنَقًا[١] ممّا يرى مِن ضلال مساعيه، وعدمِ إنتاج مقدّماته ومباديه.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فليمدُد حبلًا إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليَختنق، مِن "قَطَع" إذا اختنق؛ لأنّه يقطع نفَسه بحبس مجاريه. وقيل: لِيَقطع الحبلَ بعد الاختناق، على أنّ المراد به فرض القطع وتقديره، كما أنّ المراد بالنظر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ تقدير النظر وتصويره، أي: فليصوِّر في نفسه / النظرَ؛ هل يُذهِبنّ كيدُه ذلك الذي هو أقصى ما انتهتْ [١١٢و] إليه قدرتُه في باب المُضادّة والمُضارّة ما يغيظه مِن النصرة؟ كلَّا، ويجوز أن يُراد: فلينظر الآن أنّه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه؟

وقيل: المعنى: فلْيَمدد حبلًا إلى السماء المُظِلّة، ولْيَصعد عليه، ثمّ لْيَقطع الوحي. وقيل: لِيَقطع المسافةَ حتّى يبلغ عَنانها، فيجتهد في دفع نصره.[٢] ويأباه أنّ مساق النظم الكريم بيانُ أنّ الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحقّقها بمَعزِل مِن إذهاب ما يَغيظ، ومِن البيِّن أن لا معنى لفَرض وقوع الأمور المُمتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيّما قطع الوحي. فإنّ فَرضَ وقوعه مُخِلّ بالمَرام قطعًا.

وقيل: كان قوم مِن المسلمين لشدّة غيظهم وحَنَقِهم[٣] على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسولَه صلّى الله عليه وسلّم مِن النصر، وآخرون مِن المشركين يريدون اتّباعه عليه السلام، ويخشَون أن لا يَثبت أمره، فنزلت.[٤]

وقد فُسّر "النصر" بالرزق، فالمعنى: إنّ الأرزاق بيد الله تعالى لا تُنال إلّا بمشيئته، فلا بدّ للعبد مِن الرضا بقِسمته، فمَن ظنّ أنّ الله تعالى غيرُ رازقه

---

١ ط س: خنقًا. | والحَنَق: الغيظ. الصحاح للجوهري، «حنق».

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٦٧/٤.

٣ ط س: وخنقهم. | والحَنَق: الغيظ. الصحاح للجوهري، «حنق».

٤ التفسير البسيط للواحدي، ٣١٠/١٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤٨/٣.

ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزَع وهو الاختناق، فإنّ ذلك لا يقلب القِسمة، ولا يردّه مرزوقًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحِكم البالغة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ الكريم كلَّه. وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالة على معانيها الرائقة، حال مِن الضمير المنصوب، مبيّنةٌ لِما أشيرَ إليه بذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ به ابتداءً، أو يُثبِّت على الهدى، أو يزيد فيه ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايتَه أو تثبيتَه أو زيادتَه فيها. ومحلّ الجملة إمّا الجرّ على حذف الجارّ المتعلّق بمحذوف مؤخَّر، أي: ولأنّ الله يهدي مَن يريد أنزله كذلك، أو الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: / والأمر أنّ الله يهدي مَن يريد هدايته. [١١٢ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بما ذُكر مِن الآيات البيّنات بهداية الله تعالى، أو بكلّ ما يجب أن يؤمَن به، فيدخلُ فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًا. ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ قيل: هم قوم يعبدون النار. وقيل: الشمسَ والقمرَ. وقيل: هم قوم مِن النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المُسوح. وقيل: أخذوا مِن دين النصارى شيئًا ومِن دين اليهود شيئًا، وهم القائلون بأنّ للعالَم أصلين نورًا وظلمة. ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ هم عبدة الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في حيّز الرفع على أنّه خبر لـ﴿إِنَّ﴾ السابقة، وتصديرُ طرَفي الجملة بحرف التحقيق لزيادة التقرير والتأكيد، أي: يقضي بين المؤمنين وبين الفِرَق الخمس المتّفقة على ملّة الكفر بإظهار المُحقّ مِن المُبطِل، وتوفيةِ كلٍّ منهما حقَّه مِن الجزاء بإثابة الأوّل وعقاب الثاني بحسب استحقاق أفراد كلّ منهما.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ تعليل لِما قبله مِن "الفصل"، أي: عالمٌ بكلّ شيء مِن الأشياء، ومراقب لأحواله، ومِن قضيّته الإحاطةُ بتفاصيل ما صدر عن كلّ فرد مِن أفراد الفِرَق المذكورة، وإجراءُ جزائه اللائق به عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ بيان لِما يوجب الفصل المذكور مِن أعمال الفِرَق المذكورة مع الإشارة إلى كيفيّته وكونِه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة إثرَ بيان ما يوجبه مِن كونه تعالى شهيدًا على جميع الأشياء التي مِن جملتها أحوالهم وأفعالهم.

والمراد بـ"الرؤية" العلم، عُبّر عنه بها إشعارًا بظهور المعلوم. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية بناءً على أنّه مِن الجلاء بحيث لا يخفى على أحدٍ.

[١١٣و] / والمراد بـ"السجود" هو الانقياد التامّ لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنيّة على تشبيهه بأكمل أفعال المكلّف في باب الطاعة إيذانًا بكونه في أقصى مراتب التسخّر والتذلّل، لا سجودُ الطاعة الخاصّة بالعقلاء، سواء جُعلت كلمة ﴿مَن﴾ عامّة لغيرهم أيضًا، وهو الأنسب بالمقام لإفادته شمولَ الحُكم لكلّ ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئيّة منهما، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفرادًا لها بالذكر لشُهرتها واستبعاد ذلك منها عادةً، أو جُعلت خاصّةً بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلّهم حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّه مرتفع بفعل مضمر يدلّ عليه المذكور، أي: ويسجد له كثير مِن الناس سجودَ طاعةٍ وعبادةٍ، ومِن قضيّته انتفاء ذلك عن بعضهم.

وقيل: هو مرفوع على الابتداء، حُذف خبره ثقةً بدلالة خبر قَسيمه عليه، نحو: حقّ له الثواب. والأوّل هو الأَولى لِما فيه مِن الترغيب في السجود والطاعة.

وقد جُوّز أن يكون ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ خبرًا له، أي: مِن الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون والمتقون، وأن يكون قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوفًا على ﴿كَثِيرٌ﴾ الأوّل للإيذان بغاية الكثرة، ثمّ يُخبَر عنهم باستحقاق العذاب، كأنّه قيل: وكثير وكثير مِن الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: بكفره واستعصائه. وقُرئ: "حُقَّ" بالضمّ،[١] و"حَقًّا"،[٢] أي: حقّ عليه العذاب حقًّا.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأن كتب عليه الشقاوةَ حسبما عَلِمه مِن صرف اختياره إلى الشرّ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة. وقُرئ بفتح الراء[٣] على أنّه مصدر ميميّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإكرام والإهانة.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

﴿هَٰذَانِ﴾ تعيين لطرَفي الخِصام، وإزاحةٌ لِما عسى يتبادر إلى الوهم مِن كونه بين كلّ واحدة مِن الفِرَق الستّ وبين البواقي، وتحريرٌ لمحلّه، أي: فريق المؤمنين، / وفريقُ الكفرة المنقسمُ إلى الفِرَق الخمس.[٤] [١١٣ظ]

﴿خَصْمَانِ﴾ أي: فريقان مختصمان، وإنّما قيل: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ حملًا على المعنى، أي: اختصموا في شأنه عزّ وجلّ. وقيل: في دينه. وقيل: في ذاته وصفاته. والكلّ مِن شئونه تعالى، فإنّ اعتقاد كلّ مِن الفريقين بحقّيّة ما هو عليه، وبطلانِ ما عليه صاحبُه، وبناءَ أقواله وأفعاله عليه، خصومةٌ للفريق الآخر، وإن لم يجرِ بينهما التحاور والخِصام.

وقيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: «نحن أحقّ بالله، وأقدَم منكم كتابًا، ونبيّنا قبل نبيّكم»، وقال المؤمنون: «نحن أحقّ بالله منكم،

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٩/٣، و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩٥/٧.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٩/٣، و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩٥/٧.

[٣] أي: "مُكرَم". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٦.

[٤] وفي هامش م: هم اليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون. «منه».

آمنّا بمحمّد عليه السلام[١] وبنبيّكم وبما أنزل الله مِن كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيّنا ثم كفرتم به حسدًا»، فنزلت.[٢]

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تفصيل لِمَا أُجمِل في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.[٣] ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ أي: قدّرت على مقادير جُثَثِهم. وقُرِئ بالتخفيف.[٤] ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: نيران هائلة تحيط بهم إحاطةَ الثياب بلابسِها، ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي: الماءُ الحارّ الذي انتهت حرارته. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لو قطَرت قطرة منه على جبال الدنيا لَأذابتها».[٥] والجملة مستأنفة، أو خبر ثانٍ للموصول، أو حال مِن ضمير ﴿لَهُمۡ﴾.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠﴾

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يُذاب ﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ مِن الأمعاء والأحشاء. وقُرِئ: "يُصَهَّرُ" بالتشديد.[٦] ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾، وتأخيرُه عنه إمّا لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدّة الحرارة بإيهام أنّ تأثيرها في الباطن أقدم مِن تأثيرها في الظاهر، مع أنّ ملابستها على العكس. والجملة حال مِن ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾.[٧]

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١﴾

/ ﴿وَلَهُم﴾ للكفرة، أي: لتعذيبهم وأجلِهم ﴿مَقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ جمع "مِقْمَعة"، [١١٤و]
وهي آلة القَمع.[٨]

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٢٢﴾

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: أشرفوا على الخروج مِن النار ودنَوا منه،

---

١ س - عليه السلام.

٢ جامع البيان للطبري، ١٦/٤٩١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١٣.

٣ الحج، ٢٢/١٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزعفراني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٥٠؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٤٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

٧ في الآية السابقة.

٨ المِقْمَعَة: واحدة المَقامِع مِن حديدٍ كالمِحجن، يُضرَب بها على رأس الفيل. وقد قَمَعْتُه إذا ضرَبته بها. الصحاح للجوهري، «قمع».

حسبما يُروى أنّها تَضربهم بلَهيبها فترفعهم، حتّى إذا كانوا في أعلاها ضُرِبوا بالمَقامع، فهوَوا فيها سبعين خريفًا.[١] ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي: مِن غمّ شديد مِن غُمومها، وهو بدل اشتمال مِن "الهاء" بإعادة الجارّ، والرابط محذوف كما أشيرَ إليه، أو مفعول له للخروج.

﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: في قَعرها، بأن رُدّوا مِن أعاليها إلى أسافلِها مِن غير أن يخرجوا منها، ﴿وَذُوقُواْ﴾ على تقدير قول معطوف على ﴿أُعِيدُواْ﴾، أي: وقيل لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: الغليظِ مِن النار المنتشرِ العظيمِ الإهلاكِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيان لِحُسن حال المؤمنين إثرَ بيان سوء حال الكفرة، وقد غُيّر الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الله عزّ وجلّ. وتصدير الجملة بحرف التحقيق إيذانًا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهارًا لمزيد العناية بأمر المؤمنين، ودلالةً على تحقّق مضمون الكلام.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ على البناء للمفعول بالتشديد مِن "التَّحلية". وقُرئ بالتخفيف،[٢] مِن "الإخلاء" بمعنى الإلباس. أي: يُحلّيهم الملائكة بأمره تعالى. وقُرئ: "يَحلَوْنَ"،[٣] مِن "حَلِيَت المَرأةُ" إذا لبِسَت حُليَّها.

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ إمّا للتبعيض، أي: بعضُ أساور، وهي جمع "أَسْوِرة" جمعِ "سِوار"، أو للبيان لِما أنّ ذكر التحلية ممّا ينبئ عن الحَلْيِ المبهَم. وقيل: زائدة. وقيل: نعت لمفعول محذوف / لِـ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، فإنّه بمعنى "يُلْبَسُون". ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيان لـ"الأساور". [١١٤ظ]

---

[١] عن الحسن في التفسير الوسيط للواحدي، ٢٦٤/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣.

[٢] أي: "يُحْلَوْنَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٦/٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ عطفٌ على محلّ ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾، أو على المفعول المحذوف، أو منصوب بفعل مُضمَر يدلّ عليه ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾، أي: يؤتَون. وقُرئ بالجرّ[١] عطفًا على ﴿أَسَاوِرَ﴾. وقُرئ: "لُؤْلُوًا" بقلب الهمزة الثانية واوًا،[٢] و"لُولِيًا"[٣] بقَلبها ياءً بعد قلبهما واوًا، و"لِيلِيًا" بقلبهما ياءً.[٤]

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ غُيّر الأسلوب حيث لم يُقَل: ويُلبَسون فيها حريرًا، لكن لا للدلالة على أنّ الحرير ثيابهم المعتادة، أو لمجرّد المحافظة على هيئة الفواصل؛ بل للإيذان بأنّ ثبوت اللباس لهم أمر محقّق غنيّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنّما المحتاج إلى البيان أنّ لباسهم ماذا، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنّها ليست مِن اللوازم الضروريّة، فجُعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذات، ولعلّ هذا هو الباعث إلى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤﴾

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وهو قولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[٥] الآيةَ [الزمر، ٣٩/٧٤]. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: المحمودِ نفسُه، أو عاقبتُه، وهي الجنّة، ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية إلى القول المذكور المتأخِرِ عن دخول الجنّة المتأخِرِ عن الهداية إلى طريقها لرعاية[٦] الفواصل. وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ الحقُّ المستحِقُّ لذاته لغاية الحمد،

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن المعلى بن منصور عن شعبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٩٧. والرواية الصحيحة عن شعبة إبدال الهمزة الأولى دون الثانية. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٩٤. وقرأ هشام في أحد الوجهين عنه عند الوقف عليها بإبدال الهمزة الثانية واوًا ساكنة دون ألف بعدها. وقرأ حمزة عند الوقف كذلك بإبدال كلٍّ مِن الهمزتين واوًا ساكنة. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الفيّاض انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٩٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

٥ ط س: وأورثنا الجنّة. ["صح" في هامش م]. | لعلّ المؤلف صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ ط س: رعاية.

وهو الله عزّ وجلّ، وصراطُه الإسلام. ووجه التأخير حينئذ أنّ ذكر "الحمد" يستدعي ذكر "المَحمود".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليس المراد به حالًا ولا استقبالًا، وإنّما هو استمرارُ الصدّ، ولذلك حَسُن عطفه على الماضي، كما في قوله تعالى: / ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد، ٢٨/١٣]. وقيل: هو حال [١١٥و] مِن فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾، أي: وهم يصدّون، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف لدلالة آخِر الآية الكريمة عليه، فإنّ مَن ألحَد في الحَرَم حيث عُوقب بالعذاب الأليم فلأن يعاقَب مَن جمع إليه الكفرَ والصدّ عن سبيل الله بأشدَّ مِن ذلك[١] أحقُّ وأولى.

﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ عطف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. قيل: المراد به مكّة، بدليل وصفه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: كائنًا مَن كان، مِن غير فرق بين مكّي وآفاقي.

﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِ﴾ أي: المقيم والطارئ، و﴿سَوَآءً﴾ أي: مستويًا، مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾، و﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ مرتفع به، و"اللام" متعلّق به ظرف له. وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادةُ تشنيعِ الصادّين عنه. وقُرئ: "سَوَاءٌ" بالرفع[٢] على أنّه خبر مقدّم. و﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ مبتدأ، والجملة مفعول ثانٍ للجَعل. وقُرئ: "الْعَاكِفِ" بالجرّ[٣] على أنّه بدل مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾ ممّا تُرك مفعوله ليتناول كلّ متناوَل، كأنّه قيل: ومَن يُرد فيه مرادًا ما ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ بعُدولٍ عن القصد ﴿بِظُلۡمٖ﴾ بغير حقّ، وهما حالان مترادِفان، والثاني بدل مِن الأوّل بإعادة الجارّ، أو صلة له، أي: ملحِدًا بسبب الظلم، كالإشراك واقتراف الآثام ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ جواب لـ﴿مَن﴾.

---

١ وفي هامش م: أي: جوابِ أشدّ مِن ذلك. «منه».

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ يقال: "بوّأه مَنزِلًا"، أي: أنزله فيه. ولمّا لزمه جعلُ الثاني مَباءةً للأوّل قيل: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وعليه مبنى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: «جعلناه»،[1] أي: اذكر وقت جعلِنا مكانَ البيت مَباءةً له عليه السلام، أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود / تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ بيانه غير مرّة. [١١٥ظ]

وقيل: "اللام" زائدة، و﴿مَكَانَ﴾ ظرف كما في أصل الاستعمال، أي: أنزلناه فيه.

قيل: رُفع البيت إلى السماء أيّام الطوفان، وكان مِن ياقوتة حمراء، فأعلَمَ الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانَه بريح أرسلها يقال لها: "الخَجُوج"،[2] كنَسَت ما حوله، فبناه على أُسّه القديم.[3]

رُوي أنّ الكعبة الكريمة بُنيت خمسَ مرّات؛ **إحداها**: بناء الملائكة، وكانت مِن ياقوتة حمراء، ثمّ رُفعت أيّامَ الطوفان. **والثانية**: بناء إبراهيم عليه السلام. **والثالثة**: بناء قريش في الجاهليّة، وقد حضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذا البناء. **والرابعة**: بناء ابن الزبير رضي الله عنه. **والخامسة**: بناء الحجّاج. وقد أوردنا ما في هذا الشأن مِن الأقاويل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة، ١٢٧/٢].

و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ مفسِّرة لـ﴿بَوَّأْنَا﴾ مِن حيث إنّه متضمّن لمعنى "تعبّدنا"؛ لأنّ التبوئة للعبادة، أو مصدريّة موصولة بالنهي، وقد مرّ تحقيقه في أوائل سورة هود.[4] أي: فعلنا ذلك لئلّا تشرك بي في العبادة شيئًا.

---

[1] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧/٧؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٧٨/٥.

[2] قال الأصمعي: الخَجوج مِن الرياح: الشديدة المَرّ. **الصحاح** للجوهري، «خجج».

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٩/٤.

[4] هود، ٢/١١.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: وتُطهِّر بيتي مِن الأوثان والأقذار لِمَن يطوف به ويصلّي فيه. ولعلّ التعبيرَ عن الصلاة بأركانها للدلالة على أنّ كلّ واحد منها مستقلّ باقتضاء ذلك، فكيف وقد اجتمعت. وقُرئ: "يُشْرِكْ" بالياء.[1]

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: نَادِ فيهم. وقُرئ: "آذِنْ".[2] ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحجّ، والأمرِ به. رُوي أنّه عليه السلام صَعِد أبا قبيس، فقال: «يا أيّها الناس حُجّوا بَيت ربّكم»، / فأسمعه الله تعالى مَنْ في أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق [١١٦و] والمغرب مِمّن سبَق في علمه تعالى أن يحجّ.[3] وقيل: الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أُمر بذلك في حجّة الوداع،[4] ويأباه كون السورة مكّيّة.

﴿يَأْتُوكَ﴾ جواب للأمر ﴿رِجَالٗا﴾ أي: مشاةً، جمع "راجل"، كـ"قيام" جمع "قائم". وقُرئ بضمّ الراء وتخفيف الجيم[5] وتشديده،[6] و"رُجَالَى"[7] كـ"عُجَالَى".

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ عطفٌ على ﴿رِجَالٗا﴾، أي: ورُكبانًا على كلّ بعير مَهزول أتعبه بُعد الشُقّة فهزله أو زاد هُزاله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ﴿ضَامِرٖ﴾ محمولة على المعنى. وقُرئ: "يأْتونَ"[8] على أنّه صفة للرجال والركبان، أو استئناف، فيكون الضمير لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق واسع ﴿عَمِيقٖ﴾ بعيد. وقُرئ: "مَعِيقٍ"،[9] يقال: "بئر بعيدةُ العُمْق"، و"بعيدةُ المُعْق" بمعنًى، كـ"الجَذْب" و"الجَبْذ".

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن محيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٠/٤.

[4] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٠/٤.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والحسَن وابن أبي إسحاق. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٨.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة والحسن وأبي مجلز ومجاهد وجعفر بن محمد. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وجعفر بن محمد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٨.

[9] قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني وقال: "لغة تميم". انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿لِيَشْهَدُواْ﴾ متعلّق بـ﴿يَأْتُوكَ﴾،[١] لا بـ﴿أَذِّن﴾،[٢] أي: ليَحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ عظيمةَ الخَطر، كثيرةَ العدد، أو نوعًا مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة المختصّة بهذه العبادة. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿مَنَٰفِعَ﴾، أي: منافع كائنة لهم.

﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها. وفي جعله غاية للإتيان إيذان بأنّه الغاية القُصوى دون غيره. وقيل: هو كناية عن الذبح؛ لأنّه لا ينفكّ عنه. ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي أيّام النحر، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فإنّ المراد بـ"الذِّكر" ما وقع عند الذبح. وقيل: هي عِشر ذي الحجّة. وقد عُلّق الفعل بالمرزوق وبيّن / بالبهيمة تحريضًا على التقرّب وتنبيهًا على الذِّكر. [١١٦ظ]

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ التفات إلى الخطاب، و"الفاء" فصيحة عاطفة لمَدخولها على مقدَّر قد حُذف للإشعار بأنّه أمر محقّق غير محتاج إلى التصريح به، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٦٠/٢]، أي: فاذكروا اسم الله تعالى على ضحاياكم فكلوا مِن لحومها. والأمر للإباحة وإزاحة ما كانت عليه أهل الجاهليّة مِن التحرّج فيه، أو للندب إلى مواساة الفقراء ومساواتهم. ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ أي: الذي أصابه بؤس وشِدّة ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاجَ، وهذا الأمر للوجوب. وقد قيل به في الأوّل أيضًا.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ليؤدّوا إزالة وسخهم، أو ليُحكموها بقصّ الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون مِن البِرّ في حجّهم. وقيل: مواجب الحجّ. وقُرئ بفتح الواو وتشديد "الفاء".[٣]

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ طوافَ الركن الذي به يتمّ التحلّل، فإنّه قرينة قضاء التَّفَث، وقيل: طواف الوداع.[١] ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي: القديم، فإنّه أوّل بيت وُضع للناس، أو المعتَق مِن تَسلّط الجبابرة، فكأيٍّ مِن جبّار سار إليه ليهدمه فقصَمه الله عزّ وجلّ. وأمّا الحجّاج الثقفي فإنّما قصد إخراج ابنِ الزبير رضي الله عنهما منه، لا التسلّط عليه.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهَي كلام واحد ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أحكامَه وسائرَ ما لا يحلّ هَتْكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجَبه. وقيل: الحَرَمَ وما يتعلّق بالحجّ / مِن التكاليف. وقيل: الكعبةَ والمسجدَ الحرام والبلدَ الحرام والشهرَ الحرام. ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾ أي: فالتعظيم خير له ثوابًا ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: في الآخرة. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير ﴿مَن﴾ لتشريفه والإشعارِ بعلّة الحكم. [١١٧و]

﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ وهي الأزواج الثمانية[٢] على الإطلاق، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: إلّا ما يُتلى عليكم آية تحريمه. استثناء متّصل منها على أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا حُرّم منها لعارض، كالميتة وما أُهلّ به لغير الله تعالى.

والجملة اعتراض جيء به تقريرًا لِما قبله مِن الأمر بالأكل والإطعام، ودفعًا لِما عسى يُتوهّم أنّ الإحرام يحرّمه[٣] كما يحرّم الصيد. وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها[٤] مِن ذلك القبيل -بحمل الأنعام على ما ذُكر مِن الضحايا والهدايا المعهودة خاصّةً؛ لئلّا يحتاج إلى الاستثناء المذكور، إذ ليس فيها ما حُرّم لعارض قطعًا- لمراعاة حُسن التخلّص إلى ما بعده مِن قوله تعالى:

---

١ وفي هامش م: ويُفسَّر تغيير الصيغة في الأوامر الثلاثة لتعميم الحكم للفقراء أيضًا ضرورةَ اختصاص الأمرين السابقين بالأغنياء. «منه».

٢ المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾... الآيتين [الأنعام، ٦/١٤٣-١٤٤].

٣ وفي هامش م: أي: الأكل. «منه».

٤ ط س: كونه. | وفي هامش م: أي: الأنعام. «منه».

﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، فإنّه مترتّب على ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن وجوب مراعاتها والاجتناب عن هَتكها.

ولمّا كان بيان حلّ الأنعام مِن دواعي التعاطي -لا مِن مبادي الاجتناب- عُقّب[١] بما يجب[٢] الاجتناب عنه مِن الحُرُمات، ثمّ أُمر بالاجتناب عمّا هو أقصى الحُرُمات، كأنّه قيل: ومَن يعظّم حُرُمات الله فهو خير له، والأنعامُ ليست مِن الحُرُمات، فإنّها محلّلة لكم إلّا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه، فإنّه ممّا يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التي يجب الاجتناب عنها.

[١١٧ظ] وقوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإنّ / عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنّه لمّا حثّ على تعظيم الحُرُمات أتبع ذلك ردًّا لِما كانت الكفرة عليه مِن تحريم البَحائر والسوائب ونحوهما، والافتراءِ على الله تعالى بأنّه حَكم بذلك.

وقيل: شهادةَ الزور، لِما رُوي أنّه عليه السلام قال: «عدلَت شهادةُ الزور الإشراكَ بالله تعالى» ثلاثًا، وتلا هذه الآية.[٣] و﴿ٱلزُّورِ﴾ مِن "الزَّوْر"، وهو الانحراف، كـ"الإفك" المأخوذ مِن "الأَفْك" الذي هو القَلب والصَّرف، فإنّ الكذِب منحرف مَصروف عن الواقع. وقيل: هو قول أهل الجاهليّة في تلبيتهم: "لبّيك لا شريك لك إلّا شريكٌ هو لك تَملِكُه وما مَلك".[٤]

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١﴾

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مائلين عن كلّ دين زائغ إلى الدين الحقّ، مخلصين لله تعالى ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، فيدخل في ذلك الأوثانُ دخولًا أوّليًا. وهما حالان مِن "واو" ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾.[٥]

---

١ وفي هامش م: أي: بيان حِلّ الأنعام.

٢ ط س: يوجب. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ سنن أبي داود، ٥/٤٥١ (٣٥٩٩)؛ سنن الترمذي، ٤/٥٤٧ (٢٢٩٩).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٥٥.

٥ في الآية السابقة.

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ جملة مبتدأة مؤكِّدة لِما قبلها مِن الاجتناب مِن الإشراك. وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قُبح الإشراك، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنّه سقط مِن أَوج الإيمان إلى حَضيض الكفرِ، ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ فإنّ الأهواء المُردية توزّع أفكاره. وقُرئ: "فَتَخَطَّفُهُ" بفتح الخاء وتشديد الطاء.[١] وبكسر الخاء والطاء،[٢] وبكسر التاء مع كسرهما،[٣] وأصلُهما "تَخْتَطِفُهُ".

﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تُسقِطه وتَقذفه ﴿فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ بعيد، فإنّ الشيطان قد طوّح به في الضلالة. و﴿أَوۡ﴾ للتخيير كما في ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾ [البقرة، ١٩/٢]، أو للتنويع. ويجوز أن يكون مِن باب التشبيه المركّب، / فيكون المعنى: ومَن [١١٨و] يشرك بالله فقد هلَكت نفسُه هلاكًا شبيهًا بهلاك أحد الهالكين.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو امتثِلوا ذلك. ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: الهدايا، فإنّها مِن معالم الحجّ وشعائره تعالى، كما ينبئ عنه: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾،[٤] وهو الأوفق لِما بعده. و"تعظيمُها" اعتقادُ أنّ التقرّب بها مِن أجلّ القُرُبات، وأن يختارها حِسانًا سِمانًا غالية الأثمان.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم أهدى مائةَ بدَنة، فيها جَمَل لأبي جهل في أنفه بُرَة مِن ذهب،[٥] وأنّ عمر رضي الله عنه أهدى نَجيبةً طُلِبت منه بثلاثمائة دينار.[٦]

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٢ أي: "فَتِخِطِّفُهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٨.

٣ أي: "فَتِخِطِفُهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء والأعمش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٥/٧.

٤ الحج، ٣٦/٢٢.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٥٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧١/٤. وأخرجه أبو داود في السنن، ١٦٨/٣ (١٧٤٩). وفيه زاد بعض رواته: "يغيظ بذلك المشركين". والبُرَة: حلْقة تُجعل في لحم الأنف. النهاية لابن الأثير، «بره».

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٥٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧١/٤. وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ١٣٦٨/٢ (٢٩١١). والنجيب: الفاضل مِن كلّ حيوان. النهاية لابن الأثير، «نجب». وأخرجه أبو داود في السنن، ١٧٣/٣ (١٧٥٦)، بلفظ: "أهدى عمَر بن الخطّاب بُختيًا". والبختي: الذكَر مِن الجمال البخت، وهي جمال طِوال الأعناق. النهاية لابن الأثير، «بخت».

﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: فإنّ تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: مِن أفعال ذوي تقوى القلوب، فحُذفت هذه المضافات، والعائد إلى ﴿مَن﴾، أو فإنّ تعظيمها ناشئٌ مِن تقوى القلوب. وتخصيصها بالإضافة لأنّها مراكز التقوى التي إذا ثبتَت فيها وتمكّنت ظهَر أثرها في سائر الأعضاء.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الهدايا ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هي دَرّها ونَسْلها وصوفها وظَهْرها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت نَحرها والتصدّقِ بلحمها والأكلِ منه، ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي: وجوبُ نَحرها، أو وقتُ نَحرها منتهيةً ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: إلى ما يليه مِن الحَرَم. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني أو الرتبي، أي: لكم فيها منافع دنيويّة إلى وقت نَحرها، ثمّ منافع دينيّة، أعظمها في النّفع مَحِلّها، أي: وجوبُ نَحرها، أو وقتُ وجوب نَحرها إلى البيت العتيق، أي: منتهيةً إليه.

هذا، وقد قيل: المراد بـ"الشعائر" مناسكُ الحجّ ومَعالمه، والمعنى: لكم فيها منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك وإقامة شعائر الحجّ إلى أجل مسمّى، هو انقضاء أيّام الحجّ، ثمّ مَحِلّها -أي: مَحِلّ الناس مِن إحرامهم- / إلى [١١٨ظ]
البيت العتيق، أي: مُنتهٍ إليه، بأن يطوفوا به طوافَ الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك، فإضافة "المَحِلّ" إليها لأدنى ملابسة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكلّ أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مُتعبَّدًا، أو قُربانًا[١] يتقرّبون به إلى الله عزّ وجلّ. وقُرئ بكسر السين،[٢] أي: مَوضعَ نُسُك. وتقديم الجارّ والمجرور على الفعل للتخصيص، أي: لكلّ أمّة مِن الأمم جعلنا مَنسَكًا، لا لبعضٍ منهم دون بعض ﴿لِيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ خاصّةً دون غيره، ويجعلوا نَسيكتَهم

---

١ ط س: وقربانًا.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٦.

لوجهه الكريم. عُلِّل الجعلُ به تنبيهًا على أنّ المقصود الأصلي مِن المناسك تذكّر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عند ذبحها. وفيه تنبيه على أنّ القُربان يجب أن يكون مِن الأنعام.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ للكلّ تغليبًا. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ جعله تعالى لكلّ أمّة مِن الأمم مَنْسكًا ممّا يدلّ على وحدانيّته تعالى. وإنّما قيل: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ولم يُقَل: "واحد" لِمَا أنّ المراد بيان أنّه تعالى واحد في ذاته، كما أنّه واحد في إلهيّته للكلّ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ لترتيب ما بعدها مِن الأمر بالإسلام على وحدانيّته تعالى. وتقديم الجارّ والمجرور على الأمر للقصر، أي: فإذا كان إلهكم إلهًا واحدًا فأخلِصوا له التقرّب -أو الذكر- واجعلوه لوجهه خاصّة، ولا تشوبوه بالشرك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: المتواضعين أو المخلِصين، فإنّ الإخْبات مِن الوظائف الخاصّة بهم.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ منه تعالى لإشراق أشعّة جلاله عليها، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِن مشاقّ التكاليف ومُؤنات النوائب، ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. / وقُرئ بنصب ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] على تقدير "النون". وقُرئ: [١١٩و]
"وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ"[2] على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخيرات.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مروية عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٨.

٢ قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود والأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١١٥٧، والبحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٠٨.

﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ بضمّ الباء وسكون الدّال. وقُرئ بضمّهما.[١] وهما جَمعا "بَدَنة"، وقيل: الأصل ضمّ الدال، كـ"خُشُب" و"خَشَبة"، والتسكينُ تخفيف منه. وقُرئ بتشديد النون[٢] على لفظ الوقف.[٣] وإنّما سمّيت بها الإبل لِعِظَم بدَنها، مأخوذة مِن "بَدُن بَدانةً"، وحيث شاركها البقرة[٤] في الإجزاء عن سبعة بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «البدَنة عن سبعة، والبقرة[٥] عن سبعة»[٦] جُعلا في الشريعة جنسًا واحدًا. وانتصابه لِمُضمَر يفسّره: ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾. وقُرئ بالرفع[٧] على أنّه مبتدأ، والجملة خبره.

وقوله تعالى: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. مفعول ثان للجَعل. و﴿لَكُم﴾ ظرف لغو متعلّق به. وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: منافع دينيّة ودنيويّة. جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: «الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، اللّهمّ منك وإليك».[٨]

﴿صَوَآفَّ﴾ أي: قائماتٍ قد صفَفنَ أيديَهنّ وأرجلهنّ. وقُرئ: "صَوَافِنَ"[٩] مِن "صَفَنَ الفرسُ" إذا قام على ثلاث وعلى طرف سَنبك[١٠] الرابعة؛ لأنّ البدَنة

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر ونافع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٩.

٢ أي: "وَالبُدُنّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٣ قال أبو حيّان: «احتمل أن يكون اسمًا مفردًا بُني على فعل كـ"عُتُلّ"، واحتمل أن يكون التشديد مِن التضعيف الجائز في الوقف، وأُجرِي الوصل مُجرى الوقف». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٤ ط س: البقر. | وكتبت التاء المربوطة في نسخة المؤلّف بخط صغير، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٥ ط س: البقر. | وكتبت التاء المربوطة في نسخة المؤلّف بخط صغير، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٢/٤. وأخرجه مسلم في **صحيحه**، ٩٥٥/٢ (١٣١٨)، موقوفًا على جابر بن عبد الله، قال: «نَحرنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عام الحديبية البدَنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة».

٧ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٨ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٢/٤. وأخرجه الحاكم في **المستدرك**، ٢٦٠/٤ (٧٥٧١)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٩.

١٠ السُّنبك: طرف مقدَّم الحافر، والجمع السَّنابك. **الصحاح** للجوهري، «سبك».

تَعقِل إحدى يَديها فيَقوم على ثلاث. وقُرِئ: "صَوَافِنًا"[١] بإبدال التنوين مِن حرف الإطلاق عند الوقف. وقُرِئ: "صَوَافِيَ"،[٢] أي: خوالِص لوجه الله عزّ وجلّ. و"صَوَافِ"[٣] على لغة مَن يسكّن الياء على الإطلاق، كما في قوله:

لعلّي أرى باقٍ على الحَدَثانِ[٤]

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقَطت على الأرض، وهي كناية عن الموت ﴿فَكُلُواْ / مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ﴾ أي: الراضي بما عنده وبما يُعطي مِن غير مسألة، ويؤيّده [١١٩ظ] أنّه قُرِئ: "الْقَنِعَ".[٥] أو السائلَ، مِن "قَنِع إليه قُنوعًا" إذا خَضَع له في السؤال، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أي: المتعرِّض للسؤال. وقُرِئ: "الْمُعْتَرِي"،[٦] يقال: "عَرَّه" و"عَراه"، و"اعترّه" و"اعتَراه".

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير البديع المفهومِ مِن قوله تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع كمال عِظَمها، ونهاية قوّتها، فلا تستعصي[٧] عليكم حتّى تأخذونها منقادةً فتعقلونها وتحبسونها صافّة قوائمَها ثمّ تطعنون في لَبّاتها.[٨] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرّب والإخلاص.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عبيد. وهي كذلك "صَوَافِنًا" بالنون في الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/٣. وضبطها أبو حيّان في البحر المحيط، ٥٠٩/٧؛ والسمين الحلبي في الدرّ المصون، ٢٧٧/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٩١/٤؛ والشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي، ٢٩٧/٦: "صَوَافِيًا" بالياء.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي موسى الأشعري والحسن وزيد بن أسلم والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٤ وفي هامش م: صدره:

خُذا حدِّثاني عن فُلٍ وفُلانٍ

وهو لأبي العبّاس التطيلي في الحماسة المغربيّة للجراوي، ٨٨٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٧ ط س: يستعصي. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٨ اللَّبّة: المَنْحَر، وهو موضع القِلادة مِن الصدر مِن كلّ شيء، والجمع اللَّبّات. الصحاح للجوهري، «لبب».

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ أي: لن يبلغ مرضاته، ولن يقع موقع القَبول ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهراقة بالنحر مِن حيث إنّها لحوم ودماء. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيب تقوى قلوبكم التي يدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرّب إليه والإخلاص له.

وقيل: كان أهل الجاهليّة يلطّخون الكعبة بدماء قرابينهم، فهَمّ به المسلمون، فنزلت.[١]

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير والتعليل بقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لِتَعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدِر عليه غيره، فتوحّدوه بالكبرياء. وقيل: هو التكبير عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: أرشدَكم إلى طريق تسخيرها وكيفيّة التقرّب بها. و﴿مَا﴾ مصدريّة، أو موصولة، أي: على هدايته
١٢٠و إيّاكم، أو على ما هداكم إليه. و﴿عَلَىٰ﴾ متعلّقة بـ﴿تُكَبِّرُواْ﴾ لتضمّنه / معنى الشكر.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المخلصين في كلّ ما يأتون وما يَذرون في أمور دينهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أنّ الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدّهم عن الحجّ؛ ليتفرّغوا إلى أداء مناسكه. وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التامّ بمضمونه.

وصيغة المفاعلة إمّا للمبالغة أو للدلالة على تكرّر الدفع، فإنّها قد تُجَرَّدُ عن وقوع الفعل المتكرّر مِن الجانبين، فيبقى تكرّره كما في الممارسة، أي: يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررهم الذي مِن جملته الصدّ عن سبيل الله مبالغةَ مَن يغالب فيه، أو يدفعها عنهم مرّة بعد أخرى حسبما تجدّد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة، ٦٤/٥]. وقرئ: "يَدْفَعُ"،[٢] والمفعول محذوف.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٢/٤.

[٢] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ تعليل لِمَا في ضِمن الوعد الكريم مِن الوعيد للمشركين، وإيذان بأنّ دفعهم بطريق القهر والخِزي. ونفي المحبّة كناية عن البغض، أي: إنّ الله يبغض كلّ خوّان في أماناته تعالى، وهي أوامره ونواهيه، أو في جميعِ الأمانات التي هي معظمها كُفور لنعمته. وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنّهم كذلك، لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر، أو للمبالغة في نفي المحبّة على اعتبار النفي أوّلًا،[١] وإيرادِ معنى المبالغة ثانيًا.[٢]

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾

﴿أُذِنَ﴾ أي: رُخِص. وقُرئ على البناء للفاعل،[٣] أي: أَذِن الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي: يقاتلهم المشركون. والمأذون فيه محذوف / لدلالة المذكور عليه، [١٢٠ظ] فإنّ مقاتلة المشركين إيّاهم دالّة على مقاتلتهم إيّاهم دلالةً نيّرةً. وقُرئ على صيغة المبنيّ للفاعل،[٤] أي: يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتي ويحرصون عليه. فدلالته على المحذوف أظهر.

﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ﴾ أي: بسبب أنّهم ظُلِموا، وهم أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهم، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه عليه السلام بين مَضروب ومَشجوج، ويتظلّمون إليه، فيقول عليه السلام لهم: «اصبروا فإنّي لم أُومَر بالقتال»، حتّى هاجروا، فأنزلت.[٥] وهي أوّل آية نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيّف وسبعين آيةً.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيدٌ لِمَا مرّ مِن العِدَة الكريمة بالدفع، وتصريحٌ بأنّ المراد به ليس مجرّدَ تخليصهم عن أيدي المشركين؛

---

١ وفي هامش م: فإنّ اعتبار المبالغة فيما عُلِّل به نفي المحبّة مِن أصل الخيانة والكفر مستلزم لاعتبار المبالغة في معلولهما قطعًا. «منه».

٢ وفي هامش م: كما هو شأن الكلّيّة، فإنّها معتبرة بعد النفي لا قبل، وإلّا لأفاد نفي الشمول، لا شمول النفي الذي هو المقصود. «منه».

٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلَف بخُلْف عن إدريس. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٤ أي: "يُقاتِلُونَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٥ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٧٣/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١٦٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٣/٤.

بل تغليبهم وإظهارُهم عليهم. والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سَنن الكبرياء. وتأكيده بكلمة التحقيق و"اللام" لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادةِ تَوطين نفوس المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ في حيّز الجرّ على أنّه صفة للموصول الأوّل، أو بيان له، أو بدل منه، أو في محلّ النصب على المدح، أو في محلّ الرفع بإضمار مبتدأ، والجملة مرفوعة على المدح. والمراد بـ﴿دِيَـٰرِهِم﴾ مكّة المعظّمة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ متعلّق بـ﴿أُخْرِجُوا۟﴾، أي: أُخرِجوا بغير ما يوجب إخراجهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بدل مِن ﴿حَقٍّ﴾، أي: بغير موجِب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجِبًا للإقرار والتمكين دون الإخراج والتسيير، لكن لا على الظاهر؛ بل على طريقة قول النابغة:

[١٢١و] ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم / بهنّ فُلول مِن قِراع الكتائبِ[١]

وقيل: الاستثناء منقطع.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين في كلّ عصر وزمان. وقُرئ: "دِفَاعُ".[٢] ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ لخُرِّبت باستيلاء المشركين على أهل المِلَل. وقُرئ: "هُدِمَتْ" بالتخفيف.[٣] ﴿صَوَٰمِعُ﴾ للرهابِنة ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ أي: وكنائس لليهود، سمّيت بها لأنّها تصلّى فيها. وقيل: أصلها "صَلُوتَا" بالعبريّة، فعرّبت. ﴿وَمَسَـٰجِدُ﴾ للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: ذِكرًا كثيرًا، أو وقتًا كثيرًا، صفة مادحة للمساجد، خُصّت بها دلالةً على فضلها

---

١ ديوان النابغة الذبياني، ص ٤٤.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

وفضل أهلها. وقيل: صفة للأربع،[١] وليس كذلك، فإنّ بيان ذكر الله عزّ وجلّ في الصوامع والبِيَع والكنائس بعد انتساخ شرعيّتها ممّا لا يَقتضيه المقام، ولا يرتضيه الأفهام.[٢]

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: وبالله لينصرنّ الله مَن يَنصر أولياءه، أو مَن يَنصر دينه، ولقد أنجز الله عزّ سلطانه وعدَه، حيث سلّط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على كلّ ما يريده مِن مراداته التي مِن جملتها نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وصفٌ مِن الله عزّ وجلّ للذين أُخرجوا مِن ديارهم بما سيكون منهم مِن حُسن السيرة عند تمكينه تعالى إيّاهم في الأرض، وإعطائِه إيّاهم زِمام الأحكام، مُنبئ عن عِدَة كريمة على أبلغ وجه وألطفه.

وعن عثمانَ رضي الله تعالى[٣] عنه: «هذا واللهِ ثناء قبل بلاء».[٤] يريد أنّه تعالى أثنى عليهم قبل أن يُحدِثوا مِن الخير ما أحدَثوا. قالوا: وفيه دليل على صحّة أمر الخلفاء الراشدين؛ / لأنّه تعالى لم يُعطِ التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة غيرَهم مِن المهاجرين، لا حظَّ في ذلك للأنصار والطلَقاء. وعن الحسن رضي الله عنه: «هم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[٥] وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل مِن قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. [١٢١ظ]

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤//٧٣.

٢ قال الشهاب الخفاجي: «كون الذِّكر بعد نسخ الشريعة ممّا لا يقتضيه المقام ليس بشيء؛ لأنّ النسخ لا ينافي بقاءَها ببركة ذِكر الله فيها، مع أنّ معنى الآية عامّ لِمَا قبل النسخ، وبه صرّح المفسّرون». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٦/٣٠٠.

٣ س - تعالى.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦٠؛ البحر المحيط لأبي حيان، ٧/٥١٨.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦١.

﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصّةً ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإنّ مرجعها إلى حُكمه وتقديره فقط. وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه، وإعلاءِ كلمته.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم متضمّنة للوعد الكريم بإهلاك مَن يعاديه مِن الكفرة، وتعيينٌ لكيفيّة نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾،[1] وبيان لرجوع عاقبة الأمور إليه تعالى.

وصيغة المضارع في الشرط مع تحقّق التكذيب لِمَا أنّ المقصود تسليته عليه السلام عمّا يترتّب على التكذيب مِن الحُزن المتوقّع،[2] أي: وإن تَحزن على تكذيبهم إيّاك فاعلَم أنّك لستَ بأوحَديّ في ذلك، فقد كذّبَتْ قبل تكذيب قومك إيّاك قومُ نوح، ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ أي: رسلَهم ممّن ذُكر ومَن لم يُذكر، وإنّما حُذف لكمال ظهور المراد، أو لأنّ المراد نفس الفعل، أي: فعلَت التكذيبَ قومُ نوح... إلى آخره.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غُيّر النظم الكريم بذكر المفعول وبناءِ الفعل له، لا لأنّ قومه بنو إسرائيل، وهم لم يكذّبوه، وإنّما كذّبه القِبط، لِمَا أنّ ذلك إنّما يقتضي عدمَ ذكرهم بعنوان كونهم قومَ موسى، لا بعنوان آخر، على أنّ بني إسرائيل أيضًا قد كذّبوه مرّة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة، ٢/٥٥]، ونحو ذلك مِن الآيات الكريمة؛ بل للإيذان بأنّ تكذيبهم له كان في غاية الشناعة؛ لكون آياته في كمال الوضوح.

وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلتهم حتّى انصرَمت حِبال آجالهم.
[١٢٢و] / و"الفاء" لترتيب إمهال كلّ فريق مِن فِرَق المكذّبين على تكذيب ذلك الفريق،

---

[1] الحج، ٢٢/٤٠.

[2] وفي هامش م: ويجوز أن يكون المراد استمرارهم على التكذيب. «منه».

لا لترتيب إمهال الكلّ على تكذيب الكلّ. ووضع الظاهر مَوضع الضمير العائد إلى المكذّبين لذمّهم بالكفر، والتصريحِ بمكذّبي موسى عليه السلام حيث لم يُذكَروا فيما قبلُ صريحًا.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أخذت كلّ فريق مِن فِرَق المكذّبين بعد انقضاء مدّة إملائه وإمهاله. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بالإهلاك، أي: فكان ذلك في غاية ما يكون مِن الهَول والفظاعة.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: فأهلكنا كثيرًا مِن القرى بإهلاك أهلها. والجملة بدل مِن قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾،[١] أو مرفوع على الابتداء، و﴿أَهْلَكْنَا﴾ خبره، أي: فكثيرٌ مِن القرى أهلكناها. وقُرئ: "أَهْلَكْتُهَا"[٢] على وَفق قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.[٣] ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حاليّة مِن مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾، لا على ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾؛ لأنّها حال، والإهلاك ليس في حال خَوائِها. فعلى الأوّل لا محلّ له مِن الإعراب كالمعطوف عليه، وعلى الثاني في محلّ الرفع لِعَطفه على الخبر.

و"الخَواء" إمّا بمعنى السقوط، مِن "خَوَى النجمُ" إذا سقَط، فالمعنى: فهي ساقطة حيطانها ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: سُقوفِها، بأن يُعطّل بنيانها، فخرّت سقوفها، ثمّ تهدّمت حيطانها، فسقطت فوق السقوف. وإسناد السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كلّ البنيان؛ لكونها عمدة فيه.

وإمّا بمعنى الخلوّ، مِن "خَوَى المنزلُ" إذا خَلا مِن أهله، فالمعنى: فهي خالية مع بقاء عروشها وسلامتِها، فيكون ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى "مع".

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

٣ في الآية السابقة.

ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خبرًا بعد خبر، أي: فهي خالية وهي على عروشها، أي: قائمة مشرفة على عروشها، على معنى أنّ السقوف سقَطت إلى الأرض، وبقيت الحيطان قائمةً، فهي مشرفة / على السقوف الساقطة. وإسنادُ [١٢٢ظ] الإشراف إلى الكلّ مع كونه حالَ الحيطان لِمَا مرّ آنفًا.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على ﴿قَرْيَةٍ﴾، أي: وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُسقى منها لهلاك أهلها. وقُرئ بالتخفيف[١] مِن "أَعْطَلَه" بمعنى "عَطَّلَه".

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوعِ البنيانِ، أو مُجَصَّصٍ، أخليناه عن ساكنيه، وهذا يؤيّد كونَ معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: خالية مع بقاء عروشها.

وقيل: المراد بـ"البئر" بئرٌ بسفح جبل بحضرموت، وبـ"القَصر" قصرٌ مشرف على قُلّته،[٢] كانا لقوم حنظلة بن صفوان مِن بقايا قوم صالح، فلمّا قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطّلهما.[٣]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثّ لهم على أن يسافروا ليَرَوا مَصارع المُهلَكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنّهم حيث لم يسافروا للاعتبار جُعلوا غيرَ مسافرين، فحُثّوا على ذلك. و"الفاء" لعطف ما بعدها على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أغَفِلوا فلم يسيروا فيها؟

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه مِن موادّ الاعتبار، ومظانّ الاستبصار ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُعقل مِن التوحيد ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُسمع مِن الوحي، أو مِن أخبار الأمم المهلَكة ممّن يجاورهم مِن[٤] الناس، فإنّهم أعرف منهم بحالهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٠.

[٢] القُلّة: أعلى الجبل. الصحاح للجوهري، «قلل».

[٣] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٤.

[٤] م + مِن.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الضمير للقصّة، أو مبهم يفسّره ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. وفي ﴿تَعْمَى﴾ ضمير راجع إليه، وقد أقيمَ الظاهر مُقامه، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنّما هو في عقولهم باتّباع الهوى والانهماك في الغفلة. وذكرُ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للتأكيد ونفيِ توهّم التجوّز / وفضلِ التنبيه على أنّ العمى الحقيقي ليس المتعارفَ الذي يختصّ بالبصر. [١٢٣و]

قيل: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن[١] كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء، ٧٢/١٧]، قال ابن أمّ مكتوم: يا رسول الله، أنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت.[٢]

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ كانوا منكرين لمجيء العذاب المتوعَّد به أشدّ الإنكار، وإنّما كانوا يستعجلون به استهزاءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتعجيزًا له على زعمهم، فَحُكِي عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار. فقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ إمّا جملة حاليّة جيء بها لبيان بطلان إنكارهم لمجيئه في ضمن استعجالهم به، وإظهارِ خطئهم فيه، كأنّه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب الموعود، والحال أنّه تعالى لا يخلف وعدَه أبدًا؟ وقد سبق الوعد، فلا بدّ مِن مجيئه حتمًا، أو اعتراضيّة مبنيّة لِما ذُكر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ جملة مستأنفة إن كانت الأولى حاليّة، ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضيّة، سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال المذكور ببيان كمال سَعة ساحة حِلمه تعالى ووَقاره، وإظهارِ غاية ضيق عَطَنهم[٣] المستتبع لكون المدّة القصيرة عنده تعالى مُدَدًا طِوالًا عندهم،

---

١ م س: مَن.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٤/٤.

٣ قولهم: "فلانٌ ضَيِّق العَطَن" معناه: قليل العطاء، ضيق النفس. فكني بالعَطَن عن ذلك. والأصل في "العَطَن": الموضع الذي تَبْرُكُ فيه الإبل إلى الماء إذا شربت. الزاهر للأنباري، ٣٩٣/٢.

حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج، ٧٠/٦-٧]، ولذلك يرون مجيئه بعيدًا، ويتّخذونه ذريعة إلى إنكاره، ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أنّ معيار تقدير الأمور كلِّها وقوعًا وأخبارًا ما عنده تعالى مِن المقدار. وقراءة: "يَعُدُّونَ"[١] على صيغة الغيبة -أي: يعدّه المستعجلون- أوفقُ لهذا المعنى، وقد جُعل الخطاب في القراءة المشهورة لهم أيضًا بطريق الالتفات، لكنّ الظاهر أنّه للرسول صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين.

وقيل: المراد بوعده تعالى ما جُعل لهلاك كلّ أمّة مِن موعد معيّن وأجل مسمّى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٥٣]، فيكون الجملة الأُولى حاليّةً كانت أو اعتراضيّةً مبيّنةً لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود، والجملةُ الأخيرة بيانًا لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى / على الوجه الذي مرّ بيانه، فلا يكون في النظم الكريم حينئذ تعرّض لإنكارهم الذي دسّوه تحت الاستعجال؛ بل يكون الجواب مبنيًّا على ظاهر مقالهم، ويُكتَفَى في ردّ إنكارهم ببيان عاقبة مَن قبلهم مِن أمثالهم. [١٢٣ظ]

هذا، وحَملُ المستعجَلِ به على عذاب الآخرة وجعلُ "اليوم" عبارةً عن يوم العذاب المستطال لشدّته أو عن أيّام الآخرة الطويلة حقيقةً أو المستطالة لشدّة عذابها[٢] ممّا لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه، فإنّ كلًّا منهما ناطق بأنّ المراد هو العذاب الدنيوي، وأنّ الزمان الممتدّ هو الذي مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال، لا الزمان المقارن له، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾... إلخ؟ فإنّه كما سلف مِن قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾،[٣] صريح في أنّ المراد هو الأخذ العاجل الشديد بعد الإملاء المديد، أي: وكم مِن أهل قرية، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه في الإعراب ورجعِ الضمائر والأحكام مبالغةً في التعميم والتهويل.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٤.

[٣] الحج، ٢٢/٤٤.

﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء حتّى أنكروا مجيء ما وُعِدوا مِن العذاب، واستعجلوا به استهزاءً برسلهم كما فعل هؤلاء. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حاليّة مفيدة لكمال حِلمه تعالى، ومشعرةٌ بطريق التعريض بظلم المستعجلين، أي: أمليت لها والحال أنّها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء، ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾ بالعذاب والنّكال بعد طول الإملاء والإمهال.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله، ومصرِّحٌ بما أفاده ذلك بطريق التعريض مِن أنّ مآل أمر المستعجلين أيضًا ما ذُكر مِن الأخذ الوبيل، أي: إلى حُكمي مرجعُ الكلّ جميعًا، لا إلى أحد غيري، لا استقلالًا ولا شركةً، فأفعل بهم ما أفعل ممّا يليق بأعمالهم.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٤٩﴾

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أنذركم إنذارًا بيّنًا بما أوحي مِن أنباء الأمم المهلَكة مِن غير أن يكون لي دخل في إتيان ما تُوعَدونه مِن العذاب حتّى تستعجلوني به. والاقتصار على الإنذار مع بيان حال الفريقين بعده لِما أشيرَ إليه مِن أنّ مساق الحديث للمشركين وعقابهم، وإنّما ذُكر المؤمنون وثوابهم زيادةً في غيظهم.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠﴾

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لِمَا ندر منهم مِن الذنوب ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ / هي الجنّة. و"الكريم" مِن كلّ نوع ما يجمع فضائله ويَحوز كمالاته. [١٢٤و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أنّ كيدهم للإسلام يتمّ لهم. وأصله مِن "عاجزه فأعجزه وعجّزه"[١]

---

[١] ط س: وعجّزه فأعجزه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

إذا سابقه فسبَقه؛ لأنّ كلًّا مِن المتسابقِين يريد إعجاز الآخر عن اللَّحاق به. وقُرئ: "مُعَجِّزِينَ"،[١] أي: مثبِّطين الناس عن الإيمان على أنّه حال مقدّرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن السعي والمعاجَزة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: ملازِموا النار الموقدة. وقيل: هو اسم دَرَكة مِن دَرَكاتها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ "الرسول" مَن بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، و"النبيّ" يعمّه ومَن بَعَثَه لتقرير شريعة سابقة، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ولذلك شبّه عليه السلام علماء أمّته بهم. فالنبيّ أعمّ مِن الرسول، ويدلّ عليه أنّه عليه السلام سُئل عن الأنبياء، فقال: «مائةُ ألف وأربعة وعشرون ألفًا» قيل: فكم الرسل منهم؟ فقال: «ثلاثمائة وثلاثةَ عشرَ جمّاء غفيرًا».[٢]

وقيل: "الرسول" مَن جمع إلى المعجزة كتابًا منزّلًا عليه، و"النبيّ" غير الرسول مَن لا كتابَ له. وقيل: "الرسول" مَن يأتيه الملَك بالوحي، و"النبيّ" يقال له ولمَن يوحَى إليه في المنام.

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: هيّأ في نفسه ما يهواه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ / في تَشهّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما قال عليه السلام: «وإنّه لَيُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرّة».[٣] [١٢٤ظ]

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيُبطله ويذهب به بعِصمته عن الركون إليه وإرشاده إلى ما يُزيحه، ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يُثبت آياته الداعية

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٦٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٤. وأخرجه الإمام أحمد في المسند، ٦١٩/٣٦ (٢٢٢٨٨)؛ والحاكم في المستدرك، ٦٥٢/٢ (٤١٦٦).

٣ وأخرجه مسلم في صحيحه، ٢٠٧٥/٤ (٢٧٠٢)، بلفظ: «إنّه لَيُغان على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

إلى الاستغراق في شئون الحقّ. وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدّدي. وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأنّ الألوهيّة مِن موجبات أحكام آياته الباهرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكلّ ما مِن شأنه أن يُعلَم، ومِن جملته ما صدر عن العباد مِن قول وفعل، عمدًا أو خطأً. ﴿حَكِيمٌ﴾ في كلّ ما يفعل. والإظهار ههنا أيضًا لِما ذُكر، مع ما فيه مِن تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي.

قيل: حدّث نفسه بزوال المسكنة، فنزلت.[١] وقيل: تمنّى لحِرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقرّبهم إليه، واستمرّ به ذلك حتّى كان في ناديهم، فنزلت عليه سورة النجم، فأخذ يقرؤها، فلمّا بلغ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم، ٢٠/٥٣] وسوس إليه الشيطان حتّى سبَق لسانه سهوًا إلى أن قال: «تلك الغرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهنّ لَتُرتَجى»، ففرح به المشركون حتّى شايَعوه بالسجود لمّا سجَد في آخرها، بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمن ولا مشرك إلّا سجَد، ثمّ نبّهه جبريل عليهما السلام، فاغتمّ به، فعزّاه الله عزّ وجلّ بهذه الآية.[٢] وهو مردود عند المحقّقين، ولَئِن صحّ فابتلاءٌ يتميّز به الثابت على الإيمان عن المتزلزِل فيه.

وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى "قرأ"، كقوله:

تمنّى كتابَ الله أوّل ليلةٍ تمنّيَ داودَ الزبورَ على رِسلِ[٣]

و﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قراءته، و"إلقاءُ الشيطان فيها" أن يتكلّم بذلك رافعًا صوته بحيث ظنّ السامعون أنّه مِن قراءة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. / وقد رُدّ بأنّه أيضًا يُخلّ بالوثوق بالقرآن، ولا يندفع بقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ لأنّه أيضًا يحتمله. وفي الآية دلالة على جواز السهو مِن الأنبياء عليهم السلام وتَطرّقِ الوسوسة. [١٢٥و]

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٦؛ المعجم الكبير للطبراني، ٣٤/٩ (٨٣١٦).

٣ بغير نسبة في لسان العرب لابن منظور، «مني»، وقال: «أي: تلا كتاب الله مترسّلًا فيه كما تلا داود الزبورَ مترسّلًا فيه».

﴿لِيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾

﴿لِيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ علّة لِما يُنبئ عنه ما ذُكر مِن إلقاء الشيطان مِن تمكينه تعالى إيّاه مِن ذلك في حقّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً كما يُعرب عنه سياق النظم الكريم، لِمَا أنّ تمكينه تعالى إيّاه مِن الإلقاء في حقّ سائر الأنبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتي، وفيه دلالة على أنّ ما يلقيه أمر ظاهر يعرفه المُحِقّ والمُبطِل.

﴿فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أي: شكّ ونفاق، كما في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ الآيةَ [البقرة، ١٠/٢]. ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: المشركين.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الفريقَين المذكورَين، فوُضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظلم مع ما وُصِفوا به مِن المرض والقساوة. ﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: عداوةٍ شديدةٍ، ومخالفةٍ تامّةٍ. ووصفُ الشقاق بالبعد مع أنّ الموصوفَ به حقيقةً هو مَعروضه للمبالغة. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤﴾

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هو الحقّ النازل مِن عنده تعالى. وقيل: ليعلموا أنّ تمكين الشيطان مِن الإلقاء هو الحقّ المتضمّن للحكمة البالغة والغاية الجميلة؛[١] لأنّه ممّا جرت به عادته في جنس الإنس مِن لَدن آدم عليه السلام، فحينئذ لا حاجة إلى تخصيص التمكين فيما سبق بالإلقاء في حقّه عليه السلام، لكن يأباه قوله تعالى: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أي: يثبتوا على الإيمان به، أو يزدادوا إيمانًا بردّ ما يلقي الشيطان، ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ بالانقياد والخشية والإذعان لِمَا فيه مِن الأوامر والنواهي. ورجعُ الضميرين[٢] -لا سيّما الثاني- إلى تمكين الشيطان مِن الإلقاء ممّا لا وجه له.

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣.

[٢] وفي هامش م: ضمير ﴿أَنَّهُ﴾ وضمير ﴿بِهِ﴾. «منه».

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: في الأمور الدينيّة خصوصًا في المداحض والمشكلات التي مِن جملتها ما ذكر. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هو النظر الصحيح الموصل إلى الحقّ الصريح. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ﴾ أي: في شكّ وجدال ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: مِن القرآن. وقيل: مِن الرسول صلّى الله عليه وسلّم. / والأوّل هو الأظهر بشهادة ما [١٢٥ظ] سبق مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾،[١] وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾،[٢] وما لحق مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.[٣]

وأمّا تجويز كون الضمير لِـ"ما ألقى الشيطان في أمنيّته" فممّا لا مساغ له؛ لأنّ ذلك ليس مِن هَناتهم التي تستمرّ إلى الأمد المذكور؛ بل إنّما هي مِريتهم في شأن القرآن. ولا يُجدي حمل ﴿مِن﴾ على السببيّة دون الابتدائيّة، لِما أنّ مِريتهم المستمرّة كما أنّها ليست مبتدَأة مِن ذلك ليست ناشئةً منه ضرورةَ أنّها مستمرّة منهم مِن لدن نزول القرآن الكريم.

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة نفسها كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿بَغۡتَةً﴾ أي: فجأةً، فإنّها الموصوفة بالإتيان كذلك، لا أشراطها، وقيل: الموت، ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ أي: يومٍ لا يومَ بعده، كأنّ كلّ يوم يلِد ما بعده مِن الأيّام، فما لا يومَ بعده يكون عقيمًا، والمراد به الساعة أيضًا، كأنّه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوُضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل. ولا سبيلَ إلى حمل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ على أشراطها لِما عرفته.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد يوم حربٍ يقتلون فيه كيوم بدر، سمّي به لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيَصرن كأنّهنّ عُقم لم يلِدنَ، أو لأنّ المقاتلين أبناء الحرب،

---

١ الحج، ٥٢/٢٢.
٢ الحج، ٥٤/٢٢.
٣ الحج، ٥٧/٢٢.

فإذا قُتِلوا صارت عقيمًا، أي: ثَكلى فوُصفَ اليوم بوصفها اتّساعًا، أو لأنّه لا خير لهم فيه، ومنه: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات، ٤١/٥١] لِما لم يُنشئ مطرًا، ولم يلقّح شجرًا، أو لأنّه لا مثلَ له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه؛[١] فممّا[٢] لا يساعده سياق النظم الكريم أصلًا، كيف لا وإنّ تخصيص المُلك والتصرّف الكلّي فيه بالله عزّ وجلّ ثمّ بيانَ ما يقع فيه مِن حُكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الأخرويّين يقضي بأنّ المراد به يوم القيامة قضاءً بيّنًا لا ريب فيه.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾

﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي: السلطان القاهر، والاستيلاء التامّ، والتصرّف على الإطلاق ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ وحدَه بلا شريك أصلًا بحيث لا يكون فيه لأحدٍ تصرّف مِن التصرّفات في أمر مِن الأمور، لا حقيقةً ولا مجازًا، ولا صورةً ولا معنًى، كما في الدنيا، فإنّ للبعض فيها تصرّفًا صوريًّا في الجملة.

وليس التنوين نائبًا عمّا يدلّ عليه الغاية مِن زوال مِريتهم كما قيل،[٣] ولا عمّا يستلزمه ذلك مِن إيمانهم كما قيل،[٤] لِما أنّ القيد المعتبَر مع اليوم حيث وُسّط بين طرفَي الجملة يجب أن يكون مدارًا لحُكمها، أعني: كون المُلك لله عزّ وجلّ وما [١٢٦و] يتفرّع عليه مِن / الإثابة والتعذيب، ولا ريب في أنّ إيمانهم أو زوالَ مِريتهم ليس ممّا له تعلّق ما بما ذكر فضلًا عن المداريّة له، فلا سبيل إلى اعتبار شيء منهما مع اليوم قطعًا، وإنّما الذي يدور عليه ما ذكر إتيانُ الساعة التي هي منتهى تصرّفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام المَلِكِ الحقّ جلّ جلاله، فإذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غايةً لمِريتهم، فالمعنى: المُلك يومَ إذ تأتيهم الساعةَ أو عذابُها لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابًا عن سؤال نشأ مِن الإخبار بكونِ المُلك يومئذ لله تعالى،[٥] كأنّه قيل: فماذا يَصنع بهم حينئذٍ؟ فقيل: يَحكم بين فريقي المؤمنين به والمُمارين فيه بالمُجازاة.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٦/٤.

٢ السياق: وأمّا ما قيل... فممّا...

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٦/٤.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣.

٥ س - تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾... إلخ تفسيرٌ للحكم المذكور وتفصيل له، أي: فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يُماروا فيه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ امتثالًا بما أُمِروا في تضاعيفه ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: مستقِرّون فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: أصرّوا على ذلك واستمرّوا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الكفر والتكذيب. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشرّ والفساد، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الكفر والتكذيب. وهو مبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ جملة اسميّة مِن مبتدأ وخبر مقدَّم عليه وقعت خبرًا لـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، أو ﴿لَهُمْ﴾ خبر لـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، و﴿عَذَابٌ﴾ مرتفع على الفاعليّة بالاستقرار في الجارّ والمجرور لاعتماده على المبتدأ. و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مع خبره على الوجهين خبر للموصول، وتصديرُه بـ"الفاء" للدلالة على أنّ تعذيب الكفّار بسبب أعمالهم السيّئة، كما أنّ تجريد خبر الموصول الأوّل عنها للإيذان بأنّ إثابة المؤمنين بطريق التفضّل، لا لإيجاب الأعمال الصالحة إيّاها.

وقوله تعالى: ﴿مُّهِينٌ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾ مؤكِّدة لِما أفاده التنوين مِن الفخامة. وفيه مِن المبالغة مِن وجوه شتّى ما لا يخفى.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد حسبما يلوّح به قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ أي: في تضاعيف المهاجَرة. ومحلّ الموصول الرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ جواب لقسَمٍ محذوف، والجملة خبره. ومَن منع وقوع الجملة القسميّة وجوابها / خبرًا للمبتدأ يُضمِر قولًا هو الخبر، والجملة محكيّة به. [١٢٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ إمّا مفعول ثان على أنّه مِن باب "الرِّعْي" و"الذِّبح"، أي: مرزوقًا حسنًا، أو مصدر مؤكِّد، والمراد به ما لا ينقطع أبدًا مِن نعيم الجنّة،

وإنّما سَوّى بينهما في الوعد لاستوائهما في القصد. وأصل العمل على أنّ مراتب الحسن متفاوتة، فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الأرزاق الحسنة.

ورُوي أنّ بعض أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالوا: «يا نبيّ الله، هؤلاء الذين قُتلوا في سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى مِن الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن مِتنا معك؟»، فنزلت.[١]

وقيل: نزلت في طوائفَ خرجوا مِن مكّة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم.[٢]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّه يرزق بغير حساب، مع أنّ ما يرزقه لا يَقدر عليه أحد غيرُه. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾،[٣] أو استئناف مقرِّر لمضمونه. و﴿مُّدْخَلًا﴾ إمّا اسم مكان أريدَ به الجنّة، فهو مفعول ثانٍ للإدخال، أو مصدر ميميّ أُكِّد به فعله.

قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[٤] عنهما: «إنّما قيل: ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لِمَا أنّهم يرون فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيَرضونه».[٥]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال مُعاديهم، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٦٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك. والجملة لتقرير ما قبله، والتنبيهِ على أنّ ما بعده كلام مستأنَف.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٦.
٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٢٩؛ اللباب لابن عادل، ١٤/١٣١.
٣ في الآية السابقة.
٤ س – تعالى.
٥ اللباب لابن عادل، ١٤/١٣٢.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: لم يزد في الاقتصاص، وإنّما سمّي الابتداء بالعقاب الذي هو جزاء الجناية للمشاكلة، أو لكونه سببًا له، ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ / بالمعاودة إلى العقوبة، ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على مَن بغَى عليه لا محالةَ. [١٢٧و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: مبالِغ في العفو والغفران، فيعفو عن المنتصِر ويغفر له ما صدر عنه مِن ترجيح الانتقام على العفوِ والصبرِ المندوب إليهما بقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ[1] ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ[2] عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى، ٤٢/٤٣]، فتدبّر،[3] فإنّ فيه حثًّا بليغًا على العفو والمغفرة، فإنّه تعالى مع كمال قدرته لمّا كان يعفو ويغفر فغيرُه أولى بذلك، وتنبيهًا على أنّه تعالى قادر على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلّا القادرُ على ضدّه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى النصر. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ رتبته. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: بسبب أنّه تعالى مِن شأنه وسنّته تغليبُ بعض مخلوقاته على بعض، والمداولةُ بين الأشياء المتضادّة، وعُبّر عن ذلك بإدخال أحد المَلَوين في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص عن الآخر، أو بتحصيل أحدهما في مكان الآخر؛ لكونه أظهر الموادّ وأوضحها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بكلّ المسموعات التي مِن جملتها قول المعاقَب ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصَرات، ومِن جملتها أفعالُه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الاتّصاف بما ذُكر مِن كمال القدرة والعلم. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ آنفًا. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه وصفاته وأفعاله وحدَه، فإنّ وجوب وجوده ووحدتَه

---

[1] م ط س: فإنّ.
[2] م ط س: مِن.
[3] ط س – فتدبّر.

يقتضيان كونه مبدأً لكلّ ما يوجد مِن الموجودات عالمًا بكلّ المعلومات أو الثابتَ إلهيّته، فلا يصلح لها إلّا مَن كان عالمًا قادرًا.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهًا. وقُرئ على البناء للمفعول،[١] على أنّ الواو لِـ﴿مَا﴾، فإنّه عبارة عن الآلهة. وقُرئ بالتاء[٢] على خطاب المشركين. ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: المعدوم في حدّ ذاته، أو الباطل ألوهيتُه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن أن يكون له شريك، لا شيءَ أعلى منه شأنًا، وأكبرَ سلطانًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهام تقريرٍ كما يفصح عنه الرفع في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالعطف على ﴿أنزَلَ﴾. وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدّد أثر الإنزال واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصِل لطفه أو علمه إلى كلّ ما جَلّ ودَقّ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق مِن التدابير الحسنة ظاهرًا وباطنًا.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلّ شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجِب للحمد بصفاته وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعل ما فيها مِن الأشياء مذلَّلة لكم، مُعدَّة لمَنافعكم، تتصرّفون فيها كيف شئتم، فلا أصلبَ مِن الحجَر، ولا أشدَّ مِن الحديد، ولا أهيبَ مِن النار، وهي مسخَّرة لكم. وتقديم الجارّ والمجرور

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٨/٣.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم لتعجيل المسرّة، والتشويقِ إلى المؤخّر.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾، أو على اسم ﴿أَنَّ﴾. وقُرئ بالرفع على الابتداء.[١] ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حال مِن ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ / على الأوّل، وخبر على الأخيرين. [١٢٧ظ] ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن أن تقع، أو كراهةَ أن تقع، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه ردّ لاستمساكها بذاتها، فإنّها مساوية في الجسميّة لسائر الأجسام القابلة للمَيل الهابط، فتقبله كقَبول غيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيّأ لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينيّة والتنزيليّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جمادًا عناصرَ ونُطفًا، حسبما فُصِّل في مطلع السورة الكريمة، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند مجيء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحود للنعم مع ظهورها، وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ كلام مستأنَف جيء به لزجر معاصريه عليه السلام مِن أهل الأديان السماويّة عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسّكوا به مِن الشرائع، وإظهارِ خطئهم في النظر، أي: لكلّ أمّة معيَّنةٍ مِن الأمم الخالية والباقية ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: وضعنا وعيّنّا ﴿مَنسَكًا﴾ أي: شريعة خاصّةً، لا لأمّة أخرى منهم، على معنى:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي والأعرج وطلحة وأبو حيوة والزعفراني. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٠٣.

عيّنًا كلّ شريعة لأمّة معيّنة مِن الأمم بحيث لا تتخطّا أمّةٌ منهم شريعتها المعيَّنة لها إلى شريعة أخرى، لا استقلالًا ولا اشتراكًا.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ صفة لـ﴿مَنسَكًا﴾ مؤكِّدة للقصر المستفاد مِن تقديم الجارّ والمجرور على الفعل. والضمير لكلّ أمّة باعتبار خصوصها، أي: تلك الأمّة المعيّنة ناسكوه والعاملون به، لا أمّةٌ أخرى، فالأمّة التي كانت مِن مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام مَنسكُهم **التوراة** هم ناسكوها والعاملون بها، لا غيرهم، والتي كانت مِن مبعث عيسى إلى مبعث النبيّ عليهم[١] السلام مَنسكُهم **الإنجيل** هم ناسكوه والعاملون به، لا غيرُهم، وأمّا الأمّة الموجودة عند بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومَن بعدهم مِن الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمّة واحدة مَنسكُهم الفرقان، ليس إلّا كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٥/٤٨].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ لترتيب النهي أو موجَبِه[٢] على ما قبلها، فإنّ تعيينه تعالى لكلّ أمّة مِن الأمم التي مِن جملتهم هذه الأمّة شريعةً مستقلّةً بحيث لا يتخطّا أمّةٌ منهم شريعتُها المعيَّنة لها موجِبٌ لطاعة هؤلاء لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعدمِ منازعتهم إيّاه في أمر الدين زعمًا منهم أنّ شريعتَهم ما عُيِّن لآبائهم الأوّلين مِن **التوراة والإنجيل**، فإنّهما شريعتان لمَن مضى مِن الأمم قبل انتساخهما، وهؤلاء أمّة مستقلّة مَنسكُهم **القرآن المجيد** فحسب.

والنهي إمّا على حقيقته، أو كناية عن نهيه صلّى الله عليه وسلّم[٣] عن الالتفات إلى نزاعهم المبنيّ على زعمهم المذكور، وأمّا جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم[٤] فلا يساعده المقام. وقُرئ: "فَلَا يَنْزَعَنَّكَ"[٥] على تهييجِه عليه السلام، والمبالغةِ في تثبيته. وأيًّا ما كان فمحلّ النزاع ما ذكرناه،

---

١ س: عليهما.
٢ م ط س - أو موجَبه. ["صح" في هامش م].
٣ س: عليه السلام.
٤ انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٣/٤٣٧.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن لاحق بن حُميد. المحتسب لابن جنّي، ٢/٨٥.

وتخصيصُه بأمر النسائك، وجعلُه عبارة عن قول الخزاعيّين وغيرهم للمسلمين: «ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله تعالى»؛[١] ممّا لا سبيل إليه أصلًا، كيف لا وإنّه يستدعي أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه مِن الأباطيل مِن جملة المناسك التي جعلها الله تعالى لبعض الأمم، ولا يرتابُ في بطلانه عاقل.

﴿وَٱدْعُ﴾ أي: وَادعُهُم، أو وادعُ الناس كافّة، على أنّهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا / ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته حسبما بيّن لهم في مَنسكهم وشريعتهم، [١٢٨و] ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق موصل إلى الحقّ سويّ. والمراد به إمّا الدين والشريعة، أو أدلّتها.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بعد ظهور الحقّ بما ذُكر مِن التحقيق ولزوم الحجّة عليهم ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الأباطيل التي مِن جملتها المجادلة.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل في الدنيا بالحُجج والآيات ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمر الدين.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ استئناف مقرّر لمضمون ما قبله، والاستفهام للتقرير، أي: قد علمتَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٦٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٨/٤.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما في السماء والأرض ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ هو اللوح، قد كُتِب فيه قبل حدوثه، فلا يهمّنّك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح، أو الحكمَ بينهم[1] ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنّ علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين، وأحوالِهم الدالّة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم، هي بناءُ أمر دينهم على غير مبنًى مِن دليل سمعي أو عقلي، وإعراضُهم عمّا أُلقي عليهم مِن سلطانٍ بيّن هو أساس الدين وقاعدته أشدَّ إعراض، أي: يعبدون متجاوزين عبادةَ الله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجّة، ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿عِلْمٌ﴾ مِن ضرورة العقل أو استدلاله.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذي يقضي ببطلانه وكونه ظلمًا بديهةُ العقول ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقريرِ رأيهم أو بدفع العذاب الذي يعتريهم بسببِ ظلمهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ عطفٌ على ﴿يَعْبُدُونَ﴾،[2] وما بينهما اعتراض. وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجدّدي. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقّة والأحكام الصادقة، أو على بطلان ما هم عليه مِن عبادة الأصنام، أو على كونها مِن عند الله عزّ وجلّ.

---

[1] ط س: بينكم.

[2] في الآية السابقة.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي: الإنكارَ، كـ"المُكرَم" بمعنى "الإكرام"، أو الفظيعَ مِن التجهّم والبُسور، أو الشرَّ الذي يقصدونه بظهور مَخائله مِن الأوضاع والهيئات، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ أي: يَثِبون ويبطشون بهم مِن فَرْط الغيظ والغضب لأباطيلَ أخذوها تقليدًا، وهل جهالةٌ أعظمُ وأطمُّ مِن أن يعبدوا ما لا يُوهِم صحّةَ عبادته شيء ما أصلًا؛ بل يقضي ببطلانها العقل والنقل، ويُظهِروا لِمَن يهديهم إلى الحقّ البيّن بالسلطان المبين مثلَ هذا المنكرِ الشنيع؟ كلّا، ولهذا وُضع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ موضع الضمير.

﴿قُلۡ﴾ ردًّا عليهم وإقناطًا عمّا يقصدونه مِن الإضرار بالمسلمين: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أَأُخاطبكم فأخبركم ﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ الذي فيكم مِن غيظكم على التالين وسَطوتِكم بهم، أو ممّا تبغونهم مِن الغوائل، أو ممّا أصابكم مِن الضجَر بسبب ما تلَوه عليكم؟

/ ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو النار، على أنّه جواب لسؤال مقدّر، كأنّه قيل: ما هو؟ [١٢٨ظ]
وقيل: هو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾. وقُرِئ: "النَّارَ"[١] بالنصب على الاختصاص، وبالجرّ[٢] بدلًا مِن ﴿شَرّٖ﴾، فيكون الجملة الفعليّة استئنافًا كالوجه الأوّل، أو حالًا مِن ﴿ٱلنَّارُ﴾ بإضمار "قد". ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ أي: بُيِّن لكم حالٌ مستغرَبة، أو قصّةٌ بديعة رائعة حقيقةٌ بأن تُسمّى مَثَلًا، وتُسَيَّرَ في الأمصار والأعصار، أو جُعل لله مَثَلٌ، أي: مِثْلٌ في استحقاق العبادة، وأُريدَ بذلك ما حُكي عنهم مِن عبادتهم للأصنام.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم بن نوح عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ أي: للمَثَل نفسه استماعَ تدبّر وتفكّر، أو فاستمعوا لِأجله ما أقول، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾... إلخ بيان للمَثَل وتفسير له على الأوّل، وتعليلٌ لبطلان جعلهم الأصنام مِثلًا لله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني. وقُرئ بياء الغيبة مبنيًا للفاعل[١] ومبنيًا للمفعول،[٢] والراجع إلى الموصول على الأوّلَين محذوف.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ أي: لن يقدِروا على خلقه أبدًا مع صِغره وحَقارته، فإنّ ﴿لَن﴾ بما فيها مِن تأكيد النفي دالّةٌ على مُنافاة ما بين المنفيّ والمنفيّ عنه. ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ أي: لِخَلقه، وجواب ﴿لَو﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة معطوفة على شرطيّةٍ أخرى محذوفةٍ ثقةً بدلالة هذه عليها، أي: لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه، ولو اجتمعوا له لن يخلقوه، كما مرّ تحقيقه مِرارًا، وهما في موضع الحال، كأنّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلّ حال.

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عمّا يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خَلقه، أي: إن يأخذ الذباب منهم شيئًا ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جُهّلوا غايةَ التجهيلِ في إشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرّد بإيجاد كافّة الموجودات تماثيلَ هي أعجز الأشياء، وبيّن ذلك بأنّها لا تقدر على أقلّ الأحياء وأَذَلّها ولو اتّفقوا عليه؛ بل لا يقوى على مقاومة هذا الأقلّ الأذلّ ويَعجِز عن ذَبّه عن نفسها واستنقاذِ ما يختطفه منها.

قيل: كانوا يطيّبونها بالطيب والعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب مِن الكُوى[٣] فيأكله.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ أي: عابد الصنم ومعبوده، أو الذبابُ الطالب لِما يسلبه عن الصنم مِن الطيب والصنمُ المطلوبُ منه ذلك، أو الصنمُ والذباب،

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وموسى الأسواري. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٣٧.
٣ الكُوى مفرد الكُوّة، وهي نَقب البيت. الصحاح للجوهري، «كوى».

كأنّه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه، ولو حقّقتَ وجدتَ الصنمَ أعجزَ مِن الذباب بدرجات، وعابِدَه أجهلَ مِن كلّ جاهل، وأضلَّ مِن كلّ ضالّ.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوه حقّ معرفته حيث أشركوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبةً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، / وإفناء الموجودات عن آخرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، [١٢٩و]
وقد عُرفتْ حالُ آلهتهم المقهورةِ لِأذَلِّها العجزةِ عن أقلّها. والجملة تعليل لِما قبلها مِن نفي معرفتهم له تعالى.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ٧٥﴾

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسّطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المختصّون بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدون بالقوّة القدسيّة، المتعلِّقون بكِلا العالمَين الروحاني والجسماني، يتلقَّون مِن جانبٍ ويُلقُون إلى جانبٍ، ولا يَعوقهم التعلّق بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلّمونهم شرائعه وأحكامه، كأنّه تعالى لمّا قرّر وحدانيّته في الألوهيّة، ونفَى أن يشاركه فيها شيء مِن الأشياء بيّن أنّ له عبادًا مصطفَين للرسالة، يُتوسَّل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته عزّ وجلّ، وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمَن عداه مِن الموجودات تقريرًا للنبوّة وتزييفًا لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]، وقولِهم: "إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلفى"،[١] وقولِهم: "الملائكة بنات الله"،[٢] وغيرِ ذلك مِن الأباطيل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ عليم بجميع المسموعات والمبصرات، فلا يخفى عليه شيء مِن الأقوال والأفعال.

---

١ قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر، ٣/٣٩].

٢ قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل، ٥٧/١٦].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ٧٦﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى أحدٍ غيره، لا اشتراكًا ولا استقلالًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ٧٧﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي: في صلواتكم، أمرهم بهما لِما أنّهم ما كانوا يفعلونهما أوّلَ الإسلام، أو صلّوا، عُبّر عن الصلاة بهما لأنّهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله تعالى، وخرّوا له سجّدًا.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبّدكم به، ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ وتحرّوا ما هو خير وأصلح في كلّ ما تأتون وما تذرون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا هذه كلّها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقّنين له واثقين بأعمالكم.

والآية آية سجدة عند الشافعي رحمه الله[١] لظاهر ما فيها مِن الأمر بالسجود، ولقوله عليه السلام: «فُضّلت سورة الحجّ بسجدتين، مَن لم يسجدهما فلا يقرأها».[٢]

﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: لله تعالى ولأجله أعداءَ دينه الظاهرةَ كأهل الزيغ، والباطنةَ كالهوى والنفس. وعنه عليه السلام أنّه رجع عن غزوة تبوك فقال:

---

١ انظر: المجموع للنووي، ٥٩/٤.

٢ المعجم الكبير للطبراني، ٣٠٧/١٧ (٨٤٦)؛ المستدرك للحاكم، ٣٤٣/١ (٨٠٥).

«رجعنا مِن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».[١] ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: جهادًا فيه حقًّا خالصًا لوجهه، فعُكِس وأضيفَ "الحقّ" إلى "الجهاد" مبالغةً، كقولك: "هو حقُّ عالِمٍ"، وأضيف "الجهاد" إلى الضمير اتّساعًا، أو لأنّه مختصّ به تعالى مِن حيث إنّه مفعول لوجهه ومِن أجله.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: هو اختاركم لدينه ونصرته، / لا غيره. وفيه تنبيه على ما يقتضي الجهادُ ويدعو إليه. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ضِيقٍ بتكليف ما يشقّ عليكم إقامته إشارةً إلى أنّه لا مانعَ لهم عنه، ولا عذرَ لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به حيث يشقّ عليهم؛ لقوله عليه السلام: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».[٢] [١٢٩ظ]

وقيل: ذلك بأن جعل لهم مِن كلّ ذنب مخرجًا، بأن رخّص لهم في المضائق، وفتح عليهم باب التوبة، وسوّغ لهم الكفّارات في حقوقه، والأروشَ[٣] والدياتِ في حقوق العباد.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب على المصدر بفعل دلّ عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف، أي: وسّع عليكم دينكم توسعةَ ملّةِ أبيكم، أو على الإغراء، أو على الاختصاص، وإنّما جعله أباهم لأنّه أبو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو كالأب لأمّته مِن حيث إنّه سبب لحياتهم الأبديّة ووجودِهم على الوجه المعتدّ به في الآخرة، أو لأنّ أكثر العرب كانوا مِن ذُرّيته عليه السلام، فغُلِّبوا على غيرهم.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في الكتب المتقدّمة ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في القرآن. والضمير لله تعالى، ويؤيّده أنّه قُرئ: "اللهُ سَمَّاكُمْ"،[٤] أو لإبراهيم،

---

١ أخرجه البيهقي في الزهد، ص ١٦٥ (٣٧٣)، عن جابر رضي الله عنه قال: قَدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوم غزاة، فقال صلّى الله عليه وسلّم «قدمتم خير مَقدم، مِن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه». قال البيهقي: «هذا إسناد ضعيف». وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٩٥/٢.

٢ صحيح البخاري، ٩٤/٩ (٧٢٨٨)؛ صحيح مسلم، ٩٧٥/٢ (١٣٣٧).

٣ الأروش: جمع الأرْش، وهو دية الجراحات. الصحاح للجوهري، «أرش».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٣/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٠/٧.

وتسميتهم بالمسلمين في القرآن وإن لم تكن منه عليه السلام كانت بسبب تسميته مِن قبلُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة، ١٢٨/٢]. وقيل: ﴿فِي هَٰذَا﴾ تقديره: في هذا بيانُ تسميته إيّاكم مسلمين.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم القيامة، متعلّق بـ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾. ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنّه بلّغكم، فيدلّ على قبول شهادته لنفسه اعتمادًا على عصمته، أو بطاعة مَن أطاع، وعصيانِ مَن عصى.

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: فتقرّبوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات. وتخصيصهما بالذكر لإنافتهما وفضلهما.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: ثِقوا به في مجامع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلّا منه. ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولّي أموركم، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ إذ لا مِثل له في الولاية والنصرة؛ بل لا وليَّ ولا نصيرَ في الحقيقة سواه عزّ وجلّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحجّ أعطيَ مِن الأجر كحِجّة حَجّها وعمرة اعتمرها بعدد مَن حجّ واعتمر فيما مضى وما بقي».[١]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ الحَجِّ

أخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس، وابن الزبير ﷺ أنَّها نزلت بالمدينة[1]، وهو قولُ الضَّحَّاك، وقيل: كلُّها مكِّية، وأخرج أبو جعفرٍ النحَّاسُ[2] عن مجاهدٍ عن ابنِ عباس أنَّها مكِّيَّة سوى ثلاثِ آياتٍ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية:١٩] إلى تمام الآياتِ الثلاث، فإنَّها نزلت بالمدينة، وفي روايةٍ عن ابنِ عباس: إلا أربعَ آيات: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية: ١٩] إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية: ٢٢].

وأخرج ابنُ المنذرِ عن قتادةَ أنَّها مدنيَّة غيرَ أربع آيات: «﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الآية: ٥٢] إلى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآية: ٥٥] فإنَّها مكِّيَّات[3]، والأصحُّ القولُ بأنَّها مختلطةٌ، فيها مدنيٌّ ومكِّيٌّ، وإنِ اختلف في التعيين، وهو قولُ الجمهور.

وعدَّةُ آياتِها ثَمانٌ وتسعونَ في الكوفيِّ، وسبعٌ وتسعونَ في المكِّيِّ، وخمسٌ وتسعونَ في البَصْريِّ، وأربعٌ وتسعونَ في الشامِيِّ.

ووجهُ مناسبتِها للسورة التي قبلها ظاهر.

وجاء في فَضْلها ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «سننه» عن عقبةَ بنِ عامر ﷺ قال: قلتُ: يا رسولَ الله أَفُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ على سائرِ القرآن بسجدتَيْن؟ قال: «نعم، فمَن لم يَسجُدهما فلا يَقْرَأْهما»[4].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٤٢.

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٢.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٤٢، وأحمد (١٧٣٦٤)، وأبو داود (١٤٠٢)، والترمذي (٥٧٨)، والبيهقي ٢/ ٣١٧. وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٧٨) عن خالد بن معدان أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين». وقال: وقد أُسنِدَ هذا، ولا يصح.

والروايات في أنَّ فيها سجدتين متعدِّدةٌ مذكورةٌ في «الدُّرِّ المنثور»[١]، نعم أخرج ابنُ أبي شيبة مِن طريق [أبي] العريان المجاشعيِّ عن ابنِ عباس قال: في الحجِّ سجدةٌ واحدةٌ[٢]. وهي الأُولى، كما جاء في رواية[٣]، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ خطابٌ يعمُّ حُكمه المكلَّفينَ عند النزولِ ومَن سينتظم في سِلْكهم بَعْدُ مِن الموجودين القاصرينَ عن رتبةِ التكليف والحادِثينَ بعد ذلك إلى يومِ القيامة، لكن لا بطريق الحقيقة عندنا، بل بطريقِ التغليب أو تعميمِ الحُكم بدليلٍ خارجيٍّ، فإنَّ خطابَ المشافهةِ لا يتناول من لم يُكلَّف بَعْدُ، وهو خاصٌّ بالمكلَّفين الموجودين عند النزول، خلافاً للحنابلة وطائفةٍ مِن السَّلَفيين والفقهاء حيث ذهبوا إلى تناوله الجميعَ حقيقةً، ولا خلافَ في دخول الإناث كما قال الآمديُّ في نحو «الناس»، مما يدلُّ على الجَمعِ ولم يظهر فيه علامةُ تذكيرٍ ولا تأنيثٍ، وإنَّما الخلافُ في دخولهنَّ في نحو ضمير: «اتقوا» و«المسلمين»، فذهبت الشافعيَّة، والأشاعرةُ، والجمعُ الكثير من الحنفيَّة، والمعتزلة، إلى نَفْيِهِ، وذهبت الحنابلةُ، وابنُ داودَ، وشذوذٌ مِن الناس إلى إثباته[٤]. والدخول هنا عندنا بطريقِ التغليب.

وزعم بعضُهم أنَّ الخطابَ خاصٌّ بأهل مكَّة، وليس بذاك، والمأمور به مُطلَقُ التقوى الذي هو التجنُّب عن كلِّ ما يُؤثِم من فِعْلٍ وتَرْكٍ، ويندرج فيه الإيمانُ بالله تعالى واليومِ الآخر حسبما وردَ به الشرعُ اندراجاً أَوَّليًّا، لكن على وجه يعمُّ الإيجادَ والدوامَ، والمناسب لتخصيصِ الخطاب بأهلِ مكَّة أن يُرادَ بالتقوى المرتبةُ الأولى

(١) ٤/ ٣٤٢.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١٢، وما بين حاصرتين استدرك منه.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٢ عن سعيد بن المسيب والحسن، وعن إبراهيم.
(٤) إحكام الأحكام ٢/ ٣٢٥.

منها، وهي التوقّي عن الشِّرْك، والتعرُّض لعنوان الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لتأييد الأَمْرِ وتأكيد إيجابِ الامتثال به؛ ترهيباً وترغيباً، أي: احذروا عقوبةَ مالِكِ أَمْرِكم ومربِّيكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ تعليلٌ لموجب الأمر بذِكْر أَمْرٍ هائلٍ، فإنَّ ملاحظةَ عِظَمِ ذلك وهولِه وفظاعة ما هو من مباديه ومقدِّماته مِن الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرُّع بلباسِ التقوى، ممَّا يُوجِبُ مزيدَ الاعتناء بملابستِه وملازمته لا محالَة.

والزلزلة: التحريكُ الشديدُ والإزعاجُ العنيفُ بطريقِ التكرير، بحيث يزيلُ الأشياءَ مِن مقارِّها ويُخرِجها عن مراكزها، وإضافتُها إلى «الساعة» إمَّا مِن إضافةِ المصدر إلى فاعِله لكن على سبيل المجاز في النسبة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] لأنَّ المحرِّك حقيقةً هو اللهُ تعالى، والمفعول الأرضُ أو الناسُ، أو مِن إضافتِه إلى المفعول، لكن على إجرائه مَجرى المفعول به اتِّساعاً، كما في قوله:

يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدارْ[1]

وجوِّز أن تكون الإضافةُ على معنى «في»، وقد أثبتها بعضُهم وقال بها في الآية السابقة[2].

وهي عند بعضِ المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وتكون على ما قيل: عند النفخةِ الثانية وقيامِ الساعة، بل روي عن ابنِ عباس أنَّ زلزلةَ الساعةِ قيامُها.

وأخرج أحمد، وسعيدُ بنُ منصور، وعبدُ بنُ حميد، والنسائيُّ، والترمذيُّ، والحاكمُ وصحَّحاه، عن عمرانَ بنِ حُصَين قال: لما نزلت: «يا أيُّها الناسُ» إلى:

---

(١) من شواهد سيبويه في الكتاب ١/ ١٧٥، وسلف ٦/ ١٧.
(٢) أي: في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] وسيأتي عند تفسير الآية أن قتادة ويحيى بن يعمر قرأا بالتنوين ونصب الظرفين، أي: بل صدنا مكركم أو مكر عظيم في الليل والنهار.

«ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ» كان ﷺ في سَفر[١]، فقال: «أتدرونَ أيَّ يومٍ ذلك»؟ قالوا: اللهُ تعالى ورسولُه أعلم. قال: «ذلك يوم يقولُ اللهُ تعالى لآدمَ عليه السلام: ابْعَثْ بَعْثَ النارِ، قال: يا ربِّ وما بعثُ النار؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ إلى النار وواحداً إلى الجنَّة» فأنشأ المسلمونَ يَبكُون، فقال رسولُ الله ﷺ: «قَاربوا وسدِّدوا وأبشروا، فإنَّها لم تكن نبوَّة قطُّ إلا كان بين يديها جاهليَّةٌ فتُؤخَذ العِدَةُ مِن الجاهلية، فإن تمَّت، وإلا كَمَلَتْ مِن المنافقين، وما مَثَلُكم في الأُمم إلا كَمَثَلِ الرَّقْمَة في ذِراع الدابَّةِ أو كالشامة في جَنْب البعير»، ثم قال: «إنِّي لأَرجو أن تكونوا رُبْعَ[٢] أهل الجنَّة» فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأَرجو أن تكونوا ثلثَ أهلِ الجنَّة» فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأَرجو أن تكونوا نصفَ أهلِ الجنَّة» فكبَّروا، قال: ولا أدري قال: الثلثين، أم لا[٣]. وحديث البعثِ مذكورٌ في الصحيحين وغيرِهما[٤] لكن بلفظٍ آخَر، وفيه كالمذكور ما يؤيِّد كونَ هذه الزلزلة في يوم القيامة، وهو المرويُّ عن الحسن.

وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن علقمةَ، والشعبيِّ، وعبيدِ بنِ عمير، أنَّها تكون قبلَ طلوعِ الشمس مِن مغربها، وإضافتُها إلى الساعة على هذا؛ لكونها مِن أَماراتها، وقد وردت آثارٌ كثيرةٌ في حدوثِ زلزلةٍ عظيمة قبل قيامِ الساعة هي مِن أَشراطها إلا أنَّ في كون تلك الزلزلة هي المراد هنا نظراً، إذ لا يناسبُ ذلك كون الجملة تعليلًا لموجب أمر جميع الناس بالتقوى، ثمَّ إنَّها على هذا القول على معناها الحقيقيِّ وهو حركةُ الأرض العنيفةُ، وتَحدثُ هذه الحركةُ بتحريك مَلَك؛ بناءً على ما رُويَ أنَّ في الأرض عروقاً تنتهي إلى جبلِ قاف، وهي بيد

---

(١) جاء في هامش الأصل: وذلك في غزوة بني المصطلق كما صرَّح به في بعض الراوايات. انتهى. منه.

(٢) في الأصل و(م): نصف. وهو خطأ، والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٣، وأحمد (١٩٨٨٤) و(١٩٩٠١)، والنسائي في الكبرى (٣١٦٨)، والترمذي (٤٠٨٤)، والحاكم ٢/ ٢٣٣-٢٣٤ و٣٨٥ والرقمة: الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها. النهاية (رقم).

(٤) البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، وأحمد (١١٢٨٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مَلَكٍ هناك، فإذا أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أمراً أَمَرهُ أن يحرِّك عرقاً، فإذا حرَّكه زُلزلت الأرضُ.

وعند الفلاسفة أنَّ البخارَ إذا احتُبِسَ في الأرض وغَلُظَ بحيث لا ينفذُ في مجاريها؛ لشدَّة استحصافِها وتكاثفها، اجتمع طالباً للخروج ولم يمكنه، فزلزلت الأرضُ، وربَّما اشتدت الزلزلةُ فخسفت الأرض فيخرج نارٌ لشدَّة الحركة الموجبة لاشتعالِ البخار والدخان، لا سيَّما إذا امتزجا امتزاجاً مقرِّباً إلى الدهنية، وربَّما قويت المادةُ على شقِّ الأرض فتحدث أصواتٌ هائلة، وربَّما حدثت الزلزلةُ مِن تساقط عوالي وهداتٍ في باطنِ الأرض فيتموَّج بها الهواءُ المحتقن فتتزلزل به الأرضُ، وقليلًا ما تتزلزل بسقوطِ قُلَلِ الجبالِ عليها لبعض الأسباب.

وممَّا يستأنس به للقول بأنَّ سببَها احتباسُ البخارِ الغليظ وطلبُه للخروج وعدمُ تيسُّره له، كثرةُ الزلازل في الأرض الصلبة وشدَّتها بالنسبة إلى الأرض الرِّخْوة، ولا يخفى أنَّه إذا صحَّ حديث في بيان سبب الزلزلة لا ينبغي العدول عنه، وإلا فلا بأسَ بالقول برأي الفلاسفة في ذلك، وهو لا ينافي القولَ بالفاعل المختار كما ظنَّ بعضُهم.

وهي على القول بأنَّها يوم القيامة، قال بعضُهم: على حقيقتها أيضاً، وقال آخَرون: هي مجازٌ عن الأهوال والشدائد التي تكون في ذلك اليوم، وفي التعبير عنها بالشيء إيذانٌ بأنَّ العقولَ قاصرةٌ عن إدراك كُنْهها، والعبارة ضيِّقة لا تحيطُ بها إلا على وجه الإبهام. وفي «البحر»(١): إنَّ إطلاقَ الشيء عليها مع أنَّه لم توجد بَعْدُ يدلُّ على أنَّه يُطلق على المعدوم، ومَن منع ذلك قال: إنَّ إطلاقَه عليها؛ لتيقُّن وقوعها وصيرورتها إلى الوجودِ لا محالةَ.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ الظاهر أنَّ الضميرَ المنصوبَ في «ترونها» للزلزلة؛ لأنَّها المحدَّث عنها، وقيل: هو للساعة، وهو كما ترى.

---

(١) ٣٤٩/٦.

و«يوم» منتصبٌ بـ «تَذْهَلُ» قدِّم عليه؛ للاهتمام، وقيل: بـ «عظيم»، وقيل: بإضمار: اذْكُر، وقيل: هو بدل مِن «الساعة» وفُتِحَ لبنائِه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] على قراءةِ «يوم» بالفتح(١)، وقيل: بدل مِن «زلزلة»، أو منصوب به إن اغتُفرَ الفصلُ بين المصدر ومعموله الظرفيِّ بالخبر، وجملةُ «تَذْهَلُ» على هذه الأوجه في موضع الحال مِن ضمير المفعول، والعائد محذوفٌ، أي: تذهل فيها.

والذهول: شُغْلٌ يُورِث حزناً ونسياناً.

والمرضعة: هي التي في حالِ الإرضاع ملقمةً ثديَها، وهي بخلافِ المرضع بلاهاء، فإنَّها التي مِن شأنها أن ترضعَ وإن لم تباشِر الإرضاعَ في حالِ وصفِها به، وخصَّ بعضُ نحاةِ الكوفة أمَّ الصبيِّ بمرضعة بالهاء، والمستأجَرة بمرضع، ويردُّه قولُ الشاعر:

كمرضعةٍ أولادَ أُخرى وضيَّعتْ بَني بطنِها هذا الضلالُ عن القَصْدِ(٢)

والتعبير به هنا؛ ليدلَّ على شدَّة الأمرِ وتفاقم الهول، والظاهر أنَّ «ما» موصولة، والعائد محذوف، أي: عن الذي أرضعته، والتعبير بـ «ما» لتأكيدِ الذهول، وكونِ الطفل الرضيع بحيث لا يَخطُر ببالها أنَّه ماذا؛ لأنَّها تَعرف شيئيته لكن لا تدري مَن هو بخصوصه، وقيل: مصدريَّة، أي: تذهلُ عن إرضاعها، والأوَّل دلَّ على شدَّة الهول وكمالِ الانزعاج، والكلام على طريق التمثيل، وأنَّه لو كان هناك مرضعةٌ ورضيعٌ، لذهلت المرضعةُ عن رضيعها في حال إرضاعها إيَّاه؛ لشدَّة الهولِ، وكذا ما بَعْدُ، وهذا ظاهر إذا كانت الزلزلةُ عند النفخةِ الثانية أو في يوم القيامة حين أَمْر آدمَ عليه السلام ببعثِ بعثِ النار وبَعْث الجنَّة، إن لم نقل بأنَّ كلَّ أحدٍ يُحشَر على حاله التي فارق فيها الدنيا، فتحشر المرضعةُ مرضعةً، والحاملُ حاملةً، كما ورد في بعض الآثار، وأمَّا إذا قلنا بذلك أو بكون الزلزلة في الدنيا، فيجوز أن يكونَ الكلامُ على حقيقته، ولا يضرُّ في كونه تمثيلًا أنَّ الأمرَ إذ ذاك أشدُّ

---

(١) وهي قراءة نافع، وسلفت ٧/٥٠٨.

(٢) البيت نُسبَ في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٧٣٦، وللتبريزي ٢/١٢٩، للعُديل بن الفرخ العجلي، ونُسبَ في منتهى الطلب ٨/ ١٨٠ لأبي الأخيل العجلي.

وأعظمُ وأهولُ ممَّا وصف وأطمُّ؛ لشيوع ما ذكر في التهويل، كما لا يخفى على المنصِفِ النبيل.

وقرئ: «تُذْهَلُ» من الإذهال مبنياً للمفعول[1]، وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ واليمانيُّ: «تُذْهِلُ» منه مبنيًّا للفاعل، و«كلَّ» بالنصب[2]، أي: يومَ تُذْهِلُ الزلزلةُ ـ وقيل: الساعةُ ـ كلَّ مرضعةٍ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تُلقي ذاتُ جنينٍ جنينَها لغير تمام، وإنَّما لم يقل: وتضعُ كلُّ حاملةٍ ما حَمَلتْ، على وزان ما تقدَّم، لما أنَّ ذلك ليس نصًّا في المراد وهو وضعُ الجنين، بخلافِ ما في النظم الجليل، فإنَّه نصٌّ فيه؛ لأنَّ الحَمْلَ ـ بالفتح ـ ما يُحمَل في البطن مِن الولد، وإطلاقه على نحوِ الثمرة في الشجرة، للتشبيه بحَملِ المرأة، وللتنصيصِ على ذلك مِن أوَّل الأمرِ لم يقل: وتضعُ كلُّ حاملةٍ حَمْلَها، كذا قيل. وتُعقِّب بأنَّ في دعوى تخصيصِ الحَمْل بما يُحمَل في البطن مِن الولد وأنَّ إطلاقَه على نحو الثمرة في الشجرة للتشبيه = بحثاً، ففي «البحر»[3]: الحَمْلُ، بالفتح: ما كان في بطنٍ أو على رأس شجرة.

وفي «القاموس»: الحَمْلُ: ما يُحمَل في البطن مِن الولد، جمعه: حِمَالٌ وأَحْمالٌ، وحَمَلتِ المرأةُ تَحْمِلُ، عَلِقَتْ، ولا يقال: حَمَلَتْ به، أو قليلٌ، وهي حاملٌ وحامِلةٌ، والحَمْلُ: ثَمرُ الشجرِ، ويُكسَر، أو الفتحُ لما بَطَنَ مِن ثمرِه، والكسرُ لِمَا ظَهر، أو الفتحُ لَمَا كان في بطنٍ أو على رأسِ شجرة، والكسرُ لَمَا على ظهرٍ أو رأسٍ، أو ثمرُ الشجر بالكسر ما لم يَكْبُر، فإذا كَبُرَ فبالفتح، جمعه: أَحْمال وحُمول وحِمالٍ. اهـ.

وقيل: المتبادر وَضْعُ الجنينِ بأيِّ عبارةٍ كان التعبيرُ، إلا أنَّ ذاتَ حمل أبلغُ في التهويل مِن حامل أو حاملة؛ لإشعاره بالصحبة المشعرةِ بالملازمة فيشعر الكلامُ بأنَّ الحاملَ تَضَعُ إذ ذاكَ الجنينَ المستقرَّ في بطنها المتمكِّن فيه، هذا مع ما في الجمع بينَ ما يُشعِر بالمصاحبة وما يُشعِر بالمفارقة وهو الوضْع، مِن اللطف، فتأمَّل فلمسلكِ الذهن اتِّساعٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠، والكشاف ٣/ ٤.

(٣) ٦/ ٣٥٠.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ بفتحِ التاء والراء، على خطاب كلٍّ واحد مِن المخاطبين برؤية الزلزلة، والاختلاف بالجمعيَّة والإفراد، لما أنَّ المرئيَّ في الأوَّل هي الزلزلة التي يُشاهدها الجميعُ، وفي الثاني حالَ مَن عدا المخاطَب منهم، فلا بدَّ من إفراد المخاطَب على وجه يعمُّ كلَّ واحدٍ منهم، لكن مِن غير اعتبارِ اتِّصافه بتلك الحالة، فإنَّ المرادَ بيانُ تأثير الزلزلة في المرئيِّ لا في الرائي باختلاف مشاعرِه، لأنَّ مداره حيثيَّةُ رؤيتِه للزلزلة لا لغيرِها، كأنَّه قيل: وتصير الناسُ سَكارى. . . إلخ، وإنَّما أُوثر عليه ما في التنزيل؛ للإيذان بكمالِ ظهور تلك الحال فيهم وبلوغها مِن الجلاء إلى حدٍّ لا يكاد يَخفى على أحدٍ، قاله غيرُ واحد. وجوَّز بعضُهم كونَ الخطاب للنبيِّ ﷺ، والأوَّل أبلغُ في التهويل، والرؤية بصريَّة و«الناس» مفعولها.

وقوله تعالى: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ حالٌ منه، أي: يراهم كلُّ واحد مشابهينَ للسُّكارى، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أي: حقيقةً حالٍ أيضًا لكنَّها مؤكِّدة، والحال المؤكِّدة تقترن بالواو لا سيَّما إذا كانت جملةً اسميَّةً، فلا يقال: إنَّه إذا كان معنى قوله تعالى: «ترى الناسَ سُكارى» على التشبيه، يكون «وما هم بسكارى» بالمعنى المذكور مستغنًى عنه، ولا وجهَ لجعله حالًا مؤكِّدة؛ لمكان الواو.

وجوِّز أن يكون «ترى» بمعنى تظنّ، ف «سكارى» مفعولٌ ثانٍ، وحينئذٍ يجوز أن يكون الكلامُ على التشبيه والجملة الاسميَّة في موضع الحالِ المؤكِّدة؛ ويجوز أن يكون على الحقيقة فلا تأكيدَ هنا، وأَمْرُ إفرادِ الخطاب وما فيه مِن المبالغة بحالِه، وأيًّا ما كان فالمراد في قوله تعالى: «وَمَا هُم بسُكارى» استمرارُ النفي، وأُكِّد بزيادة الباء؛ للتنبيه على أنَّ ما هم فيه ليس مِن المعهود في شيءٍ، وإنَّما هو أَمْرٌ لم يَعهدوا قَبْلَه مِثْلَه، وأشير إلى سببه بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ أي: إنَّ شدَّةَ عذابِه تعالى تَجعلهم كما ترى، وهو استدراكٌ على ما في «الانتصاف»[(١)] راجع إلى قوله تعالى: «وما هُم بسُكارى»، وزعم أبو حيَّان[(٢)] أنَّه استدراكٌ عن مقدَّر، كأنَّه قيل: هذه، أي: الذهول والوَضْعُ ورؤيةُ الناس سكارى أحوالُ هيِّنَة، ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ وليس بهيِّن، وهو خلاف الظاهر جدًّا.

---

(١) ٣/ ٤.

(٢) البحرالمحيط ٦/ ٣٥٠-٣٥٢.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «تُرِي» بضمِّ التاء وكسر الراءِ[1]، أي: تُري الزلزلةُ الخَلْقَ جميعَ الناسِ سكارى.

وقرأ الزعفرانيُّ: «تُرَى» بضمِّ التاء وفتحِ الراء، «الناسُ» بالرفع[2] على إسناد الفعلِ المجهولِ إليه، والتأنيث على تأويل الجماعة.

وقرأ أبو هريرةَ، وأبو زرعة، وابنُ جرير، وأبو نهيك كذلك، إلَّا أنَّهم نصبوا «الناسَ»[3]، و«ترى» على هذا متعدٍّ إلى ثلاثةِ مفاعيل كما في «البحر»[4]؛ الأوَّل: الضميرُ المستتر وهو نائبُ الفاعل، والثاني: «الناسَ»، والثالث: «سكارى».

وقرأ أبو هريرةَ، وابنُ نهيك: «سَكارى» بفتح السين في الموضعين[5]، وهو جمعُ تكسير، واحدُه: سكرانُ، وقال أبو حاتم: هي لغةُ تميم.

وأخرج الطبرانيُّ وغيرُه عن عمرانَ بنِ حصينٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: «سَكْرى» كعَطْشى في الموضعين[6]، وكذلك روى أبو سعيد الخدريُّ[7]، وهي قراءةُ عبدِ الله وأصحابِه، وحذيفةَ، وبها قرأ الأخوانِ، وابنُ سعدانَ، ومسعودُ بنُ صالح[8]، وتُجمَع الصفةُ على فَعْلَى إذا كانت من الآفاتِ والأمراض، كقَتْلى ومَوْتى وحَمْقى، ولكون السُّكْرِ جارياً مَجرى ذلك؛ لما فيه مِن تعطيل القِوى والمشاعر، جُمعَ هذا الجمع، فهو جَمْعُ سكران. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ[9]: يصحُّ أن يكون جَمْعُ سَكِر كزَمْنى وزَمِن، وقد حكى سيبويه[10]: رَجُلُ سَكِرٌ، بمعنى سكران.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٠، والكشاف ٣/ ٤.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.
(٤) ٦/ ٣٥٠.
(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٠.
(٦) الطبراني في الكبير ١٨/ ١٤٤-١٤٥ (٣٠٦) و(٣٠٧) و(٣٠٨)، وجزء قراءات النبي ﷺ لأبي حفص الدوري (٨٣)، وسلف الحديث مطوَّلًا ص٢٣٢ من هذا الجزء.
(٧) هو في الصحيحين، وسلف ص٢٣٢ من هذا الجزء، وأخرجه أيضاً الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (٨٤).
(٨) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.
(٩) الحجة ٥/ ٢٦٦.
(١٠) الكتاب ٣/ ٦٤٦.

وقرأ الحسنُ والأعرجُ، وأبو زرعة، وابنُ جبيرٍ والأعمشُ: «سُكْرى» بضمِّ السين فيهما[(١)]، قال الزمخشريُّ[(٢)]: وهو غريبٌ. وقال أبو الفتح[(٣)]: هو اسمٌ مُفرَد كالبُشرى، وبهذا أفتاني أبو علي وقد سألته عنه. انتهى.

وإلى كونه اسماً مفرَداً ذهب أبو الفضل الرازيُّ فقال: فُعلى بضمِّ الفاء مِن صفة الواحدة مِن الإناث، لكنَّها لمَّا جعلت مِن صفات الناس ـ وهم جماعةٌ ـ أُجريت الجماعةُ بمنزلة المؤنَّث الموحَّد.

وعن أبي زرعة: «سَكْرى» بفتح السين، «بسُكْرى» بضمِّها، وعن ابنِ جبير: «سكرى» بفتح السين مِن غير ألف «بسُكَارى» بالضمِّ والألف[(٤)] كما في قراءة الجمهور، والخلاف في فعالى، أهو جمعٌ، أو اسمُ جمعٍ مشهور.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ نزلت كما أخرج ابنُ أبي حاتم عن أبي مالكٍ رضي الله عنه في النَّضرِ بنِ الحارث[(٥)]، وكان جَدِلًا يقول: الملائكةُ عليهم السلام بناتُ اللهِ سبحانه، والقرآنُ أساطيرُ الأوَّلين، ولا يَقْدِرُ اللهُ ـ تعالى شأنه ـ على إحياءِ مَن بَليَ وصار تراباً. وقيل: في أبي جهل، وقيل: في أُبيِّ بنِ خَلَف.

وهي عامَّة في كلِّ مَن تعاطى الجدلَ فيما يجوز ومالا يجوز على اللهِ سبحانه مِن الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى عِلْمٍ ولا برهانٍ ولا نصفةٍ، وخصوصُ السبب لا يُخرِجها عن العموم، وكأنَّ ذكرها إثرَ بيان عِظَمِ شأنِ الساعة المنبئة عن البعث؛ لبيانِ حالِ بعض المنكِرين لها.

ومحلُّ الجارِّ الرفعُ على الابتداء، إمَّا بحملِه على المعنى، أو بتقدير ما يتعلَّق به، و«بغيرعلم» في موضع الحالِ مِن ضمير «يجادل» لإيضاح ما تُشعِر به المجادلة مِن الجهل، أي: وبعضُ الناس، أو: بعضٌ كائنٌ مِن الناس مَن ينازع في شأنِ الله عزَّ وجلَّ ويقول مالا خيرَ فيه مِن الأباطيل ملابساً الجهلَ.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والمحتسب ٢/ ٧٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٤.
(٣) المحتسب ٢/ ٧٣-٧٤.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧٤ (١٣٧٧٦).

﴿وَيَتَّبِعُ﴾ فيما يتعاطاه مِن المجادلة، أو في كلِّ ما يأتي وما يَذَرُ مِن الأمورِ الباطلة التي مِن جملتها ذلك.

﴿كُلَّ شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ متجرِّد للفساد، معرّى مِن الخير، مِن قولهم: شجرةٌ مَرْداء: لا ورقَ لها، ومنه قيل: رَمْلَة مَرْداء، إذا لم تنبت شيئاً، ومنه: الأَمْرَدُ؛ لتجرُّده عن الشعر. وقال الزجَّاج: أصلُ المريدِ والماردِ: المرتَفِعُ الأملس، وفيه معنى التجُّرد والتعرِّي، والمراد به إمَّا إبليسُ وجنودُه، وإمَّا رؤساءُ الكفرةِ الذين يَدْعُون مَن دونهم إلى الكفر.

وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ ﵄: «ويَتْبَعُ» خفيفاً(١).

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ ضمير «عليه» للشيطان، وكذا الضميرُ المنصوب في «تولَّاه» والضمير في «فأنَّه»، والضميران المستتران في «يُضلُّه ويَهْدِيه» وضمير «أنَّه» للشأنِ، وباقي الضمائر لـ «من».

واختلف في إعرابِ الآية فقيل إنَّ: «أنَّه مَن تولَّاه» إلخ نائبُ فاعل: «كُتبَ»، والجملة في موضع الصفة الثانية لشيطان، و«من» جزائيَّة وجزاؤها محذوف، «فأنَّه يُضلُّه» إلخ عطف على «أنَّه» مع ما في حيِّزها وما يتَّصل بها، أي: كُتبَ على الشيطان أنَّ الشأنَ مَن تولَّاه أي: اتّخذه وليًّا وتبعه يهلكه، «فأنَّه يُضلُّه» عن طريق الجنَّة وثوابِها، «ويهديه» إلى طريقِ السعير وعذابها، والفاء لتفصيلِ الإهلاك كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤] وعلى ذلك حمل الطيبيُّ كلامَ «الكشَّاف»(٢)، وهو وجهٌ حسن إلَّا أنَّ في كونه مراد الزمخشري خفاء، وقيل: «مَن» موصولة مبتدأ، وجملة «تولَّاه» صلته، والضمير المستتر عائده، و«أنَّه يُضلُّه» في تأويل مصدر خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، والجملة خبرُ الموصول، ودخول الفاء في خبره على التشبيه بالشرط، أي: كُتبَ عليه أنَّ الشأنَ من تولَّاه فشأنه أو فحقٌّ أنَّه يضلُّه . . . إلخ. ويجوز أن تكون «مَن» شرطيَّة، والفاء جوابيَّة، وما بعدها مع المقدَّر جواب الشرط، وقيل: ضمير «أنَّه»

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥١.
(٢) ٣/ ٥.

للشيطانِ وهو اسمُ «أنَّ» و«مَن» موصولة أو موصوفة ـ والأوَّل أظهر ـ خبرُها والضمير المستتر في «تولَّاه» لبعض الناس والضمير البارز لـ «من»، والجملةُ صلة أو صفة.

وقوله تعالى: «فأنَّه يُضلُّه» عطف على «أنَّه مَن تولَّاه» والمعنى: ويتَّبع كلَّ شيطان كُتب عليه أنَّه هو الذي اتَّخذه بعدَ الناس وليًّا وأنَّه يُضلُّ مَن اتَّخذه وليًّا، فالأوَّل كأنَّه توطئةٌ للثاني، أي: يتَّبع شيطاناً مختصًّا به مكتوباً عليه أنَّه وليُّه، وأنَّه مُضلُّه فهو لا يَألُو جُهداً في إضلالِه، وهذا المعنى أبلغُ مِن المعنى السابق على احتمالِ كون «من» جزائية؛ لدلالتِه على أنَّ لكلِّ واحدٍ من المجادلين واحداً مِن مردةِ الشياطين، وارتضى هذا في «الكشف» وحمل عليه مرادَ صاحب «الكشاف».

وعن بعضِ الفضلاء أنَّ الضميرَ في «أنَّه» للمجادِل، أي: كُتبَ على الشيطان أنَّ المجادلَ مَن تولَّاه، وقوله تعالى: «فأنَّه» إلخ عطفَ على «أنَّه مَن تولَّاه»، واعتُرض بأنَّ اتصافَ الشيطانِ بتوليِّ المجادِل إيَّاه مقتضى المقام لا العكس، وأنَّه لو جُعلت «مَن» في «من تولَّاه» موصولةً، كما هو الظاهر، لزم أن لا يتولَّاه غيرُ المجادل، وهذا الحصرُ يُفوِّت المبالغةَ.

وفي «البحر»[(١)]: الظاهر أنَّ الضميرَ في «عليه» عائدٌ على «مَن» لأنَّه المحدَّث عنه، وفي «أنَّه» و«تولَّاه»، وفي «فأنَّه» عائدٌ عليه أيضاً، والفاعل بتولِّي ضمير «مَن»، وكذا الهاء في «يُضلُّه»، ويجوز أن تكون الهاءُ في أنَّه على هذا الوجه ضميرَ الشأن، والمعنى أنَّ هذا المجادلَ لكثرةِ جِداله بالباطل واتِّباعه الشيطانَ، صار إماماً في الضلال لمن يتولَّاه، فشأنه أن يُضلَّ مَن يتولَّاه. انتهى. وعليه تكون جملة «كتب» إلخ مستأنفة لا صفة لشيطان، والأظهر جعلُ ضميرِ «عليه» عائداً على الشيطان، وهو المرويُّ عن قتادة، وأيًّا ما كان فـ «كُتبَ» بمعنى مضى وقُدِّر، ويجوز أن يكون على ظاهرِه، وفي «الكشاف»[(٢)] أنَّ الكتبةَ عليه مَثَلٌ، أي: كأنَّما كُتبَ عليه ذلك؛ لظهورِه في حاله. ولا يَخفى ما في «يهديه» مِن الاستعارة التمثيليَّة التهكميَّة.

---

(١) ٦/ ٣٥١.
(٢) ٣/ ٥.

وقُرِئ: «كَتَبَ» مَبنيًّا للفاعل[1]، أي: كَتَبَ اللهُ. وقرئَ: «فإنَّه» بكسر الهمزة[2]، فالجملة خبرُ «مَن»، أو جوابٌ لها، وقرأ الأعمشُ، والجعفيُّ عن أبي عمرو: «إنَّه»، «فإنَّه» بكسر الهمزة فيهما[3]، ووجهُ الكسر في الثانية ظاهرٌ، وأمَّا وجهُه في الأُولى، فهو كما استظهر أبو حيَّان[4] إسناد «كُتبَ» إلى الجملةِ إسناداً لفظيًّا، أي: كُتبَ عليه هذا الكلامُ، كما تقول: كُتبَ[5] إنَّ اللهَ تعالى يأمرُ بالعدل والإحسان، أو تقدير: قولٍ، وجعل الجملة معمولة له، أو تضمينُ الفعلِ معنى ذلك، أي: كُتبَ عليه مقولًا في شأنه: أنَّه مَن تولَّاه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إلخ إقامةٌ للحجَّة التي تُلقم المجادلين في البعث حَجَراً إثرَ الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرُهم، واستظهر أنَّ المرادَ بالناس هنا الكفرةُ المجادلون المنكِرون للبعث. والتعبير عن اعتقادِهم في حقِّه بالريب، أي: الشَّك مع أنَّهم جازمون بعدم إمكانه، إمَّا للإيذان بأنَّ أقصى ما يُمكن صدورُه عنهم وإن كانوا في غايةِ ما يكون مِن المكابرة والعِناد هو الارتيابُ من شأنه، وإمَّا الجزم بعدمِ الإمكان، فخارج مِن دائرةِ الاحتمال كما أنَّ تنكيرَه وتصديرَه بكلمة الشَّكِّ؛ للإشعار بأنَّ حقَّه أن يكون ضعيفاً مشكوكَ الوقوع، وإمَّا للتنبيه على أنَّ جَزْمهم ذلك بمنزلة الريبِ الضعيف؛ لكمال وضوحِ دلائل الإمكان ونهاية قوَّتها. وإنَّما لم يقل: وإنِ ارتبتم في البعث؛ للمبالغة في تنزيهِ أمرِه عن شائبة وقوعِ الريب، والإشعار بأنَّ ذلك إنْ وَقَعَ فمِن جهتهم لا مِن جهته، واعتبار استقرارِهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبارَ ضعفِه وقلَّته؛ لما أنَّ ما يقتضيه ذلك هو دوامُ ملابستهم به لا قوَّته وكثرته.

و«من» ابتدائيَّةٌ متعلِّقة بمحذوف وَقَعَ صفة لـ «ريب»، واستظهر أنَّ المرادَ «في ريبٍ مِن» إمكان «البعث»؛ لأنَّه الذي يقتضيه ما بَعْدُ، وجوَّز أن يكونَ المرادُ مِن

(١) الإملاء للعكبري ٤/ ٢٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٥١.
(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥١.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥١، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ ونسبها إلى النخعي عن أبي عمرو والأعمش، وجاء في هامش المطبوع: لعلَّ الصواب: الأصمعي أو الجعفي.
(٤) في البحر المحيط ٦/ ٣٥١.
(٥) في (م): كتبت.

وقوع البعث، واعترض بأنَّ الدليلَ المشارَ إليه فيما بَعْد إنَّما يدلُّ على الإمكان مع ما يلزم مِن التكرار مع قوله تعالى الآتي: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الآية: ٧] وفيه تأمُّل، فتأمَّل.

وقرأ الحسن: «من البَعَث» بفتح العين(١)، وهي لغةٌ فيه، كالجَلَب والطَّرَد في الجَلْب والطَّرْد عند البصريين، وعند الكوفيِّين إسكان العين تخفيف، وهو قياسيٌّ في كلِّ ما وسَطه حرف حَلْق كالنَّهْر والنَّهَر، والشَّعْر والشَّعَر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ دليلُ جوابِ الشرط، أو: هو الجواب بتأويلٍ، أي: وإنْ كنتم في ريبٍ مِن البعث، فانظروا إلى مَبْدأ خَلْقِكم ليزولَ ريبكم، فإنَّا خلقناكم... إلخ، وقيل: التقدير: فأُخبركم وأُعلمكم أنَّا خلقناكم... إلخ، وليس بذاك، وخَلْقهم مِن تراب في ضمنِ خَلْق آدمَ عليه السلام منه، أو بخَلْقِ الأغذية التي يتكوَّن منها المنيُّ منه، وهي وإن تكوَّنت مِن سائر العناصر معه إلا أنَّه أعظمُ الأجزاء على ما قيل، فلذلك خصَّه بالذكر مِن بينها، واختير الأوَّل، وجعل المعنى: خلقناكم خَلْقاً إجماليًّا مِن تراب ﴿ثُمَّ﴾ خلقناكم خَلْقاً تفصيليًّا ﴿مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: مَنيٍّ، من النَّطْف بمعنى التقاطُر، وقال الراغب(٢): النطفةُ: الماءُ الصافي، ويعبَّر بها عن ماءِ الرجُل. قيل: والتخصيص على هذا مع أنَّ الخَلْقَ مِن ماءَين؛ لأنَّ معظمَ أجزاء الإنسان مخلوقٌ مِن ماءِ الرجل، والحقُّ أنَّ النطفةَ كما يعبَّر بها عن منيِّ الرجل يُعبَّر بها عن المني مطلقاً، وكلامُ الراغب ليس نصًّا في نفي ذلك، والظاهر أنَّ المرادَ النطفةُ التي يُخلَق منها كلُّ واحد بلا واسطة، وقيل: المراد نطفةُ آدمَ عليه السلام، وحكي ذلك عن النقَّاش، وهو مِن البعد في غايته.

﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ أي: قطعةٍ مِن الدم جامدةٍ متكوّنة مِن المنيِّ ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ أي: قطعةٍ مِن اللحم متكوِّنة مِن العَلَقة، وأصلها قطعةُ لحمٍ بقَدْر ما يُمضَغ ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ بالجرِّ صفةُ «مضغة»، وكذا قوله تعالى: ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (نطف).

وقرأ ابنُ أبي عبلة بالنصب فيهما[(١)] على الحالِ مِن النكرة المتقدِّمة، وهو قليل، وقاسَه سيبويه.

والمشهور المتبادر أنَّ المخلَّقةَ المستبينةُ الخَلْق، أي: مضغةٌ مستبينة الخَلْق مصوَّرةٌ، ومضغةٌ لم يَسْتَبِنْ خَلْقها وصورتُها بَعْدُ، والمراد تفصيلُ حالِ المضغة وكونها أوَّلًا قطعةً لم يظهر فيها شيءٌ من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً. وكان مقتضى الترتيب المبنيِّ على التدرُّج مِن المبادي البعيدة إلى القريبة أن يقدّم غيرَ المخلَّقة، وإنَّما أُخِّرت؛ لكونها عدمُ ملكةً، وصيغة التفعيل؛ لكثرةِ الأعضاء المختصِّ كلٌّ منها بخَلْقٍ وصورةٍ. وقيل: المخلَّقة: المسوَّاة الملساء مِن النقصان والعيبِ، يقال: خَلَقَ السواكَ والعودَ: سوَّاه وملَّسه، صخرةٌ خلقاء، أي: ملساء، وجَبلٌ أَخْلَق، أي: أملس، فالمعنى: مِن نطفة مسوَّاةٍ لا نقصَ فيها ولا عيبَ في ابتداءِ خَلْقها، ونطفةٍ غيرِ مسوَّاة فيها عيبٌ، فالنُّطَف التي يُخلَق منها الإنسانُ متفاوتةٌ؛ منها ما هو كاملُ الخِلْقة أملسُ مِن العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوتُ تفاوتَ الناس في خَلْقهم وصُورهم، وطولهم وقِصَرهم، وتمامِهم ونقصانِهم. وعن مجاهد، وقتادة، والشعبيِّ، وأبي العالية، وعكرمة أنَّ المخلَّقة التي تمَّ لها مدَّةُ الحَمْل وتواردَ عليها خَلْقٌ بعد خَلْق، وغيرُ المخلَّقة التي لم يتمَّ لها ذلك وسقطت، واستدلَّ له بما أخرجه الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، وابنُ أبي حاتم، عن ابنِ مسعود قال: النطفةُ إذا استقرَّت في الرحم، أَخَذَها مَلَك الأرحام بكفِّه فقال: يا ربِّ مخلَّقةٌ أم غيرُ مخلَّقة؟ فإن قيل: غيرُ مخلَّقة، لم تكن نَسَمة، وقَذَفها الرحم دماً، وإن قيل: مخلَّقةٌ، قال: يا ربِّ ذَكَرٌ أم أُنثى، شقيٌّ أم سعيدٌ، ما الأجلُ وما الأَثَر، وما الرزقُ، وبأيِّ أرض تموت؟ الخبر. وهو في حُكم المرفوع[(٢)]، والمراد أنَّهم خُلقوا مِن جنسِ هذه النطفة الموصوفة بالتامَّة والساقطة، لا أنَّهم خُلِقوا من نطفةٍ تامة ومن نطفة ساقطة، إذ لا يتصوَّر الخَلْق مِن النطفة الساقطةِ وهو ظاهر، وكان التعرُّض على هذا لوصفها

(١) تفسير الرازي ٢٣/٧، والبحر المحيط ٦/٣٥٢.
(٢) نوادر الأصول ص٧١-٧٢، وتفسير الطبري ١٦/٤٦١-٤٦٢، وورد في تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٩٠ (٣١٥٦) إلا أنه من قول السدي، وأصل الخبر عند البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود مرفوعاً بنحوه.

بما ذُكرَ؛ لتعظيم شأنِ القدرة، وفي جعلِ كلٍّ واحدة مِن هذه المراتب مبدأً لخَلْقهم لا لخَلْقِ ما بعدها مِن المراتب، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآية [المؤمنون: ١٤]، مزيدُ دلالةٍ على عِظَم قدرته تعالى.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلِّق بـ «خلقنا»، وتركَ المفعول؛ لتفخيمه كمًّا وكيفاً، أي: خلقناكم على هذا النمطِ البديع لنبيِّن لكم ما تَحصُره العبارة مِن الحقائق والدقائق التي مِن جملتها أمرُ البعثِ، فإنَّ مَن تأمَّل فيما ذُكر مِن الخَلْق التدريجيِّ جزم بأنَّ مَن قدرَ على خَلْق البشر أوَّلًا مِن ترابٍ لم يَذُقْ ماءَ الحياة قطُّ وإنشائه على وجهٍ مصحِّح لتوليدِ مثلِه مرَّة بعد أُخرى بتصريفه في أطوار الخِلْقة وتحويله مِن حالٍ إلى حالٍ مع ما بين تلك الأطوار والأحوال مِن المخالفة والتباين = فهو قادرٌ على إعادته، بل هي أهونُ في القياس، وقدَّر بعضهم المفعولَ خاصًّا، أي: لنبيِّن لكم أمرَ البعث وليس بذاك.

وأبعدَ جدًّا مَن زعم أنَّ المعنى: لنبيِّن لكم أنَّ التخليقَ اختيارٌ مِن الفاعل المختار، ولولا ذلك ما صار بعضُ أفرادِ المضغةِ غيرَ مخلَّق.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «ليبيِّن» بالياء على طريق الالتفاتِ، وكذا قَرأَ قولَه تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾(١)، وقرأ الجمهورُ بالنون.

والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ حالِهم بعد تمام خَلْقهم وتواردِ الأطوارِ عليهم، أي: ونقرُّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقرَّه فيها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ الوَضع، وأدناهُ: ستة أشهر، وأقصاه عندنا: سنتان، وعند الشافعي ـ عليه الرحمة ـ أربع سنين.

وعن يعقوب أنه قرأ: «ونقُرُّ» بفتح النون وضمِّ القاف(٢)، مِن قررتُ الماءَ إذا صببتَه، وقرأ يحيى بن وثَّاب: «ما نِشاء» بكسر النون.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: مِن الأرحام بعد إقراركم فيها عند تمامِ الأجل المسمى ﴿طِفْلًا﴾ حالٌ مِن ضمير المخاطبين، والإفراد إمَّا باعتبار كلِّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس الصادق على الكثير، أو لأنَّه مصدرٌ فيستوي فيه الواحدُ وغيرُه، كما قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

المبرِّد، أو لأنَّ المرادَ: طفلًا طفلًا، فاختصر، كما نقله الجلالُ السيوطيُّ في «الأشباه» النحويَّة.

وقرأ عمرُ بن شبَّة: «يخرجكم» بالياء[١].

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كمالَكم في القوَّة والعقل والتمييز، وفي «القاموس»: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ويُضمُّ أوَّلُه، أي: قوَّتَه، وهو ما بين ثماني عَشْرةَ سنة إلى ثلاثينَ، واحدٌ جاء على بناء الجَمْع، كـ: آنُكٍ، ولا نظيرَ لهما، أو جَمْعٌ لا واحدَ له مِن لفظه، أو: واحدُه: شِدَّةٌ، بالكسر، مع أنَّ فِعْلَةً لا تُجمَع على أَفْعُل ـ أي: قياساً ـ، فلا يَرِدُ: نِعْمةٌ وأَنْعُم ـ أو شَدٌّ ككَلْب وأَكْلُب، أو شِدٌّ كذِئْب وأَذْؤُبٍ، وما هما بمسموعَيْن بل قياس[٢].

و«لتبلغوا»: قال العلَّامة أبو السعود[٣]: علَّة: «نخرجكم» معطوف على علَّة أُخرى مناسبة لها، كأنَّه قيل: ثم نخرجُكم لتكبُروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا... إلخ، وقيل: علَّة لمحذوف، والتقدير: ثم نمهلكم لتبلغوا... إلخ.

وجوَّز العلَّامة الطيبيُّ أن يكون التقدير: «ثم لتبلغوا أشدَّكم» كان ذلك الإقرار والإخراج، وقيل: إنَّه عطف على «نبيِّن»، وتعقَّبه العلَّامة[٤] بأنَّه مخلٌّ بجزالة النظم الكريم، وجعله كغيرِه عطفاً عليه على قراءة: «نقرَّ» و«نخرجَ» بالنصب وهي قراءة المفضل وأبي حاتم، إلا أنّ الأوّل قرأ بالنون، والثاني قرأ بالياء[٥] وكذا جعل الفعلين عطفاً عليه، وقال: المعنى: خلقناكم على التدريجِ المذكور؛ لأَمرين: أحدهما: أن نبيِّن شؤوننا. والثاني: أن نقرَّكم في الأرحام ثم نخرجكم صغاراً ثم لتبلغوا أشدَّكم، وتقديم التبيين على ما بعدَه مع أنَّ حصولَه بالفعل بعد الكلِّ؛ للإيذان بأنَّه غايةُ الغايات ومقصودٌ بالذات، وإعادة اللام في «لتبلغوا» مع تجريدِ «نقرّ» و«نخرج» عنها؛ للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج، إذ عليه

---

(١) الكشاف ٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.
(٢) القاموس (شدد).
(٣) في تفسيره ٦/ ٩٤.
(٤) يعني أبا السعود في تفسيره ٦/ ٩٤.
(٥) الكشاف ٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

يدور التكليفُ المؤدِّي إلى السعادة والشقاوة، وإيثار البلوغ مسنداً إلى المخاطبين على التبليغ مسنداً إليه تعالى، كالأفعال السابقة؛ لأنّه المناسبُ لبيانِ حالِ اتِّصافهم بالكمال واستقلالِهم بمبدئيَّة الآثار والأفعال. اهـ.

وما ذكره مِن عطف «نقرّ» و«نخرج» بالنصب على «نبيِّن» لم يرتضه الشيخُ ابنُ الحاجب، قال في «شرح المفصَّل»: إنَّه مما يتعذَّر فيه النصُب، إذ لو نصب عطفاً على «نبيِّن» ضَعُفَ المعنى، إذ اللامُ في «لنبيِّن» للتعليل، لما تقدَّم، والمقدَّم سبب للتبيين، فلو عطف: «ونقرّ» عليه لكان داخلًا في مسببية «إنَّا خلقناكم» إلخ، وخلقهم من تراب ثم ما تلاه لا يَصلُح سبباً للإقرار في الأرحام، وقال الزجَّاج[1]: لا يجوز في «ونقرّ» إلا الرفع، ولا يجوز أن يكون معناه: فَعَلْنا ذلك لنقرَّ في الأرحام؛ لأنَّ الله تعالى لم يَخلُق الأنامَ ليقرَّهم في الأرحام، وإنَّما خَلَقهم ليدلَّهم على رشدهم وصلاحِهم، وهو قولٌ بعدم جواز عطفِه على «نبيِّن».

وأُجيب بأنَّ الغرضَ في الحقيقة هو بلوغُ الأشدِّ والصلوح للتكليفِ، لكن لمَّا كان الإقرارُ وما تلاه مِن مقدِّماته، صحَّ إدخاله في التعليل، وما ذكره مِن أنَّ العطفَ على «نبيِّن» على قراءةِ الرفع مخلٌّ بجزالة النظم الكريم، فالظاهر أنَّه تعريضٌ بالزمخشريِّ[2] حيث جعلَ العطفَ على ذلك، وقال: فإن قلت: كيف يصحُّ عطفُ «لتبلغوا أشدَّكم» على «لنبيِّن» ولا طباقَ؟ قلت: الطباقُ حاصل؛ لأنَّ قولَه تعالى: «ونقرُّ» قرينٌ للتعليل، ومقارنته له والتباسه به ينزِّلانه منزلةَ نفسِه، فهو راجع مِن هذه الجهة إلى متانة القراءة بالنصب. اهـ.

وفيه ما يُومِئُ إلى أنَّ قراءةَ النصب أوضحُ كما أنَّها أمتنُ، ولم يَرْتَضِ ذلك المحقِّقون، ففي «الكشف» أنَّ القراءةَ بالرفع هي المشهورةُ الثابتةُ في السَّبْع، وهي الأَولى، وقد أُصيب بتركيبها هكذا شاكلة الرمي حتى لم يجعلِ الإقرارَ في الأرحام علَّة، بل جعل الغرضَ منه بلوغَ الأشدِّ وهو حالُ الاستكمال عِلْماً وعملًا، وحيث لم يعطف على «لنبيِّن» إلا بعد أنْ قدّم عليه «ونقرُّ»، ثم نخرج مجعولا «نقرّ» عطفاً على «إنَّا خَلَقناكُم» والعدول إلى المضارع؛ لتصوير الحال والدلالة على زيادةِ

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤١٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٦.

الاختصاص، فالطباقُ حاصلٌ لفظاً ومعنًى مع أنَّ في الفصل بين العلَّتين مِن النُّكتة ما لا يَخفى على ذي لبٍّ، حَسُنَ موقعها بعد التأمُّل، وكذلك في الإتيان بـ «ثم» في قوله سبحانه: «ثم لتبلغوا» دلالةٌ على أنَّه الغرضُ الأصيلُ الذي خُلقَ الإنسانُ له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولما كانت الأوائلُ في الدلالة على البعث أظهرَ، قدِّم قولُه تعالى: «النبيِّن» على الإقرار والإخراج. اهـ.

ويُعلَم منه ما في قولِ العلَّامة: إنَّ عطف «لتبلغوا» إلخ على «لنبيِّن» مخلٌّ بجزالة النظم الكريم، وأنَّه لا يتعيَّن الاستئنافُ في «ونقرُّ»، وفيه أيضاً أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ إلخ إستئنافٌ لبيانِ أقسام الإخراج مِن الرحم، كما استوفى أقسامَ الأوَّل، وفيه تبيين تفضيلِ حالِ بلوغ الأشدِّ، وأنَّها الحقيقُ بأن تكون مقصودةً مِن الإنشاء، لكن منهم من لا يَصِلُ إليها فيُحتَضَر، ومنهم مَن يجاوزها فيُحتَقر، أي: منكم مَن يموت قبل بلوغ الأشدِّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أرداه وأدناه، والمراد: يُرَدُّ إلى مِثْلِ زمنِ الطفوليَّة ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أي: عِلْم كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئاً مِن الأشياء، أو شيئاً مِن العِلْم، واللام متعلِّقة بـ «يُرَدُّ»، وهي لامُ العاقبة، والمرادُ المبالغةُ في انتقاصِ عِلْمه وانتكاسِ حاله، وليس لزمان ذلك الردّ حدٌّ محدودٌ، بل هو مختلفٌ باختلاف الأمزجة على ما في «البحر»[1]، وإيرادُ الردّ والتوفِّي على صيغة المبني للمفعول للجري على سنَنِ الكبرياء لتعيُّن الفاعل، كما في «إرشاد العقل السليم»[2]، وفي «شرح الكشاف» للطيبيِّ بعد تجويز أن يكون «ثم لِتَبلُغوا» بتقدير: «ثم لتبلغوا» كان ذلك الإقرار والإخراج، أنَّ فائدةَ ذلك الإيذان بأنَّ بلوغَ الأشدِّ أفضلُ الأحوال، والإخراج أبدعها، والردّ إلى أرذلِ العمر أسوؤها، وتغييرُ العبارةِ لذلك، ومِن ثَمَّ نسبَ الإخراجَ إلى ذاتِه تعالى المقدَّسة، وحذفَ المعلل في الثاني، ولم ينسب الثالثَ إلى فاعله، وسلب فيه ما أثبتَ للإنسان في تلك الحالة مِن اتِّصافه بالعِلْم والقدرة المومِئ إليه بالأشدِّ، كأنَّه قيل: ثم يخرجكم مِن تلك الأطوارِ الخسيسة طفلًا إنشاءً غريباً، كما قال سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ثم لتبلغوا

---

(١) ٦/ ٣٥٣.

(٢) أي: تفسير أبي السعود ٦/ ٩٥.

أشدَّكم دُبُرَ ذلك التدبيرِ العجيب؛ لأنَّه أوان رسوخِ العِلْم والمعرفة والتمكُّن مِن العمل المقصودين مِن الإنشاء، ثم يميتكم أو يردُّكم إلى أرذلِ العمر الذي يُسلَب فيه العلمَ والقدرةَ على العمل. اهـ.

ويُفهَم منه جوازُ أن يكون المرادُ: ومنكم مَن يتوفَّى بعد بلوغِ الأشُدِّ، ومِن الناس من جوَّز أن يكون المرادُ[١]: ومنكم من يتوفَّى عند البلوغ، وقيل: إنَّ ذلك بجَعْل الجملة حاليَّةً ومِن صيغةِ المضارع، وهو كما ترى.

وقرئ: «يَتَوفَّى» على صيغة المعلوم[٢]، وفاعله ضميرُ اللهِ تعالى، أي: مَن يتوفَّاه اللهُ تعالى، وجوّز أن يكون ضميرُ «مَن» أي: مَن يستوفي مدَّةَ عمره.

وروي عن أبي عمرو، ونافع: تسكين ميم «العُمْر»[٣]. هذا، ثم لا يخفى ما في اختلافِ أحوال الإنسان بعد الإخراج مِن الرحم مِن التنبيه على صحَّة البعث، كما في اختلافها قَبْلُ، فتأمَّل جميعَ ما ذكر، ولله تعالى درُّ التنزيل ما أكثر احتمالاته.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجَّة أُخرى على صحَّة البعث، معطوفة على «إنَّا خلَقْناكم» وهي حجَّة آفاقيَّة، وما تقدَّم حجَّة أنفسيَّة، والخطاب لكلِّ أحدٍ مَن تتأتّى منه الرؤيةُ، وقيل: للمجادل، وصيغةُ المضارع للدلالةِ على التجدُّد والاستمرار، وهي بصريَّة لا علميَّة كما قيل، و«هامدةً» حالٌ مِن «الأرض» أي: ميتةً يابسةً، يقال: هَمَدَتِ الأرضُ: إذا يبسَت ودَرَسَت. وهَمَدَ الثوبُ: إذا بَلِيَ. وقال الأعشى:

قالت قُتَيْلةُ ما لجِسمِك شاحباً وأرى ثيابَكَ باليَاتٍ هُمَّدا[٤]

وأصله مِن: هَمَدَتِ النارُ: إذا صارت رماداً.

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٣.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٣.
(٤) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٢٧٧، وفيه: سايئاً، بدل: شاحباً، ومعنى سايئاً: أي يسوء من رآه، وهو برواية المصنِّف في النكت والعيون ٤/ ٨.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: ماءَ المطر، وقيل: ما يعمُّه وماء العيونِ والأنهار، وظاهرُ الإنزال يقتضي الأوَّلَ ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرَّك نباتُها، فالإسناد مجازيٌّ، أو تَخَلْخَلَتْ وانفصلَ بعضُ أجزائها عن بعضٍ؛ لأجل خروجِ النبات، وحَمْلُ الاهتزازِ على الحركة في الكيف بعيدٌ ﴿وَرَبَتْ﴾ ازدادتْ وانتفختْ؛ لما يتداخلها مِن الماء والنبات.

وقرأ أبو جعفر، وعبد الله بنُ جعفر، وخالد بنُ إلياس، وأبو عمرو في رواية: «وَرَبَأَتْ» بالهمز[1]، أي: ارتفعت، يقال: فلانٌ يَربأُ بنفسِه عن كذا، أي: يرتفعُ بها عنه، وقال ابنُ عطيَّة[2]: هو من رَبَأْتُ القومَ، إذا علوتَ شرفاً مِن الأرض طليعةً عليهم، فكأنَّ الأرضَ بالماء تتطاولُ وتَعلُو.

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صِنْفٍ ﴿بَهِيجٍ ۝٥﴾ حَسَنٍ سارٌّ للناظر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كلامٌ مستأنَف جِيْءَ به إِثْرَ تحقيقِ حقِّيَّة البعث وإقامة البرهان عليه على أتمِّ وجهٍ؛ لبيان أنَّ ما ذكر مِن خَلْق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه في أحوالٍ متباينة وإحياء الأرض بعد موتِها الكاشف عن حقِّيَّة ذلك مِن آثار ألوهيَّته تعالى وأحكام شؤونه الذاتيَّة والوصفيَّة والفعليَّة، وأنَّ ما ينكرونه مِن إتيانِ الساعة والبعث مِن أسباب تلك الآثارِ العجيبة المعلومة لهم ومبادي صدورِها عنه تعالى، وفيه من الإيذان بقوَّة الدليل وأصالةِ المدلول في التحقُّق وإظهارِ بطلان إنكاره ما لا يَخفى، فإنَّ إنكارَ تحقُّق السبب مع الجزم بتحقُّق المسبَّب مما يقضي ببطلانه بديهةُ العقول، فذلك إشارةٌ إلى خَلْق الإنسان على أطوار مختلفة وما معه، والإفراد باعتبار المذكور وما فيه مِن معنى البُعْدِ؛ للإيذان بِبُعْدِ منزلتِه في الكمال، وهو مبتدأ، خبرُه الجارُّ والمجرور، والمراد بالحقِّ هو الثابت الذي يحقُّ ثبوتُه لا محالَة؛ لكونه لذاتِه، لا الثابت مطلقاً، فوجهُ الحَصْر ظاهِر، أي: ما ذكر مِن الصنع البديع حاصلٌ بسبب أنَّه تعالى هو الحقُّ وحدَه في ذاته وصفاتِه وأفعالِه المحقِّق لما سواه مِن الأشياء.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والمحتسب ٢/ ٧٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٩.

﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: شأنه وعادته ـ تعالى شأنُه ـ إحياءُ الموتى، وحاصله أنَّه تعالى قادرٌ على إحيائها بَدْءاً وإعادةً، وإلا لما أَحيا النطفةَ والأرضَ الميتة مرَّة بعد مرَّة، وما تفيده صيغةُ المضارع مِن التجدُّد إنَّما هو باعتبار تعلُّق القدرةِ ومتعلَّقها لا باعتبار نفسها؛ لأنَّ القِدَمَ الشخصيَّ ينافي ذلك.

﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ أي: مبالغٌ في القدرة، وإلا لما أوجدَ هذه الموجوداتِ الفائتةَ للحَصْر التي مِن جملتها ما ذكر، وتخصيصُ إحياءِ الموتى بالذِّكْر مع كونِه مِن جملة الأشياء المقدور عليها؛ للتصريح بما فيه النزاع والدفع في نحورِ المُنكِرين، وتقديمه لإبراز الاعتناء به.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ أي: فيما سيأتي، والتعبير بذلك دونَ الفعل؛ للدلالة على تحقُّق إتيانها، وتقرُّره ألبتة؛ لاقتضاءِ الحكمة إيَّاه لا محالةَ، وقوله تعالى: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ إمَّا خبرٌ ثانٍ لـ «أنَّ»، أو حالٌ مِن ضمير «الساعة» في الخبر، ومعنى نفي الرَّيْبِ عنها أنَّها في ظهورِ أمرها ووضوحِ دلائلها بحيث ليس فيها مظنَّة أن يرتابَ في إتيانها.

و «أنَّ» وما بعدها في تأويل مصدر عطف على المصدر المجرور بباء السببيَّة داخل معه في حيِّزها، كالمصدرين الحاصلين مِن قوله تعالى: «وأنَّه يُحيي الموتَى» وقوله سبحانه: «وأنَّه على كلِّ شيء قدير» وكذا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ لكن لا مِن حيث إنَّ إتيانَ الساعة وبعثَ مَن في القبور مؤثِّران فيما ذكر مِن أفاعيله تعالى تأثيرَ القُدرة فيها، بل مِن حيث إنَّ كلًّا منهما بسبب[1] داعٍ له عزَّ وجلَّ بموجب رأفتِه بالعباد المبنيَّة على الحِكَم البالغة إلى ما ذكر مِن خَلْقهم ومِن إحياء الأرضِ الميتةِ على نمطٍ بديع صالح للاستشهاد به على إمكانهما؛ ليتأمَّلوا في ذلك ويستدلُّوا به عليه، أو على وقوعِهما، ويصدِّقوا بذلك؛ لينالوا السعادةَ الأبديَّة، ولولا ذلك لما فَعَلَ بل لما خَلَقَ العالَمَ رأساً، وهذا كما ترى مِن أحكام حقِّيَّته تعالى في أفعاله وابتنائِها على الحِكَم الباهرة، كما أنَّ ما قَبْلَه مِن أحكام حقِّيَّته تعالى في صفاته وكونها في غايةِ الكمال، هذا ما اختاره العلَّامة أبو السعود[2] في تفسيرِ ذلك، وهو مما يميلُ إليه الطبعُ السليم.

---

(١) في تفسير أبي السعود ٦/ ٩٦: سبب. والكلام منه.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٦.

وجعل صاحبُ «الكشَّاف»[١] الإشارةَ إلى ما ذكر أيضاً إلا أنَّه بحسب الظاهر جعلَ إتيانَ الساعة وبعثَ مَن في القبور، حيث إنَّ ذلك مِن روادف الحكمةِ = كناية عنها، فكأنَّ الأصلَ ذلك حاصلٌ بسببِ أنَّ الله تعالى هو الحقُّ الثابت الموجود، وأنَّه قادرٌ على إحياء الموتى وعلى كلِّ مقدورٍ، وأنَّه حكيمٌ، فاكتفى بمقتضى الحكمةِ عن الوصف بالحكمة؛ لما في الكناية مِن النُّكتة، خصوصاً والكلام مع منكري البعث للدفْع في نحورِهم. ولا يخلو عن بُعْدٍ، ونقل النيسابوريُّ[٢] عبارةَ «الكشَّاف» واعترضها بما لا يَخفى ردُّه، وأبَدى وجهاً في الآية ذكر أنَّه مما لم يَخطُر لغيرِه ورجا أن يكونَ صواباً، وهو مع اقتضائِه حَمْلَ الباء على ما يعمُّ السببيَّة الفاعليَّة والسببيَّة الغائيَّة، ممّا لا يخفى ما فيه.

وقيل: ذلك إشارةٌ إلى ما ذُكر، إلا أنَّ قولَه تعالى: «وأنَّ الساعةَ آتيةٌ» إلخ، ليس معطوفاً على المجرور بالباء، ولا داخلًا في حيِّز السببيَّة، بل هو خبرٌ، والمبتدأ محذوفٌ لفهم المعنى، والتقدير: والأمر أنَّ الساعةَ آتيةٌ... إلخ، وعليه اقتصر أبو حيَّان[٣] وفيه قطعٌ للكلام عن الانتظامِ.

وقيل: ذلك إشارةٌ إلى ما ذكر إلَّا أنَّ الباءَ صلةٌ لكونٍ خاصٍّ وليست سببيَّة، أي: مشعِرٌ بأنَّ اللهَ هو الحقُّ... إلخ، وفيه أنَّه لا قرينةَ على هذا الكون الخاصِّ، وقيل: المعنى: ذلك ليعلموا أنَّ اللهَ هو الحقُّ... إلخ، وفيه تلويحٌ ما إلى معنى الحديثِ القدسيِّ المشهور على الألسنة وفي كتب الصوفيَّة، وإن لم يثبت عند المُحدِّثين، وهو: «كنتُ كنزاً مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرفَ فخلقتُ الخَلْقَ لأُعرفَ»[٤] وهو كما ترى.

وقيل: الإشارة إلى البعث المستدَلِّ عليه بما سَبق، واستظهره بعضُهم، ولا يَخفى عليكَ ما يحتاجُ إليه من التكلُّف، ونقل في «البحر»[٥] أنَّ ذلك منصوبٌ

---

(١) الكشاف ٣/ ٦.
(٢) في كتابه غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٧/ ٨٠.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥٣.
(٤) حديث موضوع، وسلف ١/ ١٩٩.
(٥) ٦/ ٣٥٣.

بفعل مُضمَر، أي: فعلنا ذلك بأنَّ... إلخ. وأبو عليٍّ اقتصرَ على القولِ بأنَّه مرفوعٌ على الابتداء، والجارُّ والمجرور خبرُه، وقال: لا يجوز غيرُ ذلك، وكأنَّه عنى بالغير ما ذكر، وما نقله العكبريُّ[1] مِن أنَّه خبرٌ لمتبدإٍ محذوفٍ، أي: الأمر ذلك، والحقُّ الجوازُ إلا أنَّه خلافُ الظاهر جدًّا.

ثم إنَّ المرادَ مِن الساعة، قيل: يوم القيامة المشتمل على النَّشْر والحَشْر وغيرهما، وقال سعدي جلبي: المراد بها هنا فناءُ العالَم بالكليَّة؛ لئلَّا تتكرَّر مَعَ البعث، وقولُ الطيبيِّ: إنَّ سبيلَ قولِه تعالى: «أنَّ الساعةَ آتيةٌ» مِن قوله سبحانه: «أنَّ اللهَ يبعثُ مَن في القبور»، سبيلُ قولِهِ جلَّ وعلا: «أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ» مِن قوله عزَّ وجلَّ: «وأنَّه يُحيي الموتَى» لكن قدَّم وأخَّر؛ لرعايةِ الفواصل، ظاهر في الأوَّل.

هذا وفي «الإتقان»[2] للجلال السيوطيِّ: إنَّ الإسلاميينَ مِن أهل المنطق ذكروا أنَّ في أوَّل سورةِ الحجِّ إلى قوله تعالى: «وأنَّ اللهَ يبعثُ مَن في القبور» خمس نتائجَ تستنتجُ مِن عشرِ مقدِّمات.

ثم بيَّن ذلك بما يقضى منه العَجَب، ويدلّ على قُصورِ بَاعِه في ذلك العِلْم، وقد يقال في بيانِ ذلك: إنَّ النتائجَ الخمسَ هي الجملُ المتعاطفةُ الداخلة في حيِّز الباء، واستنتاجُ الأولى بأنَّه لو لم يكن اللهُ سبحانه هو الحقَّ، أي: الواجبَ الوجود لذاته، لما شُوهد بعضُ الممكنات مِن الإنسان والنبات وغيرِها، والتالي باطلٌ ضرورةً، فاللهُ تعالى هو الحقُّ، ودليلُ الملازمة برهانُ التمانع.

واستنتاجُ الثانيةُ بأنَّه لو لم يكن سبحانه قادراً على إحياء الموتى لما طوَّر الإنسانَ في أطوار مختلفة حتى جَعلَه حيًّا وأَنزل مِن السماء ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتِها، والتالي باطلٌ ضرورةَ أنّ الخصمَ لا يُنكِر أنَّه تعالى أحيا الإنسانَ وأحيا الأرضَ، فالله تعالى قادرٌ على إحياءِ الموتى، ووجه الملازمة ظاهرٌ.

واستنتاجُ الثالثة بأنَّه إذا كان اللهُ تعالى قادراً على إحياء الموتى، فهو سبحانه على

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٨.

(٢) ٢/ ١٠٥٥.

كلِّ شيء قدير، لكنَّه تعالى قادرٌ على إحياء الموتى، فهو على كل شيءٍ قدير، ووجهُ الملازمةِ أنَّ المرادَ مِن الشيءِ الممكنُ، وإحياءُ الموتى ممكنٌ، والقدرةُ على بعضِ الممكنات دون بعضٍ تنافي وجوبَ وجودِه تعالى الذاتيِّ؛ وأيضاً إحياءُ الموتى أصعبُ الأمور عند الخصم المجادِل حتى زعم أنَّه من الممتنعات، فإذا ثبت أنَّه سبحانه قادرٌ عليه بما سبقَ، ثبت أنَّه تعالى قادرٌ على سائرِ الممكنات بالطريق الأولى.

واستنتاجُ الرابعة بأنَّ الساعةَ أمرٌ ممكِن وعد الصادق بإتيانه، وكلُّ أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه، فهو آتٍ، فالساعة آتيةٌ، أمَّا أنَّ الساعة أمرٌ ممكن؛ فلأنَّه لا يلزم مِن فرضِ وقوعها محالٌ، وأمَّا أنَّها وعد الصادق بإتيانها؛ فللآيات القرآنية المتحدى بها، وأمَّا أنَّ كلَّ أمرٍ ممكِن وعد الصادق بإتيانه، فهو آتٍ؛ فلاستحالةِ الكذب.

واستنتاجُ الخامسة بنحوِ ذلك، ولا يتعيَّن استنتاجُ كلٍّ بما ذكر، بل يمكن بغيرِ ذلك، واختياره لتسارعِه إلى الذهن، وربَّما يقتصرُ على ثلاثٍ من هذه الخمسِ بناءً على ما علمتَ بين قوله تعالى: «وأنَّه يُحيي الموتَى» وقوله تعالى: «وأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ»، وكذا بين قوله سبحانه «وأنَّ الساعة آتيةٌ»، وقوله سبحانه: «وأنَّ اللهَ يبعثَ من في القبور» ويُعدّ مِن الخمس قوله تعالى: «إنَّ زلزلةَ الساعة شيءٌ عظيم» واستنتاجُها بأن يقال: زلزلةُ الساعة تُذهِلُ كلَّ مرضعةٍ عمَّا أَرضعت، وكلُّ ما هذا شأنه فهو شيءٌ عظيمٌ، فزلزلةُ الساعة شيءٌ عظيم، والتقوى واجبةٌ عليكم المدلول عليه بقوله تعالى: «اتَّقوا ربكم»، واستنتاجه بأن يقال: التقوى يَندفعُ بها ضررُ الساعة، وكلُّ ما يَندفعُ به الضررُ واجبٌ عليكم، فالتقوى واجبةٌ عليكم، ولا يَخفى أنَّ ما ذكر أوَّلًا أَولى، إلا أنَّه لو كان مرادهم، لكان الظاهر أن يقولوا: إنَّ في قوله تعالى: «ذَلِكَ بأنَّ اللهَ هو الحقُّ» إلى قوله سبحانه: «وأنَّ اللهَ يَبعثُ مَن في القبور» خمس نتائجَ دون أن يقولوا: إنَّ في أوَّل سورةِ الحجّ. . . إلى آخره، ويناسب هذا القولَ ما ذكر ثانياً إلا أنه يَردُ عليه أنَّ المتبادرَ مِن كلامهم كون كلٍّ مِن النتائج مذكوراً صريحاً، ولا شكَّ أنَّ التقوى واجبةٌ عليكم ليس مذكوراً كذلك، وإنَّما المذكور ما يدلُّ عليه في الجملة، وهو أيضاً ليس بقضيَّة كما لا يَخفى، وقد تكلَّف بعضُ الناسِ لبيان ذلك غير ما ذكرنا، رأينا تَرْكَ ذِكْره أولى، فتأمَّل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت على ما روي عن محمَّد بنِ كعب في الأخنس بنِ شُريق، وعلى ما روي عن ابنِ عباس في أبي جهلٍ، وعلى ما ذهب إليه جمعٌ في النَّضْر، كالآية السابقة، فإذا اتَّحد المجادِل في الآيتين، فالتكرار مبالغةٌ في الذَّمِّ، أو لكون كلٍّ مِن الآيتين مشتملةٌ على زيادةٍ ليست في الأُخرى.

وقال ابنُ عطيَّة[1]: كرِّرت الآيةُ على جهة التوبيخِ، فكأنَّه قيل: هذه الأمثال في غايةِ الوضوح والبيان، ومِن الناس مَعَ ذلك مَن يجادل... إلى آخرِه، فالواو هنا واوُ الحالِ، وفي الآية المتقدِّمة واوُ العطف، عطفت جملة الكلام على ما قَبلها على معنى الإخبار لا التوبيخ. انتهى. وهو كما ترى.

وفي «الكشف»: إنّ الأظهرَ في النظم والأوفقَ للمقام كون هذه الآية في المقلَّدين ـ بفتح اللام ـ وتلك في المقلِّدين ـ بكسر اللام ـ فالواو للعطفِ على الآية الأُولى، والمراد بالعِلْم العِلْم الضروري كما أنَّ المرادَ بالهدى في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى﴾ الاستدلالُ والنظرُ الصحيح الهادي إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ⑧﴾ وحي مظهرٍ للحقِّ، أي: يجادل في شأنه ـ تعالى شأنه ـ من غير تمسُّك بمقدِّمة ضروريَّة ولا بحجَّة ولا ببرهان سمعيٍّ.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال مِن ضمير: «يجادل» كالجارِّ والمجرور السابق، أي: لاوياً لجانبِه، وهو كنايةٌ عن عدمِ قَبوله، وهو مرادُ ابنِ عباس بقوله: متكبِّراً، والضَّحَّاك بقوله: شامخاً بأنفه، وابنِ جُريج بقوله: مُعرِضاً عن الحقِّ.

وقرأ الحسنُ: «عَطْفه» بفتح العين[2]، أي: مانعاً لتعطُّفه وترحُّمه.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ «يجادل» علَّة له، فإنَّ غرضَه مِن الجدال الإضلالُ عن سبيلِه تعالى وإن لم يعترف بأنَّه إضلال، وجوَّز أبو البقاء[3] تعلُّقَه بـ «ثاني»، وليس بذاك، والمراد بالإضلالِ إمَّا الإخراجُ مِن الهدى إلى الضلال،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٤.

(٣) الإملاء ٤/ ٢٩.

فالمفعول مَن يجادلُه مِن المؤمنين أو الناس جميعاً بتغليبِ المؤمنين على غيرِهم، وإمَّا التثبيتُ على الضلال أو الزيادةُ عليه مجازاً، فالمفعول هم الكفرةُ خاصَّة.

وقرأ مجاهد، وأهلُ مكَّة، وأبو عمرٍو في رواية: «لِيَضِلَّ» بفتح الياء[1]، أي: ليَضِلَّ في نفسه، والتعبير بصيغةِ المضارع مع أنَّه لم يكن مهتدياً؛ لجَعْلِ تمكُّنه مِن الهدى كالهدى، لكونه هدًى بالقوَّة، ويجوز أن يُرادَ ليستمرَّ على الضلال أو ليزيدَ ضلالُه، وقيل: إنَّ ذلك لجَعْلِ ضلالِه الأوَّل كلاضلالٍ، وأيًّا ما كان فاللام للعاقبة.

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ جملة مستأنفةٌ لبيانِ نتيجةِ ما سلكه مِن الطريق، وجوَّز أبو البقاء[2] أن تكونَ حالًا مقدَّرة أو مقارنةً على معنى استحقاقِ ذلك، والأوَّل أظهرُ، أي: ثابت له في الدنيا بسبب ما فَعَله ذلٌّ وهوانٌ، والمراد به عند القائلينَ بأنَّ هذا المجادِلَ النضرُ أو أبو جهل، ما أصابه يومَ بدر، ومَن عمَّم ـ وهو الأولى ـ حَمَلَه على ذمِّ المؤمنين إيَّاه وإفحامِهم له عند البحث وعدم إدلائه بحجَّة أصلًا، أو على هذا مع ما يناله من النكال كالقتل، لكن بالنسبة إلى بعضِ الأفراد.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ أي: النارَ البالغةَ في الإحراق، والإضافة على ما قيل مِن إضافةِ المسبَّب إلى السبب، وفسِّر «الحريقُ» أيضاً بطبقةٍ مِن طِباق جهنَّم، وجوّز أن تكون الإضافةُ مِن إضافةِ الموصوف إلى الصفة، والمراد العذابُ الحريقُ، أي: المحُرِق جدًّا.

وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنه: «وأُذِيْقُه» بهمزة المتكلِّم[3].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكرَ مِن ثبوت الخزي له في الدنيا وإذاقةِ عذاب الحريق في الأُخرى، وما فيه مِن معنى البعد؛ للإيذانِ بكونه في الغاية القاصية مِن الهول والفظاعة، وهو مبتدأٌ، خبرُه قولُه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: بسبب ما اكتسبته مِن الكفر والمعاصي، وإسناده إلى يديه؛ لما أنَّ الاكتسابَ عادةً يكون بالأيدي، وجوّز أن يكون ذلك خبراً لمبتدإٍ محذوف، أي: الأمر ذلك، وأن يكون مفعولًا

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٣٢٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٤.

(٢) الإملاء ٤/ ٢٩.

(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ١١، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٥.

لفعلٍ محذوف، أي: فعلنا ذلك إلخ، وهو خلافُ الظاهر، والجملةُ استئنافٌ لا محلَّ لها مِن الإعراب، وجوّز أن تكونَ في محلٍّ نصب مفعولة لقولٍ محذوفٍ وقع حالًا، أي: قائلينَ أو مقولًا له ذلك. . . إلخ، وعلى الأوَّل يكون في الكلام التفاتٌ لتأكيدِ الوعيد وتشديدِ التهديد.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ الظاهر أنَّه عطفٌ على «ما»، وبه قال بعضُهم، وفائدتُه الدلالةُ على أنَّ سببيَّة ما اقترفوه مِن الذنوب لعذابهم مقيَّدةٌ بانضمام انتفاءِ ظُلْمِه تعالى إليه، إذ لولاه لأَمكن أن يعذِّبَهم بغير ما اقترفوا، إلا أنْ لا يعذِّبَهم بما اقترفوا، وحاصله أنَّ تعذيبَ العصاةِ يحتمل أن يكون لذنوبِهم، ويحتمل أن يكون لمجرَّد إرادةِ عذابِهم مِن غير ذنب، فجيءَ بهذا؛ لرفعِ الاحتمال الثاني، وتعيين الأوَّل للسببيَّة، لا لرفعِ احتمال أنْ لا يعذِّبَهم بذنوبِهم؛ لأنَّه جائز، بل بعضُ الآياتِ تدلُّ على وقوعِه في حقٍّ بعضِ العصاة، ومرجعُ ذلك في الآخرة إلى تقريعِ الكفرة وتبكيتهم بأنَّه لا سببَ للعذاب إلا مِن قِبَلهم، كأنَّه قيل: إنَّ ذلك العذابَ إنَّما نَشَأَ مِن ذنوبِكم التي اكتسبتموها لا مِن شيءٍ آخَر.

واختار العلَّامة أبو السعود[1] أنَّ محلَّ «أنْ» وما بعدها الرفعُ على الخبريَّة لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: والأمر أنَّه تعالى ليس بمعذِّب لعبيدِه مِن غير ذنب مِن قِبَلِهم، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لمضمون ما قبلها، وقال في العطف: للدلالة على «أنَّ» سببيَّة. . . إلخ، أنَّه ليس بسديدٍ؛ لما أنَّ إمكانَ تعذيبِه تعالى لعبيدِه بغير ذنبٍ، بل وقوعُه لا ينافي كونَ تعذيبِ هؤلاء الكفرة المعينة بسببِ ذُنوبهم حتى يحتاجَ إلى اعتبار عدمِه معه، نعم لو كان المدَّعى كون جميع تعذيباتِه تعالى بسبب ذنوبِ المعذَّبين لاحتيجَ إلى ذلك. انتهى.

وتعقِّب قولُه: إنَّ إمكانَ. . . إلخ، بأنَّ الكلامَ ليس في منافاة ذينِكَ الأمرَيْن بحسَب ذاتهما، بل في منافاةِ احتمال التعذيبِ بلا ذنبٍ؛ لتعيُّن سببيَّة الذنوبِ له، وقوله: نعم لو كان المدَّعى. . . إلخ بأنَّ الاحتياجَ إلى ذلك القيد في كلٍّ مِن الصورتين إنَّما هو لتقريعِ المذنبين بأنَّه لا سببَ لتعذيبِهم إلا مِن قِبَلِهم، فالقولُ

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٧.

بالاحتياج في صورةِ الجميع وبعدمِه في صورة الخصوصيَّة، ركيكٌ جداً، وتعقِّب أيضاً بغيرِ ذلك، والقولُ بالاعتراض ـ وإن كان لايخلو عن بُعْدٍ ـ أَبعد عن الاعتراض، والتعبيرُ عن نفي تعذيبه تعالى لعبيدِه مِن غيرِ ذنبٍ بنفي الظُّلْم مع أنَّ تعذيبَهم بغير ذنب، ليس بظلمٍ على ما تقرَّر مِن قاعدة أهلِ السُّنَّة؛ لبيانِ كمالِ نزاهته تعالى عن ذلك بتصويرِه بصورة ما يستحيلُ صدورُه عنه سبحانه مِن الظُّلْم، وصيغةُ المبالغة لتأكيدِ هذا المعنى بإبراز ما ذُكر مِن التعذيب بغيرِ ذنب في صورة المبالغة في الظُّلْم، وقيل: هي لرعاية جمعية العبيدِ فتكون للمبالغة كمًّا لا كيفاً.

واعتُرض بأنَّ نفيَ المبالغة كيفما كانت تُوهِمُ المحالَ، وقيل: يجوز أن تعتبرَ المبالغةُ بعد النفي فيكون ذلك مبالغةً في النفي لا نفياً للمبالغة.

واعترُض بأنَّ ذلك ليس مثلَ القيد المنفصلِ الذي يجوز اعتبار تأخُّره وتقدُّمه، كما قالوه في القيود الواقعة مع النفي، وجَعْلُه قَيْداً في التقدير؛ لأنَّه بمعنى ليس بذي ظلم عظيمٍ أو كثير = تكلُّف لا نظيرَ له، وقيل: إنَّ ظلَّاماً للنسبة، أي: ليس بذي ظُلم، ولا يختصُّ ذلك بصيغةِ فاعل، فقد جاء:

وليست بذي رُمْحٍ ولست بنبَّال(١)

وقيل غير ذلك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ شروع في حالِ المذبذبين، أي: ومنهم مَن يعبده تعالى كائناً على طَرَفٍ مِن الدين لاثباتَ له فيه، كالذي يكون في طَرف الجيش، فإن أحسَّ بظَفَر قرَّ، وإلا فرَّ، ففي الكلامِ استعارةٌ تمثيليَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ إلخ، تفسيرٌ لذلك وبيانٌ لوجه الشَّبَه، والمراد مِن الخير الخيرُ الدنيويُّ كالرَّخاء والعافية والولد، أي: إن أصابَه ما يشتهي ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: ثبت على ما كانَ عليه ظاهراً لا أنَّه اطمأنَّ به اطمئنانَ المؤمنين الذين لا يُزَحْزِحُهم عاصفٌ ولا يثنيهم عاطفٌ ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: شيءٌ يُفتَن به مِن

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٣ هكذا:

وليس بذي رمحٍ فيطعنني به … وليس بذي سيفٍ وليس بنبَّال

مكروهٍ يَعتريه في نفسِه أو أهلِه أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: مستولياً على الجهة التي يُواجِهها غيرَ ملتفتٍ يميناً وشمالًا، ولا مبالٍ بما يستقبلُه مِن حِرار وجبالٍ، وهو معنى قوله في «الكشاف»[1]: طار على وجهه. وجعله في «الكشف» كنايةً عن الهزيمة، وقيل: هو هاهنا عبارة عن القَلَق؛ لأنَّه في مقابلة «اطمأنَّ»، وأيًّا ما كان فالمراد: ارتدَّ ورجعَ عن دينِه إلى الكفر.

وأخرج البخاريُّ، وابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه عن ابنِ عبَّاس أنَّه قال في هذه الآية: كان الرجلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإذا ولدت امرأتُه غلاماً ونُتِجَتْ خيلُه، قال: هذا دِينٌ صالحٌ، وإن لم تَلِدْ امرأتُه ولم تُنتِجْ خيلُه، قال: هذا دِينُ سُوء[2].

وأخرج ابنُ مردويه عن أبي سعيدٍ قال: أَسلم رجلٌ مِن اليهود فذهب بصرُه ومالُه وولدُه، فتشاءَمَ مِن الإسلام، فأَتَى النبيَّ ﷺ فقال: أَقِلْني. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الإسلامَ لا يُقال». فقال: لم أُصِبْ مِن ديني هذا خيراً، ذهب بصري ومالي ومات ولدي. فقال ﷺ: «يا يهودي الإسلامُ يَسْبُكُ الرجالَ كما تَسبكُ النارُ خَبَثَ الحديدِ والذهبِ والفضَّةِ»، فنزلت هذه الآية. وضعَّف هذا ابنُ حجر[3]، وقيل: نزلت في شيبةَ بنِ ربيعةَ أَسلم قَبْلَ ظهورِه عليه الصلاةُ والسلامُ وارتدَّ بعد ظهورِه، وروي ذلك عن ابنِ عبَّاس.

وعن الحسن أنَّها نزلت في المنافقين.

---

(١) ٣/ ٧.

(٢) البخاري (٤٧٤٢)، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧٦ (١٣٧٩٧)، والدر المنثور ٤/ ٣٤٦.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٦، وأورده أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٣١٧، والقرطبي في تفسيره ١٤/ ٣٢٩. وضعَّف إسناده ابن حجر في الكافي الشاف ص١١٢.
وأخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير ٣/ ٣٦٨ من حديث جابر ﷺ، ولم يذكر فيه نزول الآية، وفي إسناده: عنبسة بن سعيد، قال الحافظ في الكافي الشاف ص١١٢: وعنبسة ضعيف جداً.
وأخرج البخاري (٧٣٢٢)، ومسلم (١٨٨٣) عن جابر أن أعرابياً بايع رسولَ الله ﷺ، فأصاب الأعرابيَّ وَعْكٌ بالمدينة، فجاء الأعرابيُّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أقلني بيعتي. فأبى رسول الله ﷺ، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي. فأبى، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي. فأبى، فخرج الأعرابيُّ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما المدينة كالكير تنفي خبثها، وينصع طِيبها».

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، أو بدلٌ مِن «انْقَلَبَ»، كما قال أبو الفضل الرازيُّ، أو حالٌ مِن فاعلِه بتقدير «قد» أو بدونِها، كما هو رأي أبي حيَّان[1]، والمعنى: فَقَدَ الدنيا والآخرةَ وضيَّعهما، حيث فاتَه ما يسرُّه فيهما.

وقرأ مجاهدٌ، وحميدٌ، والأعرجُ، وابنُ محيصن مِن طريق الزعفرانيِّ، وقعنب، والجحدريُّ، وابنُ مقسم: «خاسر» بزنة فاعل[2] منصوباً على الحال؛ لأنَّ إضافته لفظيَّةٌ، وقُرئَ: «خاسر» بالرفع[3] على أنَّه فاعل: «انقلب»، وفيه وضعُ الظاهر موضعَ المضمَر؛ ليفيدَ تعليلَ انقلابِه بخسرانه، وقيل: إنَّه من التجريد، ففيه مبالغةٌ، وجوِّز أن يكون خبرَ مبتدإٍ محذوفٍ، أي: هو خاسر، والجملة واردةٌ على الذمِّ والشتم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الخسران، وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذان بكونه في غاية ما يكون. وقيل: إنَّ أداة البُعد؛ لكون المشار إليه غيرَ مذكور صريحاً ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ أي: الواضح كونه خسراناً لا غيرُ.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيل: استئنافٌ ناعٍ عليه بعضَ قبائحه، وقيل: استئناف مبيِّن لعِظَم الخسرانِ، ويجوز أن يكون حالًا مِن فاعل «انْقَلَبَ»، وما تقدَّمه اعتراض، وأيًّا ما كان فهو يُبعِد كونَ الآية في أحدٍ من اليهود؛ لأنَّهم لا يَدعُونَ الأصنامَ وإنِ اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً مِن دون اللهِ.

والظاهر أنَّ المدعوَّ الأصنامُ؛ لمكان «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ والمراد بالدعاء العبادةُ، أي: يعبد متجاوزاً عبادةَ الله تعالى مالا يضرُّه إن لم يَعبده، وما لا ينفعه إذا عَبَده، وجوّز أن يُرادَ بالدعاء النداء، أي: ينادي لأجل تخليصِه ممَّا أصابه مِن الفتنة جماداً ليس مِن شأنه الضرُّ والنفعُ، ويلوح بكون المرادِ جماداً كذلك كما في «إرشاد العقل السليم»[4] تكريرُ كلمة «ما» ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي:

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٥.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٥، والمحتسب ٢/ ٧٥.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥٥، والكشاف ٣/ ٧.
(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٨.

الدعاء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ عن الحقِّ والهدى، مستعارٌ مِن ضلال مَن أبْعدَ في التِّيْهِ ضالًّا عن الطريق.

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ استئنافٌ يبيِّن مآل دعائه وعبادتِه غيرَ الله تعالى، ويقرِّر كونَ ذلك ضلالًا بعيداً مع إزاحة ما عسى أن يتوهَّم مِن نفي الضررِ عن معبودِه بطريق المباشرة نفيه عنه بطريقِ التسبُّب أيضاً، فالدعاء هنا بمعنى القول، كما في قول عنترة:

يدعونَ عنترةَ الرماحُ كأنَّها أَشْطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهمِ[1]

واللامُ داخلةٌ في الجملة الواقعة مقولًا له، وهي لامُ الابتداء، و«مَن» مبتدأٌ، و«ضَرُّه أقربُ» مبتدأٌ وخبرٌ، والجملةُ صلةٌ له.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ جوابُ قَسَم مقدَّر، واللام فيه جوابيَّة، وجملة القَسَم وجوابه خَبَرُ «مَن»، أي: يقول الكافرُ يومَ القيامة برَفْع صوتٍ وصراخٍ حين يرى تضرُّرَه بمعبوده ودخوله النارَ بسببه، ولا يرى منه أثراً ممَّا كان يتوقَّعه منه مِن النفع لمَن ضرُّه أقربُ تحقُّقاً مِن نفعه: واللهِ لبئسَ الذي يُتَّخذُ ناصراً، ولبئسَ الذي يُعاشرَ ويُخالَط. فكيف بما هو ضررٌ محضٌ عارٍ عن النفع بالكليَّة، وفي هذا من المبالغة في تقبيحِ حالِ الصنمِ والإمعان في ذمِّه ما لا يخفَى، وهو سرُّ إيثار «مَن» على «ما» وإيرادِ صيغةِ التفضيل، وهذا الوجه مِن الإعراب اختاره السجاونديُّ، والمعنى عليه ممَّا لا إشكالَ فيه. وقد ذهبَ إليه أيضاً جارُ اللهِ[2]، وجوّز أن يكونَ «يدعو» هنا إعادةً لـ «يدعو» السابق، تأكيداً له وتمهيداً لما بَعْدُ مِن بيانِ سوءِ حالِ معبودِه إثرَ بيانِ سوء حالِ عبادته بقوله تعالى: «ذلك هو الضلال البعيد»، كأنَّه قيل مِن جهته سبحانه بعد ذِكْر عبادةِ الكافر ما لا يضرُّه ولا ينفعه: يَدعو ذلك؟! ثم قيل لمَن ضرُّه بكونه معبوداً أقرب مِن نفعه بكونه شفيعاً: واللهِ لبئسَ المولى... إلخ، ولا تناقضَ عليه أيضاً إذ الضرُّ المنفيُّ ما يكون بطريق المباشرةِ، والمثبت ما يكون بطريقِ التسبُّب، وكذا النفعُ المنفيُّ هو الواقعيُّ، والمثبت هو

---

(١) ديوان عنترة ص٢٩، وفيه: عنترَ والرماح، بدل: عنترة الرماح. والشطن: الحبل الذي يستقى به. واللبان: الصدر.

(٢) الكشاف ٣/ ٧.

التوقُّعي، قيل: ولهذا الإثبات عبَّر بـ «مَن» فإنَّ الضرَّ والنفعَ مِن شأنِهما أن يَصدرا عن العقلاءِ، وفي «إرشاد العقل السليم»[(١)] أن إيرادَ كلمةِ «مَن» وصيغة التفضيل على تقديرِ أن يكون ذلك إخباراً مِن جهته سبحانه عن سوءِ حال معبودِ الكفرة؛ للتهكُّم به، ولا مانعَ عندي أن يكون ذلكَ كما في التقدير الأوَّل للمبالغة في تقبيح حالِ الصنم والإمعان في ذمِّه.

واعترض ابنُ هشام[(٢)] على هذا الوجه بأنَّ فيه دعوى خلافِ الأصل مرَّتين، إذ الأصلُ عدمُ التوكيد، والأصلُ أنْ لا يُفصلَ المؤكَّد عن توكيدِه ولا سيَّما في التوكيد اللفظيِّ. وقال الأخفش[(٣)]: إنَّ «يدعو» بمعنى: يقول، واللام للابتداء، و«مَن» موصول مبتدأ، صلته الجملةُ بعدَه، وخبره محذوفٌ، تقديره: إله أو إلهي، والجملة محكيَّة بالقول.

واعترض بأنَّه فاسدُ المعنى؛ لأنَّ هذا القول مِن الكافر إنَّما يكون في الدنيا وهو لا يعتقدُ فيه أنَّ الأوثانَ ضَرُّها أقرب مِن نفعِها.

وأُجيبَ بأنَّ المرادَ إنكارُ قولهم بألوهيَّة الأوثان إلَّا أنَّ الله تعالى عبَّر عنها بما ذُكر؛ للتهكُّم، نعَمْ الأولى أن يقدَّر الخبر مولى؛ لأنَّ قولَه تعالى: «لبئس المولى ولبئس العشير» أدلُّ عليه، ومع هذا لا يَخفى بُعْدُ هذا الوجه، وقيل: «يدعو» مضمَّن معنى يزعم، وهي مُلحَقة بأفعال القلوبِ لكون الزعمِ قولًا مع اعتقاد. واللامُ ابتدائيَّة معلِّقة للفعل، و«مَن» مبتدأ، وخبرُها محذوف، كما في الوجه السابق، والجملة في محلِّ نصبٍ بـ «يدعو»، وإلى هذا الوجه أشار الفارسيُّ، ولا يَخفى عليكَ ما فيه.

وقال الفرَّاء[(٤)]: إنَّ اللامَ دخلت في غير موضعها، والتقدير: يدعو مَن ضرُّه أقربُ مِن نفعه، فـ «مَن» في محلِّ نصبٍ بـ «يدعو»، وتعقَّبه أبو حيان[(٥)] وغيرُه بأنَّه

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٨.

(٢) مغني اللبيب ص٣٠٨.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ -٦٣٦.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢١٧.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٥٦-٣٥٧.

بعيدٌ؛ لأنَّ ما في صلة الموصول لا يتقدَّم على الموصول، وقال ابنُ الحاجبِ: قيل: اللامُ زائدة للتوكيد، و«مَن» مفعول «يدعو»، وليس بشيءٍ؛ لأنَّ اللامَ المفتوحة لا تُزاد بين الفعل ومفعولِه، لكن قويَ القولُ بالزيادة هنا بقراءةِ عبد الله: «يَدعُو مَن ضَرُّه» بإسقاط اللام، وقيل: «يدعو» بمعنى يُسمِّي، و«من» مفعوله الأوَّل، ومفعوله الثاني محذوف، أي: إلهاً. ولا يخفى عليكَ ما فيه، وقيل: إنَّ «يدعو» ليست عاملةً فيما بعدَها، وإنَّما هي عاملةٌ في ذلك قبلها، وهو موصول بمعنى «الذي»، ونقل هذا عن الفارسيِّ أيضاً، وهو على بُعْدِه لا يصحُّ إلَّا على قول الكوفيين، إذ يجيزون في اسم الإشارة مطلقاً أن يكون موصولًا، وأمَّا البصريونَ فلا يجيزونَ إلَّا في «ذا» بشرطِ أن يتقدَّمها الاستفهامُ بـ «ما» أو «من»، وقيل: هي عاملةٌ في ضميرٍ محذوف راجع إلى ذلك، أي: يَدعُوه، والجملة في موضع الحالِ، والتقدير: «ذلك هو الضلالُ البعيدُ» مدعوًّا، وفيه مع بُعْدِه أنَّ «يدعو» لا يُقدَّر بمدعوٍّ، وإنَّما يقدَّر بداعياً، والذي يقدَّر بمدعوٍّ إنَّما هو يُدعى المبني للمفعول، وقيل: «يدعو» عطف على «يدعو» الأوَّل، وأسقط حرفَ العطف؛ لقصد تعدادِ أحوال ذلك المذبذبِ، واللام زائدة، و«من» مفعول «يدعو»، وهي واقعةٌ على العاقل، والدعاءُ في الموضعين إمَّا بمعنى العبادة وإمَّا بمعنى النداء، والمرادُ إمَّا بيانُ حالِ طائفة منهم على معنى أنَّهم تارةً يدعُون مالا يضرُّ ولا ينفعُ، وتارةً يَدعُون مَن ضرُّه أقربُ من نفعه، وإمَّا بيانُ حالِ الجنس باعتبار ما تحتَه على معنى أنَّ منهم مَن يدعو مالا يضرُّ ولا ينفعُ، ومنهم مَن يدعو مَن ضرُّه أقربُ مِن نفعه، وهو كما ترى، وبالجملة أحسنُ الوجوه أوَّلُها(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ استئنافٌ لبيانِ كمالِ حسن حال المؤمنين العابدينَ له تعالى، وأنَّه تعالى يتفضَّل عليهم بالنعيم الدائم إثرَ بيانِ غاية سوءِ حالِ الكفرة.

وجملة «تجري» إلخ صفةٌ لـ «جنَّات»، فإن أُريد بها الأشجارُ المتكاثفة الساترةُ لما تحتها، فجريانُ الأنهار مِن تحتها ظاهرٌ، وإن أريد بها الأرضُ، فلابُدَّ مِن تقدير مضاف، أي: من تحتِ أشجارها، وإن جعلت عبارةً عن مجموع الأرض

(١) ينظر تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٧.

والأشجار، فاعتبار التحتيَّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحِّح لإطلاق اسمِ الجنَّة على الكلِّ، كما في «إرشاد العقل السليم»[١].

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾ تعليلٌ لما قبله وتقريرٌ بطريقِ التحقيق، أي: هو تعالى يَفعل ألبتةَ كلّ ما يُريده من الأفعال المتقنة اللائقة المبنيَّة على الحِكَم الرائقة التي مِن جملتها إثابةُ مَن آمنَ به وصدَّق برسوله ﷺ، وعقابُ مَن كَفَرَ به وكذَّب برسولِه عليه الصلاة والسلام.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الضمير في «ينصره» لرسولِ الله ﷺ على ما روي عن ابنِ عبَّاس، والكلبيِّ، ومقاتلٍ، والضحَّاكِ، وقتادةَ، وابنِ زيد، والسديِّ، واختاره الفرَّاء[٢]، والزجَّاج[٣]، كأنَّه لما ذكر المجادلَ بالباطل وخذلانه في الدنيا؛ لأنَّه لا يُدلي بحجَّةٍ ما، ضروريَّة أو نظريَّة أو سمعيَّة، ولما يؤول إليه أمره مِن النكال، وفي الآخرة بما هو أطمُّ وأطمُّ، ثم ذكر سبحانه مشايعيه وعمَّم خَسارهم في الدارين، ذَكَرَ في مقابلهم المؤمنين وأتبعه ذِكْرَ المجادلِ عنهم وعن دينِ الله تعالى بالتي هي أحسن وهو رسولُه عليه الصلاة والسلام، وبالغ في كونه منصوراً بما لا مزيدَ عليه، واختصر الكلام؛ دلالةً على أنَّه ﷺ العَلَمُ الذي لايشتبه، وأنَّ الكلامَ فيه وله ومعه، وأنَّ ذِكْر غيرِه بتبعيَّة ذِكْره، فالمعنى أنَّه تعالى ناصرٌ لرسوله ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجتِه وإدخالِ مَن صدَّقه جناتٍ تجري مِن تحتها الأنهار، والانتقام ممَّن كذَّبه وإذاقته عذابَ الحريق لا يَصرفُه سبحانه عن ذلك صارفٌ ولا يَعطفه عنه عاطفٌ، فمَن كان يغيظه ذلك مِن أعاديه وحُسَّاده ويظنُّ أن لنْ يَفعله تعالى بسبب مدافعتِه ببعضِ الأمور ومباشرة ما يردُّه مِن المكايد، فليُبالغ في استفراغِ المجهود وليتجاوز في الجدِّ كلَّ حدٍّ معهود، فقصارى أمرِه خيبةُ مساعِيْه وعِقَم مقدِّماته ومباديه وبقاء ما يغيظُ على حاله ودوام شَجْوه وبَلْباله، وقد وضع مقامَ هذا الجزاء قوله سبحانه: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ إلخ، فليمدد حبلًا ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إلى سقفِ

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/٩٩.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٢١٨.

(٣) في معاني القرآن وإعرابه له ٣/٤١٧.

بيته، كما أخرج عبدُ بنُ حميدٍ، وابنُ المنذر، عن الضحَّاك[(١)]. ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليَختَنق، كما فسَّره بذلك ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما مِن قَطَعَ: إذا اختنقَ، كأنَّ أصلَه: قطع نَفَسه ـ بفتحتين ـ أو أَجَله، ثم ترك المفعول نسياً منسيًّا، فصار بمعنى اختنقَ لازم خنقه،[(٢)] وذكروا أنَّ قَطْعَ النَّفَس كنايةٌ عن الاختناقِ، وقيل: المعنى: ليقطعِ الحبلَ بعد الاختناقِ، على أنَّ المرادَ به فرضُ القَطْع، وتقديره كما أنَّ المرادَ بالنظر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ تقديرُ النظر وتصويرُه، وإلَّا فبعدَ الاختناقِ لا يتأتَّى منه ذلك، أي: فليقدِّر في نفسِه النظرَ هل يذهبنَّ كيدُه غيظَه، أو الذي يغيظه مِن النصر، ويجوز أن يُرادَ: فلينظر الآن أنَّه إن فَعَلَ ذلك هل يذهبُ ما يغيظه. وجوّز أن يكون المأمورُ بالنظر غيرَ المأمور الأوَّل ممَّن يصحُّ منه النظر، وأن يكون الكلامُ خارجاً مخرجَ التهكُّم كما قيل: إنَّ تسميةَ فِعْلِه ذلك كيداً خارجةٌ هذا المخرَج، وقال جمعٌ: إنَّ إطلاقَ الكيدِ على ذلك؛ لشَبَهه به، فإنَّ الكائدَ إذا كَادَ أَتَى بغاية ما يَقدرُ عليه، وذلك الفعلُ غايةُ ما يَقدرُ عليه ذلك العدوُّ الحسودُ، ونقل عن ابنِ زيدٍ أنَّ المعنى فليمدد حبلًا إلى السماء المظلَّة وليصعد عليه، ثم ليقطَع الوحيَ عنه ﷺ.

وقيل: ليقطع المسافةَ حتى يبلغَ عنانَ السماء فيجهدَ في دَفْع نصرِه عليه الصلاة والسلام النازل من جهتها.

وتعقَّبه المولى أبو السعود[(٣)] بأنَّه يأباه أنَّ مساقَ النظمِ الكريم بيانُ أنَّ الأمورَ المفروضةَ على تقدير وقوعِها وتحقُّقها بمعزل من إذهابِ ما يغيظ، ومن البينِ أن لا معنى لفرض وقوعِ الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيَّما قَطْع الوحي، فإنَّ فرضَ وقوعِه مخلٌّ بالمرام قطعاً.

ونُوقشَ في ذلك بما لا يَخفى على الناظر، نعم المعنى السابق هو الأَولى، وأيًّا

---

(١) الدر المنثور ٤/٣٤٧، وأخرجه أيضاً الطبري في التفسير ١٦/٤٨٣.

(٢) ليست في الأصل، وجاء بدلها فيه: «وإلا فبعد الاختناق لا يتأتّى منه ذلك، أي: فليقدّر في نفسه النظر»، وهذه العبارة ستأتي قريباً، ونقلت إلى هناك لضرورة المعنى، وهكذا جاءت في تفسير أبي السعود ٦/٩٩، والكلام منه.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/٩٩.

ما كان فمن يظنُّ ذلك هم الكفرةُ الحاسدونَ له ﷺ، وقيل: أَعراب مِن أَسْلَم وغَطَفان تباطؤوا عن الإسلام، وقالوا: نخافُ أن لا يُنصَر محمَّد عليه الصلاة والسلام فينقطعَ ما بيننا وبين حلفائنا مِن يهود، فلا يقرُّونا ولا يُؤْوونا، وقيل: قومٌ مِن المسلمين كانوا لشدَّة غيظهم من المشركين يستبطؤون ما وَعَدَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ مِن النصر، والمعنى عليه ـ وكذا على سابقه إن قيل: إنَّ أولئك الأعراب كانوا يستبطؤون النصرَ أيضاً ـ: مَن اسْتبطأ نَصْرَ اللهِ تعالى وطَلَبه عاجلًا فليقتل نفسَه؛ لأنَّ له وقتاً اقتضت الحكمةُ وقوعَه فيه، فلا يقع في غيرِه، وأنتَ تعلَمُ بُعْدَ هذين القولين وأنَّ ثانيهما أبعدُ.

واستظهر أبو حيَّان[1] كونَ ضميرِ «ينصره» عائداً على «مَن» لأنَّه المذكور، وحقُّ الضمير أن يعودَ على مذكور، وهو قولُ مجاهد، وإليه ذهب بعضُهم، وفسَّر النصرَ بالرزق، وقال أبو عبيدة[2]: وَقَفَ علينا سائلٌ من بني بكر، فقال: مَن ينصرني نصرَه اللهُ تعالى؟ وقالوا: أرضٌ منصورةٌ، أي: ممطورة، وقال الفقعسيُّ:

وإنَّكَ لا تُعطي امْرَأً فوقَ حقِّه ... ولا تملكُ الشيءَ الذي أنتَ ناصره[3]

أي: معطيه، وكأنَّه مستعارٌ مِن النصر بمعنى العونِ، فالمعنى أنَّ الأرزاقَ بيدِ الله تعالى لا تُنال إلا بمشيئته فلا بُدَّ للعبد مِن الرضا بقسمتِه، فمَن ظنَّ أنَّ اللهَ تعالى غيرُ رازقِه ولم يَصبِر ولم يَستسلم، فليبلغ غايةَ الجَزَع وهو الاختناقُ، فإنَّ ذلك لا يَقلِبُ القسمةَ ولا يردُّه مرزوقاً، والغَرَضُ الحثُّ على الرضا بما قَسَمَ اللهُ تعالى لا كمَن يعبدُه على حرفٍ، وكأنَّه سبحانه لما ذَكَرَ المؤمنين عَقِيبهم ـ على ما مرَّ ـ حذَّرهم عن مِثْلِ حالِهم؛ لطفاً في شأنهم. ولا يخلو عن بُعْدٍ وإن كان ربطُ الآية بما قَبلها عليه قريباً.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٧.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٤٧.

(٣) البيت في الأضداد للأنباري ص٣٠٣، وأمالي المرتضى ٢/ ١٩٢، إلا أنَّ روايته هكذا:

فإنك لا تعطي امرأً حظَّ غيره ... ولا تملك الشقَّ الذي الغيث ناصره

وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١١ وجاء صدر البيت عنده كما ذكره المصنِّف، وعجزه كما في الأضداد، والأمالي.

والفقعسي: هو مضرِّس بن ربعي بن لقيط بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين الأسدي. معجم الشعراء ص٣٠٧.

وقيل: الضمير لـ «من» والنصر على المتبادر منه، والمعنى: مَن كان يظنُّ أن لن ينصرَه اللهُ تعالى فيغتاظُ لانتفاءِ نصرِه، فليَحْتَل بأعظمِ حيلةٍ في نَصْرِ الله تعالى إيَّاه وليَستفرغ جهدَه في إيصال النصرِ إليه، فلينظر هل يذهبنَّ ذلك ما يغيظه مِن انتفاء النصر. ولا يخفى ما في وجه الربطِ على هذا مِن الخفاء.

و«من» كما أشرنا إليه شرطيَّة، وجوِّز أن تكون موصولةً والفاء في حَيِّزها؛ لتضمُّنها معنى الشرط، و«هل يذهبنَّ» في محلِّ نصب بـ «ينظر»، وذكر أنَّه على إسقاط الخافض.

وقرأ البصريون، وابنُ عامر، وورش: «ثم لِيَقْطَعْ» بكسرِ لام الأمر(١)، والباقون بسكونها على تشبيهِ «ثم» بالواو والفاء؛ لأنَّ الجميعَ عواطف.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنزالِ البديع المنطوي على الحِكَم البالغة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ الكريمَ كلَّه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على معانيها الرائقة، فالمشار إليه الإنزالُ المذكور بعد اسمِ الإشارة، ويجوز أن يكون المرادُ إنزالَ الآياتِ السابقة. وأيًّا ما كان ففيه أنَّ القرآنَ الكريم في جميعِ أبوابه كاملُ البيان لا في أَمْرِ البعث وحدَه.

ونصب «آيات» على الحالِ مِن الضمير المنصوب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝١٦﴾ بتقدير اللام، وهو متعلِّق بمحذوفٍ يقدَّر مؤخَّراً؛ إفادةً للحَصْر الإضافيِّ، أي: ولأنَّ اللهَ تعالى يَهدي به ابتداءً، أو: يثبِّت على الهدى، أو: يزيد فيه مَن يريد هدايتَه أو ثباتَه أو زيادتَه فيها، أنزله كذلك، أو في تأويلِ مصدرٍ مرفوعٍ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: والأمرُ أنَّ اللهَ يهدي . . . إلخ.

وجوِّز أن يكون معطوفاً على محلِّ مفعول «أنزلناه» أي: وأنزلنا أنَّ اللهَ يهدي. . . إلخ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بما ذُكرَ مِن المنزل بهدايةِ الله تعالى أو بكلِّ ما يجب أن

---

(١) التيسير ص١٥٦، والنشر ٢/٣٢٦.

يؤمن به، ويدخُل فيه ما ذُكرَ دخولًا أوَّليًا ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هم على ما أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن قتادة: قومٌ يَعبدونَ الملائكةَ ويُصلُّون إلى القِبْلة، ويقرؤون الزبور[1]. وفي «القاموس»[2]: هم قومٌ يزعمونَ أنَّهم على دينِ نوحٍ عليه السلام وقبْلَتُهم مِن مهبِّ الشَّمالِ عند منتصفِ النهار. وفي كتاب «الملل والنحل»[3] للشهرستاني: أنَّ الصابئةَ كانوا على عهدِ إبراهيم عليه السلام، ويقال لمقابليهم: الحنفاء، وكانوا يقولون: إنَّا نحتاجُ في معرفةِ الله تعالى ومعرفةِ طاعته وأمرِه وأحكامِه جلَّ شأنه إلى متوسِّط روحانيٍّ لا جسمانيٍّ. ومدارُ مذاهبِهم على التعصُّب للروحانيَّات وكانوا يعظِّمونها غايةَ التعظيم ويتقرَّبون إليها، ولمَّا لم يتيسَّر لهم التقرُّب إلى أعيانها والتلقِّي منها بذواتِها، فزعت جماعةٌ إلى هياكلها وهي السبع السيَّارات وبعض الثوابت، فصابئةُ الروم مفزعُها السيَّارات، وصابئةُ الهند مفزعُها الثوابتُ، وربَّما نزلوا عن الهياكلِ إلى الأشخاص التي لا تَسمعُ ولا تُبصِر ولا تغني شيئاً، والفرقةُ الأُولى هم عبدةُ الكواكب، والثانية هم عبدةُ الأصنام. وقد أفحمَ إبراهيمُ عليه السلام كلتا الفرقتَيْن، وألزمهم الحجَّةَ.

وذكر في موضع آخَر أنَّ ظهورَهم كان في أوَّل سنةٍ مِن مُلْكِ طهمورث مِن ملوك الفرس[4].

ولفظُ الصابئة عربيٌّ مِن صَبَأ ـ كمنع وكرم ـ صبئاً وصُبُوءاً: خرج مِن دينٍ إلى آخَر[5].

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ هم على ما روي عن قتادةَ أيضاً: قومٌ يعبدونَ الشمسَ والقمرَ والنِّيرانَ. واقتصر بعضُهم على وصفِهم بعبادة الشمسِ والقمر، وآخَرون على وصفِهم بعبادة النِّيران. وقيل: هم قومٌ اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوحَ. وقيل:

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٤٨٥-٤٨٦، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف (١٠٢٠٦)، وابن أبي حاتم ٤/ ١١٧٦ (٦٦٢٨).
(٢) مادة (صبأ).
(٣) ١/ ٢٣٠-٢٣٣.
(٤) الملل والنحل ١/ ٢٣٦.
(٥) القاموس المحيط (صبأ).

نومٌ أخذوا مِن دينِ النصارى شيئاً ومِن دينِ اليهود شيئاً، وهم قائلونَ بأنَّ للعالَمِ أصلين نورٌ أو ظلمةٌ.

وفي كتاب «الملل والنحل» ما يدلُّ على أنَّهم طوائفُ، وأنَّهم كانوا قَبْلَ اليهودِ والنصارى، وأنَّهم يقولون بالشرائع على خلافِ الصابئة، وأنَّ لهم شبهةَ كتابٍ، وأنَّهم يعظِّمون النارَ، وفيه أنَّ بيوتَ النيرانِ للمجوس كثيرةٌ: فأوَّل بيتٍ بناه أفريدون بيت نارٍ بطُوس، وآخَر بمدينة بُخارى هو بردسون، واتَّخذَ بهمن بيتاً بسجستان يُدعَى كركوا، ولهم بيتُ نارٍ ببُخارى أيضاً يُدعَى قباذان، وبيت نار يُسمَّى كونشه بين فارس وأصفهان بناه كيخسرو، وآخَر بقومش يُسمَّى جرير، وبيت نار كيكدر بناه في مشرقِ الصين، وآخَر بأرجان مِن فارس اتَّخذه أرجان جَدُّ كشتاسف، وكلُّ هذه البيوت كانت قَبْلَ زرادشت، ثم جَدَّدَ زرادشتُ بيتَ نار بنيسا بعد كشتاسف وأَمَرَ كشتاسف أن يطلب النارَ التي كان يعظِّمها جمٌّ، فوجدوها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دارِ أبجرد، والمجوس يعظِّمونها أكثرَ من غيرها، وكيخسرو لمَّا غزا أفراسياب عظَّمها وسَجَدَ لها. ويقال: إنَّ أنوشروان هو الذي نقله إلى كارشان، فتركوا بعضَها هناك؛ وحملوا بعضَها إلى نسا. وفي بلاد الروم على باب قسطنطينيَّة بيت نار اتَّخذه شابورُ بنُ أزدشير، فلم تزل كذلك إلى أيامِ المهدي. وبيت نار باسفيثا على قُربِ مدينة السلام لبُوران بنتِ كسرى. وفي الهند والصين بيوتُ نيران أيضاً. والمجوس إنَّما يعظِّمون النارَ لمعانٍ، منها أنَّها جوهرٌ شريف علويٌّ يظنُّون أنَّ ذلك ينجِّيهم مِن عذاب نارِ يوم القيامة ولم يَدْرُوا أنَّ ذلك السببُ الأعظمُ لعذابِهم[١]. اهـ. وفيه ما لا يَخفَى على مَن راجع التواريخَ.

وفي «القاموس»: مَجوس، كصَبور: رجلٌ صغيرُ الأُذنين وَضَعَ دِيْناً ودعا إليه، معرَّب: ميخ كُوْش[٢].

---

(١) الملل والنحل ١/ ٢٥٤-٢٥٥، وورد فيه: كويسه، بدل: كونشه. وكنكدر، بدل: كيكدر. وكشتاسب، بدل: كشتاسف. وكارثان، بدل: كارشان. وأردشير، بدل: أزدشير. وإستينيا، بدل: إسفيثا. وما ورد بين حاصرتين استدرك منه.

(٢) القاموس (مجس)، وفيه: مِنج، بدل: مِنح. وكذا وردت في تهذيب اللغة ١٠/ ٦٠١، واللسان (مجس).

وفي «الصّحاح» المجوسيَّة: نِحْلَةٌ، والمجوسيُّ نسبةٌ إليها، والجمع: المَجُوس. قال أبو عليٍّ النحويُّ: المجوسُ واليهودُ إنَّما عرِّفا على حدِّ يهوديٍّ ويَهود، ومجوسيٍّ ومَجُوس، فجمع على قياس شعيرة وشعير، ثم عُرِّفَ الجمعُ بالألف واللام، ولولا ذلك لم يجز دخولُ الألفِ واللامِ عليهما؛ لأنَّها مَعْرِفتان مؤنَّثان، فجريا في كلامهم مَجرى القبيلتين، ولم يُجعلا كالحيَّيْنِ في باب الصرف، وأنشد:

أحارِ أُريكَ بَرْقاً هَبَّ وَهْناً ... كنارِ مَجُوسَ يَسْتَعرُ اسْتِعارا[1]

انتهى. وذكر بعضُهم أنَّ مجُوس معرَّبُ: موكوش، وأُطلِقَ على أولئك القوم؛ لأنَّهم كانوا يُرسِلونَ شعورَ رؤوسِهم إلى آذانِهم. ونقل في «البحر»[2] أنَّ الميمَ بدلٌ مِن النون، وأطلق ذلك عليهم؛ لاستعمالهم النجاسات، وهو قولٌ لا يعوَّل عليه.

﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ المشهور أنَّهم عبدةُ الأوثان، وقيل: ما يعمُّهم وسائر مَن عَبَدَ مع اللهِ تعالى إلهاً آخر مِن مَلَكٍ وكوكبٍ وغيرِهما ممَّن لم يَشتهر باسمٍ خاصٍّ كالصابئة والمجوس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ في حيِّز الرفع على أنَّه خبرٌ لـ «إنَّ» السابقة، وأدخلت «إنَّ» على كلٍّ واحد مِن جزئي الجملة؛ لزيادة التأكيد، كما في قولِ جرير:

إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ ... سِرْبالَ مُلْكٍ به تُزجَى الخواتِيمُ[3]

---

(١) اللسان (مجس)، وصدر البيت لامرئ القيس مالَطَ فيه التوأمَ اليشكريَّ، فقال اليشكريُّ النصفَ الآخَرَ من البيت. ومعنى مالَطه: قال نصفَ بيتٍ وأتمَّه الآخَرُ، كملَّطه. القاموس (ملط). والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٤٧.

(٢) ٦/ ٣٤٦.

(٣) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢، وورد فيه هكذا:

يكفي الخليفة أن الله سربله ... سربال ملك به تُرجى الخواتيم

والبيت بلفظ المصنف في خزانة الأدب ١٠/ ٣٦٤ إلا أنه ورد فيه: لباس، بدل: سربال، قال البغدادي: وتزجى بالزاي والجيم، والإزجاء: السَّوق. والخواتيم: جمع خاتام لغة في الخاتم. يريد إن سلاطين الآفاق يرسلون إليه خواتمهم خوفاً منه، فيضاف ملكهم إلى ملكيه. ويُروى: ترجى، بالراء المهملة، من الرجاء، وهذه الرواية أكثر من الأولى. اهـ.

وقيل: خبرُ «إنَّ» الأُولى محذوفٌ، أي: مفترقون يومَ القيامة، أو نحو ذلك ممَّا يدلُّ عليه قوله سبحانه: «إنَّ اللهَ يفصلُ بينهم» إلخ فإنَّ قولَك: إنَّ زيداً إنَّ عَمْراً يَضْرِبه، رَدِيءٌ، والبيت لا يتعيَّن فيه حَمْلُ الجملةِ المقترنة بـ «إنَّ» خبراً، بل يجوز أن تكون معترضةً، والخبر جملة: به تُرْجَى الخواتيمُ، ولا يَخفى عليك ـ بعد تسليمِ الرداءة ـ أنَّ الآيةَ ليست كالمثال المذكور؛ لطولِ الفاصل فيها.

قال في «البحر»[1]: وحَسَّنَ دخولَ «إنَّ» في الجملة الواقعة خبراً في الآية طولُ الفصلِ بالمعاطيف. وقال الزجَّاج[2]: زعم قومٌ أنَّ قولَك: إنَّ زيداً إنَّه قائمٌ، رَدِيءٌ، وأنَّ هذه الآيةَ إنَّما صلحت بتقدُّم الموصول، ولا فرقَ بين الموصول وغيرِه في باب «إنَّ»، وليس بين البصريين خلافٌ في أنَّ «إنَّ» تَدخُل على كلِّ مبتدأ وخبرٍ، فعلى هذا لا ينبغي العدولُ عن الوجه المتبادَر.

والمرادُ بالفَصْل القضاءُ، أي: إنَّه تعالى يقضي بين المؤمنين والفِرَقِ الخمسِ المتَّفقة على الكفر؛ بإظهار المُحِقِّ مِن المبطل، وتوفية كلٍّ منهما حقَّه مِن الجزاء بإثابة المؤمنين وعقاب الفِرَقِ الآخَرين بحسَب استحقاقِ أفراد كلٍّ منهما.

وقيل: المراد أنَّه تعالى يَفْصِلُ بين الفِرَقِ السِّتِّ في الأحوال والأماكن جميعاً، فلا يُجازيهم جزاءً واحداً بلا تفاوتٍ، بل يَجزي المؤمنين بما يليقُ بهم[3] واليهودَ بما يليقُ بهم، وهكذا، ولا يَجمعهم في موطنٍ واحد، بل يجعل المؤمنين في الجنَّة، وكلًّا مِن الفِرَق الكافرةِ في طبقة مِن طبقات النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾ تعليلٌ لما قَبْله مِن الفصل، أي: إنَّه تعالى عالِم بكلِّ شيءٍ مِن الأشياء ومراقبٌ لأحواله، ومِن قضيَّته الإحاطةُ بتفاصيل ما صَدَرَ عن كلِّ فردٍ من أفراد الفِرَق المذكورة وإجراءُ جزائه اللائقِ به عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ، بيانٌ لما يُوجِب الفَصْلَ المذكور مِن أعمال الفِرَق مع الإشارة إلى كيفيَّته وكونه

---

(١) ٦/ ٣٥٩.
(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤١٨.
(٣) ليست في (م).

بطريق التعذيبِ والإثابة والإكرامِ والإهانة، وجوّز أن يكون تنويراً؛ لكونه تعالى شهيداً على كلِّ شيء، وقيل: هو تقريعٌ على اختلاف الكفرة واستبعادٌ له، لوجوب الصارفِ، والمرادُ بالرؤية العِلْمُ والخطابُ لكلِّ مَن يتأتّى منه ذلك.

والمراد بالسجود دخولُ الأشياءِ تحت تسخيرِه تعالى وإرادته سبحانه وقابليتِها لما يُحدِثُ فيها عزَّ وجلَّ، وظاهرُ كلامِ الآمديِّ[1] أنَّه معنى حقيقيٌّ للسجود.

وفي «مفردات» الراغب[2]: السجود في الأصل: التطامُنُ[3] والتذلُّل، وجُعلَ ذلك عبارةً عن التذلُّل لله تعالى وعبادتِه، وهو عامٌّ في الإنسان والحيوان والجماد، وذلك ضربان: سجودٌ باختيار يكون للإنسان، وبه يستحقُّ الثوابَ. وسجودٌ بتسخيرٍ يكون للإنسان وغيرِه مِن الحيوانات والنباتات، وخُصَّ في الشريعة بالركن المعروفِ مِن الصلاة وما جَرى مجراه مِن سجودِ التلاوة وسجود الشكر. انتهى.

وذكر بعضُهم أنَّه كما خُصَّ في الشريعة بذلك خُصَّ في عُرف اللغة به. وقال ابنُ كمال: إنَّ حقيقتَه على ما نصَّ عليه في «المجمل»[4]: وَضْعُ الرأسِ. وقال العلَّامة الثاني: حقيقتُه: وَضْعُ الجبهةِ لا الرأسِ، حتى لو وَضَعَ الرأسَ مِن جانب القَفا لم يكن ساجداً. وعلى هذين القولَين ـ على عِلَّاتِهما ـ قيل: السجود هنا مجازٌ عن الدخول تحتَ تسخيرِه تعالى والانقياد لإرادته سبحانه، وجوّز أن يكونَ مجازاً عن دلالةِ لسانِ حال الأشياء ـ بذلَّتها وافتقارِها ـ على صانِعها وعظمتِه، جلَّت عظمتُه، ووجه التنوير على هذا ظاهرٌ، وكذا التقريعُ على الاختلاف.

و«من» إمَّا خاصَّة بالعقلاء، وإمَّا عامَّة لهم ولغيرهم بطريق التغليبِ، وهو الأَولى؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام؛ لإفادته شمولَ الحكم لكلِّ ما فيهما بطريقِ القرار فيهما أو بطريقِ الجزئيَّة منهما، ويكون قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفراداً لها بالذِّكر؛ لشهرتها، واستبعادُ ذلك منها بحسَب الظاهر في باديءِ النظر القاصر كما قيل، أو لأنَّها قد

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٢٩٨.
(٢) مادة: (سجد).
(٣) التطامن: السكون أو الانخفاض. المعجم الوسيط (طمن).
(٤) لعلَّه يريد: مجمل اللغة لابن فارس، والكلام فيه ٢/ ٤٨٦ (سجد) بنحوه.

عُبدَت مِن دونِ الله تعالى إمَّا باعتبار شخصِها أو جنسِها؛ فالشمسُ عَبَدَتْها حِمْيَر، والقمرُ عَبَدَتْه كنانةُ، وعَبَدَ الدَّبَرانِ ـ مِن النجوم ـ تميم، والشِّعْرى لَخْم وقريش، والثريَّا طَيِّئ، وعطارد أَسْد، والمِرْزَم[١] ربيعة، وعَبَدَ أكثرُ العربِ الأصنامَ المنحوتة مِن الجبال، وعَبَدَتْ غطفان العُزَّى وهي سَمُرةٌ، واحدة السَّمُر: شجرٌ معروفٌ، ومِن الناس مَن عَبَدَ البقرَ.

وقرأ الزهريُّ، وابنُ وثَّاب: «الدَّوَابُ» بتخفيفِ الباء[٢]. وخصَّ ابنُ جنِّي في «المحتسب»[٣] هذه القراءةَ بالزهريِّ، وقال: لا أعلم من خفَّفها سواه، وهو قليلٌ ضعيفٌ قياساً وسماعاً؛ لأنَّ التقاءَ الساكنين على حدِّه، وعذرُه كراهةُ التضعيف، ولذا قالوا في: ظَلِلْت: ظَلْت، وقالوا: جَان، بالتخفيف، وذكر له نظائر كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ قيل: مرفوعٌ بفعل مضمَر يدلُّ عليه المذكور، أي: ويسجدُ له كثيرٌ من الناسِ سجودَ الطاعةِ المعروف.

واعتُرض بأنَّه صرَّح في «المغني»[٤] بأنَّ شرطَ الدليل اللفظي على المحذوفِ أن يكون طِبْقَه لفظاً ومعنًى، أو معنًى لا لفظاً فقط، فلا يجوز: زيدٌ ضاربٌ وعمرٌو، على أنَّ خبرَ عمرو محذوفٌ، وهو ضارب من الضَّرْب في الأرض، أي: مسافرٌ، والمذكور بمعناه المعروف. وأجاب الخفاجيُّ[٥] بأنَّ ما ذكر غيرُ مسلَّم؛ لما ذكره النحاةُ مِن أنَّ المقدَّر قد يكون لازماً للمذكور نحو: زيداً ضربتُ غلامَه، أي: أهنتُ زيداً، ولا يكون مُشتركاً كالمثال المذكور، إلا أن يكون بينهما ملاءَمةٌ فيصحُّ إذا اتَّحَدا لفظاً، وكان مِن المشترك، وبينهما ملازمةٌ تدلُّ على المقدَّر، ولذا لم يصحَّ المثالُ المذكور. انتهى.

وعَطَفه بعضُهم على المذكوراتِ قَبْلَه وجعلَ السجودَ بالنسبة إليه بمعنى السجودِ المعروف، وفيما تقدَّم بمعنى الدخول تحتِ التسخير، أو الدلالة على عَظَمةِ الصانع

(١) المِرْزمان: نجمان مع الشِّعْرَيَيْن. القاموس (رزم).
(٢) المحتسب ٢/ ٧٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٩.
(٣) ٢/ ٧٦.
(٤) مغني اللبيب ص٧٩٠.
(٥) حاشية الشهاب ٦/ ٢٨٨.

جلَّ شأنه، واستدلَّ بذلك على جوازِ استعمال المشتَرك في معنيَيْه، أو استعمالِ اللفظ في حقيقته ومجازِه، والجواب ما علمتَ، ولا يجوز العطفُ وجعلُ السجودِ في الجميعِ بمعنى الدخول تحتَ التسخير أو الدلالةِ على العظمة؛ لأنَّ ذلك عامٌّ لجميع الناس، فلا يليقُ حينئذٍ ذِكْر «كثير»، وغيرُ العامِّ إنَّما هو السجودُ بالمعنى المعروف فيفيدُ ذِكْرَ «كثير» إذا أُريد أنَّ منهم مَن لم يتَّصف بذلك، وهو كذلك.

وما قيل: إنَّه يجوز أن يكون تخصيصُ الكثيرِ على إرادة السجود العامِّ؛ للدلالةِ على شَرَفهم والتنويه بهم، ليس بشيء، إذ كيف يتأتَّى التنويهُ وقد قُرِنَ بهم غيرُ العقلاءِ كالدوابِّ.

وقال ابنُ كمال: تمسُّك مَن جوَّز حَمْلَ المشتركِ في استعمال واحدٍ على أكثر مِن معنًى بقوله تعالى: «أَلَم تَرَ أنَّ اللهَ يَسجُد له مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ» الآية، بناء على أنَّ المرادَ بالسجود المنسوبِ إلى غير العقلاء الانقيادُ؛ لتعذُّر السجودِ المعهود في حقِّه، ومِن المنسوب إليهم ما هو المعهود دونَ الانقياد؛ لأنَّه شاملٌ للكلِّ غيرُ مخصوص بالكثير، ولا متمسَّكَ لهم في ذلك؛ لأنَّ كلًّا مِن التعليلين في مَعرِض المنع، أمَّا الأوَّل؛ فلأنَّ حقيقةَ السجود وَضْعُ الرأس، لا تعذُّر في نسبته إلى غيرِ العقلاء، ولا حاجةَ إلى إثبات حقيقة الرأس في الكلِّ؛ لأنَّ التغليبَ سائغٌ شائع. وأمَّا الثاني؛ فلأنَّ الكفار ـ لا سيمَّا المتكبِّرين منهم ـ لا حظَّ لهم مِن الانقياد، لأنَّ المرادَ منه الإطاعةُ بما ورد في حقِّه مِن الأمر ـ تكليفيًّا كان أو تكوينيًّا ـ على وجهٍ وَرَدَ به الأمرُ، وتقدير فِعْلٍ آخَر في هذا المقام مِن ضِيْق العَطَن كما لا يخفى على أرباب الفطن. انتهى.

وفيه القولُ بجواز العطفِ على كلا معنيي[1] السجودِ وَضْعِ الرأسِ والانقيادِ، وبيان فائدةِ تخصيص الكثير على الثاني، ولا يَخفى أن المتبادرَ مِن معتبرات كتب اللغة أنَّ السجودَ حقيقةٌ لغويَّةٌ في الخضوع مطلقاً، وأنَّ ما ذكره مِن حديث التغليب خلافُ الظاهر، وكذا حَمْلُ الانقيادِ على ما ذكره، وقد أخذ ـ رحمه الله تعالى ـ كلا المعنيين مِن «التوضيح»، وقد أسقط ممَّا فيه ما عنه غنًى، وما زعم أنَّه

---

(١) في (م): معنى.

مِن ضيْق العَطَن هو الذي ذهب إليه أكثرُ القوم، وعليه يكون «من الناس» صفة «كثير»، وأوردَ أنَّه حينئذٍ يَرِدُ أنَّ سجودَ الطاعةِ المعروفَ لا يختصُّ بكثيرٍ مِن الناس، فإنَّ كثيراً مِن الجنِّ متَّصف به أيضاً، وكونهم غيرَ مكلَّفين خلافُ القول الأصحِّ. نعم يمكن أن يقال: إنَّهم لم يكونوا مأمورينَ بالسجود عندِ نزول الآية، وعلى مدَّعيه البيانُ، والقولُ بأنَّه يجوز أن يُرادَ بالناس ما يعمُّ الجنَّ، فإنَّه يُطلَق عليه حسَب إطلاق النَّفَر والرجالِ عليهم، ليس بشيء.

ومِن الناس من أجابَ عن ذلك بأنَّ «يسجد» المقدَّر داخلٌ في الرؤية، وقد قالوا: المرادُ بها العِلْمُ والتعبيرُ بها عنه؛ للإشعار بظهور المعلوم، وظهور السجودِ بمعنى الدخولِ تحتَ التسخير في الأشياء المنسوب هو إليها ممَّا لا سترةَ عليه، وكذا ظهورُه بمعنى السجودِ المعروفِ في كثير من الناس، وأمَّا في الجنِّ فليس كذلك، فلذا وصف الكثير بكونه مِن الناس.

وتعقِّب بأنَّ الخطابَ في «ألم تَرَ» لمن يتأتَّى منه ذلك، ولا سترةَ في ظهور أمرِ السجود مطلقاً بالنسبة إليه.

وردَّ بأنَّ مرادَ المجيب أنَّ سجودَ الجنِّ ليس بظاهر في نفسِ الأمر، ومع قَطْع النظر عن المخاطب ـ كائناً مَن كان ـ ظهورُ دخولِ الأشياء المذكورة أوَّلًا تحت التسخيرِ بخلاف سجودِ كثير مِن الناس، فإنَّه ظاهرٌ ظهورَ ذلك في نفس الأمرِ، فخصَّ الكثير بكونه مِن الناس؛ ليكونَ الداخلُ في حيِّز الرؤية مِن صُقْعٍ واحد مِن الظهور في نفسِ الأمر.

وقيل: المقام يقتضي تكثيرَ الرائين لما يذكر في حيِّز الرؤية، والتخصيصُ أوفقُ بذلك، فلذا خصَّ الكثير بكونهم مِن الناس، والكلُّ كما ترى، والأولى أن يقال: تخصيصُ الكثير مِن الناس بنسبة السجودِ بالمعنى المعروف إليهم على القولِ بأنَّ كثيراً من الجنِّ كذلك؛ للتنويه بهم، ولا يردُ عليه ما مرَّ؛ لأنَّه لم يقرنْ بهم في هذا السجود غيرَ العقلاء، فتأمَّل.

وقيل: إنَّ «كثير» مرفوعٌ على الابتداءِ، حُذِفَ خبرُه؛ ثقةً بدلالة خبرِ قسيمه عليه، نحو: حُقَّ له الثوابُ، ويفيد الكلامُ كثرة الفريقين، والأوَّل أَولى؛ لما فيه مِن الترغيب في السجود والطاعةِ للحقِّ المعبود.

وجوّز أن يكون «كثير» مبتدأً، و«من الناس» خبرَه، والتعريف فيه للحقيقة والجنسِ، أي: وكثيرٌ مِن الناس الذين هم الناسُ على الحقيقة، وهم الصالحون المتّقون.

وقال الراغبُ: قد يُذكَر الناسُ ويُراد به الفضلاءُ دونَ مَن يتناوله اسمُ الناس تجوُّزاً، وذلك إذا اعتُبر معنى الإنسانيَّة، وهو وجودُ العقل والذِّكْر وسائرِ القوى المختصَّة به، فإنَّ كلَّ شيءٍ عُدمَ فِعْلُه المختصُّ به لا يكادُ يستحقُّ اسمَه. والمخصِّص للمبتدأ النكرة أنَّه صفةُ محذوفٍ بالحقيقة على أنَّ المعادلة مِن المخصّصات إذا قلت: رجالٌ مكرمون، ورجالٌ مهانون، لأنَّه تفصيل مُجمَل، فهو موصوف تقديراً، ولأنَّ كلًّا مِن المقابلين موصوفٌ بمغايرة الآخَرِ، فهذا داخلٌ في الوصف المعنويِّ.

وأن يكون «كثير» مبتدأ، و«من الناسِ» صفتَه، وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوف عليه، وقولُه سبحانه: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ثبت وتقرَّر، خبرٌ، ويكون الكلامُ على حدِّ قولك: عندي ألفٌ وألفٌ، أي: ألوف كثيرة، ومثله شائعٌ في كلامهم فيفيدُ كثرةَ مَن حقَّ عليه العذابُ مِن الناس، وهذان الوجهان بعيدان، وقال في «البحر»[1]: ضعيفان.

والظاهر أنَّ «كثير» الثاني مبتدأٌ، والجملة بعدَه خبرُه، وقد أُقيمت مقامَ: لا يسجد، فكأنَّه قيل: ويسجد كثيرٌ مِن الناسِ ولا يسجد كثيرٌ منهم، ولا يَخفى ما في تلك الإقامة مِن الترهيب عن تَرْكِ السجود والطاعة، ولا يَخفى ما في عدمِ التصريح بتقييد الكثير بكونه مِن الناس مما يقوِّي دعوى أنَّ التقييدَ فيما تقدَّم للتنويه، وحَمْلُ عدمِ التقييد ليعمَّ الكثيرَ مِن الجنِّ خلافُ الظاهرِ جدًّا.

وجوّز أن يكون معطوفاً على «مَن» والسجود بأحدِ المعنيينِ السابقين، وجملةُ «حقَّ» إلخ، صفته، ويقدَّر وصفٌ لـ «كثير» الأوّل بقرينة مقابله، أي: حقَّ له الثوابُ، و«من الناس» صفةٌ له أيضاً، ولا يَخفى ما فيه.

---

(١) البحرالمحيط ٦/ ٣٥٩.

وقرئ: «حُقَّ» بضمِّ الحاءِ[١]، و«حقًّا»[٢] أي: حُقَّ عليه العذابُ حقًّا، فهو مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملة.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأَنْ كَتَبَ اللهُ تعالى عليه الشقاءَ حسبما استعدَّت له ذاتُه مِن الشَّرِّ، و«مَن» مفعول مقدَّر لـ «يُهِن» ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يُكرِمه بالسعادة.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «مُكرَم» بفتح الراء[٣]، على أنَّه مصدر ميميٌّ، كما في «القاموس»[٤]، أي: ممَّا له إكرام، وقيل: اسمُ مفعول بمعنى المصدر، ولا حاجةَ إلى التزامه، وقيل: يجوز أن يكون باقياً على ما هو الشائع في هذه الصيغة مِن كونه اسمَ مفعول، والمعنى: ما له مَن يُكرم ويَشفَعُ فيه ليخلصَ مِن الإهانة. ولا يخفى بُعْدُه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإكرامُ والإهانة، وهذا أَولى مِن تخصيص «ما» بقرينة السياقِ بهما.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ تعيينٌ لطرفَي الخصام وتحريرٌ لمحلِّه، فالمراد بـ «هذان» فريقُ المؤمنين، وفريقُ الكفرة المنقسم إلى الفِرَق الخمس. وروي عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وعطاءِ بن أبي رباح، والحسن، وعاصم، والكلبيِّ ما يؤيِّد ذلك، وبه يتعيَّن كونُ الفصلِ السابق بين المؤمنين ومجموعِ مَن عُطفَ عليهم، ولمَّا كَان كلُّ خصم فريقاً يَجمعُ طائفةً، جاء: «اختصموا» بصيغةِ الجمع.

وقرأ ابن أبي عبلة: «اختصما»[٥]؛ مراعاةً للفظ: «خصمان»، وهو تثنيةُ: خَصْم، وذكروا أنَّه في الأصل مصدرٌ يستوي فيه الواحدُ المذكَّر وغيرُه، قال أبو البقاء[٦]: وأكثرُ الاستعمال توحيدُه، فمن ثنَّاه وجمعَه حَمَلَه على الصفاتِ والأسماء.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٩، والكشاف ٣/ ٩.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٩.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٩.
(٤) مادة (كرم).
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٦٠.
(٦) الإملاء ٤/ ٣٢.

وعن الكسائيِّ أنَّه قرأ: «خِصْمان» بكسر الخاء[١]، ومعنى اختصامهم في ربِّهم اختصامُهم في شأنه عزَّ شأنه، وقيل: في دِيْنه، وقيل: في ذاته وصفاتِه، والكلُّ مِن شؤونه تعالى، واعتقادُ كلٍّ مِن الفريقين حقيَّةَ ما هو عليه وبطلانَ ما عليه صاحبُه، وبناء أقوالِه وأفعالِه عليه يكفي في تحقُّق خصومتِه للفريق الآخَر ولا يتوقَّف عن التحاور.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ مردويه، عن ابنِ عبَّاس أنَّه قال: تخاصمتِ المؤمنون واليهودُ، فقالت اليهودُ: نحنُ أَولى بالله تعالى وأَقدمُ منكم كتاباً ونَبيُّنا قبل نبيِّكم. وقال المؤمنونَ: نحنُ أحقُّ بالله تعالى آمنَّا بمحمَّد ﷺ وآمنَّا بنبيِّكم وبما أنزل الله تعالى مِن كتاب، وأنتم تعرفونَ كتابَنا ونبيَّنا، ثم تركتُموه وكفرتُم به حسداً، فنزلت[٢].

وأخرج جماعة عن قتادةَ نحوَ ذلك[٣].

واعتُرض بأنَّ الخصامَ على هذا ليس في الله تعالى بل في أيِّهما أقرب منه عزَّ شأنُه؟ وأجيب بأنَّه يستلزم ذلك، وهو كما ترى. وقيل عليه أيضاً: إنَّ تخصيصَ اليهود خلافُ مساقِ الكلام في هذا المقام. وفي «الكشف» قالوا: إنَّ هذا لا ينافي ما روي عن ابنِ عبَّاس مِن أنَّ الآيةَ ترجعُ إلى أهلِ الأديان الستَّة في التحقيق؛ لأنَّ العبرةَ بعموم اللفظِ لا بخصوص السبب.

وأخرج البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، والطبرانيُّ، وغيرُهم عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنَّه كان يُقسِم قَسَماً أنَّ هذه الآية: «هذانِ خَصْمان» إلى قوله تعالى: «إنَّ الله يَفْعَلُ ما يُرِيْد» نزلت في الثلاثةِ والثلاثةِ الذين بارزوا يومَ بدر، وهم: حمزةُ بنُ عبدِ المطلب وعُبَيْدةُ بنُ الحارث وعليُّ بنُ أبي طالب، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ والوليدُ بنُ عتبة[٤]. وأنتَ تُعلَم أنَّ هذا الاختصامَ ليس اختصاماً في الله تعالى، بل منشؤه ذلك، فتأمَّل ولا تَغفل.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٠.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٤٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٩١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم [في التفسير ٨/ ٢٤٨٠ (١٣٨١٩)].

(٤) البخاري (٣٩٦٩)، ومسلم (٣٠٣٣)، وابن ماجه (٢٨٣٥)، والطبراني في الكبير (٢٩٥٤)، =

وأمَّا ما قيل مِن أنَّ المرادَ بهذين الخصمين الجنَّةُ والنارُ، فلا ينبغي أن يختلفَ في عدم قَبوله خصمان أو ينتطحَ فيه كبشان.

وفي الكلام ـ كما قال غيرُ واحد ـ تقسيمٌ وجمعٌ وتفريقٌ، فالتقسيمُ: «إن الذينَ آمنوا» إلى قوله تعالى: «والذين أشركوا»، والجمع: «إنَّ اللهَ يَفصِلُ بينهم» إلى قوله تعالى: «هذانِ خصمانِ اختصمُوا في ربِّهم»، والتفريق في قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ إلخ، أي: أعدَّ لهم ذلك، وكأنَّه شبَّه إعدادَ النار المحيطة بهم بتقطيعِ ثيابٍ وتفصيلِها لهم على قَدْرِ جُثَثهم، ففي الكلام استعارةٌ تمثيليَّة تهكميَّة، وليس هناك تقطيعٌ ولا ثيابٌ حقيقةً، وكأنَّ جَمْعَ الثياب؛ للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم، وكون بعضها فوقَ بعض.

وجوّز أن يكون ذلك لمقابلة الجمع بالجمع، والأوَّل أبلغُ، وعبَّر بالماضي؛ لأنَّ الإعداد قد وقعَ، فليس مِن التعبير بالماضي؛ لتحقُّقه كما في: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وأخرج جماعةٌ عن سعيدِ بنِ جبير أنَّ هذه الثيابَ مِن نحاسٍ مذابٍ، وليس شيءٌ حُمِّيَ في النار أشدَّ حرارةً منه(١). فليست الثيابُ مِن نفس النار، بل مِن شيء يُشْبِهها، وتكون هذه الثياب كسوةً لهم، وما أقبحها كسوةً. ولذا قال وهب: يُكسَى أهلُ النار، والعُرِيُّ خيرٌ لهم.

وقرأ الزعفرانيُّ في اختياره: «قُطِعَتْ» بالتخفيف(٢)، والتشديدُ أبلغ.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ أي: الماءُ الحارُّ الذي انتهت حرارتُه، وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما: لو سقط مِن الحميم نقطةٌ على جبالِ الدنيا لأذابَتْها. وفسَّره ابنُ جبير بالنحاس المذاب، والمشهور التفسيرُ السابق، ولعلَّه إنَّما جِيْءَ بـ «من» ليُؤذِن بشدَّة الوقوع، والجملة مستأنفةٌ، أو خبرٌ ثانٍ للموصول، أو في موضع الحال

= ولم نقف عليه عند الترمذي، وعزاه إليه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٨، فلعلَّ المصنِّف نقله عنه.

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٤٩٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٨١ (١٣٨٢٠).

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٠، والكشاف ٣/ ٩.

المقدَّرة مِن ضميرِ «لهم». ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يُذاب ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ مِن الأمعاء والأحشاء.

وأخرج عبدُ بنُ حميد، والترمذيُّ وصحَّحه، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في «زوائد الزهد»، وجماعةٌ، عن أبي هريرة أنَّه تلا هذه الآيةَ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الحميمَ ليُصَبُّ على رؤوسهم فينفذُ الجُمْجُمَةَ حتى يَخْلُصَ إلى جوفِه، فيَسْلُتُ ما في جوفه حتى يمرقَ إلى قدمَيْه وهو الصهرُ، ثم يعاد كما كان»[1].

وقرأ الحسنُ وفرقةٌ: «يُصَهَّر» بفتح الصاد وتشديد الهاء[2].

والظاهر أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَالْجُلُودُ ۝٢٠﴾ عطف على «ما»، وتأخيرُه عنه، قيل: إمَّا لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدَّة الحرارة، بإيهام أنَّ تأثيرَها في الباطن أقدمُ مِن تأثيرِها في الظاهر، مع أنَّ ملابستها على العكس، وقيل: إنَّ التأثيرَ في الظاهر غنيٌّ عن البيان، وإنَّما ذكر؛ للإشارة إلى تساويهما، ولذا قُدِّمَ الباطنُ؛ لأنَّه المقصودُ الأهمُّ، وقيل: التقدير: ويَحرق الجلودَ؛ لأنَّ الجلودَ لا تُذاب وإنَّما تجتمع على النار وتَنكمِشُ. وفي «البحر»[3] أنَّ هذا مِن باب:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارِدا[4]

وقال بعضُهم: لا حاجةَ إلى التزامِ ذلك، فإنَّ أحوالَ تلك النشأة أمرٌ آخَر، وقيل: «يُصهَر» بمعنى يَنضَجُ، وأنشد:

تَصْهَرُه الشمسُ ولا يَنْصَهِر[5]

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٤٩، والترمذي (٢٥٨٢)، وأحمد (٨٨٦٤)، والزهد لابن المبارك (٣١٣ زوائد نعيم)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٨٧، وحلية الأولياء ٨/ ١٨٢.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٠.

(٣) ٦/ ٣٦٠.

(٤) سلف ٥/ ٢٩١.

(٥) عجزُ بيتٍ لابن أحمر يصف فرخَ قطاة، وصدره:

تَروي لَقًى أُلقِيَ في صَفْصَفٍ

والبيت في الأضداد للأنباري ص١٦٥، واللَّقَى: الشيء الملقى الذي لا يلتفتُ إليه، فشبّه الفرخ به. ومعنى تروي: تسقي.

وحينئذٍ لا كلامَ في نسبته إلى الجلود، والجملة حال مِن «الحميم» أو مستأنفة.
﴿وَلَهُم﴾ أي: للكفرة، وكونُ الضميرِ للزبانية بعيدٌ، واللامُ للاستحقاقِ أو للفائدة؛ تهكُّماً بهم، وقيل: للأَجَل، والكلامُ على حذفِ مضاف، أي: لتعذيبِهم، وقيل: بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [غافر: ٥٢] أي: وعليهم.

﴿مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ جمعُ: مِقْمَعَة، وحقيقتها ما يُقمَع به، أي: يكفُّ بعنفٍ. وفي «مجمع البيان»(١): هي مِدَقَّةُ الرأسِ، مِن قَمَعَه قَمْعاً: إذا ردَعَه، وفسَّرها الضحَّاك وجماعةٌ بالمطارق، وبعضُهم بالسياط. وفي الحديث: «لو وُضِعَ مِقْمَعٌ منها في الأرض ثم اجتمعَ عليه الثقلان ما أقلُّوه مِن الأرض»(٢).

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي: أشرفوا على الخروج مِن النار ودَنَوا منه حسبما يُروى أنَّها تضربُهم بلهبها فترفعهم، فإذا كانوا في أَعلاها ضُرِبوا بالمقامعِ، فهَوَوْا فيها سبعينَ خريفاً، فالإرادة مجازٌ عن الإشراف والقُرْب كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] وجعل بعضُهم ضميرَ «منها» للثياب، وهو ركيكٌ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدلُ اشتمال مِن ضمير «منها» بإعادة الجارِّ، والرابط محذوف، والتنكير للتفخيم، والمراد مِن غمٍّ عظيم مِن غمومها، أو مفعولٌ له للخروج، أي: كلما أرادوا الخروجَ منها لأجل غمٍّ عظيم يلحقهم مِن عذابها.

والغمُّ أخو الهمِّ وهو معروف، وقال بعضُهم: هو هنا مصدر غَمَمتُ الشيءَ، أي: غطَّيتُه، أي: كلَّما أرادوا أن يخرجوا مِن تغطية العذابِ لهم أو ممَّا يغطِّيهم مِن العذاب ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: في قَعْرِها، بأن رُدُّوا مِن أعاليها إلى أسافلها مِن غير أن يخرجوا منها، إذ لاخروجَ لهم كما هو المشهور من حالهم، واستدلَّ له بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وفي اختيار «فيها» دون إليها؛ إشعارٌ بذلك، وقيل: الإعادة مجازٌ عن الإبقاء، وقيل: التقدير: كلَّما أرادوا أن يخرجوا

---

(١) ١٧/ ٩١.
(٢) أخرجه أحمد (١١٢٣٣)، وأبو يعلى (١٣٨٨)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٦٠٠، والبيهقي في البعث والنشور (٥٩٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٨ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه ضعفاء وثقوا. اهـ. ومعنى ما أقلُّوه: أي: ما رفعوه.

منها، فخرجوا، أعيدوا فيها، فالإعادة معلَّقة على الخروج، وحذف؛ للإشعار بسرعة تعلّق الإرادة بالإعادة، ويجوز أن يحصلَ لهم، والمراد مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧] نفيُ الاستمرارِ، أي: لا يستمرُّون على الخروج، لا استمرارُ النفي، وكثيراً ما يعدَّى العَوْدُ بـ «في» لمجرَّد الدلالة على التمكُّن والاستقرار.

وقال بعضُهم: إنَّ الخروجَ ليس من النار، وإنَّما هو من الأماكن المعدَّة لتعذيبهم فيها، والمعنى: كلَّما أراد أحدُهم أن يخرجَ مِن مكانه المعدِّ له في النار إلى مكانٍ آخر منها، فخرج منه، أُعيد فيه، وهو كما ترى، وهذه الإعادةُ على ما قيل بضَرْبِ الزبانية إيَّاهم بالمقامع، وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟﴾ على تقديرِ قولٍ معطوفٍ على «أعيدوا» أي: وقيل لهم: ذُوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ قد مرَّ الكلامُ فيه، والأمرُ؛ للإهانة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيانٌ لحسن حالِ المؤمنين إثْرَ بيانِ سوءِ حالِ الكفرة، وغير الأسلوب فيه بإسناد الإدخالِ إلى الاسمِ الجامع وتصديرِ الجملة بحرف التحقيق وفصلها للاستئنافِ؛ إيذاناً بكمال مباينة حالِهم لحال الكفرةِ، وإظهاراً لمزيدِ العناية بأمرِ المؤمنين، ودلالة على تحقيق مضمونِ الكلام.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ بالبناء للمفعول والتشديد، مِن التحلية بالحَلْي، أي: تُحلِّيهم الملائكةُ عليهم السلام بأمره تعالى، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قيل: متعلِّق بـ «يحلون»، و«من» ابتدائيَّة، والفعل متعدٍّ لواحد وهو النائبُ عن الفاعل، وقيل: متعلِّق بمحذوف وقعَ صفةً لمفعول محذوف، و«مِن» للبيان، والفعل متعدٍّ لاثنين أحدُهما النائبُ عن الفاعل والآخَرُ الموصوف المحذوف، أي: يُحلَّون حَلْياً أو شيئاً مِن أساور، وعلى القول بتعدِّي هذا الفعل لاثنين جوَّز أن تكون «مِن» للتبعيض واقعة موقعَ المفعول، وأن تكون زائدةً على مذهب الأخفش مِن جواز زيادتها في الإيجاب، و«أساورَ» مفعول «يُحلَّون».

وقوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ صفة لـ «أساور»، و«مِن» للبيان، وقيل: لابتداء الغاية، أي: أُنشِئت مِن ذهبٍ، وقيل: للتبعيض، وتعلُّقه بـ «يحلَّون» لا يَخفى حاله.

وقرئَ: «يُحْلَونَ» بضمِّ الياء والتخفيف[(١)]، وهو على ما في «البحر»[(٢)] بمعنى المشدَّد، ويُشعِر كلامُ بعضٍ أنَّه متعدٍّ لواحد، وهو النائب عن الفاعل، فـ «من أساور» متعلِّق به، و«مِن» ابتدائيَّة.

وقرأ ابنُ عبَّاس: «يَحْلَون» بفتح الياء واللام وسكون الحاء[(٣)]، من حَلِيَتِ المرأةُ: إذا لَبسَتْ حَلْيها. وقال أبو حيَّان[(٤)]: إذا صارت ذاتَ حَلْي، وقال أبو الفضل الرازيُّ: يجوز أن يكون مِن حَلِيَ بعيني يَحْلَى، إذا استحسنتَه، وهو في الأصل من الحلاوة، وتكون «مِن» حينئذٍ زائدة، والمعنى: يستحسنون فيها الأساورة، وقيل: هذا الفعل لازمٌ، و«مِن» سببيَّة، والمعنى: يَحْلَى بعضُهم بعينِ بعضٍ، بسببِ لباسِ أساور الذهب.

وجوَّز أبو الفضلِ أن يكون مِن حَلِيْتُ به، إذا ظفرتَ به، ومنه قولهم: لم يَحْلَ فلانٌ بطائلٍ، و«مِن» حينئذٍ بمعنى الباء، أي: يظفرون فيها بأساورَ مِن ذهب.

وقرأ ابنُ عباس: «مِن أَسْوِرَ» بفتح الراء مِن غير ألفٍ ولاهاءٍ[(٥)]، وكان قياسه أن يُصرَف؛ لأنَّه نَقَصَ بناؤه فصار كجَنَدِل، لكنَّه قدّر المحذوف موجوداً فمنع الصَّرْف، وقد تقدَّم الكلامُ على نظيرِ هذه الجملة في الكهف[(٦)]، فتذكَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محلِّ «من أساور»، أو على الموصوف المحذوف، وحَمَلَه أبو الفتح[(٧)] على إضمار فعلٍ، أي: ويُؤتَون لؤلؤاً، أو نحوَ ذلك.

وقرأ أكثرُ السبعة، والحسن في رواية، وطلحةُ، وابنُ وثَّاب، والأعمشُ، وأهل

---

(١) الإملاء ٤/ ٣٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٠.
(٢) ٦/ ٣٦٠.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٤-٩٥، والمحتسب ٢/ ٧٧.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٦٠-٣٦١.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٦١.
(٦) عند قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الآية: ٣١].
(٧) ابن جني في المحتسب ٢/ ٧٨.

مكَّة: «ولؤلؤٍ» بالخفض[١] عطفاً على «أساور» أو على «ذهب»؛ لأنَّ السوارَ قد يكون من ذهبٍ مرصَّع بلؤلؤ، وقد يكون مِن لؤلؤ فقط، كما رأيناه ويُسمَّى في ديارنا: خصراً، وأكثر ما يكون مِن المَرْجان.

واختلفوا هل في الإمام ألفٌ بعد الواو، فقال الجحدريُّ: نعم، وقال الأصمعيُّ: لا، وروى يحيى عن أبي بكرٍ همزَ الآخِر وقلبَ الهمزة الأولى واواً، وروى المعلَّى بنُ منصور عنه ضدَّ ذلك.

وقرأ الفياض: «لُوْلِيَا»[٢] قلب الهمزتينِ واوين، فصارت الثانيةُ واواً قبلها ضمَّة، وحيث لم يكن في كلامهم اسمٌ متمكِّن آخره واو قبلها ضمَّة، قلب الواو ياء والضمة قبلها كسرة.

وقرأ ابنُ عباس: «ولِيْلِيا»[٣] بقلب الهمزتين واوين ثم قلبهما ياءين، أمَّا قلبُ الثانية؛ فلما علمتَ، وأمَّا قلب الأولى؛ فللإتباع.

وقرأ طلحةُ: «ولُولٍ»[٤] كـ: أدْلٍ في جمع دلوٍ، قلبت الهمزتان واوين، ثم قلبت ضمَّة اللام كسرة والواو ياء، ثم أعلَّ إعلالَ قاضٍ.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ غيّر الأسلوب، حيث لم يقل: ويلبسون فيها حريراً؛ للإيذان بأنَّ ثبوتَ اللباس لهم أمرٌ محقَّق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنَّما المحتاجُ إلى البيان أنَّ لباسَهم ماذا؟ بخلاف التحلية، فإنَّها ليست مِن لوازمهم الضروريَّة، فلذا جعلَ بيانها مقصوداً بالذات. ولعلَّ هذا هو السِّرُّ في تقديم بيان التحلية على بيانِ حال اللباس، قاله العلَّامة شيخُ الإسلام[٥]، ولم يرتضِ ما قيل: إنَّ التغييرَ؛ للدلالة على أنَّ الحريرَ لباسُهم المعتاد، أو لمجرَّد المحافظة على هيئة الفواصل، وظاهرُ كلامهم أنَّ الجملةَ معطوفةٌ على السابقة، وجوّز أن تكون في موضع الحالِ مِن ضمير «يُحلَّون»، ثم إنَّ الظاهرَ أنَّ هذا الحكمَ عامٌّ في كلِّ أهل

---

(١) التيسير ص١٥٦، والنشر ٢/ ٣٢٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.

(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ١٠٢.

الجنة، وقيل: هو باعتبار الأغلب؛ لما أخرج النسائيُّ، وابنُ حبَّان، وغيرُهما عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن لبسَ الحريرَ في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنَّة لَبِسَهُ أهلُ الجنَّة ولم يَلبَسْه»[١]، وحديث عدمِ لبْسِ ذلك له في الآخرة مذكورٌ في الصحيحين عن ابنِ عمر رضي الله عنهما مرفوعاً[٢].

والظاهرُ أنَّ حرمةَ استعمالِ الحرير للرجال في غيرِ ما استُثنيَ مُجمَعٌ عليها، وأنَّه يكفر مَن استحلَّ ذلك غيرَ متأوِّل، ولعلَّ خبرَ البيهقي في «سننه» وغيره عن ابنِ الزبير رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَن لبسَ الحريرَ في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة ولم يَدخُلِ الجنَّة»[٣] إن صحَّ محمولٌ على ما إذا كان اللُّبسُ محرَّماً بالإجماع، وقد استحلَّه فاعلُه مِن غير تأوُّل، أو على أنَّ المراد لم يَدخلِ الجنَّةَ مع السابقين، وإلا فعدمُ دخولِ اللابس مطلقاً الجنَّة مُشكِل.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤] كما روي عن ابنِ عبَّاس، وقيل: ما يعمُّه وسائر ما يقع في محاورةِ أهل الجنَّة بعضاً لبعض، وقيل: إنَّ هذه الهدايةَ في الدنيا فالطيِّب قولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وفي رواية عن ابنِ عباس ذلك مع زيادةِ: والحمدُ للهِ، وزاد ابنُ زيدٍ: واللهُ أكبرُ، وعن السُّدِّيِّ: هو القرآن، وحكى الماورديُّ[٤]: هو الأمرُ

---

(١) النسائي في الكبرى (٩٥٣٨)، وابن حبان (٥٤٣٧)، وهو عند أحمد (١١١٧٩) دون قوله: «وإن دخل الجنة....»، وذكر الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٨٩ أن قوله ﷺ: «وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» يحتمل أن يكون مُدْرجاً.

(٢) البخاري (٨٨٦)، ومسلم (٢٠٦٨) عن ابن عمر: أنَّ عمر بن الخطاب رأى حُلَّةً سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريتَ هذه فلبستها للناس يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما يلبس هذه من لا خلاقَ له في الآخرة».... الحديث. والحلة السيراء: بُرُود يخالطها حرير، وهي مضلعة بالحرير.
والحديث ورد أيضاً في الصحيحين عن غير واحد من الصحابة.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٢٢، ولم يرد فيه قوله ﷺ: «ولم يدخل الجنة» بل هو من قول ابن الزبير نفسِه، وقد ذُكرَ بعد رواية الحديث هكذا: قال عبد الله بن الزبير من قِبَلِ نفسه: ومن لم يلبسه في الآخرة، لم يدخل الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. اهـ. وأصل الحديث عند البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (٢٠٦٩) (١١) دون قوله ﷺ: «ولم يدخل الجنَّة».

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٥.

بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، وقيل: ما يعمُّ ذلك وسائر الأذكار.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤﴾ أي: المحمود جدًّا، وإضافة «صراط» إليه، قيل: بيانيَّة، والمراد به الإسلام، فإنَّه صراطٌ محمودٌ مَن يسلكه، أو محمودٌ هو نفسُه أو عاقبتُه، وقيل: الجنَّة، وإطلاقُ الصراطِ عليها باعتبار أنَّها طريق للفوز بما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر. وقيل: «الحميد» هو الجنَّة، والإضافةُ على ظاهرها، والمراد بصراطِها الإسلامُ أو الطريقُ المحسوس الموصل إليها يومَ القيامة، واستظهر أنَّ المرادَ مِن الحميد: هو اللهُ عزَّ وجلَّ المستحقُّ لذاتِه لغايةِ الحمد. والمراد بصراطِه تعالى الإسلامُ، فإنَّه طريقٌ إلى رضوانه تعالى. وقيل: الجنَّة، فإنَّها طريقٌ للفوز بما تقدَّم، وأضيفت إليه تعالى؛ للتشريف.

وحاصل ما قالوه هنا أنَّ الهدايةَ تحتمل أن تكون في الآخرة، وأن تكون في الدنيا، وأنَّ المرادَ بالحميد إمَّا الحقُّ تعالى شأنه، وإمَّا الجنَّة، وإمَّا الصراطُ نفسُه، وبالصراط إمَّا الإسلام، وإمَّا الجنَّةُ، وإمَّا الطريقُ المحسوس الموصل إليها يومَ القيامة.

ووجَّهوا تأخيرَ هذه الجملةِ عن الجملة الأولى تارةً بأنَّه لرعاية الفواصل، وأخرى بأنَّ ذِكْر الحمد الذي تضمَّنته الأُولى يستدعي ذِكْرَ المحمود، ولا يبعد أن يقال: إنَّ الهدايةَ في الجملتين في الآخرة بعد دخول الجنَّة، وإن الإضافة هنا بيانيَّة، وإنَّ المرادَ بالقول الطيِّب القولُ الذي تستلذُّه النفوسُ الواقع في محاورة أهل الجنَّة بعضِهم لبعضٍ. وبالصراط الحميد ما يَسلُكه أهلُ الجنَّة في معاملة بعضِهم بعضاً مِن الأفعال التي يحمدون عليها، أو ممَّا هو أعمُّ مِن ذلك. فحاصلُ الجملة الأولى وصفُ أهلِ الجنة بحُسن الأقوال. وحاصلُ الثانية وصفُهم بحُسن الأفعال، أو ممَّا هو أعمُّ منها ومِن الأقوال. وكأنَّه تعالى بعد أن ذَكر حُسْنَ مسكنِهم وحُليِّهم ولباسَهم، ذيَّل ذلك بحُسنِ معاملةِ بعضهم بعضاً في الأقوال والأفعال إيماءً إلى أنَّ ما هم فيه لا يُخرِجهم إلى خشونة المقال ورداءة الأفعالِ المشينتين لحُسنِ ما هم فيه والمنغِّصتين للذَّة الاجتماع. ووجهُ التقديم والتأخير على هذا غيرُ خفيٍّ على الفَطِن.

والذي اختاره أنَّ القولَ الطيِّبَ قولُهم بعد دخول الجنَّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا

نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥]؛ لقوله تعالى: في سورةِ فاطر بعد قوله سبحانه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ إلخ [فاطر:٣٣-٣٤]، والقرآن يفسِّر بعضُه بعضاً. وأنَّ المرادَ بالصراط الحميدِ ما يعمُّ الأقوالَ والأفعالَ الجارية بين أهل الجنَّة ممَّا يحمد سلوكُه في المعاشرة والاجتماع في هاتيكَ البقاع؛ فراراً مِن شائبة التأكيد كما لا يَخفى على ذي فكر سديد، فتأمَّل هُديتَ إلى صراطِ الحميد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وعيدٌ لصنفٍ من الكفرة، وحَسُنَ عطفُ المضارع على الماضي؛ لما أنَّه لم يَرِدْ بالمضارع حالٌ أو استقبال كما في قولهم: فلانٌ يُحسِنُ إلى الفقراء، فإنَّ المرادَ به استمرارُ وجودِ الإحسان، وقيل: «يصدُّون» بمعنى: صَدُّوا، إلا أنَّه عبَّر بالمضارع؛ استحضاراً للصورة الماضية؛ تهويلًا لأمر الصَّدِّ، وقيل: لا عطف، بل الجملةُ خبرُ مبتدأ محذوف، والمجموع في موضع الحال مِن فاعل «كفروا» أي: وهم يصدُّون، وجوّز أن تكون الجملةُ حالًا مِن غير تقدير مبتدأ؛ لشَبَهها بالجملة الاسميَّة معنًى، وخبر «إنَّ» محذوفٌ لدلالةِ آخِر الآية الكريمة عليه، أي: ونذيقهم مِن عذاب أليم، وقدَّره الزمخشريُّ(١) بعد «المسجد الحرام»، وتعقَّبه أبو حيَّان(٢) بأنَّه لا يصحُّ؛ لما فيه مِن الفَصْل بين الصفة وهو «المسجد»، والموصوف وهو «الذي».

وأجيب باحتمال أنَّه جعل «الذي» نعتاً مقطوعاً، وقدَّره ابنُ عطيَّة(٣) بعد «والبادِ»، وهو أولى، إلا أنَّه قدَّر: خسروا، أو: هلكوا، وتقديرُ: نذيقهم.. إلخ أَولى منه، وقيل: الواو في «ويصدُّون» زائدةٌ، والجملة بعدَه خبر «إنَّ».

وتعقَّبه ابنُ عطيَّة بأنَّه مفسدٌ للمعنى المرادِ وغيره بأنَّ البصريين لا يُجيزون زيادةَ الواو، والقول بجواز زيادتها قولٌ كوفيٌّ مرغوب عنه، والظاهر أنَّ «المسجد» عطفٌ على «سبيل»، وجوِّز أن يكون معطوفاً على الاسم الجليل، والآية على ما روي عن ابنِ عباس رضي الله عنهما نزلت في أبي سفيان بنِ حرب وأصحابِه حين صَدُّوا رسولَ الله ﷺ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٢.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٥.

وأصحابَه ﷺ عامَ الحديبيةِ عن المسجدِ الحرام، فكره عليه الصلاةُ والسلامُ أن يُقاتِلهم وكان مُحْرِماً بعمرةٍ، ثم صالحوه على أن يعودَ في العام القابلِ، والمراد بالمسجد الحرام مكَّة، وعبَّر به عنها؛ لأنَّه المقصودُ المهمُّ منها، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: كائناً مَن كان، مِن غير فرقٍ بين مكِّيٍّ وآفاقيٍّ ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: المقيم فيه والطارئُ، فإنَّ الإقامةَ لا تكون في المسجد نفسِه، بل في منازل مكَّة، وفي وصفِه بذلك؛ زيادةُ التشنيعِ على الصادِّين عنه.

وقد استشهدَ بعضُ الأئمَّة بالآية على عدمِ جواز بَيْعِ دُورِ مكَّة وإجارتِها، وإلا لما استوى العاكفُ فيها والبادي، وقد وردَ التصريحُ بذلك في بعض الأحاديثِ الصحيحة، فروي مِن عدَّة طرق أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «مكَّة حرَّمها الله تعالى لا يحلُّ بيعُ رباعِها، ولا إجارةُ بيوتها»[1].

وذكر ابنُ سابطٍ أنَّ دورَ أهلِ مكَّة كانت بغيرِ أبواب حتى كثرت السرقةُ، فاتَّخذ رجلٌ باباً، فأنكر عليه عمرُ ﷺ قال: أتغلقُ باباً في وجهِ حاجِّ بيتِ الله تعالى؟ فقال: إنَّما أردتُ حفظَ متاعِهم مِن السرقة، فترَكه. فاتَّخذ الناسُ الأبوابَ.

وأخرج ابنُ ماجه، وابنُ أبي شيبة، عن علقمةَ بن نضلة، قال: توفِّي رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ ﷺ، وما تُدعَى رباعُ مكَّة إلا السوائبَ، مَنِ احتاج سكن، ومَن استغنى أَسكن[2]. وقال ابنُ عمرَ ﷺ: مَن أكل كراءَ بيوتِ مكَّة،

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٦١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٧٠ نشرة العمروي)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠٥٣) عن مجاهد مرسلًا.
وأخرجه عبد الرزاق (٩٢٠)، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٧٠ (نشرة العمروي) عن مجاهد قوله.
وأخرجه الدارقطني (٣٠١٤) و(٣٠١٥) عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً بنحوه. وقال: كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً، ووهم فيه أيضاً في قوله: عبيد الله بن أبي يزيد، وإنما هو ابن أبي زياد القداح، والصحيح أنه موقوف. اهـ. والموقوف فيه برقم (٣٠١٦) و(٣٠١٧)، وهو عند عبد الرزاق أيضاً برقم (٩٢١٤).

(٢) ابن ماجه (٣١٠٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٧٢ نشرة العمروي)، وأخرجه أيضاً الدارقطني في «سننه» (٣٠١٩) و(٣٠٢٠) و(٣٠٢١).
قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح على شرط مسلم. اهـ. وعنون البخاري في =

فإنَّما أكلَ ناراً في بطنه؛ لأنَّ الناسَ في الانتفاع بها سواء، وجاء صدرُه مِن رواية الدارقطنيِّ مرفوعاً[١]. وفي «النهاية»: لا بأسَ ببيع بناء مكَّة، ويُكرَه بيعُ أرضِها، وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه، وقال: لا بأسَ ببيع أرضها، وهو روايةٌ عنه أيضاً، وهو مذهب الشافعيِّ ـ عليه الرحمةُ ـ وعليه الفتوى. وفي «تنوير الأبصار» وشرحه «الدُّرِّ المختار»: وجاز بيعُ بناءِ بيوت مكَّة وأرضِها بلا كراهة، وبه قال الشافعيُّ، وبه يفتى. عيني[٢]، وفي «البرهان» في باب العشر: ولا يُكرَه بيعُ أرضِها كبنائها، وبه يعمل. وفي «مختارات النوازل» لصاحب «الهداية»: لا بأسَ ببيعِ بنائها وإجارتها، لكن في الزيلعيِّ وغيرِه: يُكرَهُ إجارتُها، وفي آخر الفصل الخامس مِن «التتارخانية» وإجارة الوهبانيَّة: قال أبو حنيفة: أكرهُ إجارةَ بيوت مكَّة في أيام الموسم. وكان يفتي لهم أن ينزلوا عليهم في دُورهم؛ لقوله تعالى ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ ورخَّص فيها في غير أيَّام الموسم. انتهى. فليحفظ، قلت: وبهذا يظهر الفرقُ والتوفيقُ[٣]. انتهى.

والذي يُفهَم مِن «غاية البيان»[٤] أنَّ القولَ بكراهة إجارةِ بيوتها أيَّام الموسمِ مما لم يتفرَّد به الإمام بل وافقه عليه صاحباه حيث نقل عن «تقريبِ» االإمام الكرخيِّ ما نصُّه: وروى هشام، عن أبي يوسفَ، عن أبي حنيفة أنَّه كَره إجارةَ بيوت مكَّة في الموسم، ورخَّص في غيره، وكذا قال أبو يوسف، وقال هشام: أخبرني محمد عن أبي حنيفةَ أنَّه يُكرهَ كراءُ بيوت مكَّة في الموسم، ويقول: لهم أن ينزلوا عليهم في دُورهم إن كان فيها فضلٌ، وإن لم يكن فلا، وهو قولُ محمد[٥]. انتهى.

= صحيحه في كتاب الحج: باب في توريث دور مكة وبيعها وشراءِها. قال ابن حجر في الفتح ٣/ ٤٥٠ : وأشار له [أي البخاري] بهذه الترجمة إلى تضعيف حديث علقمة بن نضلة، وفي إسناده انقطاع وإرسال. اهـ.

(١) سنن الدارقطني (٣٠١٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولم نقف عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أي: بدر الدين العيني، وكلامه في كتابه البناية شرح الهداية ٩/ ٣٥٧.

(٣) الدر المختار ٢/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٤) وهو لأمير كاتب العميد بن أمير غازي قوام الدين الإتقاني، وكتابه شرح فيه الهداية للمرغيناني، وسماه: غاية البيان ونادرة الأقران. الفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي ص٨٧.

(٥) حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٩٣.

والذي تحرَّر مما رأيناهُ مِن أكثرِ معتبرات كتب ساداتِنا الحنفيَّة أنَّ جوازَ بيعِ بناء البيوت متفق عليه؛ لأنَّه ملكٌ لمن بناهُ كمَن بنى في أرض الوقف بإذن المتولِّي، ولا يقال: إنَّه بناءُ غاصب، كمن بنى بيتاً في جامع؛ لظهور الإذن هنا دونه ثمَّة، وكذا كراهةُ الإجارة في أيَّام الموسم، وأمَّا بيعُ الأرض فعند الإمامين جائز بلا كراهةٍ قولًا واحداً، وعن الإمام روايتان الجواز وعدمُه، والمفتى به الجواز، ومستند مَن يجوِّز مِن الكتاب الجليل هذه الآية. وأجاب أصحابُ الشافعيِّ عنها: أنَّ المسجدَ الحرامَ في المطاف والعاكف في المعتكف للعبادة المعدود مِن أهل المسجد لملازمتِه له أظهر، وكذلك المساواة في أنَّه مِن شعائر الله تعالى المنصوبة لكلِّ عاكف وبادٍ أوضح، وهو المقابل للموصوف بالصَّدِّ عن سبيلِ الله تعالى والمسجد الحرام خاصَّة، فما كانوا يصدُّون عن مكَّة، ولا أنَّ الصدَّ عنها لغير مريدِ النسك معصيةٌ، وأيُّ مدخَل لحديثِ التمليك وعدمه في هذا المساق؟!.

والاستدراك بأنَّ له مدخلًا على سبيل الإدماجِ وإشارة النصّ، كلامٌ لا طائلَ تحته، وقد فسّر «سواء» بما فسّر، كذا في «الكشف»، وقد جرت مناظرةٌ بمكَّة بين الشافعيِّ وإسحاق بن راهويه الحنظلي، وكان إسحاق لا يرخِّص في كراء دور مكَّة، فاحتجَّ الشافعيُّ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠] فأضيفت الديارُ إلى مالكيها، وقوله ﷺ يوم فتح مكَّة: «مَن أغلقَ بابَه فهو آمن، ومَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن»(١)، وبأنَّه قد اشترى عمر رضي الله عنه دار السجن، أترى أنَّه اشترى مِن مالكيها أو غيرِ مالكيها. قال إسحاق: فلما علمت أنَّ الحجَّةَ قد لزمتني تركتُ قولي. وأجاب بعضُهم أنَّ الإضافةَ إلى مالكي منفعة السكنى، وأنَّ عمر رضي الله عنه اشترى البناء دون الأرض، وأرضى بالثمن مَن أنفق مالًا فيه؛ لحاجة العامَّة، وللإمام مِن ذلك ما ليس لغيره. وتعقّب بأنَّ الاستدلالَ بالظاهر والعدولَ عن الظاهر دون سند أقوى غيرُ مُلتفَتٍ إليه، ولذا قال ابن راهويه ـ وهو أحدُ أركانِ المسلمين وعَلَمٌ مِن أعلام الدين ـ ما قال.

والظاهر أنَّ الأخبارَ المصرِّحة بتحريم البيع والإجارة، لم تصحَّ عند الشافعيِّ رضي الله عنه، وعند مَن قال بمثل قوله.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٢٢)، ومسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ونصب «سواء» على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لجعلنا، والأوَّل الضمير الغائب المتصل، و«العاكف» مرتفع به؛ لأنَّه بمعنى مستو، وإن كان في الأصل مصدراً، ومِن كلامهم: مررتُ برجلٍ سواء هو والعدم، واللام ظرفٌ لما عنده.

وجوِّز أن يكون «للناس» في موضع المفعول الثاني، أي: جعلناه مباحاً للناس، أو معبداً لهم، و«سواء» حالًا من الهاء، وكذا يكون حالًا إذا لم يعدّ الجعل إلى مفعولين.

وقرأ الجمهورُ: «سواءٌ» بالرفع على أنَّه خبر، و«العاكفُ» مبتدأٌ[1]، وضعِّف العكسُ؛ لما فيه من الإخبار بالمعرفة عن النكرة، والجملة في موضع المفعول الثاني أو الحال، وجوّز أن تكون تفسيريَّة لجعله للناس.

وقرأت فرقة منهم الأعمشُ في رواية القطعي: «سواءً» بالنصب، «العاكفِ» فيه بالجرّ[2]، ووجه النصبِ ما تقدَّم، ووجه جرِّ «العاكف» أنَّه بدلُ تفصيلٍ مِن «الناس»، وقيل: هوعطف بيان.

وقُرئَ: «والبادي» بإثبات الياء وصلًا ووقفاً[3]، وقُرئَ بتركها فيهما[4]، وبإثباتها وصلًا وحذفها وقفاً[5].

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ مما ترك مفعوله؛ ليتناول كلَّ متناول، أي: ومَن يُرد فيه شيئاً ما أو مُراداً ما، وقدَّر ابنُ عطيَّة[6] المفعولَ: الناسَ، أي: ومَن يُرِد فيه الناسَ.

وقوله تعالى: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ أي: عدول عن القصد، أي: الاستقامة المعنويَّة، وأصله: إلحاد الحافر ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حقٍّ، حالان مترادفان، أو الثاني بدلٌ مِن

---

(١) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦، في حين قرأ حفص: «سواءً» بالنصب.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٥٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣.
(٣) وهي قراءة ابن كثير ويعقوب. التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.
(٤) وهي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي، ونافع في رواية قالون عنه. السبعة لابن مجاهد ص٤٣٦، والتيسير ص١٥٨، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣.
(٥) وهي قراءة أبي عمرو وورش وأبي جعفر. السبعة لابن مجاهد ص٤٣٦، والتيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧، والبحر ٦/ ٣٦٣.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦.

الأوَّل بإعادة الجارِّ، والباء فيهما للملابسةِ، أو الأوَّل حالٌ والثاني متعلِّق به، والباء فيه للسببيَّة، أي: ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقترافِ الآثام، وقال أبو عبيدةَ: الباء زائدة و«إلحاد» مفعول «يرد»، وأنشد عليه قولَ الأعشى:

ضَمِنَتْ برِزْقِ عيالنا أرماحُنا[1]

وأُيِّد بقراءة الحسن: «ومَن يُرد إلحادَهُ بظلم»[2] وهي على معنى إلحاداً فيه إلا أنَّه توسّع فقيل: إلحاده. وقال أبو حيَّان[3]: الأَولى أن يُضمَّن «يُرِدْ» معنى يتلبَّس، وتجعل الباء للتعدية.

وقرأت فرقةٌ: «يَرِدْ» بفتح الياء مِن الوُرود، وحكاها الكسائيُّ والفرَّاء[4]، أي: مَن أتى فيه بإلحاد إلخ.

وتفسير الإلحاد بما ذكر هو الظاهر، فيشمل سائرَ الآثامِ؛ لأنَّ حاصل معناه الميلُ عن الحقِّ إلى الباطل، وهو محقَّق في جميع الآثام، وكذا المرادُ بالظلم عند جمعٍ، وجمعهما على هذا؛ للتأكيد، وقيل: المراد بذلك الشِّرْكُ، ولم يرتَضِه ابنُ أبي مُلَيكة، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد أنَّه سُئلَ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ إلخ، فقال: ما كنَّا نشكُّ أنَّها الذنوبُ حتى جاء أعلاجٌ مِن أهل البصرة إلى أعلاجٍ مِن أهل الكوفة، فزعموا أنَّها الشركُ[5].

---

(١) وعجزه:

مِلْءَ المراجل والصريحَ الأجردا

وهو في مجاز القرآن ٢/ ٤٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ وفيه: بين، بدل: ملء. وذكر صدره ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٢٢، وهو في ديوان الأعشى ص٢٨١ برواية:

ضمنت لنا أعجازهنَّ قدورَنا ... وضروعهنَّ لنا الصريحَ الأجردا

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٦٣.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣، والكلام منه، وقراءة الفراء ذكرها في معاني القرآن ٢/ ٢٢٣، وورد في مطبوعه: تَرِدْ. بالتاء.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٥٢، والأعلاج: جمع عِلْج، وهو: الرجل الضخم من كفار العجم، وبعض العرب يطلق العِلْج على الكافر مطلقاً. المصباح (علج).

وأخرج أبو داود وغيرُه عن يعلى بنِ أميَّة عن رسولِ الله ﷺ قال: «احتكارُ الطعام في الحرم إلحادٌ فيه»[(١)]، وهو مِن ذكر بعض الأفراد؛ لاقتضاء الحال إيَّاه، وجعل بعضُهم مِن ذلك دخولَه مِن غير إحرام، وروي عن عطاء تفسيرُ الإلحاد به. وأخرج ابنُ جرير وجماعةٌ، عن مجاهد قال: كان لعبد الله بنِ عمر رضي الله عنهما فسطاطان أحدهما في الحِلِّ والآخَر في الحرم، فإذا أراد أن يُصلِّي صلَّى في الذي في الحرم، وإذا أراد أن يعاتب أهلَه عاتبهم في الذي في الحلِّ، فقيل له، فقال: نحدث أنَّ مِن الإلحاد فيه: لا والله، بلى والله[(٢)].

﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ جواب لـ «من» الشرطيَّة. والظاهر أنَّ الوعيدَ على إرادة ذلك مطلقاً فيفيد أنَّ مَن أراد سيئةً في مكَّة ولم يَعملها يحاسب على مجرَّد الإرادة، وهو قولُ ابنِ مسعود، وعكرمة، وأبي الحجاج، وقال الخفاجيُّ[(٣)]: الوعيدُ على الإرادة المقارنة للفعل لا على مجرَّد الإرادة، لكن في التعبير بها إشارة إلى مضاعفةِ السيئات هناك، والإرادة المصمّمة مما يُؤاخَذ عليها أيضاً، وإن قيل: إنَّها ليست كبيرة، وقد روي عن مالك كراهةُ المجاورة بمكَّة. انتهى.

وإلى مضاعفة السَّيِّئة في مكَّة ذهب مجاهدٌ، فقد أخرج عنه ابنُ المنذر وغيرُه أنَّه قال: تُضاعَف السيئات بمكَّة كما تُضاعَف الحسنات[(٤)]. وقال رحمه اللهُ تعالى:

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٢٠)، وعلقه أيضاً البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٠: هذا حديث واهي الإسناد.
وأخرجه أيضاً البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥ -٢٥٦ من طريق يعلى ابن منية ـ أي: ابن أمية؛ لأنَّ منيةَ أمُّه كما ذكر ذلك الحافظ في التقريب ـ عن عمر رضي الله عنه موقوفاً. قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ٤٣٨: يشبه أن يكون البخاري علَّل المسند بهذا.

(٢) كذا ذكر الخبرَ الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ١٠ عن ابن عمر، قال الحافظ في الكافي الشاف ص١١٢: ما في نسخ الكشاف: ابن عمر، تصحيف، وإنما هو: ابن عمرو. اهـ. وكذلك أخرجه عن ابن عمرو ابنُ أبي شيبة ٤/ ٢٨٥ (نشرة العمروي)، والأزرقي في تاريخ مكة ٢/ ١٣١، والطبري ١٧/ ١٤١ (طبعة الحلبي). وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٢.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٥٢، وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير.

سألتُ ابنَ عمر ـ وكان منزلُه في الحلِّ ومسجدُه في الحرم ـ لِمَ تفعلُ هذا؟ فقال: لأنَّ العملَ في الحرمِ أفضلُ، والخطيئة فيه أعظمُ، فينبغي لمن كان فيه أن يَضْبِطَ نفسَه، ويسلك طريقَ السداد في جميع ما يَهِمُّ به ويقصِده.

والظاهر أنَّ هذه الإذاقةَ في الآخرة، وقيل: كان قبل أن يستحلَّه أهلُه تعجَّل العقوبةُ في الدنيا لمن قَصَده بسوء. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الربيع بنِ أنس رضي الله عنه أنَّه قال في الآية: حدثنا رجلٌ سمعه مِن عقبِ المهاجرين والأنصار أنَّهم أخبروه أنَّ أيَّما أحدٍ أراد به ما أراد أصحابُ الفيل، عُجِّل لهم العقوبةُ في الدنيا، وقال: إنَّما يُؤتى[1] استحلاله مِن قِبَلِ أهله. وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما ينفعك في هذا المطلب.

وحَدَّ بعضُهم الحرمَ بقوله:

وللحَرَمِ التحديدُ مِن أرض طَيْبَةٍ ... ثلاثةُ أميالٍ إذا رُمْتَ إتقانَه
وسبعةُ أميال عِراقٌ وطائفٌ ... وجدَّةُ عَشْرٌ ثم تِسْعٌ جعرانَه
ومِن يَمَنٍ سبعٌ بتقديمِ سِينه ... وقد كَمَلَت فاشْكُرْ لربِّك إحسانَه[2]

---

(١) في (م): «يوفى»، والخبر في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٨٤ (١٣٨٧٠).

(٢) الأبيات الثلاثة مذكورة في مغني المحتاج ١/ ٥٢٨-٥٢٩، وشفاء الغرام للفاسي ١/ ٦٤-٦٥، إلا أنَّ الفاسيَّ جاء عنده عجز البيت الثالث هكذا:

فسل ربك الوهاب يرزقك غفرانه

وزاد بيتاً رابعاً، وهو:

وقد زيد في حد لطائف أربع ... ولم يرض جمهور لذا القول رجحانه

وقال بعدها: والبيتان الأولان لا أعرف ناظمهما، والبيتان الآخران لجدِّي لأبي قاضي القضاة كمال الدين أبي الفضل محمد بن أحمد النويري الشافعي... على ما وجدت في تأليف له بخطِّ بعض مشايخنا يسمى: المعلم بدية الحر المسلم، وبعض الناس ينشد بيت جدِّي الأول على غير ما ذكرناه فيقول: .... وقد كملت فاشكر لربك إحسانه. ثم ذكر كلاماً مطوَّلًا حول الأبيات فلتراجع لمن أراد التوسُّع.

وذكر البيتين الأول والثاني الحصكفي في الدر المختار ١/ ٢١٥ ونسبهما لابن الملقِّن، وعلَّق عليه ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار ٢/ ٤٧٩ بقوله: هو من علماء الشافعية، ونقل عن شرح المهذب للنووي أن ناظم الأبيات المذكورة القاضي أبو الفضل النويري... ثم قال تعليقاً على البيت الثاني: لو قال: =

وأمَّا المسجد الحرام فيُطلَق على الحرم كلِّه عند عطاء، فيكون حدُّه ما ذكر.

وفي «البحر العميق»(١) عن أبي هريرة قال: إنَّا لنجدُ في كتاب الله تعالى أنَّ حدَّ المسجد الحرام إلى آخر المسعى. وعن عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص قال: أساسُ المسجد الحرام الذي وضعه إبراهيمُ عليه السلام مِن الحَزْوَرة(٢) إلى مخرجِ مسيل جِياد.

وقد ذكروا أنَّ طولَ المسجد اليوم أربع مئة ذراع وأربعة أذرع، وعَرْضه ثلاث مئة ذراع.

وحكي أنَّه لم يكن كذلك على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن له جدارٌ يحيط به، فلما استُخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسَّع المسجدَ واشترى دوراً فهدمها وأدخلها فيه، ثم أحاطَ عليه جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيحُ توضع عليه، ثم لما استُخلف عثمان اشترى دوراً أيضاً ووسَّع بها وبنى المسجدَ والأروقةَ، ثم إنَّ عبد الله بنَ الزبير زاد سنة بضع وستِّين في المسجد زيادةً كثيرةً في خلافته، ومِن ذلك بعض دار الأزرقيِّ اشتراه بسبعة آلافِ دينار، ثم عمره بعد ذلك عبد الله بنُ مروان ولم يزد فيه، لكن رفع جدار المسجد، وحمل إليه أعمدةَ الحجارة والرخام، ثم إنَّ المنصورَ زاد في شقِّه الشاميِّ وبناه وجعل فيه أعمدةً من الرخام، ثم زاد

= ومن يمن سبع عراق وطائف

لاستوفى واستغنى عن البيت الثالث المذكور في البحر، وهو:

ومن يمن سبع بتقديم سينها وقد كملت فاشكر لربه إحسانه

مع ملاحظة أن نقله عن شرح المهذب للنووي وعزوه الأبيات للقاضي أبي الفضل النويري فيه نظر، فكيف ينسبها النووي للنويري مع العلم بأن وفاة النووي كانت سنة (٦٧٦هـ)، وولادة أبي الفضل النويري كانت سنة (٧٢٢هـ)؟! إلا إن كان يقصد النووي البيتين الأولين وكان يقصد نويريًّا غير هذا، ولم نقف على كلام النووي في المجموع شرح المهذب.

(١) وهو: البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق لأبي البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن العينا المكي القرشي الحنفي المتوفى سنة (٨٥٤هـ). كشف الظنون ١/ ٢٢٥.

(٢) موضع بمكة يلي البيت، وفيه دُفن عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله، ابن أخي طلحة بن عبيد الله وكان قُتل مع ابن الزبير. معجم ما استعجم ٢/ ٤٤٤.

المهديُّ بعدَه مرَّتين، وكانت الكعبة في جانب المسجد فأحبَّ أن تكون في الوسط فاشترى دوراً وزاد في المسجد ووسَّطها، كذا ذكره النوويُّ[1].

وفي «البحر العميق» أنَّ زيادةَ المهديِّ هي التي تلي دارَ الندوة خلفَ مقام الحنفيِّ، ثم لما انتهت الدولة إلى سلاطين آلِ عثمان ـ أبقى الله تعالى دولتهم ما دام الدوران ـ لم يألوا جهداً في خدمته والسعي في مَرَمَّتِه.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: اذكر لهؤلاء الكفرة الذين يصدُّون عن سبيلِ الله تعالى والمسجد الحرام وقتَ جَعْلِنا مكانَ البيت مباءةً لجدِّهم إبراهيم عليه السلام، أي: مرجعاً يُرجَع إليه للعمارة والعبادة، ويقال: بوَّأه منزلًا: إذا أَنزله فيه، ولمَّا لزمه جَعْلُ الثاني مباءةً للأوَّل جِيْءَ باللام، فهي للتعدية، و«مكان» مفعول به.

وقال الزجّاج[2]: المعنى: بيَّنَّا له مكانَ البيتِ ليَبْنِيه، ويكون مباءةً له ولِعَقبه يرجعونَ إليه ويحجُّونه، والأوَّل مرويٌّ عن ابنِ عباس، وقيل: اللام زائدةٌ في المفعول به، و«مكان» ظرف لـ «بوَّأنا». واعترض بأنَّ اللامَ إنَّما تزاد إذا قدّم المعمول، أو كان العاملُ فرعاً، وشيءٌ منهما غيرُ متحقّق هاهنا، وأن «مكان البيت» ظرف معيَّن، فحقُّه أن يتعدَّى الفعل إليه بـ «في»، وفيه نظرٌ كما يعلم من كتب العربية.

وقيل: مفعول «بوّأنا» محذوف، أي: بوَّأنا الناسَ، واللام في «لإبراهيم» لام العلَّة، أي: لأجل إبراهيم، أي: كرامةً له، والمعوَّل عليه ما قدَّمنا، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنَّ المرادَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ غير مرّة، والمكان المتعارف: ما يستقرُّ عليه الشيءُ ويمنعه مِن النزول، وللعلماء فيه مذاهبُ، وليس هذا مكانَ تحقيقها.

وأصلُ البيت: مأوى الإنسان بالليل، ثم قد يقال مِن غير اعتبار الليل فيه، وجمعه بأبيات، وبيوت، لكنَّ البيوتَ بالمسكنِ أخصُّ، والأبياتُ بالشَّعَرِ أخصُّ، ويقع ذلك على المتَّخذ مِن حَجَر ومِن مَدَرٍ، ومِن صوفٍ ووَبَر، ويُعبَّر عن مكان الشيء ببيتِه.

---

(١) المجموع شرح المهذب ٧/ ٤٤٦ بمعناه.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٢.

والمراد بالبيت بيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ الكعبةُ المكرَّمة، وقد بُنِيَتْ خمسَ مرَّات، إحداها: بناءُ الملائكةِ عليهم السلام قَبْلَ آدمَ، وكانت من ياقوتةٍ حمراءَ، ثم رُفِعَ ذلك البناءُ إلى السماء أيَّام الطُّوفانِ.

والثانية: بناءُ إبراهيمَ عليه السلام، رُوِيَ أنَّه تعالى لما أَمَرَه ببناءِ البيتِ، لم يَدْرِ أينَ يَبني، فأرسلَ اللهُ تعالى له الريحَ الخجوجَ[1] فكشفت عن أسِّه القديم، فبنى عليه.

والثالثة: بناءُ قريش في الجاهليَّة، وقد حَضَره النبيُّ ﷺ وكان شابًّا، فلما أَرادوا أن يرفعوا الحَجَرَ الأسودَ اختصموا فيه، فأراد كلُّ قبيلةٍ أن يتولَّى رَفْعَه، ثم تَوافقوا على أَنْ يَحكُم بينهم أوَّلُ رجل يَخرجُ مِن هذه السِّكَّة، فكان رسولُ الله ﷺ أوَّلَ مَن خرجَ، فقضى بينهم أن يَجعلُوه في مِرْطٍ[2]، ثم يرفعه جميعُ القبائلِ، فرفعوه ثم ارتقى ﷺ فرفعوه إليه، فوضعه مكانَه، وكانوا يَدْعُونه عليه السلام: الأمينَ، وكان ذلك قَبْلَ المبعثِ ـ فيما قيل ـ بخمسَ عَشْرة سنةً.

والرابعة: بناءُ عبدِ الله بنِ الزبير.

والخامسة: بناء الحجَّاج، وهو البناء الموجودُ اليومَ، وارتفاعها في السماء سبعةٌ وعشرونَ ذِراعاً ورُبْعَ ذراعٍ، والذراعُ أربعٌ وعشرونَ إصبعاً، والإصبع ستُّ شُعَيرات، والشعيرةُ ستُّ شعراتٍ من شَعَر البِرْذَون.

وأمَّا طولها في الأرضِ فمن الركن اليمانيِّ إلى الركن الأسود خمسةٌ وعشرونَ ذراعاً، وكذا ما بين اليمانيِّ والغربيِّ.

وأما عَرْضها فهو مِنَ الركن اليمانيِّ إلى الركن الأسود عشرونَ ذراعاً.

وطولُ الباب ستَّةُ أذرعٍ وعَشَرةُ أصابعَ، وعَرْضه أربعةُ أذرعٍ، والباب في جدارها الشرقيِّ، وهو مِن خشبِ الساجِ مضبَّب بالصفائح مِن الفضَّة.

وارتفاعُ ما تحتَ عَتَبةِ الباب مِن الأرض أربعةُ أذرعٍ وثلاثُ أصابعَ، والميزابُ

---

(١) هي الريح الشديدة المَرِّ، أو الملتوية في هبوبها كالخجوجاة. القاموس (خجج).
(٢) المِرْط: كساء من صوف أو خَزٍّ. القاموس (مرط).

في وَسَط جدارِ الحجر. وعَرْضُ الملتزم ـ وهو ما بين البابِ والحَجَر الأسود ـ أربعة أذرعٍ، وارتفاعُ الحَجَر الأسود مِن الأرض ثلاثةُ أذرعٍ إلا سبعاً، وعَرْضُ القَدْرِ الذي بَدَرَ منه شبرٌ وأربعُ أصابع مضمومةً، وعَرْضُ المستجاد ـ وهو بين الركن اليمانيِّ إلى الباب المسدودِ في ظَهْر الكعبة مقابلًا للملتَزَم ـ أربعة أذرعٍ وخمسُ أصابعَ، وعَرْضُ الباب المسدود ثلاثةُ أذرعٍ ونصفُ ذراعٍ، وطُوله أكثرُ مِن خمسةِ أذرع.

وأمَّا الحِجْر، ويُسمَّى: الحطيمَ والحظيرةَ، فعلى هيئة نصفِ دائرة مِن صَوْبِ الشام والشَّمال بين الركن العراقيِّ والشامِيِّ، وحدُّه مِن جدار الكعبة الذي تحت الميزاب إلى جدارِ الحجر سبعةَ عشر ذراعاً وثماني أصابعَ منها سبعةُ أذرعٍ أو ستَّةٌ وشِبْر مِن أرض الكعبة، والباقي كان زَرْباً[1] لغنم سيِّدنا إسماعيل عليه السلام فأدخلوه في الحِجْر، وما بين بابي الحِجْر عشرونَ ذراعاً، وعَرْضُ جدار الحِجْر ذراعان، وذرع تدويرِ جدار الحِجْر مِن داخله ثمانيةٌ وثلاثونَ ذراعاً، ومِن خارجه أربعون ذراعاً وستُّ أصابع، وارتفاعُ جدارِ الحِجْر ذراعان، فذرع الطَّوقِ وحده حوالي الكعبة والحجر مئةُ ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً. وهذا على ما ذكره الإمام حسين بنُ محمد الآمديُّ في رسالةٍ له في ذلك، والعُهْدة عليه، وإنَّا لنرجو مِن ربِّ البيتِ أن يوفِّقنا لزيارةِ بيتِه وتحقيقِ ذلك بلطفه وكرمه.

و «أَنْ» في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ قيل: مفسِّرة، والتفسير باعتبار أنَّ التبوئةَ مِن أجل العبادة، فكأنَّه قيل: أَمَرْنا إبراهيمَ عليه السلام بالعبادة، وذلك فيه معنى القول دون حروفِه، أو لأنَّ بوَّأناه بمعنى قلنا له: تبوَّأ، وقال ابنُ عطيَّة[2]: مخفَّفة من الثقيلة، وكأنَّه لتأويل بوَّأناه بأعلمناه، فلا يَرِدُ عليه أنَّه لا بُدَّ أن يتقدَّمها فِعْلُ تحقيقٍ أو ترجيح.

وقال أبو حيَّان: الأَولى أن تكون الناصبة، وكما تُوصَل بالمضارع تُوصَل بالماضي، والأمر والنهي[3]. انتهى. وحينئذٍ لا تنصبُ لفظاً، وقول أبي حاتم:

---

(١) الزَّرْب: المدخل، وموضع الغنم. القاموس (زرب).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤، والعبارة فيه: والأولى عندي أن تكون الناصبة للمضارع إذ يليها

لا بُدَّ مِن نصب الكافِ على هذا ردَّه في «الدُّرِّ المصون»[1] أي: فَعَلْنا ذلك لئلَّا تشركَ بي في العبادة شيئاً، والظاهر أنَّ الخطابَ لإبراهيمَ عليه السلام، ويؤيِّده قراءةُ عكرمة، وأبي نهيك: «أَنْ لا يُشْرِكَ»[2] بالياء التحتية، وقيل: الخطابُ للنبيِّ ﷺ.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ المراد بالطهارة ما يَشمل الحسيَّة والمعنويَّة، أي: وطهِّر بيتيَ مِن الأوثان والأقذار لمن يطوفُ به ويصلِّي عنده، ولعلَّ التعبيرَ عن الصلاة بأركانها مِن القيام والركوع والسجودِ؛ للدلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء التطهير أو التبوِئة على ما قيل، فكيف وقد اجتمعت، أو للتنصيصِ على هذه الأمَّة المحمَّدية على نبيِّها أفضلُ الصلاةِ وأكملُ التحيَّة، إذ اجتماعُ هذه الأركان ليس إلا في صلاتهم، ولم يعطف السجود؛ لأنَّه مِن جنَس الركوع في الخضوع.

ويجوز أن يكون «القائمين» بمعنى المقيمين، و«الطائفين» بمعنى الطارئين، فيكون المرادُ بالركع السجود فقط المصلِّين إلَّا أنَّ المتبادرَ مِن الطائفين ما ذكر أوَّلًا.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: نادِ فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوةِ الحجِّ والأمْرِ به، أخرج ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف»، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «سننه» عن ابنِ عباس قال: لما فرغَ إبراهيمُ عليه السلام مِن بناء البيت قال: ربِّ قد فرغتُ. فقال: أَذِّنْ في الناس بالحج. قال: ياربِّ وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن وعليّ البلاغ. قال: ربِّ كيف أقول؟ قال: قل يا أيها الناس كُتبَ عليكم الحجُّ إلى البيت العتيق، فسمعه أهلُ السماء والأرض، أَلَا ترى أنَّهم يجيؤون[3] مِن أقصى البلاد يلبُّون[4].

= الفعل المتصرف من ماضٍ ومضارع وأمر، والنهي كالأمر.اهـ. وكذا نقل عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٦٣.

(١) ٨/ ٢٦٣.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٣) في (م): «يجيبون».

(٤) في الأصل: «ويلبّون». والخبر عند ابن أبي شيبة ١١/ ٥١٨، والطبري ١٦/ ٥١٤-٥١٥، والحاكم ٢/ ٣٨٨، والبيهقي ٥/ ١٧٦.

وجاء في رواية أخرى عنه: أنَّه عليه السلام صَعِدَ أبا قُبَيْس، فوضع أصبعَيْه في أذنَيْه، ثم نادى: يا أيُّها الناسُ إنَّ اللهَ تعالى كَتَبَ عليكم الحجَّ فأَجيبوا ربَّكم. فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وأوَّل مَن أجابَ أهلُ اليمن فليس حاجٌّ يحجُّ مِن يومئذٍ إلى أنْ تقومَ الساعةُ إلا مَن أَجاب يومئذٍ إبراهيمَ عليه السلام. وفي رواية: أنَّه قام على الحَجَر فنادى.

وعن مجاهد أنَّه عليه السلام قام على الصفا، وفي رواية أخرى عنه أنَّه عليه السلام تطاوَل به المقام حتى كان كأطولِ جبل في الأرض فأذَّن في الحجِّ.

ويمكن الجمع بتكرُّر النداء، وأيًّا ما كان، فالخطابُ لإبراهيمَ عليه السلام.

وزعم بعضُهم أنَّه لنبيِّنا ﷺ أُمِرَ بذلك في حجَّة الوداع، وروي ذلك عن الحسن، وهو خلافُ الظاهر جدًّا، ولا قرينةَ عليه، وقيل: يأباهُ كونُ السورةِ مكِّيَّة، وقد علمتَ ما فيه أوَّلَها.

وقرأ الحسنُ، وابنُ محيصن: «وآذِنْ» بالمدِّ والتخفيف[١]، أي: أَعْلِمْ، كما قال البعضُ، وقال آخرون: المرادُ به هنا: أوقع الإيذان؛ لأنَّه على الأوَّل كان ينبغي أن يتعدَّى بنفسه لا بـ «في» فهو كقوله:

.... يَجرَح في عَرَاقِيبها نَصْلِي[٢]

وقال ابنُ عطيَّة[٣]: قد تصحَّفت هذه القراءةُ على ابنِ جنيٍّ[٤] فإنَّه حكى عنهما: «وأَذِنَ» فعلًا ماضياً وجعله معطوفاً على «بوَّأنا»، وتعقَّبه أبو حيَّان[٥] بأنَّه ليس بتصحيف، بل قد حكى ذلك أبو عبد الله الحسين بنُ خالويه في «شواذِّ القراءات»[٦] من جمعه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٢) القائل ذوالرمة، والبيت في ديوانه ١/ ١٥٦، وتمامه:

وإن تعتذر بالمَحْل من ذي ضروعها ... على الضيف ....

وسلف ١٠/ ١٦١.

(٣) المحررالوجيز ٤/ ١١٧.

(٤) في المحتسب ٢/ ٧٨.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٦) القراءات الشاذة ص٩٥، وقال أيضاً السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٦٤: ... ولكنه =

وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «بالحِجِّ» بكسر الحاء حيث وقع[1].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ﴾ جزم في جواب الأمر وهو «أذن» على القراءتين، و«طهِّر» على الثالثة، كما قال صاحب «اللوامح»: وإيقاعُ الإتيان على ضميرِه عليه السلام؛ لكون ذلك بندائه، والمراد: يَأْتوا بيتَك. وقوله سبحانه: ﴿رِجَالًا﴾ في موضع الحال، أي: مشاة، جَمْعُ: رَاجِلٍ، كقيام جمعُ قائم.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «رُجَالًا» بضمِّ الراء والتخفيف[2]، وروي ذلك عن عكرمة، والحسن، وأبي مجلز، وهو اسمُ جمع لراجل، كظؤار[3] لظائر[4]، أو هو جمعٌ نادر، وروي عن هؤلاء، وابنِ عباس، ومحمد بن جعفر، ومجاهد ﷺ: «رُجَّالًا» بالضمِّ والتشديد[5]، على أنَّه جمع راجلٍ، كتاجر وتُجَّار، وعن عكرمة أنَّه قرأَ: «رُجَالى» كسُكَارى[6]، وهو جمع رَجْلان أو راجل، وعن ابنِ عباس، وعطاء، وابنِ حدير مِثْل ذلك إلَّا أنَّهم شدَّدوا الجيمَ[7].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ عطف على «رجالًا» أي: وركباناً على كلِّ بعير مهزول أَتْعَبَه بُعْدُ الشُّقَّة فهزله، أو زادَ هُزالَه، والضامر يُطلقَ على المذكَّر والمؤنَّث، وعدل عن ركباناً الأخصر؛ للدلالة على كثرةِ الآتينَ مِن الأماكن البعيدة.

= لم يطَّلع عليها فنسب من اطَّلع إلى التصحيف، ولو تأنَّى أصاب أو كاد.

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٣) في الأصل و(م): «كظُؤار»، والمثبت من المحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤، والدر المصون ٨/ ٢٦٥. والظؤار جمع ظئر: وهي العاطفة على ولد غيرها المرضعةُ له، في الناس وغيرهم. القاموس (ظأر).

(٤) في الأصل و(م): «لطائر»، ولم نقف فيما بين أيدينا من مصادر على أن ظؤار جمع ظائر، بل هو جمع ظئر كما تقدم آنفاً، وما أثبت هو تبعاً لما ذهب إليه المصنِّف من أنَّه على وزن راجل.

(٥) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٦) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٧) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

وفي الآية دليلٌ على جواز المشي والركوب في الحجِّ، قال ابنُ العربيِّ[١]: واستدلَّ علماؤنا بتقديم «رجالًا» على أنَّ المشيَ أفضلُ، وروي ذلك عن ابنِ عباس، فقد أخرج ابنُ سعدٍ، وابنُ أبي شيبة، والبيهقيُّ، وجماعةٌ أنَّه قال: ما آسى على شيءٍ فاتني إلَّا أنِّي لم أحجَّ ماشياً حتى أدركني الكِبَرُ، أسمع الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فبدأ بالرجالِ قبل الركبان[٢]. وفي ذلك حديثٌ مرفوع فقد أخرج ابنُ سعدٍ، وابنُ مردويه، وغيرُهما عنه أنَّه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ للحاجِّ الراكب بكلِّ خطوةٍ تخطوها راحلتُه سبعينَ حسنة، وللماشي بكلِّ قَدَم سبع مئة حسنة مِن حسنات الحرم» قيل: يا رسولَ الله وما حسناتُ الحَرَم؟ قال: «الحسنةُ مئةُ ألفِ حسنة»[٣]. وأخرج ابنُ أبي شيبة عن مجاهد: أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل عليهما السلام حَجَّا وهما ماشيان[٤].

وقال ابنُ الفَرَس: واستدلَّ بعضُهم بالآية على أنَّه لا يجبُ الحجُّ على مَن في طريقه بحرٌ ولا طريقَ له سواه؛ لكونه لم يُذكَر في الآية.

وتُعقِّب بأنَّه استدلالٌ ضعيف؛ لأنَّ مكَّة ليست على بحر، وإنَّما يُتوصَّل إليها على إحدى الحالين مَشي أو ركوب، وأيضاً في دلالة عدم الذِّكْر على عدمِ الوجوب نظرٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ «ضامر» أو لـ «كل»، والجمع باعتبار المعنى كأنَّه قيل: وركباناً على ضوامر يأتين، و«كل» هنا للتكثير لا للإحاطة، وما قيل مِن أنَّها إذا أضيفت لنكرةٍ لم يُراعَ معناها إلا قليلًا، ردُّوه بهذه الآية ونظائرها، وكذا ما قيل: إنَّه يجوز إذا كانا في جملتين؛ لأنَّ هذه جملةٌ واحدة.

---

(١) في أحكام القرآن له ٣/ ١٢٦٨.
(٢) ابن أبي شيبة ٤/ ٩٧-٩٨، والبيهقي ٤/ ٣٣١، وأخرجه أيضاً الطبري ١٦/ ٥١٨.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٥٥، وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (٨٣٢)، والأزرقي في أخبار مكة ٢/ ٧، والطبراني في الكبير ١٢/ (١٢٥٢٢) و(١٢٦٠٦)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/ ٣٥٤، والبيهقي ٤/ ٣٣١، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٥٦٧ من طرق مختلفة وبأسانيد كلها فيها مقال، قال ابن الجوزي: هذان حديثان لا يصحان، مدارهما على إسماعيل بن أمية، قال الدارقطني: كان يضع الحديث. اهـ. وينظر علل الحديث للرازي ٢/ ٢٧٩، والسلسلة الضعيفة للألباني (٤٩٥) و(٤٩٦).
(٤) ابن أبي شيبة ٤/ ٩٨، وأخرجه أيضاً الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٤.

وجوَّز أبو حيَّان[١] أن يكون الضميرُ شاملًا لرجال و«كل ضامرٍ»، والجملة صفةٌ لذلك على معنى الجماعات الرفاق.

وتُعقِّب بأنَّه يلزمه تغليبُ غيرِ العقلاء عليهم، وقد صرَّحوا بمنعه. نعم قرأ عبدُ الله وأصحابه، والضحَّاك، وابنُ أبي عبلة: «يأتون»[٢]، واعتبارُ التغليبِ فيه على بابه، والمشهور جَعْلُ الضمير لـ «رجالًا» و«ركباناً»، فلا تغليبَ، وجوّز جعلُ الضمير للناس، والجملة استئنافية.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي: طريق، كما روي عن ابنِ عباس ومجاهد، وقتادة، والضحَّاك، وأبي العالية، وهو في الأصل: شقَّة يَكتنفُها جبلان، ويستعمل في الطريق الواسع، وكأنَّهم جرَّدوه عن معنى السعة؛ لأنَّه لا يناسبُ هنا بل يخلو مِن خلل ﴿عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ أي: بعيدٍ، وبه فسَّره الجماعة أيضاً، وأصله: البعيدُ سُفْلًا، وهو غيرُ مناسب هنا.

وقرأ ابنُ مسعود: «مَعِيْق»[٣]، قال الليث: يقال: عَمِيْق ومَعِيْق لتميم، وأَعْمقتُ البئرَ وأَمْعَقْتها، وقد عَمُقَتْ ومَعقَتْ عَماقةً ومَعَاقةً، وهي بعيدة العُمْق والمعق.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ متعلِّق بـ: «يأتوك»، وجوَّز أبو البقاءِ[٤] تعلُّقه بـ «أَذِّن»، أي: ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ عظيمةَ الخَطَر كثيرةَ العدد، فتنكيرُها - وإن لم يكن فيه تنوينٌ - للتعظيمِ والتكثير، ويجوز أن يكون للتنويع، أي: نوعاً مِن المنافع الدينيَّة والدنيويَّة، وتعميمُ المنافع بحيث تشمل النوعينِ ممَّا ذهبَ إليه جمعٌ، وروي ذلك عن ابنِ عباس، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم[٥] عنه أنَّه قال في الآية: منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة، فأمَّا منافعُ الآخِرة فرضوانُ الله تعالى، وأمَّا منافعُ الدنيا فما يصيبونَ مِن لحوم البُدْنِ في ذلك اليوم والذبائح والتجارات.

وخصَّ مجاهدٌ منافعَ الدنيا بالتجارة، فهي جائزةٌ للحاجِّ مِن غير كراهة إذا لم

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٣) الكشاف ٣/ ١١، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٤) الإملاء ٤/ ٣٧.

(٥) في التفسير ٨/ ٢٤٨٨ (١٣٨٨٩).

تكن هي المقصودة مِن السفر. واعتُرض بأنَّ نداءَهم ودعوتهم لذلك مستبعدٌ، وفيه نظرٌ، على أنَّه إنَّما يتأتَّى على ما جوَّزه أبو البقاء، وعن الباقرِ رضي الله عنه تخصيصُ المنافع بالأخرويَّة، وفي رواية عن ابنِ عباس تخصيصُها بالدنيويَّة، والتعميم أولى.

﴿لَهُمْ﴾ في موضع الصفة لـ «منافع»، أي: منافع كائنة لهم ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند النحر ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ أي: مخصوصات، وهي أيَّام النحر، كما ذهب إليه جماعةٌ منهم أبو يوسف ومحمَّد، عليهما الرحمة.

وعدَّتها ثلاثةُ أيام؛ يوم العيد ويومان بعده عندنا، وعند الثوريِّ، وسعيد بنِ جبير، وسعيد بنِ المسيب؛ لما روي عن عمر، وعليٍّ، وابنِ عمر، وابنِ عباس، وأنسٍ، وأبي هريرة رضي الله عنهم أنَّهم قالوا: أيامُ النحر ثلاثةٌ، أفضلها أوَّلُها، وقد قالوه سماعاً؛ لأنَّ الرأيَ لا يهتدي إلى المقادير، وفي الأخبار التي يعوَّل عليها تعارضٌ، فأخذنا بالمتيقَّن وهو الأقلُّ، وقال الشافعيُّ، والحسنُ، وعطاء: أربعةُ أيَّام؛ يوم العيد وثلاثة بعدَه، لقوله ﷺ: «أيَّام التشريق كلُّها أيَّام ذَبْح»[1] وعند النخعيِّ: وقت النحر يومان، وعند ابنِ سيرين يومٌ واحد، وعن أبي سلمة، وسليمان بنِ يسار: الأضحى إلى هلال المحرَّم. ولم نجد في ذلك مستنداً يعوَّل عليه.

واستدلَّ بذِكْر الأيام على أنَّ الذبح لا يجوز ليلًا، قال أبو حيَّان[2]: وهو مذهبُ مالك وأصحابِ الرأي. انتهى. والمذكور في كتب الأصحاب أنَّه يجوز الذبحُ ليلًا إلا أنَّه يُكرَه؛ لاحتمال الغَلَط في ظُلمة الليل.

وأمَّا الاستدلال على عدم الجواز بذِكْر الأيَّام فكما ترى، وقيل: الأيَّام المعلومات عشرُ ذي الحجَّة، وإليه ذهب أبو حنيفة ـ عليه الرحمة ـ وروي عن ابنِ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٥٢)، والبزار (١١٢٦)، وابن حبان (٣٨٥٤)، والطبراني في الكبير (١٥٨٣)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١١٨، والدارقطني (٤٧٥٦) و(٤٧٥٨)، والبيهقي ٥/ ٢٣٩ و٩/ ٢٩٥ من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.
قال ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٨: أخرجه أحمد لكن في سنده انقطاع، ووصله الدارقطني ورجاله ثقات.
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٤٠٠ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال ابن أبي حاتم في العلل: قال أبي: هذا حديث موضوع بهذا الإسناد.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٥.

عباس، والحسن، وإبراهيم، وقتادة، ولعلَّ المرادَ بذِكْر اسمِه تعالى على هذا ما قيل: حمده وشكره عزَّ وجلَّ، وعلى الأوَّل قولُ الذابح: بسم الله واللهُ أكبر، على ما روي عن قتادة، وذكر أنَّه يقال مع ذلك: اللهمَّ منكَ ولكَ عن فلانٍ، وسيأتي إن شاء الله تعالى قولٌ آخرُ. ورجِّح كونه بمعنى الشكر بأنَّه أوفقُ بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

واختار الزمخشريُّ[1] أنَّ الذِّكْرَ على بهيمة الأنعام أو مطلقاً على ما يقتضيه ظاهرُ كلامِ بعضهم كناية عن النَّحْر، وذكر أنَّه دلَّ بذلك على المقصود الأصلي مِن النحر ومايميِّزه عن العادات. وأومأ فيه إلى أنَّ الأعمالَ الحجِّيَّة كلَّها شُرعَت للذِّكْر. وأنَّه قيل «على ما رزقهم» إلى آخره؛ تشويقاً في التقرُّب ببهيمة الأنعام ـ المراد بها الإبل والبقر والضَّأن والمَعْز ـ إلى الرازق، وتهويناً عليهم في الإنفاق، مع ما في ذلك من الإجمال والتفسير، وظَرفيَّة الأيام المعلومات على القول بأنَّها عشر ذي الحجَّة للنحر؛ باعتبار أنَّ يومَ النحر منها، وقد يقال مثلُ ذلك على تقدير إبقاءِ الذِّكْر على ما يتبادر منه.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ التفاتٌ إلى الخطاب، والفاء فصيحة، أي: فاذكروا اسمَ الله تعالى على ضحاياكم، فكلوا مِن لحومها، والأمر للإباحة؛ بناءً على أنَّ الأكلَ كان منهيًّا عنه شرعاً. وقد قالوا: إنَّ الأمرَ بعد المنع يقتضي الإباحةَ، ويدلُّ على سَبْقِ النهي قوله ﷺ: «كنتُ نهيتكم عن أكلِ لحوم الأضاحي، فكلوا منها وادَّخِروا»[2]. وقيل: لأنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يتحرَّجون فيه، أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم في الأكل منها، وهذا على ما قال الخفاجيُّ[3] مذهبُ أبي حنيفة رضي الله عنه.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ أي: الذي أصابه بؤسٌ، أي: شدَّة، وعن مجاهد وعكرمة تفسيره بالذي يمدُّ كفَّيه إلى الناس يسأل. ﴿ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: المحتاج، والأمر

---

(١) الكشاف ٣/ ١١.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو عند مسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، و(١٩٧٧) (٣٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه بنحوه.

(٣) في حاشيته ٦/ ٢٩٣.

للندب عند الإمام على ما ذكره الخفاجيُّ[١] أيضاً، ويستحبُّ كما في «الهداية»[٢] أن لا ينقصَ ما يُطعَم عن الثلث؛ لأنَّ الجهاتِ: الأكلُ والإطعام الثابتان بالآية، والادِّخار الثابت بالحديث، فتقسم الأضحية عليها أثلاثاً. وقال بعضهم: لا تحديدَ فيما يُؤكل أو يُطعَم؛ لإطلاق الآية، وأوجبَ الشافعيَّة الإطعامَ، وذهب قومٌ إلى أنَّ الأكلَ مِن الأضحية واجبٌ أيضاً.

وتخصيصُ «البائسِ الفقير» بالإطعام لا ينفي جوازَ إطعام الغنيِّ. وقد يستدل على الجواز بالأمر الأوَّل؛ لإفادته جوازَ أكلِ الذابح، ومتى جاز أكله ـ وهو غني ـ جاز أن يُؤْكِله غنيًّا.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ هو في الأصل: الوسخُ والقَذَرُ، وعن قُطْرب: تفثَ الرجلُ: كَثُرَ وسخُه في سفره. وقال أبو محمَّد البصريُّ: التَّفَث: مِن التفِّ، وهو وَسَخُ الأظفارِ، وقلبت الفاءُ ثاءً كما في مُغْثُور، وفسَّره جمعٌ هنا بالشعور والأظفار والأخذ مِن الشوارب والعارِضَيْن كما في روايةٍ عن ابنِ عباس، ونتف الإبط وحَلْق الرأس والعانة، وقيل: القضاءُ مقابلُ الأداءِ، والكلام على حذف مضاف، أي: ليقضوا إزالةَ تَفَثهم، والتعبير بذلك؛ لأنَّه لمضيِّ زمانِ إزالته عُدَّ الفعل قضاء لما فات، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال: التَّفَثُ: النُّسُك كلُّه مِن الوقوف بعرفةَ والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار[٣]. والقضاء على هذا بمعنى الأداء، كأنَّه قيل: ثم ليؤدُّوا نُسُكَهم. وكأنَّ التعبير عن النسك بالتفث؛ لما أنَّه يستدعي حصولَه، فإن الحُجَّاج ما لم يحلُّوا شُعْثٌ غُبْرٌ، وهو كما ترى، وقد يقال: إنَّ المرادَ مِن إزالة التَّفَث بالمعنى السابق قضاءُ المناسك كلِّها؛ لأنَّها لا تكون إلا بعده، فكأنَّه أراد أنَّ قضاءَ التَّفَث هو قضاءُ النسك كلِّه بضَرْب مِن التجوُّز، ويؤيِّده ما أخرجه جماعةٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: قضاءُ التَّفَث قضاءُ النسك كلِّه[٤].

---

(١) في حاشيته ٦/ ٢٩٤.

(٢) ٨/ ٧٦-٧٧.

(٣) ابن أبي شيبة ٤/ ٨٤، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٢٦.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٥٢٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٨٩ (١٣٨٩٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٧ أيضاً إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرونه مِن أعمال البِرِّ في حجِّهم، وعن ابنِ عباس تخصيصُ ذلك بما ينذرونه مِنْ نحرِ البُدْن. وعن عكرمةَ: هي مواجب الحجِّ. وعن مجاهد: ما وجب مِن الحجِّ والهدي، وما نذره الإنسان مِن شيء يكون في الحجِّ، فالنذر بمعنى الواجب مطلقاً مجاز.

وقرأ شعبة عن عاصم: «وليُوَفُّوا» مشدَّداً[1] ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طوافَ الإفاضة، وهو طوافُ الزيارة الذي هو من أركان الحجِّ، وبه تمامُ التحلُّل، فإنَّه قرينةُ قضاءِ التَّفَث بالمعنى السابق، وروي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، والضحَّاك، وجماعةٍ، بل قال الطبريُّ[2] ـ وإن لم يُسلَّم له ـ: لا خلافَ بين المتأوِّلين في أنَّه طوافُ الإفاضة، ويكون ذلك يوم النحر، وقيل: طواف الصَّدَر وهو طواف الوداع، وفي عدِّه مِن المناسك خلافٌ.

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ أخرج البخاريُّ في «تاريخه»، والترمذيُّ وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه، وابنُ جرير، والطبرانيُّ، وغيرُهم عن ابنِ الزبير قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما سمَّى اللهُ البيتَ العتيقَ؛ لأنَّه أعتقه مِن الجبابرة، فلم يظهر عليه جبَّارٌ قطُّ»[3] وإلى هذا ذهب ابنُ أبي نجيح، وقتادة.

وقد قصده تُبَّع[4] ليَهْدِمه فأصابه الفالجُ، فأشير عليه أن يكفَّ عنه، وقيل: له ربٌّ يمنعه، فتركَه، وكساه وهو أوَّل مَن كساه. وقصده أبرهةُ فأصابه ما أصابه، وأما الحجَّاج فلم يقصد التسلُّط على البيت، لكن تحصَّن به ابنُ الزبير فاحتالَ

---

(١) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٢) في التفسير ١٦/ ٥٣١.

(٣) التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٢٠١، والترمذي (٣١٧٠)، والحاكم ٢/ ٣٨٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٣١، والطبراني في الكبير (٢٦٢)، وأخرجه أيضاً البيهقي في الدلائل ١/ ١٢٥، وفي الشُّعَب (٤٠١٠).

(٤) هو: حسان بن أسعد أبي كرب الحميري، ويقال: تُبَّع بن حسان، وقيل غير ذلك، من أعاظم تبابعة اليمن في الجاهلية، عاش في القرن العاشر قبل الهجرة أو قبل ذلك. وخبر هدمه للكعبة وأنه أول من كساها ذكره الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٣٣، ٢٤٩، وابن منظور في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/ ٢٩٥ وما بعدها.

لإخراجه ثم بناه[(١)]، ولعلَّ ما وقع مِن القرامطة ـ وإن أخذوا الحجرَ الأسودَ وبقي عندهم سنين ـ مِن هذا القبيل[(٢)]، ويقال فيما يكون آخر الزمان مِن هدم الحبشة إيَّاه وإلقاء أحجارِه في البحر[(٣)] ـ إن صحَّ ـ: إنَّ ذلك مِن أشراطِ الساعة التي لا ترد نقضاً على الأمور التي قيل باطِّرادها، وقيل في الجواب غير ذلك.

وعن مجاهد أنَّه إنَّما سمِّي بذلك؛ لأنَّه لم يُملَك موضِعُه قطُّ، وفي روايةٍ أخرى عنهُ أنَّ ذلكَ؛ لأنهُ أُعتقَ من الغَرَقِ زمانَ الطوفانِ، وعنِ ابنِ جبيرٍ أنَ العتيقَ بمعنى الجيِّدِ، من قولهم: عتاقُ الخيلِ وعتاقُ الطير، وقيلَ: فَعِيْل بمعنى مفعلٍ أي: مُعْتِق رقابَ المذنبين، ونسبة الإعتاقِ إليه مجازٌ؛ لأنَّه تعالى يُعتِقُ رقابَهم بسببِ الطَّواف به. وقال الحسن، وابنُ زيدٍ: العتيقُ: القديمُ، فإنَّه أوَّلُ بيتٍ وُضعَ للناس، وهذا هو المتبادَر إلَّا أنَّك تَعلمُ أنَّه إذا صحَّ الحديثُ لا يُعدَل عنه، ثم إنَّ حِفْظَه مِن الجبابرة وبقاءَه الدهرَ الطويل معظَّماً يؤتى مِن كلِّ فجٍّ عميقٍ بمحضِ إرادة اللهِ تعالى المبنيَّة على الحكم الباهرة.

وبعض المُلحدين زعموا أنَّه بني في شرف زُحَل والطالع الدلو أحد بيتَيْه، وله مناظرات سعيدةٌ، فاقتضى ذلك حفظَه مِن الجبابرة وبقاءَه معظماً الدهرَ الطويل، ويسمُّونه لذلك بيتَ زحل، وقد ضلُّوا بذلك ضلالاً بعيداً، وسنبيِّن ـ إن شاء الله تعالى ـ خَطَأَ من يقول بتأثيرِ الطالع أتمَّ بيانٍ، والله تعالى المستعان.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر، وهذا وأمثاله مِن أسماء الإشارة يُطلَق للفصل بين الكلامَيْن أو بين وجهي كلامٍ واحد، والمشهور مِن ذلك هذا، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٥.
(٢) الخبر ذكره ابن الأثير في الكامل ٨/ ٢٠٧ وما بعدها، وابن كثير في البداية والنهاية ١١/ ١٦٠.
(٣) الخبر هكذا ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ٢/ ١٢٢، وذكره أيضاً العيني في عمدة القاري ٩/ ٢٣٣ وعزاه لابن الجوزي، وأصله عند البخاري (١٥٩١) و(١٥٩٦)، ومسلم (٢٩٠٩) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخرِّب الكعبةَ ذو السويقتين من الحبشة» وهو أيضاً عند البخاري عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «كأني به أسودَ أفحجَ، يقلعها حجراً حجراً». ولم يرد فيهما ذكر إلقاء الأحجار في البحرِ. ومعنى أفحج: أي بعيد ما بين الساقين. فتح الباري ٣/ ٤٦١.

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥] وكقول زهير وقد تقدَّم له وصفُ هَرِم بالكرم والشجاعة:

هـذا ولـيـسَ كَـمَـنْ يَـعْـيـا بـخُـطْـبـتـه وَسـطَ الـنـديِّ إذا مـا نـاطـقٌ نـطـقـا[1]

واختيار «ذلكَ» هنا؛ لدلالته على تعظيم الأمر وبُعْدِ منزلته وهو مِن الاقتضاب القريب من التخلُّص لملاءَمة ما بعدَه لما قَبْله، وقيل: هو في موضع نصب بفعلٍ محذوفٍ، أي: امتثلوا ذلك.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جمع: حُرْمَة، وهو: ما يُحتَرم شرعاً، والمرادُ بها جميعُ التكليفات مِن مناسك الحجِّ وغيرها. وتعظيمُها بالعِلْم بوجوب مراعاتِها والعمل بموجبه، وقال جمعٌ: هي ما أمرَ به مِن المناسك، وعن ابنِ عباسٍ ﵄: هي جميعُ المناهي في الحجِّ: فسوقٌ وجدال وجماعٌ وصَيْد، وتعظيمها أن لا يحومَ حولَها. وعن ابنِ زيد: هي خمسٌ: المشعرُ الحرام، والمسجدُ الحرام، والبيتُ الحرام، والشهرُ الحرام، والمُحرِم حتى يحلَّ. ﴿فَهُوَ﴾ أي: فالتعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ مِن غيره على أنَّ «خير» اسمُ تفضيل. وقال أبو حيَّان[2]: الظاهر أنَّه ليس المرادُ به التفضيلَ، فلا يحتاج لتقدير متعلَّق، ومعنى كونه خيراً له ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أنَّه يُثاب عليه يومَ القيامة، والتعرُّض لعنوانِ الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير «مَن»؛ لتشريفه والإشعار بعلَّة الحكم.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: ذَبْحها وأكلها؛ لأنَّ ذاتها لا تُوصَف بحلٍّ وحُرمة، والمراد بها الأزواجُ الثمانية على الإطلاق، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه، استثناء متَّصل كما اختاره الأكثرونَ منها، على أنَّ «ما» عبارة عمَّا حرمَ منها لعارض، كالميتة وما أُهل به لغيرِ الله تعالى، وجوّز أن يكون الاستثناء منقطعاً؛ بناء على أنَّ «ما» عبارة عمَّا حرم في قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية [٣ من سورة المائدة]، وفيه ما ليس مِن جنس

---

(١) شرح ديوان زهير ص٥٥، وفيه: بخطَّته، بدل: بخطبته، والرجال، بدل: الندي، وذكره بلفظ: بخطبته، ابن رشيق في العمدة ٢/ ١٣٤، وذكره القيراواني في زهر الآداب ٢/ ٧٠٥ بلفظ: بحُجَّته.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.

الأنعام، والفعل على الوجهين لم يَرد منه الاستقبالُ؛ لسَبقِ تلاوةِ آية التحريم، وكأنَّ التعبيرَ بالمضارع؛ استحضاراً للصورة الماضية لمزيدِ الاعتناء، وقيل: التعبيرُ بالمضارع للدلالة على الاستمرار التجدديِّ المناسب للمقام، والجملة معترضة مقرِّرة لما قبلها مِن الأمْرِ بالأكل والإطعام، ودافعةٌ لما عسى يتوهَّم أنَّ الإحرام يُحرِّم ذلك كما يُحرِّم الصيدَ.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ أي: القَذَر ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: الذي هو الأوثان، على أنَّ «مِن» بيانيَّة.

وفي تعريف «الرجس» بلامِ الجنس مع الإبهام والتعيين وإيقاع الاجتناب على الذاتِ دونَ العبادة مالا يخفى مِن المبالغة في التنفير عن عبادتها. وقيل: «مِن» لابتداءِ الغاية، فكأنَّه تعالى أَمرهم باجتنابِ الرجس عامًّا، ثم عيَّن سبحانه لهم مبدأه الذي منه يلحقهم، إذ عبادةُ الوَثَنِ جامعةٌ لكلِّ فسادٍ ورجسٍ، وفي «البحر»[1]: يمكن أن تكون للتبعيض، بأن يعني بالرجس عبادةَ الأوثان، وقد رُويَ ذلك عن ابنِ عباس، وابنِ جريج، فكأنَّه قيل: فاجتنبوا مِن الأوثان الرجسَ، وهو العبادة؛ لأنَّ المحرَّم منها إنَّما هو العبادة، ألا ترى أنَّه قد يتصوَّر استعمالُ الوَثَن في بناءٍ وغيرِ ذلك مما لم يُحرِّمه الشرعُ، فكأنَّ للوثنِ جهات، منها عبادته وهو المأمورُ باجتنابه، وعبادتُه بعضُ جهاته، فقول ابنِ عطيَّة[2]: إنَّ من جعل «مِن» للتبعيض قَلَب المعنى وأفسده، ليس في محلِّه. انتهى. ولا يَخفى ما في كلا الوجهين الابتداءِ والتبعيضِ مِن التكلُّف المستغنى عنه، وهاهنا احتمالٌ آخَر ستعلمه ـ مع ما فيه ـ إن شاء الله تعالى قريباً، والفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما يفيده قوله تعالى: «ومَن يعظِّم» إلخ، مِن وجوب مراعاةِ الحرمات والاجتناب عن هَتْكها.

وذكر أنَّ بالاستثناء حسن التخلُّص إلى ذلك، وهو السِّرُّ في عدم حَمْلِ الأنعام على ما ذكر مِن الضحايا والهدايا المعهودة خاصَّة ليستغنى عنه، إذ ليس فيها ما حرم لعارض، فكأنَّه قيل: ومَن يُعظِّم حرماتِ اللهِ فهو خيرٌ له، والأنعام ليست مِن الحرمات فإنَّها محلَّلة لكم إلا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه، فإنَّه مما يجبُ الاجتناب

---

(١) ٦/٣٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠.

عنه، فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التي يجب الاجتنابُ عنها وهو عبادةُ الأوثان، وقيل: الظاهر أنَّ ما بعدَ الفاءِ متسبب عن قوله تعالى: «أُحلَّت لكم الأنعام» فإنَّ ذلك نعمةٌ عظيمةٌ تستدعي الشكرَ للهِ تعالى لا الكفرَ والإشراكَ، بل لا يَبعُد أن يكون المعنى: فاجتنبوا الرجسَ مِن أجل الأوثان، على أنَّ «من» سببيَّة وهي تخصيصٌ لما أهلَّ به لغير الله تعالى بالذكر، فيتسبَّب عن قوله تعالى: «إلَّا ما يُتلى»، ويؤيِّده قولُه تعالى: فيما بعد ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الآية: ٣١] فإنَّه إذا حمل على ما حملوه كان تكراراً. انتهى. وأوردَ على ما ادَّعى ظهوره أنَّ إحلالَ الأنعام وإن كان مِن النِّعَم العظام إلَّا أنَّه مِن الأمور الشرعيَّة دونَ الأدلة الخارجيَّة التي يُعرَف بها التوحيد وبطلانُ الشرك فلا يَحسُن اعتبارُ تسبُّب اجتنابِ الأوثان عنه. وأمَّا ما ادَّعى عدم بُعدِه، فبعيدٌ جدًّا وإنكار ذلك مكابرةٌ، فتأمَّل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ، فإنَّ عبادةَ الأوثان رأسُ الزُّور؛ لما فيها مِن ادِّعاء الاستحقاقِ، كأنَّه تعالى لما حثَّ على تعظيم الحرمات، أَتبعَ ذلك بما فيه ردٌّ لما كانت الكفرة عليه مِن تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراءِ على الله تعالى، بأنَّه حَكَم بذلك، ولم يعطف «قولَ الزور» على «الرجس»، بل أعاد العاملَ؛ لمزيدِ الاعتِناء.

والمراد مِن «الزُّور»: مُطلَق الكذبِ وهو مِن الزَّوَر بمعنى الانحرافِ، فإنَّ الكذبَ منحرفٌ عن الواقع، والإضافة بيانيَّة، وقيل: هو أمرٌ باجتناب شهادةِ الزُّوْر؛ لما أخرج أحمدُ، وأبو داود، وابنُ ماجه، والطبرانيُّ، وغيرُهم عن ابنِ مسعود أنَّه ﷺ صلَّى صلاةَ الصبح، فلما انصرفَ قائماً قال: «عَدَلَتْ شهادةُ الزُّور الإشراكَ بالله تعالى» ثلاثَ مرَّات، ثم تلا هذه الآيةَ[1].

---

(١) الطبراني في الكبير (٨٥٧٠)، ولم نقف عليه عند غيره من المصادر المذكورة أعلاه عن ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٠١: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن. اهـ. قلنا: وفيه ضرار بن صرد، وهو متروك. تهذيب الكمال.
وأخرجه أحمد (١٨٨٩٨)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢)، والطبراني في الكبير (٤١٦٢) من حديث خريم بن فاتك الأسدي ﷺ.
وأخرجه أحمد (١٧٦٠٣)، والترمذي (٢٢٩٩) من حديث أيمن بن خريم ﷺ. قال الترمذي: وهذا حديث غريب... ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبيِّ ﷺ. اهـ.
=

وتُعقِّب بأنَّه لا نصَّ فيما ذكر مِن الخبر ـ مع ما في سندِه في بعضِ الطرق مِن المقال ـ على التخصيصِ؛ لجواز بقاءِ الآية على العموم وتلاوتها لشمولِها لذلك، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن مقاتل أنَّه قال: يعني بـ: «قول الزور»: الشركَ بالكلام، وذلك أنَّهم كانوا يطوفون بالبيت، فيقولون في تلبيتهم: لبيكَ لا شريكَ لكَ إلا شريكاً هو لكَ تَملكُه وما مَلَك(١). وهو قولٌ بالتخصيص. ولا يَخفى أنَّ التعميمَ أَولى منه وإن لَاءَم المقامَ، كتخصيص بعضِهم ذلك بقولِ المشركين: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مائلينَ عن كلِّ دينٍ زائغ إلى الدينِ الحقِّ، مخلصِين له تعالى ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: شيئاً مِن الأشياء، فيدخل في ذلك الأوثان دخولاً أوليًّا، وهما حالانِ مؤكِّدتان مِن واو: «فاجتنبوا»، وجوّز أن يكون حالاً مِن واو «واجتنبوا»، وأخّر التبرّي عن التوليّ؛ ليتَّصل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي جملةٌ مبتدأةٌ مؤكِّدة لما قَبلها مِن الاجتناب مِن الإشراك، وإظهار الاسم الجليل؛ لإظهار كمال قُبحِ الإشراك، وقد شبّه الإيمان بالسماء؛ لعلوِّه، والإشراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقطٌ مِن أوجِ الإيمان إلى حضيضِ الكفر، وهذا السقوط إن كان في حقِّ المرتدِّ فظاهر، وهو في حقِّ غيره باعتبار الفطرة، وجعل التمكُّن والقوَّة بمنزلة الفعل، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ فإنَّ الأهواءَ المُردِية توزِّع أفكارَه، وفي ذلك تشبيهُ الأفكار الموزَّعة بخطفِ جوارح الطيرِ، وهو مأخوذٌ مِن قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] وأصلُ الخطفِ: الاختلاسُ بسرعة.

وقرأ نافع: «فَتَخَطَّفُهُ» بفتح الخاءِ والطاء مشدَّدة(٢). وقرأ الحسنُ، وأبو رجاء، والأعمش: «فَتِخِطِّفُهُ» بكسرِ التاء والخاء والطاء مشدَّدة(٣)، وعن الحسنِ كذلك

= وقال عن حديث خريم بن فاتك: هذا عندي أصح، وخريم بن فاتك له صحبة، وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث، وهو مشهور.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩١ (١٣٩١٤).

(٢) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٦.

إلا أنَّه فتح الطاء مشدَّدة[١]. وقرأ الأعمش أيضاً: «تَخْطَفُهُ» بغير فاء، وإسكان الخاء وفتح الطاء مخفَّفة[٢]، والجملة على هذه القراءة في موضع الحالِ، وأمَّا على القراءات الأُوَل فالفاء للعطف، وما بعدها عطف على «خَرَّ»، وفي إيثار المضارع إشعارٌ باستحضار تلك الحالة العجيبةِ في مشاهدِ المخاطب تعجيباً له، وجوَّز أبو البقاء[٣] أن يكون الكلامُ بتقدير: فهو يخطفه، والعطف مِن عطف الجملة على الجملة ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تُسقِطه وتَقذِفه.

وقرأ أبو جعفر، وأبو رجاء: «الرياح»[٤] ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ بعيدٍ، فإنَّ الشيطانَ قد طوَّح به في الضلالة، وفي ذلك تشبيهُ الشيطان المُضِلِّ بالريح المهويَّة، وهو مأخوذٌ مِن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] فالتشبيه في الآية مفرّق، والظاهر أنَّ «تهوي» عطف على «تخطف»، و«أو» للتقسيم على معنى أنَّ مهلكَه إمَّا هوًى يتفرَّق به في شعب الخسار، أو شيطان يطوِّح به في مَهْمَهِ البوار، وفرق بين خاطر النفس والشيطان، فلا يرد ما قاله ابنُ المنيِّر[٥] مِن أنَّ الأفكارَ مِن نتائج وساوسِ الشيطان، والآية سيقت لجعلهما شيئين، وفي تفسير القاضي[٦] أنَّها للتخيير على معنى: أنتَ مخيَّر بين أن تُشبِّه المشركَ بمن خرَّ مِن السماء فتخطفه الطيرُ، وبين من خرَّ من السماء فتهوي به الريحُ في مكانٍ سحيق، أو للتنويع على معنى أنَّ المشبَّه به نوعان، والمشبَّه بالنوع الأوَّل - الذي توزَّع لحمُه في بطونِ جوارح الطير - المشركُ الذي لا خلاصَ له مِن الشرك ولا نجاةَ أصلاً، والمشبَّه بالنوع الثاني - الذي رمته الريح في المهاوي - المشركُ الذي يُرجى خلاصُه، على بُعْدٍ. وقال ابنُ المنيِّر[٧]: إنَّ الكافر قسمان لا غير: مُذبذَب متمادي على الشَّكِّ وعدم التصميم على ضلالة واحدة، وهذا مشبَّه بمن اختطفته الطيرُ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.
(٣) الإملاء ٤/ ٣٨.
(٤) النشر ٢/ ٢٢٤، والقراءات الشاذة ص٩٥.
(٥) في كتابه: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٣/ ١٣.
(٦) البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٥.
(٧) الانتصاف ٣/ ١٣.

وتوزعته، فلا يستولي طائرٌ على قطعةٍ منه إلا انتهبها منه آخرُ، وتلك حالُ المذبذب لا يلوح له خيالٌ إلا اتَّبعه وتَرَكَ ما كان عليه. ومشرك مصمِّم على مُعتقَد باطل لو نُشِرَ بالمناشيرلم يَكِعَّ[(١)]، ولم يرجع، لا سبيلَ إلى تشكيكِه ولا مطمَع في نَقْله عمَّا هو عليه، فهو فرح متبهجٌ بضلالته، وهذا مشبَّه في قراره على الكفر باستقرار مَن هوت به الريح إلى وادٍ سافلٍ هو أبعد الأحياز[(٢)] عن السماء فاستقرَّ فيه. انتهى. ولا يخفى أنَّ ما ذكرناه أوفقُ بالظاهر.

وجوَّز غيرُ واحد أن يكون مِن التشبيهات المركَّبة، فكأنَّه سبحانه قال: مَن أشركَ بالله تعالى فقد أهلك نفسَه إهلاكاً ليس بعده [نهاية]، بأنْ صوَّرَ حاله بصورة حالِ مَن خرَّ من السماء، فاختطفَتْه الطيرُ فتفرَّقَ قِطَعاً في حواصلها، أو عصفت به الريحُ حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة[(٣)]. وجعل في «الكشف» «أو» على هذا للتخيير، وليس بمتعيَّن فيما يظهر، وعلى الوجهين تفريقُ التشبيه وتركيبه في الآية تشبيهان.

وذكر الطيبيُّ أنَّ فيها على التركيب تشبيهين، و«تهوي» عطف على «خرَّ»، وعلى التفريق تشبيهاً واحداً، و«تهوي» عطف على «تخطف»، وزعم أنَّ في عبارة «الكشاف» ما يُؤذِن بذلك، وهو غير مُسلَّم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو: امتثلوا ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: البُدْنَ الهدايا، كما روي عن ابنِ عباس، ومجاهد، وجماعةٍ، وهي جمعُ: شَعيرةٍ أو شِعارة بمعنى العَلَامة كالشِّعَار، وأطلقت على البُدْن الهدايا؛ لأنَّها مِن معالم الحجِّ أو علامات طاعتِه تعالى وهدايته.

وقال الراغبُ[(٤)]: لأنَّها تُشعَر، أي: تُعلَّم، بأن تُدمَى بشعيرة، أي: حديدةٍ يُشعَر بها. ووجه الإضافة على الأوجه الثلاثة لا يَخفى، وتعظيمها أنْ تُختار حِسَاناً سِماناً غاليةَ الأثمان، روي أنَّه ﷺ أَهدى مئةَ بدنةٍ فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَةٌ

---

(١) كَعَّ يَكِعُّ ويَكُعُّ: جَبُنَ وضَعُفَ، فهوكَعٌّ وكاعٌّ وكُعْكُعٌ. القاموس (كعع).
(٢) في الانتصاف ٣/ ١٣: الأخباء.
(٣) الكشاف ٣/ ١٢ وما بين حاصرتين استدركت منه.
(٤) المفردات (شعر).

مِن ذهب[(١)]. وعن عمرَ أنَّه أهدى نَجيبةً طُلبَت منه بثلاثِ مئةِ دينار، وقد سأل النبيَّ ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بُدْناً، فنهاه عن ذلك، وقال: «بل أَهْدِها»[(٢)].

وكان ابنُ عمر ﵄ يَسوقُ البُدْن مجلَّلة بالقباطي[(٣)]، فيتصدَّق بلحومِها وبجِلالها. وقال زيدُ بنُ أسلم: الشعائرُ ستٌّ: الصفا، والمروة، والبُدْن، والجِمار، والمسجدُ الحرام، وعرفةُ، والركنُ، وتعظيمها إتمامُ ما يُفعَل بها. وقال ابنُ عمر، والحسنُ، ومالكٌ، وابنُ زيدٍ: الشعائرُ: مواضعُ الحجِّ كلّها مِن منى وعرفةَ والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغيرِ ذلك، وهو نحو قول زيد.

وقيل: هي شرائعُ دينه تعالى، وتعظيمها: التزامها، والجمهور على الأوَّل، وهو أوفقُ لما بعد.

و«من» إمَّا شرطيَّة، أو موصولة، وعلى التقديرين لا بُدَّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ مِن ضمير يعود إليها، أو ما يقوم مقامَه، فقيل: إنَّ التقديرَ: فإنَّ تعظيمها إلخ، والتعظيم مصدرٌ مضاف إلى مفعولِه، ولا بُدَّ له مِن فاعل، وهو ليس إلا ضميراً يعود إلى «من»، فكأنَّه قيل: فإن تعظيمَه إيَّاها، و«من» تحتمل أن تكون للتعليل، أي: فإنَّ تعظيمَها لأجلِ تقوى القلوب، وأن تكون لابتداء الغاية، أي: فإنَّ تعظيمَها ناشئٌ مِن تقوى القلوب، وتقديرُ هذا المضاف واجبٌ على ما قيل مِن حيث إنَّ الشعائرَ نفسَها لا يصحُّ الإخبارُ عنها بأنَّها مِن التقوى بأيِّ معنًى كانت «من». وقال الزمخشريُّ[(٤)]: التقديرُ: فإنَّ تعظيمَها مِن أفعال ذوي تقوى القلوب،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البزار في مسنده (٦١٧) من حديث علي ﵁. وهو عند أبي داود (١٧٤٩) عن ابن عباس ﵄ بنحوه، ودون ذكر عدد البُدْن.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٥٦) عن ابن عمر ﵄، وهو عند أحمد (٦٣٢٥)، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٢٣٠. قال البخاري: لا يُعرف لجهم سماع من سالم. وقال الذهبي في الميزان: فيه جهالة. اهـ. والنجيبة: تأنيث النجيب، وهو الفاضل من كلِّ حيوان. ووردت عند أحمد: بختيَّة، والبُختيَّة: الأنثى من الجمال البُخت، والذكر بُختيٌّ، وهي جِمال طوال الأعناق. النهاية (نجب) و(بخت).

(٣) القُبْطِيَّة: الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء، وكأنه منسوب إلى القِبْط وهم أهل مصر. النهاية (قبط).

(٤) الكشاف ٣/ ١٣-١٤.

فحذفت هذه المضافاتُ، ولا يستقيمُ المعنى إلا بتقديرها؛ لأنَّه لا بُدَّ من راجع مِن الجزاء إلى «من» ليرتبط به. اهـ.

وتعقَّبَهُ أبو حيَّانٍ[1] بأنَّ ما قدَّره عارٍ من راجعٍ إلى «من»، ولذا لمَّا سلكَ جمعٌ مسلَكَهُ في تقديرِ المضافات، قيل: التَّقديرُ: فإنَّ تعظيمَها منه من أفعال. . . إلخ، أو: فإنَّ تعظيمَها من أفعالِ ذوي تقوى القلوبِ منهم، فجاؤوا بضميرٍ مجرورٍ عائدٍ إلى «من» في آخرِ الكلامِ أو في أثنائِهِ، وبعضُ مَنْ سَلَكَ ذلكَ لم يقدِّرْ: «منه» ولا «منهم»، لكن التزم جعلَ اللَّام في «القلوب» بدلاً من الضميرِ المضاف إليه على رأي الكوفيين للربطِ، أي تقوى قلوبِهم. والدمامينيُّ[2] جعلَ الرابطَ في تقدير الزمخشريِّ فاعلَ المصدرِ المحذوفِ؛ لفهمِ المعنى، فلا يكونُ ما قدَّرهُ عارياً عن الراجع إلى «من» كما زعمه أبو حيَّان، فإنَّ المحذوفَ المفهومَ بمنزلةِ المذكور.

وقال صاحبُ «الكشف» في الانتصار له أيضاً: أرادَ أنَّه على ما قدَّرهُ يكونُ عمومُ ذوي تقوى القلوبِ بمنزلة الضميرِ، فتقديرُ «منه» كما فعلَ البيضاويُّ[3] ليس بالوجهِ. واعترضَ صاحبُ «التقريبِ» تقديرَ المضافين الأخيرَيْن، أعني: «أفعال» و«ذوي» بأنَّه إنَّما يحتاجُ إليه إذا جعلَ «من» للتبعيضِ، وأمَّا إذا جعلَ للابتداءِ فلا، إذ المعنى حينئذٍ: فإنَّ تعظيمَها ناشئٌ من تقوى القلوبِ، وهو قولٌ بأحدِ الوجهين اللذين سمعتهما أوّلاً، ولم يرتضِ ذلك صاحبُ «الكشفِ»، قال: إنَّ إضمارَ الأفعالِ؛ لأنَّ المعنى: إنَّ التعظيمَ بابٌ من التَّقوى ومن أعظمِ أبوابِها، لا أنَّ التعظيمَ صادرٌ من ذي تقوى. ومنه يظهرُ أنَّ الحملَ على أنَّ التعظيمَ ناشئٌ من تقوى القلوبِ، والاعتِراض بأنَّ قولَ الزمخشريِّ: إنَّما يستقيمُ إذا حُمِل على التبعيضِ، ليس على ما ينبغي، على أنَّه حينئذٍ إنْ قدِّر: من تقوى قلوبِهم، على المذهبِ الكوفيِّ، أو: من تقوى القلوبِ منهم، اتَّسعَ الخَرْقُ على الرَّاقعِ، ثم التَّقوى إنْ جُعِلَتْ متناولة للأفعالِ والتُّروكِ على العُرفِ الشرعيِّ، فالتعظيمُ بعضُ ألبتةَ، وإنْ جُعِلَتْ خاصَّة بالتروك فمنشأ التعظيم منها غيرُ لائح إلا على التجوُّز. انتهى.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٨.

(٢) ونقله عنه الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٦/ ٢٩٦-٢٩٧.

(٣) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٦.

واعتُرِضَ بأنَّ دعواهُ أنَّ المعنى على أنَّ التعظيمَ بابٌ من التَّقوى دونَ أنَّ التَّعظيمَ صادرٌ من ذي تقوى، دعوى بلا شاهدٍ، وبأنَّه لا تظهرُ الدّلالةُ على أنَّه من أعظمِ أبوابِ التَّقوى كما ذكره، وبأنَّ القولَ بعدمِ الاحتياج إلى الإضمار على تقدير أنْ يكونَ التعظيمُ بعضاً من التَّقوى، صلحٌ لا يرضى به الخصمُ، وبأنَّه إذا صحَّ الكلامُ على التجوُّزِ لا يستقيم قولُ الزمخشريِّ: لا يستقيمُ. . . إلخ.

وتعقّب بأنّه غيرُ واردٍ، أمَّا الأوَّل؛ فلأنَّ السِّياق للتحريض على تعظيمِ الشَّعائرِ، وهو يقتضي عدَّهُ من التَّقوى بل مِن أعظمِها، وكونه ناشئاً منها لا يقتضي كونَهُ منها، بل ربَّما يشعرُ بخلافِهِ.

وأمَّا الثَّاني؛ فلأنَّ الدلالةَ على الأعظميَّةِ مفهومة من السياقِ كما إذا قُلْتَ: هذا من أفعالِ المتَّقين، والعفو من شيمِ الكرامِ، والظُّلمُ من شيمِ النُّفوسِ، كما يشهد به الذَّوقُ.

وأمَّا الثَّالث؛ فلأنَّه لم يدَّعِ عدمَ الاحتياج إلى الإضمارِ على تقديرِ كونِ التعظيمِ بعضاً، بل يقولُ: الرَّابطُ العموم كما قال أوَّلاً.

وأمَّا الرَّابع؛ فلأنَّ صحةَ الكلامِ بدونِ تقديرٍ على التجوُّز؛ لكونِهِ خفيًّا في قوَّة الخطأ، إذ لا قرينةَ عليه، والتبعيضُ متبادرٌ منه، فلا غبارَ إلا على نظرِ المعترضِ، وأقول: لا يخفى أنَّه كلَّما كان التَّقديرُ أقلَّ كان أولى، فيكونُ قولُ من قال: التَّقديرُ: فإنَّ تعظيمَها من تقوى القلوبِ أولى من قول من قال: التَّقديرُ: فإنَّ تعظيمَها مِن أفعالِ ذوي تقوى القلوب. و«من» في ذلك للتبعيضِ، وما يقتضيهِ السِّياقُ من تعظيم أمرِ هذا التعظيم يُفهم مِن جعلِه بعضَ تقوى القلوبِ بناءً على أنَّ تقييدَ التَّقوى بالقلوبِ للإشارة إلى أنَّ التقوى قسمان: تقوى القلوب والمرادُ بها التقوى الحقيقيَّة الصَّادقة التي يتَّصفُ بها المؤمنُ الصَّادقُ، وتقوى الأعضاءِ والمرادُ بها التَّقوى الصوريَّة الكاذبة التي يتَّصفُ بها المنافقُ الذي كثيراً ما تخشعُ أعضاؤُه، وقلبهُ ساهٍ لاهٍ. والتركيبُ أشبه التراكيبِ بقولهم: العَفْوُ من شيمِ الكرامِ، فمتى فُهِمَ منه كون العفوِ من أعظمِ أبوابِ الشيمِ، فليفهم من ذلكَ كونَ التعظيم من أعظمِ أبوابِ التقوى، والفرقُ تحكُّم، ولعلَّ كونَ الإضافةِ لهذه الإشارةِ أولى من كونِها لأنَّ القلوبَ منشأُ التَّقوى والفجورِ والآمرةُ بهما، فتدبَّره، ومن الناسِ مَنْ لَمْ يوجبْ

تقديرَ التعظيمِ، وأرجعَ ضمير «فإنَّها» إلى الحرمةِ أوالخصلةِ كما قيلَ نَحو ذلك في قولِهِ ﷺ: «مَن توضَّأ يومَ الجمعةِ فَبِها ونِعْمَتْ»(١) أو إلى مصدرٍمؤنَّثٍ مفهومٍ من «يُعَظِّم» أي: التعظيمة.

واعتُرِضَ هذا بأنَّ المصدرَ الذي تضمَّنه الفعلُ لايؤنَّثُ إلا إذا اشتُهِرَ تأنيثُهُ كرحمة، وهذا ليس كذلك، ونُظِرَ فيه: نَعم إنَّ اعتبارَذلك مما لايستلذُّه الذوقُ السليمُ، ومنه يُعلَم حال اعتبارِ التعظيماتِ بصيغةِ الجمعِ، على أنَّه قيل عليه: إنَّه يُوهِمُ أنَّ التعظيمةَ الواحدةَ ليست من التَّقوى، ولايدفعه أنَّه لااعتبارَ بالمفهومِ، أو أنَّ ذلك من مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ كما لايَخفى.

وإذا اعتُبِرَ المذهبُ الكوفِيُّ في لامِ «القلوب» لم يحتج في الآيةِ إلى إضمارِ شيءٍ أصلاً.

وذَهَبَ بعضُ أهلِ الكمالِ إلى أنَّ الجزاء محذوف، تقديره: فهم متَّقون حقًّا؛ لدلالة التعليلِ القائم مقامَه عليه.

وتُعقِّب بأنَّ الحذفَ خلافُ الأصلِ، وما ذكرَ صالحٌ للجزائيَّةِ باعتبارِ الإعلامِ والإخبارِ كما عُرِفَ في أمثالِهِ، وأنت تعلَمُ أنَّ هذا التقديرَ ينساقُ إلى الذِّهنِ، ومثلُه كثير في الكتابِ الجليلِ.

وقرئ: «القلوبُ» بالرَّفع(٢)، على أنَّه فاعل بالمصدرِ الذي هو«تقوى».

واستدلَّ الشيعةُ ومَنْ يحذو حَذْوَهم بالآيةِ على مشروعيَّةِ تعظيمِ قبورِ الأئمَّةِ وسائِرِ الصالحينَ بإيقادِ السُّرُجِ عليها وتعليقِ مصنوعاتِ الذَّهبِ والفضَّةِ ونحو ذلك مما فَاقُوا به عبدةَ الأصنامِ، ولا يَخفى ما فيه.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الشَّعائر بالمعنى السَّابقِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هي دَرُّها ونسلُها وصوفُها ورُكوبُ ظهورِها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقتُ أَنْ يسمِّيها ويوجبَها هَدْياً، وحينئذٍ ليس لهم شيءٌ من منافِعِها، قالَه ابن عباسٍ في روايةِ مقسمٍ، ومجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك، وكذا عند الإمامِ أبي حنيفةٍ، فإنَّ المُهدِي عنده بعد التسميةِ

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٤)، وهو عند أحمد (٢٠١٧٤) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٨٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٦.

والإيجاب لا يَملكُ منافعَ الهدي أصلاً؛ لأنَّه لو مَلَكَ ذلك لجاز له أن يُؤْجِرَه للركوب، وليس له ذلك اتفاقاً، نَعمْ يجوزُ لهُ الانتفاعُ عند الضَّرورةِ، وعليه يُحمَلُ ما رُويَ عن أبي هريرةَ أنَّه ﷺ مرَّ برجلٍ يسوقُ هَدْيه وهو في جهادٍ، فقال عليه الصلاة والسَّلام: «ارْكَبْها» فقال: يا رسول الله! إنَّها هَديٌ. فقال: «اركَبْها، وَيْلَكَ»[١].

وقال عطاءٌ: منافِعُ الهدايا بعد إيجابِها وتسميتِها هَدْياً أنْ تُركبَ ويُشربَ لبنُها عند الحاجةِإلى أجلٍ مسمًّى وهو وقتُ أَنْ تُنْحرَ، وإلى ذلك ذَهَبَ الشافعيُّ، فعن جابرٍ أنَّه ﷺ قال: «اركبُوا الهَدْيَ بالمعروفِ حتَّى تجدُوا ظهراً»[٢] واعتُرِضَ على ما تقدَّمَ بأنَّ مولَى أمِّ الولدِ يملكُ الانتفاعَ بها وليس له أنْ يبيعَها، فلمَ لا يجوزُ أَنْ يكون الهَدْيُ كذلك لا يَملكُ المُهْدِي بيعَهُ وإجارتَهُ ويملكُ الانتفاعَ بهِ بغير ذلك. وقيل: الأجلُ المسمَّى: وقتُ أنْ تُشعَرَ فلا تركبُ حينئذٍ إلا عند الضرورةِ.

وروى أبو رزين عن ابنِ عبَّاس: الأجلُ المسمَّى: وقتُ الخروجِ من مكَّةَ، وفي روايةٍأخرى عنه: وقتُ الخروجِ والانتقالِ من هذه الشَّعائرِ إلى غيرها، وقيل: الأجلُ المسمَّى: يومُ القيامة، ولا يَخفى ضَعْفُهُ.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: وجوبُ نَحْرِها، على أنْ يكونَ محلُّ مصدراً ميمياً بمعنى الوجوبِ مِن حَلَّ الدينُ إذا وجبَ، أو وقتُ نحرِها على أَنْ يكونَ اسمَ زمانٍ، وهو على الاحتمالينِ معطوفٌ على «منافع»، والكلامُ على تقدير مضافٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ في موضع الحالِ، أي: منتهية إلى البيت، والمراد به ما يَليه؛ بعلاقة المجاورة، فإنَّها لاتنتهي إلى البيت نفسِه، وإنَّما تنتهي إلى ما يَقربُ منه، وقد جعلت منى منحراً، ففي الحديث: «كلُّ فجاجِ مكَّة منحرٌ، وكلُّ فجاجِ منًى منحرٌ»[٣] وقال القفَّال: هذا في الهدايا التي تبلغ منى،

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨٩)، ومسلم (١٣٢٢)، وهوعند أحمد (٧٣٥٠).

(٢) أخرجه بهذااللفظ ابن حبان في (صحيحه) (٤٠١٧)، وهو عند مسلم (١٣٢٤) (٣٧٦)، وأحمد (١٤٧٥٧) بلفظ: «اركبها بالمعروف حتى تجد ظهراً».

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو داود (٢٣٢٤) عن أبي هريرة ﷺ، وهو عند مسلم (١٢١٨) (١٤٩) عن جابر ﷺ مُقتصراً على قوله ﷺ: «ومنى كلها منحر».

وأمَّا الهَدي المتطوَّع به إذا عَطِبَ قبل بلوغِ مكَّة فمنحرُه موضعه. وقالت الإماميَّة: منحر هدي الحجِّ منى، ومنحرُهدي العمرة المفرَدة مكَّة قبالةَ الكعبة بالحَزْورة.

و«ثم» للتراخي الزمانيِّ أو الرتبي، أي: لكم فيها منافع دنيويَّة إلى أجلٍ مسمًّى، وبعده لكم منفعةٌ دينيَّة مقتضيةٌ للثواب الأخروي، وهو وجوبُ نحرِها أو وقتُ نحرِها، وفي ذلك مبالغةٌ في كون نفسِ النحر منفعة، والتراخي الرُّتبي ظاهر، وأما التراخي الزمانيُّ فهو باعتبار أوَّل زمانِ الثبوت، فلا تغفل. والمعنى على القول بأنَّ المرادَ مِن الشعائر مواضعُ الحجِّ: لكم في تلك المواضع منافعُ بالأجر والثوابِ الحاصل بأداءِ ما يَلزم أداؤه فيها إلى أجلٍ مسمًّى هو انقضاءُ أيَّام الحجِّ، ثم محلُّها، أي: محلُّ الناس مِن إحرامهم إلى البيت العتيق، أي: مُنْتَهٍ إليه، بأن يطوفوا به طوافَ الزيارة يومَ النحر بعد أداء ما يلزم في هاتيكَ المواضع، فإضافة المحلِّ إليها؛ لأدنى ملابسةٍ، وروي نحو ذلك عن مالك في «الموطأ»[1]، أو: لكم فيها منافعُ التجارات في الأسواق إلى وقتِ المراجعة، ثم وقت الخروجِ منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطوافِ الزيارة، أو لكم منافع دنيويَّة وأخرويَّة إلى وقت المراجعةِ... إلخ، وهكذا يقال على ما روي عن زيدِ بنِ أسلمَ مِن تخصيصها بالسِّتِّ.

وعلى القول بأنَّ المرادَ بها شرائعُ الدين: لكم في مراعاتها منافعُ دنيويَّة وأخرويَّة إلى انقطاعِ التكليف، ثم محلُّها الذي تُوصَل إليه إذا رُوعيت مُنْتَهٍ إلى البيت العتيق، وهو الجنَّة، أو محلُّ رعايتها منتهٍ إلى البيت العتيق، وهو معبدٌ للملائكة عليهم السلام، وكونه منتهى؛ لأنهَّ تُرفَع إليه الأعمال، وقيل: كون محلّها منتهياً إلى البيت العتيق، أي: الكعبة، كماهو المتبادَر باعتبار أنَّ محلَّ بعضِها كالصلاة والحجِّ مُنْتَهٍ إلى ذلك، وقيل غير ذلك، والكلُّ ممَّا لا ينبغي أن يخرجَ عليه كلامُ أدنى الناس فضلاً عن كلام ربِّ العالمين، وأهون ما قيل: إنَّ الكلامَ على هاتيكَ الروايات متَّصل بقوله تعالى: «وأُحلَّت لكم الأنعام» وضمير: «فيها» لها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ عطف على قوله تعالى: «لكم فيها منافع»، أو على قوله تعالى: «ومن يعظم» إلخ، ومافي البين اعتراضٌ على ما قيل، وكأنِّي بك تختار الأوَّل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام عليه عند نظيرِ الآية.

---

(١) ١/ ٣٧٠ عقب حديث (١٢٠).

والمَنْسك: موضع النُّسُك إذاكان اسمَ مكان، أو النسك إذا كان مصدراً، وفسَّره مجاهدٌ هنا بالذبح وإراقةِ الدماء على وجه التقرُّب إليه تعالى، فجعله مصدراً وحَمَلَ النسكَ على عبادةٍ خاصَّة وهو أحدُ استعمالاته، وإن كان في الأصل بمعنى العبادةِ مطلقًا وشاع في أعمال الحجِّ.

وقال الفَّراء[(١)]: المنسَك في كلام العرب: الموضع المعتادُ في خَيْرٍ وبِرٍّ، وفسَّره هنا بالعيد، وقال قتادة: هو الحجّ. وقال ابنُ عرفةَ: «مَنْسَكًا» أي: مذهبًا مِن طاعته تعالى.

واختار الزمخشريّ[(٢)] ما روي عن مجاهد، وهو الأوفقُ، أي: شرع لكلِّ أهلِ دينٍ أن يذبحوا له تعالى على وجه التقرُّب لا لبعضٍ منهم، فتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل للتخصيص.

وقرأ الأخوان، وابنُ سعدان، وأبو حاتم عن أبي عمرو، ويونس، ومحبوب، وعبد الوارث: «مَنْسِكًا»، بكسر السين[(٣)]. قال ابنُ عطيَّة[(٤)]: وهو في هذا شاذٌّ، ولا يجوز في القياس، ويشبه[(٥)] أن يكون الكسائيُّ سمعه مِن العرب، قال الأزهريُّ: الفتحُ والكسرُ فيه لغتان مسموعتان[(٦)].

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ خاصَّة دون غيرِه تعالى، كما يفهمه السياقُ والسباقُ، وفي تعليلِ الجعلِ بذلك فقط تنبيهٌ على أنَّ المقصودَ الأهمَّ مِن شرعيَّة النسك ذِكْره عزَّ وجلَّ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذَبحها، وفيه تنبيهٌ على أن القربان يجب أن يكون مِن الأنعام، فلا يجوز بالخيل ونحوها.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قيل: للتعليل، وما بعدها علَّة لتخصيصِ اسمِ الله تعالى بالذِّكر، والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ لترتيب

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٠.
(٢) الكشاف ٣/ ١٤.
(٣) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٨.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١.
(٥) جاء في هامش الأصل و(م): فيه أن القراءة بالرواية، فلا تغفل. انتهى منه.
(٦) الزاهر ص٢٧٦ بنحوه.

ما بعدَها مِن الأمر بالإسلام على وحدانيَّته عزَّ وجلَّ، وقيل: الفاء الأُولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها أيضاً، فإنَّ جَعْلَه تعالى لكلِّ أمَّة مِن الأمم منسكاً يدلُّ على وحدانيَّته جلَّ وعلا، ولا يخفى ما في وجه الدلالة مِن الخفاء، وتكلَّف بعضُهم في بيانه بأنَّ شَرْعَ المنسك لكلِّ أمَّة ليذكروا اسمَ الله تعالى يقتضي أن يكون سبحانه إلهًا لهم؛ لئلَّا يلزم السَّفَه، ويلزم مِن كونه تعالى إلهًا لهم أن يكون عزَّ وجلَّ واحداً؛ لأنه لا يستحقُّ الألوهيَّة أصلاً مَن لم يتفرَّد بها، فإنَّ الشركةَ نقصٌ، وهو كما ترى.

وفي «الكشف»: لمَّا كانت العلَّةُ لقوله سبحانه: «لكلِّ أمَّة جعلنا منسكاً» ذِكْرَ اسمِه تعالى على المناسك، ومعلوم أنَّ الذكر إنَّما يكون ذِكْراً عند مواطأةِ القلبِ اللسانَ، وذكْر القلب إشعارٌ بالتعظيم، جاء قوله تعالى: «فله أَسْلِموا» مسبَّباً عنه تسبُّباً حسناً.

واعترض بقوله تعالى: «فإلهكم إلهٌ واحد» لأنَّه يؤكِّد الأمرَ بالإخلاص ويقوِّي السببَ تقويةً بالغة، ويؤكِّد أيضاً كون الذكر هو المقصودَ مِن شرعيَّة النسكِ. انتهى. وهو يُشعِر بأنَّ الفاءَ الأولى للاعتراض، والفاء الثانية للترتيب. ولعلَّ ما ذكر أوَّلاً أظهرُ.

وأمَّا ما قيل مِن أنَّ الفاءَ الأولى للتعليل، والمعلَّل محذوف، والمعنى: إنَّما اختلفت التكاليفُ باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلافِ المصالح لا لتعدُّد الإله، فإنَّ إلهَكم إلهٌ واحدٌ، فممَّا لا ينبغي أن يخرَّج عليه كلامُ الله تعالى الجليل كما لا يَخفى، وإنَّما قيل: «إله واحد» ولم يقل: واحدٌ، لما أنَّ المرادَ بيانُ أنَّه تعالى واحدٌ في ذاته كما أنَّه واحدٌ في إلهيَّته، وتقديم الجارِّ على الأمر؛ للقَصْر، والمراد: أخلصوا له تعالى الذكرَ خاصَّة، واجعلوه لوجهه سالماً خالصاً لا تشوبوه بإشراك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ خطابٌ له ﷺ، والمُخْبِتون: المطمئنُّون، كما روي عن مجاهد، أو: المتواضعون، كما روي عن الضحَّاك. وقال عمرو بنُ أوس: هم الذين لا يَظلمون الناسَ، وإذا ظُلِموا لم يَنتصروا. وقال سفيان: هم الراضونَ بقضاءِ الله تعالى. وقال الكلبيُّ: هم المجتهدونَ في العبادة. وهو مِن الإخبات، وأصله كما قال الراغبُ[1]: نزول الخَبْتِ وهو المطمئنُّ مِن الأرض. ولا يَخفى حُسْنُ موقعِ ذلك هنا مِن حيث إنَّ نزول الخَبْتِ مناسبٌ للحاجِّ.

---

(١) المفردات (خبت).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ أي: خافت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ منه عزَّ وجلَّ؛ لإشراق أشعةِ الجلالِ عليها ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِن مشاقِّ التكاليف ومؤُناتِ النوائب، كالأمراض والمِحَنِ والغُربة عن الأوطان، ولايخفى حُسْنُ موقعِ ذلك هنا أيضاً، والظاهر أنَّ الصبرَ على المكاره مطلقًا ممدوحٌ. وقال الرازيُّ[1]: يجب الصبر على ما كان مِن قِبَلِ الله تعالى، وأمَّا على ما يكون مِن قِبَلِ الظَّلَمة فغير واجبٍ، بل يجب دَفْعه على مَن يمكنه ذلك ولو بالقتال. انتهى. وفيه نظر.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاته، ولعلَّ ذِكْرَ ذلك هنا؛ لأنَّ السفرَ مظنَّةُ التقصير في إقامة الصلاة.

وقرأ الحسنُ، وابنُ أبي إسحاق، وأبو عمرٍو في رواية: «الصلاةَ» بالنصب[2] على المفعوليَّة لمقيمي، وحذفت النونُ منه؛ تخفيفاً، كما في بيت «الكتاب»:

الحافظو عورةَ العشيرةِ لا ... تأتيهم مِن ورائهم نَطَفُ[3]

بنصبِ: عورةٍ، ونظير ذلك قوله:

إنَّ الذي حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم ... هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ مالكِ[4]

وقوله:

أَبني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا ... قَتَلا المُلوكَ وفَكَّكا الأغلالا[5]

---

(١) في تفسيره ٢٣/ ٣٤.
(٢) الكشاف ٣/ ١٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.
(٣) الكتاب لسيبويه ١/ ٢٨٦ و٢٠٢، وعزاه لرجل من الأنصار، وهو في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٧٥ ضمن قصيدة لعمرو بن امرئ القيس، وهذا ما رجَّحه البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٨٣، ونسبه البطليوسي في الحلل ص ١١٢ لقيس بن الخطيم، وهو في الجمهرة والحلل برواية: وَكَف، بدل: نَطَف، قال البطليوسي: الوكف هنا: العيب، ويروى: نَطَف، وهو نحو الوكف، اهـ. وروي: عورة، بالجرِّ، كما ذكره صاحب الخزانة ٤/ ٢٧٣.
(٤) البيت للأشهب بن رُميلة، وسلف ٣/ ٤٤٨.
(٥) البيت للأخطل يهجو جريراً، وهو في ديوانه برواية اليزيدي ص ٤٤، وقوله: اللَّذا. أراد: اللذان، فحذف النون، وأحدُ عمَّيه أبو حنش قاتل شرحبيل بن الحارث بن عمرو آكل المرار يوم الكلاب الأول. وبنو كليب بن يربوع: رَهْط جرير.

وقرأ ابنُ مسعود، والأعمش: «والمقيمين الصلاةَ» بإثبات النون ونصبِ الصلاة على الأصل[١].

وقرأ الضحَّاك: «والمقيمَ الصلاةِ» بالإفراد والإضافة[٢].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ في وجوه الخير، ومِن ذلك إهداءُ الهدايا التي يُغالونَ فيها.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: مِن أعلام دينه التي شرعها الله تعالى، «والبُدْنَ» جمع: بَدَنَة، وهي كما قال الجوهريُّ[٣]: ناقةٌ أو بقرةٌ تُنحَر بمكَّة. وفي «القاموس»[٤]: هي مِن الإبل والبقر، كالأُضْحِيَة مِن الغنم تُهدَى إلى مكَّة، وتُطلَق على الذكر والأنثى، وسُمِّيت بذلك؛ لعظم بَدَنها، لأنَّهم كانوا يُسمِّنونها ثم يُهدونها، وكونها مِن النوعين قولُ معظم أئمَّة اللغة، وهو مذهب الحنفيَّة، فلو نذر نَحر بدنة، يجزئه نحرُ بقرةٍ عندهم، وهو قولُ عطاء، وسعيد بنِ المسيب، وأخرج عبد بنُ حميد وابنُ المنذر عن ابنِ عمر رضي الله عنهما: لا نعلمُ البدنَ إلا من الإبلِ والبَقر[٥].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه: كنَّا ننحر البَدَنة عن سبعةٍ، فقيل: والبقرة؟ فقال: وهل هي إلا مِن البُدْنِ[٦]. وقال صاحب «البارع» مِن اللغويين: إنَّها لا تُطلَق على ما يكون مِن البقر. وروي ذلك عن مجاهد، والحسن، وهو مذهب الشافعيَّة، فلا يجزئ عندهم مَن نذر نحرَ بَدَنة، نَحْرُ بقرة، وأُيِّد بما رواه أبوداود عن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «البدنةُ عن سبعةٍ، والبقرةُ عن سبعة»[٧]، فإنَّ العطفَ

(١) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٣) الصحاح (بدن).

(٤) مادة (بدن).

(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٦٠.

(٦) كذا أورده بهذا اللفظ ابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف ٢/ ١٥٩، وابن قدامة في المغني ٥/ ٤٥٨ - ٤٥٩ دون عزو لمسلم، وهو عند مسلم (١٣١٨) (٣٥٣) بلفظ: اشتركنا مع النبي ﷺ في الحج والعمرة، كل سبعة في بدنة، فقال رجل لجابر: أيشترك في البدنة ما يشترك في الجزور؟ قال: ما هي إلا من البدن.

(٧) أبو داود (٢٨٠٨)، وهو عند مسلم (١٣١٨).

يقتضي المغايرةَ، وفيما يأتي آخراً تأييد لذلك أيضاً، والظاهر أنَّ استعمالَ البَدَنة فيما يكون من الإبل أكثر، وإن كان أمر الإجزاء متَّحداً.

ولعلَّ مراد جابر بقوله في البقرة: وهل هي إلا مِن البدن. أنَّ حكمَها حكمُها، وإلا فيبعد جهلُ السائل بالمدلول اللغويِّ ليردَّ عليه بذلك، ويمكن أن يقال فيما روي عن ابنِ عمر: إنَّ مرادَه بالبُدْنِ فيه البُدْنُ الشرعيَّة، ولعلَّه إذا قيل باشتراكها بين ما يكون مِن النوعين يُحكَّم العرفُ أونحوه في التعيين فيما إذا نذرَ الشخصُ بدنةً، ويشير إلى ذلك ما أخرجه ابنُ أبي شيبة، وعبدُ بنُ حميد عن يعقوب الرياحي، عن أبيه قال: أوصى إليَّ رجلٌ وأوصى ببدَنة، فأتيتُ ابنَ عباس، فقلتُ له: إنَّ رجلاً أوصى إليَّ وأوصى ببدنةٍ، فهل تُجزئ عنِّي بقرة؟ قال: نعم، ثم قال: ممَّن صاحبكم؟ فقلت: مِن رياح. قال: ومتى اقتنى بَنُو رِياح البقرَ إلى الإبل، وَهِمَ صاحبُكم، إنَّما البقرُ لأَسدٍ وعبد القيس[1]. فتدبَّر.

وقرأ الحسن، وابنُ أبي إسحاق، وشيبة، وعيسى: «البُدُن» بضمِّ الباء والدال ـ قيل: وهو الأصل، كخُشُب وخَشَبة، وإسكان الدال تخفيفٌ منه ـ ورويت هذه القراءة عن نافع، وأبي جعفر[2].

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: بضمِّ الباء والدالِ وتشديدِ النون[3]، فاحتمل أن يكون اسماً مفرداً بني على فُعُلّ، كعُتُلّ[4]، واحتمل أن يكون التشديدُ مِن التضعيف الجائز في الوقف، وأُجريَ الوصلُ مجرى الوقف.

والجمهور على نصب «البُدْن» على الاشتغال، أي: وجعلنا البدنَ جعلناها. وقرئ بالرفع على الابتداء[5].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦١، وأخرجه أيضاً الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٧.

(٢) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٤) العُتُلُّ: الغليظ الجافي، قال الله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]. مختار الصحاح (عتل).

(٥) الكشاف ٣/ ١٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

وقوله تعالى: «لكم» ظرف متعلّق بالجعل، و«مِن شعائر الله» في موضع المفعول الثاني له.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: نفع في الدنيا وأجر في الآخرة، كما روي عن ابنِ عباس، وعن السُّدِّيِّ الاقتصار على الأجر، جملةٌ مستأنفة مقرِّرة لما قبلها.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: بسم الله والله أكبر، اللَّهمَّ منكَ ولكَ. وقد أخرج ذلك جماعةٌ عن ابنِ عباس، وفي «البحر»[1]: بأن يقولَ عند النحر: الله أكبر، لا إلهَ إلا الله، والله أكبر، اللَّهمَّ منكَ وإليك. ﴿صَوَآفَّ﴾ أي: قائماتٍ قد صففنَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ، فهو جمعُ صافَّة، ومفعوله مقدَّر.

وقرأ ابنُ عباس، وابنُ عمر، وابنُ مسعود، والباقر، ومجاهد، وقتادةُ، وعطاء، والكلبيُّ، والأعمش بخلافٍ عنه: «صوافنَ» بالنون[2]، جمع صافنة، وهو إمَّا مِن صَفَنَ الرجلُ: إذا صفَّ قدمَيْه، فيكون بمعنى صوافّ، أو مِن صَفَنَ الفرسُ: إذا قام على ثلاثٍ وطَرَفِ سُنْبُكِ[3] الرابعة؛ لأنَّ البدنةَ عند الذبح تُعقَل إحدى يدَيْها، فتقوم على ثلاث، وعَقْلُها عند النحر سنَّةٌ، فقد أخرج البخاريُّ ومسلم وغيرُهما، عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه رأى رجلاً قد أناخ بدنته، وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيَّدةً سنَّةَ محمد ﷺ[4].

والأكثرون على عَقْلِ اليد اليسرى، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن ابنِ سابط رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا يَعقلونَ يَدَ البدنة اليسرى وينحرونها قائمةً على ما بقي مِن قوائمها[5]. وأخرج عن الحسنِ قيل له: كيف تنحرُ البدنة؟ قال: تُعقَل يدُها اليسرى إذا أُريد نحرُها[6].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والمحتسب ٢/ ٨١، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٣) السُّنْبُك: طَرَف الحافر، القاموس (سنبك).

(٤) البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠)، وأحمد (٤٤٥٩)، وأبو داود (١٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ابن أبي شيبة ٤/ ٢٠٦ (نشرة العمروي)، وهو عند أبي داود أيضاً (١٧٦٧).

(٦) ابن أبي شيبة ٤/ ٢٠٧ (نشرة العمروي).

وذهب بعضٌ إلى عَقْلِ اليمنى؛ فقد أخرج ابنُ أبي شيبة أيضاً عن ابنِ عمر ﵄ أنَّه كان ينحرها وهي معقولة يدها اليمنى[١]. وقيل: لافَرْقَ بين عَقْل اليسرى وعَقْل اليمنى، فقد أخرج ابنُ أبي شيبة أيضاً عن عطاء قال: اعْقِل أيَّ اليدينِ شئتَ.

وأخرج جماعةٌ عن ابنِ عمر أنَّه فسَّر «صوافَّ» بقائماتٍ معقولةً إحدى أيديهنَّ، فلا فرقَ في المراد بين «صوافّ» و«صوافِنَ» على هذا أصلاً، لكن روي عن مجاهد أنَّ «الصوافَّ» على أربعٍ، و«الصوافنَ» على ثلاثٍ.

وقرأ أبو موسى الأشعريُّ، والحسنُ، ومجاهد، وزيدُ بنُ أَسلم، وشقيق، وسليمان التيميُّ، والأعرج: «صوافيَ» بالياء[٢]، جمع: صافية، أي: خوالص لوجهِ الله عزَّ وجلَّ لا يُشرَك فيها شيءٌ كما كانت الجاهليَّة تُشرِك.

ونوَّن الياءَ عمرو بنُ عبيد[٣]، وهو خلافُ الظاهر؛ لأنَّ«صوافي» ممنوعٌ مِن الصرف؛ لصيغة منتهى الجموع، وخرّج على وجهين، أحدهما: أنَّه وقفَ عليه بألفِ الإطلاق؛ لأنَّه منصوب، ثم نوّن تنوينَ الترنُّم لا تنوينَ الصَّرْف بدلاً مِن الألف. وثانيهما: أنَّه على لغة مَن يَصرفُ ما لا ينصرفُ، لاسيَّما الجمع المتناهي، ولذا قال بعضهم:

والصَّرْفُ في الجَمْعِ أتى كثيرا حتى ادَّعى قومٌ به التَّخْييرا[٤]

وقرأ الحسن أيضاً: «صوافٍ» بالتنوين والتخفيف[٥]، على لغة مَن ينصب المنقوصَ بحركة مقدَّرة ثم يحذف الياءَ، فأصل «صواف»: صوافي، حذفت الياء؛ لثقل الجمع، واكتفي بالكسرة التي قبلها، ثم عوّض عنها التنوين ونحوه.

ولو أنَّ واشٍ باليمامة دارُه وداري بأعلى حَضرَموتَ اهتَدى لِيا[٦]

وقد تبقى الياءُ ساكنةً، كما في قوله:

---

(١) ابن أبي شيبة ٤/ ٢٠٦ (نشرة العمروي).
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٨١، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.
(٤) الرجز في البحر المحيط ٦/ ٣٦٩ و٨/ ٣٩٤ ولم ينسبه.
(٥) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.
(٦) القائل مجنون ليلى، والبيت في ديوانه ص ٢٩٤.

يا باريَ القوسِ بَرْياً لستَ تُحْسِنها لا تُفْسِدنْها وأَعْطِ القوسَ بَارِيْها[1]

وعلى ذلك قراءةُ بعضِهم: «صوافي» بإثبات الياء ساكنة[2]؛ بناءً على أنَّه كما في القراءة المشهورة حالٌ مِن ضمير «عليها»، ولو جعل ـ كما قيل ـ بدلاً مِن الضمير، لم يحتج إلى التخريج على لغة شاذَّة.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت على الأرض، وهو كنايةٌ عن الموت. وظاهر ذلك مع ما تقدَّم مِن الآثار يقتضي أنَّها تُذبَح وهي قائمة، وأيِّد به كون البُدْن مِن الإبل دون البقر؛ لأنَّه لم تَجْرِ عادةٌ بذبحها قائمةً، وإنَّما تُذبَح مضطجعةً، وقلَّما شوهد نَحْرُ الإبل وهي مُضطَجعةً.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ أي: الراضيَ بما عنده وبما يُعطَى مِن غير مسألة ولا تعرُّضٍ لها، وعليه حمل قول لبيد:

فمنهم سعيدٌ آخذٌ بنصيبه ومنهم شقيٌّ بالمعيشةِ قانع[3]

﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي: المعترض للسؤال، مِن اعترَّه: إذا تعرَّض له، وتفسيرهما بذلك مرويٌّ عن ابنِ عباس، وجماعة، وقال محمد بنُ كعب ومجاهد، وإبراهيم، والحسن، والكلبيّ: «القانع»: السائل، كما في قولِ عديٍّ بنِ زيد:

وما خُنْتُ ذا عهدٍ وَأيتُ بعهدِه ولم أحْرِمِ المُضْطَرَّ إذ جاءَ قانِعا[4]

«والمعترّ» المعترض مِن غير سؤال، فالقانع قيل على الأوَّل مِن قَنِعَ يَقْنَعُ كتَعِبَ يَتْعَبُ قَنَعاً: إذا رضيَ بماعنده مِن غير سؤال، وعلى الثاني مِن قَنَعَ يَقْنَعُ كسَأَلَ يَسْأَلُ لفظاً ومعنًى قُنُوعاً. وعلى ذلك جاءَ قول الشاعر:

العبدُ حرٌّ إنْ قَنِعْ

---

(١) البيت في التمثيل والمحاضرة ص٢٩٣، ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٩، وخزانة الأدب ٨/ ٣٤٩.

(٢) الإملاء ٤/ ٤٠، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٠٧.

(٣) شرح ديوان لبيد ص ١٧٠.

(٤) البيت في غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ١٥٦، والصحاح (قنع)، واللسان (قنع) و(وأي)، وورد في المصادر كلها عدا اللسان (وأي): وَأُبْتُ، بدل: وَأَيْتُ. قال ابن منظور في اللسان (وأي): الوَأْيُ: الوعد. ووَأَيْتُ له على نفسي أَئي وَأْياً: ضمنتُ له عِدَةً.

والـــحـــرُّ عـــبـــدٌ إنْ قَـــنَـــعْ

فـــاقـــنَـــعْ ولا تَـــطـــمـــعْ فـــمـــا

شـــيءٌ يـــشـــيـــنُ ســـوى الـــطَّـــمَـــعْ[1]

فلا يكون «القانع» على هذا مِن الأضداد؛ لاختلاف الفعلين، ونصَّ على ذلك الخفاجيُّ[2] حاكماً بتوهُّم مَن يقول بخلافِه، وفي «الصحاح»[3]نقل القول بأنَّه مِن الأضداد عن بعضِ أهلِ العلم، ولم يتعقَّبه بشيء، ونقل عنه أيضاً أنه يجوز أن يكون السائلُ سُمِّيَ قانعاً؛ لأنَّه يَرضى بما يُعطى قلَّ أو كَثُرَ، ويقبله ولا يردُّ، فيكون معنى الكلمتين راجعاً إلى الرضا. وإلى كون قَنِعَ بالكسر بمعنى رَضِيَ، وقَنَعَ بالفتح بمعنى سَأَل، ذهبَ الراغبُ[4]، وجعل مصدر الأوَّل قَناعةً وقَنَعاناً، ومصدر الثاني قُنُوعاً. ونقل عن بعضِهم أنَّ أصلَ ذلك مِن القِناع وهو ما يُغطَّى به الرأسُ، فـ: قَنِعَ بالكسر: لَبِسَ القناعَ ساتراً لِفَقْرِه، كقولهم: خَفِيَ: إذا لَبِسَ الخفاءَ، وقَنَعَ: إذا رَفَعَ قناعَه كاشفاً لفقْره بالسؤال، نحو خَفيَ: إذا رَفَعَ الخَفاءَ. وأيِّد كون القانعِ بمعنى الراضي بقراءةِ أبي رجاء: «القَنِع» بوزن الحَذِر[5]، بناءً على أنَّه لم يرد بمعنى

---

(١) السجع ذكره كاملاً الزرقاني في شرحه على موطأ مالك ٣/ ٩٣ دون نسبة، وذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٢٧٨ وعزاه للنبي ﷺ،ولم نقف عليه، والحصري في زهر الآداب ١/ ٣٥٩ ولم ينسبه، والأبشيهي في المستطرف ١/ ١٥٥ ونسبه للكندي، واقتصرت روايتهم على:

الـــعـــبـــد حـــر إن قـــنـــع

والـــحـــر عـــبـــد إن طـــمـــع

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٣٢٤، والبيهقي في الزهد (٩٨)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ١٠١ عن بنان البغدادي، وروايته عندهم هكذا:

الـــحـــر عـــبـــد مـــا طـــمـــع

والـــعـــبـــد حـــر مـــا قـــنـــع

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٩.

(٣) الصحاح (قنع).

(٤) المفردات (قنع).

(٥) المحتسب ٢/ ٨٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠.

السائل، بخلاف القانع فإنَّه ورد بالمعنيين، والأصل توافقُ القراءات، وعن مجاهد: «القانع»: الجارُ وإن كان غنيًا، وأخرج ابنُ أبي شيبة عنه وعن ابنِ جبير أنَّ «القانعَ»: أهلُ مكَّة، «والمعترّ» سائرُ الناس[1]. وقيل: «المعترُّ»: الصديقُ الزائر، والذي أختاره مِن هذه الأقوال أوَّلها.

وقرأ الحسن: «والمُعْتَرِيَ»[2] اسمُ فاعل مِن اعترى، وهو واعترَّ بمعنًى.

وقرأ عمرو وإسماعيل، كما نقل ابنُ خالويه: «المُعْتَرِ» بكسر الراء بدون ياء[3]، وروى ذلك المقري عن ابن عباس، وجاء ذلك أيضاً عن أبي رجاء[4]، وحذفت الياء؛ تخفيفاً منه واستغناءً بالكسرة عنها.

واستدلَّ بالآية على أنَّ الهديَ يُقسَم أثلاثاً، ثلثٌ لصاحبه، وثلثٌ للقانع، وثلث للمعترِّ، وروي ذلك عن ابنِ مسعود، وقال محمد بنُ جعفر ﵄ بقسمته أثلاثاً أيضاً إلا أنَّه قال: أُطعِم القانعَ والمعترَّ ثلثاً، والبائسَ الفقيرَ ثلثاً، وأهلي ثلثاً، وفي القلب مِن صحَّته شيءٌ.

وقال ابنُ المسيب: ليس لصاحب الهدي منه إلا الربعُ، وكأنَّه عدَّ القانعَ والمعترَّ والبائسَ الفقيرَ ثلاثة، وهو كما ترى، قال ابنُ عطيَّة[5]: وهذا كلُّه على جهة الاستحسانِ لا الفرض. وكأنَّه أرادَ بالاستحسان الندبَ، فيكون قد حمل كِلَا الأمرين في الآية على الندبِ.

وفي «التيسير»: أَمْرُ «كلوا» للإباحة، ولو لم يأكل جاز، وأَمْرُ«أطعموا» للندب، ولو صرفه كلَّه لنفسه، لم يضمن شيئاً، وهذا في كلِّ هَدْيِ نُسُكٍ ليس بكفَّارة، وكذا الأضحية، وأما الكفَّارة فعليه التصدُّق بجميعِها، فما أَكَلَه أو أهداه لغنيٍّ، ضمنه. وفي «الهداية»: يستحبُّ له أن يأكلَ مِن هدي التطوُّع والمتعة والقِران، وكذا

(١) ابن أبي شيبة ٤/ ٧٢ عن مجاهد، ولم يرد فيه عن ابن جبير.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٨٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٧٠.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣.

يستحبُّ أن يتصدَّق على الوجه الذي عرف في الضحايا[١]. وهو قولٌ بنحو ما يقتضيه كلام ابنِ عطيَّة في كلا الأمرين.

وأباح مالكٌ الأكلَ مِن الهدي الواجب إلا جزاء الصيد والأذى والنذر، وأباحه أحمد إلا مِن جزاء الصيد والنذر، وعند الحسن الأكلُ مِن جميع ذلك مباحٌ، وتحقيق ذلك في كتبِ الفقه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلك التسخيرِ البديع المفهوم مِن قوله تعالى: «صواف»: ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع كمالِ عِظَمِها ونهايةِ قوَّتها، فلا تستعصي عليكم حتى إنَّكم تأخذونها منقادةً فتعقلونها وتحبسونها صافَّة قوائمها، ثم تطعنون في لبَّاتها، ولولا تسخيرُ الله تعالى لم تطقْ، ولم تكن بأعجزَ مِن بعض الوحوش التي هي أصغر منها جِرْماً وأقلَّ قوَّة، وكفى ما يتأبَّد مِن الإبل شاهداً وعبرة. وقال ابنُ عطيَّة[٢]: كما أَمرناكم فيها بهذا كلِّه سخَّرناها لكم. ولايَخفى بُعدُه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرُّب والإخلاص.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي: لن يصيبَ رضا الله تعالى اللحومُ المتصدَّقُ بها ولا الدماءُ المهراقةُ بالنَّحْر مِن حيث إنَّها لحوم ودماء ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يَصحبُ ذلك مِن تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمِه تعالى والتقرُّب له سبحانه والإخلاص له عزَّ وجلَّ.

وقال مجاهد: أراد المسلمونَ أن يفعلوا فِعْل المشركين مِن الذَّبْح وتشريحِ اللحم ونَصْبِه حولَ الكعبة ونضْحِها بالدماء؛ تعظيماً لها وتقرُّباً إليه تعالى، فنزلت هذه الآية، وروي نحوه عن ابنِ عباس، وغيره.

وقرأ يعقوب، وجماعة: «لن تَنالَ»، «ولكنْ تَنالُه» بالتاء[٣]. وقرأ أبو جعفر الأوَّلَ بالتاء والثاني بالياء آخِر الحروف[٤]، وعن يحيى بنِ يعمر، والجحدريِّ

---

(١) الهداية مع شرحه فتح القدير ٢/ ٣٢٢.
(٢) المحرر الوجيز ٤/١٢٣.
(٣) مجمع البيان ١٧/١٠٦.
(٤) مجمع البيان ١٧/١٠٦.

أنَّهما قرأا بعكس ذلك[١]. وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «لن يُنال»، «ولكن يُناله» بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعلُه في الموضعين، و«لُحومَها ولادِماءَها» بالنصب[٢].

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرَّره سبحانه؛ تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: لتعرفوا عظمتَه تعالى باقتداره على مالا يَقدِرُ عليه غيرُه عزَّ وجلَّ، فتوحِّدوه بالكبرياء، وقيل: أي: لتقولوا: اللهُ أكبرُ، عند الإحلال أو الذَّبح ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: على هدايته وإرشاده إيَّاكم إلى طريق تسخيرِها وكيفيَّة التقرُّب بها، فـ «ما» مصدريَّة، وجوِّز أن تكون موصوفة، وأن تكون موصولة، والعائدُ محذوفٌ، ولا بُدَّ أن يعتبر منصوباً عند مَن يشترط في حذف العائد المجرور أن يكون مجروراً بمثل ما جُرَّ به الموصول لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً، و«على» متعلِّقة بـ «تكبِّروا»؛ لتضمُّنه معنى الشكر أو الحمد، كأنَّه قيل: لتكبِّروهُ تعالى شاكرينَ أو حامدينَ على ما هداكم. وقال بعضهم: «على» بمعنى اللام التعليليَّة، ولا حاجةَ إلى اعتبار التضمين، ويؤيِّد ذلك قولُ الداعي على الصفا: اللهُ أكبرُ على ماهدانا، والحمد لله تعالى على ما أَولانا. ولايَخفى أنَّ لعدم اعتبارِ التضمين هنا وجهاً ليس فيما نحن فيه، فافهم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: المخلصين في كلِّ ما يأتون ويَذَرون في أمورِ دينهم. وعن ابنِ عباس: هم الموحِّدون.

❊ ❊ ❊

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بالإعراض عن السِّوَى وطلب الجزاء، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ وهي مبادي القيامة الكبرى.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ وهي موادُّ الأشياء، فإنَّ لكلِّ شيء مادةً ملكوتيَّة ترضع رضيعها مِن الملكِ، وتربِّيه في مهد الاستعداد.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ وهي الهيولات، ﴿حَمْلَهَا﴾ وهي الصورُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ الحيرة ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ المحبة، قيل: سُكْرُ الأعداء مِن رؤية القهريَّات، وسُكْرُ الموافقينَ مِن

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٥ -٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٠ مقتصراً على ذكر: «يُناله».

رؤية بدائعِ الأفعال، وسُكْرُ المريدينَ مِن لمعان الأنوار، وسُكْرُ المحبِّين مِن كشوف الأسرار، وسُكْرُ المشتاقين مِن ظهور سَنَى الصفات، وسُكْرُ العاشقينَ مِن مكاشفة الذات، وسُكْرُ المقرَّبين مِن الهيبة والجلال، وسُكْرُ العارفين مِن الدخول في حجالِ الوصال، وسُكْرُ الموحِّدين مِن استغراقهم في بحار الأوَّليَّة، وسُكْرُ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام مِن اطِّلاعهم على أسرار الأزليَّة:

ألـمَّ بِنـا سـاقٍ يـجلُّ عـن الـوصـفِ … وفي طَرْفه خمرٌ وخمرٌ على الكفِّ
فـأسْـكَـرَ أصـحـابـي بـخـمـرةِ كـفِّـه … وأسكرني واللهِ مِن خمرةِ الطَّرْفِ[١]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ الآية، يدخل فيه مَن يعبدُ الله تعالى طمعاً في الكرامات ومحمدةِ الخَلْق ونَيْلِ دنياهم، فإن رأى شيئاً مِن ذلك سَكَنَ إلى العبادة، وإن لم يَرَ، تركها وتهاونَ فيها ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بفقدان الجاه والقَبول والافتضاح عند الخَلْق ﴿وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ ببقائه في الحجابِ عن مشاهدة الحقِّ واحتراقِه بنار البُعد.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيـة، فيه إشارة إلى حُسْنِ مقام التسليم والرضا بما فَعَلَ الحكيم جلَّ جلاله. «وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيتِ أن لاتشرك بي شيئاً وطهِّر بيتيَ للطائفين والقائمينَ والرُّكَّع السجود» فيه من تعظيم أَمْرِ الكعبةِ ما فيه، وقد جعلها اللهُ تعالى مثالاً لعرشه، وجَعَلَ الطائفينَ بها مِن البشر كالملائكة الحافِّين مِن حول العرش يسبِّحون بحمد ربِّهم إلا أنَّ تسبيحَ البشر وثناءَهم عليه عزَّ وجلَّ بكلمات إلهيَّة قرآنيَّة، فيكونون مِن حيث تسبيحُهم وثناؤهم بتلك الكلمات مِن حيث إنَّها كلماتُه تعالى نوَّاباً عنه عزَّ وجلَّ في ذلك، ويكون أهلُ القرآنِ وهم كما في الحديثِ: «أهل اللهِ تعالى وخاصَّته»[٢]، وللكعبة أيضاً امتيازٌ على العرش وسائر البيوت الأربعة عشر لأمر ما نقل إلينا أنَّه في العرش ولا في غيره مِن تلك البيوت وهو الحَجَر الأسود الذي جاء في الخبر أنَّه يمينُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣]، ثم إنَّه تعالى جعل لبيته أربعةَ أركان لسرٍّ

(١) البيتان لأبي الحسن علي بن محمد بن علي النيريزي الشيرازي، المتوفى سنة (٦٠٢هـ). الوافي بالوفيات ٢٢/ ٨٨، وورد فيه: طيفٌ، بدل: ساقٍ.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٧٩)، وابن ماجه (٢١٥).
(٣) الخبر سلف عند تفسير الآية (١٧٤) من سورة الأعراف.

إلهيٌّ وهي في الحقيقة ثلاثة؛ لأنَّه شكل مكعَّب الركن الذي يلي الحَجَر كالحَجَر في الصورة مكعَّب الشكل، ولذلك سمّى الكعبة تشبيهاً بالكعب، ولما جعل اللهُ تعالى له بيتاً في العالَم الكبير جعل نظيرَه في العالَم الصغير وهو قلبُ المؤمن، وقد ذكروا أنَّه أشرفُ مِن هذا البيت: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلبُ عبدي المؤمن»(١)، وجعل الخواطر التي تمرُّ عليه كالطائفين، وفيها مَثَلهم المحمود والمذموم، وجعل محلَّ الخواطر فيه كالأركان التي للبيت، فمحلُّ الخاطر الإلهيِّ كركن الحجر، ومحلُّ الخاطر المَلَكي كالركن اليمانيِّ، ومحلُّ الخاطر النفسي كالمكعب الذي في الحَجَر لا غير، وليس للخاطر الشيطانيِّ فيه محلٌّ، وعلى هذا قلوبُ الأنبياء عليهم السلام، وقد يقال: محلُّ الخاطر النفسيِّ كالركن الشاميِّ، ومحلُّ الخاطر الشيطانيِّ كالركن العراقيِّ، وإنما جعل ذلك للركن العراقيِّ؛ لأنَّ الشارعَ شرع أن يقال عنده: «أعوذ بالله تعالى مِن الشقاق والنفاق وسوءِ الأخلاق»(٢)، وعلى هذا قلوبُ المؤمنين ما عدا الأنبياءِ عليهم السلام، وأودع سبحانه فيه كنزاً أراد ﷺ أن يُخرِجه فلم يَفعلْ لمصلحةٍ رآها، وكذا أراد عمرُ فامتنع اقتداءً برسولِ الله ﷺ. وكذلك أودع جلَّ وعلا في قلب الكامل كنزَ العلم به عزَّ وجلَّ.

وارتفاعُ البيتِ ـ على ما مرَّ ـ سبعةٌ وعشرونَ ذراعاً وربعُ ذراعٍ. وقال بعضهم: ثمانيةٌ وعشرونَ ذراعاً، وعليه يكون ذلك نظير منازل القلب التي تقطعها كواكب الإيمان السيَّارة لإظهار حوادث تجري في النفس كما تقطع السيَّارة منازلَها في الفَلَك لإظهار الحوادث في العالم العنصريِّ إلى غيرِ ذلك مما لا يعرفه إلا أهلُ الكشف.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: إلى ما يليه، فإنَّ النحرَ بمنًى، وجعلت محلًّا للقرابين على ما ذكر الشيخ الأكبر

(١) حديث موضوع، وسلف ٤/ ٢٢١.
(٢) كان من دعائه ﷺ ذلك، لكنه لم يرد بخصوص الركن العراقي بل ورد عنه الدعاء به مطلقاً، والخبر عند أبي داود(١٥٤٦)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢٦٤ عن أبي هريرة ﷺ. قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ١٥٩: في إسناده بقية بن الوليد ورُوَيد بن نافع، وفيهما مقال.

محيي الدين قدِّسَ سرُّه؛ لأنَّها مِن بلوغ الأمنية، ومَن بَلَغَ المنى المشروع فقد بلغَ الغاية، وفي نَحْرِ القرابين إتلافُ أرواحٍ عن تدبيرِ أجسام حيوانيَّة لتتغذَّى بها أجسام إنسانيَّة، فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقِها فتدبرها إنسانيَّة بعدما كانت تدبرها إبلاً أو بقراً، وهذه مسألة دقيقة لم يفطن لها إلا مَن نوَّر اللهُ تعالى بصيرتَه مِن أهل الله تعالى[١]. انتهى. وتعقُّله مفوَّض إلى أهله، فاجهد أن تكون منهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ حسبما يحصل لهم من التجلِّي عند ذلك، وقد يحصل مِن الذكر طمأنينةُ القلب لاقتضاء التجلِّي إذ ذاك ذلك، وذكر بعضهم أنَّ لكلِّ اسم تجلِّياً خاصًّا، فإذا ذُكِرَ اللهُ تعالى حصل حسَب الاستعداد، ومِن هاهنا يحصل تارةً وَجَلٌ، وتارةً طمأنينةٌ، و﴿إِذَا﴾ لا تقتضي الكليَّة، بل كثيراً ما يُؤتَى بها في الشرطيَّة الجزئيَّة، وقيل: العارف متى سمعَ الذِّكْرَ مِن غيرِه تعالى وَجِلَ قلبُه، ومتى سمعه منه عزَّ وجلَّ اطمأنَّ. ويفهم مِن ظاهر كلامهم أنَّ السامعَ للذِّكر إمَّا وَجِلٌ أو مطمئنٌّ، ولم يصرِّح بقسم آخر، فإن كان فالباقي على حالِهِ قبل السماع، وأكثر مشايخِ زماننا يرقصونَ عند سماعِ الذِّكْرِ، فما أدري أينشأُ رقصُهم عن وَجَلٍ منه تعالى أم عن طمأنينةٍ؟ وسيظهر ذلك يوم تُبلى السرائر وتَظهرُ الضمائر.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ قد تقدَّم لكَ أنَّهم ينحرونَ البُدْنَ معقولَةَ اليد اليسرى قائمةً على ما بقيَ مِن قوائمها، وذكروا في سرِّ ذلك أنَّه لما كان نحرُها قُرْبةً، أراد ﷺ المناسبة في صفة نحرِها في الوتريَّة، فأقامها على ثلاثِ قوائم؛ لأنَّ اللهَ تعالى وِتْرٌ يحبُّ الوِتْرَ، والثلاثة أوَّل الإفراد، فلها أوَّل المراتب في ذلك، والأوليَّة وتريَّة أيضاً، وجعلها قائمةً؛ لأنَّ القيوميَّة مثل الوتريَّة صفةٌ إلهيَّة، فيذكر الذي ينحرها مشاهدةَ القائم على كلِّ نفس بما كسبت، وقد صحَّ أنَّ المناسكَ إنَّما شُرعت لإقامة ذِكْرِ الله تعالى، وشَفْعَ الرِّجْلَين؛ لقوله تعالى ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩] وهو اجتماع أَمْرِ الدنيا بالآخرة، وأفرد اليمين مِن يد البُدْن؛ حتى لا تعتمد إلا على وترٍ له الاقتدار.

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٧٥٤.

وكان العَقْل في اليد اليسرى؛ لأنَّها خليَّة عن القوَّة التي لليمنى، والقيام لايكون إلاعن قوَّة. وقد أخرج مسلم عن ابنِ عباس أنَّه قال: صلَّى رسولُ الله ﷺ الظهرَ بذي الحليفة، ثم دعا بناقتِه فأشعرها في صَفْحةِ سنامها الأيمنِ، وسَلَتَ عنها الدمَ، وقلَّدها نعلين، ثم ركبَ راحلتَه. الحديث(١).

والسِّرُّ في كون هديه عليه الصلاة والسلام مِن الإبل ـ مع أنَّه جاء فيها أنَّها شياطينُ، ولذا كُرهت الصلاةُ في معاطِنها(٢) ـ الإشارةُ إلى أنَّ مقامَه عليه الصلاة والسلام رَدُّ البعداءِ مِن الله تعالى إلى حالِ التقريب، وفي إشعارِها في سنامها الذي هو أرفع ما فيها إشعارٌ منه ﷺ بأنه عليه الصلاة والسلام أتى عليهم مِن صفة الكبرياء الذي كانوا عليه في نفوسهم فليجتنبوها، فإنَّ الدارَ الآخرةَ إنَّما جُعلت للذين لا يريدونَ علوًّا في الأرض ولا فساداً، ووقع الإشعار في الصَّفْحة اليمنى؛ لأنَّ اليمين محلُّ الاقتدارِ والقوَّة، والصَّفْحة مِن الصَّفْح، ففي ذلك إشعارٌ بأنَّ الله تعالى يَصفحُ عمَّن هذه صفته إذا طَلَبَ القُربَ مِن الله تعالى وزالَ عن كبريائه الذي أوجب له البُعدَ، وجعل عليه الصلاة والسلام الدلالةَ على إزالة الكبرياء في شيطنة البُدْنِ في تعليقِ النعال في رقابها، إذ لا يُصْفَعُ بالنعال إلا أهلُ الهونِ والمذلَّة، ومَن كان بهذه المثابة فما بقيَ فيه كبرياء تشهد، وعلّق النعال بقلائد العِهْن ليتذكَّر بذلك ما أَراد الله تعالى وتكون الجبال كالعِهْنِ المنفوش، وقد ذكروا لجميع أفعال الحجِّ أسراراً مِن هذا القبيل، وعندي أنَّ أكثرَها تعبديَّة، وأنَّ أكثرَ ما ذكروه مِن قبيل الشعر، والله تعالى الموفِّق للسداد.

❁ ❁ ❁

---

(١) مسلم (١٢٤٣). ومعنى: «وسَلَتَ عنها الدَم»: أماطه عنها.

(٢) أخرج ابن حبان في صحيحه (١٧٠٢) عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «صلُّوا في مرابض الغنم، ولا تصلُّوا في معاطن الإبل، فإنها خُلقت من الشياطين». وهو عند أحمد (١٦٧٩٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٦: ورجال أحمد رجال الصحيح. اهـ. وقال ابن حبان إثر الحديث: قوله ﷺ: «فإنها خلقت من الشياطين» أراد به أن معها شياطين، وهكذا قوله ﷺ: «فليدرأه ما استطاع، فإن أبى فليقاتله، فإنه شيطان». اهـ. وهو عند البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كلامٌ مستأنَف مسوقٌ لتوطين قلوبِ المؤمنين ببيانِ أنَّ اللهَ تعالى ناصرُهم على أعدائهم بحيث لا يقدرونَ على صدِّهم عن الحجِّ، وذكر أنَّ ذلك متَّصلٌ بقوله تعالى: «إن الذين كفروا ويصدون» وأنَّ ما وقع في البَيْنِ مِن ذِكْرِالشعائرِ مستطردٌ؛ لمزيدِ تهجينِ فِعْلِهم وتقبيحِهم لازدياد قُبْحِ الصَّدِّ بازدياد تعظيمِ ما صدَّ عنه، وتصديره بكلمة التحقيقِ؛ لإبراز الاعتناء التامِّ بمضمونه، وصيغةُ المفاعلة إمَّا للمبالغة، أوللدلالةِ على تكرُّر الدَّفْعِ، فإنَّها قد تتجرَّد عن وقوع الفعل المتكرِّر مِن الجانبين، فيبقى تكرُّره كالممارسة، أي: إنَّ اللهَ تعالى يُبالغ في دَفْعِ غائلة المشركينَ وضررهم الذي مِن جملته الصَّدُّ عن سبيل الله تعالى والمسجدِ الحرام مبالغةَ مَن يُغالب فيه، أو يَدفعها عنهم مرَّة بعد أُخرى حسبما يتجدَّد منهم القصدُ إلى الإضرار بهم، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقرأ أبو عمرو، وابنُ كثير: «يَدْفَعُ»[1]، والمفعول محذوف، كما أشير إليه، وفي «البحر»[2]: أنَّه لم يذكر ما يَدفعُه سبحانه عنهم؛ ليكون أعظمَ وأفخمَ وأعمَّ. وأنت تَعلمُ أنَّ المقامَ لا يقتضي العمومَ، بل هو غيرُ صحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ تعليل لما في ضمن الوعدِ الكريم من الوعيدِ للمشركين، وإيذانٌ بأنَّ دفعَهم بطريق القَهْر والخِزْي. وقيل: تعليلٌ للدفاع عن المؤمنين ببُغْضِ المدفوعينَ على وجهٍ يتضمَّن أنَّ العلةَ في ذلك الخيانةُ والكفر، وأوثر: «لا يحب» على: يبغض؛ تنبيهاً على مكان التعريض، وأنَّ المؤمنين هم أحبَّاءُ الله تعالى، ولعلَّ الأوَّل أولى؛ لإيهام هذا أنَّ الآيةَ مِن قبيل قولك: إنِّي أدفعُ زيداً عن عمرٍو؛ لبغضي زيدًا، وليس في ذلك كثيرُ عناية بعمرٍو، أي: إنَّ الله تعالى يُبْغِضُ كلَّ خَوَّان في أماناته تعالى، وهي أوامره تعالى شأنه ونواهيه، أو في جميع الأمانات التي هي معظمها كفورٌ لنعمه عزَّ وجلَّ، وصيغةُ المبالغة فيهما؛ لبيان أنَّ المشركين كذلك، لا للتقييد المشعر بمحبَّة الخائن والكافر، أو لأنَّ خيانةَ أمانة الله تعالى وكفرانَ نعمته لا يكونان حقيرين، بل

---

(١) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢ / ٣٢٦.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٧٣.

هما أمران عظيمان، أو لكثرة ما خانوا فيه مِن الأمانات وما كفروا به مِن النِّعَم، أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أوَّلاً، وإيراد معنى المبالغة ثانياً، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقد علمتَ ما فيه.

وأيًّا ما كان، فالمراد نفيُ الحبِّ عن كلِّ فردٍ فردٍ من الخونةِ الكفرة.

﴿أُذِنَ﴾ أي: رُخِّصَ، وقرأ ابن عباس وابن كثير، وابنُ عامر، وحمزة، والكسائيُّ: «أَذِنَ» بالبناء للفاعل[١]، أي: أَذِنَ اللهُ تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي: يُقاتلهم المشركون، والمأذونُ فيه القتالُ، وهو في قوَّة المذكور؛ لدلالة المذكور عليه دلالةً نيِّرة.

وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر، ويعقوب: «يُقاتِلونَ» على صيغة المبنيِّ للفاعل[٢]، أي: يريدون أن يقاتلوا المشركين في المستقبل ويحرصونَ عليه، فدلالته على المحذوف أنور.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ أي: بسبب أنَّهم ظُلموا. والمراد بالموصول أصحابُ النبيِّ ﷺ الذين في مكَّة، فقد نقل الواحديُّ وغيرُه أنَّ المشركينَ كانوا يُؤذونَهم، وكانوا يأتون النبيَّ عليه الصلاة والسلام بين مضروبٍ ومشجوج، ويتظلَّمون إليه صلوات الله تعالى وسلامُه عليه، فيقول لهم: «اصبروا فإنِّي لم أُومَرْ بالقتال» حتى هاجر، فأنزلت هذه الآيةُ[٣]. وهي أوَّل آيةٍ نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيفٍ وسبعين آية، على ما روى الحاكم في «المستدرك»[٤] عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهريِّ[٥].

---

(١) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢/٣٢٦.

(٢) النشر ٢/٣٢٦، والبحر المحيط ٦/٣٧٣.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣١٩.

(٤) ٢/٦٦، ٢٤٦، ٣٩٠، وهو عند أحمد (١٨٦٥)، والنسائي في المجتبى ٦/٢. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٥) مصنف عبد الرزاق (٩٧٤٣) ضمن حديث طويل فيمن هاجر إلى الحبشة، وأخرجه من طريقه ابن أبي عاصم في الأوائل (١٠١) مختصراً. وهو عند النسائي في الكبرى (١١٢٨٣)، وصحَّح إسناده ابن حجر في فتح الباري ٧/٢٨٠.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية: أنَّ أوَّل آيةٍ نزلت فيه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفي «الإكليل» للحاكم: أنَّ أوَّلَ آيةٍ نزلت في ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾[1] [التوبة: ١١١].

وروى البيهقيُّ في «الدلائل» وجماعة أنَّها نزلت في أناس مؤمنينَ خرجوا مهاجرينَ مِن مكَّة إلى المدينة، فاتَّبعهم كفارُ قريش، فأذن اللهُ تعالى لهم في قتالهم[2]. وعدمُ التصريح بالظالم؛ لمزيد السُّخْطِ، تحاشياً عن ذِكْره.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ وَعْدٌ لهم بالنصر، وتأكيدٌ لما مرَّ من العِدَة، وتصريحٌ بأنَّ المرادَ به ليس مجرَّدَ تخليصهم مِن أيدي المشركين، بل تغليبُهم وإظهارُهم عليهم، وقد أُخرجَ الكلامُ على سننِ الكبرياء، فإنَّ الرَّمْزَةَ والابتسامةَ مِن المَلِكِ الكبير كافيةٌ في تيقُّن الفوز بالمطلوب، وقد أُوكد تأكيداً بليغاً؛ زيادةً في توطين نفوس المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ في حيِّز الجرِّ على أنَّه صفةٌ للموصول قَبْلُ، أو بيانٌ له، أو بدلٌ منه، أو في محلِّ النصب على المدح، أوفي محلِّ الرفع بإضمار مبتدإٍ، والجملة مرفوعةٌ على المدح، والمراد الذين أَخرجهم المشركون مِن مكَّة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ متعلِّق بالإخراج، أي: أُخرجوا بغير ما يُوجِبُ إخراجَهم. وجوّز أن يكون صفةَ مصدر محذوف، أي: أُخرجوا إخراجاً كائناً بهذه الصفة، واختار الطبرسيُّ[3] كونه في موضع الحال، أي: كائنينَ بغير حقٍّ مترتِّب عليهم يوجب إخراجَهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناء متَّصل مِن «حقٍّ»، «وأنْ»

(١) الإتقان ١/ ٨٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٠٠، والقول الأول عن أبي العالية أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٣/ ٢٨٩ _ ٢٩٠، والبغوي في تفسيره ١/ ١٤٣ معلَّقاً عن الربيع، وأخرجه آدم بن أبي إياس في تفسيره كما في الدر المنثور ١/ ٢٠٥ـ ومن طريقه ابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ٣٢٥ (١٧١٩) ـ عن أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٦٤ وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم [٨/ ٢٤٩٦ (١٣٩٦٢)] عن مجاهد، ولم نقف عليه في مطبوع دلائل النبوة للبيهقي، ولا في مطبوع ابن أبي شيبة.

(٣) مجمع البيان ١٧/ ١٠٩.

وما بعدها في تأويل مصدرٍ بدل منه، لما في «غير» من معنى النفي، وحاصل المعنى لا موجبَ لإخراجِهم إلا التوحيد، وهو إذا أُريد بالموجب النفسيَ الأمري، على حدِّ قول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم بهِنَّ فلولٌ مِن قراعِ الكتائبِ[1]

وجوّز أن يكون الإبدال مِن «غير»، وفي «أُخرجوا» معنى النفي، أي: لم يُقَرُّوا في ديارهم إلا بأن يقولوا... إلخ، وهو كما ترى، وجوّز أن يكون الاستثناء منقطعاً، وأوجبه أبو حيَّان[2]، أي: ولكن أُخرِجوا بقولهم: ربُّنا اللهُ، وأَوجبَ نصبَ «ما» بعد «إلا» كما أوجبوه في قولهم: ما زاد إلا ما نقص، وما نفع إلا ما ضرّ، وردّ كونه متصلاً وكونَ «ما» بعد «إلا» بدلاً مِن «حقّ» بما هو أشبه شيء بالمغالطة، ويُفهَم مِن كلامه جواز أن تكون «إلا» بمعنى «سوى» صفة «لحقٍّ»، أي: أُخرجوا بغير حقٍّ سوى التوحيد، وحاصله: أُخرجوا بكونهم موحِّدين.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾ تحريضٌ على القتال المأذونِ فيه بإفادة أنَّه تعالى أَجرى العادةَ بذلك في الأمم الماضية؛ لينتظمَ به الأمرُ، وتقومَ الشرائعُ، وتصانَ المتعبَّدات مِن الهَدْم، فكأنَّه لما قيل: «أُذنَ للذين يُقاتلونَ»... إلخ، قيل: فليقاتل المؤمنون، فلولا القتالُ وتسليطُ اللهِ تعالى المؤمنين على المشركينَ في كلِّ عصرٍ وزمان، لهدِّمت متعبَّداتهم، ولذهبوا شَذَر مَذَر، وقيل: المعنى: لولا دفعُ اللهِ بعضَ الناس ببعضٍ بتسليط مؤمني هذه الأمَّة على كفَّارها، لهدِّمت المتعبَّداتُ المذكورة، إلا أنَّه تعالى سلَّط المؤمنين على الكافرين، فبقيت هذه المتعبَّداتُ، بعضها للمؤمنين، وبعضها لمن في حمايتهم مِن أهل الذمَّة. وليس بذاك. وقال مجاهد: أي: لولا دَفْعُ ظُلْمِ قومٍ بشهادة العدولِ ونحو ذلك، لهدِّمت... إلخ.

وقال قوم: أي: لولا دَفْعُ ظُلْمِ الظلمة بعدلِ الولاة. وقالت فرقة: أي: لولا دَفْعُ العذاب عن الأشرار بدعاءِ الأخيارِ. وقال قطرب: أي: لولا الدَّفْع بالقصاص عن

(١) سلف ٥/ ٤٠٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٤.

النفوسِ. وقيل: بالنبيِّين عليهم السلام عن المؤمنين، والكلُّ مما لا يقتضيه المقامُ، ولا ترتضيه ذوو الأفهام.

والصَّوامع: جمع: صَوْمَعة بوزن فعولة[1]، وهي: بناءٌ مرتفعٌ حديدُ الأعلى، والأصْمَع مِن الرجال: الحديدُ القول، وقال الراغبُ: هي كلُّ بناءٍ متصمِّعُ الرَّأْسِ، أي: متلاصقُه، والأَصْمَع: اللاصقة أُذُنُهُ برأسِه[2]. وهو قريبٌ مِن قريبٍ، وكانت قبل الإسلامِ كماقال قتادة مختصَّة برهبانِ النصارى وبعبَّاد الصابئة، ثم استُعملت في مئذنة المسلمين، والمراد بها هنا متعبَّد الرهبان عند أبي العالية، ومتعبَّد الصابئة عند قتادة، ولا يخفى أنَّه لاينبغي إرادةُ ذلك حيث لم تكن الصابئةُ ذات ملَّة حقَّة في وقت مِن الأوقات.

والبِيَعُ: واحدها: بِيْعَة، بوزن فِعْلَة، وهي مصلَّى النصارى، ولا تختصُّ برهبانهم كالصومعة. قال الراغبُ: فإن يكن ذلك عربيًّا في الأصل، فوجه التسمية به لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [١١١ من سورة التوبة]. وقيل: هي كنيسةُ اليهود.

وقرأ أهل المدينة، ويعقوب: «ولولا دفاعُ»بالألف[3]. وقرأ الحِرْمِيَّان، وأيوب، وقتادة، وطلحة، وزائدة عن الأعمش، والزعفرانيُّ: «لَهُدِمَتْ» بالتخفيف[4]، والتضعيف باعتبار كثرةِ المواضع.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ جمع: صلاة، وهي: كنيسةُ اليهود، وقيل: معبدٌ للنصارى دون البِيْعة، والأوَّل أشهر، وسُمِّيت الكنيسةُ بذلك؛ لأنَّها يُصلَّى فيها، فهي مجاز مِن تسمية المحلِّ باسم الحالِّ، وقيل: هي بمعناها الحقيقيّ.

وهدِّمت: بمعنى عُطِّلت، أو في الكلام مضاف مقدَّر، وليس بذاك.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والبحر المحيط ٦/ ٣٧١، والذي في تفسير القرطبي ١٤/ ٤١٠، والدر المصون ٨/ ٢٨٥، والصحاح واللسان (صمع): وزنها فوعلة. ولعلها الصواب.

(٢) المفردات (صمع)، وورد فيه: اللاصق، بدل: اللاصقة.

(٣) التيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢٣٠.

(٤) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.

وقيل: «صَلَوات» معرَّب صَلُوْثا، بالثاء المثلَّثة والقَصْر، ومعناها بالعبرانيَّة: المصلَّى. وروي عن أبي رجاء، والجحدريِّ، وأبي العالية، ومجاهد أنَّهم قرؤوا بذلك[1]. والظاهر أنَّه على هذا القول اسمُ جنسٍ لا عَلَم، قَبْلَ التعريبِ وبعدَه، لكن ما رواه هارون عن أبي عمرٍو مِن عدم تنوينهِ وَمنْعِ صَرْفه للعلميَّة والعُجْمة[2] يقتضي أنَّه عَلَمُ جنسٍ، إذ كونه اسمَ موضع بعينهِ كما قيل بعيدٌ، فعليه كان ينبغي مَنْعُ صَرْفِهِ على القراءة المشهورة، فلذا قيل: إنَّه صُرِفَ؛ لمشابهته للجمع لفظاً، فيكون كعَرَفات، والظاهر أنَّه نُكِّر إذ جُعِلَ عامًّا لمَّا عُرِّب، وأمَّا القول بأنَّ القائلَ به لا ينوِّنه، فتكلُّف، قاله الخفاجيُّ[3]. وقرأ جعفرُ بنُ محمد رضي الله عنهما: «صُلُوات» بضمِّ الصاد واللام[4]. وحكى عنه ابنُ خالويه بكسرِ الصاد وسكونِ اللام، وحُكيت عن الجحدريِّ[5]، وحكي عنه أيضاً: «صُلَوات» بضمِّ الصاد وفتح اللام، وحكيت عن الكلبيِّ[6]، وقرأ أبو العالية في رواية: «صَلْوات» بفتح الصادِ وسكون اللام[7]، وقرأ الحجَّاج بنُ يوسف: «صُلُوت» بضمِّ الصاد واللامِ من غير ألفٍ، وحكيت عن الجحدريِّ أيضاً[8]، وقرأ مجاهد: «صُلُوتا» بضمَّتين وتاء مثناة بعدها ألفٌ[9]، وقرأ الضحَّاك، والكلبيُّ: «صُلُوث» بضمَّتين من غيرِ ألف وبثاء مثلَّثة[10]، وقرأ عكرمة: «صِلْويثا» بكسرِ الصاد وإسكان اللام، وواو مكسورة بعدها ياء، بعدها ثاء مثلَّثة بعدها ألف[11]، وحكي عن الجحدري أيضاً: «صُلْوَاث» بضمِّ الصاد وسكون اللام

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٠١.
(٤) المحتسب ٢/ ٨٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٥) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣، إلا أن ابن خالويه نسبها للجحدري فقط دون جعفر بن محمد.
(٦) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٧) القراءات الشاذة ص ٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٨) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣.
(٩) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥، إلا أنه ورد في مطبوع القراءات الشاذة: صُلُوثا. بالثاء، بدل التاء.
(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(١١) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣ إلا أنه وقع فيه: صلويتا، بالتاء بدل الثاء.

وواو مفتوحة بعدها ألف بعدها ثاء مثلَّثة[1]، وحكي عن مجاهد أنَّه قرأ كذلك إلا أنَّه بكسرِ الصاد[2]، وحكى ابنُ خالويه وابنُ عطيَّة عن الحجَّاج والجحدريِّ: «صُلُوب» بضمَّتين وباء موحدة على أنَّه جمع صليب[3]، كظريف وظُرُوف، وجَمْعُ فَعِيْل على فُعُول شاذٌّ، فهذه عدَّة قراءات قلَّما يوجد مثلها في كلمة واحدة.

﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ جمع: مسجد، وهو: معبدُ معروفٌ للمسلمين، وخصَّ بهذا الاسم؛ اعتناءً بشأنه مِن حيث إنَّ السجودَ أقربُ ما يكون العبدُ فيه إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، وقيل: لاختصاصِ السجود في الصلاة بالمسلمين، ورُدَّ بقوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وحَمْلُ السجودِ فيها على المعنى اللغويِّ بعيدٌ، وقال ابنُ عطيَّة[4]: الأسماء المذكورة تشترك الأممُ في مسمَّياتها إلا البِيْعَةَ، فإنَّها مختصَّة بالنصارى في عُرْفِ كلِّ لغة، والأكثرون على أنَّ الصوامعَ للرهبان، والبِيَعَ للنصارى، والصلواتِ لليهود، والمساجدَ للمسلمين.

ولعلَّ تأخيرَ ذِكْرها مع أنَّ الظاهرَ تقديمُها لشرفِها؛ لأنَّ الترتيبَ الوجوديَّ كذلك، أو لتقع في جوار مَدْحِ أهلِها، أو للتبعيد مِن قُرب التهديم، ولعلَّ تأخيرَ «صلوات» عن «بِيَع» مع مخالفة الترتيبِ الوجوديِّ له؛ للمناسبة بينها وبين المساجد، كذا قيل، وقيل: إنَّما جِيْءَ بهذه المتعبَّدات على هذا النَّسَق؛ للانتقال مِن شريفٍ إلى أشرف، فإنَّ البِيَعَ أشرفُ من الصوامع؛ لكثرة العبَّاد فيها، فإنَّها معبدٌ للرهبان وغيرهم، والصوامع معبدٌ للرهبان فقط، وكنائس اليهود أشرفُ مِن البِيَع؛ لأنَّ حدوثَها أقدمُ، وزمان العبادة فيها أطولُ، والمساجدُ أشرفُ مِن الجميع؛ لأنَّ الله تعالى قد عُبِدَ فيها بما لم يُعْبَدْ به في غيرها.

ولعلَّ المراد مِن قوله تعالى: «لهُدِّمت»... إلخ، المبالغة في ظهورِ الفساد ووقوع الاختلال في أَمْرِ العباد لولا تسليطُ الله تعالى المحقِّين على المبطلين لا مجرَّد تهديم متعبَّدات للملِّيين.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.

﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ في موضع الصفةِ لـ «مساجد»، وقال الضحَّاك، ومقاتل، والكلبيُّ: في موضع الصفةِ للجميع، واستظهره أبو حيَّان[1]، وكونُ كونِ بيانِ ذِكْر الله عزَّ وجلَّ في الصوامع والبِيَع والكنائس بعد انتساخِ شرعيَّتها مما لا يقتضيه المقامُ = ليس بشيء؛ لأنَّ الانتساخَ لا ينفي بقاءَها ببركة ذِكرْ اللهِ تعالى فيها، مع أنَّ معنى الآية عامٌّ لما قَبْل الانتساخِ، كما مرَّ.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: وبالله لينصرنَّ اللهُ تعالى مَن ينصر دينَه، أو من يَنصُر أولياءَه، ولقد أنجزَ اللهُ تعالى وَعْدَه حيث سلَّط المهاجرينَ والأنصار على صناديدِ العرب وأكاسرةِ العجم وقياصرةِ الروم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على كلِّ ما يريده مِن مراداته التي مِن جملتها نَصْرُهم ﴿عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ لا يمانعه شيءٌ ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وصفٌ للذين أُخرجوا، مقطوع أو غير مقطوع، وجوّز أن يكون بدلاً، والتمكينُ: السلطنةُ ونفاذُ الأمر، والمراد بالأرض جنسُها، وقيل: مكَّة، والمراد بالصلاة الصلاةُ المكتوبة، وبالزكاة الزكاةُ المفروضة، وبالمعروف التوحيدُ، وبالمنكَر الشِّرْكُ، على ما روي عن زيد بنِ أسلم.

ولعلَّ الأولى في الأخيرين التعميمُ، والوصف بما ذُكرَ كما روي عن عثمان رضي الله عنه: ثناء قبل بلاء، يعني أنَّ اللهَ تعالى أثنى عليهم قبل أن يُحدِثوا مِن الخير ما أَحدثوا، قالوا: وفيه دليلٌ على صحَّة أَمْرِ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، وذلك على ما في «الكشف»؛ لأنَّ الآيةَ مخصوصةٌ بالمهاجرين؛ لأنهَّم المُخرَجُون بغير حقٍّ، والممكَّنون في الأرض، منهم الخلفاء دون غيرهم، فلو لم تثبت الأوصاف الباقية، لزم الخُلْفُ في المقال، تعالى الله سبحانه عنه، لدلالته على أنَّ كلَّ ممكن منهم يلزمه التوالي؛ لعموم اللفظ، ولمَّا كان التمكينُ واقعاً تمَّ الاستدلالُ دون نظر إلى استدعاءِ الشرطيَّة الوقوع، كالكلام المقرون بـ «لعلَّ» و«عسى» مِن العظماء، فإنَّ لزومَ التالي مقتضى اللفظ لا محالةَ، ولما وقع المقدَّم، لزم وقوعه أيضاً، وفي

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٧٥.

ثبوت التالي ثبوت حقِّيَّة الخلافة ألبتة، وهي واردةٌ على صيغة الجمعِ المنافية للتخصيص بعليٍّ وحده ﷺ، وعن الحسن، وأبي العالية: هم أمَّة محمَّد ﷺ.
والأولى على هذا أن يُجعل الموصول بدلاً مِن قوله تعالى: «مَن يَنْصُرُه» كما أعربه الزجَّاج(١)، وكذا يقال على ما روي عن ابنِ عباس أنهم المهاجرونَ والأنصار والتابعون، وعلى ما روي عن أبي نجيحٍ أنَّهم الولاةُ. وأنتَ تَعلمُ أنَّ المقامَ لا يقتضي إلا الأوَّلَ.

﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ فإنَّ مرجعَها إلى حُكْمه تعالى وتقديرِه فقط، وفيه تأكيدٌ للوعد بإعلاء كلمتِه وإظهارِ أوليائه.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وصيغةُ المضارع في الشَّرْط مع تحقُّق التكذيبِ لما أنَّ المقصودَ تسليتُه عليه الصلاة والسلام عمَّا يترتَّب على التكذيب مِن الحزن المتوقَّع، أو للإشارة إلى أنَّه ممَّا لا ينبغي تحقُّقه، وإلحاق: كَذَّبَ، تاءَ التأنيث؛ لأن الفاعلَ وهو «قوم» اسمُ جمع يجوز تذكيرُه وتأنيثُه، ولا حاجةَ لتأويله بالأمَّة أو القبيلة، كما فعل أبو حيَّان(٢) ومَن تبعهُ، وفي اختيارِ التأنيث حطٌّ لقَدْر المكذِّبين، ومفعولُ كذَّب محذوفٌ؛ لكمال ظهورِ المراد.

وجوّز أن يكون الفعلُ منزَّلاً منزلةَ اللازم، أي: فَعلَت التكذيبَ، واستغنى في «عادٍ وثمودَ» عن ذِكْر القومِ؛ لاشتهارِهم بهذا الاسمِ الأخصر، والأصل في التعبير العَلَمُ، فلذا لم يقل: قوم صالح وقوم هود. ولا عَلَم لغير هؤلاء، ولم يقل: وقوم شعيب، قيل: لأنَّ قومَه المكذِّبين له عليه السلام هم هؤلاء دونَ أهلِ الأيْكة؛ لأنَّهم ـ وإنْ أُرسلَ عليه السلام إليهم فكذَّبوه ـ أجنبيُّون، وتكذيبُ هؤلاء أيضاً أسبقُ وأشدُّ، والتخصيص؛ لأنَّ التسليةَ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام عن تكذيبِ قومِه، أي: وإن يكذِّبك قومُك فاعْلَم أنَّكَ لست بأوحديٍّ في ذلك، فقد كذَّبَتْ قَبْلَ تكذيبِ قومِك إيَّاك قومُ نوحٍ... إلخ.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣١.
(٢) البحر المحيط ٦/٣٧٦.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ المكذِّب له عليه السلام هم القبطُ، وليسوا قومَه، بل قومه عليه السلام بنو إسرائيل ولم يكذِّبوه بأَسْرهم، ومَن كذَّبه منهم تابَ إلا اليسيرَ، وتكذيبُ اليسيرِ مِن القوم كلا تكذيبٍ، ألا ترى أنَّ تصديقَ اليسير مِن المذكورين قَبْلَ عدٌّ كلا تصديق، ولهذا لم يَقُل: وقوم موسى، كما قيل: «قوم نوح» و«قوم إبراهيم»، وأمَّا أنَّه لم يقل: والقِبْط، بل أُعيد الفعلُ مبنيًّا للمفعول؛ فللإيذان بأنَّ تكذيبَهم له عليه الصلاة والسلام في غاية الشناعة، لكون آياتِه في كمالِ الوضوح.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلتُهم حتى انصرمتْ حبالُ آجالِهم، والفاء لترتيب إمهال كلِّ فريق مِن فِرَقِ المكذِّبين على تكذيبِ ذلك الفريق، لا لترتيب إمهال الكلِّ على تكذيب الكلِّ. ووضعَ الظاهرُ موضعَ المضمرِ العائد على المكذِّبين لذمِّهم بالكفر، والتصريح بمكذِّبي موسى عليه السلام حيث لم يُذكَروا فيما قَبْلُ تصريحاً.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أخذتُ كلَّ فريقٍ مِن فِرَقِ المكذِّبين بعد انقضاءِ مدَّة إملائه وإمهاله، والأَخْذُ كنايةٌ عن الإهلاك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إنكاري عليهم، بتغيُّرِ ماهم عليه مِن الحياة والنِّعْمة وعمارةِ البلاد وتبديله لضدِّه، فهو مصدر مِن نكرتُ عليه إذا فعلتَ فعلاً يردعُه، بمعنى الإنكار كالنذير بمعنى الإنذار. وياءُ الضمير المضاف إليها محذوفةٌ؛ للفاصلة، وأثبتها بعضُ القرَّاء[1]، والاستفهام للتعجُّب، كأنَّه قيل: فما أشدّ ما كان إنكاري عليهم، وفي الجملة إرهابٌ لقريش.

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ منصوبٌ بمضمر يفسِّره قولُه تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: فأهلكنا كثيراً مِن القرى أهلكناها، والجملة بدلٌ مِن قوله سبحانه: «فكيف كان نكير»، أو مرفوع على الابتداء، وجملة«أهلكناها» خبره، أي: فكثير مِن القرى أهلكناها، واختار هذا أبو حيَّان[2]، قال: الأجودُ في إعراب «كأيِّن» أن تكون مبتدأ، وكونها منصوبةً بفعل مضمر قليلٌ.

وقرأ أبو عمرو، وجماعة: «أهلكتُها» بتاء المتكلِّم[3] على وفقِ: «فأمليتُ للكافرين ثم أخذتُهم»، ونسبةُ الإهلاك إلى القرى مجازيَّة، والمراد إهلاكُ أهلِها،

---

(١) أثبتها ورش وصلاً، ويعقوب وصلاً ووقفاً. التيسير ص ١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٦.

(٣) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٧.

ويجوز أن يكون الكلامُ بتقديرِ مضاف، وقيل: الإهلاك استعارةٌ؛ لعدم الانتفاع بها بإهلاك أهلِها.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملةٌ حاليَّة مِن مفعولِ: أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ عطف على «أهلكناها» فلا محلَّ له من الإعراب، أو محلُّه الرفع كالمعطوف عليه، ويجوز عطفُه على جملة «كأيِّن» إلخ الاسميَّة، واختاره بعضُهم؛ لقضية التشاكل، والفاءُ غيرُ مانعة؛ بناءً على ترتُّب الخَوَاء على الإهلاك؛ لأنَّه على نحو: زيدٌ أبوكَ، فهو عطوفٌ عليك. وجوّز عطفُها على الجملة الحالية، واعترض بأن خواءها ليس في حال إهلاك أهلها، بل بعده، وأجيب بأنها حال مقدَّرة، ويصح عطفها على الحال المقارنة، أو يقال: هي حالٌ مقارنة أيضاً بأن يكون إهلاك الأهل بخوائِها عليهم، ولا يخفى أنَّ كلا الجوابين خلافُ الظاهر.

والخَواء إمَّا بمعنى السقوط مِن خَوَى النجمُ: إذا سقط، وقوله تعالى ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ متعلِّق به، والمراد بالعروش: السقوفُ، والمعنى: فهي ساقطةٌ حيطانُها على سقوفها، بأن تعطَّل بنيانها، فخرَّت سقوفُها، ثم تهدَّمت حيطانُها فسقطت فوقَ السقوف، وإسناد السقوطِ على العروش إليها؛ لتنزيل الحيطان منزلةَ كلِّ البُنيان؛ لكونها عمدةً فيه.

وإمَّا بمعنى الخلوِّ، مِن خَوَتِ الدارُ تَخوي خَواء: إذا خَلَت مِن أهلها، ويقال: خَوي البطنُ يَخوِي خَوًى، إذا خلا مِن الطعام، وجعل الراغبُ[(١)] أصلَ معنى الخَواء هذا، وجعل خَوَى النجمُ مِن ذلك، فقال: يقال: خَوَى النجمُ وأَخْوَى، إذا لم يكن منه عند سقوطِه مطرٌ، تشبيهاً بذلك. فقوله تعالى «على عروشها» إمَّا متعلِّق به، أو متعلِّق بمحذوف وقع حالاً، و«على» بمعنى «مع»، أي: فهي خاليةٌ مع بقاء عروشها وسلامتها، ويجوز على تفسير الخواء بالخلوِّ أن يكون «على عروشها» خبراً بعد خبر، أي: فهي خالية وهي على عروشها، أي: قائمةٌ مشرفة علي عروشها، على أنَّ السقوفَ سقطت إلى الأرض، وبقيت الحيطانُ قائمةً وهي مشرفةٌ على السقوف الساقطة، وإسنادُ الإشراف إلى الكلِّ مع كونه حالَ الحيطان؛ لما مرَّ آنفاً.

---

(١) المفردات (خوي).

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على «قرية»، والبئر مِن بَأَرْتُ، أي: حفرتُ، وهي مؤنَّثة على وزن فِعْل بمعنى مفعول، وقد تُذَكَّر على معنى القليب، وتجمع على أَبْآر، وآبار، وأبؤُر، وآبُر، وبِئار، وتعطيلُ الشيء إبطالُ منافعه، أي: وكم بئر عامرة في البوادي تُرِكَت لا يُسقَى منها؛ لهلاك أهلِها.

وقرأ الجحدريُّ، والحسن، وجماعة: «مُعْطَلَة» بالتخفيف[1]، من أَعْطَلَه بمعنى عَطَّلَه.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ عطف على ما تقدَّم أيضًا، أي: وكم قصر مرفوعِ البُنيان، أو مبنيٍّ بالشِّيْد ـ بالكسر ـ أي: الجِصّ، أَخليناه عن ساكِنيه كما يُشعِر به السياقُ ووصفُ البئرِ بمعطَّلة، قيل: وهذا يؤيِّد كون معنى: «خاوية على عروشها»: خالية مع بقاءِ عروشها، وفي «البحر»[2]: ينبغي أن يكون «بئر» و«قصر» من حيث عطفُهما على «قرية» داخلين معها في حيِّز الإهلاك مخبراً به عنهما بضَرْبٍ من التجوُّز، أي: وكم بئرٍ معطَّلة وقصرٍ مشيدٍ أَهلكنا أهلَهُما. وزعم بعضُهم عطفهما على «عروشها»، وليس بشيءٍ، وظاهر التنكيرِ فيهما عدم إرادةِ معيَّن منهما، وعن ابنِ عباس أنَّ البئرَ كانت لأهل عَدَن مِن اليمن وهي الرَّسُّ، وعن كعب الأحبار أنَّ القَصْر بناه عادٌ الثاني.

وعن الضحَّاك وغيرِه أنَّ القَصْر على قُلَّةِ جبلٍ بحَضْرَمَوْت، والبئر بسَفْحه، وأنَّ صالحاً عليه السلام نزل عليها مع أربعةِ آلاف نفر ممَّن آمَنَ به، ونجَّاهم اللهُ تعالى من العذاب، وسمِّيت حَضْرَمَوْت بفتح الراءِ والميم ويُضمَّان، ويُبنى ويُضاف؛ لأنَّ صالحاً عليه السلام حين حَضَرها مات[3]، وعند البئر بلدةٌ اسمها حاضُورا بناها قومُ صالحٍ وأمَّروا عليها جلهسَ بنَ جلاس، وأقاموا بها زماناً، ثم كفروا وعبدوا صنماً، وأرسل اللهُ تعالى إليهم حنظلَة بنَ صفوان نبيًّا، فقتلوه في السوق، فأهلكهم اللهُ تعالى عن آخِرهم، وعطَّل سبحانه بئرَهم وقَصْرَهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٥.
(٢) ٦/ ٣٧٧.
(٣) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: «فالظاهر أن قبره عليه السلام هناك، وقيل: هو بعكا، وعليه الإمام أبو القاسم الأنصاري، والله تعالى أعلم. اهـ. منه».

وجوّز أن يكون إرادةُ ذلك بطريقِ التعريض، وفيه بُعْدٌ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثٌّ لهم على السفر؛ للنَّظَر والاعتبارِ بمصارع الهالكين، هذا إن كانوا لم يسافروا، وإن كانوا سافروا، فهو حثٌّ على النظر والاعتبارِ، وذِكْر المسير؛ لتوقُّفه عليه: وجوّز أن يكون الاستفهامُ للإنكار أو التقرير، وأيًّا ما كان فالعطف على مقدَّر يقتضيه المقامُ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ منصوبٌ في جواب الاستفهام عند ابنِ عطيَّة(١)، وفي جواب التقرير عند الحوفيِّ، وفي جواب النفي عند بعض، ومذهب البصريِّين أنَّ النصبَ بإضمار «أن» وينسبك منها ومن الفعل مصدرٌ يعطف على مصدرٍ متوهَّم. ومذهب الكوفيين أنَّه منصوبٌ على الصرف، إذ معنى الكلام الخبرُ، صرفوه عن الجَزْم على العطف على «يسيروا»، وردُّوه إلى أخي الجَزْم وهو النصبُ، وهو كما ترى. ومذهب الجرميِّ أنَّ النصبَ بالفاء نفسِها.

وقرأ مُبَشِّرُ بنُ عبيد: «فيكونَ» بالياء التحتيَّة(٢).

﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي: يَعلمون بها ما يَجب أن يُعلَم مِن التوحيدِ، فمفعول «يعقلون» محذوفٌ؛ لدلالة المقامِ عليه، وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: يسمعونَ بها ما يَجب أن يُسمَع مِن الوحي أو مِن أخبارِ الأمم المُهلَكة ممَّن يجاورهم مِن الناس، فإنَّهم أعرفُ منهم بحالهم.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ ضمير «فإنَّها» للقصَّة، فهو مفسَّر بالجملة بعدَه، ويجوز في مثله التذكيرُ باعتبار الشأن، وعلى ذلك قراءةُ عبدِ الله: «فإنَّه»(٣)، وحَسَّنَ التأنيثَ هنا وقوعُ ما فيه تأنيثٌ بعده، وقيل: يجوز أن يكون ضميراً مبهَماً مفسَّراً بالأبصار، وكأن الأصل: فإنَّها الأبصارُ لا تَعمى، على أنَّ جملة «لا تعمى» مِن الفعل والفاعلِ المستتر خبرٌ بعد خبرٍ، فلمَّا تُرك الخبر الأوَّل أُقيم الظاهرُ مقامَ الضمير، لعدم ما يرجع إليه ظاهراً، فصار فاعلاً مفسِّراً

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٧.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٧.
(٣) الكشاف ٣/ ١٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٨.

للضمير. واعترضه أبو حيَّان[1] بأنَّه لا يجوز؛ لأنَّ الضميرَ المفسّر بمفرد بعدَه محصورٌ في أمور، وهي باب «رُبَّ»، وباب «نِعْمَ» و«بِئْسَ»، وباب الإعمال، وباب البدل، وباب المبتدأ والخبر، وما هنا ليس منها. ورُدَّ بأنَّه مِن باب المبتدأ والخبر، نحو: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] ولا يضرُّه دخولُ الناسخِ، وفيه نظرٌ، والمعنى أنَّه لا يعتدُّ بعمى الأبصار، وإنَّما يعتدُّ بعمَى القلوب، فكأنَّ عمى الأبصار ليس بعمًى بالإضافة إلى عَمَى القلوب، فالكلامُ تذييلٌ؛ لتهويلِ ما بهم مِن عدم فِقْهِ القلب، وأنَّه العمى الذي لا عمى بعدَه، بل لاعمَى إلا هو، أو المعنى: إنَّ أبصارَهم صحيحةٌ سالمة لا عمى بها، وإنّما العمى بقلوبهم، فكأنَّه قيل: أَفَلَم يسيروا فتكون لهم قلوبٌ ذاتُ بصائر، فإنَّ الآفةَ ببصائرِ قلوبهم لا بأبصار عيونهم، وهي الآفة التي كلُّ آفةٍ دونها، كأنَّه يحثُّهم على إزالة المرض، ويَنعي عليهم تقاعدَهم عنها. ووصف القلوب بالتي في الصدور على ما قال الزجَّاج[2]؛ للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ [آل عمران: ٦٧] وقولك: نظرتُ بعيني.

وقال الزمخشريُّ[3]: قد تُعورفَ واعتُقد أنَّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أَنْ تُصاب الحَدَقةُ بما يطمسُ نورَها، واستعمالُه في القلب استعارةٌ ومَثَلٌ، فلما أُريد إثباتُ ما هو خلافُ المعتقَد مِن نسبة العمى إلى القلوب حقيقةً، ونفيُه عن الأبصار، احتاج هذا التصويرُ إلى زيادةِ تعيين وفَضْلِ تعريف؛ ليتقرَّر أنَّ مكانَ العمى هو القلوبُ لا الأبصار، كما تقول: ليس المَضَاء للسيف، ولكنه لِلسَّانِك الذي بين فكَّيك، وهو في حُكم قولك: ما نفيتُ المضاءَ عن السيف وأثبتُّه للسانِك فلتةً ولا سهواً منِّي، ولكن تعمَّدت به إيَّاه بعينه تعمُّداً.

وهذه الآية على ما قيل: نزلت في ابنِ أمِّ مكتوم حين سمع قولَه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢]، فقال: يا رسولَ الله، أنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى[4]؟! وربَّما يرجَّح بهذه الرواية - إن

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٧٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣٢.
(٣) الكشاف ٣/ ١٧.
(٤) تفسير القرطبي ١٤/ ٤٢٠، وتفسير أبي السعود ٦/ ١١١، ولم نقف عليه مسنَداً.

صحَّتِ ـ المعنى الأوَّل، إذ حصولُ الجوابِ بالآية عليه ظاهرٌ جدًّا، فكأنَّه قيل له: أنتَ لا تدخل تحت عمومِ «ومَن كان» إلخ؛ لأنَّ عمى الأبصار في الدنيا ليس بعمًى في الحقيقة في جَنْبِ عمى القلوب، والذي يَدخُل تحت عمومِ ذلك منِ اتَّصف بعمى القلب، وهذا يكفي في الجواب، سواء كان معنى قولِه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢]: ومَن كان في الدنيا أعمى القلب فهو في الآخرة كذلك، أو: ومن كان في الدنيا أعمَى القلب فهو في الآخرة أعمى البصر؛ لأنَّه فيها تُبلَى السرائر فيظهر عمى القلب بصورةِ عمى البصر، نعم في صحَّة الرواية نَظرٌ.

وفي «الدر المنثور»: أخرج ابنُ أبي حاتم عن قتادةَ أنَّه قال في هذه الآية: ذُكِرَ لنا أنَّها نزلت في عبدِ الله بنِ زائدة يعني: ابن أمِّ مكتوم[(١)]. ولا يخفى حُكْمُ الخبرِ إذا رُويَ هكذا.

واستدلَّ بقوله تعالى: «أفلم يسيروا»... إلخ على استحباب السياحة في الأرض وتطلُّب الآثار.

وقد أخرج ابنُ أبي الدنيا[(٢)] في كتاب «التفكُّر» عن مالك بنِ دينار قال: أوحى اللهُ تعالى إلى موسى عليه السلام أنِ اتَّخِذْ نعلَيْن مِن حديدٍ وعصا، ثم سُحْ في الأرض، فاطلب الآثارَ والعِبَر حتى تَحفى النعلان، وتنكسر العصا.

وبقوله تعالى: «فتكون»... إلخ على أنَّ محلَّ العقل القلبُ لا الرأسُ، قاله الجلال السيوطيُّ في «أحكام القرآن العظيم».

وقال الإمام الرازيُّ[(٣)]: في الآية دلالةٌ على أنَّ العقلَ هو العِلْمُ، وعلى أنَّ محلَّه هو القلبُ. وأنت تَعلَمُ أنَّ كونَ العقل هو العِلْم هو اختيار أبي إسحاق الإسفراييني، واستدلَّ عليه بأنَّه يقال لمن عقلَ شيئاً: عَلِمَهُ، ولمن عَلِمَ شيئاً: عَقَلَهُ، وعلى تقديرِ التغاير لا يقال ذلك، وهو غيرُ سديد؛ لأنَّه إن أُريدَ بالعلم كلُّ عِلْم،

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٨ (١٣٩٨٣).
(٢) في الأصل و(م): حاتم. والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٣٦٥، وهو الصواب.
(٣) في تفسيره ٢٣/ ٤٥.

يَلزمُ منه أن لا يكونَ عاقلاً مَن فاته بعضُ العلوم مع كونه محصِّلاً لما عداه، وإن أُريد بعضُ العلوم فالتعريف غيرُ حاصل؛ لعدم التمييز، وما ذكر مِن الاستدلال غيرُ صحيح؛ لجواز أن يكون العِلْم مغايراً للعقل، وهما متلازمان.

وقال الأشعريُّ: لا فرقَ بين العَقْل والعِلْم إلا في العموم والخصوص، والعِلْم أعمُّ من العقل، فالعقلُ إذاً عِلْمٌ مخصوصٌ، فقيل: هو العِلْم الصارفُ عن القبيح الداعي إلى الحُسْنِ، وهو قول الجبَّائيِّ، وقيل: هو العِلْم بخَيْر الخيرَيْن وشَرِّ الشرَّيْن، وهو قولٌ لبعض المعتزلة أيضاً، ولهم أقوالٌ أُخَر، والذي اختاره القاضي أبو بكر أنَّه بعضُ العلوم الضروريَّة كالعِلْم باستحالة اجتماع الضِّدَّيْن، وأنَّه لا واسطةَ بين النفي والإثبات، وأنَّ الموجودَ لا يخرج عن أن يكون قديماً أو حادثاً ونحو ذلك. واحتجَّ إمامُ الحرمين على صحَّة ذلك وإبطال ما عداه بما ذكره الآمديُّ في «أبكار الأفكار»[1] بما له وعليه. واختار المحاسبيُّ - عليه الرحمة - أنَّه غريزةٌ يتوصَّل بها إلى المعرفة. ورُدَّ بأنَّه إن أراد بالغريزة العِلْمَ، لزمه ما لزمَ القائلَ بأنَّه العِلْم، وإن أراد بها غير العِلْم فقد لا يُسلَّم وجودُ أَمْر وراءَ العِلْم يتوصَّل به إلى المعرفة.

وقال صاحب «القاموس»[2]، بعد نقل عدَّة أقوال في العقل: والحقُّ أنَّه نُورٌ رَوحانيٌّ به تُدرِك النفسُ العلومَ الضروريَّة والنظريَّة. ولعلَّنا نُحقِّق ذلك في موضع آخَر إن شاء الله تعالى.

ثم إنَّ في محلِّيَّة القَلْب للعِلْم خلافاً بين العقلاء، فالمشهور عن الفلاسفة أنَّ محلَّ العِلْم المتعلِّق بالكلِّيَّات والجزئيَّات المجرَّدة النفسُ الناطقة، ومحلُّ العِلْم المتعلِّق بالجزئيات الماديَّة قوى جسمانيَّة قائمةٌ بأجزاء خاصَّة مِن البَدَن، وهي منقسمةٌ إلى خمسٍ ظاهرة، وخمسٍ باطنة، وتُسمَّى الأُولى الحواسَّ الظاهرةَ، والثانيةَ الحواسَّ الباطنة، وأَمْرُ كلٍّ مشهورٌ.

وزعم بعضُ متفلسفة المتأخِّرين أنَّ المدرِك للكلِّيَّات والجزئيَّات إنَّما هو

---

(١) ١/ ١٣٠ والكلام السالف منه.

(٢) القاموس المحيط (عقل).

النَّفْسُ، والقوى مطلقاً غيرُ مُدرِكة، بل آلةٌ في إدراكِ النفس، وذهب إليه بعضٌ منَّا. وفي «أبكار الأفكار»[1] ـ بعد نَقْلِ قولِ الفلاسفة ـ: وأمَّا أصحابنا فالبُنْية المخصوصة غيرُ مشترطة عندهم، بل كلُّ جزءٍ من أجزاء بَدَن الإنسان إذا قام به إدراكٌ وعِلْم، فهو مُدرِك عالِم، وكون ذلك مما يقوم بالقلب أو غيرِه ممَّا لا يجب عقلاً ولا يمتنعُ، لكن دلَّ الشرعُ على القيام بالقلب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقولِه سبحانه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. انتهى.

ولا يخفى أنَّ الاستدلالَ بما ذكر على محلِّيَّة القَلْب للعِلْم لا يخلو عن شيء، نعم لا يُنكر دلالةُ الآياتِ على أنَّ للقلب الإنسانيِّ ـ لِما أُودعَ فيه ـ مدخلاً تامًّا في الإدراك، والوجدان يَشهد بمدخليَّة ما أودع في الدماغ في ذلك أيضاً، ومِن هنا لا أَرى للقول بأنَّ لأحدهما مدخلاً دون الآخر وجهاً، وكون الإنسان قد يُضرَب على رأسه فيذهب عقلُه لا يدلُّ على أنَّ لِمَا أُودعَ في الدماغ لا غير مدخلاً في العِلْم، كما لا يَخفى على مَن له قلب سليمٌ وذهن مستقيم، فتأمَّل.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الضميرُ لقريشٍ، كان ﷺ يُحذِّرهم عذابَ اللهِ تعالى ويُوعدهم مجيئَه، وهم يُنكِرون ذلك أشدَّ الإنكارِ، ويطلبون مجيئَه؛ استهزاءً وتعجيزاً له ﷺ، فأنكر عليهم ذلك، فالجملة خبرٌ لفظاً واستفهامٌ وإنشاءٌ معنًى. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ جملة حاليَّة جِيْءَ بها؛ لبيانِ بُطلان إنكارهم العذابَ في ضمنِ استعجالهم به، كأنَّه قيل: كيف تُنكرون مجيءَ العذاب الموعودِ والحالُ أنَّه تعالى لا يُخلِف وَعْدَه، وقد سَبَقَ الوعدُ، فلا بُدَّ مِن مجيئه، أو اعتراضيَّة؛ لما ذُكرَ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ جملةٌ مستأنفةٌ إن كانت الأُولى حاليَّةً، ومعطوفةٌ عليها إن كانت اعتراضيَّةً، سيقت لتحقيق إنكارِ الاستعجال وبيان خَطَئِهم فيه، ببيان كمال سَعَةِ ساحة حِلْمه تعالى، وإظهارِ

---

(١) ١/١٠٩-١١٠، وما قبله منه أيضاً.

غاية ضِيْق عَطَنِهم المستتبعِ لكون المدَّة القصيرة عنده تعالى مدداً طِوالاً عندهم حسبما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧] ولذا يَرَوْن مجيئَه بعيداً، ويتَّخذونه ذريعةً إلى إنكاره، ويجترؤون على الاستعجالِ به، ولا يَدْرُون أنَّ معيارَ تقديرِ الأمور كلِّها وقوعاً وإخباراً ما عنده مِن المقدار.

وقراءة الأخوين، وابنِ كثير: «يَعدُّون» على صيغة الغيْبة[١] ـ أي: يعدُّه المستعجلون ـ أوفقُ لهذا المعنى، وقد جعل الخطاب في قراءة الجمهور لهم أيضاً بطريق الالتفات، لكنَّ الظاهرَ أنَّه للرسول ﷺ ومَن معه مِن المؤمنين، وقيل: المراد بوَعْده تعالى ما جَعَلَ لهلاكِ كلِّ أمَّةٍ مِن موعد معيَّن وأجلٍ مسمًّى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] فتكون الجملةُ الأولى مطلقاً مبيِّنة لبطلان الاستعجالِ به، ببيانِ استحالةِ مجيئه قبل وقتِه الموعود، والجملة الأخيرة بياناً لبطلانِه، ببيانِ ابتنائه على استطالةِ ما هو قصيرٌ عنده تعالى على الوجه المارِّ بيانه، وحينئذٍ لا يكون في النظم الكريم تعرُّض لإنكارهم مجيئَه الذي دسُّوه تحت الاستعجال، ويكتفى في ردِّ ذلك ببيان عاقبة مَن قبلهم مِن أمثالهم، وأيًّا ما كان فالعذاب المستعجَل به العذاب الدنيويّ، وهو الذي يقتضيه السباق والسياق. وقيل: المراد بالعذاب العذابُ الأُخرويُّ، والمراد باليوم المذكور يومُ ذلك العذابِ، واستطالتُه؛ لشدَّته، فإنَّ أيَّامَ الترحةِ مستطالةٌ، وأيَّامَ الفرحة مستقصرةٌ، كما قيل:

تـمـتَّـع بـأيَّـام الـسـرورِ فـإنَّـهـا ... قـصـارٌ وأيَّـامُ الـهـمـومِ طـوالُ[٢]

وعلى ذلك جاء قوله:

لَيْلي ولَيْلى نَفَى نومي اختلافُهما ... بالطُّول والطَّوْل يا طوبى لو اعْتَدَلَا
يَجودُ بالطُّول لَيْلي كلَّما بَخِلَتْ ... بالطَّوْل لَيْلَى وإن جادَتْ به بَخِلَا[٣]

---

(١) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.
(٢) كذا ذكره الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٦/ ٣٠٤، ولم ينسبه.
(٣) البيتان ذكرهما العماد الأصفهاني في خريدة العصر وجريدة القصر ٢/ ١٠٢ (قسم شعراء الشام) وعزاهما لأبي المكارم الفضل بن عبد القاهر، وذكرهما أيضاً ـ دون نسبة ـ العباسي في معاهد التنصيص ١/ ٢٦٦، واليوسي في زهر الأكم ٢/ ١٧٨-١٧٩، إلا أن عجز البيت =

فيكون قد ردَّ عليهم إنكارَ مجيْءِ العذاب بالجملة الأولى، وأنكر عليهم الاستعجالَ به، وإن كان ذلك على وجهِ الاستهزاء بالجملة الثانية، فكأنَّه قيل: كيف تُنكرونَ مجيئَه وقد سَبَقَ به الوعدُ، ولن يُخلِفَ اللهُ تعالى وعدَه فلا بُدَّ مِن مجيئه حتماً، وكيف تستعجلونَ به واليوم الواحد مِن أيَّامه لشدَّته يُرى كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّون، ويقال نحو ذلك على القول بأنَّ المرادَ باليوم أحد أيَّام الآخِرة، فإنَّها اعتبرت طوالاً، أو أنَّها تستطال؛ لشدَّة عذابها.

واعتُرض بأنَّ ذلك ممَّا لا يُساعده السباقُ ولا السياق وقال الفرَّاء[1]: تضمَّنت الآيةُ عذابَ الدنيا والآخِرة، وأُريد بالعذاب المستعجَل به عذاب الدنيا، أي: لن يُخلِفَ اللهُ تعالى وعدَه في إنزال العذاب بكم في الدنيا، وإنَّ يوماً مِن أيَّام عذابكم في الآخرة كألفِ سنة مِن سِنِيِّ الدنيا. ولا يَخلو عن حُسْنٍ إلا أنَّ فيه بُعْداً كما لا يَخفى.

واستدلَّ المعتزلة بقوله تعالى: «لن يُخلِفَ اللهُ وعدَه» على أنَّ اللهَ سبحانه لا يَغفِرُ للعصاة؛ لأنَّ الوعدَ فيه بمعنى الوعيد، وقد أَخبر سبحانه أنَّه لا يُخلِفه، والمغفرةُ تستلزم الخُلْفَ المستلزِم للكذب المُحالِ عليه تعالى؟

وأجاب أهلُ السُّنَّة بأنَّ وعيداتِ سائرِ العصاة إنشاءاتٌ أو إخباراتٌ عن استحقاقِهم ما أُوعدوا به لا عن إيقاعِه، أو هي إخباراتٌ عن إيقاعِه مشروطةٌ بعدم العَفْو وتَرْكِ التصريح بالشرط بزيادةِ الترهيب، ولا كذلك وعيداتُ الكفار، فإنَّها محضُ إخباراتٍ عن الإيقاع غيرِ مشروطة بشرطٍ أصلاً، كمواعيد المؤمنين، والدَّاعي للتفرقة الجَمْعُ بين الآيات، وأنتَ تَعلمُ أنَّ وعيداتِ الكفَّار بالعذاب الدنيويِّ كوعيداتهم بالعذاب الأخرويِّ لا يتطرَّقها عدمُ الوقوع، فلا يجوز العفوُ عن عذابهم مطلقاً متى وعدَ به، وعندي في التسوية بين الأمرين تردُّد، ويُعلَم مِن ذلك

= الأول ورد عند العباسي هكذا:

حتى لقد صيَّراني في الهوى مثلا

وورد عند اليوسي هكذا:

قد صيَّراني جميعاً في الهوى مثلا

(١) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٢٢٨-٢٢٩.

حالُ هذا الجواب على تقدير حَمْلِ العذاب في الآية على العذاب الدنيويِّ الأوفق للمقام، والوعد على الوَعْد به. وأجاب بعضُهم هنا بأنَّ المرادَ بالوعد وَعْدُه تعالى بالنُّظْرَة والإمهال، وهو مقابلٌ للوعيد في نظر المُمْهَل، ولا خلافَ في أنَّ الله تعالى لا يُخلف الوعدَ المقابل للوعيدِ، وأنَّ ما يؤدى به خبرٌ محض لا شَرْط فيه. وقيل: المراد به وعدُه تعالى نبيَّه ﷺ بإنزال العذابِ المستعجَل به عليهم، وذلك مقابل للوعيد مِن حيث إنَّ فيه خيراً له عليه الصلاة والسلام، ولا مانعَ مِن أن يكون شيءٌ واحدٌ خيراً وشرًّا بالنسبة إلى شخصَيْن، فقد قيل:

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ[1]

وحينئذٍ لا دليلَ للمعتزلة في الآية على دعواهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كم مِن سَكَنةِ قرية ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليتُ لهؤلاء حتى أنكروا مجيْءَ ما وعد مِن العذاب واستعجلوا به استهزاءً وتعجيزاً لرسلهم عليهم السلام كما فعل هؤلاء، والجملة عطفٌ على ما تقدَّمها جِيْءَ بها؛ لتحقيق الردِّ كما تقدَّم، فلذا جِيْء بالواو، وجِيْءَ في نظيرتها السابقة بالفاء، قيل: لأنَّها أُبدلت مِن جملة مقرونة بها، وفي إعادة الفاء تحقيقٌ للبدليَّة، وقيل: جِيْءَ بالفاء هناك؛ لأنَّ الجملةَ مترتِّبة على ما قبلها، ولم يَجِئ بها هنا؛ لعدم الترتُّب.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملةٌ حاليَّة مفيدة لكمالِ حِلْمه تعالى، ومُشعِرة بطريق التعريض بظُلْم المستعجلينَ، أي: أمليتُ لها والحال أنَّها ظالمةٌ مستوجبة لتعجيلِ العقوبة كدأْب هؤلاء ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنَّكال بعد طُول الإملاء والإمهال ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ أي: إلى حُكْمي مرجعُ جميعِ الناس، أو جميعِ أهلِ القرية لا إلى أحدٍ غيري لا استقلالاً ولا شَرِكةً، فأَفعلُ بهم ما أفعل ممَّا يليقُ بأعمالهم، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لما قَبْلَه مصرِّح بما أفاده ذلك بطريق التعريضِ مِن أنَّ مآلَ أَمْرِ المستعجلين أيضاً ما ذكر مِن الأَخْذِ الوبيل.

---

(١) عجز بيت للمتنبي، وصدره:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها

وسلف ١٣/ ٢٢١.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ ظاهرُ السياق يقتضي أنَّ المرادَ بالناس المشركونَ، فإنَّ الحديثَ مسوقٌ لهم، فكأنَّه قيل: قل: يا أيُّها المشركونَ المستعجلونَ بالعذاب إنَّما أنا منذرٌ لكم إنذاراً بيِّناً بما أُوحي إليَّ مِن أنباءِ الأُمم المهلَكة مِن غير أن يكون لي دَخْلٌ في إتيان ما تستعجلونَ مِن العذاب الموعود حتى تَستعجلوني به، فوجهُ الاقتصارِ على الإنذار ظاهرٌ، وأمَّا وجهُ ذِكْرِ المؤمنين وثوابِهم في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ فالزيادة في إغاظةِ المشركينَ فهو بحسب المآلِ إنذارٌ، ويجوز أن يقال: إنَّ قولَه سبحانه: «فالذين آمنوا» الآية، تفصيلٌ لمن نَجَعَ فيه الإنذارُ مِن الناس المشركين، ومَن بقي منهم على كُفْره غير ناجعٍ فيه ذلك، كأنَّه قيل: أَنْذِرْ يا محمَّد هؤلاء الكفرةَ المستعجلينَ بالعذاب وبَالِغْ فيه، فمَن آمَنَ ورَجَعَ عمَّا هو عليه فله كذا، ومَن داوم على كُفْره واستمرَّ على ما هو عليه فله كذا، واختاره الطيبيُّ، وهو كما في «الكشف» حَسَن، وعليه: لا يكون التقسيمُ داخلاً في المقول، بخلاف الوجه الأوَّل.

وقال بعضُ المحقِّقين: «الناسُ» عامٌّ للمؤمن والكافر، والمنذَر به قيامُ الساعة، وإنَّما كان ﷺ نذيراً مبيناً؛ لأنَّ بَعْثَهُ عليه الصلاة والسلام مِن أَشْراطها، فاجتمع فيه الإنذارُ قالاً وحالاً بقوله: «أنا لكم نذير مبين»، كقوله ﷺ الثابت في الصحيحين: «أنا النذيرُ العريان»[1]، وقد دلَّ على ذلك تعقيب الخطابِ بالإنذار تفصيلُ حالِ الفريقين عند قيامها. اهـ.

ولا مانعَ منه لولا ظاهرُ السياق، وكون المؤمنينَ لا يُنذَرون لاسيَّما وفيهم الصالحُ والطالحُ ممَّا لا وجهَ له، ومَن مَنَعَ مِن العموم لذلك قال: التقديرُ عليه: بشير ونذير، ونقل هذا عن الكرمانيِّ؛ ثم المغفرة تحتمل أنْ تكون لما نَدَرَ مِن الذين ءامنوا مِن الذُّنوب، وذلك لا ينافي وصفَهم بعمل الصالحات، وتحتمل أن تكون لما سَلَفَ منهم قبل الإيمان والرجوع عمَّا كانوا عليه.

والمرادُ بالرزق الكريم هنا الجنَّةُ، كما يُشعِر به وقوعُه بعدَ المغفرة، وكذلك في

---

(١) البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وسلف عند تفسير الآية (٨٥) من سورة الإسراء.

جميع القرآن على ما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن محمَّد بنِ كعب القرظيِّ[1]، ومعنى الكريم في صفات غيرِ الآدميِّين: الفائق.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي: بذلوا الجهدَ في إبطالها، فسمَّوها تارةً سحراً، وتارة شِعْراً، وتارةً أساطير الأولين. وأصلُ السعي: الإسراعُ في المشي، ويُطلَق على الإصلاح والإفساد، يقال: سعى في أَمْرِ فلانٍ: إذا أصلحه أو أفسده بسَعْيه فيه ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي: مسابقينَ للمؤمنين، والمراد بمسابقتهم مشاقَّتهم لهم ومعارضتهم، فكلما طلبوا إظهارَ الحقِّ طلب هؤلاء إبطالَه، وأصله مِن عاجَزَه فأعْجَزَه وعَجَزَه، إذا سابقه فسَبَقه، فإنَّ كلًّا من المتسابقين يريد إعجازَ الآخَر عن اللَّحاق.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والجحدريُّ، وأبو السمَّال، والزعفرانيُّ: «مُعَجِّزين» بالتشديد[2]، أي: مثبِّطين الناسَ عن الإيمان. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ[3]: ناسبينَ المسلمينَ إلى العَجْز، كما تقول: فَسَّقْتُ فلاناً، إذا نسبتَه إلى الفِسْق. وهو المناسب؛ لقوله تعالى: «يَستعجلونكَ بالعذاب».

وقرأ ابنُ الزبير: «مُعْجِزين» بسكونِ العين وتخفيف الزاي[4]، مِن أَعْجَزَكَ: إذا سبقكَ ففاتكَ. قال صاحب «اللوامح»: والمراد هنا ظانِّين أنَّهم يُعجِزوننا، وذلك لظنِّهم أنَّهم لا يُبعَثون، وفسّر «معاجزين» في قراءةِ الجمهور بمثلِ ذلك، والوَصْفُ على جميع القراءات حالٌ مِن ضمير: «سعوا»، وليست مقدَّرة على شيءٍ منها، كما يظهر للمتأمِّل ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفونَ بما ذُكر ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٥١﴾ أي: ملازمو النَّار الشديدة التأجُّج، وقيل: هو اسم دركةٍ من دَرَكات النار.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ «مِن» الأُولى ابتدائيَّة، والثانية مزيدةٌ؛ لاستغراقِ الجنس، والجملة المصدَّرة بـ «إذا» في موضع الحال عند أبي حيَّان[5]، وقيل: في موضعِ الصفة، وأفرد الضمير بتأويلِ

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٩-٢٥٠٠ (١٣٩٩٠).
(٢) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٩.
(٣) الحجّة ٥/ ٢٨٤.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٧٩.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٨٢.

كلٍّ واحد، أو بتقدير جملةٍ مثل الجملةِ المذكورة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] والظاهر أنَّ «إذا» شرطيَّة، ونصَّ على ذلك الحوفيُّ، لكن قالوا: إنَّ «إلَّا» في النفي إمَّا أن يليها مضارعٌ نحو: ما زيدٌ إلَّا يفعل، وما رأيتُ زيداً إلَّا يفعل، أو يليها ماضٍ بشرط أن يتقدَّمه فِعْلٌ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟﴾ إلخ [الحجر: ١١]، أو[1] يكون الماضي مصحوباً بـ «قد» نحو: ما زيدٌ إلا قد قام، ويُشكِل عليه هذه الآية إذ لَم يلِها فيها مضارعٌ ولا ماضَ، بل جملة شرطيَّة، فإنَّ صحَّ ما قالوه، احتيج إلى التأويل، وأوَّلَ ذلك في «البحر»[2] بأنَّ «إذا» جرِّدت للظرفيَّة، وقد فُصِلَ بها وبما أُضيفت إليه بين «إلَّا» والفعل الماضي الذي هو: «ألقى»، وهو فصلٌ جائز، فتكون «إلَّا» قد وَلِيها ماضٍ في التقدير ووُجِدَ الشرطُ، وعطف «نبيٍّ» على «رسول» يدلُّ على المغايرةِ بينهما وهو الشائع، ويَدلُّ على المغايرة أيضاً ما روي أنَّه ﷺ سُئِلَ عن الأنبياء فقال: «مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً». قيل: فكم الرسلُ منهم؟ قال: «ثلاث مئة وثلاثةَ عَشَر جمًّا غفيراً» وقد أخرج ذلك ـ كما قال السيوطيُّ ـ أحمدُ، وابنُ راهويه في مسنَدَيْهما مِن حديث أبي أمامة[3]، وأخرجه ابنُ حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» مِن حديث أبي ذرٍّ[4]. وزعم ابنُ الجوزيِّ أنَّه موضوعٌ[5]، وليس كذلك، نعم قيل في سندِه ضَعْفٌ، جُبِرَ بالمتابعة؛ وجاء في رواية: «الرسل ثلاث مئة وخمسةَ عَشَر»[6].

واختلفوا هنا في تفسير كلٍّ منهما فقيل: الرسول: ذَكَرٌ حرٌّ بعثه اللهُ تعالى بشرعٍ جديدٍ يَدعو الناسَ إليه. والنبيُّ يعمُّه، ومَن بعثه لتقريرِ شَرْعٍ سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليه السلام.

وقيل: الرسول: ذَكَرٌ حرٌّ بعثه اللهُ تعالى إلى قومٍ بشرعٍ جديد بالنسبةِ إليهم، وإن

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: [«أو» لمنع الخلو. اهـ. منه].
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٨٢.
(٣) مسند أحمد (٢٢٢٨٨)، وفي إسناده ضعف.
(٤) ابن حبان (٣٦١)، والمستدرك ٢/ ٥٩٧، وسلف ٣/ ٢٢١.
(٥) ونقله عنه ابن حجر في الكافي الشاف ص١١٤.
(٦) وهي رواية أحمد (٢٢٢٨٨) من حديث أبي ذرٍّ، الآنفة الذكر.

لم يكن جديداً في نفسه، كإسماعيل عليه السلام إذ بُعِثَ لجُرْهم أوّلاً. والنبيُّ يعمُّه ومَن بُعِثَ بشرعٍ غير جديدٍ كذلك.

وقيل: الرسول: ذَكَرٌ حُرٌّ له تبليغ في الجملة وإن كان بياناً وتفصيلاً لشَرْعٍ سابق، والنبيُّ مَن أوحيَ إليه ولم يُؤمَر بتبليغٍ أصلاً، أو أعمُّ منه ومن الرسول، وقيل: الرسول من الأنبياء مَن جَمَعَ إلى المعجزة كتاباً مُنزَلاً عليه، والنبي غير الرسول مَن لا كتاب له، وقيل: الرسول مَن له كتابٌ أو نسخ في الجملة، والنبيُّ مَن لا كتابَ له ولا نسخ.

وقيل: الرسول(١): مَن يأتيه المَلَكُ عليه السلام بالوحي يقظةً، والنبيُّ يقال له ولمن يُوحَى إليه في المنام لا غير. وهذا أغربُ الأقوالِ، ويقتضي أن بعضَ الأنبياء عليه السلام لم يُوحَ إليه إلا مناماً، وهو بعيدٌ، ومِثْلُه لا يُقال بالرأي.

وأنتَ تَعلمُ أنَّ المشهورَ أنَّ النبيَّ في عُرْفِ الشرع أعمُّ مِن الرسول، فإنَّه مَن أُوحيَ إليه، سواء أُمِرَ بالتبليغ أم لا، والرسول مَن أُوحيَ إليه وأُمرَ بالتبليغ، ولا يصحُّ إرادةُ ذلك؛ لأنَّه إذا قُوبلَ العامُّ بالخاصِّ، يُراد بالعامِّ ما عدا الخاصِّ، فمتى أُريدَ بالنبيِّ ما عدا الرسول، كان المرادُ به من لم يُؤمَر بالتبليغ، وحيث تعلَّق به الإرسالُ صار مأموراً بالتبليغ فيكون رسولاً، فلم يَبْقَ في الآية بعد تعلُّق الإرسال رسولٌ ونبيٌّ مقابل له، فلا بُدَّ لتحقيق المقابَلة أن يُرادَ بالرسول مَن بُعِثَ بشرعٍ جديد، وبالنبيِّ مَن بُعِثَ لتقرير شرعِ مَن قَبْله، أو يُراد بالرسول مَن بُعِثَ بكتابٍ، وبالنبيِّ مَن بُعِثَ بغير كتاب، أو يُراد نحو ذلك ممَّا يحصل به المقابلة مع تعلُّق الإرسال بهما.

والتمنِّي ـ على ما قال أبو مسلم ـ نهاية التقدير، ومنه المَنِيَّة: وفاةُ الإنسان للوقت الذي قدَّره الله تعالى. والأُمْنية على ما قال الراغبُ(٢): الصورة الحاصلةُ في النفس مِن التمنِّي. وقال غيرُ واحد: التمنِّي: القراءةُ، وكذا الأُمنية، وأنشدوا قولَ حسانٍ في عثمان رضي الله عنه:

(١) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: «قائله الإمام الرازي»، وكلامه في تفسيره ٢٣/٤٩.
(٢) المفردات (مني).

تـمـنَّـى كـتـابَ اللهِ أوّلَ لـيـلِـهِ تَـمـنِّـيَ داودَ الـزبـورَ عـلـى رِسْـل[1]

وفي «البحر»[2] أنَّ ذلك راجعٌ إلى الأصل المنقول عن أبي مسلم، فإنَّ التاليَ يقدّر الحروفَ ويتصوَّرها فيذكرها شيئاً فشيئاً. والمرادُ بذلك هنا عند كثيرِ القراءةُ، والآية مسوقةٌ لتسلية النبيِّ ﷺ بأنَّ السعيَ في إبطال الآيات أمرٌ معهود، وأنَّه لسعيٌ مردود، والمعنى: وما أرسلنا مِن قَبْلك رسولاً ولا نبيًّا إلا وحالُه أنَّه إذا قرأ شيئاً مِن الآيات ألقى الشيطانُ الشُّبَهَ والتخيُّلاتِ فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطلِ ويَردُّوا ما جاء به كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢] وهذا كقولهم عند سماع قراءةِ الرسول ﷺ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [البقرة: ١٧٣]: إنَّه يُحِلُّ ذبيحَ نفسِه ويُحرِّم ذبيحَ الله تعالى؟! وقولهم على ما في بعض الرواياتِ عند سماعِ قراءته عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: إنَّ عيسى عُبِدَ مِن دونِ الله تعالى، والملائكةَ عليهم السلام عُبِدُوا مِن دون الله تعالى؟!

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: فيُبطِل ما يلقيه مِن تلك الشُّبَه ويذهب به بتوفيق النبيِّ ﷺ لردِّه أو بإنزال ما يردُّه ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي: يأتي بها محكمةً مثبَتةً لا تَقبلُ الردَّ بوجهٍ مِن الوجوه، و«ثم» للتراخي الرُّتبي، فإنَّ الإحكامَ أعلا رُتبةٍ من النَّسْخ، وصيغةُ المضارع في الفعلين؛ للدلالة على الاستمرارِ التجدُّدي، وإظهار الجلالة في موقع الإضمار؛ لزيادة التقرير، والإيذان بأنَّ الألوهيَّة من موجباتِ أحكام آياتِه تعالى الباهرة. ومِثْلُ ذلك في زيادةِ التقرير إظهارُ «الشيطان»، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مُبالِغ في العِلْم بكلِّ ما مِن شأنه أن يُعلَم، ومن جملته ما يصدر مِن الشيطان وأوليائه ﴿حَكِيمٞ ٥٢﴾ في كلِّ ما يَفعَل، ومِن جملته تمكينُ الشيطان مِن إلقاء الشُّبَه وأوليائِه مِن المجادلة بها، وإبداؤه تعالى ردَّها، والإظهار

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع من ديوانه، وأورده القرطبي في تفسيره ٢/ ٢١٨، وأبو حيَّان في البحر المحيط ٦/ ٣٨٢، والسمين الحلبي في الدر المصون ١/ ٤٤٧، ولم ينسبوه.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٨٢.

هاهنا لما ذُكرَ أيضاً مع ما فيه مِن تأكيد استقلالِ الاعتراض التذييليّ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أي: الذي يُلقيه. وقيل: إلقاءه ﴿فِتْنَةً﴾ أي: عذاباً. وفي «البحر»[1]: ابتلاءً واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شَكٌّ ونفاقٌ، وهو المناسبُ؛ لقوله تعالى في المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] وتخصيصُ المرضِ بالقلب مؤيِّد له؛ لعدم إظهار كفرهم، بخلاف الكافرِ المجاهر ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الكفَّار المجاهرينَ، وقيل: المراد من الأوَّلين عامَّةُ الكفار، ومِن الأخيرين خواصُّهم كأبي جهل، والنضر، وعتبةَ، وحَمْلُ الأوَّلين على الكفَّار مطلقاً والأخيرين على المنافقين؛ لأنَّهم أحقُّ بوصف القسوة؛ لعدم انجلاء صَدَأ قلوبِهم بصيقل المخالطةِ للمؤمنين، ليس بشيء.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: الفريقَيْن المذكورَيْن، فوضع الظاهرُ موضعَ ضميرِهم؛ تسجيلاً عليهم بالظُّلم مع ما وصفوا به مِن المرض والقسوة ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ أي: عداوةٍ شديدة، ومخالفةٍ تامَّة، ووصف الشقاقُ بالبُعد مع أنَّ الموصوفَ به حقيقة هو معروضُه؛ للمبالغة، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لمضمون ما قَبْله، ولامُ «ليجعل» للتعليل، وهو عند الحوفيِّ متعلِّق بـ : «يُحْكِم»، وعند ابنِ عطيَّة[2] بـ : «ينسخ»، وعند غيرهما بـ : «ألقى»، لكنَّ التعليلَ لما يُنبئُ عنه إلقاءُ الشيطان مِن تمكينه تعالى إيَّاه مِن ذلك في حقِّ النبيِّ ﷺ خاصَّة؛ لعطفِ قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وكونُ ضمير «أنَّه» للقرآن، وقيل: لا حاجةَ للتخصيص، وضميرُ «أنَّه» لتمكينِ الشيطان مِن الإلقاء، أي: وليعلم العلماءُ أنَّ ذلك التمكينَ هو الحقُّ المتضمِّن للحكمة البالغة؛ لأنَّه مما جرت به عادتُه تعالى في جنس الإنس مِن لَدُنْ آدمَ عليه السلام، وضميرا «به»، و«له» في قوله تعالى: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يثبتوا على الإيمان، أو: يزدادوا إيماناً ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقيادِ والخشية، للقرآن على التخصيص، وللربِّ على التعميم، وجعلهما لتمكينِ الشيطان لاسيَّما الثاني ممَّا لا وجهَ له.

ورجّح ما قاله ابنُ عطيَّة بأنَّ أَمْر التعليل عليه أظهرُ، أي: فينسخ اللهُ تعالى

---

(١) البحر المحيط ٦/٣٨٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/١٢٩.

ما يُلقيه الشيطان، ويردّه ليجعلَه بسبب الردِّ وظهور فسادِ التمسُّك به عذاباً للمنافقين والكافرين، أي: سبباً لعذابهم حيث استرسلوا معه مع ظهورِ فسادِه، أو اختباراً لهم هل يرجعونَ عنه، وليعلم الذين أُوتوا العلم أنَّ القرآنَ هو الحقُّ حيث بَطَلَ ما أُورِد مِن الشُّبَه عليه، ولم يَبطُل هو، وقد يُقال مثلُ ذلك على ما ذهب إليه الحوفيُّ، ولا يَبعد أن يكون قولُه تعالى: «ليجعل» إلخ متعلِّقاً بمحذوف، أي: فعل ذلك ليجعل إلخ، والإشارة إلى النَّسْخ والإحكام، ويجعل «ليجعل» علّة لفعل النسخِ، «وليعلم» علَّة لفعل الإتيان بالآيات محكمة، ويجوز أن تكونَ الإشارةُ إلى التمكين المفهوم ممَّا تقدَّم مع النَّسْخ والإحكام، ويجعل «ليجعل» علَّة لفعل التمكين، وما بَعْدُ علَّة لما بعد، ويجوز أيضاً أن ترجعَ الضمائرُ في «أنه»، و«به»، و«له» للموحى الذي يقرأه كلٌّ مِن الرسل والأنبياء عليهم السلام المفهوم مِن الكلام، فلا حاجةَ للتخصيص، وأيًّا ما كان فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ اعتراضٌ مقرِّر لما قَبْله، والمراد بالذين آمنوا المؤمنون مِن هذه الأمَّة على تقدير التخصيص، أو المؤمنون مطلقاً على تقدير التعميم، والمراد بالصراطِ المستقيم النظرُ الصحيحُ الموصِل إلى الحقِّ الصريح، أي: إنَّه تعالى لهادي المؤمنين في الأمور الدينيَّة خصوصاً في المداحضِ والمُشكلات التي من جملتها ردُّ شُبَهِ الشياطين عن آياتِ الله عزَّ وجلَّ.

وقرأ أبو حيوةَ، وابنُ أبي عَبْلَة: «لهادٍ» بالتنوين[1].

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن، وقيل: مِن الرسول، ويجوز أن يرجع الضميرُ إلى الموحى على ما سمعتَ، و«من» على جميع ذلكَ ابتدائيَّة، وجوّز أن يرجعَ إلى ما ألقى الشيطان، واختير عليه أنَّ «مِن» سببيَّة، فإنَّ مريةَ الكفار فيما جاءت به الرسلُ عليهم السلام بسبب ما ألقى الشيطانُ في الموحى مِن الشُّبَه والتخيلاتِ، فتأمَّل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ نفسُها كما يُؤذِن به قولُه تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، فإنَّها الموصوفةُ بالإتيان كذلك، وقيل: أشراطها على حذفِ المضاف، أو على التجوُّز.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٣.

وقيل: الموت، على أنَّ التعريفَ في «الساعة» للعهد ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي: منفرد عن سائرِ الأيام لا مِثْلَ له في شدَّته، أو لا يومَ بعدَهُ، كأنَّ كلَّ يوم يَلِدُ ما بعده مِن الأيام، فما لا يوم بعدَه يكون عقيماً، والمراد به الساعة بمعنى يوم القيامة أيضاً، كأنَّه قيل: أو يأتيهم عذابُها، فوضع ذلك موضعَ ضميرِها؛ لمزيد التهويل والتخويف.

و«أو» في محلِّها لتغاير الساعة وعذابها، وهي لَمنْع الخلوّ، وكأنَّ المرادَ المبالغةُ في استمرارهم على المِرْية، وقيل: المراد بـ : «يوم عقيم» يومُ موتِهم؛ فإنَّه لا يومَ بعده بالنسبة إليهم، وقيل: المراد به يومُ حرب يُقتَلون فيه، ووصف بالعقيم؛ لأنَّ أولادَ النساء يُقتَلون فيه فيصرنَ كأنهنَّ عقمٌ لم يَلِدْنَ، أو لأنَّ المقاتلينَ يقال لهم: أبناء الحرب، فإذا قُتلوا وُصِفَ يومُ الحرب بالعقيم وفيه على الأول مجاز في الإسناد ومجاز في المفرد، من جعل الثُّكْل عقماً، وكذا على الثاني؛ لأن الولود والعقيم هي الحربُ على سبيل الاستعارة بالكناية، فإذا وُصِفَ يومُ الحرب بذلك كان مجازاً في الإسناد، ومِن ثَمَّ قيل: إنَّه مجازٌ موجَّه مِن قولهم: ثوبٌ مُوجَّه، له وجهان، وقيل: هو الذي لا خيرَ فيه يقال: ريحٌ عقيمٌ، إذا لم تُنْشِئْ مطراً ولم تلقحْ شجراً، وفيه على هذا استعارةٌ تبعيَّة؛ لأنَّ ما في اليوم مِن الصفة المانعة مِن الخير جعلَ بمنزلةِ العقم.

وخصَّ غيرُ واحدٍ هذا اليومَ بيوم بدرٍ، فإنَّه يومُ حربٍ قُتِلَ فيه عتاةُ الكَفَرة، ويومٌ لا خيرَ فيه لهم، ويصحُّ أيضاً أن يكون وَصْفه بعقيم؛ لتفرُّده بقتال الملائكةِ عليهم السلام فيه، وأنتَ تَعلمُ أنَّ الظاهرَ - ممَّا يأتي بَعْدُ إن شاء الله تعالى - تعيُّن تفسيرِ هذا اليوم بيوم القيامة، هذا وجوّز أن يُرادَ مِن الشيطان شَيطانُ الإنس كالنضر بنِ الحارث كان يُلقي الشُّبَه إلى قومه وإلى الوافدين يثبِّطهم بها عن الإسلام.

وقيل: ضمير «أُمنيَّتِه» للشيطان، والمراد بها الصورةُ الحاصلة في النَّفْس مِن تمنِّي الشَّيء، و«في» للسببيَّة مِثْلها في قوله ﷺ: «إنَّ امرأةً دخلت النارَ في هرَّة»[1] أي: ألقى الشيطانُ بسبب أمنيَّته الشُّبَه وأبداها ليُبْطِلَ بها الآيات.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٣)، وسلف ٣/ ١٠٥.

وقيل: «تمنَّى»: قرأ، و«أُمنيَّته»: قراءته، والضميرُ للنبيِّ أو الرسول، و«في» على ظاهرها، والمراد بـ: «ما يُلقي الشيطان» ما يقع للقارئ مِن إبدال كلمةٍ بكلمة، أو حرفٍ بحرف، أو تغييرِ إعراب سهواً، وقيل: المراد ما يلقيه في الآيات المتشابهة مِن الاحتمالات التي ليست مراداً لله تعالى، وقيل: «تمنَّى»: هيَّأَ وقدَّر في نفسه ما يَهواهُ. و«أُمنيَّته»: قراءته، والمعنى: إذا تمنَّى إيمانَ قومِه وهدايتهم، ألقى الشيطانُ إلى أوليائه شُبَهاً، فينسخُ الله تعالى تلكَ الشُّبَه ويُحكِم الآياتِ الدالَّة على دَفْعها، وقيل: «تمنَّى»: قدَّر في نفسه ما يَهواهُ، و«أُمنيَّته:» تشهِّيه، و«ما يلقيه الشيطانُ»: ما يوجبُ اشتغالَه في الدنيا، وجعله فتنةً باعتبار ما يظهر منه مِن الاشتغال بأمور الدنيا، ونَسْخُه: إبطالُه بعصمتِه عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزينه.

وقيل: «تمنَّى»: قرأ، و«أُمنيَّته»: قراءته، وما يُلقي الشيطان: كلماتٌ تُشابه الوحيَ يتكلَّم بها الشيطانُ بحيث يظنُّ السامعُ أنَّها مِن قراءة النبيِّ، وقد رُويَ أنَّ الآيةَ نزلت حين قَرأَ عليه الصلاة والسلام: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] فألقى الشيطانُ في سَكْتَتِه محاكياً نغمتَه عليه الصلاة والسلام بحيث يسمعه مَن حولَه: تلكَ الغرانيقُ العُلَا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى. فظنَّ المشركونَ أنَّه عليه الصلاة والسلام هو المتكلِّم بذلك، ففرحوا وسَجَدوا معه لما سَجَد آخِرَ السورة.

وقيل: المتكلِّم بذلك بعضُ المشركين، وظنَّ سائرُهم أنَّه عليه الصلاة والسلام هو المتكلِّم به. وقيل: إنَّه ﷺ هو الذي تكلَّم بذلك عامداً؛ لكن مستفهماً على سبيل الإنكار والاحتجاجِ على المشركين، وجعل مِن إلقاء الشيطان لما ترتَّب عليه مِن ظَنِّ المشركين أنَّه مدحٌ لآلهتهم، ولا يمنع ذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يُصلِّي؛ لأنَّ الكلامَ في الصلاة كان جائزاً إذ ذاك.

وقيل: بل كان ساهياً، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد مِن طريق يونسَ، عن ابنِ شهاب، قال: حدَّثني أبو بكر بنُ عبدِ الرحمن: «أنَّ رسولَ الله ﷺ وهو بمكَّة قرأ عليهم: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الآية: ١٩-٢٠]، قال: «إنَّ شفاعتهنَّ تُرتجى» وسها رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، ففرح المشركونَ بذلك، فقال ﷺ: «ألَا إنَّما ذلك مِن الشيطان» فأنزل اللهُ تعالى:

«وما أرسلنا» حتى بلغ: «عذابَ يومٍ عقيم»، قال الجلال السيوطيُّ: وهو خبرٌ مُرسَل صحيحُ الإسناد[1].

وقيل: تكلَّم بذلك ناعساً، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: بَيْنا نبيُّ اللهِ ﷺ يُصلِّي عند المقام إذ نعس، فألقى الشيطانُ[2] على لسانِه كلمةً، فتكلَّم بها فقال: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى وإنَّها لمَعَ الغرانيقِ العلا». فحفظها المشركونَ وأخبرهم الشيطانُ أنَّ نبيَّ الله ﷺ قد قَرَأَها، فزلَّت ألسنتهم، فأنزل اللهُ تعالى: «وما أرسلنا» الآية[3].

وقيل: «تمنَّى»: قدَّر في نفسه ما يَهواهُ، و«أمنيَّته»: قراءته، وما يُلقي الشيطانُ: كلماتٌ تُشابه الوحيَ، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم مِن طريق موسى بنِ عقبة، عن ابنِ شهاب قال: أُنزلت سورةُ النجم، وكان المشركونَ يقولون: لو كان هذا الرجلُ يَذكُر آلهتنا بخير، أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا مِن الشَّتْم والشَّرِّ، وكان رسول الله ﷺ قد اشتدَّ عليه ما ناله أصحابُه مِن أذاهُم وتكذيبِهم، وأَحزنَه ضلالتُهم، فكان يتمَّنى هداهُم، فلما أنزل اللهُ تعالى سورةَ النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ أَلقى الشيطانُ عندها كلماتٍ، فقال: وإنَّهنَّ لهنَّ الغرانيقُ العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لهي التي تُرتَجى. وكان ذلك مِن سَجعِ الشيطانِ وفتنتِه، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كلِّ مشركٍ بمكَّة، وزلَّت بهما ألسنتُهم وتباشروا بهما، وقالوا: إنَّ محمداً قَدْ رَجَعَ إلى دينِه الأوَّل ودينِ قومِه، فلما بلغَ رسولُ الله ﷺ آخِرَ النجمِ سَجَدَ وسَجَدَ كلُّ مَن حَضَر مِن مسلم أو مشركٍ، ففشت تلكُ الكلمة في الناس وأَظهرها الشيطانُ حتى بلغت أرضَ الحبشة، فأنزل اللهُ تعالى «وما أرسلنا» الآيات[4].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٧.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: «قيل: يقال لذلك: الشيطان الأبيض. اهـ. منه».

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٢ (١٤٠٠٢)، والدر المنثور ٤/ ٣٦٨.

(٤) تفسير ابنِ أبي حاتم ٨/ ٢٥٠١ (١٣٩٩٩)، والدر المنثور ٤/ ٣٦٧، وورد فيهما: وذلقت، بدل: وزلَّت.

وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ حين أَلقاها الشيطانُ تكلَّم بها ظاناً أنَّها وَحْيٌ، حتى نبَّهه جبريلُ عليه السلام، ففي «الدُّرِّ المنثور»: أخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بنِ جبير قال: قرأ رسولُ الله ﷺ بمكَّة «النجم»، فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطانُ على لسانِه: تلك الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى. قالوا: ما ذَكَر آلهتَنا بخيرٍ قَبْلَ اليوم، فسجدَ وسجدُوا، ثم جاءَه جبريلُ عليهما الصلاة والسلام بعد ذلك، فقال: اعْرِضْ عليَّ ما جئتُكَ به، فلما بلغ: تلكَ الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى، قال له جبريل عليهما السلام: لم آتِكَ بهذا، هذا مِن الشيطان، فأنزل الله تعالى «وما أرسلنا» الآية[١].

وأخرج البزَّارُ، والطبريُّ، وابنُ مردويه، والضياءُ في «المختارة» بسندٍ رجالُه ثقاتٌ مِن طريق سعيد، عن ابنِ عباس نحوَ ذلك[٢]، لكن ليس فيه حديثُ السجود، وفيه أيضاً مغايرةٌ يسيرة غير ذلك، وجاء حديث السجود في خبرٍ آخَر عنه أخرجه البزَّار، وابنُ مردويه أيضاً مِن طريق أميةَ بنِ خالد، عن شعبةَ، لكن قال في إسناده: عن سعيد بنِ جبير، عن ابنِ عباس، فيما أَحسبُ، فشكَّ في وَصْلِه[٣]. وفي رواية ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ: أنَّ جبريلَ عليه السلام، قال له عليه الصلاة والسلام حين عَرَضَ عليه ذلك: معاذَ اللهِ أن أكونَ أَقرأْتُكَ هذا، فاشتدَّ عليه عليه الصلاة والسلام، فأنزل اللهُ تعالى وطيَّب نفسَه: «وما أرسلنا» الآية[٤].

قيل: ولمشابهةِ ما أَلقى الشيطانُ للوحي المُنزلِ وكونه في أثنائه، أُطلق على إبطاله اسمُ النَّسْخِ الشائع إيقاعُه على ما هو وحيٌ حقيقةً، لكن لا يخفى أنَّ النَّسْخَ الشرعيَّ لا يتعلَّق بنحو ما ذُكرَ مِن الأخبار، فلا بُدَّ مِن تأويلٍ ما لذلك.

---

(١) الدر المنثور ٤/٣٦٦، وتفسير الطبري ١٦/٦٠٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٠-٢٥٠١ (١٣٩٩٨)، وأخرجه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٣٢١.

(٢) الدر المنثور ٤/٣٦٦، وتفسير الطبري ١٦/٦٠٧-٦٠٨، والمختارة للمقدسي ١٠/ ٢٣٥-٢٣٦ (٢٤٧).

(٣) وذكره عنهما ابنُ حجر في الكافي الشاف ص١١٤.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٢ (١٤٠٠٣)، والدر المنثور ٤/ ٣٦٨.

وقد أنكر كثيرٌ من المحقِّقين هذه القصَّةَ فقال البيهقيُّ[(١)]: هذه القصَّةُ غيرُ ثابتة مِن جهة النقل. وقال القاضي عياض في «الشفا»[(٢)]: يكفيكَ في توهينِ هذا الحديث، أنَّه لم يُخرِّجْه أحدٌ مِن أهل الصِّحَّة، ولا رواه ثقةٌ بسندٍ صحيح سليم متَّصل، وإنَّما أُولِع به وبمثلِه المفسِّرون والمؤرِّخون المُولَعونَ بكلِّ غريبٍ المتلقِّفون مِن الصُّحُفِ كلَّ صحيح وسقيمٍ.

وفي «البحر»[(٣)]: إنَّ هذه القصَّةَ سُئِلَ عنها الإمامُ محمدُ بنُ إسحاق جامعُ «السيرة النبوية»، فقال: هذا مِن وَضْعِ الزنادقِة، وصنَّف في ذلك كتاباً. وذكَر الشيخُ أبو منصور الماتريديُّ في كتاب «حصص الأتقياء»[(٤)]: الصوابُ أنَّ قولَه: تلك الغرانيقُ العُلا، مِن جملة إيحاءِ الشيطان إلى أوليائه مِن الزنادقة حتى يُلْقُوا بين الضعفاء وأرقَّاء الدِّيْن؛ ليرتابوا في صحَّة الدِّيْن، وحَضْرةُ الرسالةِ بريئةٌ من مِثْل هذه الرواية.

وذكر غيرُ واحد أنَّه يَلزم على القول بأنَّ الناطقَ بذلك النبيُّ ﷺ بسبب إلقاء الشيطانِ الملبَّس بالمَلَك أمور:

منها تسلُّط الشيطانِ عليه عليه الصلاة والسلام، وهو ﷺ بالإجماع معصومٌ من الشيطان لاسيَّما في مِثْلِ هذا مِن أمور الوحي والتبليغِ والاعتقاد، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النحل: ٩٩] إلى غير ذلك.

ومنها زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه، وذلك مما يستحيل عليه عليه الصلاة والسلام؛ لمكان العصمة.

---

(١) ونقله عنه الرازي في التفسير ٢٣/ ٥٠، وأبو حيّان في البحر المحيط ٦/ ٣٨٢، والمناوي في الفتح السماوي ٢/ ٨٤٢، وينظر تتمة كلام المناوي حول الخبر ثمة.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٢٨٩-٢٩٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨١-٣٨٢.

(٤) لم نقف على كتاب بهذا الاسم لأبي منصور الماتريدي فيما بين أيدينا من مصادر ترجمته، وذكره علاء الدين البخاري في كتابه كشف الأسرار ١/ ١٩٦ ولم ينسبه لأحد، وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٦٦٨ كتاباً وسمَّاه: حصن الأتقيا من قصص الأنبيا، وقال: قيل: لمسعود الكازروني، وهو فارسي.

ومنها اعتقادُ النبيِّ ﷺ ما ليس بقرآن أنَّه قرآن مع كونه بعيدَ الالتئام متناقضاً ممتزج المدح بالذَّمِّ، وهو خطأٌ شنيعٌ لا ينبغي أن يُتسَاهل في نسبتِه إليه ﷺ.

ومنها أنَّه إمَّا أن يكون عليه الصلاة والسلام عند نُطْقه بذلك معتقداً ما اعتقده المشركونَ مِن مدح آلهتِهم بتلك الكلمات، وهو كفرٌ محالٌ في حقِّه ﷺ، وإمَّا أن يكون معتقداً معنًى آخَرَ مخالفاً لما اعتقدوه ومبايناً لظاهرِ العبارة، ولم يبيِّنه لهم مع فَرَحِهم وادِّعائهم أنَّه مَدَحَ آلهتَهم، فيكون مقرًّا لهم على الباطل، وحاشاه ﷺ أن يقرَّ على ذلك.

ومنها كونه ﷺ اشتَبه عليه ما يُلقيه الشيطانُ بما يلقيه عليه المَلَك، وهو يقتضي أنَّه عليه الصلاة والسلام على غيرِ بصيرة فيما يُوحى إليه، ويقتضي أيضاً جوازَ تصوُّر الشيطان بصورة المَلَك ملبِّساً على النبيِّ، ولا يصحُّ ذلك، كما قال في «الشفا»[(١)]: لا في أوَّل الرسالة ولا بعدَها، والاعتماد في ذلك دليلُ المعجزة.

وقال ابنُ العربيِّ: تصوُّر الشيطانِ في صورة المَلَك ملبِّساً على النبيِّ كتصوُّره في صورة النبيِّ ملبِّساً على الخَلْق، وتسليطُ اللهِ تعالى له على ذلك كتسليطِه في هذا، فكيف يسوغُ في لبٍّ سليمٍ استجازة ذلك.

ومنها التقوُّل على الله تعالى إمَّا عمداً أو خطأً أو سهواً، وكلُّ ذلك محال في حقِّه عليه الصلاة والسلام، وقد اجتمعتِ الأمَّة على ما قال القاضي عياض[(٢)] على عِصْمَتِه ﷺ فيما كان طريقه البلاغ مِن الأقوال عن الإخبار بخلاف الواقع لا قصداً ولا سهواً.

ومنها الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يُؤمَن فيه التبديلُ والتغييرُ، ولا يندفع كما قال البيضاويُّ[(٣)] بقوله تعالى: «فينسخُ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتِه» لأنَّه أيضاً يحتمل، إلى غير ذلك.

وذهب إلى صحَّتها الحافظ ابن حجر في «شرح البخاريِّ»[(٤)] وساق طرقاً عن

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٢٨٥.
(٢) الشفا ٢/ ٢٨٥.
(٣) في تفسيره ٦/ ٣٠٦-٣٠٧ (بهامش حاشية الشهاب).
(٤) فتح الباري ٧/ ٤٣٩-٤٤٠.

ابنِ عباس وغيرِه، ثم قال: وكُلُّها سوى طريقِ سعيدِ بنِ جُبير إمَّا ضعيفٌ وإمَّا منقطعٌ، لكنَّ كثرةَ الطُّرق تدلُّ على أنَّ لها أصلاً، مع أنَّ لها طريقاً متَّصلاً بسند صحيحٍ أخرجه البزار(١)، وطريقَيْن آخرين مُرْسَلَين رجالهما على شَرْطِ الصحيحين؛ أحدهما: ما أخرجه الطبريُّ(٢) مِن طريق يونسَ بنِ يزيد، عن ابنِ شهاب. والثاني: ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمرِ بنِ سليمان، وحمَّاد بنِ سلمة - فرَّقهما - عن داودَ بنِ أبي هند، عن أبي العالية(٣)، ثم أَخَذَ في الرَّدِّ على أبي بكر بن العربيِّ، والقاضي عياض في إنكارِهما الصِّحَّةَ.

وذهب إلى صحَّة القصَّة أيضاً خاتمةُ المتأخِّرين الشيخُ إبراهيمُ الكورانيُّ ثم المدنيُّ، وذكر بعد كلامٍ طويل أنَّه تحصَّل مِن ذلك أنَّ الحديثَ أخرجه غيرُ واحد مِن أهل الصحَّة وأنَّه رواه ثقاتٌ بسند سليمٍ متَّصل عن ابنِ عباس، وبثلاث أسانيدَ صحيحة عن ثلاثٍ من التابعين من أئمَّة التفسيرِ الآخِذين عن الصحابة، وهم سعيد بنُ جبير، وأبو بكر بنُ عبد الرحمن، وأبو العالية، وقد قال السيوطيُّ في «لباب النقول في أسباب النزول»(٤): قال الحاكم في «علوم الحديث»(٥): إذا أخبر الصحابيُّ الذي شهد الوحيَ والتنزيل عن آيةٍ مِن القرآن أنَّها نزلت في كذا، فإنَّه حديثٌ مسند. ومشى عليه ابنُ الصلاح(٦)، وغيره. ثم قال(٧): ما جعلناه مِن قبيل المسند مِن الصحابيِّ إذا وَقَعَ مِن تابعيٍّ فهو مرفوعٌ أيضاً، لكنَّه مُرسَل فقد يُقبَلُ إذا

---

(١) كشف الأستار (٢٢٦٣)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠). قال البزار: لا نعلمه يروى بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، وأمية بن خالد ثقة مشهور، وإنما يعرف هذا من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

(٢) في التفسير ١٦/ ٦٠٨-٦٠٩، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٦٧ وعزاه للطبري وعبد بن حميد.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٦٠٦-٦٠٧، وأوردهما السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٦٧-٣٦٨، وعزاهما إلى الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم [في التفسير ٨/ ٢٥٠١-٢٥٠٢ (١٤٠٠٠) و(١٤٠٠١)].

(٤) في مقدمة كتابه ص١٣-١٤.

(٥) ص٢٠.

(٦) في كتابه علوم الحديث، الذي اشتهر بـ: مقدمة ابن الصلاح ص٥٠.

(٧) أي: السيوطي، في كتابه لباب النقول ص١٥.

صحَّ السند إليه وكان مِن أئمَّة التفسير الآخذينَ عن الصحابة كمجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسَل، ونحو ذلك. فعلى هذا يكون الخبرُ في هذه القصَّة مسنداً من الطريق المتصلة بابنِ عباس مرسلاً مرفوعاً من الطرق الثلاثة، والزيادة فيه التي رواها الثقاتُ عن ابنِ عباس في غير رواية البخاريِّ، ليست مخالفة لما في البخاريِّ[(١)] عنه، فلا تكون شاذَّةً، فإطلاق الطَّعْن فيه مِن حيث النقلُ ليس في محلِّه.

وأجاب عمَّا يلزم على تقدير كون الناطق بذلك النبيُّ ﷺ، أمَّا عن الأوَّل: فبأنَّ السلطان المنفيَّ عن العبادِ المُخلصين هو الإغواء، أعني التلبيس المخلَّ بأَمْرِ الدِّيْن، وهو الذي وقعَ الإجماع على أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام معصومٌ منه، وأمَّا غيرُ المُخلِّ، فلا دليلَ على نَفْيه ولا إجماعَ على العصمةِ منه، وما هنا غيرُ مخلٍّ؛ لعدم منافاتِه للتوحيد، كما يبين إن شاء اللهُ تعالى، بل فيه تأديبٌ وتصفيةٌ وترقيةٌ للحبيب الأعظم ﷺ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام تمنَّى هَدْيَ الكُلِّ، ولم يكن ذلك مراداً لله تعالى، والأكملُ في العبوديَّة فناءُ إرادته في إرادةِ الحقِّ سبحانه، فليس عليه عليه الصلاة والسلام الإلقاء حالةَ تمنِّي هَدْيِ الكُلِّ المصادم للقَدَر والمنافي لما هو الأكمل، ليترقَّى إلى الأكمل، وقد حصل ذلك بهذه المرَّة، ولذا لم يقع التلبيسُ مرَّة أُخرى، بل كان يُرسَل بَعْدُ مِن بين يديه ومِن خَلْفه رَصَدٌ ليَعلَم أن قد أَبلغوا رسالةَ ربِّه سبحانه، وفي ترتيب الإلقاء على التمنِّي ما يفهم العتابُ عليه.

وأمَّا عن الثاني: فبأنَّ المستحيلَ المنافيَ للعصمة أن يزيدَ عليه الصلاة والسلام فيه مِن تِلقاء نفسِه، أي: يزيدَ عليه الصلاة والسلام فيه ما يَعلمُ أنَّه ليس منه، وما هنا ليس كذلك؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام إنَّما تَبعَ فيه الإلقاء الملبَّس عليه في حالةٍ خاصَّة فقط؛ تأديباً أن يعود لمثلِ تلك الحالة.

وأمَّا عن الثالث: فبأنَّه يجوز أن يكون النبيُّ ﷺ نَطقَ به على فهم أنَّه استفهامٌ إنكاريٌّ حُذفَ منه الهمزةُ، أو حكاية عنهم بحَذْف القول، وحينئذٍ لا يكون بعيدَ

---

(١) وهي في صحيحه في كتاب التفسير، في تفسير سورة الحج، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: إذا حدَّث ألقى الشيطانُ في حديثه، فيُبطلُ اللهُ ما يلقي الشيطانُ، ويُحكم آياته.

الالتئام ولا متناقضاً ولا ممتزجَ المدح بالذَّمِّ. ولا بُدَّ مِن التزام أحدِ الأمرين على تقدير صحَّة الخبر لمكان العصمة، والنُّكتة في التعبير كذلك إيهامُ الذين في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبُهم أنَّه عليه الصلاة والسلام مَدَحَ آلهتهم، ويحصل ذلك مراد اللهِ تعالى المشار إليه بقوله سبحانه: «ليجعل» إلخ.

وأمَّا عن الرابع: فبأنَّا نختارُ الشِّقَّ الثاني بناءً على أنَّه استفهامٌ حُذفَ منه الهمزةُ أو حكاية بَحذْف القول، وعلى التقديرين يكون عليه الصلاة والسلام معتقداً لمعنى مخالفٍ لما اعتقدوه، ولا يَلزمُ منه التقرير على الباطل؛ لأنَّه بيَّن بطلانَ معتقدِهم بقوله تعالى بَعْدُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] فإن ما لم يُنزل اللهُ تعالى به سلطاناً، لا تُرجى شفاعتُه، إذ لا شفاعةَ إلا مِن بعد إذنٍ إلهيٍّ؛ لقوله تعالى بَعْدُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وأمَّا عن الخامس: فبأنَّ هذا الاشتباهَ في حالة خاصَّة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غيرِ بصيرة فيما يُوحَى إليه في غير تلك الحالة.

وأمَّا قول القاضي عياض: لا يصحُّ أن يتصوَّر الشيطان بصورة المَلَك ويُلبِّس عليه عليه الصلاة والسلام، فإن أراد به أنَّه لا يصحُّ أن يُلبِّس تلبيساً قادحاً، فهو مسلَّم، لكنَّه لم يقع، وإن أراد مطلقاً ولو كان غيرَ مُخِلٍّ فلا دليلَ عليه، ودليلُ المعجزة إنَّما ينفي الاشتباهَ المخلَّ بأمْرِ النبوَّة المنافي للتوحيد القادح في العصمة، وما ذكر غيرُ مخلٍّ بل فيه تأديبٌ بما يتضمَّن تنقيةً وترقيةً إلى الأكمل في العبوديَّة.

وأمَّا ما ذكر ابنُ العربيِّ، فقياسٌ مع الفارق؛ لأنَّ تصوُّر الشيطانِ في صورة النبيِّ مطلقاً منفيٌّ بالنَّصِّ الصحيحِ، وتصوُّره في صورته ملبِّساً على الخَلْق إغواء يعمُّ، وهو سلطان منفيّ بالنَّصِّ عن المخلصين، وأمَّا تصوُّره في صورةَ المَلَك في حالة خاصَّة ملبِّساً على النبيِّ بما لا يكون منافياً للتوحيد لما يريد الله تعالى بذلك تأديباً، ولإيهامه خلاف المراد فتنة لقوم، فليس من السلطان المنفيِّ ولا بالتصور الممنوع؛ لعدم إخلالِه بمقام النبوَّة.

وأمَّا عن السادسِ: فبأنَّ التقوُّلَ تكلُّفُ القولِ، ومَن لا يتَّبع إلا ما يُلقى إليه مِن الله تعالى حقيقةً أو اعتقاداً ناشئاً مِن تلبيس غيرِ مخلٍّ لا تكلُّفَ للقولِ عنده،

فلا تقوُّل على الله تعالى أصلاً، وما أَشبه هذه القصَّة بما تضمَّنه حديثُ ذي اليدين[(١)]، فالتلبيسُ عليه عليه الصلاة والسلام في الإلقاء في حالة التمنِّي تأديباً بإيقاع السهو عليه ﷺ في الصلاة باعتقاد التمام تشريعاً، والنطق بما ألقاه الشيطان في حالة خاصَّة ممَّا لا ينافي التوحيدَ على أنَّه قرآنٌ بناءً على اعتقاد أنَّ المُلْقِي مَلَكٌ تلبيساً للتأديبِ كالنطق بالسَّلام، ثم بـ: «لَم أَنْسَ»[(٢)] معتقداً أنَّه مطابق للواقع بناءً على اعتقاد التمام سهواً، ووقوعُ البيان على لسان جبريلَ عليه السلام ثم النَّسْخ والإحكام، كوقوع البيان على لسانِ الصحابيِّ ثم التدارك وسجود السهو، فكما أنَّ السهوَ للتشريع غيرُ قادحٍ في منصب النبوَّة، كذلك الاشتباه في الإلقاء للتأديب غيرُ قادح، وكما أنَّ النطقَ بـ: «لَمْ أَنْسَ» مع تبيُّن أنَّه عليه الصلاة والسلام قد نَسِيَ صِدْقٌ، بناءً على اعتقاد التمام سهواً، كذلك النطقُ بما يلقيه الشيطانُ في تلك الحالة على أنَّه قرآنٌ، بناء على اعتقاد أنَّ الملقي مَلَكٌ، صدقٌ، ولا شيء مِن الصدق بالتقوُّل، فلا شيء مِن النطق بما يُلقيه الشيطان في تلك الحالة به.

وما ذكر عن القاضي عياض مِن حكاية الإجماع على عدم جوازِ دخول السهو في الأقوال التبليغيَّة، كما قال الحافظ ابن حجر، مُتعقَّب.

وأمَّا عن السابع: فبأنَّه لا إخلالَ بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلمَ والذين ءامنوا؛ لأنَّ وثوقَ كلٍّ منهما تابع لوثوقِ متبوعِهم الصادق الأمين، فإذا جزم بشيءٍ أنَّه كذا جزموا به، وإذا رجع عن شيء بعد الجَزْم رجعوا، كما هو شأنهم في نَسْخِ غيرِ هذا مِن الآيات التي هي كلامُ الله تعالى لفظاً ومعنًى، إذ قَبْلَ نَسْخِ ما نُسِخَ لفظُه كانوا جازمين بأنَّهم متعبَّدون بتلاوتِه، وبعد النَّسْخ جزموا بأنَّهم ما هم متعبَّدين بتلاوته، وما نُسِخَ حكمهُ كانوا جازمين بأنَّهم مكلَّفون بحُكْمه، وبَعْدَ النَّسْخ جزموا بأنَّهم ما هم مكلَّفين به، فقول البيضاويِّ: إنَّ ذلك لا يَندفعُ بقوله تعالى: «فينسخ الله» إلخ؛ لأنَّه أيضاً يحتمله، ليس بشيءٍ، وبيانه أنَّه إن أَراد أنَّه يَحتمله عند الفِرَقِ الأربعِ المذكورة في الآيات، وهم الذين في قلوبهم مرضٌ، والقاسية

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣)، وهو عند أحمد (٧٢٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هو جزء من حديث ذي اليدين، المشار إليه آنفاً.

قلوبهم، والذين أوتوا العلم، والذين آمنوا، فهو ممنوعٌ؛ لدلالةِ قوله تعالى: «وليعلم» إلخ، على انتفاءِ الاحتمال عند فريقَيْن مِن الفِرَقِ الأربع بعد النَّسْخ والإحكام، وإن أراد أنَّه يحتمله في الجملة، أي: عند بعضٍ دون بعض، فهو مسلَّم وغيرُ مُضِرٍّ؛ لعدم إخلالِه بالوثوق بالقرآن عند الذين أُوتوا العِلْمَ والذين آمنوا، وأمَّا إخلالُه بالنسبة إلى الفريقَيْن الآخرين، فهو مرادُ الله عزَّ وجلَّ.

هذا واعترض على الجواب الأوَّل بأنَّ التلبيسَ بحيث يَشتبه الأمرُ على النبيِّ ﷺ فيعتقد أنَّ الشيطانَ مَلَكٌ، مُخِلٌّ بمقام النبوَّة، ونقصٌ فيه، فإنَّ الوليَّ الذي هو دونَه عليه الصلاة والسلام بمراتِب لا يَكاد يَخفَى عليه الطائع مِن العاصي، فيُدرِك نورَ الطاعة وظلمةَ المعصية، فكيف بمَن هو سيِّد الأنبياء ونورُ عيون قلوبِ الأولياء يَلتبسُ عليه مَن هو محضُ نورٍ بمَن هو محضُ ديجور، واشتباهُ جبريلَ عليه السلام عليه ﷺ في بعض المرَّات حتى لم يعرفه إلى أن ذهب فقال: «والذي نفسي بيدِه ما شُبِّه عليَّ منذ أتاني قبل مرَّتي هذه، وما عرفتُه حتى وَلَّى»(١) إذا صحَّ، ليس مِن قبيل اشتباهِ الشيطان به عليه السلام، إذ يجوز أن يكون مِن اشتباه مَلَك بمَلَك، وكلٌّ منهما نورانيٌّ، وقد كان يأتيه ﷺ غيرُ جبريلَ عليه السلام مِن الملائكة الكرام، وأن يكون مِن اشتباه مَلَكٍ بواحدٍ مِن البشر نورانيٍّ أيضاً لم يكن رآهُ عليه الصلاة والسلام قبل ذلك كالخَضِر وإلياس مثلاً إن قلنا بحياتِهما.

وأيضاً قال المحقِّقون: إنَّ الأنبياءَ عليهم السلام ليس لهم خاطرٌ شيطانيٌّ، وكون ذلك ليس منه، بل كان مجرَّدَ إلقاءٍ على اللسان دونَ القَلْب، ممنوعٌ؛ ألا ترى أنَّه قال تعالى: «ألقى الشيطانُ في أمنيَّته» دون: ألقى الشيطانُ على لسانه، وتسميةُ القراءةِ أمنيَّة؛ لما أنَّ القارئَ يقدِّر الحروفَ في قلبه أوَّلاً، ثم يَذكرها شيئاً فشيئاً، وأيضاً حفظهُ ﷺ لذلك إلى أن أمسى ـ كما جاء في بعض الروايات ـ فنبَّهه عليه جبريلُ عليهما السلام، يُبعد كون الإلقاء على اللسان فقط، على أنَّا لو سلَّمنا ذلك وقلنا: إنَّ الشيطانَ ألقى على لسانِه ﷺ ولم يُلْقِ في قلبه، كما هو شأنُ الوحي

---

(١) أخرجه ابن خزيمة كما في فتح الباري ١/ ١١٦ـ ومن طريقه ابن منده في الإيمان (١٤) ـ وابن حبان في صحيحه (١٧٣)، والدارقطني (٢٧٠٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ. وهو حديث تعليمِ جبريلَ عليه السلام النبيَّ ﷺ أمورَ الدين، وأصله عند البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٨) من حديث عمر، لكن دون هذه الزيادة المذكورة أعلاه.

المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وقلنا: إنَّ ذلك مما يُعقَل، للزم أن يَعلَم ﷺ مِن خلوِّ قلبه واشتغالِ لسانه أنَّ ذلك ليس مِن الوحي في شيءٍ، ولم يَحتج إلى أن يُعلِمه جبريلُ عليه السلام، والقول بأنَّه لبّس الحال عليه عليه الصلاة والسلام للتأديبِ والترقية إلى المقام الأكمل في العبوديَّة وهو فناءُ إرادته ﷺ في إرادة مولاه عزَّ وجلَّ حيث تمنَّى إيمانَ الكلِّ وحرصَ عليه، ولم يكن مرادَ الله تعالى، ممَّا لا ينبغي أن يُلتفت إليه؛ لأنَّ القائلَ به زَعَمَ أنَّ التأديبَ بذلك كان بَعْدَ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] ولا شَكَّ أنَّ التأديبَ به لم يُبْقِ ولم يَذَر، ولم يقرن بما فيه تسليةٌ أصلاً، فإذا قيل ـ والعياذ بالله تعالى ـ: إنَّ ذلك لم ينجعْ، فكيف يَنجع ما دونه، وأيضاً أيَّة دلالة في الآية على التأديب وهي لم تَخرج مَخرجَ العتاب، بل مخرجَ التسلية على أبلغِ وجهٍ عمَّا كان يفعل المشركونَ مِن السعي في إبطال الآيات، ولا نُسلِّم أنَّ ترتيبَ الإلقاء على التمنِّي مع ما في السباق والسياق ممَّا يدلُّ على التسليةِ عن ذلك يُجدي نفعاً في هذا الباب، كما لا يخفى على ذوي الألباب.

ويرد على قوله: إنَّه بعد حصولِ التأديب بما ذكر، كان يرسل مِن بين يديه ومِن خَلْفه رَصَدٌ يحفظونه مِن إلقاء الشيطان، أنَّه لم يدلَّ دليلٌ على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك، بل الظاهر أنَّ ذلك كان في جميع الأوقات، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد وابنُ جرير عن الضحَّاك بنِ مزاحم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧] قال: كان النبيُّ ﷺ إذا بُعِثَ إليه المَلَك بالوحي، بُعِثَ معه ملائكةٌ يحرسونه مِن بين يديه ومِن خلفه؛ أن يتشبَّه الشيطان بالمَلَكَ[١]. وقد ذكروا أنَّ «كان» في ذلك للاستمرار.

وأخرج ابنُ أبي حاتم بسندٍ صحيح عن سعيدِ بنِ جبير قال: ما جاءَ جبريلُ عليه السلام بالقرآن إلى النبيِّ ﷺ إلا ومعه أربعةٌ مِن الملائكة حَفَظَةٌ[٢]. وهذا

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٦، وتفسير الطبري ٢٣/ ٣٥٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٧٨ (١٩٠٠٩).

صريحٌ في ذلك، ولا شَكَّ أنَّ هذا الإلقاءَ عند مَن يقول به، كان عند نزول الوحي، فقد أخرج ابنُ جرير، وابنُ مردويه مِن طريق العوفيِّ، عن ابنِ عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ بينما هو يُصلِّي إذ نزلت عليه قصَّة آلهةِ العرب، فجعل يتلوها، فسمعه المشركونَ، فقالوا: إنَّا نسمعُه يَذكُر آلهتنا بخير. فدَنَوا منه، فبينما هو يتلوها وهو يقول: «أفرأيتمُ اللاتَ والعُزَّى ومناةَ الثالثةَ الأُخرى» ألقى الشيطانُ: تلك الغرانيقُ العُلا منها الشفاعةُ تُرتَجى[1]. فعلى هذا ونحوه يكون الرَّصَد موجوداً مع عدم ترتُّب أَثره عليه، والقول بأنَّ جبريلَ عليه السلام ومَن معه تنحَّوا عنه حتى أَلقى الشيطانُ ما ألقى، بناءً على ما أَخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس أنَّه قال في آية الرَّصَد: كان النبيُّ ﷺ قَبل أن يُلقي الشيطانُ في أمنيَّته يَدنونَ منه، فلما ألقى الشيطانُ في أمنيَّته أَمرهم أن يتنحَّوا عنه قليلاً[2]. فإنَّ المرادَ مِن قولِه فيه: فلمَّا أَلقى: فلمَّا أَراد أن يُلقي، في حيِّز المنع، وكذا صحَّة هذا الخبر، ثم أيَّةُ فائدةٍ في إنزال الرَّصَدِ إذا لم يَحصُل به الحفظُ، بل كيف يسمَّى رَصَداً. وممَّا ذُكرَ في هذا الاعتراض يعلم ما في الجواب الثاني مِن الاعتراض، وهو ظاهر، وقد يقال: إنَّ إعجازَ القرآن معلومٌ له ﷺ ضرورةً، كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعريُّ، بل قال القاضي: إنَّ كلَّ بليغ أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يَعلَم ضرورة إعجازه، وذكرَ أنَّ الإعجازَ يتعلَّق بسورة أو قَدْرها مِن الكلام بحيثُ يتبيَّن فيه تفاضلُ قوى البلاغة، فإذا كانت آيةٌ بقَدْرِ حروف سورةٍ ـ وإن كانت كسورة الكوثر ـ فهو مُعجِزٌ، وعلى هذا يمتنع أن يأتيَ الجنُّ والإنسُ ـ ولو كانَ بعضُهم لبعض ظهيراً ـ بمقدارِ أقصرِ سورةٍ منه تُشبِهه في البلاغة، ومتى أتى أَحَدٌ بما يَزعُم فيه ذلك، لم تَنفُق سُوقُه عند رسولِ الله ﷺ، وكذا عند كلِّ بليغ محيط بما تقدَّم، ولم يَخْفَ على الرسول عليه الصلاة والسلام ولا على ذلك البليغ عدمُ إعجازِه، فلا يَشتبه عنده بالقرآن أصلاً، ولا شَكَّ أنَّ ما ألقى الشيطانُ ـ على ما في بعض الروايات ـ حروفه بقَدْر حروفِ سورةِ الكوثر، بل أزيد إن اعتُبر الحرفُ المشدَّد بحرفَيْن، وهو: وإنَّهنَّ لهنَّ الغرانيقُ العُلا، وإنَّ شَفاعتهنَّ لهي التي

---

(١) الدر المنثور ٤/٣٦٦-٣٦٧، وتفسير الطبري ١٦/٦٠٧-٦٠٨.

(٢) الدر المنثور ٦/٢٧٥.

تُرتَجى. الوراد فيما أخرجه ابنُ أبي حاتم مِن طريق موسى بنِ عقبة عن ابنِ شهاب[١].

وجاء في رواية ابنِ جرير، وابنِ المنذر، وابنِ أبي حاتم بسندٍ ـ قال السيوطي: هو صحيح ـ عن أبي العالية، أنَّه ألقى: تلك الغرانيقُ العُلا وشفاعتهنَّ تُرتَجى تُرتَضى ومثلهنَّ لا يُنسى[٢]. وحروفُه أزيد مِن حروفِها، إذا لم يُعتَبر الحرف المشدَّد في شيء منهما بحرفَيْن، أمَّا إذا اعتُبر، فحروفُها أزيد بواحدٍ، فإن كان ما ذُكرَ ممَّا يتعلَّق به الإعجاز، فإن كان مُعجزاً، لزم أن يكون مِن الله تعالى لا مِن إلقاء عدوِّه؛ ضرورةَ عجزِه كسائر الجنِّ والإنس عن الإتيان بذلك، وإن لم يكن مما يتعلَّق به الإعجاز، فهو كلام غيرُ يسير يتنبَّه البليغُ الحاذق إذا سمعَه أثناء كلامٍ فوقَه بمراتب؛ لكونه ليس منه، فيبعد كلَّ البُعد أن يخفى عليه عليه الصلاة والسلام قصورُ بلاغتِه عن بلاغة شيءٍ مِن آيات القرآن، سواء قلنا بتفاوتِها في البلاغة، كما اختاره أبو نصر القشيريُّ وجماعةٌ، أم قلنا بعدمِ التفاوت، كما اختاره القاضي، فيعتقد أنَّه قرآنٌ حتى ينبِّهه جبريلُ عليه السلام، لا سيَّما وقد تكرَّر على سمعه الشريف سُكْرُ الآياتِ ومازَجَتْ لحمَه ودمَه، والواحد منَّا وإن لم يكن مِن البلاغة بمكانٍ إذا أَلِفَ شِعْرَ شاعرٍ وتكرَّر على سمعه يعلمُ إذا دُسَّ بيتٌ أو شَطْرٌ في قصيدةٍ له، أنَّ ذلك ليس له، وقد يُطالَب بالدليل فلا يَزيدُ على قوله: لأنَّ النَّفَسَ مُختلِفٌ، وهذا البُعد متحقِّق عندي على تقديرِ كون الملقى ما في الرواية الشائعة وهو: تلك الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى، أيضاً لا سيمَّا على قول جماعةٍ: إنَّ الإعجازَ يتعلَّق بقليلِ القرآنِ وكثيرِه مِن الجمل المفيدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] والقولُ بأنَّ النبيَّ ﷺ خَفِيَ عليه ذلك للتأديبِ، فيه ما فيه، ولا يَبعُد استحقاقُ قائلِه للتأنيب.

وما ذكره في الجواب عن الثالثِ من أنَّه لا بُدَّ مِن حَمْلِ الكلام على الاستفهام أو حَذْفِ القول، وهو دون الأوَّل إذا صحَّ الخبرُ، صحيحٌ لكنَّ إثباتَ صحَّة الخبر

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠١ (١٣٩٩٩).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٦٠٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠١ (١٤٠٠٠).

أشدُّ مِن خَرْطِ القَتَاد[1]، فإنَّ الطاعنينَ فيه مِن حيث النقلُ علماءُ أجلَّاء عارفونَ بالغَثِّ والسمينِ مِن الأخبار، وقد بذلوا الوُسْعَ في تحقيق الحقِّ فيه، فلم يَروه[2] إلا مردوداً، وما ألقى الشيطانُ إلى أوليائه معدوداً، وهم أكثر ممَّن قال بقبوله ومنهم مَن هو أعلم منه، ويغلب على الظَّنِّ أنَّهم وَقَفوا على رواتِه في سائر الطُّرُق فرأَوْهم مجروحينَ، وفات ذلك القائلَ بالقَبول، ولعمري إنَّ القولَ بأنَّ هذا الخبرَ ممَّا ألقاه الشيطانُ على بعضِ ألسنةِ الرواة، ثم وفَّق اللهُ تعالى جَمْعاً مِن خاصَّته لإبطاله، أهونُ مِن القول بأنَّ حديثَ الغرانيق ممَّا ألقاهُ الشيطانُ على لسانِ رسولِ الله ﷺ ثم نَسَخَه سبحانه وتعالى، لاسيَّما وهو ممَّا لم يتوقَّف على صحَّته أَمْرٌ ديني ولا معنى آية ولا ولا، سوى أنَّها يتوقَّف عليها حصولُ شُبَه في قلوب كثيرٍ مِن ضعفاء المؤمنين لا تكاد تُدفَع إلا بجهدٍ جهيد، ويؤيِّد عدمَ الثبوت؛ مخالفتُه لظواهر الآياتِ، فقد قال سبحانه في وصف القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] والمراد بالباطل ما كان باطلاً في نفسه، وذلك المُلقى كذلك وإن سوَّغ نُطْقُ النبيِّ ﷺ به تأويله بأحد التأويلين، والمراد بـ ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾ استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار. وقال عزَّ وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجِيْءَ بالجملة الاسميَّة مؤكَّدة بتأكيدين، ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلَّقه؛ إفادةً للعموم إلى ضميرِ العظمة، وفي ذلك مِن الدلالة على الاعتناء بأمر القرآنِ ما فيه.

وقد استدلَّ بالآية من استدلَّ على حفظ القرآن مِن الزيادة والنقص، وما علينا ما قيل في ذلك، وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظَ، لأنَّه نُسِخَ ولم يَبْقَ إلا زماناً يسيراً، لا يخلو عن نَظَر، والظاهر أنَّه وإن لم يُنافِ الحفظَ في الجملة، لكنَّه ينافي الحفظَ المشار إليه في الآية على ما يقتضيه ذلك الاعتناء، ثم إنْ قيل: بما روي عن الضحاك مِن أنَّ سورة الحجِّ كلَّها مدنيَّةٌ، لزم بقاءُ ما ألقى الشيطان قرآناً في اعتقاد رسولِ الله ﷺ والمؤمنين زماناً طويلاً، والقول بذلك مِن الشَّنَاعة بمكان، وقال جلَّ

---

(١) الخَرْط: قَشْرُكَ الورق عن الشجرة اجتذاباً بكفِّك. والقتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. وهو مَثَل يُضرَب للأمر دونه مانع. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٦٥.

(٢) في (م): يرووه.

وعلا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] والظاهر أنَّ الضميرَ لما يَنطق به عليه الصلاة والسلام ممَّا يتعلَّق بالدِّيْن، ومِن هنا أخرج الدارمِيُّ عن يحيى بنِ أبي كثير، أنَّه قال: كان جبريلُ عليه السلام ينزل بالسُّنَّة كما يَنزِلُ بالقرآن[1].

والمتبادر مِن لحن الخطاب أنَّ جميعَ ما ينطِق به عليه الصلاة والسلام مِن ذلك ليس عن إلقاء شيطانيٍّ كما أنَّه ليس عن هوًى، وبقيت آياتٌ أُخَرُ في هذا الباب ظواهرُها تدلُّ على المدّعى أيضاً، وتأويلُ جميع الظواهر الكثيرة لقول شِرْذمة قليلة بصحَّة الخبر المنافي لها مع قولِ جمٍّ غفير بعد الفحص التامِّ بعدم صحَّته، مما لا يَميلُ إليه القلبُ السليم ولا يَرتضيه ذو الطبعِ المستقيم، ويبعدُ القولَ بثبوته أيضاً عدمُ إخراج أحدٍ مِن المشايخ الكبار له في شيءٍ مِن الكتب السِّتِّ مع أنَّه مشتملٌ على قصَّة غريبة، وفي الطباع مَيْلٌ إلى سماعِ الغريب وروايتِهِ، ومع إخراجهم حديثَ سجودِ المشركين معه ﷺ حين سَجَدَ آخِرَ النجم، فقد روى البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنسائيُّ، وغيرُهم عن ابنِ مسعود: أنَّ النبيَّ ﷺ قَرَأ: (وَالنَّجْمِ)، فسجد فيها وسَجَدَ كلُّ مَن كان معه، غير أنَّ شيخاً[2] مِن قريش أَخَذَ كفًّا مِن حصًى أو ترابٍ ورفَعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا[3]. وروى البخاريُّ أيضاً، والترمذيُّ عن ابنِ عباس: أنَّ رسول الله ﷺ سَجَدَ بالنجم وسَجَدَ معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ[4]، إلى غير ذلك. وليس لأحدٍ أن يقول: إنَّ سجودَ المشركين يدلُّ على أنَّه كان في السورة ما ظاهرُه مدحُ آلهتِهم، وإلَّا

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٢٢، والذي في سنن الدارمي (٥٨٧) عن يحيى بن أبي كثير، قال: السنة قاضية على القرآن، وليس القرآن بقاضٍ على السنة. وجاء بعده برقم (٥٨٨): أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن حسان، قال: كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن. فلعلَّ السيوطيَّ أخطأ في نقله عن الدارمي، واشتبه عليه يحيى بن أبي كثير بمحمد بن كثير شيخ الدارمي.
وقول حسان بن عطية أخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٥٣٦)، والمروزي في السنة (٤٠٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٩٩).
وعزاه ابن حجر في فتح الباري ١٣/ ٢٩١ للبيهقي وصحَّحه.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): جاء في رواية: أنه أمية بن خلف. اهـ. منه.

(٣) البخاري (٤٨٦٣)، ومسلم(٥٧٦)، وأبو داود (١٤٠٦)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٦٠.

(٤) البخاري (١٠٧١)، والترمذي (٥٧٥).

لما سجدوا؛ لأنَّا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشةٍ أصابتهم، وخوفٍ اعتراهم عند سماع السورة؛ لما فيها مِن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ إلى آخرِ الآياتِ [النجم: ٥٠-٥٤]، فاستشعروا نزولَ مِثْلِ ذلك بهم، ولعلَّهم لم يَسمعوا قبل ذلك مِثْلَها منه ﷺ وهو قائمٌ بين يَدَي ربِّه سبحانه في مقام خطرٍ وجمع كثير، وقد ظنُّوا مِن ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدَّم أنَّ سجودَهم ولو لم يكن عن إيمانٍ كافٍ في دَفْعِ ما توهَّموه، ولا تستبعد خوفَهم مِن سماعِ مِثْلِ ذلك منه ﷺ، فقد نزلت سورةُ (حم) السجدة بعد ذلك كما جاء مصرَّحاً به في حديث عن ابنِ عباس، ذكره السيوطيُّ في أوَّل «الإتقان»[1]، فلما سمع عتبةُ بنُ ربيعة قولَهَ تعالى فيها: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] أمسكَ على فَمِ رسولِ الله ﷺ وناشَده الرَّحِمَ، واعتذرَ لقومه حين ظنُّوا به أنَّه صَبأ، وقال: كيف وقد علمتم أنَّ محمداً إذا قال شيئاً لم يكذبْ، فخِفتُ أن يَنزلَ بكم العذابُ. وقد أخرج ذلك البيهقيُّ في «الدلائل» وابنُ عساكر في حديث طويلٍ عن جابر بنِ عبد الله رضي الله عنهما[2].

ويمكن أن يُقال على بُعْدٍ: إنَّ سجودَهم كان لاستشعار مَدْحِ آلهتهم، ولا يلزم منه ثبوتُ ذلك الخبر؛ لجواز أن يكون ذلك الاستشعارُ مِن قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] بناءً على أنَّ المفعولَ محذوفٌ وقدَّروه حسبما يشتهون، أو على أنَّ المفعولَ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] وتوهمَّوا أنَّ مصبَّ الإنكار فيه كون المذكوراتِ إناثاً، والحُبُّ للشيء يُعمِي ويُصِمُّ، وليس هذا بأبعدَ مِن حَمْلِهم: تلك الغرانيق العُلا وإن شفاعتهنَّ لتُرتَجى، على المدح حتى سجدوا لذلك آخِرَ السورة مع وقوعِه بين ذمَّيْن المانع مِن حمله

(١) ١/ ٢٧-٢٨.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٥٩، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٣٨/ ٢٤٢، ولم نقف عليه في دلائل النبوة للبيهقي، وهو في دلائل النبوة للأصفهاني (١٨٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٤/ ٢٩٥، وعبد بن حميد (١١٢٣)، وأبو يعلى (١٨١٨).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٠: رواه أبو يعلى، وفيه: الأجلح الكندي وثَّقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وباقي رجاله ثقات.

على المدح في البين، كما لا يَخفى على مَن سَلِمَتْ عينُ قلبه عن الغينِ.

واعترض على الجواب الرابع: بأنَّ سجودَهم كان مع رسول الله ﷺ آخِراً بَعْدَ سماع قولِه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] فكان ينبغي التنبيهُ بعد السجود، ولعلَّهم أَرجعوا ضميرَ «هي» للأسماء، وهي قولهم: اللات والعزى ومناة، كما هو أحدُ احتمالين فيه ذكرهما الزمخشريُّ(١)، فيكون المعنى: ما هذه الأسماء إلا أسماء سمَّيتم بها بهواكم وشهوتِكم، ليس لكم على صحَّة التسمية بها برهانٌ تتعلَّقون به، وحينئذٍ لا يكون فيه دليلٌ على ردِّ ما فهموه ممَّا أَلقى الشيطانُ مِن مدح آلهتِهم بأنَّها الغرانيقُ العُلا، ويَحتمل أنَّهم أوَّلُوه على وجهٍ آخَر، وبابُ التأويل واسعٌ.

واعترض على قوله في الجواب الخامس: إنَّ هذا الاشتباه في حالة خاصَّة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غير بصيرة فيما يُوحَى إليه في غير تلك الحالة، بأنَّ المعترض لم يُرِد أنَّه إذا اشتبه الأمرُ عليه عليه الصلاة والسلام مرَّةً يَلزم أن يكون على غيرِ بصيرة فيما يُوحَى إليه في غيرها، بل أراد أنَّ اللائقَ بمقام النبيِّ ﷺ أن يكون على بصيرةٍ في جميع ما يُوحَى إليه، وأنَّه متى اشتبه عليه عليه الصلاة والسلام في حالة مِن الأحوال، لم تَبْقَ الكُلِّيةُ كُلِّيَّةً، وهو خلافُ المراد.

وفي «التنقيح» أنَّ الوحيَ إمَّا ظاهرٌ أو باطن، أمَّا الظاهر فثلاثةُ أقسام:

الأوَّل: ما ثبتَ بلسان المَلَك فوقع في سمعه ﷺ بعد علْمه بالمبلغ بآية قاطعةٍ، والمراد بها كما قال ابنُ مَلَك: العِلْم الضروريُّ بأنَّ المبلِّغ مَلَكٌ نازل بالوحي مِن الله تعالى، والقرآنُ مِن هذا القَبيل.

والثاني: ما وضح له ﷺ بإشارة المَلَك مِن غير بيانٍ بالكلام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي أنَّ نَفْساً لن تموتَ حتى تستكملَ رِزْقَها» الحديث(٢)، وهذا يُسمَّى خاطرَ المَلَك.

والثالث: ما تبدَّى لقلبه الشريف بلا شُبهة بإلهام مِن الله تعالى بأنْ أراهُ بنورٍ مِن

(١) الكشاف ٣/ ٣١.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الكهف.

عنده كما قال تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وكلٌّ ذلك حجَّة مطلقاً، بخلاف الإلهام للوليِّ فإنَّه لا يكون حجَّةً على غيره، وأمَّا الباطنُ فما يُنال بالرأي والاجتهاد، وفيه خلافٌ إلى آخرِ ما قال، وهو ظاهر في أنه ﷺ على بصيرة في جميع ما يوحى إليه من القرآن؛ لأنه جعله من القسم الأول من أقسام الوحي الظاهر، ويُعلَم منه عدمُ ثبوت تكلُّمه ﷺ بما أَلقى الشيطانُ؛ لأنَّه عند زاعمه يكون قد اعتقدَه عليه الصلاة والسلام قرآناً ووحياً مِن الله تعالى، فيَجِبُ على ما سمعتَ أن يكونَ عليه الصلاة والسلام قد عَلِمَ ذلك عِلْماً ضروريًّا، فحيث إنَّه ليس كذلك في نفس الأَمْرِ يلزم انقلاب العِلْم جهلاً، واستثناءُ هذه المادة مِن العموم ممَّا لا دليلَ عليه عند الزاعم سوى الخبرِ الذي زعم صحَّته وبنى عليه تفسيرَ الآية بما فسَّرها به، وذلك أوَّل المسألة.

ويجوز أن يقال: إنَّه أراد أنَّه إذا وَقَعَ الاشتباهُ مرَّة، اقتضى أن لا يكونَ عليه الصلاة والسلام على بصيرةٍ في شيءٍ ممَّا يُوحَى إليه بَعْدُ؛ لأنَّ احتمالَ التأديبِ على تعاطي ما ليس أكملَ بالنسبة إليه ﷺ قائمٌ، والعصمة مِن ذلك ممنوعةٌ، فقد وقع منه ﷺ بَعْدَ هذه القصَّة التي زعمها الخَصْمُ ما عُوتبَ عليه كقصَّة الأسرى المشار إليها بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الأنفال: ٦٧]، وكقصَّة الإذن المشار إليها بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٤٣]، وكقصَّة زينبَ رضي الله عنها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ودعوى أنَّ التأديبَ بذلك على غيرِ التمنِّي ممَّا لا تقتضيه الحكمةُ، فلا يمكن وقوعُه مما لم يقم عليه دليلٌ، وقصارى ما تفيده الآية أنَّ الإلقاءَ مشروطٌ بالتمنِّي أو في وقته، بناءً على الخلاف في أنَّ «إذا» للشرط أو لمجرَّد الظرفيَّة، وعند انتفاءِ ذلك الشرط أو عدم تحقُّق ذلك الوقت، يبقى الإلقاء على العدم الأصليِّ إنْ لم يكن هناك ما يقوم مقامَ ذلك الشرط، أو ذلك الوقت.

ولا شَكَّ أنَّ صدورَ خلافِ الأكمل لاسيَّما إذا كان كالتمنِّي أو فوقَه أو وقت صدوره ممَّا يقوم مقامَ ذلك فيما يقتضيه، فيلزم حينئذٍ أن يكون ﷺ في كلِّ وحي

متوقِّفاً غيرَ جازم بأنَّه وحي لا تلبيسٌ إلى أن يتضحَ له عليه الصلاة والسلام عدمُ صدورِ خلاف الأكمل بالنسبة إليه منه، وفي ذلك مِن البشاعة ما فيه.

واعترض على قوله في الجواب أيضاً: إنَّ ما قاله ابنُ العربيِّ قياسٌ مع الفارق... إلخ: بأنَّه غيرُ حاسم للقيلِ والقال، إذ لنا أن نقول: خلاصةُ ما أشار إليه ابنُ العربيِّ أنَّه قد صحَّ بل تواترَ قولُه ﷺ: «مَن رآني في المنام فقد رآني حقاً؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّل بي»(1) والظاهر أنَّه لا يتمثَّل به ﷺ أصلاً لا للمخلصين ولا لغيرِهم؛ لعمومِ «مَن»، ولزوم مطابقةِ التعليلِ المعلَّل، وإذا لم يتمثَّل مناماً فَلأَن لا يتمثَّل يقظةً مِن باب أولى، وعلَّله الشُّرَّاح بلزوم اشتباهِ الحقِّ بالباطل.

وقالت الصوفيَّة في ذلك: إنَّ المصطفى ﷺ وإنْ ظَهَرَ بجميع أسماءِ الحقِّ تعالى وصفاته تخلُّقاً وتحقُّقاً، فمقتضى رسالتِه للخَلْق أن يكون الأظهر فيه حكماً وسلطنةً مِن صفات الحقِّ سبحانه وأسمائه جلَّ شأنه الهداية والاسم الهادي، والشيطان مَظهر الاسم المُضِلِّ والظاهر بصفة الضلالة، فهما ضدَّان فلا يَظهرُ أحدُهما بصفةِ الآخَر، والنبيُّ ﷺ خُلِقَ للهداية، فلو ساغَ ظهورُ إبليس بصورته لزالَ الاعتمادُ عليه عليه الصلاة والسلام، فلذلك عُصِمَتْ صورتُه ﷺ عن أن يَظهر بها شيطانٌ. اهـ. ولا شَكَّ أنَّ نسبةَ جبريلَ عليه السلام إليه ﷺ وكذا إلى سائرِ إخوانه الأنبياء عليهم السلام نسبةُ النبيِّ ﷺ إلى الأمَّة، فإذا استحالَ تمثُّل الشيطانِ بالنبيِّ ﷺ يقظةً أو مناماً لأحدٍ مِن أمَّته مُخْلِصاً أو غير مُخلِص؛ خوفَ الاشتباه وزوالِ الاعتماد وكمالِ التضادِّ، فليقل باستحالة تمثُّله بجبريلَ عليه السلام لذلك، ومَن ادَّعى الفَرْقَ، فَقَدَ كابر.

وتعقَّب ما ذكره في الجواب السادس بأنَّ كونَ المتبع لما يعتقده وحياً للتلبيس غير منقول، صحيحٌ إلا أنَّ القولَ باعتقاد ما ليس قرآناً قرآناً للتلبيس الناشئِ عن إرادةِ التأديب بسبب تمنِّي إيمان الجميع الغيرِ المراد له تعالى ليس به، وكون التلبيسِ للتأديب كالسهو في الصلاة للتشريع، ولا يَخفى ما فيه.

وأورد على قوله في الجواب السابع: إنَّه إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذينِ أوتوا العِلْم والذين آمنوا؛ لأنَّ وثوقَ كلٍّ منهما تابعٌ لوثوق مَتبُوعهم الصادق

---

(1) أخرجه البخاري (110)، ومسلم (2266)، وسلف 10/ 140.

الأمين ﷺ أنَّه إذا فتح باب التلبيس لا يُوثَق بالوثوق في شيء أصلاً؛ لجواز أن يكون كلُّ وثوقٍ ناشئاً عن تلبيس، كالوثوق بأنَّ: تلك الغرانيقَ العُلا وإنَّ شفاعتهن لتُرتَجى، قرآن، فلمَّا تطرَّق الاحتمال الوثوقَ، جاز أن يتطرَّق الرجوع، ولا يظهر فَرْقٌ بينهما، فلا يعوَّل حينئذٍ على جَزْمٍ ولا على رجوع.

وقوله فيما ذكره البيضاويُّ عليه الرحمةُ: ليس بشيءٍ. ليس بشيءٍ؛ لأنَّ مَنْعَ الاحتمالِ عند الفِرَقِ الأربع بعد القولِ بجواز التلبيس مكابرةٌ، والآية التي ادّعى دلالتها على انتفاء الاحتمال عند فريقين بعد النَّسْخ والإحكام فيها أيضاً ذلك الاحتمال، والحقُّ أنَّه لا يكادُ يُفتَح بابُ قَبول الشرائع ما لم يُسَدَّ هذا الباب.

ولا يجدي نفعاً كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨] آيةٌ عن بقاء التلبيسِ، فلا أقلَّ مِن أن يتوقَّف قَبولُ معظم ما يجيء به النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى أن يتبيَّن كونه ليس داخلاً في باب التلبيسِ، مع أنَّا نرى الصحابة ﷺ يُسارِعون إلى امتثال الأوامر عند إخبارِه ﷺ إيَّاهم بوحي اللهِ تعالى إليه بها مِن غير انتظارِ ما يَجيْءُ بعد ذلك فيها ممَّا يُحقِّق أنَّها ليست عن تلبيسٍ، فافهم والله تعالى الموفق.

وتوسَّط جَمْعٌ في أَمْرِ هذه القصَّة فلم يُثبِتوها كما أَثبتها الكورانيُّ ـ عفا الله تعالى عنه ـ مِن أنَّه ﷺ نَطَق بما نَطَقَ عمداً معتقداً للتلبيس أنَّه وحيٌ، حاملاً له على خلافِ ظاهره، ولم يَنْفُوها بالكليَّة كما فَعَلَ أَجلَّة أثبات، وإليه أَميلُ، بل أَثبتوها على وجهٍ غيرِ الوجه الذي أثبته الكورانيُّ، واختلفوا فيه على أوجهٍ تُعلَم مما أَسلفناه من نقل الأقوال في الآية، وكلُّها عندي ممَّا لا ينبغي أن يُلتَفت إليها.

وفي «شرح الجوهرة» الأوسط: إنَّ حديثَ: تلك الغرانيق إلخ، ظاهرُه مخالفٌ للقواطع، فيجب تأويلُه ـ إن صحَّ ـ بما هو مذكورٌ في موضعه ممَّا أقرّ به على نظرٍ فيه أنَّ الشيطانَ ترصَّد قراءتَه عليه الصلاة والسلام وكان يُرتِّل القراءةَ إذ ذاك عند البيتِ، فحين انتهى عليه الصلاة والسلام إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وكان منه عليه الصلاة والسلام وقفةٌ ما للترتيل، أدرج ذلك في تلاوته محاكياً صورته ﷺ، فظنَّ أنَّه من قوله عليه الصلاة والسلام، وليس به. انتهى. والنظر الذي أَشار إليه لا يَخفى على مَن أحاط بما قدَّمناه خبراً وأخذتِ العنايةُ بيديه.

وأَقبحُ الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرُها فساداً أنَّه ﷺ أدخل تلك الكلمةَ مِن تلقاء نفسه؛ حرصاً على إيمانِ قومه ثم رَجَعَ عنها، ويجب على قائلِ ذلك التوبةُ، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وقريبٌ منه ما قيل: إنَّها كانت قرآناً منزلاً في وَصْفِ الملائكة عليهم السلام، فلمَّا توهَّم المشركونَ أنَّه يريد عليه الصلاة والسلام مَدْحَ آلهتِهم بها، نُسِخَتْ، وأنتَ تَعلمُ أنَّ تفسيرَ الآية ـ أعني قوله تعالى: «وما أرسلنا» إلخ لا يتوقَّف على ثبوتِ أصلٍ لهذه القصَّة، وأَقربُ ما قيل في تفسيرِها على القول بعدمِ الثبوت ما قدَّمناه، وقيل: هو بعيدٌ، صدقوا لكن عن إيهام الإخلال بمقام النبوَّة ونحو ذلك، واستفتِ قَلْبَكَ إن كنتَ ذا قلبٍ سليم. هذا، وأخرجَ عبدُ بنُ حميد، وابنُ الأنباريِّ في «المصاحف» عن عمرو بنِ دينار قال: كان ابنُ عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، فنُسِخَ: «ولا محدّث» والمحدَّثون: صاحبُ يس، ولقمان، ومؤمن آلِ فرعون، وصاحبُ موسى عليه السلام.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ أي: السلطانُ القاهر والاستيلاءُ التامُّ والتصرُّف على الإطلاق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ تأتيهم الساعةُ أو عذابها؛ وقيل: أي يوم إذ تزولُ مريتهم، وليس بذلك، ومثله ما قيل: أي يوم إذ يؤمنون ﴿لِلَّهِ﴾ وحدَه بلا شريك أصلاً بحيث لا يكون فيه لأحدٍ تصرُّف مِن التصرفات في أمرٍ مِن الأمور لا حقيقةً ولا مجازاً ولا صورةً ولا معنىً كما في الدنيا، فإنَّ للبعض فيها تصرُّفاً صوريًّا في الجملة والتنوين في «إذ» عوض عن المضاف إليه، وإضافة «يوم» إليه مِن إضافة العامِّ إلى الخاصِّ وهو متعلِّق بالاستقرار الواقع خبراً.

وقوله سبحانه: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ جملةٌ مستأنفة وقعتْ جوابَ سؤالٍ نَشَأ مِن الإخبار بكون الملك يومئذٍ لله، وضميرُ الجَمْع للفريقَيْن المؤمنين والكافرين لذِكْرهما أوَّلاً واشتمالِ التفصيل عليهما آخِراً، نعم ذكر الكافرين قبيله ربَّما يُوهِم تخصيصَه بهم، كأنَّه قيل: فماذا يصنعُ سبحانه بالفريقين حينئذٍ؟ فقيل: يَحكُم بينهم بالمجازاةِ، وجوّز أن تكون حالاً مِن الاسم الجليل.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين لا مريةَ لهم فيما أشير إليه سابقاً كيفما كان متعلَّق الإيمان ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: مستقرُّون في جنَّات

مشتملةٍ على النِّعَم الكثيرة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وهم الذين لا يزالون في مريةٍ مِن ذلك، وفي متعلَّق الكفر احتمالات كاحتمالات متعلَّق الإيمان وزيادة، وهي احتمال أن يكونَ متعلَّقه الآياتُ، والظاهر أنَّ المرادَ بها الآيات التنزيلية، وجوّز أن يُراد بها الأدلَّة وأن يراد بها الأعمُّ، ويتحصَّل ممَّا ذُكِرَ خمسةَ عَشَرَ احتمالاً في الآية، ولعلَّ أولاها ما قَرُبَ به العطف إلى التأسيس، فتأمَّل. والموصول مبتدأٌ أوَّل، وقوله تعالى ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وهو إشارة إلى الموصول باعتبار اتِّصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه مِن معنى البعد؛ للإيذان ببعد المنزلة في الشَّرِّ والفساد.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ جملة اسميَّة مِن مبتدإٍ وخبرٍ مقدَّم عليه، وقعت خبراً للمبتدأ الثاني، أو «لهم» خبرٌ له، و«عذاب» مرتفعٌ على الفاعليَّة بالاستقرار في الجارِّ والمجرور؛ لاعتماده على المبتدأ، وجملة المبتدأ الثاني وخبرِه خبرٌ للمبتدأ الأوَّل، وتصديره بالفاء؛ قيل للدلالة على أنَّ تعذيبَ الكفَّار بسبب قبائحِهم، ولذا جِيْءَ بـ «أولئك».

وقيل: لهم عذابٌ بلام الاستحقاقِ، وكأن الظاهر في «عذاب» كما قيل «في جنَّات»، وجُعِلَ تجريدُ خبرِ الموصول الأوَّل عنها؛ للإيذان بأنَّ إثابةَ المؤمنين بطريق التفضُّل لا لإيجاب محاسنِهم إيَّاهم، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] ونحوه؛ لأنَّها بمقتضى وَعْدِه تعالى على الإثابة عليها قد تُجعَل سبباً، وقيل: جيْءَ بالفاء؛ لأنَّ الكلامَ لخروجه مَخرج التفصيل بتقدير أمَّا، فكأنَّه قيل: فأمَّا الذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا فأولئك... إلخ، وليس بشيءٍ؛ لأنَّ ذلك يقتضي تقدير أمَّا في قوله تعالى: «فالذين آمنوا» إلخ، ولا يتسنَّى فيه؛ لعدم الفاء في الخبر.

وقوله تعالى: ﴿مُّهِينٌ ۝٥٧﴾ صفةٌ لعذاب مؤكِّدة لما أفاده التنوينُ مِن الفخامة، ولم يتعرَّض لوصف هؤلاء الكفرة بعملِ السيئات كما تعرَّض لوصف المؤمنين بعملِ الصالحات، قيل: لظهور عدمِ اتِّصافهم بغيره، أعني: العمل الصالح الذي شرعه الله تعالى على لسانِ الرسول عليه الصلاة والسلام بعد كُفرِهم وتكذيبهم بالآيات، وقيل: مبالغة في تهويل أَمْرِ الكفر حيث أخبر سبحانه أنَّ للمتَّصف به دونَ عمل السيئات عذاباً مهيناً، ولو تعرَّض لذلك لأفاد أنَّ ذلك

العذابَ للمتَّصف بالمجموع فيَضعفُ التهويلُ، والقول بأنَّ المرادَ مِن التكذيب بالآيات عملُ السيئات، أو في الكلام صنعة الاحتباك، والأصل: فالذين آمنوا وصدَّقوا بآياتنا وعملوا الصالحات في جنَّات النعيم، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا وعملوا السيئاتِ فأولئك لهم عذاب مهينٌ، خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد حسبما يَلوحُ به قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ أي: في تضاعيف المهاجرة.

وقرأ ابنُ عامر: «قُتِّلوا»[(١)] بالتشديد، ومحلُّ الموصول الرفعُ على الابتداء، وقولُه تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ جوابٌ لقَسَم محذوف، والجملة خبرُه على الأصحِّ مِن جواز وقوعِ القَسَم وجوابِه خبراً، ومَن مَنَعَ، أضمر قولاً هو الخبر، والجملة محكيَّة به، وقوله سبحانه: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ إمَّا مفعولٌ ثانٍ ليرزق على أنَّه من بابِ النقض[(٢)] والذبح، أي: مرزوقاً حسناً، أو مصدر مبيِّن للنوع، والمراد به عند بعضٍ ما يكون للشهداء في البرزخِ من الرزق، ويؤيِّده ما أخرجه ابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، عن سلمان الفارسيِّ ﵁ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن ماتَ مرابطاً، أُجريَ عليه الرزقُ وأُمِنَ مِن الفتَّانين، واقرؤوا إن شئتم: (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟) إلى قوله تعالى: (حَلِيمٌ)[(٣)]» وقد نصَّ سبحانه في آية أخرى على أنَّ الذين يُقتَلون في سبيل الله تعالى أحياء عند ربِّهم يُرزقون، وليس ذلك في تلك الآية إلا في البَرْزخ. وقال آخرون: المراد به مالا يَنقطع أبداً مِن نعيم الجنَّة. ورُدَّ بأنَّ ذلك لا اختصاصَ له بمن هاجر في سبيل الله، ثم قتل أو مات، بل يكون للمؤمنين كلِّهم.

وتُعقِّب بأنَّ عدمَ الاختصاص ممنوعٌ، فإنَّ تنكيرَ «رزقاً» يجوز أن يكون للتنويع، ويختصُّ ذلك النوع بأولئك المهاجرين، وقيل: المراد تشريفُهم وتبشيرُهم بهذا الوَعْدِ الصادر ممَّن لا يُخلفِ الميعادَ المقترن بالتأكيد القَسَميِّ، ويكفي ذلك في تفضيلهم على سائر المؤمنين كما في المبشَّرين مِن الصحابة ﵃، وفيه نَظَرٌ.

(١) التيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢٤٣.
(٢) في تفسير أبي السعود ٦/ ١١٦: الرعي، والكلام منه.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٦٨-٣٦٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٣ (١٤٠١٠).

وقال الكلبيُّ: هو الغنيمة، وقال الأَصَمُّ: هو العِلْم والفَهْم، كقولِ شعيب عليه السلام: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] ويَرِدُ عليهما أنَّه تعالى جَعَلَ هذا الرزقَ جزاءً على قَتْلهم أو موتهم في تضاعيف المهاجرة في سبيل الله تعالى، فلا يصحُّ أن يكون في الدنيا، ولعلَّ قائل ذلك يقول: إنَّه في الآخرة، وفيها تتفاوت مراتبُ العِلْم أيضاً.

وظاهرُ الآية على ما قيل: استواءُ مَن قُتِلَ ومَن مات مهاجراً في سبيل الله تعالى في الرُّتبة، وبه أَخذ بعضُهم، وذكر أنَّه لما مات عثمانُ بنُ مظعون وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الأسد قال بعضُ الناس: مَن قُتلَ مِن المهاجرين أفضلُ ممَّن مات حَتْفَ أنفِه، فنزلت الآيةُ مسوِّيةً بينهم[١].

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم عن فضالَة بنِ عبيد الأنصاريِّ الصحابيِّ أنَّه كان بموضع فمرُّوا بجنازتَيْن؛ إحداهما قتيلٌ والأُخرى متوفًّى، فَمالَ الناسُ على القتيل في سبيلِ الله تعالى، فقال: واللهِ ما أُبالي مِن أيِّ حفرتَيْهما بُعِثْتُ، اسمعوا كتابَ الله تعالى، فقال: (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ) الآية[٢].

ويؤيِّد ذلك بما رويَ عن أنسٍ قال: قال ﷺ: «المقتولُ في سبيلِ الله تعالى والمتوفَّى في سبيلِ الله تعالى بغيرِ قتلٍ هما في الأَجْرِ شريكان»[٣]. فإنَّ ظاهرَ الشركةِ يُشعِر بالتسوية، وظاهر القولِ بالتسوية أنَّ المتوفَّى مهاجراً في سبيل الله تعالى شهيداً كالقتيل، وبه صرَّح بعضُهم، وفي «البحر»[٤]: إنَّ التسويةَ في الوعْدِ بالرِّزْق الحَسَن لا تدلُّ على تفضيلٍ في المُعطَى ولا تسوية، فإنْ يكن تفضيلٌ فمِن دليلٍ آخَر، وظاهرُ الشريعة أنَّ المقتولَ أَفضلُ. انتهى. وما تقدَّم في سبب النزول غيرُ مُجمَع عليه، فقد روي أنَّ طوائفَ مِن الصحابة ﷺ قالوا: يا نبيَّ اللهِ هؤلاء

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٠.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٦٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٦١٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٣ (١٤٠١١).
(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ٥٨، وتفسير اللباب لابن عادل ١٤/ ١٣٢، ولم نقف عليه مسنداً.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٨٣.

الذين قُتلوا قد عَلِمْنا ما أَعطاهم اللهُ تعالى مِن الخير، ونحن نجاهدُ معكَ كما جاهدوا، فما لنا إنْ مُتْنَا معكَ؟ فنزلت. واستدلَّ بعضُهم بهذا أيضاً على التسوية، وقال مجاهد: نزلت في طوائفَ خرجوا مِن مكَّة إلى المدينة للهجرة، فتَبِعَهم المشركونَ وقاتلوهم. وعلى هذا القول ليس المرادُ مِن المهاجرة في سبيله تعالى المهاجرةَ في الجهاد، وأيًّا ما كان فهذا ابتداءُ كلامٍ غيرِ داخل في حيِّز التفضيل. ويُوهِم ظاهرُ كلامِ بعضهم الدخولَ، وأنَّه تعالى أَفردَ المهاجرينَ بالذِّكْر مع دخولهم دخولاً أوليًّا في الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ تفخيماً لشأنِهم، وهو كما ترى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾ فإنَّه جلَّ وعلا يَرزقُ بغير حساب مع أنَّ ما يرزقه قد لا يَقدِرُ عليه أحدٌ غيره سبحانه، وأنَّ غيرَه تعالى إنَّما يرزقُ ممَّا رَزَقه هو جِلَّ شأنه.

واستدلَّ بذلك على أنَّه قد يُقال لغيرِه تعالى: رازق، والمراد به معطي، والأَولى عندي أنْ لا يُطلَق رازقٌ على غيرِه تعالى، وأن لا يتجاوزَ عمَّا ورد.

وأمَّا إسناد الفعل إلى غيرِه تعالى، كـ: رَزَقَ الأميرُ الجنديَّ، وأَرزق فلاناً مِن كذا، فهو أهونُ مِن إطلاق رازق، ولعلَّه ممَّا لا بأسَ به، وصرَّح الراغبُ[1] بأنَّ الرَّزَّاقَ لا يُقال إلا للهِ تعالى، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لما قبله.

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ استئنافٌ مقرِّر لمضمونِ قولهِ سبحانه: «ليرزقنَّهم اللهُ» أو بدلٌ منه مقصود منه تأكيدُه، و«مُدخَلاً» إمَّا اسم مكانٍ أُريد به الجنَّة، كما قال السُّدِّيُّ وغيرُه، أو درجاتٌ فيها مخصوصة بأولئك المهاجرينَ كما قيل، وقيل: هو خيمةٌ مِن دُرَّةٍ بيضاءَ لا فصمَ فيها ولا وصمَ، لها سبعونَ ألف مصراعٍ، أو مصدر ميميٌّ، وهو على الاحتمال الأوَّل مفعولٌ ثانٍ للإدخال، وعلى الثاني مفعولٌ مُطلَق، ووصفه بـ يرضونه على الاحتمالين لما أنَّهم يَرَوْن إذا أدخلوا مالا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمعتْ ولا خَطَر على قَلْبِ بشرٍ، وقيل على الثاني: إنَّ رضاهم لما أنَّ إدخالَهم مِن غير مشقَّة تنالهم، بل براحةٍ واحترام.

---

(١) المفردات (رزق).

وقرأ أهلُ المدينة: «مَدْخَلاً» بالفتح، والباقون بالضَّمِّ[1]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالذي يُرضِيهم فيعطيهم إيَّاه، أو لَعليمٌ بأحوالهم وأحوالِ أعدائهم الذين هاجروا لجهادهم ﴿حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ فلا يُعاجِل أعداءَهم بالعقوبة، وبهذا يظهر مناسبة هذا الوصفِ لما قبله، وفيه أيضاً مناسبةٌ لما بعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد حقِّق أمره ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: مَن جازى الجاني بمثلِ ما جنى به عليه، وتسمية ما وَقَع ابتداءً عقاباً مع أنَّ العقابَ كما قال غيرُ واحد جزاءُ الجناية؛ لأنَّه يأتي عَقِبَها وهو في الأصل شيءٌ يأتي عَقِبَ شيءٍ؛ للمشاكلة، أو لأنَّ الابتداءَ لما كان سبباً للجزاء، أطلق عليه مجازاً مرسلاً بعلاقة السببيَّة، وقال بعضُ المحقِّقين: يجوز أن يقال: لا مشاكلةَ ولا مجازَ؛ بناءً على أنَّ العُرْفَ جارٍ على إطلاقه على ما يعذَّب به، وإن لم يكن جزاء جناية. و«من» موصولة، وجوّز أن تكون شرطيَّة سدَّ جوابُ القَسَم الآتي مَسَدَّ جوابِها، والجملةُ مستأنفة، والباء في الموضعين، قيل للسبب لا للآلةِ، وإليه ذهب أبو البقاء[2]، وقال الخفاجيّ[3]: باءُ «بمثل» آليَّة لا سببيَّة؛ لئلا يتكرَّر مع قوله تعالى: «به» والمنساقُ إلى ذهني القاصر كونها في الموضعين للآلة، وفيما ذكره الخفاجيُّ نَظَرٌ، فتأمَّل.

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقاب ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على مَن بَغى عليه لا محالَةَ عند كره للانتقامِ منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ تعليلٌ للنُصرة حيث كانت لمن ارتكبَ خلافَ الأَولى مِن العفوِ عن الجاني المندوبِ إليه والمستوجبِ للمَدْح عنده تعالى، ولم يَنظُرْ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] بأنَّ ذلك لأنَّه لا يلوم على تَرْكِ الأَولى إذا رُوعيَ الشريطة وهي عدمُ العدوان، وفيه تعريضٌ بمكان أَوَّليَّة العفوِ، لأنَّ ذِكْرَ الصفتَيْن يدلُّ على أنَّ هناك شبهُ جناية، وإظهارُ الاسم الجليل في مقام الإضمار؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك مِن مقتضى الألوهيَّة.

---

(١) التيسير ص٩٥، والنشر ٢/ ٢٤٩.

(٢) الإملاء ٤/ ٤٦.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٠٩.

وحَمْلُ الجملةِ على ما ذكرَ أحدُ أوجهٍ ثلاثة ذَكَرها الزمخشريُّ[١] في بيان مطابقةِ ذِكْر العفوِ الغفورَ هذا الموضع.

وثانيها: أنَّه دلَّ بذلك على أنَّه تعالى قادرٌ على العقوبة؛ لأنَّه لا يُوصَف بالعفوِ إلا القادر على ضدِّه.

قال في «الكشف»: فهو، أي: «إنَّ الله»... إلخ، على هذا أيضاً تعليلٌ للنُصرة، وأنَّ المعاقَبَ يستحقُّ فوقَ ذلك، وإنَّما الاكتفاءُ بالمِثْل لمكان عَفْوِ اللهِ تعالى وغفرانِه سبحانه، وفيه إدماجٌ أيضاً للحَثِّ على العَفْو، وهذا وجهٌ وجيه. اهـ.

وثالثها: أنَّه دلَّ بذلك على نفي اللوم على تَرْكِ الأولى حسبما قرَّر أوَّلاً إلا أنَّ الجملةَ عليه خبر ثانٍ، لقوله تعالى: «مَن عاقبَ بمِثْل ما عُوقبَ به»، والخبر الآخر قولُه تعالى: «ليَنْصرنَّه اللهُ» فيكون قد أخبرَ عنه بأنَّه لا يلومه على تَرْكِ العفو، وأنَّه ضامنٌ لنَصْره في إخلاله ثانياً بذلك.

وجعل ذلك بعضُهم مِن التقديم والتأخير، ولا ضرورةَ إليه، وقيل: إنَّ العفوَ ليس لارتكابِ المعاقَب خلافَ الأولى، بل لأنَّ المماثلةَ مِن كلِّ الوجوه متعسِّرة، فيحتاج للعفو عمَّا وقع فيها، وليس بذاك. ونقل الطيبيُّ عن الإمام[٢] أنَّ الآيةَ نزلت في قومٍ مشركين لَقُوا قوماً مِن المسلمين لليلتَيْن بقيتا مِن المُحرَّم، فقالوا: إنَّ أصحابَ محمَّد ﷺ يكرهونَ القتالَ في الشهرِ الحرام، فاحْمِلُوا عليهم، فناشدهم المسلمونَ بأنْ يكفُّوا عن القتالِ، فأَبَوْا، فقاتلوهم فنُصِرَ المسلمون ووقع في أنفسهم شيءٌ مِن القتال في الشهر الحرام، فأنزل اللهُ تعالى الآيةَ، ثم قال: فعلى هذا أَمْرُ المطابقة ظاهرٌ، ويكون أوفقَ؛ لتأليف النظم، وذلك أنَّ لفظَة «ذلك» فصل للخطاب، وقوله تعالى: «ومن عاقب» شروعٌ في قصَّة أُخرى لأولئك السادة بَعْدَ قوله سبحانه: «والذين هاجروا» الآيتين. اهـ.

وتعقّب بأنَّ الآيةَ تقتضي ابتداءً ثُمَّ جزاءً ثم بغياً ثم جزاءً، والقصَّة لم تدلَّ عليه إلا أن يُجعَل ما بينهم من التعادي معاقبة بالمِثْل، ويُجعَل البغي مناوأتهم لقتالِ

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٠.

(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٥٩.

المسلمين في الشهر الحرام، وهو خلافُ الظاهر، وأمَّا الموافقةُ لتأليفِ النظم، فعلى ما ذكره غيرُه أبين؛ لأنَّه لما ذَكَرَ حالَ المقتولين منهم والميِّتين منهم، قيل الأَمْرُ ذلك فيما يرجعُ إلى حالِ الآخرة، وفيما يَرجعُ إلى حال الدنيا إنَّهم لهم المنصورونَ؛ لأنَّهم بين معاقِب وعافٍ، وكلاهما منصوران؛ أمَّا الأوَّل فنصًّا، وأما الثاني فمِن فحوى الخطاب، أعني مفهومَ الموافقة، وفيه وَعيدٌ شديد للباغي، وأنَّه مخذولٌ في الدارين، مسلوك في قرنِ مَن كان في مِرْية حتى أتته الساعةُ أو العذاب. اهـ. وهو كلام رصينٌ، ولا يُعكّر عليه قولهم: إنَّه أتى بذلك للاقتضاب، فتأمَّل.

وعن الضَّحَّاك أنَّ الآيَةَ مدنيَّةٌ وهي في القصاص والجراحات.

واستدلَّ بها الشافعيُّ على وجوب رعايةِ المماثلة في القصاص، وعندنا لا قودَ إلا بالسيف، كما جاء في الخبر[1]، والمراد به السلاح، وخبر: «مَن غرَّق غرَّقناه، ومَن حرَّق حرَّقناه»[2]: لم يصحَّ، وبتسليم صحَّته محمولٌ على السياسة، وينبغي أن يُعلمَ أنَّ المعاقَبة بالمِثْل على الإطلاق غيرُ مشروعة، فإنَّ الرجلَ قد يُعاقَب بنحو: يازاني، وقد قالوا: إنَّه إذا قيل له ذلك، فقال: لا بل أنتَ زانٍ، حُدَّ هو والقائل الأوَّل، فليحفظ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى النصر المدلولِ عليه بقوله تعالى: «لينصرنَّه» وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذان بعلوِّ رتبته، وقيل: لعدم ذِكْر المشار إليه صريحاً، ومحلُّه الرفع على الابتداء، وخبرُه قولُه سبحانه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ والباء فيه سببيَّة، والسبب ما دلَّ عليه ما بَعْدُ بطريقِ اللزوم، أي: ذلك النصرُ كائنٌ بسبب أنَّ اللهَ ـ تعالى شأنه ـ قادرٌ على تغليبِ بعض مخلوقاتِه على بعض والمداولةِ بين الأشياء المتضادَّة، ومِن شأنِه ذلك.

---

(١) أخرج ابن ماجه (٢٦٦٧) عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «لا قَوَدَ إلَّا بالسيف». قال البوصيري في الزوائد: في إسناده: جابر الجعفي، وهو ضعيف.
وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢٦٦٨) من حديث أبي بكرة ﷺ. قال البوصيري في الزوائد: في إسناده: مبارك بن فضالة، وهو يدلِّس، وقد عنعنه، وكذا الحسن. اهـ. وقال عبد الحق: طرقه كلها ضعيفة. وقال البيهقي: لم يثبت له إسناد. التلخيص الحبير ٤/ ١٩.

(٢) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١٧١٨٥) من حديث عمران بن نوفل بن يزيد بن البراء، عن أبيه، عن جدِّه. وقال: في الإسناد بعض من يجهل.

وعبَّر عن ذلك بإدخال أَحَدِ المَلَوين[1] في الآخَر، بأن يزيدَ فيه ما ينقص مِن الآخَر، كما هو الأوفقُ بالإيلاج، أو بتحصيلِ أحدهما في مكانِ الآخَر كما قيل، لا بأَنْ يجعلَ بينَ كلِّ نهارين ليلاً، وبين كلِّ ليلَيْن نهاراً، كما قد توهم، لكونه أظهرَ المواد وأوضحها، أو كائنٌ بسببِ أنَّه تعالى خَالقُ الليل والنهار ومصرِّفهما، فلا يَخفى ما يجري فيهما على أيدي عبادِه مِن الخير والشَّرِّ، والبغي والانتصار، كما قيل، وعلى الأوَّل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ بكلِّ المسموعات التي مِن جملتها ما يقول المعاقَب ﴿بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ بكلِّ المبصرات التي مِن جملتها ما يقع منه مِن الأفعال من تتمَّة الحكم لابدَّ منه، إذ لا بُدَّ للناصر مِن القُدرة على نَصْرِ المظلوم، ومِن العِلْم بأنَّه كذلك، وعلى الثاني هو تتميمٌ وتأكيد، والأوَّل أَولى، وقيل: لا يَبعُد أن يكون المعنى: ذلك النصرُ بسببِ تعاقب الليل والنهار وتناوبِ الأزمان والأدوار إلى أن يَجِيْءَ الوقتُ الذي قدَّره المَلِكُ الجبار لانتصارِ المظلوم وغلبته، وفيه أنَّه لا محصّل له مالم يُلاحِظ قدرةَ الفاعل لذلك، وقيل: يجوز أن تكون الإشارة إلى الاتِّصاف بالعفو والغفرانِ، أي: ذلك الاتِّصاف بسبب أنَّه تعالى لم يُؤاخِذ الناسَ بذنوبهم، فيجعل الليلَ والنهار سرمداً فتتعطَّل المصالح، وفيه أنَّه مع كونه لا يُناسب السياقَ غير ظاهر، لاسيَّما إذا لوحظ عطفُ قولِه تعالى: «وأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ» على مدخول الباءِ فيما قبل، نَعَم الإشارةُ إلى الاتِّصاف في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فالمعنى ذلك الاتصافُ بكمال القدرة الدَّال عليه قوله تعالى: «يولج الليلَ في النهار» إلخ، وكمال العلم الدالِّ عليه: «سميع بصير» بسببِ أنَّ الله تعالى الواجب لذاتِه الثابت في نفسه وحدَه، فإنَّ وجوبَ وجودِه ووحدتِه يستلزمان أن يكون سبحانه هو الموجدَ لسائرِ المصنوعات، ولابدَّ في إيجاده لذلك حيث كان على أبدعِ وجهٍ وأحكمه مِن كمال العلم على ما بُيِّنَ في موضعه. وقيل: إنَّ وجوبَ الوجودِ وحدَه متكفل بكلِّ كمال حتى الوحدة، أو المعنى: ذلك الاتِّصاف بسبب أنَّ الله تعالى الثابت الإلهية وحدَه، ولا يصلح لها إلا مَن كان كاملَ القدرة كاملَ العلم.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: المعدوم في حدِّ ذاته، أو الباطل الإلهيَّة، والحصر يحتمل أن يكون غيرَ مرادٍ، وإنَّما جيْءَ به للمشاكلة،

(١) المَلَوان: الليل والنهار. مختار الصحاح (ملا).

ويحتمل أن يكون مراداً على معنى أنَّ جميعَ ما يدعون مِن دونه هو الباطل لا بعضه دون بعض، وقيل هو باعتبارِ كمال بطلانه وزيادة «هو» هنا، دون ما في سورة لقمان مِن نظير هذه الآية[١]؛ لأنَّ ما هنا وَقَعَ بين عشر آياتٍ، كلّ آيةٍ مؤكّدة مرَّة أو مرَّتين، ولهذا أيضاً زيدت اللامُ في قوله تعالى الآتي: «وإنَّ الله لهو الغنيُّ الحميدُ» دونَ نظيره في تلك السورة، ويمكن أن يقال: تقدَّم في هذه السورة ذِكْرُ الشيطان، فلهذا ذُكرت هذه المؤكّدات، بخلافِ سورة لقمان، فإنَّه لم يتقدَّم ذِكْر الشيطان هناك بنحوِ ما ذكر هاهنا. قاله النيسابوريُّ[٢]، ويجوز أن يكون زيادة «هو» في هذا الموضع؛ لأنَّ المعلَّل فيه أزيد منه في ذلك الموضع، فتأمَّل.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على جميعِ الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ عن أن يكون له سبحانه شريكٌ. لا شيءَ أعلى منه تعالى شأناً وأكبر سلطاناً.

وقرأ الحسن: «وإنَّ ما» بكسرِ الهمزة[٣]. وقرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو بكر: «تَدْعُون» بالتاء[٤] على خطابِ المشركين. وقرأ مجاهد، واليمانيُّ، وموسى الأسواري: «يُدْعَون» بالياء التحتية مبنيًّا للمفعول[٥]، على أنَّ الواو لـ «ما»، فإنَّه عبارةٌ عن الآلهة، وأمر التعبير عنها بـ «ما» ثم إرجاع ضميرِ العقلاء إليها ظاهرٌ، فلا تغفل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِن جهة العلوّ ﴿مَآءً﴾ أي: ألم تَعلَم ذلك، وجوّز كون الرؤيةِ بصريَّة نظراً للماء المنزل، والاستفهام للتقرير، وقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: فتصير، وقيل: تصبح على حقيقتها، والحكم بالنظرِ إلى بعض الأماكن تمطر السماء فيها ليلاً، فتصبح الأرضُ مخضرَّة، والأوَّل أولى، عطف على «أنزل»، والفاء مغنية عن الرابط، فلا حاجةَ إلى تقدير

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

(٢) في كتابه: غرائب القرآن ١٧/ ١١٥.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٤.

(٤) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٤.

بإنزاله، والتعقيب عرفيٌّ أو حقيقيٌّ، وهو إمَّا باعتبار الاستعداد التامِّ للاخضرار أو باعتباره نفسِه، وهو كما ترى، وجوّز أن تكون الفاءُ لمحضِ السبب، فلا تعقيبَ فيها، والعدول عن الماضي إلى المضارع؛ لإفادة بقاء أَثَرِ المطر زماناً بعد زمانٍ، كما تقول: أَنْعَمَ عليَّ فلانٌ عامَ كذا فأروح وأغدو شاكراً له. ولو قلتَ: فرحتُ وغدوتُ. لم يقع ذلك الموقعَ، أو لاستحضار الصورة البديعة، ولم ينصب الفعل في جوابِ الاستفهام هنا في شيءٍ مِن القراءات فيما نَعلم، وصرَّح غيرُ واحد بامتناعِه، ففي «البحر»[1]: إنَّه يمتنعُ النصبُ هنا؛ لأنَّ النفيَ إذا دخلَ عليه الاستفهامُ وإن كان يقتضي تقريراً في بعضِ الكلام هو مُعامَل معاملةَ النفي المحضِ في الجواب، ألا ترى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكذلك في الجواب بالفاء إذا أجبتَ النفيَ كان على معنيين في كلٍّ منهما ينتفي الجوابُ، فإذا قلتَ: ما تأتينا فتحدِّثَنا بالنصب، فالمعنى: ما تأتينا محدِّثاً إنَّما تأتينا ولا تحدِّث، ويجوز أن يكون المعنى: إنَّك لا تأتينا، فكيف تحدِّثنا؟ فالحديثُ منتفٍ في الحالتَيْن، والتقرير بأداةِ الاستفهام كالنفي المحض في الجواب يثبت ما دخلته همزةُ الاستفهام، وينفي الجواب فيلزم مِن ذلك هنا إثباتُ الرؤية وانتفاءُ الاخضرارِ، وهو خلافُ المراد، وأيضا جوابُ الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام شَرْطٌ وجزاءٌ، ولا يصحُّ أن يقال هنا: إنْ تَرَ إنزالَ الماء تصبح الأرضُ مخضرَّة؛ لأنَّ اخضرارها ليس مترتِّباً على عِلْمك أو رؤيتك، إنَّما هو مترتِّب على الإنزال. اهـ.

وإلى انعكاسِ المعنى على تقدير النصبِ ذهب الزمخشريُّ[2]، حيث قال: لو نُصِبَ الفعلُ جواباً للاستفهام، لأعطى ما هو عكسُ الغَرَض؛ لأنَّ معناه إثباتُ الاخضرار فيَنقلبُ بالنصبِ إلى نفي الاخضرارِ، لكن تعقَّبه صاحبُ «الفرائد» حيث قال: لا وجهَ لما ذكره صاحبُ «الكشَّاف» ولا يلزم المعنى الذي ذكر، بل يَلزم مِن نصبه أن يكون مشاركاً لقوله تعالى: «أَلَم تَرَ» تابعاً له، ولم يكن تابعاً لـ «أنزل»، ويكون مع ناصبه مصدراً معطوفاً على المصدر التي تضمنه «ألم تر»، والتقدير: أَلَم تكن لك رؤية إنزال الماء من السماء وإصباح الأرض مخضرَّة، وهذا غير مراد من

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٢١.

الآية، بل المراد أن يكون إصباح الأرض مخضرة بإنزال الماء، فيكون حصولُ اخضرارِ الأرض تابعاً للإنزال معطوفاً عليه. اهـ. وفيه بحثٌ.

وقال صاحب «التقريب» في ذلك: إنَّ النصبَ بتقدير «أن»، وهو عَلَم للاستقبال فيجعل الفعل مترقباً والرفع جزم بإخباره، وتلخيصه أنَّ الرفعَ جزمٌ بإثباته، والنصب ليس جزماً بإثباته، لا أنَّه جزمٌ بنفيه، ولا يَخفى أنَّه إن صحَّ في نفسِه لا يطابق مغزى الزمخشريِّ، وعلَّل أبو البقاءِ[١] امتناعَ النصبِ بأمرَيْن: أحدهما: انتفاءُ سببيَّة المستفهم عنه لما بَعْدَ الفاء، كما تقدَّم عن «البحر»[٢]. والثاني: أنَّ الاستفهامَ المذكور بمعنى الخبر، فلا يكون له جوابٌ، وإلى هذا ذهب الفرَّاء[٣]، فقال: «أَلَم تَرَ» خبر، كما تقول في الكلام: اعْلَم أنَّ اللهَ تعالى يفعل كذا فيكون كذا. وقال سيبويه[٤]: وسألته ـ يعني الخليل ـ عن قولِه تعالى: «أَلَم تَرَ أنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِن السماءِ ماءً فتُصبِح الأرضُ مخضرَّةً» فقال: هذا واجبٌ، وهو تنبيه، كأنَّك قلت: أَتسمَعُ ـ وفي النسخة الشرقيَّة مِن «الكتاب»: انتبه ـ أَنْزَلَ اللهُ مِن السماء ماءً، فكان كذا وكذا[٥].

وقال بعض المتأخِّرين: يجوز أن يعتبر تسبُّب الفعل عن النفي، ثم يعتبر دخول الاستفهام التقريريِّ، فيكون المعنى: حصل منكَ رؤيةُ إنزالِ اللهِ تعالى الماءَ فإصباح الأرض مخضرَّة؛ لأنَّ الاستفهامُ المذكورَ الداخل على النفي يكون في معنى نفي النفي وهو إثبات. فإن قلت: الرؤيةُ لا تكونُ سبباً لا نفياً ولا إثباتاً للاخضرار؟ قلت: الرؤية مُقحَمة، والمقصود هو الإنزال، أو هي كنايةٌ عنه؛ لأنَّها تَلزمه مع أنَّه يكفي التشبيهُ بالسبب، كما نصَّ عليه الرضيُّ في: ما تَأْتِينا فتحدِّثنا، في أَحَدِ اعتباريه، واختار هذا في الاستدلال على عدمِ جواز النصب أنَّ النصبَ مخلصُ المضارع للاستقبال اللائقِ بالجزائيَّة على ما قرِّر في علم النَّحْو، ولا يمكن ذلك في الآية الكريمة كما ترى.

---

(١) الإملاء ٤/ ٤٦.

(٢) ٦/ ٣٨٦.

(٣) معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩.

(٤) الكتاب ٣/ ٤٠.

(٥) عبارة الكتاب: أتسمع أن الله أنزل من السماء ماء . . .، والكلام أعلاه منقول من البحر المحيط ٦/ ٣٨٦.

وبالجملة إنَّ الذي عليه المحقِّقون أنَّ مَن جوَّز النصبَ هنا، لم يُصِبْ، وأنَّ المعنى المراد عليه ينقلب.

وقرئ: «مَخْضَرة» بفتح الميم وتخفيف الضاد[1] مثل مَبْقَلة ومَجْزَرة، أي: ذات خُضْرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي: متفضِّل على العباد بإيصالِ منافعهم إليهم برِفْق، ومِن ذلك إنزالُ الماءِ من السماء واخضرارُ الأرضِ بسببه ﴿خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: عليم بدقائقِ الأمور، ومنها مقاديرُ مصالحِ عباده.

وقال ابنُ عباس: «لطيفٌ» بأرزاق عبادِه، «خبيرٌ» بما في قلوبهم مِن القُنُوط. وقال مقاتل: «لطيفٌ» باستخراجِ النبات، «خبيرٌ» بكيفيَّة خَلْقه. وقال الكلبيُّ: «لطيفٌ» بأفعالِه، «خبيرٌ» بأعمال عباده. وقال ابنُ عطيَّة[2]: اللطيفُ هو المُحكِم للأمور برِفْق. ونقل الآمديُّ: أنَّه العالِمُ بالخفيَّات. وأنتَ تَعلم أنَّه المعنى المشهور للخبيرِ، وفسَّره بعضُهم بالمُخبِر، ولا يناسبُ المقامَ كتفسير اللطيفِ بما لا تُدْركه الحاسَّة.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ خَلْقاً ومِلْكاً وتصرُّفاً، فاللام للاختصاصِ التامِّ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الذي لا يفتقر إلى شيءٍ أصلاً ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ الذي حَمِدَهُ بصفاته وأفعالِه جميعُ خَلْقه قالاً أو حالاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جَعَلَ ما فيها مِن الأشياء مذلَّلة لكم معدَّةً لمنافعِكم، تتصرَّفون فيها كيف شئتم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريح لما مرَّ غير مرَّةٍ؛ من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ بالنصب وإسكانِ اللام. وقرأ ابنُ مقسم، والكسائيُّ عن الحسن بضمِّها[3]، وهو معطوف على «ما» عطف الخاصِّ على العامِّ؛ تنبيهاً على غرابة تسخيرِها وكثرة منافعِها. وجوّز أن يكونَ عطفاً على الاسم الجليل.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ على الأوَّل حالٌ منه، وعلى الثاني خبرٌ

(١) الكشاف ٣/ ٢١، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٧.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣١.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

لـ «أنَّ»، وتكون الواو قد عطفت الاسمَ على الاسم والخبرَ على الخبر، وهو خلافُ الظاهر. وفي «البحر»[1]: هو إعرابٌ بعيدٌ عن الفصاحة.

وقرأ السلميُّ، والأعرجُ، وطلحةُ، وأبو حَيوة، والزعفرانيُّ: «والفُلْكُ» بالرفع[2] على الابتداء، وما بعدَه خبرُه، والجملةُ مستأنفة. وجوّز أن تكونَ حاليّةً، وقيل: يجوز أن يكون الرفعُ بالعطف على محلِّ «أنَّ» مع اسمِها، وهو على طرزِ العطف على الاسم.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عن أن تقعَ عليها، فالكلامُ على حذفِ حرف الجرِّ، و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ منصوب أو مجرور، على القولين المشهورين في ذلك، وجعل بعضُهم ذلك في موضع المفعول لأجله بتقدير: كراهة أن تقعَ، عن البصريين، والكوفيون يقدِّرون: لئلا تقع.

وقال أبو حيَّانَ[3]: الظاهر أنَّ «أنْ» تقعُ في موضع نصب بدل اشتمالٍ مِن «السماء»، أي: ويمنعُ وقوعَ السماء على الأرض. وردَّ بأنَّ الإمساك بمعنى اللزوم يتعدَّى بالباء، وبمعنى الكفِّ بـ «عن»، وكذا بمعنى الحفظ والبُخْل كما في «تاج المصادر»[4]، وأمَّا بمعنى المَنْع فهو غيرُ مشهور. وتُعقِّب بأنَّه ليس بشيءٍ؛ لأنَّه مشهور مصرَّح به في كتب اللغة، قال الراغب[5]: يقال: أمسكتُ عنه كذا، أي: مَنَعْتُه، قال تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨] وكُنِّي عن البُخْل بالإمساك. اهـ. وصرَّح به الزمخشريُّ[6] والبيضاويُّ[7] في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] نَعَم الأظهرُ هو الإعرابُ الأوَّل،

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٧، ووردت القراءة في مطبوع القراءات الشاذة لابن خالويه ص٩٦ هكذا: الفُلُكُ. وعزاها للأعرج والسلمي.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٤) وهو لأبي جعفر أحمد بن علي البيهقي، المعروف بجعفرك المقرئ، المتوفى سنة أربع وأربعين وخمس مئة. كشف الظنون ١/ ٢٦٩.

(٥) المفردات (مسك).

(٦) الكشاف ٣/ ٣١٢.

(٧) تفسير البيضاوي ٧/ ٢٣٠ (بهامش حاشية الشهاب).

والمراد بإمساكها عن الوقوع على الأرض حِفْظُ تماسكها بقدرته تعالى بعد أن خَلَقها متماسكةً آناً فآناً، وعدم تعلُّق إرادتِه سبحانه بوقوعها قطعاً قطعاً، وقيل: إمساكه تعالى إيَّاها عن ذلك يَجْعلها محيطةً لا ثقيلة ولا خفيفةً، وهذا مبنيٌّ على اتِّحاد السماء والفَلَك، وعلى قول الفلاسفةِ المشهور بأنَّ الفَلَكَ لا ثقيل ولا خفيفٌ، وبَنَوا ذلك على زعمهم استحالةَ قَبوله الحركةَ المستقيمة، وفرَّعوا عليه أنَّه لا حارٌّ ولا بارد، ولا رَطْبٌ ولا يابس، واستدلُّوا على استحالة قَبوله الحركةَ المستقيمة بما أَبطله المتكلِّمون في كتبهم.

والمعروف مِن مذهب سلفِ المسلمين أنَّ السماءَ غيرُ الفَلَك، وأنَّ لها أَطيطاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَطَّتِ السماءُ وحقّ لها أن تئِطَّ، ما فيها موضعُ قَدَمٍ إلا وفيه مَلَك قائمٌ أو ساجد»[١] وأنَّها ثقيلةٌ محفوظة عن الوقوعِ بمحضِ إرادته سبحانه وقدرته التي لا يتعاصاها شيءٍ، لا لاستمساكها بذاتِها.

وذكر بعض المتكلِّمين لنفي ذلك أنَّها مشاركة في الجسميَّة لسائر الأجسام القابلة للميلِ الهابط فتَقبله كقَبول غيرها، وللبحث فيه على زعم الفلاسفة مجال، والتعبيرُ بالمضارع لإفادة الاستمرار التجدديِّ، أي: يمسكها آناً فآناً مِن الوقوع ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾أي: بمشيئتِه، والاستثناء مفرَّغ من أعمِّ الأسباب، وصحَّ ذلك في الموجب؛ قيل: لصحَّة إرادةِ العموم، أو لكون «يمسك» فيه معنى النفي، أي: لا يتركها تقع بسببٍ من الأسباب، كمزيد مرور الدهور عليها وكثِقَلها بما فيها إلا بسبب مشيئتِه وقوعَها، وقيل: استثناء مِن أعمِّ الأحوال، أي: لا يتركها تقع في حال من الأحوال إلا في كونها ملتبِّسةً بمشيئتِهِ تعالى، ولعلَّ ما ذكرناه أظهر.

وفي «البحر»[٢]: إنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّق بـ «تقع». وقال ابنُ عطيَّة[٣]: يحتمل أن يتعلَّق بـ «يمسك»؛ لأنَّ الكلامَ يقتضي بغير عَمَدٍ ونحوه، فكأنَّه أرادَ إلا بإذنه: فَبِهِ يمسكها. ولو كان كما قال لكان التركيبُ بدون «إلَّا». انتهى.

---

(١) سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة الإسراء.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.

ولعمري إنَّ ما قاله ابنُ عطيَّة لا يقوله مَن له أدنى روية كما لا يَخفى، ثم إنَّه لا دلالةَ في الآية على وقوع الإذن بالوقوع، وقيل: فيها إشارةٌ إلى الوقوع، وذلك يوم القيامة، فإنَّ السماءَ فيه تتشقّق وتقع على الأرض وأنا ليس في ذهني من الآيات أو الأخبار ما هو صريح في وقوع السماء على الأرض في ذلك اليوم، وإنَّما هي صريحةٌ في المَوْرِ والانشقاق والطَّيِّ والتبدُّل، وكلُّ ذلك لا يدلُّ على الوقوع على الأرض فضلاً عن أن يكون صريحاً فيه، والظاهر أنَّ المرادَ بالسماء جنسُها الشاملُ للسماوات السبع، ويؤيِّده ما أخرجه الطبرانيُّ عن ابنِ عباس[1] قال: إذا أتيتَ سلطاناً مهيباً تخاف أن يَسْطُو بك فقل: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ مِن خَلْقه جميعاً، اللهُ أكبرُ ممَّا أَخافُ وأَحذر، أعوذُ بالله الذي لا إله إلا هو الممسِك السماواتِ السبعَ أن يقعنَ على الأرض إلا بإذنه مِن شرِّ عبدِك فلانٍ وجنودِه وأتباعه وأشياعِه مِن الجنِّ والإنس، إلهي كُنْ لي جاراً مِن شرِّهم، جلَّ ثناؤك، وعزَّ جارك، وتباركَ اسمُك لا إلهَ غيرُك. ثلاث مرَّات.

والظاهر أيضاً أنَّ مساق الآية للامتنانِ لا للوعيد، كما جوَّزه بعضُهم، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ حيث سخَّر لهم ما سخَّر، ومَنَّ عليهم بالأمن مما يحولُ بينهم وبين الانتفاعِ به مِن وقوعِ السماء على الأرض. وقيل: حيث هيَّأ لهم أسبابَ معايشِهم، وفَتَحَ عليهم أبوابَ المنافع، وأوضحَ لهم مناهجَ الاستدلال بالآيات الكونيَّة والتنزيليَّة، وجَعْلُ الجملةِ تعليليَّة لما في ضمن: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ» إلخ، أظهر فيما قلنا.

والرأفةُ قيل: ما تقتضي دَرْءَ المضارِّ. والرحمةُ قيل: ما تقتضي جَلْبَ المصالح، ولكون درءِ المضرَّة أهمّ مِن جَلْب المصلحة، قدَّم رؤوف على رحيم، وفي كلٍّ ممَّا امتنَّ به سبحانه دَرْءٌ وجَلْبٌ، نعم قيل: إمساكُ السماءِ عن الوقوع أظهر في الدَّرْءِ، ولتأخيره وجهٌ لا يَخفى. وقال بعضُهم: الرأفةُ أبلغُ مِن الرحمة، وتقديمُ رؤوف؛ للفاصلة. وذهب جمعٌ إلى أنَّ الرحمَة أعمُّ، ولعلَّه الظاهر. وتقديم

(١) الطبراني في الكبير (١٠٥٩٩)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٢٢. وورد فيهما: الله أعز مما أخاف وأحذر، بدل: الله أكبر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

«بالناس»؛ للاهتمام، وقيل: للفاصلة، والفَصْل بين الموضعين ممَّا لا يستحسن.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصرَ ونُطَفاً حسبما فصَّل في مطلعِ السورة الكريمة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند مَجِيْءِ آجالِكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ عند البعث ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ أي: جَحُودٌ بالنِّعم مع ظهورِها، وهذا وصفٌ للجنس بوَصْف بعض أفرادِه. وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وروي ذلك عن ابنِ عباس، ومجاهد. وعن ابنِ عباس أيضاً أنَّه قال: هو الأسودُ بنُ عبدِ الأسد، وأبو جهل، وأُبَيُّ بنُ خَلَف، ولعلَّ ذلك على طريق التمثيل.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ﴾ كلامٌ مستأنفٍ جيْءَ به لزَجْر مُعاصريه عليه الصلاة والسلام مِن أهل الأديان السماويَّة عن منازعتِه عليه الصلاة والسلام ببيان حالِ ما تمسَّكوا به مِن الشرائع، وإظهار خَطَئِهم في النظر، أي: لكلِّ أمَّة معيَّنة مِن الأُمم الخالية والباقية ﴿جَعَلۡنَا﴾ وَضَعْنا وَعَيَّنَّا ﴿مَنسَكًا﴾ أي: شريعةً خاصَّة، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل؛ للقَصْر لا لأمَّةٍ أُخرى منهم، والكلام نظيرُ قولك: لكلٍّ مِن فاطمةَ وزينبَ وهندٍ وحفصة أعطيتُ ثوباً خاصًّا. إذا كنتَ أعطيتَ فاطمةَ ثوباً أحمر، وزينبَ ثوباً أصفرَ وهنداً ثوباً أسودَ، وحفصةَ ثوباً أبيضَ، فإنَّه بمعنى: لفاطمةَ أعطيتُ ثوباً أحمر، لا لأُخرى مِن أخواتها، ولزينبَ أعطيتُ ثوباً أصفر لا لأخرى منهنَّ، وهكذا، وحاصل المعنى هنا عَيَّنَّا كلَّ شريعةٍ لأمَّة معيّنة مِن الأمم بحيث لاتتخطَّى أمَّة منهم شريعتَها المعيَّنة لها إلى شريعةٍ أخرى، لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

وقوله تعالى: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ صفة لـ«منسكاً» مؤكِّدة للقَصْر، والضمير «لكلِّ أمَّة» باعتبار خصوصِها، أي: تلك الأمَّة المعيَّنة ناسكون به وعاملونَ لا أمَّة أخرى؛ فالأمَّة التي كانت مِن مبعث موسى إلى مبعثِ عيسى عليهما السلام مَنْسَكهم ما في التوراة هم عاملونَ به لا غيرهم، والتي كانت مِن مَبعث عيسى عليه السلام إلى مَبعث نبيِّنا ﷺ مَنْسَكهم ما في الإنجيل هم عاملونَ به لا غيرهم، وأمَّا الأمَّة الموجودة عند مبعث النبيِّ ﷺ ومَن بعدهم مِن الموجودين إلى يومِ القيامة، فهم أمَّة واحدة منْسكهم ما في القرآن ليس إلَّا.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ أي: أَمْرِ الدين؛ لترتيب النَّهي على ما قبلها، فإنَّ تعيينه تعالى لكلِّ أمَّة مِن الأمم ـ التي مِن جملتها أمَّته عليه

الصلاة والسلام - شريعة مستقلّة بحيث لا تتخطّى أمّة منهم ما عُيِّنَ لها، موجبٌ لطاعة هؤلاء له ﷺ وعدمِ منازعتهم إيَّاه في أَمْرِ الدين زعماً منهم أنَّ شريعتهم ما عُيِّنَ لآبائهم ممَّا في التوراة والإنجيل، فإنَّ ذلك شريعةٌ لمن مضى قبل انتساخِه، وهؤلاء أمّة مستقلّة شريعتهم ما في القرآن فحسَب، والظاهر أنَّ المرادَ نهيُهم حقيقةً عن النزاع في ذلك.

واختار بعضُهم كونَه كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعِهم المبنيِّ على زعمهم المذكور؛ لأنَّه أنسبُ بقوله تعالى الآتي: «وادع» إلخ، وأَمْرُ الأنسبيَّة عليه ظاهرٌ إلا أنَّه في نفسه خلافُ الظاهر. وقال الزجَّاج[1]: هو نهيٌ له عليه الصلاة والسلام عن منازعتِهم، كما تقول: لا يُضارِبَنَّكَ زيدٌ، أي: لا تضارِبَنَّه، وذلك بطريقِ الكناية، وهذا إنَّما يجوز على ما قيل وبحث فيه في باب المفاعلة؛ للتلازمِ، فلا يجوز في مِثْلِ: لا يَضْرِبَنَّك زيدٌ، أن تريدَ: لا تَضرِبَنَّه. وتعقّب بأنَّه لا يُساعده المقام.

وقرئ: «فلا يُنازِعُنْكَ» بالنون الخفيفة[2]. وقرأ أبو مجلز لاحقُ[3] بنُ حميد: «فلا يَنْزِعُنَّك» بكسر الزاي[4]، على أنَّه مِن النَّزْع بمعنى الجَذْب كما في «البحر»[5]، والمعنى، كما قال ابنُ جني[6]: فلا يَستخِفُنَّكَ عن دينِك إلى أديانهم، فتكونَ بصورةِ المنزوع عن شيء إلى غيرِه.

وفي «الكشاف»[7]: إنَّ المعنى: اثبُتْ في دِينك ثباتاً لا يطمعونَ أن يجذبوكَ ليزيلوكَ عنه، والمراد زيادةُ التثبيت له عليه الصلاة والسلام بما يُهيِّج حميَّته ويُلهِبُ غضبَه لله تعالى ولدينِه. ومِثْله كثيرٌ في القرآن.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣٧.
(٢) الإملاء للعكبري ٤/ ٤٨، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٧.
(٣) في الأصل و(م): ولاحق. وهو خطأ.
(٤) المحتسب ٢/ ٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٨.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.
(٦) المحتسب ٢/ ٨٥.
(٧) ٣/ ٢١.

وقال الزجَّاج[١]: هو مِن نَازَعْتُه فنزَعْتُه أَنْزَعُه، أي: غلبتُه، فالمعنى: لا يَغْلِبُنَّكَ في المنازعة، والمراد بها منازعة الجدال، يعني أنَّ ذلك من باب المغالبة، لكن أنتَ تَعلمُ أنَّها عند الجمهور تقال في كلِّ فِعْل فاعَلْته ففَعَلْته أَفْعله بضمِّ العين، ولا تُكسَر إلا شذوذاً.

وزعم الكسائيُّ ـ وردَّه العلماءُ ـ أنَّ ما كان عينُه أو لامُه حرفَ حَلْقٍ لا يضمُّ بل يُترَك على ما كان عليه، فيكون ما هنا على توجيه الزجَّاج شاذًّا عند الجمهور.

وقال سيبويه كما في «المفصَّل»: وليس في كلِّ شيءٍ يكون هذا ـ أي: باب المغالبة ـ أَلَا ترى أنَّك لا[٢] تقول: نازَعَني فنزَعْته، استُغنيَ عنه بغلبتِه[٣]. ثم إنَّ المرادَ مِن لا يغلبنَّكَ في المنازعة: لا تَقْصُر في منازعتِهم حتى يغلبوكَ فيها، وفيه مبالغةٌ في التثبيت، فليس هناك نهي له ﷺ عن فِعْلِ غيره، هذا وما ذكرنا مِن تفسير المَنْسَك بالشريعة هو رواية عطاءٍ عن ابنِ عباس، واختاره القفَّال، وقال الإمام: هو الأقربُ[٤]. وقيل: هو مصدرٌ بمعنى النسك، أي: العبادة، قال ابنُ عطيَّة: يعطي ذلك: «هم ناسكوه»، وقيل: هو اسمُ زمان، وقيل: اسمُ مكان، وكأنَّ الظاهرَ ناسكون فيه إلَّا أنَّه اتسعَ في ذلك.

وقال مجاهد: هو الذَّبح. وأخرج ذلك الحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الشعب» عن عليِّ بنِ الحسين رضي الله عنهما[٥]؛ وابنُ أبي حاتم عن ابنِ عباس رضي الله عنهما[٦]، وعبد بن حميد عن عكرمة[٧].

وجعل ضمير: «يُنازعنَّكَ» للمشركين، والأمر المتنازَع فيه أَمْرُ الذبائحِ، لما ذكر مِن أنَّ الآيَةَ نزلت بسببِ قول الخزاعيين بُديلِ بنِ ورقاء، وبشرِ بنِ سفيان، ويزيد بن

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣٧.

(٢) ليست في (م).

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٥٦، وكلام سيبويه في الكتاب ٤/ ٦٨.

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٤.

(٥) مستدرك الحاكم ٢/ ٣٩١، وشعب الإيمان للبيهقي (٧٣٢٣)، وفي السنن الكبرى له ٩/ ٢٥٩-٢٦٠. قال الذهبي في تلخيص المستدرك: زهير ذو مناكير، وابن عقيل ليس بالقوي.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٤ (١٤٠١٨).

(٧) الدر المنثور ٤/ ٣٦٩.

خنيس للمؤمنين: مالكم تأكلونَ ما قَتَلْتم ولا تَأكلون ما قَتَلَ اللهُ تعالى[١]؟! ومنهم مِن اقتصر على جعل محلِّ النزاع أمر النسائكِ، وجعله عبارة عن قولِ الخزاعيين المذكور. وتعقَّبه شيخُ الإسلام بأنَّه ممَّا لا سبيلَ إليه أصلاً، كيف لا وأنَّه يَستدعي أن يكون أكلُ الميتةِ وسائر ما يَدينُ به المشركون مِن الأباطيل مِن المناسك التي جعلها اللهُ تعالى لبعض الأُمم، ولا يرتاب في بطلانه عاقل[٢].

وأجيب بأنَّ المعنى عليه: لا ينازعنَّك المشركون في أَمْرِ النسائك، فإنَّه لكلِّ أَمَّة شريعةٌ شرعناها وأعلمناك بها، فكيف يُنازِعون بما ليس له عينٌ ولا أَثَر فيها. وقيل: المعنى عليه: لا تَلتفت إلى نزاع المشركين في أَمْرِ الذبائح، فإنَّا جعلنا لكلِّ أمةٍ من أهل الأديانِ ذِبْحاً هم ذابحوه.

وحاصله: لا تلتفت إلى ذلك، فإنَّ الذبحَ شَرْعٌ قديم للأُمم غير مختصٍّ بأمَّتك، وهذا ممَّا لا شَكَّ في صحَّته، ومن قال بصحّة الآثار وعضّ عليها بالنواجذ لا يكاد يجد أولى منه في بيان حاصل الآية على ما تقتضيه، ومَن لم يكن كذلك ورأى أنَّ الآيةَ متى احتملت معنى جَزْلاً لا محذورَ فيه، قيل به وإن لم يَذْكُره أحدٌ مِن السلف، فعليه بما ذكرناه أوّلاً في تفسير الآية، وأيًّا ما كان، فالظاهر أنَّه إنَّما لم تعطف هذه الجملة كما عطف قوله تعالى: «ولكلِّ أمَّة جعلنا منسكاً ليذكروا» إلخ؛ لضَعْفِ الجامع بينها وبين ما تقدَّمها مِن الآيات، بخلاف ذلك. وفي «الكشف» ـ بياناً لكلام «الكشاف» ـ في توجيه العطفِ هناك وتَرْكِه هنا، أنَّ الجامعَ هناك قويٌّ مقتضٍ للعطفِ، فإنَّ قولَه تعالى: «لكم فيها» أي: في الشعائر منافعُ دينيَّة ودنيويَّة كوجوب نَحْرِها منتهيةً إلى البيت العتيق كالإعادة؛ لما في قوله تعالى: «ليشهدوا منافعَ لهم ويَذْكروا اسمَ الله في أيَّام معلوماتٍ» إلا أنَّ فيه تخصيصاً بالمخاطبين، فعطف عليه: «ولكلِّ أمَّةٍ جعلنا مَنْسكاً» للذِّكْر؛ لتتمَّ الإعادة، والغَرَضُ من هذا الأسلوب أن يبيِّن أنَّه شَرْعٌ قديم، وأنَّه لم يزل متضمِّناً لمنافع جليلة في الدارين، وأمَّا فيما نحن فيه فأين حديثُ النسائك مِن حديث تعدادِ الآيات والنِّعَم الدالَّة على كمال العِلْم والقدرة والحكمةِ والرحمة، ولَعَمْري إنَّ شرعيَّةَ النسائكِ لكلِّ أمَّةٍ وإن كانت مِن

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١١٩.

الرحمة والنعمة، لكن النظر إلى المجانسة بين النِّعَم وما سيق له الكلامُ، فالحالة مقتضية للقَطْع، وذكره هاهنا لهذه المناسبة على نحو خفيٍّ ضيق. اهـ. وهو حَسَن، وظاهره تفسيرُ النُّسُك بالذبح.

وذكر الطيبيُّ أنَّ ما تقدَّم عُطِفَ على قوله تعالى: «ومن يعظم شعائر الله» إلخ، وهو مِن تتمَّة الكلام مع المؤمنين، أي: الأَمْر ذلك، والمطلوب تعظيم شعائرِ الله تعالى، وليس هذا ممَّا يختصُّ بكم، إذ كلُّ أمةٍ مخصوصة بنسكٍ وعبادة.

وهذه الآية مقدِّمة نَهْي النبيِّ ﷺ عمَّا يُوجِبُ نزاعَ القوم تسلية له، وتعظيمٌ لأَمْره حيث جعلَ أمره منسكاً وديناً، يعني شأنُك وشأنُ أمثالِك مِن الأنبياء والمرسلينَ عليهم السلام تَرْكُ المنازعة مع الجُهَّال، وتمكينُهم مِن المناظرة المؤدِّيَة إلى النزاع، وملازمةُ الدعوة إلى التوحيد، أو لكلِّ أمَّة مِن الأمم الخاليةِ المعاندة جعلنا طريقاً وديناً هم ناسكوه، فلا ينازعنَّك هؤلاء المجادلة.

سمَّى دأبَهم نُسُكاً؛ لإيجابهم ذلك على أنفسِهم واستمرارِهم عليه؛ تهكُّماً بهم ومسلاةً لرسوله ﷺ ممَّا كان يَلقى منهم، وأمَّا اتِّصاله بما سبق مِن الآيات، فإنَّ قوله تعالى: «ولا يَزالُ الذين كفروا في مِرْيةٍ منه» يُوجب القلعَ عن إنذار القوم والإياسَ منهم ومتاركتهم، والآيات المتخلِّلة كالتأكيد لمعنى التسلية، فجِيْءَ بقوله تعالى: «لكلِّ أمَّةٍ جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا يُنازعنَّكَ» تحريضاً له عليه الصلاة والسلام على التأسِّي بالأنبياء السالفة في متاركةِ القوم، والإمساكِ عن مجادلتهم بعد الإياسِ مِن إيمانهم، وينصره قولُه تعالى: «الله يحكم بينهم يوم القيامة» فالربطُ على طريقة الاستئنافِ ـ وهو أقوى مِن الربط اللفظي ـ والذي يدور عليه قطبُ هذه السورةِ الكريمة الكلامُ في مجادلةِ القوم ومعانديهم والنعيُ عليهم بشدَّة شَكِيمتهم، ألا ترى كيف افتتَحها بقوله سبحانه: «ومِن الناسِ مَن يجادلُ في الله» وكرَّرها وجعلها أصلاً للمعنى المهتمِّ به، وكلَّما شَرَعَ في أَمْرٍ كرَّ إليه؛ تثبيتاً لقَلْبِ الرسول ﷺ ومسلاةً لصدره الشريف عليه الصلاة والسلام فلا يُقال: إنَّ هذه الآيَةَ واقعةٌ مع أباعدَ عن معناها. انتهى. ولعمري، إنَّه أَبْعَدَ عن ربوع التحقيق وفسَّر الآيَةَ الكريمةَ بما لا يَليق. وقد تعقَّب في «الكشف» اتِّصاله بما ذكر بأنَّه لا وجه له فقد تخلَّل مالا يَصلُح لتأكيد معنى التسلية المذكورة، أعني قوله تعالى: «ومن عاقب» الآيات، لاسيَّما على

ما آثره مِن جعلها في المقاتِلين في الشهر الحرام، ولو سُلِّم فلا مَدخلَ للاستئنافِ، وهو تمهيدٌ لما بعده، أعني قولَه تعالى: «فلا يُنازعنَّك» إلخ، وأما قوله: والذي يدور عليه... إلخ، فهو مُسلَّم، وهو عليه لا له، فتأمَّل، واللهُ تعالى الموفِّق للصواب.

﴿وَٱدۡعُ﴾ أي: وادعُ هؤلاء المنازِعينَ أو الناسَ كافَّةً على أنَّهم داخلونَ فيهم دخولاً أولياً ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادتِه حسبما بيّن في منسكِهم وشريعتهم ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: طريق موصِل إلى الحقِّ، ففيه استعارةٌ مكنيَّة وتَخْييليتُها «على»، وقوله تعالى: ﴿مُّسۡتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ أي: سَوِيٍّ، أو أحدهما تخييلٌ والآخَر ترشيحٌ، ثم المراد بهذا الطريق إمَّا الدينُ والشريعةُ أو أدلتُها، والجملة استئنافٌ في موضوع التعليل.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في أَمْرِ الدين، وقد ظهر الحقُّ ولزمت الحجة ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيدِ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨﴾ من الأباطيل التي مِن جملتها المجادلةُ، فمجازيكم عليها، وهذا إن أُريدَ به الموادعةُ، كما جزم به أبو حيَّان[1]، فهو منسوخٌ بآية القتال، ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ تسليةٌ له ﷺ؛ والخطاب عامٌّ للفريقين المؤمِنين والكافرين، وليس مخصوصاً بالكافرين كالذي قبله، ولا داخلاً في حيِّز القول، وجوّز أن يكون داخلاً فيه؛ على التغليب، أي: واللهُ يَفصِل بين المؤمنينَ منكم والكافرين ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب كما فَصلَ في الدنيا بثبوتِ حُجَجِ المحقِّ دون المُبطِل ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ أي: مِن أَمْرِ الدين، وقيل: الجدال والاختلاف في أَمْرِ الذبائح، ومعنى الاختلاف ذهابُ كلٍّ إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، والاستفهام للتقرير، أي: قد علمتَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلا يَخفى عليه شيءٌ مِن الأشياء التي مِن جملتها أقوالُ الكفرة وأعمالُهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما في السماء والأرض ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ هو كما روي عن ابنِ عباس: اللوح المحفوظ، وذَكر رضي الله عنه أنَّ طولَه مسيرةُ مئة عامٍ، وأنَّه كُتبَ فيه ما هو كائنٌ في عِلْمِ الله تعالى إلى يومِ القيامة[2]. وأنكر

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٨.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٩.

ذلك أبو مسلم وقال: المراد مِن الكتاب الحِفْظ والضبط[1]، أي: إنَّ ذلك محفوظٌ عنده تعالى، والجمهور على خلافه، والمراد مِن الآية أيضاً تسليتُه عليه الصلاة والسلام كأنَّه قيل: إنَّ اللهَ يعلم. . .إلخ، فلا يَهمنَّك أَمْرُهم مع عِلْمنا به وحِفْظنا له.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن العِلْم والإحاطة بما في السماء والأرض، وكَتْبِه في اللوح والحُكْم بينكم، وقيل: «ذلك» إشارةٌ إلى الحُكْم فقط، وقيل: إلى العلْم فقط، وقيل: إلى كَتْب ذلك في اللوح، ولعلَّ كونه إشارةً إلى الثلاثة بتأويل ما ذكر أَوْلَى ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٧٠﴾ فإنَّ عِلْمه وقدرتَه جلَّ جلاله مقتضى ذاتِه، فلا يخفى عليه شيءٌ ولا يَعسُر عليه مقدورٌ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور؛ لمناسبة رؤوس الآي، أو للقَصْر، أي: يَسيرٌ عليه جلَّ وعلا، لا على غيرِه.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكايةٌ لبعض أباطيل المشركين وأحوالِهم الدالَّة على كمال سخافةِ عقولهم وركاكةِ آرائهم، وهي بناءُ أَمْرِهم على غيرِ مبنيٍّ من[2] دليلٍ سمعيٍّ أو عقليٍّ، وإعراضهم عمَّا أُلقيَ إليهم مِن سلطانٍ بيِّنٍ هو أساسُ الدين، أي: يعبدون متجاوزينَ عبادةَ الله تعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجَّة، والتنكيرُ للتقليل، وهذا إشارةٌ إلى الدليل السمعيِّ الحاصل مِن جهة الوحي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إشارةٌ إلى الدليل العقليِّ، أي: ما ليس لهم بجواز عبادته عِلْم مِن ضرورة العقلِ أو استدلالِه، والحاصل: يعبدونَ مِن دون اللهِ مالا دليلَ مِن جهة السمع ولا مِن جهةِ العقل على جواز عبادتِه، وتقديمُ الدليل السمعيِّ؛ لأنَّ الاستنادَ في أكثر العبادات إليه، مع أنَّ التمسُّكَ به في هذا المقام أرجى في الخلاص إنْ حصل لومٌ من التمسُّك بالدليل العقليِّ، وإن شككتَ فارجع إلى نفسِك فيما إذا لامَكَ شخصٌ على فِعْلٍ فإنَّكَ تَجِدها مائلةً إلى الجواب بأنِّي فعلتُ كذا؛ لأنَّك أخبرتني برضاكَ بأنْ أفعله، أكثر مِن ميلها إلى الجواب بأنِّي فعلتُه، لقيام الدليل العقليِّ وهو كذا على رضاكَ به، وإنكارُ ذلك مكابرةٌ، وقد يقال: إنَّما قدَّم هنا ما يشير إلى الدليل السمعيِّ؛ لأنَّه إشارةٌ إلى دليلٍ

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/٦٦.

(٢) ليست في الأصل و(م)، واستدركناه من تفسير أبي السعود ٦/١١٩.

سمعيٌّ يدلُّ على جواز تلك العبادة، منزَّلٍ مِن جهته تعالى، غير مقيَّدٍ بقيد، بخلاف ما يشير إلى الدليل العقليِّ، فإن فيه إشارةً إلى دليل عقليٍّ خاصٍّ بهم، وحاصله أنَّ التقديمَ والتأخيرَ للإطلاق والتقييد وإن لم يكونا لشيءٍ واحدٍ، فافهم، وقال العلامة الطيبيُّ: في اختصاص الدليل السمعيِّ بالسلطان والتنزيل ومقابله بالعِلْم دليلٌ واضح على أنَّ الدليلَ السمعيَّ هو الحجَّة القاطعةُ، وله القهر والغلبةُ، وعند ظهورِه تضمحلُ الآراء وتتلاشى الأقيسة، ومَن عَكَسَ ضلَّ الطريقَ وحُرِمَ التوفيق وبقي متزلزلاً في ورطات الشُّبَه؛ وإن شئت فانظر إلى التنكير في: «سلطاناً» و«علم»، وقسمها على قول الشاعر:

لـه حـاجـبٌ فـي كـلِّ أَمْـرٍ يـشـيـنـه وليس له عن طالِب العُرف حاجبُ[1]

لتعلَم الفَرْق إلى آخِر ما قال، ومنه يُعلَم وجهٌ للتقديم واحتمالٌ آخَر في تنوين «سلطاناً» غير ما قدَّمنا، وظاهره أنَّ الدليلَ السمعيَّ يفيد اليقينَ مطلقاً، وأنَّه مقدَّم على الدليل العقليِّ، ومذهب المعتزلة وجمهورُ الأشاعرة أنَّه لا يفيدُ اليقينَ مطلقاً؛ لتوقُّف ذلك على أمور كلِّها ظنِّيَّة، فتكون دلالته أيضاً ظنِّيَّةً؛ لأنَّ الفَرْعَ لا يزيد على الأصلِ في القوَّة، والحقُّ أنَّه قد يفيدُ اليقينَ في الشرعيَّات دون العقليَّات بقرائنَ مشاهَدَة أو متواترة تدلُّ على انتفاءِ الاحتمالات.

وذكر الفاضل الروميُّ في حواشيه على «شرح المواقف» بعد بحث أنَّ الحقَّ أنَّه قد يفيدُ اليقينَ في العقليَّات أيضاً: وأمَّا أنَّه مقدَّم على الدليل العقليِّ، فالذي عليه علماؤنا خلافُه، وأنَّه متى عارضَ الدليلُ العقليُّ الدليلَ السمعيَ، وجب تأويلُ الدليل السمعيِّ إلى ما لا يعارضه الدليلُ العقليُّ، إذ لا يمكن العملُ بهما ولا بنقيضهما، وتقديمُ السمع على العقل إبطالٌ للأصل بالفَرْع، وفيه إبطالُ الفرع، وإذا أدَّى إثباتُ الشيءِ إلى إبطاله، كان مناقضاً لنفسه وكان باطلاً، لكن ظاهر كلامِ محيي الدين ابنِ العربيِّ قُدِّسَ سِرُّه - في مواضعَ مِن فتوحاته القولُ بأنَّه مقدَّم. ومن ذلك قوله في الباب الثلاث مئة والثمانية والخمسين مِن أبيات:

كـلُّ عِـلْـم يَـشـهـدُ الـشـرعُ لـه هـو عِـلْـم فَـبِـهِ فـلْـتَـعـتَـصِـمْ[2]

(١) سلف ٣/ ٣٧٢، برواية: له حاجب عن كل أمر. . . .
(٢) سلف ١/ ٤١٢.

وإذا خـالـفَـه الـعـقـلُ فَـقُـلْ طـورَكَ الـزَم مـالـكـم فـيـه قَـدَمْ[١]

وقوله في الباب الأربع مئة والاثنين والسبعين:

على السَّمْعِ عوَّلنا فكنَّا أُولي النُّهَى ولا عِلْم فيما لا يكون عنِ السَّمْعِ[٢]

إلى غيرِ ذلك، وهو كأكثر كلامه مِن وراءِ طورِ العقل ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: وما لهم، إلا أنَّه عَدَل إلى الظاهر؛ تسجيلاً عليهم بالظُّلم مع تعليلِ الحكم به، وجوّز أن لا يكونَ هناك عدولٌ، والمراد ما يعمُّهم وغيرَهم ودخولُهم أولى، و«من» في قوله تعالى: ﴿مِن نَّصِيرٍ ۝﴾ سيفُ خطيب، والمرادُ نفي أن يكون لهم بسببِ ظُلمهم مَن يساعدهم في الدنيا بنصرة مذهبِهم وتقريرِ رأيهم ودَفْعِ ما يخالفه، وفي الآخرة بدَفْع العذابِ عنهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ عطف على «يعبدون» وما بينهما اعتراضٌ، وصيغةُ المضارع؛ للدلالة على الاستمرارِ التجدُّدِيِّ، وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حالٌ من الآيات، أي: واضحاتِ الدلالة على العقائِد الحقَّة والأحكام الصادقة، أو على بطلان ما هم عليه مِن عبادةِ غير الله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في وجوههم، والعدول على نحو ما تقدَّم، والخطاب إمَّا لسيِّدِ المخاطَبين ﷺ، أو لمَنْ يصحُّ أن يعرف كائناً مَن كان ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الإنكار، على أنَّه مصدر ميميٌّ، والمراد علامةُ الإنكار أو الأمْرُ المستقبَحُ من التجهُّم والبسور والهيئاتِ الدالَّة على ما يقصدونه، وهو الأنسبُ بقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يَثِبونَ ويَبطشونَ بهم مِن فَرْطِ الغيط والغَضَب لأباطيل أخذوها تقليداً، ولا يَخفى ما في ذلكِ من الجهالة العظيمة، وكان المراد أنَّهم طُول دَهْرِهم يقاربونَ ذلك، وإلا فقد سَطَوا في بعض الأوقاتِ ببعض الصحابة التالين، كما في «البحر»[٣]، والجملة في موقع الحال مِن المضاف إليه، وجوّز أن يكون مِن الوجوه على أنَّ المرادَ بها أصحابُها، وليس بالوجه.

وقرأ عيسى بن عمر: «يُعْرَف» بالبناء للمفعول، «المنكرُ» بالرفع[٤].

---

(١) سلفت ١/ ٤١٢.

(٢) سلف ١/ ٤١٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٨.

﴿قُلْ﴾ على وجهِ الوعيد والتقريعِ ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أأُخاطبكم، أو: أتسمعون فأُخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۗ﴾ الذي فيكم مِن غيظِكم على التالين وسَطْوكم عليهم، أو ممَّا أَصابكم من الضَّجَر بسبب ما تُليَ عليكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو أو هي النارُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ جوابٌ لسؤال مقدَّر كأنَّه قيل: ما هو؟ وقيل: هو مبتدأ، خبرُه قولُه تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ وهو على الوجه الأوَّل جملةٌ مستأنَفة، وجوّز أن يكون خبراً بعد خبر.

وقرأ ابنُ أبي عبلة، وإبراهيمُ بنُ يوسف عن الأعشى، وزيدُ بنُ عليٍّ ﵄: «النَّارَ» بالنصب[1] على الاختصاص، وجملة: «وَعَدَها» إلخ مستأنَفة، أو حالٌ مِن «النار»، بتقدير «قد» أو بدونه، على الخلاف، ولم يجوِّزوا في قراءةِ الرفع الحاليَّة على الإعراب الأوَّل، إذ ليس في الجملة ما يصحُّ عملُه في الحال. وجوّز في النصب أن يكون من باب الاشتغالِ، وتكون الجملةُ حينئذٍ مفسّرةً.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق، وإبراهيمُ بنُ نوح عن قتيبةَ: «النَّارِ» بالجرِّ[2] على الإبدال مِن شرّ، وفي الجملة احتمالا الاستئناف والحاليَّة، والظاهر معنى أن يكون الضمير في «وَعَدَها» هو المفعولَ الثاني، والأوَّل الموصول، أي: وَعَد الذين كفروا إيَّاها، والظاهر لفظاً أن يكون المفعولُ الأوَّلَ والثاني الموصولَ، كأنَّ النارَ وُعدَتْ بالكفَّار لتأكلَهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ النارُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: بُيِّنَ لكم حالٌ مستغربة أو قصَّة بديعةٌ رائقة، حقيقة بأن تُسمَّى مَثَلاً وتسير في الأمصارِ والأعصار، وعبّر عن بيانِ ذلك بلفظ الماضي؛ لتحقُّق الوقوع، ومعنى المَثَل في الأصل المِثْل، ثم خُصَّ بماشُبِّهَ بموردِه مِن الكلام، فصار حقيقةً، ثم استُعير لما ذُكرَ. وقيل: المَثَل على حقيقته.

و«ضُرِبَ» بمعنى جُعِلَ، أي: جُعِلَ لله سبحانه شَبَه في استحقاقِ العبادة، وحكي ذلك عن الأخفشِ[3]، والكلام متَّصل بقوله تعالى: «ويعبدونَ مِن دونِ الله مالم يُنزِّل به سلطاناً». ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ أي: للمَثَل نفسِه استماعَ تدبر وتفكر، أو

(١) الكشاف ٣/ ٢٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٩.

(٢) الإملاء للعكبري ٤/ ٤٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٩.

(٣) معاني القرآن له ٢/ ١٣٧.

لأجله ما أقول، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِره بيانٌ للمَثَل وتفسيرٌ له على الأوَّل، وتعليلٌ لبطلان جَعْلِهم معبوداتِهم الباطلةَ مَثَلاً لله تعالى شأنُه في استحقاق العبادة على الثاني، ومنهم مَن جَعَلَه على ما ذكرنا وعلى ما حُكي عن الأخفش تفسيراً، أمَّا على الأوَّل فللمَثَل نفسِه بمعناه المجازيِّ، وأمَّا على الثاني فلحالِ المَثَل بمعناه الحقيقيِّ، فإنَّ المعنى: جَعَلَ الكفَّارُ لله مَثَلاً فاستمعوا لحالِه وما يُقال فيه، والحقُّ الذي لا يُنكِره إلا مكابِرٌ أنَّ تفسيرَ الآية بما حُكيَ فيه عدولٌ عن المتبادر.

والظاهر أنَّ الخطابَ في «يا أيُّها الناسُ» لجميع المكلَّفين، لكن الخطاب في «تَدْعُونَ» للكفَّار. واستظهر بعضُهم كونَ الخطاب في الموضعين للكفَّار، والدليل على خصوص الأوَّلِ الثاني، وقيل: هو في الأوَّل للمؤمنين ناداهم سبحانه ليبيِّن لهم خَطَأَ الكافرين، وقيل: هو في الموضعين عامٌّ، وأنَّه في الثاني كما في قولك: أنتم يا بني تَميم قَتلتُم فلاناً، وفيه بحثٌ.

وقرأ الحسنُ، ويعقوبُ، وهارون، والخفَّاف، ومحبوب عن أبي عمرو: «يَدْعُونَ» بالياء التحتيَّة مبنيًّا للفاعل[١] كما في قراءة الجمهور. وقرأ اليمانيُّ، وموسى الأسواريُّ: «يُدْعَونَ» بالياء من تحت أيضاً مبنيًّا للمفعول[٢]، والراجعُ للموصول على القراءتين محذوفٌ ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ أي: لا يقدرونَ على خَلْقه مع صِغَره وحقارته، ويدلُّ على أنَّ المرادَ نفيُ القدرةِ السباقُ مع قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي: لخَلْقه، فإنَّ العُرفَ قاضٍ بأنَّه لا يُقال: لن يَحمِلَ الزيدونَ كذا ولو اجتمعوا لِحَمْله، إلَّا إذا أُريد نَفْي القدرة على الحَمْل، وقيل: جاء ذلك مِن النفي بـ «لن»، فإنَّها مفيدةٌ لنفي مؤكَّد فتدلُّ على منافاة بين المَنْفيِّ وهو الخَلْق، والمنفيِّ عنه وهو المعبودات الباطلة، فتفيد عدمَ قدرتها عليه، والظاهر أنَّ هذا لا يستغني عن معونة المقام أيضاً، وأنتَ تَعلمُ أنَّ في إفادة «لن» النفيَ المؤكَّد خلافاً، فذهب الزمخشريُّ[٣] إلى إفادتِها ذلك وأنَّ تأكيدَ النفي هنا

---

(١) النشر ٢/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٩٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٩٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢.

للدلالة على أنَّ خَلْق الذبابِ منهم مستحيلٌ، وقال في «أنموذجه»[1] بإفادتها التأبيدَ.

وذهب الجمهور - وقال أبو حيَّان[2]: هو الصحيحُ - إلى عدم إفادتها ذلك، وهي عندهم أختُ «لا» لنفي المستقبل عند الإطلاق بدون دلالةٍ على تأكيد أو تأبيدٍ، وأنَّه إذا فُهِمَ فهو مِن خارج وبواسطةِ القرائن، وقد يُفهَم كذلك مع كون النفي بـ «لا»، فلو قيل هنا: لا يَخلُقون ذباباً ولو اجتمعوا له، لفُهِمَ ذلك، ويقولون في كلِّ ما يستدلُّ به الزمخشريُّ لمدَّعاه: إنَّ الإفادةَ فيه مِن خارجٍ، ولا يُسلِّمون أنَّها منها، ولن يستطيعَ إثباتَه أبداً، والانتصار له بأن سيفعل في قوَّة مطلقة عامَّة، ولن يفعلَ نقيضه، فيكون في قوَّة الدائمة المطلقة، ولا يتأتَّى ذلك إلا بإفادة «لن» التأبيدَ، ليس بشيءٍ أصلاً كما لا يَخفى، وكأنَّ الذي أوقع الزمخشريَّ في الغَفْلة فقالَ ما قال، اعتماداً على مالا يَنتهضُ دليلاً؛ شدَّة التعصُّب لمذهبه الباطل واعتقادِه العاطل، نسأل الله تعالى أن يَحفظنا من الخِذلان.

والذباب: اسم جنس، ويُجمَع على أَذبَّة وذِبَّان بكسر الذال فيهما، وحكى في «البحر» ضمَّها في ذُبَّان أيضاً[3]، وهو مأخوذٌ من الذَّبِّ، أي: الطَّرْد والدَّفْع، أو مِن الذَّبِّ بمعنى الاختلافِ، أي: الذهاب والعَوْد، وهو أنسبُ بحالِ الذباب؛ لما فيه مِن الاختلاف حتى قيل: إنَّه منحوتٌ مِن ذُبَّ آبَ، أي: طُردَ فرَجعَ.

وجواب «لو» محذوفٌ؛ لدلالة ما قَبله عليه، والجملة معطوفةٌ على شرطيَّة أُخرى محذوفة؛ ثقةً بدلالةِ هذه عليها، أي: لو لم يجتمعوا له ويتعاونوا عليه لن يَخلُقوه، ولو اجتمعوا له وتَعاونوا عليه لن يَخلقوا، وهما في موضع الحالِ، كأنَّه قيل: لن يَخلقوا ذباباً على كلِّ حال.

وقال بعضهم: الواو للحال، و«لو اجتمعوا له» بجوابِه حال، وقال آخرون: إن «لو» هنا لا تَحتاج إلى جواب؛ لأنَّها انسلخت عن معنى الشرطيَّة، وتمحَّضت للدلالة

---

(١) الأنموذج في النحو للزمخشري ص٣٢.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٩٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٧٢، ووقع في مطبوعه: ذباب، بدل: ذبّان. وينظر الدر المصون ٨/ ٣٠٨.

على الفَرْض والتقدير، والمعنى: لن يَخلقوا ذباباً مفروضاً اجتماعهم ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ بيانٌ لعَجْزهم عن أَمْرٍ آخَر دون الخَلْق، أي: وإن يأخذ الذبابُ منها شيئاً ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا يَقدروا على استنقاذِه منه مع غايةِ ضعفه.

والظاهر أنَّ استنقذَ بمعنى نقذَ، وفي الآية مِن تجهيلهم في إشراكهم بالله تعالى - القادرِ على جميع الممكنات المتفرِّد بإيجاد كافَّة الموجودات - عجزةً لا تَقدِر على خَلْق أقلِّ الأحياء وأذلِّها ولو اجتمعوا له، ولا على استنقاذِ ما يَختطفه منهم = مالا يَخفى. والآية وإن كانت نازلةً في الأصنام فقد كانوا كما روي عن ابنِ عباس رضي الله عنهما يَطلُونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل، ويُغلِقون عليها، فيدخل الذبابُ مِن الكوى فيأكله. وقيل: كانوا يضمِّخونها بأنواع الطِّيْبِ، فكان الذبابُ يذهب بذلك، إلا أنَّ الحُكْم عامٌّ لسائر المعبوداتِ الباطلة.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ تذييلٌ لما قبل، إخبار أو تعجُّب، والطالب عابدٌ غيرَ الله تعالى، والمطلوبُ الآلهةُ كما روي عن السُّدِّيِّ، والضحَّاك، وكون عابدِ ذلك طالباً لدعائه إيَّاه واعتقادِه نفعَه، وضَعْفه لطلبه النفعَ من غيرِ جهته، وكون الآخَر مطلوباً ظاهراً كضعفه. وقيل: الطالبُ: الذبابُ يَطلبُ ما يسلبه عن الآلهةِ، والمطلوب: الآلهة على معنى المطلوبِ منه ما يُسلَب.

وروى ابنُ مردويه، وابنُ جرير، وابنُ المنذر عن ابنِ عباس رضي الله عنهما - واختاره الزمخشريُّ - أنَّ الطالبَ الأصنامُ، والمطلوبَ الذبابُ[1]. وفي هذا التذييلِ حينئذٍ إيهامُ التسويةِ وتحقيق أنَّ الطالبَ أضعفُ؛ لأنَّه قدّم عليه أنَّ هذا الخَلْق الأقلَّ هو السالبُ، وذلك طالبٌ خابَ عن طَلِبَته، ولما جعلَ السلب المسلوبَ لهم وأجراهم مجرى العقلاء، أثبت لهم طلباً، ولما بيَّن أنَّهم أضعفُ مِن أذلِّ الحيوانات، نبَّه به على مكان التَّهكُّم بذلك. ومِن الناس مَن اختار الأوَّلَ؛ لأنَّه أنسبُ بالسياق، إذ هو لتجهيلِهم وتحقيرِ آلهتهم، فناسبَ إرادتهم وآلهتهم مِن هذا التذييل.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قال الحسن، والفرَّاء[2]: أي: ما عظَّموه سبحانه

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٧٠، وتفسير الطبري ١٦/ ٦٣٦.

(٢) معاني القرآن له ٢/ ٢٣٠.

حقَّ تعظيمه، فإنَّ تعظيمَه تعالى حقَّ تعظيمِه أن يُوصَف بما وَصَفَ به نفسَه ويُعبَد كما أُمِرَ أن يُعبَد، وهؤلاء لم يَفعلوا ذلك، فإنَّهم عبدوا مِن دونه مَن لا يصلح للعبادة أصلاً، وفي ذلك وصفُه سبحانه بما نزّه عنه سبحانه مِن ثبوت شريكٍ له عزَّ وجلَّ.

وقال الأخفش: أي: ما عرفوهُ حقَّ معرفتِه، فإنَّ معرفتَه تعالى حقَّ معرفتِه التصديقُ به سبحانه موصوفاً بما وَصَفَ به نفسَه، وهؤلاء لم يُصدِّقوا به كذلك؛ لشِرْكهم به وعبادتهم مِن دونه مَن سمعتَ حالَه. وقيل: حقُّ المعرفة أن يُعرَف سبحانه بكُنْهِه، وهذا هو المراد في قوله عليه الصلاة والسلام: «سبحانَكَ ما عرفناكَ حقَّ معرفتك»[(١)].

وأنتَ تَعلم أنَّ الظاهرَ أنَّ قولَه تعالى: «ما قدروا» إلخ، إخبارٌ عن المشركين وذمٌّ لهم، ومتى كان المرادُ منه نفيَ المعرفة بالكُنْه، كان الأمرُ مشتركاً بينهم وبين الموحِّدين، فإنَّ المعرفةَ بالكُنْه لم تقع لأحدٍ من الموحِّدين أيضاً عند المحقِّقين، ويشير إلى ذلك الخبرُ المذكور؛ لدلالته على عدم حصولِها لأكملِ الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وإذا لم تَحصُل له ﷺ، فعدمُ حصولها لغيرِه بالطريق الأَولى، واحتمالُ حَمْلِ المعرفة المنفيَّة فيه على اكتناهِ الصفات لا يَخفى حالُه، وكذا احتمالُ حصولِ المعرفة بالكُنْه له عليه الصلاة والسلام بعد الإخبار المذكور، وقوله ﷺ: «تفكَّروا في آلاءِ الله تعالى، ولا تفكَّروا في ذاته، فإنَّكم لن تَقْدروا قَدْرَه»[(٢)].

والظاهرُ عمومُ الحكم دونَ اختصاصه بالمخاطَبين إذ ذاكَ، وقولُ الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه:

العَجْزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراك

وقولُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه متمًّا له بيتاً:

والبحثُ عن سرِّ ذاتِ الله إشراك[(٣)]

(١) لم نقف عليه، وسلف ٥/ ٣٦.
(٢) سلف ٥/ ٢٠٨.
(٣) أورده ملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/ ٢١٧ دون عزوٍ.

بل قال حجَّةُ الإسلام الغزالي، وشيخُه إمامُ الحرمين، والصوفيَّةُ، والفلاسفة، بامتناعِ معرفته سبحانَه بالكُنْه(١).

ونقل عن أرسطو أنَّه قال في ذلك: كما تعتري العينَ عند التحديقِ في جِرْمِ الشمس ظلمةٌ وكُدورة تمنعها عن تمامِ الإبصار، كذلك تعتري العَقْلَ عن إرادةِ اكتناهِ ذاتِه تعالى حيرةٌ ودهشةٌ تمنَعه عن اكتناهِه سبحانه.

ولا يَخفى أنَّه لا يَصلُح برهاناً للامتناع، وغاية ما يقال: إنَّه خطابي لا يَحصل به إلا الظَّنُّ الغير الكافي في مِثْل هذا المطلب، ومثلُه الاستدلالُ بأنَّ جميعَ النفوس المجرَّدة البشرية وغيرها مهذَّبة كانت أو لا، أنقصُ تجرُّداً وتنزُّهاً مِن الواجب تعالى، والأنقص يمتنع له اكتناه من هو أشدُّ تجرُّداً وتنزُّهاً منه، كامتناع اكتناهِ الماديَّات للمجرَّدات، وكذا الاستدلالُ بكونه تعالى أقرب إلينا مِن حبلِ الوَرِيد، فيمتنع إدراكُه كما يمتنعُ إدراكُ البصرِ ما اتَّصل به، وأحسن مِن ذلك كلِّه ما قيل: إنَّ معرفةَ كُنْهه تعالى ليست بديهيَّة بالضرورة بالنسبة إلى شخصٍ وإلى وقت، فلا تَحصُل لأحدٍ في وقت بالضرورة، فتكون كَسْبيَّةً، والكسب إمَّا بحدٍّ تامٍّ أو ناقص، وهو محال مستلزم لتركُّب الواجب؛ لوجوب تركُّب الحدِّ مِن الجنس القريب أو البعيد ومِن الفَصْل، مع أنَّ الحدَّ الناقصَ لا يفيد الكُنْهَ، وأمَّا الحدّ البسيط بمفردٍ فمحالٌ بداهةً، فإنَّ ذلك المفرد إن كان عينَ ذاته، يلزم توقُّف معرفةِ الشيء على معرفةِ نفسه مِن غير مغايرةٍ بينهما، ولو بالإجمال والتفصيل، كما في الحدِّ المركَّب مع حدِّه التامِّ، وإن كان غيرَه فلا يكون حدًّا، بل هو رَسْمٌ أو مفهومٌ آخر غيرُ محمولٍ عليه، وإمَّا برَسْمٍ تامٍّ أو ناقص، ولا شيءَ منهما ممَّا يفيد الكُنْهَ بالضرورة.

واعتُرض بأنَّ عدمَ إمكان البداهةِ بالنسبة إلى جميع الأشخاصِ وإلى جميع الأوقات يحتاجُ إلى دليلٍ، فربَّما تَحصُل بعد تهذيب النفسِ بالشرائع الحقَّة وتجريدِها عن الكُدورات البشرية والعوائقِ الجسمانيَّة، ولو سَلَّمنا عدمَ إمكان البداهة كذلك، فلنا أن نختارَ كونَ المعرفة مما تُكتَسب بالحدِّ التامِّ المركَّب مِن الجنسِ والفَصْل، وغاية ما يَلزم منه التركُّب العقليُّ، وليس بمحال، إلا إن قلنا بأنَّه

(١) ينظر شرح المواقف للجرجاني ٨/ ١٤٥.

يستلزم التركُّب الخارجيَّ المستلزم للاحتياج إلى الأجزاء المنافي لوجوب الوجود، ونحن لا نقولُ بذلك؛ لأنَّ المختارَ عند جَمْعٍ أنَّ أجزاءَ الماهيَّة مأخوذةٌ مِن أمرٍ واحدٍ بسيط وهي متَّحدة ماهيَّةً ووجوداً، فتكون أموراً انتزاعيَّة لا حقيقيَّةً، فلا استلزام، نعم يكون ذلك إن قلنا: إنَّ الأجزاءَ مأخوذةٌ مِن أمور متغايرة بحسَب الخارج، لكن لا نقول به؛ لأنَّه إن قيل حينئذٍ بتغاير الأجزاء أنفسِها ماهيَّة ووجوداً، كما ذهب إليه طائفة، يَرِدُ لزومُ عدم صحَّة الحَمْل بينها ضرورة أنَّ الموجودَيْن بوجودَيْن متغايرَيْن لا يُحمَل أحدُهما على الآخَر كزيدٍ وعمرٍو، وإن قيل بتغايرهما ماهيَّة لا وجوداً ليصحَّ الحَمْل كما ذهب إليه طائفةٌ أخرى، يَرِدُ لزومُ قيامِ الوجود الواحدِ بالشخص بموجوداتٍ متعدِّدة متغايرة بالماهيَّة، ولو سلَّمنا الاستلزامَ بين التركُّب العقليِّ والتركُّب الخارجيِّ، فلنا أن نقولَ: لا نُسلِّم أنَّه لا شيءَ مِن الرَّسْم مما يفيد الكُنْهَ بالضرورة، كيف وهو مفيدٌ فيما إذا كانت الكُنْهُ لازماً للرَّسْم لزوماً بيِّناً بالمعنى الأخصّ، بل يمكن إفادةُ كلِّ رَسْم إيَّاه على قاعدة الأشعريِّ مِن استناد جميعِ الممكنات إليه تعالى بلا شَرْط، وإن لم تقع تلك الإفادةُ أصلاً، إذ الكلامُ في امتناع حصول الكُنْهِ بالكسب، كذا قالوا.

واستدلَّ الملَّا صدرا(١) على نفي الأجزاء العقليَّة له تعالى بأنَّ حقيقتَه سبحانه آنيَّةٌ محضة، ووجودٌ بَحْتٌ، فلو كان له عزَّ وجلَّ جنسٌ وفصلٌ، لكان جنسُه مفتقراً إلى الفَصْل لا في مفهومه ومعناه، بل في أن يوجدَ ويحصلَ بالفعل، فحينئذٍ يقال: ذلك الجنسُ لا يخلو إمَّا أن يكون وجوداً محضاً أو ماهيَّةً غير الوجود، فعلى الأوَّل يَلزم أن يكون ما فرضنا فَصْلاً ليس بفَصْل، إذ الفَصْل ما به يُوجَد الجنسُ، وهذا إنَّما يُتصوَّر إذا لم يكن حقيقة الجنسِ حقيقة الوجودِ، وعلى الثاني يَلزم أن يكون الواجبُ تعالى ذا ماهيَّة، وقد حقَّق أنَّ نَفْسَ الوجودِ حقيقتُه بلا شَوْب، وأيضاً لو كان له تعالى جنسٌ، لكان مندرجاً تحت مقولةِ الجَوهر، وكان أحدَ الأنواع الجوهريَّة، فيكون مشاركاً لسائرها في الجنس، وقد بُرهنَ على إمكانِها وحقَّق أنَّ

---

(١) لعلَّه: محمد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي، من القائلين بوحدة الوجود، كان يعرف بـ : الأخوند (الأستاذ)، له: أسرار الآيات، والأسفار الأربعة، والشواهد الربوبية، وغيرها. (ت١٠٥٩، وقيل: ١٠٥٠هـ). معجم المطبوعات لسركيس عواد ص١١٧٣، والأعلام ٥/ ٣٠٣.

إمكانَ النوع يَستلزم إمكانَ الجنس المستلزم لإمكان كلٍّ واحد مِن أفراد ذلك الجنِس مِن حيث كونُه مصداقاً له، إذ لو امتنع الوجودُ على الجنس مِن حيث هو جنسٌ، أي: مطلقاً، لكان ممتنعاً على كلِّ فرد، فإذاً يَلزمُ مِن ذلك إمكانُ الواجب، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، ومبنى هذا أنَّ الواجبَ تعالى هو الوجود البَحْتُ، وهو ممَّا ذهب الحكماءُ وأجلَّة مِن المحقِّقين، وليس المراد مِن هذا الوجود المعنى المصدري الذي لا يَجهله أحدٌ، فإنَّه ممَّا لا شَكَّ في استحالة كونه حقيقةَ الواجب سبحانه، بل هو بمعنى مبدأ الآثارِ على ما حقَّقه الجلالُ الدَّواني، وأطال الكلام فيه في حواشيه على «شرح التجريد» وفي شرحه «للهياكل النوريَّة» وفي غيرهما مِن رسائله، وللملا صدرا[١] في هذا المقام والبحث في كلامِ الجلال كلامٌ طويلٍ عريض، وقد حقق الكلام بطرزٍ آخَر يُطلَب من كتابه «الأسفار» بيد أنَّا نَذكُر هنا مِن كلامه سؤالاً وجواباً يتعلَّقان فيما نحن فيه، فنقول:

قال: فإن قلت: كيف يكون ذاتُ الباري سبحانه عينَ حقيقة الوجود، والوجود بديهيُّ التصوُّر، وذات الباري مجهولُ الكُنْه؟

قلت: قد مرَّ أنَّ شدَّة الظهور وتأكُّد الوجود هناك مع ضَعْفِ قوَّة الإدراك وضَعْفِ الوجود هاهنا صارا منشأين لاحتجابِه تعالى عنَّا، وإلَّا فذاته تعالى في غاية الإشراق والإنارة.

فإن رجعت وقلتَ: إن كان ذاتُ الباري نفسَ الوجود، فلا يخلو إمَّا أن يكون الوجودُ حقيقةَ الذات كما هو المتبادَر، أو يكون صادقاً عليها صِدْقاً عَرَضياً، كما يصدقُ عليه تعالى مفهوم الشيء، وعلى الأوَّل إمَّا أن يكون المرادُ به هذا المعنى العام البديهي التصوُّر المنتزَع مِن الموجودات، أو معنىً آخر، والأوَّل ظاهرُ الفساد، والثاني يقتضي أن يكون حقيقته تعالى غيرَ ما يفهم مِن لفظ الوجود، كسائر الماهيَّات، غيرَ أنَّك سمَّيت تلك الحقيقة بالوجود كما إذا سُمِّي إنسان بالوجود، ومِن البين أنَّه لا أَثَر لهذه التسمية في الأحكام، وأنَّ هذا القِسْم راجعٌ إلى الواجب ليس الوجود الذي الكلام فيه، ويلزم أن يكون الواجبُ تعالى ذا ماهيَّة، وقد برهن

(١) جاء في هامش (م) ما نصه: ويسمى صدر الدين الشيرازي، وهو غير صدر الدين الشيرازي معاصر الملا جلال. اهـ. منه. ولعلَّه المترجم آنفاً.

أنَّ كلَّ ذي ماهيَّة معلولٌ، وعلى الثاني وهو أنْ يَصدُق عليه تعالى صِدْقاً عَرَضيًّا، فلا يخفى أنَّ ذلك لا يغنيه عن السبب، بل يستدعي أن يكون موجوداً، ولذلك ذهب جمهور المتأخِّرين مِن الحكماء إلى أنَّ الوجود معدومٌ.

فأقول: منشأ هذا الإشكال حسبان أنَّ معنى كون هذا العامِّ المشتَرك عَرَضيًّا، أنَّ للمعروض موجوديَّة، وللعارض موجوديَّة أخرى، كالماشي بالنسبة إلى الحيوان، والضاحكِ بالقياس إلى الإنسان، وليس كذلك، بل هذا المفهوم عنوان وحكاية للوجوداتِ العينيَّة، ونسبته إليها نسبة الإنسانيَّة إلى الإنسان، والحيوانيَّة إلى الحيوان، فكما أنَّ مفهومَ الإنسانيَّة صحَّ أن يقال: إنَّها عينُ الإنسان؛ لأنَّها مرآةٌ لملاحظته وحكايةٌ عن جهته، صحَّ أن يقال: إنَّها غيرُه؛ لأنَّها أمرٌ نسبيٌّ، والإنسان ماهيَّة جوهريَّة، وبالجملة: الوجود ليس كالإمكان حتى لا يكون بإزائه شيء يكون المعنى المصدريُّ حكايةً عنه، بل كالسواد الذي قد يُراد به نفس المعنى النسبيِّ، أعني الأسوديَّة، وقد يراد به ما يكون به الشيء أسود، أعني الكيفيَّة المخصوصة، فكما أنَّ السوادَ إذا فُرض قيامُه بذاته صحَّ أن يقال ذاتُه عين الأسوديَّة، وإذا فرض جسم متَّصف به، لم يَجز أن يقال: إنَّ ذاته عينُ الأسوديَّة، مع أنَّ هذا الأمر لكونه اعتباراً ذهنيًّا زائدٌ على الجميع، إذا تقرَّر هذا قلنا في الجواب في الترديد الأوَّل: نختار الشقَّ الأوَّل، وهو أنَّ الوجودَ حقيقة الذاتِ قولك في الترديدِ الثاني إمَّا أن يكون ذلك الوجود ما يُفهَم من لفظ الوجود إلخ، نختار منه ما بإزاء ما يفهم مِن هذا اللفظ أعني حقيقةَ الوجود الخارجي الذي هذا المفهوم حكاية عنه، فإنَّ للوجود عندنا حقيقةً في كلِّ موجود، كما أنَّ للسواد حقيقة في كلِّ أسود، لكن في بعض الموجودات مخلوط بالنقائصِ والإعدام، وفي بعضها ليس كذلك، وكما أنَّ السوادات متفاوتةٌ في السواديَّة، بعضها أقوى وأشدّ، وبعضها أضعفُ وأنقص، كذلك الموجودات، بل الوجودات متفاوتة في الموجوديَّة كمالاً ونقصاناً، ولنا أيضاً أن نختار الشَّقَّ الثاني من شِقَّي الترديد الأوَّل، إلا أنَّ هذا المفهومَ الكلِّيَّ وإن كان عَرَضيًّا بمعنى أنَّه ليس له بحسَب كونه مفهوماً عنوانياً وجود في الخارج حتى يكون عيناً لشيء، لكنَّه حكاية عن نفس حقيقة الوجودِ القائم بذاته، وصادق عليه بحيث يكون منشأ صدقه ومصداق حَمْله عليها نفس تلك الحقيقة لا شيئاً آخر يقوم به

كسائر العَرَضيَّات في صدقها على الأشياء، فصدق هذا المفهوم على الوجود الخاصِّ يشبه صدقَ الذاتيَّات مِن هذه الجهة، فعلى هذا لا يردُ علينا قولك: صِدْقُ الوجود عليه لا يغنيه عن السبب؛ لأنَّه لم يكن يغنيه عن السبب لو كان موجوديَّته بسبب عُروض هذا المعنى أو قيام حصَّة من الوجود، وليس كذلك، بل ذلك الوجود الخاصُّ بذاته موجود كما أنَّه بذاته وجود، سواء حُمل عليه مفهومُ الوجود أو لم يُحمَل، والذي ذهب الحكماء إلى أنَّه معدومٌ ليس هو الوجودات الخاصَّة، بل هذا الأمرُ العامُّ الذهنيُّ الذي يَصدُق على الأينات والخصوصيَّات الوجوديَّة. انتهى.

وما أشار إليه من تعدُّد الوجودات، قال به المشّاؤون وهي عند الأكثرين حقائق متخالفة متكثِّرة بأنفسها لا بمجرَّد عارض الإضافة إلى الماهيَّات لتكون متماثلةَ الحقيقة، ولا بالفصول ليكون الوجودُ المطلَق جنساً لها. وقال بعضهم بالاختلافِ بالحقيقة حيث يكون بينها مِن الاختلاف ما بالتشكيك كوجودِ الواجب ووجود الممكن، وكذا وجود المجرَّدات ووجود الأجسام.

وقالت طائفة مِن الحكماء المتألِّهين: إنَّه ليس في الخارج إلا وجود واحد شخصيٌّ مجهولُ الكُنْه وهو ذات الواجب تَعالى شأنه، وأمَّا الممكنات المشاهَدة فليس لها وجودٌ بل ارتباط بالوجود الحقيقيِّ الذي هو الواجبُ بالذات ونسبة إليه، نعم يُطلَق عليها إنَّها موجودةٌ بمعنى أنَّ لها نسبةً إلى الواجب تعالى، فمفهوم الموجود أعمُّ من الوجود القائم بذاتِه، ومن الأمور المنتسبة إليه نحواً مِن الانتساب، وصِدْق المشتقِّ لا ينافي قيام مبدأِ الاشتقاق بذاته الذي مرجعه إلى عدم قيامِه بالغير، ولا كون ما صدق عليه أمراً منتسباً إلى المبدأ لا معروضاً له بوجهٍ من الوجوه كما في الحداد والمشمس، على أنَّ أمرَ إطلاق أهل اللغة وأرباب اللسان لا عبرةَ به في تصحيح الحقائق، وقالوا: كون المشتقِّ مِن المعقولات الثانية والبديهيَّات الأوليَّة لا يصادم كون المبدأِ حقيقة متأصِّلة متشخِّصة مجهولة الكُنْه وثانوية المعقول، وتأصُّله قد يختلف بالقياس إلى الأمور، ولا يَخفى ما فيه من الإنظار، ومثله ما دار على ألسنة طائفة من المتصوِّفة مِن أنَّ حقيقةَ الواجب هو الوجودُ المُطلَق تمسُّكاً بأنَّه لا يجوز أن يكون عدماً أو معدوماً، وهو ظاهرٌ،

ولا ماهيَّة موجودة أو مع الوجود تعليلاً أو تقييداً؛ لما في ذلك مِن الاحتياج والتركيب، فتعَّين أن يكون وجوداً وليس هو الوجود الخاصّ؛ لأنَّه إن أخذَ مع المطلق فمركَّب، أو مجرَّد المعروض فمحتاجٌ؛ ضرورة احتياج المقيّد إلى المطلَق، ومتمسَّكهم هذا أوهن مِن بيت العنكبوت، والذي حقَّقته مِن كتب الشيخ الأكبر ـ قُدِّسَ سرُّه ـ وكُتُبِ أصحابِه أنَّ الله سبحانه ليس عبارة عن الوجودِ المطلَق بمعنى الكليِّ الطبيعيِّ الموجود في الخارج في ضمن أفرادِه، ولا بمعنى أنَّه معقولٌ في النفس مطابقٌ لكلِّ واحد مِن جزئياته في الخارج على معنى أنَّ ما في النفس لو وجد في أيِّ شخص مِن الأشخاص الخارجيَّة، لكان ذلك الشخص بعينه مِن غير تفاوت أصلاً، بل بمعنى عدم التقيُّد بغير، مع كونه موجوداً بذاته، ففي الباب الثاني مِن «الفتوحات»[1]: إنَّ الحقَّ تعالى موجودٌ بذاته لذاته مُطلَق الوجود غير مقيَّد بغيرِه، ولا معلول مِن شيءٍ، ولا علَّة لشيءٍ، بل هو خالقُ المعلولاتِ والعِلَلَ، والملك القدوس الذي لم يزل.

وفي «النصوص» للصدر القونويِّ: تصوُّر إطلاق الحقِّ يشترط فيه أن يتعقَّل بمعنى أنَّه وصف سلبيٌّ لا بمعنى أنَّه إطلاق ضدّه التقييد، بل هو إطلاق عن الوحدة والكثرة المعلومتين، وعن الحَصْر أيضاً في الإطلاق والتقييد، وفي الجَمْع بين كلِّ ذلك والتنزيه عنه، فيصحُّ في حقِّه كلُّ ذلك حالَ تنزُّهه عن الجميع.

وذكر بعض الأَجلَّة أنَّ اللهَ تعالى عند السادة الصوفيَّة هو الوجود الخاصُّ الواجب الوجود لذاتِه القائمُ بذاتِه المتعيّن بذاته، الجامع لكلِّ كمال، المنزَّه عن كلِّ نقص، المتجلِّي فيما يشاء مِن المظاهر مع بقاء التنزيه، ثم قال: وهذا ما يقتضيه أيضاً قولُ الأشعريِّ بأنَّ الوجودَ عينُ الذات مع قولِه الأخير في كتابه «الإبانة» بإجراء المتشابهات على ظواهرِها مع التنزيه بـ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١].

وتحقيق ذلك أنَّه قد ثبت بالبرهان أنَّ الواجب الوجود لذاتِه موجودٌ، فهو إمَّا الوجود المجرَّد عن الماهيَّة المتعيّن بذاته، أو الوجود المقترن بالماهيَّة المتعيَّن بحسبها، أو الماهيَّة المعروضة للوجود المتعيَّن بحسبِها، أو المجموع المركَّب مِن

(١) الفتوحات المكية ١/ ٩٠.

الماهية والوجود المتعيَّن بحسَبها، لا سبيلَ إلى الرابع؛ لأنَّ التركيبَ مِن لوازمه الاحتياج، ولا إلى الثالث؛ لاحتياج الماهية في تحقّقها الخارجي إلى الوجود، ولا إلى الثاني لاحتياج الوجود إلى الماهية في تشخصه بحسبها، والاحتياج في الجميع ينافي الوجوب الذاتيَّ، فتعيَّن الأوَّل، فالواجب سبحانه الموجود لذاته هو الوجود المجرَّد عن الماهيَّة المتعيّن بذاته، ثم هو إمَّا أن يكون مطلقاً بالإطلاق الحقيقيِّ وهو الذي لا يقابله تقييدُ القابلِ لكلِّ إطلاق وتقييد، وإمَّا أن يكون مقيَّداً بقيد مخصوصٍ لا سبيل إلى الثاني؛ لأنَّ المركَّب من القيد ومعروضه مِن لوازمه الاحتياج المنافي للوجوب الذاتيِّ، فتعيَّن الأوَّل، فواجب الوجود لذاتِه هو الوجود المجرَّد عن الماهيَّة القائم بذاته المتعيّن بذاتِه المطلَق بالإطلاق الحقيقيِّ، وأهل هذا القولِ ذهبوا إلى أنَّه ليس في الخارج إلا وجود واحد وهو الوجود الحقيقيُّ، وأنَّه لا موجودَ سواه، وماهيَّات الممكنات أمورٌ معدومة متميِّزة في أنفسها تميُّزاً ذاتيًّا وهي ثابتة في العِلْم لم تشمَّ رائحةَ الوجود ولا تشمّه أبداً، لكن تظهر أحكامها في الوجود المفاض وهو النورُ المضافُ ويسمَّى العماء والحقُّ المخلوق به، وهؤلاء هم المشهورون بأهل الوحدةِ، ولعلَّ القولَ الذي قلناه عن بعضِ الحكماء المتألِّهين يرجع إلى قولهم، وهو طور ما وراءَ طورِ العقل، وقد ضلَّ بسببه أقوامٌ وخرجوا من رِبْقة الإسلام.

وبالجملة: إنَّ القولَ بأنَّ حقيقةَ الواجب تعالى غيرُ معلومة لأحدٍ عِلْماً اكتناهيًّا إحاطيًّا عقليًّا أو حسيًّا ممَّا لا شبهةَ عندي في صحته، وإليه ذهب المحقِّقون حتى أهل الوحدةِ، والقول بخلاف ذلك المحكيِّ عن بعض المتكلِّمين لا ينبغي أن يُلتَفت إليه أصلاً، ولا أدري هل تمكن معرفةُ الحقيقة أو لا تُمكِن، ولعلَّ القولَ بعدم إمكانها أوفقُ بعظمته، تعالى شأنه وجلَّ عن إحاطة العقولِ سلطانه، وأمَّا شهودُ الواجب بالبصر ففي وقوعه في هذه النشأة خلافٌ بين أهل السنة، وأمَّا في النشأة الآخِرة، فلا خلافَ فيه سوى أنَّ بعض الصوفيَّة قالوا: إنَّه لا يقعُ إلا باعتبار مظهرٍ ما، وأمَّا باعتبار الإطلاق الحقيقيِّ فلا، وأمَّا شهوده سبحانه بالقلب فقد قيل بوقوعِه في هذه النشأة لكن على معنى شهودِ نوره القدسيِّ، ويختلف ذلك باختلافِ الاستعداد لا على معنى شهودِ نفس الذات والحقيقة، ومَن ادَّعى ذلك، فقد اشتبهَ عليه الأمر، فادَّعى ما ادَّعى!

هذا، ومِن الناس مَن قال: لا مانعَ مِن أن يراد مِن «حقَّ قَدْره» حقُّ معرفته، ويُراد مِن حقِّ معرفته المعرفةُ بالكُنْه، وكونها غيرَ حاصلة لأحدٍ مؤمناً كان أو غيرَه، لا يضرُّ فيما نحن فيه؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ عظمته تعالى المنافية لما عليه المشركونَ، وكونه سبحانه لا يَعرِفُ أحدٌ كُنْهَ حقيقته يَستدعي العظمةَ على أتمِّ وجه، فتأمَّل جميعَ ذلك، والله تعالى الموفِّق للصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على جميعِ الممكنات ﴿عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ غالب على جميع الأشياء، وقد علمتَ حالَ آلهتهم المقهورة لأذلِ العجزة، والجملة في موضع التعليل لما قَبْلها.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ أي: يختار ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسَّطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: ويَصطفي مِن الناس رسلاً يَدعُون مَن شاء إليه تعالى ويبلِّغونهم ما نزلَ عليهم، والله تعالى أعلم حيث يَجعلُ رسالتَه، وتقديمُ رسلِ الملائكة عليهم السلام؛ لأنَّهم وسائط بينه تعالى وبين رُسُلِ الناس، وعطف «ومن الناس» على «من الملائكة» وهو مقدَّم تقديراً على «رسلاً» فلا حاجةَ إلى التقدير، وإن كان رسلُ كلٍّ موصوفة بغيرِ صفة الآخَرين كما أَشرنا إليه، وقيل: إنَّ المرادَ: الله يصطفي من الملائكة رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلَّفهم به مِن الطاعات، ومِن الناس رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلَّفهم به أيضاً، وهذا شروعٌ في إثبات الرسالة بعد هَدْمِ قاعدة الشرك ورَدْمِ دعائم التوحيد.

وفي بعض الأخبار أنَّ الآية نزلت بسبب قولِ الوليد بنِ المغيرة: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ الآية[1] [ص:٨]، وفيها ردٌّ لقول المشركينَ: الملائكةُ بناتُ الله، ونحوه مِن أباطيلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بجميع المسموعاتِ، ويدخل في ذلك أقوالُ الرسل ﴿بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ بجميع المبصراتِ، ويدخل في ذلك أحوالُ المرسَل إليهم، وقيل: إنَّ السمعَ والبصر كناية عن عِلْمه تعالى بالأشياء كلِّها بقرينة قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لأنَّه كالتفسير لذلك، ولعلَّ الأوَّل أَولى، وهذا تعميمٌ بعد تخصيص، وضمير الجمع للمكلَّفين على ما قيل: أي: يَعلمُ مستقبلَ أحوالِهم وماضيها. وعن الحسن: أوَّلَ أعمالِهم وآخِرَها. وعن عليِّ بنِ

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٦-٣٨٧.

عيسى: إنَّ الضميرَ لرسلِ الملائكة والناس، والمعنى عنده: يَعلمُ ما كان قَبْلَ خَلْقِ الرسل وما يكون بَعْدَ خَلْقهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ كلُّها لا إلى غيرِه سبحانه، لا اشتراكاً ولا استقلالاً؛ لأنَّه المالكُ لها بالذات، فلا يُسْأَلُ ـ جلَّ وعلا ـ عمَّا يَفعل من الاصطفاءِ وغيره، كذا قيل. ويُعلَم منه أنَّه مرتبطٌ بقوله تعالى: «الله يصطفى» إلخ، وكذا وجهُ الارتباط، ويجوز أن يكون مرتبطاً بقوله سبحانه: «يعلم» إلخ، على معنى: وإليه تعالى تُرجَع الأمور يومَ القيامة، فلا أَمْرَ ولا نهيَ لأحدٍ سواه جلَّ شأنه هناك، فيجازي كلًّا حسبما عَلِمَ من أعماله، ولعلَّه أولى ممَّا تقدَّم، ويمكن أن يقال: هو مرتبطٌ بما ذُكرَ لكن على طرزٍ آخر، وهو أن يكون إشارةً إلى تعميم آخر للعِلْم، أي: إليه تعالى تُرجَع الأمورُ كلُّها؛ لأنَّه سبحانه هو الفاعل لها جميعاً بواسطة وبلا واسطة، أو بلا واسطة في الجميع على ما يقوله الأشعريُّ، فيكون سبحانه عالماً بها.

ووجه ذلك على ما قرَّره بعضهم أنَّه تعالى عالمٌ بذاته على أتمِّ وجه، وذاته تعالى علَّة مقتضية لما سواه، والعِلْم التامُّ بالعلَّة أو بجهة كونها علَّة يقتضي العِلْمَ التامَّ بمعلولها، فيكون عِلْمه تعالى بجميع ما عدَاه لازماً لعِلْمه بذاته، كما أنَّ وجودَ ما عداه تابعٌ لوجود ذاتِه سبحانه، وفي ذلك بحث طويلٌ عريض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ أي: صلُّوا، وعبَّر عن الصلاة بهما؛ لأنَّهما أعظمُ أركانها وأفضلُها، والمراد أنَّ مجموعَهما كذلك، وهو لا ينافي تفضيلَ أحدِهما على الآخَر، ولا تفضيلَ القيام أو السجود على كلِّ واحدٍ واحد مِن الأركان، وقيل: المعنى: اخضعوا لله تعالى وخرُّوا له سُجَّداً. وقيل: المراد الأَمْرُ بالركوع والسجود بمعناهما الشرعيِّ في الصلاة، فإنَّهم كانوا في أوَّل إسلامهم يركعونَ في صلاتهم بلا سجودٍ تارةً ويسجدون بلا ركوعٍ أُخرى، فأُمِروا بفعل الأَمْرين جميعاً فيها، حكاه في «البحر»[1]، ولم نَرهُ في أَثَرٍ يُعتمَد عليه، وتوقَّف فيه صاحب «المواهب»[2]،

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٩١.

(٢) المواهب اللدنية للقسطلاني ٥/ ٣٧٢، والأثر روي عن علي ﷺ أنَّه قال: أولُ صلاة ركعنا فيها العصرُ، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «بهذا أُمرتُ». وهو عند البزار في مسنده (٨١٤)، والطبراني في الأوسط (٧٢٥٣)، وقال: لم يروِ هذا الحديث عن أبي الجحَّاف إلا سليمانُ بن قَرْم، تفرَّد به حسين بن محمد.

=

وذكره الفرَّاء[1] بلاسندٍ ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبَّدكم سبحانه به كما يُؤذِن به تَرْكُ المتعلّق، وقيل: المراد أمرهم بأداءِ الفرائض.

وقوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، أو مخصوص بالنوافل، وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه أَمْرٌ بصلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ في موضع الحال مِن ضميرِ المخاطبين، أي: افعلوا كلَّ ذلك وأنتم راجونَ به الفلاحَ غير متيقِّنين به واثقين بأعمالكم.

والآية آيةُ سجدةٍ عند الشافعيِّ، وأحمد، وابنِ المبارك، وإسحاق رضي الله عنهم؛ لظاهر ما فيها من الأَمْرِ بالسجود، ولما تقدَّم عن عقبة بنِ عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسولَ الله، أُفضِّلَت سورةُ الحجِّ على سائر القرآنِ بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يَسجدهما فلا يقرأهما»[2]. وبذلك قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وعمر، وابنه عبد الله، وعثمان، وأبو الدرداء، وأبو موسى، وابن عباس في إحدى الروايتين عنه رضي الله عنهم. وذهب أبو حنيفة، ومالك، والحسن، وابن المسيب، وابنُ جبير، وسفيان الثوري رضي الله عنهم إلى أنَّها ليست آيةَ سجدة، قال ابنُ الهمام[3]: لأنَّها مقرونةٌ بالأمر بالركوع، والمعهود في مِثْله مِن القرآن كونه أمراً بما هو ركنٌ للصلاة بالاستقراء نحو ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣] وإذا جاء الاحتمالُ سقطَ الاستدلال، وما روي مِن حديث عقبةَ، قال الترمذيُّ: إسنادُه ليس بالقويِّ[4]، وكذا قال أبو داود[5] وغيره. انتهى.

= وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٩٣: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه: أبو عبد الرحيم؛ فإن كان هو خالد بن يزيد، فهو ثقة من رجال الصحيح، ولم أجد: أبو عبد الرحيم في رجال الكتب غيره، ولم أجد: أبو عبد الرحمن في الميزان، وهو مجهول.

(١) معاني القرآن له ٢/ ٢٣١.

(٢) سلف ص٢٣٠ من هذا الجزء.

(٣) شرح فتح القدير ١/ ٣٨١.

(٤) عقب حديث عقبة (٥٧٨).

(٥) في المراسيل عقب حديث خالد بن معدان رضي الله عنه (٧٨)، وهو أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلت سورة الحجِّ على القرآن بسجدتين» قال أبو داود: وقد أُسندَ هذا، ولا يصحُّ.

وانتصر الطيبيُّ لإمامه الشافعيِّ رضي الله عنه فقال: الركوعُ مجازٌ عن الصلاة؛ لاختصاصِه بها، وأمَّا السجود فلمَّا لم يختصَّ حُملَ على الحقيقة، لعموم الفائدة، ولأنَّ العدولَ إلى المجاز من غيرِ صارف أو نُكْتة غيرُ جائز، والمقارنة لا تُوجِبُ ذلك. وتعقَّبه صاحبُ «الكشف» بأنَّ للقائلِ أن يقول: المقارنة تحسن ذلك، وتوافق الأمرين في الفَرْضية أو الإيجاب على المذهبين مِن المقتضيات أيضاً، ثم رجع إلى الانتصار فقال: الحقُّ إنَّ السجود حيث ثَبَتَ ليس مِن مقتضى خصوص تلكَ الآية؛ لأنَّ دلالةَ الآية غيرُ مقيَّدة بحال التلاوة، بل إنَّما ذلك بفعل الرسولِ ﷺ أو قولِه، فلا مانعَ من كون الآية دالَّة على فرضيَّة سجودِ الصلاة، ومع ذلك تُشرَع السجدةُ عند تلاوتها؛ لما ثبتَ مِن الرواية الصحيحة، وفيه أنَّه إن أَراد أن ما ثبت دليلٌ مستقلٌّ على مشروعيتها مِن غير مدخلٍ للآية، فذلك على ما فيه ممَّا لم يقله الشافعيُّ ولا غيرُه، وإن أراد أنَّ الآيةَ تدلُّ على ذلك كما تدلُّ على فرضيَّة سجودِ الصلاة، وما ثبت كاشف عن تلك الدلالةِ، فذلك قولٌ بخَفاء تلك الدلالة والتزام أنَّ الأمرَ بالسجود لمطلَق الطلب الشامل لما كان على سبيلِ الإيجاب كما في طلب سجودِ الصلاة، ولما كان على سبيلِ الندب كما في طلب سجود التلاوة، فإنَّه سُنَّةٌ عند الشافعيِّ رضي الله عنه، ولعلَّه يتعيَّن عنده ذلك ولا محذورَ فيه، بل لا معدلَ عنه إن صحَّ الحديث، لكن قد سمعت آنفاً ما قيل فيه، ولك أن تقول: إنَّه قد قويَ بما أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ عن عمرِو بنِ العاص: أنَّ رسولَ الله ﷺ أَقرأه خمسَ عشرةَ سجدةً في القرآن، منها ثلاث في المفصَّل، وفي سورةِ الحجِّ سجدتان[1]. وبعمل كثيرٍ مِن الصحابة رضي الله عنهم الظاهر في كونه عن سماعٍ منه ﷺ أو رؤيةٍ لفعله ذلك.

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: لله تعالى، أو في سبيله سبحانه، والجهاد كما قال الراغبُ[2]: استفراغُ الوُسْع في مدافعةِ العدوِّ، وهو ثلاثة أضرب: مجاهدةُ العدوِّ

(١) أبو داود (١٤٠١)، وابن ماجه (١٠٥٧)، والبيهقي ٢/ ٣١٤.
قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٩: حسَّنه المنذري والنووي، وضعفه عبد الحقِّ وابن القطان، وفيه: عبد الله بن منين، وهو مجهول، والراوي عنه الحارث بن سعيد العتقي، وهو لا يُعرف أيضاً.
(٢) المفردات (جهد).

الظاهر كالكفَّار، ومجاهدةُ الشيطان، ومجاهدة النَّفْس، وهي أكبر مِن مجاهدة العدوِّ الظاهر؛ كما يُشعِر به ما أخرج البيهقيُّ وغيره عن جابرٍ قال: قَدِمَ على رسول الله ﷺ قومٌ غزاة فقال: «قدمتم خيرَ مقدمٍ مِن الجهادِ الأصغر إلى الجهاد الأكبرِ» قيل: وما الجهادُ الأكبر؟ قال: «مجاهدةُ العبدِ هواه»[1] وفي إسناده ضعفٌ مُغتَفر في مِثْله.

والمراد هنا عند الضحَّاك جهادُ الكفَّار حتى يدخلوا في الإسلام، ويقتضي ذلك أن تكون الآيةُ مدنيَّةً؛ لأنَّ الجهاد إنَّما أُمر به بعد الهجرة. وعند عبد اللهِ بنِ المبارك جهادُ الهوى والنفس، والأَولى أن يكون المرادُ به ضروبَه الثلاثةَ، وليس ذلك مِن الجمع بين الحقيقة والمجاز في شيء، وإلى هذا يشير ما روى جماعةٌ عن الحسن أنَّه قرأ الآية وقال: إنَّ الرجلَ ليجاهد في الله تعالى وما ضُربَ بسيف. ويشمل ذلك جهادَ المبتدِعة والفَسَقة؛ فإنَّهم أعداءٌ أيضاً ويكون بزجرهم عن الابتداعِ والفِسْق.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ أي: جهاداً فيه حقًّا، فقُدِّم حقاً وأضيف، على حدِّ: جَرْدُ قَطيفَة، وحذف حرفِ الجرِّ وأُضيف جهاد إلى ضميرِه تعالى على حدِّ قوله:

ويـوم شـهـدنـاه سـلـيـمـاً وعـامـراً[2]

وفي «الكشاف»[3]: الإضافة تكون لأدنَى ملابسة واختصاص، فلمَّا كان الجهادُ مختصًّا بالله تعالى مِن حيث إنَّه مفعول لوجهِه سبحانه ومِن أجله، صحَّت إضافتُه إليه. وأيًّا ما كان فنصب «حقَّ» على المصدريَّة. وقال أبو البقاء[4]: إنَّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: جهاداً حقَّ جهاده. وفيه أنَّه معرفةٌ، فكيف يُوصَف به النكرةُ؟! ولا أظنُّ أنَّ أحداً يزعم أنَّ الإضافةَ إذا كانت على الاتساع لا تفيدُ تعريفاً، فلا يتعرَّف بها المضافُ ولا المضاف إليه، والآية تدلُّ على الأَمْرِ بالجهاد على أتمِّ وجه، بأن يكون خالصاً لله تعالى لا يَخشى فيه لومةَ لائمٍ، وهي مُحكَمة.

(١) الزهد الكبير للبيهقي (٣٧٣)، وأخرجه أيضاً الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٤٩٣.
(٢) سلف ١/ ٢٨٤.
(٣) ٣/ ٢٣-٢٤.
(٤) الإملاء ٤/ ٤٩.

ومن قال كمجاهد، والكلبيِّ: إنَّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فقد أراد بها أن يُطاعَ سبحانه فلا يُعصَى أصلاً، وفيه بحثٌ لا يَخفى، وأخرج ابنُ مردويه عن عبدِ الرحمنِ بنِ عوف رضي الله عنه قال: قال لي عمرُ رضي الله عنه: ألسنا كنا نَقرأ: «وجاهدوا في الله حقَّ جهاده» في آخِرِ الزمان كما جاهدتم في أوَّله؟! قلت: بلى، فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت بنو أميَّة الأمراء، وبنو المغيرةَ الوزراءَ. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» عن المِسْوَر بن مَخْرَمة رضي الله عنه قال: قال عمرُ لعبدِ الرحمن بنِ عوف، فذكره[1]. ولا يَخفى عليكَ حُكمُ هذه القراءة، وقال النيسابوريُّ[2]: قال العلماء: لو صحَّت هذه الروايةُ، فلعلَّ هذه الزيادةَ مِن تفسيره ﷺ، وليست مِن نفس القرآن وإلا لتواترت وهو كما ترى ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: هو جلَّ شأنه اختاركم لا غيره سبحانه، والجملة مستأنفة لبيان علّة الأمر بالجهاد، فإن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته، ومن قرَّبه العظيم يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نَفْسِه بترك ما لا يَرضاه، ففيها تنبيهٌ على المقتضي للجهاد، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: في جميع أمورِه، ويدخل فيه الجهاد دخولاً أوليًّا ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ضيقٍ بتكليفِ ما يشتدُّ القيام به عليكم إشارةً إلى أنَّه لا مانعَ لهم عنه، والحاصل أنَّه تعالى أَمَرهم بالجهاد، وبيَّن أنَّه لا عذر لهم في تركه حيث وجد المقتضي وارتفع المانعُ.

ويجوز أن يكون هذا إشارةً إلى الرخصة في تَرْكِ بعضِ ما أمرهم سبحانه به حيث شقَّ عليهم لقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيءٍ فَأْتُوا منه ما استطعتم»[3] فانتفاءُ الحَرَج على هذا بعد ثبوتِه بالترخيص في الترك بمقتضى الشرع، وعلى الأوَّل انتفاء الحَرَج ابتداء، وقيل: عدمُ الحَرَج بأن جعلَ لهم مِن كلِّ ذَنْبٍ مخرجاً بأن رخَّص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة وشرعَ لهم الكفَّارات في حقوقه، والأروشَ والدِّيَاتِ في حقوق العباد، ولا يَخفى أنَّ تعميمَه للتوبة ونحوها خلافُ الظاهر، وإن روي ذلك مِن طريق ابنِ شهاب عن ابنِ عباس رضي الله عنهما.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٧١، وخبر المسوَر عند البيهقي في الدلائل ٦/ ٤٢٢.
(٢) غرائب القرآن ١٧/ ١٢٤.
(٣) سلف ٧/ ٤٤٠.

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: إنَّ الظاهرَ أنَّ «حقَّ جهادِه» تعالى لما كان متعسِّراً ذيَّله بهذا؛ ليبيِّن أنَّ المرادَ ما هو بحسَب قدرتِهم، لا ما يليقُ به جلَّ وعلا مِن كلِّ الوجوه[١].

وذكر الجلال السيوطيُّ أنَّ هذه الآية أصلُ قاعدة: المشقَّة تَجلِبُ التيسيرَ، وهو أوفقُ بالوجه الثاني فيها.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب على المصدريَّة بفعل دلَّ عليه ما قبله مِن نَفْي الحَرَج بعد حذفِ مضاف، أي: وسَّع دينكم توسعةَ ملَّة أبيكم، أو على الاختصاص بتقدير: أعني بالدين ونحوه، وإليهما ذهب الزمخشريُّ[٢] وقال الحوفيُّ وأبو البقاء[٣]: نصب على الإغراء، بتقدير: اتَّبعوا أو الزموا أو نحوه. وقال الفرَّاء[٤]: نصبَ بنزعِ الخافض، أي: كملَّة أبيكم، والمراد بالملَّة إمَّا ما يعمُّ الأصولَ والفروعَ، أو ما يخصُّ الأصولَ، فتأمَّل ولا تَغفل.

و«إبراهيم» منصوب بمقدَّر أيضاً، أو مجرورٌ بالفتح على أنَّه بدل أو عطف بيان، وجَعْلُه عليه السلام أباهم؛ لأنَّه أبو رسولِ الله ﷺ وهو كالأبِ لأمَّته مِن حيث إنَّه سببٌ لحياتهم الأبديَّة ووجودِهم على الوجه المعتدِّ به في الآخرة، أو لأنَّ أكثرَ العرب كانوا مِن ذريته عليه السلام فغلبوا على جميع أهل مِلَّته ﷺ.

﴿هُوَ﴾ أي: الله تعالى، كما روي عن ابنِ عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وسفيان، ويدلُّ عليه ما سيأتي بعد في الآية، وقراءةُ أبيٍّ رضي الله عنه: «الله»[٥] ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قِبْلِ نزولِ القرآن، وذلك في الكتب السماويَّة كالتوراة والإنجيل ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في القرآن، والجملة مستأنفة، وقيل: إنَّها كالبدلِ من قوله تعالى: «هو اجتباكم» ولذا لم تُعطف، وعن ابنِ زيد، والحسن أنَّ

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣١٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤.

(٣) الإملاء ٤/ ٤٩ لكن فيه: اتَّبعوا ملة إبراهيم. وكذا نقله عنه أبو حيَّان في البحر المحيط ٦/ ٣٩١.

(٤) معاني القرآن له ٢/ ٢٣١.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٩١.

الضميرَ لإبراهيم عليه السلام، واستظهره أبو حيَّان[١]؛ للقُرب، وتسميته إيَّاهم بذلك مِن قَبْلُ في قوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله هذا سببٌ لتسميتهم بذلك في هذا؛ لدخول أكثرِهم في الذُّرِّيَّة، فجعل مسمَّياً لهم فيه مجازاً، ويَلزم عليه الجمع بين الحقيقة والمجاز، وفي جوازه خلافٌ مشهور، وقال أبو البقاء[٢]: المعنى على هذا: وفي هذا بيان تسميتِه إيَّاكم بهذا الاسم، حيث حكى في القرآن مقالته. وقال ابنُ عطيَّة: يقدَّر عليه: وسمَّيتكم في هذا المسلمين[٣]. ولا يَخفى ما في كلٍّ ذلك مِن التكلُّف.

واستدلَّ بالآية مَن قال: إنَّ التسميةَ بالمسلمين مخصوصٌ بهذه الأمَّة، وفيه نظر.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يومَ القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أنَّه قد بلَّغكم، ويدلُّ هذا القولُ منه تعالى على قَبول شهادتِه عليه الصلاة والسلام لنفسه اعتماداً على عصمتِه، ولعلَّ هذا مِن خواصِّه ﷺ في ذلك اليوم، وإلا فالمعصومُ يُطالَب في الدنيا بشاهدين إذا ادَّعى شيئاً لنفسِه، كما يدلُّ على ذلك قصَّة الفرس وشهادة خزيمة رضي الله عنه[٤]، وأيضاً لو كان كلُّ معصومٍ تُقبَل شهادته لنفسِه في ذلك اليوم؛ لما احتيج إلى شهادةِ هذه الأمَّة على الأُمَم حين يَشهدُ عليهم أنبياؤهم فينكرونَ كما ذكر ذلك كثيرٌ من المفسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾. وردَ أنَّه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال لأنبيائهم: هل بلَّغتم أمَمَكم؟ فيقولون: نعم بلَّغناهم. فيُنكرون، فيُؤتى بهذه الأمَّة فيَشهدونَ أنَّهم قد بلَّغوا، فتقول الأُممُ لهم: مَن أينَ عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطقِ على لسان نبيِّه الصادق، أو «شهيداً عليكم» بإطاعة مَن أطاع وعصيان مَن عصى، ولعلَّ عِلْمه ﷺ بذلك بتعريف اللهِ تعالى بعلامات تَظهر له في ذلك الوقت تُسوِّغ له عليه الصلاة والسلام الشهادةَ، وكون أعمال أمَّته تُعرَض عليه عليه الصلاة والسلام وهو في البرزخ كلَّ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٩١.

(٢) الإملاء ٤/ ٥٠.

(٣) هذا الكلام لأبي حيَّان في البحر المحيط ٦/ ٣٩١ وليس لابن عطية، قاله عقب قول ابن عطية [في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥]: وهذه اللفظة ـ يعني قوله: وفي هذا ـ تُضعِف قولَ من قال: الضمير لإبراهيم، ولا يتوجه إلا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف. انتهى.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٣٠١-٣٠٢، وأحمد (٢١٨٨٣).

أسبوع أو أكثر أو أقلّ[(١)] - إذا صحّ - لا يُفيد العِلْم بأعيان ذوي الأعمال المشهود عليهم، وإلا أشكل ما رواه أحمد في «مسنده» والشيخان عن أنسٍ وحذيفة قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «ليَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتى إذا رأيتُهم وعرفتُهم، اخْتُلِجوا دُوني، فأقول: يا ربِّ أُصَيْحابي أُصَيْحابي، فيقال لي: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدكَ»[(٢)]، وربَّما أَشكل هذا على تقدير صحَّة حديث العَرْض سواء أفادَ العِلْم بالأعيان أم لا، وإذا التزم صحَّة ذلك الحديث وأنَّه ﷺ لم يَستحضر أعمالَ أولئك الأقوام حين عرفهم، فقال ما قال، وأنَّ المرادَ مِن: «إنَّكَ لا تدري» إلخ، مجرَّد تعظيم أمرِ ما أحدثوه بعد وفاتِه عليه الصلاة والسلام لا نفي العِلْم به، يبقى مَن مات مِن أمَّته طائعاً أو عاصياً في زمان حياته ﷺ ولم يكن عَلِمَ بحاله أصلاً كمَن آمن ومات ولم يَسمع ﷺ به، فإنَّ عَرْضَ الأعمال في حقِّه لم يَجِئْ في خبر أصلاً، والقول بعدم وجودِ شخص كذلك بعيدٌ، ومَن زعم أنَّه ﷺ يَعلمُ أعمالَ أمَّته ويعرفهم واحداً واحداً حيًّا وميتاً، ولذا ساغت شهادتُه عليهم بالطاعة والمعصية يومَ القيامة = لم يأتِ بدليلٍ، والآية لا تَصلُح دليلاً له إلا بهذا التفسير وهو محلُّ البحث، على أنَّ في حديث الإفك ما يدلُّ على خلافه.

وزعم بعضُهم أنَّ معرفتَه ﷺ للطائع والعاصي مِن أمَّته؛ لما أنه يَحضُر سؤالَهم في القبر عنه عليه الصلاة والسلام كما يُؤذِن بذلك ما ورد أنَّه يقال للمقبور: ما تقول في هذا الذي بُعِثَ إليكم؟ واسمُ الإشارة يستدعي مشاراً إليه محسوساً مشاهداً، وهو كما ترى. واختار بعضٌ أنَّ الشهادةَ بذلك على بعضِ الأمَّة وهم الذين كانوا موجودينَ في وقته ﷺ وعَلِمَ حالَهم مِن طاعة وعصيان.

---

(١) أخرج البزار في البحر الزخاز (١٩٢٥) من طريق زاذان، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» قال: وقال رسول الله ﷺ: «حياتي خير لكم تحدثون ونحدث لكم، ووفاتي خير لكم، تُعرَض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدتُ الله عليه، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم».
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ١٩٤ عن بكر بن عبد الله بنحوه، وهو مرسل، وينظر السلسلة الضعيفة للألباني (٩٧٥).

(٢) مسند أحمد (١٣٩٩١)، والبخاري (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤) عن أنس رضي الله عنه.
ومسند أحمد (٢٣٢٩٠)، ومسلم (٢٢٩٧) عن حذيفة رضي الله عنه.

والخطاب في «عليكم» إمَّا خاصٌّ بهم، أو عامٌّ على سبيلِ التغليب، وفيه ما فيه، فتدبَّر، وقيل: «على» في «عليكم» بمعنى اللام كما في قوله تعالى ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] فالمعنى: شهيداً لكم، والمراد بشهادته لهم تزكيتُه إيَّاهم إذا شَهدوا على الأمم، ولا يَخفى بعدُه، واللام متعلِّقة بـ «سمَّاكم» على الوجهين في الضمير، وهي للعاقبة على ما قيل، وقال الخفاجيُّ(١): لا مانعَ مِن كونها للتعليل؛ فإنَّ تسمية اللهِ تعالى أو إبراهيمَ عليه السلام لهم بالمسلمين حُكْمٌ بإسلامهم وعدالتهم، وهو سبب لقَبول شهادةِ الرسول عليه الصلاة والسلام الداخل فيهم دخولاً أوليًّا وقَبول شهادتهم على الأمم. وفيه نوعُ خفاء.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: فتقرَّبوا إليه تعالى لِمَا خصَّكم بهذا الفَضل والشرف بأنواع الطاعات، وتخصيص هذين الأمرين بالذِّكْر؛ لإنافتهما وفَضْلهما ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: ثِقُوا به تعالى في جميع أموركم ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولِّي أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ هو، إذ لا مِثْلَ له تعالى في الولاية والنصرةِ، فإنَّ مَن تولَّاه لم يَضعْ، ومَن نصره لم يُخذَل، بل لا وليَّ ولا ناصرَ في الحقيقة سواه عزَّ وجلَّ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ قصارى الكمال الاعتصامُ بالله تعالى وتحقيق مقام العبوديَّة وهو وراء التسميةِ والاجتباء، وجوّز أن يكون «هو مولاكم» تتميماً للاجتباء، وليس بذاكَ.

❁ ❁ ❁

هذا. ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كَيْدَ عدوِّهم مِن الشيطان والنَّفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ ويَدخل في ذلك الشيطانُ والنَّفْس، وصِدْقُ الوصفَيْن عليهما ظاهرٌ جدًّا، بل لا خوان ولا كفور مِثْلهما ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلخ، فيه إشارةٌ إلى حالِ أهل التمكين وأنَّهم مهديُّون هادون، فلا شطحَ عندهم ولا يضلُّ أحدٌ بكلماتهم. ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصْرٖ مَّشِيدٍ﴾ قيل: في القرية الظالمة إشارةٌ إلى القَلْب الغافل عن اللهِ تعالى، وفي البئر المعطَّلة

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣١٨.

إشارةٌ إلى الذهن الذي لم يستخرج منه الأفكار الصافية، وفي القَصْر المشيد إشارةٌ إلى البَدَن المشتمل على حُجُرات القوى.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فيه إشارةٌ إلى سوء حالِ المحجوبينَ المنكِرين، فإنَّ قلوبَهم عُميٌ عن رؤية أنوارِ أهل الله تعالى، فإنَّ لهم أنواراً لا تُرى إلا بعينِ القلب، وبهذه العينِ تُدرَك حقائقُ الملك ودقائقُ الملكوت، وفي الحديث: «اتَّقوا فراسةَ المؤمن؛ فانَّه يَنظرُ بنورِ الله تعالى»(١).

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قد تقدَّم الكلامُ في اليوم وانقسامه، فتذكَّر. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: سترٌ عن الأغيارِ مَن أن يقفوا على حقيقتهم، كما يشير ما يَروونه مِن الحديث القدسيِّ: «أوليائي تحت قبابي لا يَعرفُهم أحدٌ غيري»(٢).

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: وهو العِلْمُ اللَّدُنيُّ الذي به غذاءُ الأرواح. وقال بعضهم: رزقُ القلوبِ حلاوةُ العرفان، ورزقُ الأسرار مشاهدةُ الجمال، ورزقُ الأرواح مكاشفةُ الجلال. وإلى هذا الرزقِ يشير عليه الصلاة والسلام بقوله: «أَبِيْتُ عند ربِّي يُطعمني ويَسقيني»(٣).

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآيات، على قول مَن زعم صحَّة حديثِ الغرانيق إلى أنَّه ينبغي أن يكون العبدُ فناء في إرادة مولاه عزَّ وجلَّ، وإلا ابتُلي بتلبيسِ الشيطان؛ ليتأدَّب، ولا يبقى ذلك التلبيسُ، لمنافاته الحكمة. ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن أوطانِ الطبيعة في طلب الحقيقة ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ بسيف الصِّدْق والرياضة «أو مَاتُوا» بالجذبة عن أوصافِ البشريَّة ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو رزقُ

---

(١) سلف ١٠/١١٦.

(٢) هكذا ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/٣٥٧، ولم نقف عليه مسنداً.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠٣٥)، وهو عند البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (١١٠٤)(٦٠) من حديث أنس، والبخاري (١٩٦٢)، ومسلم (١١٠٢) عن ابن عمر، والبخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣) عن أبي هريرة بنحوه رضي الله عنهم أجمعين.

دوامِ الوصلة كما قيل: أو هو كالرزقِ الكريم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ فيه إشارةٌ إلى نَصْرِ السالك الذي عاقب نفسَه بالمجاهدة بعد أن عاقبته بالمخالفة، ثم ظلمته باستيلاءِ صفاتها.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَخَذَ الصوفيَّة منه تَرْكَ الجِدال مع المنكرين. وذكر بعضُهم أنَّ الجدالَ معهم عَبَثٌ كالجدال مع العنِّين في لذَّة الجماع. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ الآيةُ، فيه إشارةٌ إلى ذمِّ المتصوِّفة الذين إذا سمعوا الآياتِ الرادَّةَ عليهم، ظهر عليهم التجهُّم والبسور، وهم في زماننا كثيرونَ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ إلخ، إشارة إلى ذمِّ الغالين في أولياء الله تعالى حيث يستغيثونَ بهم في الشدَّة، غافلينَ عن الله تعالى، وينذرونَ لهم النذورَ، والعُقلاء منهم يقولون: إنَّهم وسائلُنا إلى الله تعالى وإنَّما نَنذُر لله عزَّ وجلَّ ونجعلُ ثوابه للوليِّ، ولا يَخفى أنَّهم في دعواهم الأُولى أشبهُ الناس بعبدةِ الأصنام القائلينَ: إنَّما نعبدهم؛ ليقرِّبونا إلى الله زُلفى. ودعواهم الثانية لا بأسَ بها لو لم يَطلبوا منهم بذلك شفاءَ مريضهم أو ردَّ غائبهم أو نحو ذلك، والظاهر مِن حالهم الطَّلَبُ، ويُرشِد إلى ذلك أنَّه لو قيل: انْذُروا للهِ تعالى واجعلوا ثوابَه لوالديكم؛ فإنَّهم أحوجُ مِن أولئك الأولياء، لم يَفعلوا، ورأيتَ كثيراً منهم يَسجدُ على أعتابِ حَجَرِ قبور الأولياء، ومنهم مَن يُثبت التصرُّفَ لهم جميعاً في قبورهم، لكنَّهم متفاوتونَ فيه حسَب تفاوت مراتِبهم، والعلماء منهم يَحصرون التصرُّف في القبور في أربعة أو خمسة، وإذا طُولبوا بالدليل، قالوا: ثبتَ ذلك بالكشف، قَاتَلَهم اللهُ تعالى ما أجهلهم وأَكْثَرَ افترائهم، ومنهم مَن يزعم أنَّهم يَخرجونَ مِن القبور ويتشكَّلون بأشكالٍ مختلفة، وعلماؤهم يقولون: إنَّما تَظهر أرواحُهم متشكِّلة وتطوفُ حيث شاءت، وربَّما تشكَّلت بصورة أسدٍ أو غزال أو نحوه، وكلُّ ذلك باطلٌ لا أصلَ له في الكتاب والسُّنَّة وكلامِ سَلَفِ الأمَّة، وقد أفسد هؤلاء على الناس دينَهم، وصاروا ضُحَكَةً لأهل الأديان المنسوخةِ من اليهود والنصارى، وكذا لأهل النِّحَل والدهريَّة، نسألُ اللهَ تعالى العفوَ والعافية.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ شاملٌ لجميع أنواع المجاهدة، ومنها جهادُ النَّفْس وهو بتزكيتها بأداءِ الحقوق وتَرْك الحظوظ، وجهادُ القلب بتصفيته وقَطْع تعلُّقه عن الكونَيْن، وجهادُ الروح بإفناء الوجود، وقد قيل:

وجـودُك ذنـبٌ لا يُـقـاسُ بـه ذنـبُ[1]

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ تمسَّكوا به جلَّ وعلا في جميع أحوالكم «هو مولاكم» على الحقيقة ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ في إفناء وجودِكم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ في إبقائكم، وما أَعظم هذه الخاتمةَ لقوم يعقلون، وسبحانَ ربِّك ربِّ العزةِ عمَّا يصفونَ، وسلامٌ على المرسَلِين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

تمَّ والحمد لله الجزء السابع عشر، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثامن عشر، وأوله: سورة «المؤمنون»

---

(١) هذا عجز بيت سمعه الجُنيد من جارية بدرب القراطيس، وصدره:

وإن قـلـتُ مـا أذنـبـتُ قـالـت مـجـيـبـةً

والبيت مذكور في ترجمة الجنيد في وفيات الأعيان ١/ ٣٧٤، والوافي بالوفيات ١١/ ٢٠٢، وشذرات الذهب ٣/ ٤١٨، وذكره أيضاً ابن حجة الحموي في ثمرات الأوراق ص٦٨ نقلاً عن وفيات الأعيان. مع العلم بأنه ورد في المصادر عدا الشذرات: حياتك، بدل: وجودك.